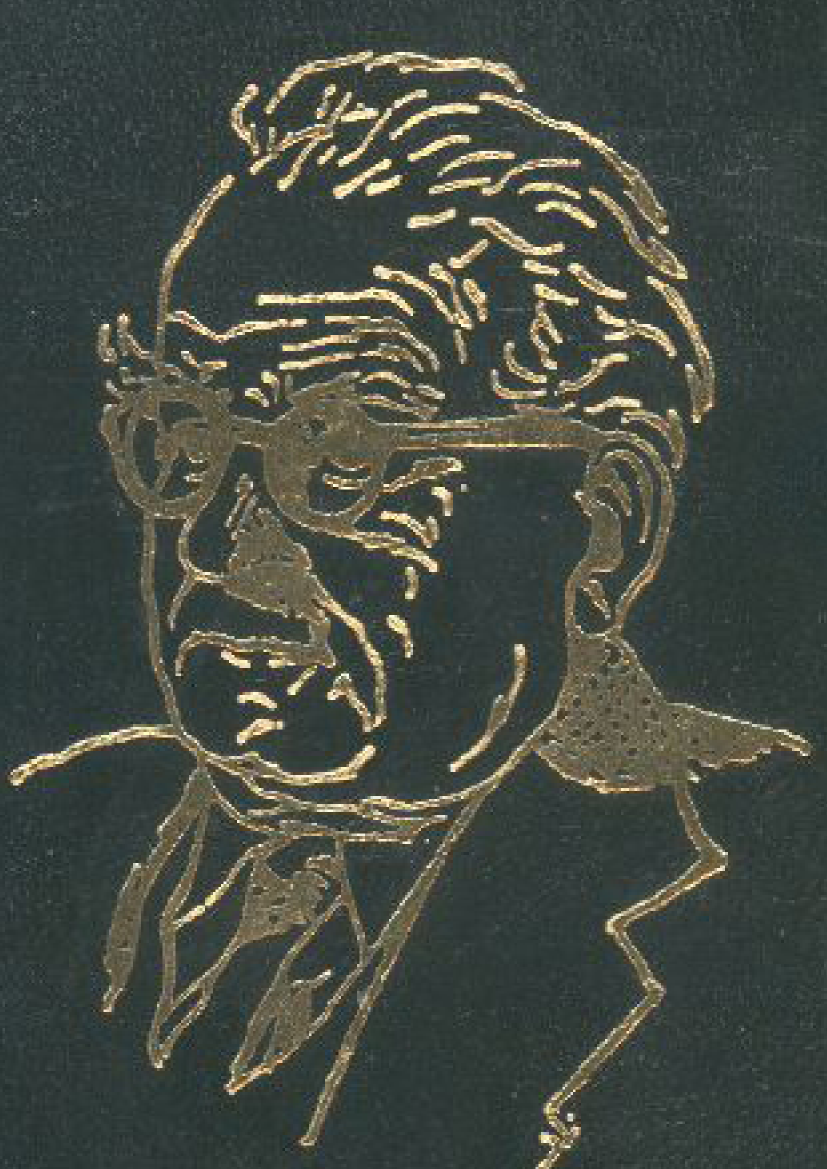

مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

في النقد الاجتماعي

المجلد الثالث

دار مارون عبود

مؤلفات مارون عبود
المجموعة الكاملة

في النقد الاجتماعي

يحتوي هذا المجلد على :

- سُبل ومناهج
- حبر على ورق
- آخر حجر

المجلد الثالث

دار مارون عبود

دار الثقافة

سُبُل ومناهج

المؤلف

(١٨٨٦ - ١٩٦٢)

هذا مذهبي

مذهبي في الحيـــاة أن لا مذهب لي فيها . فكل أعمالي خبص في خبص . ما أريده لا أفعله ، والشيء الذي لا أريده ، إياه أصنع . احسبني كرة في يد لاعب جبار يقذفها في الفضاء ، فلا هو ولا هيَ تدري أنى تتوجه وأين يكون مستقرها . فالحياة في نظري لعبة تتلهى بها قوة سرمدية أزلية ، تخرج منها انماطاً لا تدرك ، ولا يزال في قراراتها غرائب وعجائب لا نهاية لها ، كلما تزاوجت أنسلَت أفزاما وعماليق ، وكلما انفعل الكائن الأزلي تفجرت قواه اللامتناهية وانبثق إلى الوجود ما يحيّر كل موجود .

في مذهبي ان الدماغ البشري هو المستودع النائمة فيه ، إلى حين ، أسرار الطبيعة ، وقد عاينته ، يبرزها إلى الوجود واحداً واحداً في سبعين عاماً فما كان مستحيلاً أمسى ممكناً .

لا أتمثل الحياة إلا مدرسة لا نهاية لدروسها . خريجها يتوارى في الظلمة قبل أن يرى النور الذي ينتظر . ومع ذلك أراني أؤمن بالحياة إيماناً عميقاً لا قرار له ، وأحبها محبة كلية ولكنها بدون رجاء .

أؤمن بالإنسان ، ابنها الوحيد ، الخالق الأعظم المنبثق من الأرض والسماء ، فهو جرم أرضي سماوي في وقت معاً . إني أرى الأرض مصدر كل خير وبركة ،

ومع ذلك يكفر بها الناس ، وينكرون فضلها عليهم ، ويفتشون عن سعادتهم في غيرها . أما أنا فمذهبي في الحياة هو مذهب طرفة القائل :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

لا أؤمن الا بأني سوف أموت ، ولا يعنيني كل ما يقال عني بعد ذلك .

مذهب غيري : القناعة غنى . أما أنا فشعاري الطمع في هذه الحياة ، وأرى القناعة من طباع البهائم . أنا في محبة الدنيا على دين معاوية ، أود لو تكون في يدي بيضة نبرشت فأحسوها كما هي دفعة واحدة .

مذهبي في الحياة أن أعمل دائماً ، وهمي أن أسبق من قبلي وأعجز من بعدي ، ولكن يا ليت .

أكره القمر ولا أفرح بولادته لأنه بشير زوال ، وأنا لا أريد أن أزول قريباً . وأحب الشمس لأنها رمز الديمومة .

أتعد هذا فلسفة ؟ أنا لا فلسفة لي في الحياة ، ولا أؤمن بالفلسفة . وأعتقد أنني حجر في مقلاع الجبار العنيد . فتارة يضربني وآونة يضرب بي ، فخير ما أعمل هو أن أعمل بلا انقطاع لأجد اللذة فيما أعمل لا في ما أفكر .

لي في حياتي مذاهب تتغير وتتقلب مع الأنوار والظلمات ، ومع الحر والبرد ، وفي العسر واليسر ، ولكن الشيء الذي لا يتغير هو الانصراف إلى العمل الذي ينسيني جميع شؤوني وشجوني .

فكل أمنيتي ألا أذيب شخصيتي في مستنقعات الآخرين ، وأن أظل منسجماً مع ذاتي ، وأن أبقى ساذجاً لا تكلف ولا تعقيد في حياتي . وألا أتخلى عن شيء من بساطة أورثنيها المربي . فأكره شيء إليّ التقليد .

لا تسلني عن مذهبي في حياتي لأني لا أعرف ذلك المذهب لأحدثك عنه . فكل ما أعرف أنني بدلت أثواباً كثيرة ، ولم يبقَ لي ثوب لأقول هذا يعجبني ، فأمري ليس في يدي .

فكل مـا أعرفه هو أنني نشأت نشأة زمينة في كنف رجل يرى الضحك جريمة ، فكان يهز لي العصا كلما خف وقاري ، فأعود إلى الترصن. وكان صباي وشبابي رصانة لا قيمة لها لأنها مصطنعة وضد طبعي ، فأضعت ذاتي زمناً طويلاً ولم أعـثر عليها إلا في ظهر العمر ، وصرت أخيراً كما يقول أبو نواس : وشيبي بحمد الله غير وقار .

أرأيت انني ، كما قلت لك ، مسيّر لا مخيّر . كثيراً ما أحاول أن أعدي عن الهزل ، ثم لا أجدني إلا انبريت له ، فكأني أو كأن الحياة تريد أن تعوض عليّ ما حرمته في صباي وفتوتي .

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها   فمفترق جاران دارهمـــا العمر

يظهر أن هــذا الضحك نافعي . يجب أن نضحك كثيراً حتى نقابل جهومة الشيخوخة العتيدة ، ونرعبها فترتد على أعقابها وتختفي علاماتها من أمام أعيننا.

ومذهبي الأخير ، أقول الأخير الآن ، فربما كان لي غداً مذهب غير هذا ، هو أن أستهزىء بالموت . وإني لأعجب كيف يخـــاف الموت من لا يرى أمامه حقيقة ثابتـة غيره . نعلم أننا ميتون ، وإذا حصل الموت قمنـا وقعدنا وتفجعنا كأنما قد حلّ بنـا أمر غير منتظر ولا مقدر . فمن لي بمن يضحك ويقهقه يوم أوارى لتقرّ بذلك عيني وتطيب نفسي كممثل هزلي يسدل عليه الستار بين تصفيق النظارة وعربدتهم الضاحكة . وهل الحياة غير رواية هزلية ؟!

لا أتمنى على جسدي إلا أن يظل خادماً أميناً لما خلق له . وألا ينذرني قبل أن يخذلني ، وإن كان لا بد من عمر طويل فأرضى أن أعيش ما ظللت قادراً على العمل ... ولو كنت واثقاً من أنني أطالع وأكتب في دنياي الجديدة لما طلبت المزيد من حياتي هذه . ولكنني أخشى أن يصح ما يقولون : وأمسي وأصبح في جنة لا عمل فيها . من هذا خوفي لا من الموت .

يشغل بال البشرية تطويل العمر. أما أنا فأرى أن محاولة هذا التطويل تحول

دون التمادي في العمل ، والذي يستريح ليطيل عمره يكون قد قصره من حيث لا يدري ، فالعمر الذي لا يملأه العمل هو عمر أجوف كالقصبة . ولعل لي رأياً يخالف رأي غيري . فأنا لا أشغل نفسي بإصلاح ما بعُد عني إلا بعـد ما أصلح ما قرب مني ، وأبدأ بنفسي . ولذلك أحاول دائماً أن أنمي رأسمالي الأدبي لعلمي الأكيد أن ما يبنيه الاتفاق يهدمه الاستحقاق .

وأخيراً لست أدري إذا كنت أعربت عن مذهبي . ولكن من أين لي المذهب وأنا - كما قلت - تلك الكرة التي تتقاذفها يد القدر . ما قالت النـاس عبثاً : نحن في التقدير والله في التدبير .

فليدبر ما شاء ، وإذا حالت مشيئته دون مرامي فما في ذلك كبير شأن ما زلنا نقول : إنه ضابط الكل ، ووسع كرسيه السموات والأرض .

التكوين الوطني

الأوطان كالأديان كلاهما يحتاج الى مؤمنين . ومؤمن واحد يتعالى إيمانه الى منزلة اليقين لهو ، في محيطه ، كالشهاب الثاقب في الليلة اليتيمة ، تتداح حوله دائرة إشعاع بسام تتغامز فيها النجوم الصغيرة وترتجف شفاهها من الشوق . إن كوكباً واحداً درياً ، يدحر ظلمة الليل . وكم في الوطن من ظلمات لا بد من تمزيقها .

العقائد ، دينية ووطنية واجتماعية ، تحتاج إلى مناضلين . والحياة تتمشى فيها كتمشيها في الأحياء والأشياء ، تارة تسير ببطء ، وطوراً بهجوم مفاجىء تبعاً لأطوارها . والمؤمنون بالأوطان ، كالكريويات في الجسم ، لا تدع العراك ولا تهدأ . وكما ينمو الجسم بما يتقيد فيه من حرارة متفاعلة ، كذلك تنمو الأوطان كلما تعاظمت حرارة الإيمان بها .

إن أول نقطة دم يراق لأجل دين أو عقيدة تستحيل زاوية عظمى في هيكلها الخالد . فنقطة دم من مؤمن بوطنه ، توطد بنيان ذلك الوطن فتصيره أمنع من الباطون المسلح ، وهي أعظم دفاعاً عنه من الطائرات والغواصات والدبابات والقنابل من ذرية وغير ذرية ، فالحق للإيمان لا للقوة .

فما حيلة الأوطان ، إذن، في خلق المؤمنين . إن الإيمان الأسمى لا يعلم كيف

يجيء ولا كيف يذهب ، أما الإيمان الوطني فطبيعي من البشر . يولد المرء ويولد معه حب الحرية . تأمل الطفل كيف ينازع الأقمطة ، ثم كم يقع ويقوم في سبيل الانطلاق . ولا يفتأ يجاهد حتى يدرك غاية مشبوبة في كيانه . لا يطل من باب قفصه على دنياه الصغرى حتى ينشأ العراك بينه وبين أمه ، يريد أن يسرح ويمرح في وطنه الأصغر وتأبى الام عليه ذلك ، فيظل يناضل لأجل حريته الاولى حتى يدر كها .

لس الوطن إلا بيت الانسان الكبير ، وكما يأبى الانسان أن تمس قدسية بيته الصغير كذلك يبذل نفسه بسخاء ليصون بيته الأكبر . وعن حب الرجل مسقط رأسه نشأ حب الاستقلال في وطنه مهما صغر . فلا تقل لوطني مؤمن : وما هو وطنك يا هذا ؟ ان استخفافك بوطنه كاستخفافك بذاته ، وقد يسكت عن هذا الأمر ولا يسكت عن ذاك .

ان وطننا محتاج الى مؤمنين ، الى أنصار ومجاهدين ، وإن قلت لي لا تتشاءم أجيبك : صدقت كلنا مؤمنون ، ولكن الأوطان كالأديان تحتاج الى تعاليم ، فأين تكون هذه التعاليم يا صاحبي ؟ في المساجد والهياكل يناجي المؤمن ربه ، ويتذاكر مع اخوانه تعاليم دينه ، فما هذا الذي نسميه صلاة إلا صله بين المؤمن وربه ، فأين هي إذن هياكل الوطن .

هي المدارس يا صاحبي . سمعت وتسمع بمدرسة تحت السنديانة ، هي مثل يضرب للاستخفاف . ولكنني أؤكد لك أن لمدرسة تحت السنديانة أكبر أثر في نفس المواطن اللبناني . وان أنكر ذلك أحدنا فدمه يصرخ مكذباً اياه ، وضميره يبكته لأنه عق هواه نقياً ملأ رئتيه ، ووحياً من طورها هبط عليه . فالمدرسة إذن مهما صغرت هي هيكل الوطن المقدس ، وبخاصة في عهدنا الحاضر ،العهد الذي صهرنا جميعاً في بوتقة ليجعل من كل واحد منا مواطناً عامراً قلبه بالإيمان .

قال بسمرك : غلبنا فرنسا بمعلم المدرسة . فلننهض اذن ، ولنعلم أن المدرسة

هي المعمل الذي يُصنع فيه المؤمنون بهذا الوطن . المدرسة هي التي تكوّن لنا رجالاً من طراز الشاعر القائل :

إذا القوم قالوا من فتى ، خلت أنني
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

لسنا نطالب أولياء الأمر أن يقولوا للمدارس والمعلمين كونوا فيكونوا ، فلا بد لهذا من وقت ، ولكن تفتح العيون على المدارس لتتطور وتماشي الوطن الناشيء ، فرض واجب .

إن وزارة التربية دعامة كيان الوطن . فمنهج موفق ، يدرب للبلاد جيشاً معنوياً يتجسد كلمة حين تدعو الحاجة اليه . ولكن مقدمة (المنهاج اللبناني) العتيد لا تنطبق على ما فيه من ثرثرة ... فرب كلمة في كتاب تفتك في عقول أبنائنا فتك مكروب الأرض السارية .

إن المناهج حقول اختبار ومغارس . منها تنقل الغرسات السليمة المنبعة إلى حديقة الوطن الكبرى ، فلا يليق أن تظل بوراً . لا يليق بوطن فتي أن يظل أبناؤه يتيهون في قفار بسابس كالطلول الدوارس . التعلم في كل أمة وسيلة للتربية القومية ، وغاية التربية صقل الغرائز الموروثة ، لا خلق أخلاق جديدة. ليس التعليم دهاناً وطلاء ، إنما هو تثقيف ثم صقل ، كما يفعل النجار بالخشب الشريف .. فلننجّر اذن غير التسوح لهذا الوطن الجديد . الطلاء يزول أما العرق الأصيل فلا يمحى ولا يعفو كالطلول .

فأي هدف يصيب من يعلم تلميذه باب التمييز قائلاً له : عندي رطل زيتاً . هـذا مثل وضعه النحاة الأولون حين كانوا يكتبون على ضوء مصباح راهب امرىء القيس ، فلماذا نردده نحن على من في بيوتهم قناطير زيت ؟ أنعلم التلميذ التمييز ونكون بلا تمييز ؟

السيارات احتلت مملكة الدواب واستعمرتها فقبعت الجحاش واجمة ، والمعلم

ما زال يصيح بالمحبوسين في قفص صفه : قام القوم إلا حماراً . لقد بعد عهـــد الحبر بالشعير فكيف تقوم يا مولانا ؟ لماذا لا تقول : هب الناس الى الدفاع عن الوطن إلا الجبناء ، أو غير الجبناء . اختر أنت المستثنى المناسب ، فتكون علمت تلميذك وجعلت منه مواطناً شجاعاً

ألم يبلغك بعد قول جون ديوي فيلسوف التربية الأميركي : العلم وسيلة لا غاية . فبماذا تتوسل يا زميلي ، وإلى أية غاية تسعى ؟ أنظل نتلهى بعقول بنينا وننقرها ونحشوها كأنها الكوسى والباذنجان ؟

يقول علماء التربية : التلميذ فرن يحمى لا وعاء يملأ . ومع ذلك نرى المعلم يحشو أبداً كأنه يعلف خروفاً ... يجلس على منبره مقلص الوجه لا تبين له سن ولو وضعت بين فكيه عتل أرخميدس . أمجنون هو حتى يبتسم ؟! ومن يضمن له هيبته ووقاره إذا ضحك ؟

وجد ليكون رفيقاً ومرشداً فصار ناطور ورشة وخفير أسرى حكم عليهم بالأشغال الشاقة وليس لهم أن يقفوا . إن عطس تلميذ عطسة رنانة طار صوابه وعد ذلك تحدياً لهيبته وأبهته ، وان تنحنح أو سعل أمتعض على كرسي مجده . فلماذا كل هذا ، ومن أية الطرق أتته هذه الطباع !!

مسكين المعلم ، حمله ثقيل . عليه أن يبلغ الحج ويؤدي الحساب على البيدر . فالنتائج التي يتوقعها الآباء والمدارس يلحس كرباجها ظهره وينـام على الثقة مطمئناً . أما التربية والرجولية والتفكير فليست في حساب أحد . قضى الزمن الماضي أن تكون من الأمور التافهة ، أما اليوم وقد صرنا بالغين راشدين فعلينا أن نعد للوطن رجالاً ، وهـــذا يكون بإعداد المعلمين أولاً ، والمدارس ثانياً ، والتلاميذ ثالثاً . نحن بحاجة إلى فتية يتهيأون ، منـذ اليوم ، للنهوض بالأعباء الثقيلة التي ستلقى على ظهرهم . إننا نعلم كثيراً ونربي قليلاً ، فعنـــاية ليس فيها كبير عنـاء تمكننا من إصابة عصفورين بحجر واحد . انني لأستطيع القول ان

تعليمنا الحاضر ليس بضاعة تنفق في بندر الحيـاة . فهذا الطالب النجيب الحائز علامة جيد جيداً في البكالوريا لو كلف عملاً آخر غير ما لقن في الصف تأهباً للامتحان ، تخاذل وتلعثم . فلو علمته مدرسته ما ينفعه في حلبة الرغيف لكانت نصف مصيبة ، ولكنه لا مواطناً صار ، ولا خبزاً أكل . فأساليبنا المتّبعة لا رجالاً تخلق ولا علماء توجد ، نسلمهم للحرب الحديثة بنادق الفتيل والصوان في عهد القذائف والمتراليوز .

قال غوستاف له بون : ان انتخاب طرائق التربية أولى باهتمام الأمة من انتخاب شكل الحكومة. فلنسرع إذن. فالاستقلال أمانة بين أيدينا ولا يحافظ عليه إلا بخلق مؤمنين به. وهؤلاء لا توجدهم إلا مدارس مخلصة ،مدارس مؤمنة بوطنها، ومعلمون مؤمنون بأنهم معلمون، وبأنهم مواطنون، أساتذة يعلمون أنهم يدرّبون رجل الوطن العتيد ، وان من عندهم وحدهم يخرج قواد الرأي العام .

ان المدارس هي عرق الوطن الحساس ، ومنها تتصاعد الصرخات الاولى : نريد الاستقلال ، ليحيا الاستقلال .

قد يتهم التلاميذ من لا يوافقه هتافهم أنهم يفعلون ذلك تخلصاً من دروسهم . أما أنا الذي عجنتهم وخبزتهم فأقول لا وألف لا . يهتاج الطلاب فتقول : على العلم السلام . حتى اذا هدأت العاصفة خلت أنه لم يكن شيء مما كان .

ليس الانسان مكنة ملفوفة بجلد،ولكنه مسرح تتحرك عليه أجمل العواطف وأسماها . ان العاطفة دنيا في فكر ، وأشوق الأفكار لاقتبال العواطف هي أفكار الفتيان ، هؤلاء هم القوارير التي يجب الرفق بهـا ، وهي مستودع الحرية والاستقلال .

اعيادكم بغضتها نفسي

(أشعيا ١/١٤)

ترى لو عاد السيد المسيح وتمشّى في شوارع مدننا ليلة الاحتفال بعيد ميلاده ماذا كان يقول ؟

ماذا كان يقول حين يرى الديوك الحبشية والبلدية ترقص رقصة الألم وتغني في القدور أغاني التهليل للمولود الذي حمل الى الأرض السلام ، والى الناس المسرّة .

ما عساه أن يقول حين يرى علب الملبس والشوكولا تحمل أكياساً الى الدور والقصور ، وأما الأكواخ فتودع شقاء لتستقبل بلاء . من قبضة الفاقة الى مخلب المرض ، الى براثن الموت .

ما عرف يسوع غير بيوت الضعفاء والفقراء . أليس هو القائل : للثعالب أوجار ،ولطيور السماء أوكار ،وأما ابن الانسان فليس له مكان يسند اليه رأسه .

عاش السيد على الفريك في الحقل ، فما عساه يقول حين يملأ خياشيمه القتار ، ويرى سلال الحلوى تتصادم في الشوارع ، وهو حين اشتهى قلبه الحلو راح يفتش عنه في تلك التينة التي لعنها فيبست حالاً . . .

ترى لو تنكر السيد وجاء القصور التي تشاد باسمه ، فمن يفتح له (الخوخة) ليدخل باحاتها ؟

لست أشك أبداً في انه مهما قرع لا يفتح له . وإذا قال لهم، كما قال لتلاميذه في ذلك الزمان : « أنا هو » صرخوا في وجهه : لا يا سيد ، أمــا حذرتنا في إنجيلك قائلاً : كثيرون يأتونكم باسمي فلا تصدقوهم ! اذهب ، اذهب .

وإذا ردّ عليهم بقوله : أنا جوعان فأطعموني ، وعطشان فاسقوني ، أجابوه قائلين : مثلك لا يجوع ولا يعطش، أما صمت أربعين يوماً... لا تحاول خداعنا. فما أنت هو .

أجل ، لقد صار عيد الميلاد عيد قصف ولهو ، وعيد خمر وزمر وقمر . عيد الخمور المعتقة ، والديوك المسمنة ، بل عيــد التخم والبشم . حسبك أن تعلم اننا في يوم هـــذا العيد كنا نفطر مرتين ، مرة بعد قداس نصف الليل ، ومرة في موعد (الترويقة) ، ولست أنسى قول أحد أساتذتنا وهو من الآباء الأجلاء : ليت لنا في كل رأس شهر عيد ميلاد ، وقد نسي ، رحمه الله ، ما قاله مار بولس في الذين هم مثله : إلههم بطنهم ، ومجدهم في خزيهم .

وإذا وقف يسوع أمام مغارة من تلك المغارات التي تزدان بعثـــات الشموع والدمى والأكياس ، ألا يتأسف حين يرى عناكب التقاليد تغطي ذلك المحيــا الإلهي الانساني الذي ملأ الدنيا رحمة ومحبة !

ولو صادف يسوع في هذه الجولة ما يسمونه (بابا نويل) فكم كرباجاً كان يأكل قفاه ؟ وأي نتف تنتف تلك اللحية الطويلة العريضة ! لا شك في انه ينتزع ذلك الخرج عن كتفيه ويدوس هداياه بقدميه ...

أجراس ترنّ ، ونواقيس تطنّ ، وأجواق ترنم وتهلل : المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام ، والرجاء الصالح لبني البشر .

أي رجاء يا سيد ، فالذين يصلون يوم عيد ميلادك هاتفين : هللويا . آمين...

يفكرون بقنبلة تهلك اخوتك الفقراء المساكين ليرثوا وحدهم الأرض التي دست كنزها بحذائك .

جئت يا سيد مبشراً بلكوت الله كارزاً بمملكة الروح، فأين هي تلك الأشياء التي بشرت بها و كرزت ؟! آه ، ما أفقر الكون الى درهم من علاجك الروحي. إن ذكرى ميلادك لا تعظم إلا باتباع تعاليمك . وإذا لم نولد ثانية كما قلت لنيقوديموس ، فعبثاً نكرم ميلادك ونمجدك أيها الذي قال : ليس من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات .

ليس تكريم الميلاد بأن نعمل شجرة اصطناعية بينما شجرة أعمالنا يابسة ، تسمع لأوراقها حفيف الحصاد الذي يتوق الى المنجل .

إنك لم تدعُ إلا الى الرحمة : اريد رحمة لا ذبيحة ، هكذا قلت . أما هم فيريدون ذبيحة يكون لهم منها حصة الأسد لا رحمة تنكبهم بفلس .

إن هذه الاحتفالات الزائفة لا تنقع غلة ولا تشبع كبداً . إنها لا تسقي البؤساء – اخوة يسوع الصغار – كأس ماء باردة .

قال يسوع : اصنعوا هذا لذكري . وكأنه يريد ان تتمالح البشرية جمعاء ، في تذكاره ، لا أن يأكل الأغنياء حتى يبشموا ، والفقراء حفاة عراة ، ليس لهم أطمار يسترون بها عوراتهم . اللهم سترك وعفوك عمن يعيّدون هكذا .

قال صاحب هذا العيد : أحبّوا أعداءكم ، وإذا أحببتم من يحبكم، فأي فضل لكم ؟ أما السواد الأعظم من البشر فلا يحبون إلا ذواتهم ، وليس للغير أقل حساب في دفترهم اليومي .

كان الاخوة – الرسل – في ذلك الزمان يتقاسمون الرغيف ، أما اليوم فيتنازعون عليه ويتناتشونه مع أنهم أتباع ذلك الذي قال : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . وقد يزهقون روحاً في سبيل قرش ، ولو من قروش هذا الزمان، ومع ذلك يعيدون بكل عين بلقاء ، محتفلين بذكرى من قال : لا تعبدوا ربين

الله والمال . فاذا شئنا أن نعيد الميلاد ، كما يجب ان يعيد ، فعلينا أولاً أن نطهر قلوبنا لنكون أتباع من قال : يا بنيّ اعطني قلبك . وعلينا أن نعمل حسناً لنستحق من قال : ان من لا يعمل ارادة أبي فهو لا يستحقني .

فعلى من يلون الاحكام ان يعدلوا لأن من يحتفون بميلاده كان عادلاً رحيماً .

وعلى الرعية التي تحتفي بميلاد يسوع ان تحب الجار والقريب بل الأعداء لأنه هكذا علّم .

وعلى المعلم منا أن لا ينسى أن يسوع خوطب بيا معلم ، فلنحاول الاستيلاء على بعض الأمد الاخلاقي الأمثل لنتقرب من زميلنا المعلم الإلهي .

واذا كنت يا أخي فلاحاً فاحرث الارض جيداً ، وتذكر ان يسوع أحب الزهر والثمر ، والزرع والشجر ، فكن مزهراً مثمراً لئلا تستحق اللعنة التي أنزلها على التينة .

واذا كنت تاجراً او عاملاً فانشد الربح الحلال والأجر المكتسب بعرق الجبين . تذكر ان صاحب العيد حثّ على العمل المنتج فرحب بصاحب الوزنات العشر الذي ربح ضعفهـا بالمتاجرة ، وطرد العبد الكسلان الى الظلمة البرّانية .

عفواً ، نسينا السيدات ، وهنّ المقدمات في هـذا العصر . ليس الاحتفال بالميلاد هو ان تتزيني بالجواهر وتلبسي أثمن الثياب ، ولكن الاحتفاء بالميلاد هو ان تقدمي لصاحب العيد ذرية صالحة من البنين والبنات . ولا تنسي أن يسوع الذي تصلين له قارعة صدرك قـد قال : دعوا الأطفال يأتون إليّ ولا تمنعوهم .

وأما قادة العـالم اليوم ، فأحسن احتفال بذكرى السيد الذي يعظمون ، يكون في أن يضعوا تحت قدميه قنابلهم الذرية قائلين له : قل يا سيد ماذا نصنع .

وإذ ذاك يجلجل صوت في الأعالي ويهتف بهم : ملعون كل من يهدم هيكلاً بشرياً بغير حق ، طوبى للرحماء فإنهم يرحمون . لا تقاوموا الشر بالشر ، ومن طلب ثوبك فاترك له رداءك .

فلو كان في قلوبنا قدر حبة خردل من الرحمة لفكرنا بمكافحة البؤس المنتشر حولنا قدر ما نستطيع ، متذكرين فلس الأرملة الذي عظمه صاحب العيد . فأي منا لا يستطيع أن يبذل فلساً احتفاء بعيد المعلم ؟ فخير هدية ميلادية هي تلك التي تبذل في سبيل المشردين .

اذنان ولسان واحد

منذ بضع عشرات من السنين وأنا صاحب هـاتين الاذنين . أما كيف لم يلفتا نظري إلا البارحة ، فهذا فوق علمي . وأما كيف انسقت الى هـذا التفكير ، او انجررت اليه ، فهـذا من حق القارىء العزيز أن يعرفه لأنه صاحب اذنين مثلي . فإذا أعار قولي انتباهاً فسوف يشغل باله ما شغل بالي من أمر هـاتين الاذنين . إني اؤكد له ان أذنيّ غير طويلتين ولا قصيرتين . بل همـا كما يقول المثل : وخير الامور الوسط .

والآن هاكم الحكاية : صرفت نهاراً كاملاً مفتشاً عن موضوع مـا فما وقعت عيناي على صورة تسرّ القارىء وتعجبني ، على كثرة صور الحياة وتعددها ، فلا تنقضي دقيقة حتى تطوي وتنشر صوراً صالحة للمعرض والمتحف . فالحيـاة لا تكلّ ولا تملّ ولا تصاب بتصلّب الشرايين وضعف القلب مثلنا ، إنهـا تجري وتجرينا معها في مضمارها وإلى غايتها .

استعرضت صوراً كثيرة من صور البشر ،فرأيت الكثيرين من أبطالي ولكنني لم تعجبني صورة أحد منهم ، فأقلس نهـاري ومسائي وألقيت سلاح التفكير ، واندمجت بفراشي أتخبأ فيه من وجه تلك الفكرة فلا تقع عليّ عنها ، ولكنها ركبت كتفي ، كأن لهـا عندي ديناً . ومن محاسن الصدف أو مساوئها وجمعي

أذني وجعاً أغراني بحكّها ، فرحت أفركها وأدلكها وهي تقول : هـات ما عنـدك حتى كبرت في يدي . وتناولت مرآة صغيرة أضعها عادة حد رأسي ، فرأيت أذني قـد احمرّت وكادت تفخر على أختها بالكبر ، وإن كان الكبر في الأذن غير محمود ، لأنه يشد القرابة بيننـــا وبين صاحب أنكر الأصوات ... تأملت بالحكوكة وأختها فجاءني فكر ، لا أدري كيف جاء عفواً ، وإذا بي أسأل نفسي : لماذا ُخلقتُ ذا أذنين ؟ أما كانت تكفيني واحدة ؟

ظننت أنني أسمع أكثر ، فسددت إحداهما بإصبعي فإذا القضة مع الأذنين غيرها مع العينين . فقلت إذ ذاك : لأمر ما ركبت هاتان الأذنان في هذا الرأس الذي يتعبني حمله منذ عرفت الخير والشر . وأردت أن أنام ولكنني مـا قدرت كأن في أذني برغوثاً .

وأطفأت المصباح فما جاء النوم ، فضوأت وأخذت أحد كتب مخدتي ، فما استطاع تحويل تفكيري عن هاتين الأذنين . طار النوم ، وتذكرت مـا أصاب صاحب لحية طويلة مع بنت خبيثة أو ساذجة لا أدري . هـال الفتاة استبداد لحية ضيفهم الجبارة واحتلالها صدره المريض ، فسألته سؤالاً بسيطاً : أين تضع لحيتك عندما تنام ، تحت اللحاف أو فوقه ؟ فسببت له قلقاً مركباً لولا يصيب أحد رجال الدول لأذيعت النشرات الطبية عن صحته في كل ساعة .

أطرق الكاهن يفكر ، وفتحت الصبية عينيها وأذنيها وفمها ، أصغت بكل حواسها لتسمع الجواب، فكانت كأنها تحدث غائباً عن الحضرة، وظل صاحب اللحية البحترية مرتبكاً محيراً . هزته الفتاة هزة اضطرب لها وقالت : غفيت ؟ ما جاوبتني !

فتنهد كمن حذف عن ظهره حملاً ثقيلاً وقـــال لها : أمهليني يا بنتي غداً أجاوبك . وظل يفكر ، ثم بارح المكان وهو ما زال يفكر .

وجاء الليل وجاء الويل . ما نام صاحبنا تلك الليلة . تحيّـر أين يضع لحيته .

وضعها تحت اللحاف فتضايق مقدمه كما قال عنترة ، وما عرف النوم . وجعلها فوق اللحاف فرآها ممتدة مفرشة .

أرق أرق الأعشى وما أغمض عينيه ، فصاحت الديوك وحضرته مستيقظ . وغدت البنت عليه تحمل فنجان القهوة ، ووكدها في الجواب فما كادت تطل حتى صاح بها : حرمتني النوم يا بنتي ، يا ليتني نمت في الخان وما نمت عندكم .

ان هذا ما أصابني أنا تماماً . انني أحمل هاتين الاذنين منذ ثمانية وستين عاماً وما فكرت بهما إلا ليلة أمس . تصورت أنني بإذن واحـــدة وكيف يكون منظري ، فقلت : ربما جعلنا للتوازن . فالطبيعة مهندس عبقري، تبدع الأشياء طبقاً للبركار والزاوية . ولكنني عدت وقلت : في الدنيا مشاهد كثيرة أبشع من منظر انسان بأذن واحدة ، ومع ذلك يتعودها الانسان ويألفها .

وأعدت الكرة فامتحنت العينين فوجدت الحـــالة فيها غير حالة الأذنين فالأعور غير الاصلم . وبعد تفكير غير عميق انقلبت الى الشفتين فقلت : لهاتين حاجة لا تنكر ، وكذلك الأسنان ، ولكن اللسان لماذا جعل واحـداً ، ولماذا لم نخلق بلسانين .

وانقضى الليل وأقبل الصبح وجاء هذا الفكر معه ، ولولا انشغالي بما عليّ من واجبات لأصبحت من أصحاب الفكرة الثابتة .

وكان لي جـــار تعجبني روحه الخفيفة وذكاؤه الطبيعي ، رجل أمي علمه الدهر إذ لم يعلمه أبوه ، فما رأيته مقبلاً يهدج حتى مرحبته من بعيد . فتهلل وجهه كعادته ، ثم أخذ يتهيأ للقعود حدي ، وبعد جهد وعنـ[illegible]اء تحت أثقال التسمين ، ولما تمكن من مجلسه تنهد ثم قـال : خير ان شاء الله . ما ور هذا السلام الذي رشقتني به .

فقلت له : عقدة لا يفكها احد غيرك، حرمتني النوم وأفسدت عليّ يومي، وأخيراً قلت ما لها غير بو حسن .

فتأوه وقال : وماذا بقي من بو حسن . خرف عمك بو حسن ، صرنا بربع عقل .

– عقلك كامل يا شيخ الشباب ، ما عندنا عقول مثل عقلك .

– هذا لطف منك . رحنا . . .

والتفت لأرى هل ضاعت ثقته بنفسه حقاً ، فرأيت على وجهه اطمئناناً دلني على أنــه لا يصدق ما يقول ، وهو يوصوص عينيه كأنه يستجمع قواه ليتلقى الضربة ، فهو من الذين لا يقولون لا أعرف . فصيح طبعاً ، وكل فصيح لا يتلكأ عن الجواب ، أخطأ أم أصاب . فقلت : البارحة يا عمي بو حسن فكرت بإذني ، وقلت : لماذا لم تخلقنا الطبيعة بإذن واحدة ؟ وقــد جربت الاذن فوجدتها بعكس العين .

فقال : وما سألت نفسك لماذا خلقنا بلسان واحد ؟

قلت : خطر على البال هــذا السؤال ، ولكنه كان ضيفاً غير ثقيل . فاستضحك وقال : مع أن أذنيك غير كبيرتين .

قلت : وفهمت من العلم أن الطبيعة خلقت العضو المعرض للخطر مزدوجاً ، أما اللسان فمحفوظ بين بابين ، واحد من لحم والثــاني من عظم ، ومع ذلك خلق واحداً .

فضحك العم وقال : بلا علم وبلا بطيخ . خرب بيوتنا العلم . ما خلّى العلم ولا بقّى ، لا وجدان ولا ضمير .

وسكت قليلاً كمن يفتش عن حجة قاطعة مانعــة ، ثم ضرب بيده فخذي وقــال مستهزئاً : يقول العلم : الأعضاء المعرضة للصدمات خلقت اثنين اثنين ، فما رأي حضرة العلم بالكليتين والرئتين ؟ آه من العلم . إذا كان اللسان وراء بابين، كما قلت ، فالرئتان والكليتان في صندوق . لا يا استاذ . الله لا غيره خلق

لنـــا أذنين وعينين ولساناً واحداً حتى نسمع كثيراً ، ونرى كثيراً ، ونتكلم قليلاً ، فهمت ؟ وضع العينين والأذنين على رأس الجبل – وأشار الى رأسي – لتنظر وتسمع . مـــا رأيت انها – وأشار الى أذنيّ – على شكل قمع ؟ عُملا هكذا حتى يتدهور فيهما الكلام فلا تفلت منه واحدة .

أما اللسان فوضعه خلف بابين ، خوفاً من أن يفلت هـــذا اللعين ، ففلتة اللسان ما لها دين . في هـــذا السجن المظلم حبس الله اللسان لأنه أصل كل شر ، ومنبع كل خير ، وعلى صاحبه ألا يريه الهواء والنور إلا بعد ألف حساب .

أفهمت الآن لماذا خلق الله أذنين وعينين ولساناً واحداً لا غير ؟ إياك أن تقول الطبيعة فيما بعد ، الطبيعة خادم مسخر للسيد ، يقول له تعـــال ورُحْ . تصور ان اللسان حر طليق مثل الاذنين والعينين فماذا كان يعمل هذا المنحوس ؟ إنه كان يقلق الأرض ، ويزعج الهواء حتى يكلّ عن نقل مـــا يحدث من أصوات ...

ثم زفر بو حسن وتنهد وقال : ومع كل هـــذا التحفظ الذي عمله الباري لصون اللسان فإنك لا تقدر أن تحصي مضارّ اللسانْ . أصل الشرور كلها كلمة تفلت من اللسان ، ولذلك قال المثل : لسانك حصانك إن صنتة صانك .

واستراح شيخي من محاضرته البليغة ، وقـــد أعجبه وقع حديثه في نفسي فقال : هذا علمني إياه الاختبار . أنا لا أعرف الألف من المئـــذنة ولكن من يفكر يجد . في الدنيا بحر من العقد ، لا تفك منها عقدة حتى تقع على عقـــدة أبشع منها .

ثم قـــال متمهلاً : أتظننا انتهينا من القضية التي شغلت بالك . خذ واحدة ثانية : لماذا قصر الله المسافة بين الأذنين والفم فهي ليست أكثر من مقدار كف ؟ جاوبني على سؤالي .

ففكرت بالجواب ولكنه تعجل في الأمر وقال: لا تتعب نفسك أنا اجاوبك

يا استاذ : وضع الله الاذنين على مقربة من البوز حتى يسمع الانسان ما يقول ، ومع ذلك فأكثر الناس لا يسمعون ما يقولون .

كل هـــذه الأشياء تستحق التفكير ، وهي لم تكن صدفة واتفاقاً ، فهناك حكمة علوية صنعت كل هذا .

وبعد كل هذا لست أقول انني مصيب ، ولكن الله أعطانا عقلاً . . .

وسمع صوت الجرس فقال : قم كلّم . هـذا لسانه طويل . ولكنه لا يحكي إلا اللازم. فقلت: صدق المثل الذي أمر من ليس عنده كبير أن يشتري كبيراً.

فضحك وقال ، وهو يمشي معي : هيهات . الكبار لا تبـاع ولا تشرى . السوق باردة .

الابتسامة رأس مال

قال لي واحد من اصحابي : لماذا لا تتفلسف ؟ فقلت له : ومن قال لك انني لا أتفلسف كل ساعة ! غيري يتفلسف عابساً ، وأنا أتفلسف ضاحكاً من الفلسفة وأصحابها. أرى أن الطبيعة لم تهبنا خاصة أجلّ من خاصة الضحك، فهل رأيت احداً غيرنا من المخلوقات يضحك او يبتسم ؟

ولا يغيظني احد أكثر ممن يسمي الدنيا وادي البكاء والدموع ، وإذا كنت ترتأي ما يرتأيه فأنا اقول لك : ابك حتى تنشق فما تضني إلا نفسك . أما أنا وقـد وُهبتُ خاصة لأنفّس عن (آظاني) او مرجلي فاني ألجأ اليها في أشد الساعات . فبحياتك جرّب اتبع فلسفتي . واذا كنت غير مطبوع مثلي على الضحك ، فجرّب على الأقل أن تبتسم . لا تخبط بوزك حين تقابل النـاس فهم لن يهابوك . اذا بكيت فإنما تبكي وحدك ، أما اذا ابتسمت وضحكت فالدنيا كلها تشاركك . فبحياتك اضحك حتى في المصيبة اذا أردت أن تتغلب عليها . أتظن أنك ترد ما فات اذا لبست وجهك بالمقلوب ؟

اسمع ما يقول الناس في العابسين : فلان كشرته تقطع الرزق ، وفلان دخل علينا كأنه قابر أمه . وفلان لا يضحك للرغيف السخن . أما الضحك فيعبر به

عن كل شيء جميل ، واذا دخل عليك رجل وسألته كيف الطقس أجابك بكل بساطة : الدنيا تضحك اليوم .

قالت العرب: بشاشة المعطي خير من العطية. فاذا استقبلت ضيوفاً فاستعن بالبشاشة ، فخير طعام تقدمه لضيوفك هو ابتسامة طبيعية . قلت طبيعية لأن الزهرة الاصطناعية لا تغشّ احداً . ان العبير ينقصها ، فلتكن ابتسامتك ذات عبير فواح .

وإذا تركت بيتك لتخالط الناس فحاول أولا أن تزيل الأكواع من وجهك فتأمن الاصطدام.. ان الزوايا الحادة عدوة الجمال فامحها من محياك . دع همومك في بيتك واغلق الباب عليها ، اقفله جيـــداً كيلا تلحقك الى ميادين العمل . فالشفتان المصرورتان لا يأتيك منهما رزق ، فافتر عن أسنانك على الأقل اذا كنت غير بسام . لأهل الصين حكمة رائعة يجب أن تعرفها وتتذكرها كلما غادرت بيتك الى محلك اذا كنت تاجراً او غير تاجر قالوا : الرجل الذي لا يعرف كيف يبتسم لا يصلح ان يكون تاجراً .

ليس للكلب يد يحيينا بها ، ولا فم يسعفه على الضحك . فابتسامته تكشيره ومع ذلك لم يحرَم وسيلة يكتسب بهـــا الأصدقاء . انه يعبّر بذنبه عن تودده الينا ، فيحيينا به أصدق تحية . انـه يفهم الابتسامة وان لم يقدر على اصطناعها فاذا عبسنا او لم نعره اهتماماً لفّ ذنبه وراح يفتش عن غيرنا . أما اذا لاطفناه فتشترك في تحيتنا جميع جوارحه حتى يكاد يخرج من جلده . افترضى ان نقصر عنه ولنا لسان وثغر وأيد نعبر بهـا ، فاشكر من خصك بكل ذلك واستعمله على حقه ، لا تدع صاحب الذنب المعقوف أبلغ منك في التعبير وأدهى منك في خوض ميادين العيش .

كلنا نعلم ان بيوتنـــا ملأى شؤوناً وشجوناً ولكن رفقتها لا تطيب ، فيجب علينا ان نتناساها الى حين إذا كنا لا نقدر ان ننساها . وإذا سألك صديق كيف حال صحتك ، فلا يعني ذلك ان تخبره انك الليلة البارحة كنت ممغوصاً وان

الإمساك يضايقك او انك أكلت مـــا لا يواتيك فانبشمت . وإن كان صديقك مهذباً وتركك تمشي على الهينة في حديثك فلا تذهب الى أبعـد من ذلك وتخبره عن آخر فحص طبي عام عملته ، فتفسد عليه نهاره بشرح القاذورات .

أنت يا أخي بين أمرين : إمـــا ان تقلع وجهك المقطب وتلبس وجهاً غير مغضّن او ان تظل في بيتك وتعيش وحدك . وإذا قبعت في بيتك فهل تظن ان زوجتك وأولادك يحتملون تعبيستك ؟ انهم يداجونك حتى إذا مـــا خلوا الى نفوسهم ضاقوا بك ذرعاً .

قرأت في كتاب ألفه ديل كارنجي ، مؤسس معهـــد العلاقات الانسانية بنيويورك ، قطعة عنوانها : ابتسامة عيد الميلاد ، جاء فيها :

« إنها لا تكلف شيئاً ولكنها تعود بالخير الكثير .

إنها تُغني اولئك الذين يأخذون ، ولا تُفقر الذين يمنحون .

انها لا تستغرق أكثر من لمح البصر ، لكن ذكراها تبقى الى آخر العمر .

لن تجـــد أحداً من الغنى بحيث يستغني عنها ، ولا من الفقر في شيء وهو يملك ناصيتها .

انها تشيع السعادة في البيت ، وطيب الذكر في العمل ، وهي التوقيع على ميثاق المحبة بين الأصدقاء .

انها راحة للمتعب، وشعاع الأمل لليائس، وأجمل العزاء للمحزون ، وأفضل ما في حقيبة الطبيعة من حلول للمشكلات .

وبرغم ذلك فهي لا تُشترى ولا تستجدى ولا تقترض ولا تسرق . انها شيء ما يكاد يؤتي ثمرته المباركة حتى يتطاير شعاعاً .

فإذا أتاك رجالنا ليبيعوك ما تحتاج اليه في عيد الميلاد ، ووجدتهم من التعب والإرهـــاق بحيث عز عليهم الابتسام فكن أخا كرم وامنحهم ابتسامة من

عندك. فوالله ان أحوج الناس الى الابتسامة هو الذي لم يبق له شيء من الابتسام ليهبه . »

أجل ، ان كيفية اختلاطنا بالنـــاس قد يتوقف عليها رفاهنا وسعادتنا في الحياة . فهنـاك أشياء كثيرة غير الابتسامة تتركنا مغبوطين وهي لا تـكلفنا شيئاً . فسبقنا الى التحية يجعلنا محبوبين ومرغوباً فينا. ورد التحية من الكبير تنعش قلب من هم دونه .

لما ارتقى اكليمنضوس الرابع عشر الى السدّة البابوية انحنى له السفراء مهنئين فانحنى هو لهم ، فقـــال له رئيس للتشريفات : كان عليك ان لا ترد تحيتهم فأجابه البابا : لم يمضِ عليّ بعد الزمن الذي يُنسيني واجبات اللياقة .

وليتر ماء ينظفنا ، والمظهر الحسن مصيدة للرزق والاحترام . وكلمة (من فضلك) تقولها للنـــاس إذا طلبت منهم شيئاً تجعلك مثال التهذيب ، وتجيئك المخابرة التلفونية بسرعة ، وكلمة (اعذرني) او (عفواً) تحول دون شجار طويل عريض .

لا تعبّس ولا تتعالَ حين تخاطب أياً كان من النـــاس ، وخصوصاً إذا كنت تطلب منه خدمة بالمجّان ولا تنسَ الحكمة الفارسية القـائلة : السائل ذليل ولو أين السبيل .

استعمل كل رقـــة حين تخاطب غيرك ، فلا تتكلم نبراً حين ترد على من يخاطبك في التلفون . صغْ عبارة جميلة لهذا المقـام واحفظها غيباً فهي تعبر عن لطفك وتهذيبك .

احترم قانون السير كيلا تسمع ما لا يرضيك ، ولا تأخذ النـــاس بدربك فتهان .

ان من لا يُكرّم نفسه لا يُكرَّم ، وإكرامك اطلبه من نفسك لا من الناس ،

فأنت تجلبه لها بسلوكك الدقيق ومحافظتك على كرامة الآخرين . وإذا لم تجد في طريقك من تحترمه فاحترم العتّال وحمْله .

كان نابوليون يسير في سانت هيلين مع سيدة في زقاق ضيق فمرَّ بهما عامل يحمل حملاً ثقيلاً فتنحّى له نابوليون، أما السيدة فلم تبالِ به، فصاح بها نابوليون: سيدتي ، احترمي الحمل .

أرأيت يا صاحبي كيف أتفلسف أنا ، فقبل أن نعدّ النـــاس للدنيا الثانية ونفلسفهم بنظريات باطلة علينا أن نتعلم ونعلّم الآخرين كيف يجب أن يسلكوا في هذه الدنيا ليعيشوا مطمئنين متفائلين . إن لنا وراء هذا الكون فلسفة ينظر اليها في حينها ، واذا كان للشيطان ، نعوذ بالله منه ، يد في مصيرنا هناك ، فأنا أظن أننا اذا لاطفناه وابتسمنا له نطفىء من حــدة ناره التي لا تطفأ ، ومن لذع دوده الذي لا يموت .

أعرف موظفاً دخل عليــه المفتش فأساء آداب السلوك ولم يكترث له وظلّ يحاكيه قاعداً ، فأضمرها له ، ولما حان الحين أحاله على التقاعد ، وهو لو كان أدق سلوكاً لما نزلت به تلك النكبة .

أجل ، لقد نسينا مسألة القيام للقادم فهي تبيّض الوجه ، وقــد عبّر عنها احد الأساتذة النحويين ببيتين من الشعر قالها في تلميذ لم يقف له :

اذا شاركت قوماً في وقوف   لقــادم مجلس نلت الوقارا
وإلا كنت مستثنى بالأ   كقــام القوم إلا ذا الحمارا

وأخيراً كانوا فيما مضى يقولون لنا: ضحك بلا عجب من قلة الأدب، وصاروا يقولون اليوم : اضحك يضحك لك العالم . أما أنا فعملت بآراء الأقدمين صغيراً وأراني أعمل اليوم بآراء المحدثين ، واذا لم يضحك لي العالم أضحك وحدي ، ولا يهنأ لي عيش حتى أضحك جليسي وأستولي على المبادرة . فاذا كانت الابتسامة تفتح في وجهنا الباب ، فالضحكة تحلّنا في صدر البيت على الرحب والسعة .

الفقر سلم المجد

يقول العوام : الفقر زنجير الرجال ، وأنا أقول غير مـا يقولون . أقول أن الفقر مهماز يدمي الخواصر ، فلو شبع الناس جميعاً واكتفوا لم تتقـدم الانسانية خطوة واحدة، ولو لم يشق الانسان لما بلغ ما بلغ . تصوروا ان أبانا آدم لا يزال في فردوسه الأرضي ، وان الله لم يصدر تلك الفقرة الحكمية : بعرق جبينك تأكل خبزك ، فماذا كان صار وأين كنا اليوم ؟ أما كنا كتلك البهائم التي لا يعنيها من شؤون الحياة غير همّ البطن ؟ الفقر زنجير الرجال ، هكذا قالوا . أمـا الرجل الطمّاح فلا يزنجره شيء ، لا فقر ولا مصاعب ، ولا تقف بوجهه عقبة مـا . ان إرادته العظمى استباحت كنوز الأرض فانفتحت له وغرف منها ما شاء . فكل الحصون المنيعة تسقط واحداً بعد واحد أمام المريد الذي يقف على قدميه بعدما يسقط ألف سقطة . وخير عبرة لنا في هذا الموضوع اولئك الرجال المفارد الذين نهضوا من أعمق الأعماق وصعدوا في العقبات ، وأخيراً كانت الوثبـة العظمى فبلغوا أعلى الذرى .

لقد ضلّ من يعد الفقر سبباً من أسباب تخلفه عن ركب الحياة . ليته يتذكر قول شاعره أبي الطيب : وربما صحّت الأجسام بالعلل .

الفقر علة ولكنها علة تشفي من علل كثيرة ، انه مهماز حاد ينخسك ليل نهار

فلا تستقر ولا تهدأ . لقد خلق عباقرة كثيرين ومن يدريك أيهـــا الشاب انك لست منهم .

فالأمير بشير ترك مسقط رأسه غزير وكل ثروته حمل جمل . ومحمـد علي كان جندياً بسيطاً . وضاهر العمر كان خادماً . وهتلر كان دهاناً . ونابليون كان لا رأس مال له غير الطموح ثم صار كل شيء ، فلو وُجد هؤلاء في بحبوحة لعاشوا راضين ولم يفكروا بالعظائم .

أريد منك أيهـا القارىء الكريم أن تسأل والدك ، إن كان فقيراً واغتنى ، كيف بنى لك البيت الذي تسكنه ، وامتلك العقـار الذي تستغله ؟ فلو ولد في حضن النعمة أما كان ظل حيث هو ، او باع ما ورث وصار من المعدمين .

نعم ، الفقر مهماز ، فأنا وأنت وهو ، لولا الحاجة ما بلغنا الغـاية التي جرينا اليها . الفقر نعمة يا أخي ، الفقر سوط يلهب ظهر الطامح ، أما المخلع والكسيح فيقضي عليهما لأنهما لا يثبتان أمامه .

نقرأ كثيراً في الصحف السيارة في هذه الأيام ، وخصوصاً بعـــد الحرب الأخيرة : ان الدولة الفلانية تكافح الفقر وتطارده لتقضي عليه ، ولو تأملنـا بعين الفكر ونظرنا إلى من نبت في حديقة هـــذه الدنيا من النوابغ والجبابرة وأعاظم الرجال ، لرأينـا ان معظم هؤلاء كانوا من الذين عاشوا في الأكواخ ، وأذاقهم الدهر لباس الجوع والخوف .

قال شاعر الانكليز العظيم : الفقر سلم الطمع . والمثل الالماني يقول : الفقر هو الحاسة السادسة . وقال احدهم: الفقر مخيف وكثيراً ما يخمد عزائمنا . ولكن ريح الشمال القارسة هي التي تحث الرجـال ليندفعوا في ميادين البطولة ، وأما النسيم العليل فانه يجعلنا نستغرق في الأحلام العذبة اللذيذة .

وبعد، فليس الفقر عاراً ، فلا تخجل ان كنت من الفقراء بل استح اذا كنت لا تأكل خبزك بعرق جبينك ، أخجل اذا كنت لا تأكل لقمتك حلالاً ، فأطيب لقمة هي تلك التي تؤتدم بالتعب ، فما أحلى طعام الفقير وألذّه .

انه طعام سريع الهضم يستحيل دماً نقياً ، ونشاطاً يدفع صاحبه الى المزيد من الفلاح . ففقرك يا صاحبي لا يدوم ما دمت تعمل ، فكد ولا تيأس . اعلم ان فقراء كثيرين مثلك اصبحوا قادة للامم كما قرأت في صدر هـــذا الكلام . فما ضرّك لو تشبهت بهم ، ولم تنظر الى الغارقين في الثروة حولك وحواليك .

اسمع ما رواه الرئيس هنري ويلسن عن نفسه ، قـال : ولدت فقيراً وذقت طعم سؤال آلام قطعة من الخبز وهي ليست لديهـــا لتعطيني إياها . فكم كنت أبكي وأبكي ولا أحصل على غير الدموع المرة المالحة ، وأخيراً فررت من بيتنا (الاسود) في العاشرة من عمري . وفي الحادية عشرة صرت خادماً ، وكان فرحي عظيماً بهذا المنصب الجديد . كنت أتعلم شهراً في كل سنة . وبعد احدى عشر سنة من العمل الشاق كان لدي زوج عجول وستة خراف أكسبتني أربعة وثمانين دولاراً. لم أنفق في عمري فلساً على ملذاتي، بل كنت أقبض بيدي الثنتين على كل درهم أستحوذ عليه ولا أخلي سبيله ، هذا كان شأني من يوم نشأت الى ان بلغت الحادية والعشرين .

مشيت عشرات الأميال لأسأل اخواني البشر عملاً أعيش منه . وفي الحادية والعشرين صرت سائق عربـــة تجرها العجول لأقطع حطباً للمطحنة . وكنت أبكر في نهوضي كل يوم قبل الفجر وأظل أعمل حتى العتمة لأقبض مرتباً قدره ستة دولارات اسبوعياً.وكان كل دولار منها يلوح لي كأنه البدر في الليلة الظلماء.

وانتهزت الفرص لأكتسب التهذيب وأتقدم ، فطالعت ألف كتاب مفيد قبل أن أبلغ الحادية والعشرين . ثم تركت المزرعة قاصداً ناتيك ماشياً مسافة مئة ميل لأتعلم السكافة ، وبلغ كل ما أنفقته في رحلتي هذه دولاراً واحـــداً لا غير . وما مرت عليّ سنة حتى انتخبت رئيساً لاحدى نوادي المباحثات في ناتيك.وبعد مرور ثماني سنوات ألقيت خطابي المشهور ضد الاسترقاق والاستعباد في مجلس الولاية الاشتراعي . وبعد اثنتي عشرة سنة صرت احـد أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي .

هذه قصة رجل عاش نصف عمره بائساً او كالبائس . وأخيراً صار واحداً من عظماء الامة . فلو لم ينخسه مهماز الفاقة لم يقطع هـــذا الشوط العظيم من مضمار الحياة .

أرأيت إذن ان الفقر قـــد يكون نعمة لا نقمة ؟ فلا تتأفف يا صاحبي ولا تتذمر ، بل رز نفسك وقل : ما ينقصني ؟ لماذا لا أكون انا الفتى الذكي النشيط مثل هنري ويلسن ؟ ألا تذكر قول المتنبي الفقير :

عجبت لمن له حـد وقد وينبو نبوة القصم الكهام
ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

والعم بشار بن برد ألم يكن من أبناء الفقراء ؟ أليس هو ابن ذاك الطيّان ؟ والجاحظ ألم يكن ابن جمّال ، ألم يكن يباع خبز وسمك ؟ ألا يعجبك هؤلاء الثلاثة ؟

فاذا كنت من محبي الثروة فكم من فقير أثرى ، واذا كنت تحب الشأن الرفيع فحسبك هنري ويلسن ، وإذا كنت ممن رزقوا قريحة وذهناً ذكياً فاقتدِ ببشار والجاحظ والمتنبي .

إن الفقر هو الذي يصيح بنـــا دائماً : الى العمل ، الى الكدّ . فأكثر الذين أمسوا أصحاب ملايين ، ومشاهير رجال ، وكبار محسنين ، ورجال دولة وعلماء وأدباء وشعراء إنما هم من الأشخاص الذين كانوا لا يعلون عليك قيراطاً واحداً ، ولا تفوق أحوالهم حالك بشيء .

إذا كنت مؤمناً بالآية القائلة : إن الله يرزق من يشاء ، فلا تنسَ انه تعـالى قال : وامشوا في مناكبها .

مـا أحلى قول العوام المنسوب الى ربهم حين يقولون : قال الله للانسان قم حتى أقوم معك .

فلا تنتظر إذن ان يهبط عليك الرزق في قفة ، لا تتكل على الحظ . فالحظ لا يأتي الى البيوت فيزورك كما يزورك المرشحون للنيابة .

الحظ كالنائب الذي يغرقك طوفان وعوده حتى إذا مـــا انتخبته وركب الكرسي صار عليك ان تفتش عنه ليل نهار لتصادفه مرة ..

الحظ لا يدرك إلا صدفة ، أمـــا العمل فهو في انتظارك دائماً . فاعمل ولا تخشَ الفقر .

لا فقير في الدنيا إلا ذلك الذي لا يملك إرادة ولا نشاطاً ، فلا تكن هــذاك الرجل ، تقبر الفقر .

الدين ايمان وعمل

نحن في هـذه الأزمة التي لا تنفرج أحوج الى توطيد الفرد منا الى أي شيء آخر مهما علا وسما. فـآفاتنا في شخصيتنا. لقد انحلت عرى الأخلاق وتفككت حلقات تلك السلسلة المفرغة التي تربط المجتمع .

يقول بعضنا ان اختلاف أدياننا يباعد بيننا ، كنت أظن ذلك مثلهم ، أمـا اليوم فصرت ابرىء الأديان من هذا ، واني لأتهم التربية الى ان تظهر براءتها .

مـا رأيت ديناً من الأديان إلا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فالتعاليم الدينية قوانين سامية وضعت لمقاومة الوحش في الانسان . فالرسل والأنبيـاء ، عليهم السلام ، يؤيد بعضهم بعضاً في الإيمان ، وهم متفقون على ان العمل الطيب هو حجر الزاوية في بناية الإيمان العظمى التي تأوي اليها الانسانية. وهذا حديث شريف عن أبي هريرة : أنا أولى النـــاس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة ، والأنبياء اخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد .

فما بالنا نحن إذا قيل لنـا تقوّموا ، تحابوا ، اتحدوا ، اعملوا صالحاً ، رحنا نلقي المسؤولية على أدياننا . فالإنجيل والقرآن متفقان على أن العمل الصالح صنو الإيمان ، وهما غاية كل دين ، ولم يكتفِ دين ما بالإيمان وحده .

فإذا تلونا القرآن الكريم وتصفحنا السورة الاولى قرأنا : وبشر الذين آمنوا

وعملوا الصالحات . ثم بعد قليل نقرأ فيها : من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً . ثم والذين آمنوا وعملوا الصالحات .

الى ان نبلغ الآية المائة والسادسة والسبعين فنقرأ التفصيل : ليس البر أن تولوا وجوهكم قِبَل المغرب والمشرق ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر وأتى المال على حُبّه ، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين .

ثم نسمع في سورة الرعد : الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب . فكلمة الإيمان ما وردت قط وحدها لا في القرآن ولا في الإنجيل . الكتابان متفقان على العمل الطيب الذي يقدمه المؤمن ، وفي هذا يقول الإنجيل: ليس كل من يقول يا رب يدخل ملكوت الله بل الذي يعمل إرادة أبي الذي في السموات .

وإذا انتقلنا الى الحواريين والصحابة سمعنا يعقوب يقول في رسالته مخاطباً الأخوة : ما المنفعة إذا قال أحد ان له إيماناً . فهل يقدر الإيمان وحده ان ينجيه إذا كان ليس له أعمال ؟ إن كان لنا أخ او أخت عريانين جوعانين ، فقال أحدنا لهما: اذهبا بسلام، استدفئا واشبعا، فماذا يكون عمل إذا لم يعطهما شيئاً ؟ إن الايمان بلا أعمال ميت في ذاته . أنت مؤمن ان الله واحد ، حسناً تفعل . والشياطين يؤمنون ويقشعرون. فإبراهيم لأجل عمله دُعي خليل الله ، فبالأعمال يتبرر الانسان لا بالايمان وحده . فكما ان الجسد بدون روح ميت هكذا الايمان بلا عمل ، فالعمل الصالح روح الايمان .

والإمام علي ، كرّم الله وجهه ، يقول في هذا : لقد سبق الى جنات عدن أقوام ما كانوا أكثر الناس صلاة ، ولا صياماً ، ولا حجاً ، ولا اعتماراً ، ولكن عقلوا عن الله آخر أمره .

وفي كلمة اخرى يقول : إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه عملاً يقربني الى الله فلا بورك في طلوع شمس ذلك اليوم .

ان كلمة كاهن خائف ربه خطرت لي في هذا المقام . جاء هذا الكاهن رجل يعرفه انه اغتصب بئراً لجاره وتملكها ، فقال للخوري : يا معلمي، شربت سهواً في ساعة الظهر ، أفسد صيامي ؟

· فأجابه ذلك الخوري ، وعيناه في الأرض : ردّ البئر لصاحبها ، واشرب ليل نهار ، وخطيئتك في رقبتي .

ان الذين يظنون ان هذه الفروض تبررهم هم كثيرون ، وأكثرنا يحكمون على الناس بناء على هذه المظاهر التي لم يكن السلف الصالح يقيم لها وزناً . اسمع ما روي عن عمر بن الخطاب :

« كان عمر، رضي الله عنه ، جالساً للقضاء في الناس ، فشهد رجل عنده في قضية ، فقال له عمر: ائتني بمن يعرفك ويزكيك . فأتاه برجل أثنى عليه خيراً، فقال له عمر : أنت جاره الأدنى الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟

فقال : لا .

قال : كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟

قال : لا .

قال : عاملته بالدينار والدرهم الذي يستبين به ورع الرجل ؟

قال : لا .

فقال عمر: أظنك رأيته قائماً في المسجد يهمهم بالقرآن، يخفض رأسه طوراً، ويرفعه اخرى .

قال : نعم .

قال : اذهب . فلست تعرفه » .

فبالعمل الصالح أمرت وتأمر الأديان،وهذا ما كان ينظر اليه دعاتها الأولون الذين تركوا لنا هذا الكلام المأثور الخالد .

وفي الحكايات المأثورة ، عن الفرس ، هذه القصة عن العمل الصالح :

رأى رجل ساعة القيامة في منامه . كان المذنبون يحملون خطاياهم على رؤوسهم ليقدموا الحساب عنها ، وكان الميزان في الوسط ، في كفتيه الموازين والأعمال ، والناس جميعاً من الملوك الى الدراويش ، من الأقوياء الى الضعفاء ، مشغولون بأعمالهم. وكان كل نبي يحدّث أمته قائلاً: لقد بينت لكم أحكام الله ، وحدثتكم عن يوم الحساب ، وأمرتكم بالمعروف ونهيتكم عن المنكر ، ثم دعوتكم الى عبادة ربكم وطاعته ، فبأي الأحكام عملتم ، وأي الأوامر أطعتم ؟

وفي أثناء ذلك رأى النائم رجلاً قد اتشح بثوب ازرق وعلى رأسه تاج الجنة ، وقد جلس في ظل العرش الأعظم . فمر بــه الرجل وسأله : أي عمل صالح قدمت في دنياك حتى كانت لك هذه الآخرة الصالحة ؟

فأجابه الرجل : حفرت بئراً على حافــة الطريق وغرست بجوارها شجرة ليشرب المسافرون والغرباء من البئر وليستريحوا في ظل الشجرة .

فلما استيقظ الرجل الحــالم من النوم كان مصفرّ الوجه من الخوف ، فحفر بئراً وغرس شجرة ، وبنى مضيفة للمسافرين من غرباء وفقراء .

وفي هذه الحكاية ما يذكرنا الآية الانجيلية القائلة : ان من يسقي باسمي كأس ماء بارد فان أجره لا يضيع . اننا لا نطلب من النــاس ان يحفروا آباراً ليشرب الناس منها، ولكننا نرجو ان لا يحفروا لهم حفراً يقعون فيها .. واذا لم يقدروا ان يغرسوا أشجاراً فــلا يكونوا ، على الأقل ، سياجاً من العليق والقندول ليقطعوا عليهم الطريق .

ان الصلاة صلة بين الخالق والمخلوق ، وما أشبهها إلا بطبق ذهبي نتقدم بــه من عرش ذي الجلال وعليه أعمالنا . أما الذي يصلي ولا يعمل خيراً فهو أناني يحسب الصلاة شبكة يتصيد بها نعم الله ليستبد بها .

روي عن الامام علي انه مرّ برجل يقرأ كتاب الله سحابة النهار فقال له ما معناه : اقرأه في الغداة والعشي واعمل فيما بينهما .

أما الذين يجعلون الصلاة احبولة فأستعير لهم بعض ما قاله بديع الزمان في ذلك القاضي : يسوّي طيلسانه ليحرّف يده ولسانه ، ويقصّر سباله ليطيل حبـــاله ، ويظهر ورعه ليخفي طمعه ، ويغشى محرابه ليملأ جرابه . ويكثر صلاته ودعاءه ليملأ جوفه ووعـــاءه ، وأقسم لو أن اليتيم وقع في أنياب الاسود بل الحيات السود ، لكانت سلامته منها احسن سلامته اذا وقع بين غيابات هذا القاضي ، فهو ذئب يفترس عباد الله بين الركوع والسجود .

اجل ، ان السائل الثرثار الملحف يرد . فلنصل ولنعمل فنستقيم كما أمرنا ونكون على خلق عظيم .

الدين إيمان وعمل ، ولما صار همّ النـــاس متجرهم حرّفوا الكلمة وقالوا : الصلاة عادة ، والصوم جلادة ، والدين معاملة .

رحم الله كل من يعلّم ويعمل ،وهدى من يكون كالجزار ، يذكر الله ويذبح.

اتكل على نفسك

من احترم نفسه اعتمد عليها ، أما اذا كان الرجل مُتكَلَة فيقضي العمر مغموراً يقنع بالكفاف ، والقناعة هنا أحط أخلاق الرجال ، وقد قال فيه الطغرائي متهكماً .

ملكُ القناعة لا يُخشى عليه ولا تحتاج فيه الى الأنصار والخوَلِ

ومن لا يكرم نفسه لا يُكرّم ، هكذا علّم ، منذ فجر العروبة ، الشاعر زهير الذي عدّه الفاروق أشعر العرب بقوله : ومَن ومن ومن ... ثم قال بعده صاحب لامية العجم :

وإنمـا رجلُ الدنيا وواحدُها مَنْ لا يعوّل في الدنيا على رجُلِ

ثم قال بعدهم شاعر مات في ريعان الشباب هذا البيت العائر :

لا خيرَ فيمن ليس ذا ثقةٍ من نفسه أسمعتِ يا نفسي

ان الاتكال على الآخرين آفة من آفات الشرق ، وداء من أمراضه القتّالة ، فالابن يظل متكلاً على أبيه حتى يوارى في ثرى رمسه ، والأب متى شقّ ابنه طريقه الى العمل قبَعَ هو في زاوية البيت وان كان لا يزال قادراً ومستطيعاً .

الدجاجة تطلّق فراخها متى صاروا مستطيعين بأنفسهم ، أما نحن فنظل

ننظر الى بنينا ، ولو اكتهلوا ، كأنهم ما زالوا قاصرين ، بينا أولادهم يكونون قد رشدوا .

لقد قلدنا الغربيين في كل شيء ، في عاداتنا وثيابنا ، في بنيان بيوتنا ومآكلنا ومشربنا ، وفي كل شيء من مقوّمات الحياة ، إلا في الانفصال عن أولادنا .

الغربيُّ يفصل ولده عنه حين يبلغ أشدّه ، فيتعاملان كصديقين لكل منهما كيس لا يمد الآخر يده اليه .

روى لي احد أنسبائي المهاجرين أن الأبناء هناك متى بلغوا الواحدة والعشرين فتشوا عن عمل يستقلون به عن والديهم ، واذا ظلوا تحت سقف البيت عُوملوا كمستأجر غريب يدفع شهرياً ما يترتب عليه من أجرة بيت ولو كان البيت ملك ابيه ، ثم يدفع ثمن الأكل كأنه في مطعم . وهكذا ينشأون مستقلين معتمدين على أنفسهم ، فإن أثروا فثروتهم لهم ، وان افتقروا ذاقوا نحسات مهماز الفقر الذي يزجيهم في سبل العمل حتى يصلوا الى واحة البحبوحة بأنفسهم غير متكلين على احد .

لا أذكر أين قرأت منذ مدة ان ابن روزفلت — لا أدري أهو روزفلت الاول اما الثاني — أبى ان يعمل في كنف والده رئيس جمهورية اميركا وقال : فلأشق طريقي بنفسي كما شقّ والدي طريقه ، وإلا فلست جديراً بالانتساب اليه . أما نحن فالاسرة تظل في كنف الوالد ويظل هو مسؤولاً عنها ، ولو صارت مثل النمل . اننا نسيء بهذا الى بنينا إذ يظل الولد ولداً ولو شبّ وشاب ، ولا يحترم نفسه ولا يعتدّ بها ويعتمد عليها . فاحترام النفس هو الذي يؤدي الى الثقة بها . وهاتان المزيتان هما اللتان تخلقان أعاظم الرجال ، وقد قيل : كن صديقاً لنفسك يكن الآخرون أصدقاء لك . ناهيك ان احترام الرجل لنفسه هو أول لجام يمنع النفس من التدهور والسقوط في مهاوي العيوب والنقائص والرذائل ، وهو الذي يؤدي بنا الى التعويل عليها .

فالأمير بشير الكبير حين ترك مسقط رأسه غزير لم تكن ثروته غير حمل جمَل ، ولم يكن له رفيق غير خادمة ورثها عن أبيه وكانت له كالمربية، ولكن همته وعصاميته وثقته بنفسه واعتماده على عبقريته الشخصية بلغته الحكم فكان أميراً كالملك ، وفي ظل حاجبيه يتفيأ الموت الى أن يقول له : قم فيقوم .

فإذا ورثت ثروة او سلطة ، او جاهاً فقد تضيع جميعها إذا لم تكن لك نفس تعتمد عليها في صيانتها ، أما إذا كانت لك نفس تثق بها فثق ان العظائم تصغر في عينيك كما قال المتنبي في مدح أميره .

أمّا كيف نحصّن تلك النفس فهذا لا يكون إلا إذا كانت موجودة، وإذ ذاك نحوطها بسياج من التقدير والاحترام ، ولكن ليس الى حدّ الغرور الجنوني ، فكم كان الشاعر ابو فراس محترماً نفسه ومعتمداً عليها حين قال :

سيذكرني قومي إذا جدّ جِدّهم
وفي الليلة الظلماء يُفتقَدُ البدرُ

وأبو الطيب المتنبي، وإن غالى في احترام نفسه وتبجّح في مدحها وتعظيمها، فهو مصيبٌ في ذلك ، ولولا هذا الاعتداد العظيم ما بلغَ ما بلغَ من الشهرة .

قد تخاله مجنوناً حين تسمع قوله :

وإني من القوم الذين نفوسهم بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما

ولكن الافتخار هو الذي وقف حاجزاً حصيناً دون المتنبي ودون الرذائل التي تمرّغ بها أكثر الشعراء ...

وليعلمْ كل واحدٍ منا أن قيمة نفسه مكتوبة على صفحات وجهه، كما تُكتب أسعار البضاعة عليها . فإذا رأى الناس ان سعرها رخيص فلا يكلفون نفوسهم بتقويها أكثر مما قوّمتها أنت . فكن محترماً نفسك ، واثقاً بها ليحترمك الناس ويعتمدوا عليك بمقدار ما تعتمد أنت على نفسك . وثق وتأكد ان عدم الثقة

بالنفس هو سبب أكثر ما يصيبنا من فشل. فاعتقاد المرء بقوته قوة له؛ والذين لا ثقة لهم بأنفسهم او بقواهم هم أضعف الناس وإن كانوا أقوياء . أما ما يظهر لنا من أنانية البعض، وإن كان بشعاً منكراً ، فهو في الغالب دليل على ما فيهم من المقدرة على تحقيق رغائبهم ،بل ربما كانت الأنانية ضرورية للرجال الممتازين، فإن الطبيعة تولّد في المرء رجاءً شديداً لئلا يتردد قبل أن يدرك الغرض السامي الذي انتدبته له ، ولهذا تجعل فيه هـــذه الأنية المفرطة التي تشمئز منها الناس أحياناً .

إن هذه الثقة بالنفس لهي قوة احتياطية لا بد منها لمجاهد ، كالذي يقول : ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل .

إن من يكون مقتنعاً كل الاقتناع بقدرته على إدراك أمجاد معينــة لا يلبث أن يدركها فعلا . قال أحدهم : إن الشجرة يجب أن تمـد جذورها في الأرض قبل أن تزهر وتثمر ، وعلى الانسان أن يقف على رجليه مستنكفاً من كل صدقة او مساعدة . إنهما تذلاّن أكثر ممـــا تعزّان ، وقد قال المتنبي في وصف أسده العبقري :

أنفُ الكريم من الدنية تاركٌ   في نفسه العـدد الكثير قليلا

وقد قال أحدهم : إن الاعتماد على النفس من أعظم أركان الأخلاق ، وهو يجعلنا أنسباء للرجال الذين أثبتوا حقهم الإلهي بالخلود في ذاكرة البشرية .

أمـــا الضعفاء المتكلون على سواهم فهم كما قال شكسبير : لا يعرفون ولا يستطيعون أن يعرفوا مزية الشمم والإباء .

إن من يخلص لنفسه يستطيع أن يكون مخلصاً للآخرين والعكس بالعكس. قد يسأل واحد : ومـــاذا يجب ان يرافق اعتمادنا على النفس كي ننجح ؟ نعم يا سيدي ، قال الذين صحبوا الدنيـا قبلنا : هيىء الرفيق قبل الطريق . يجب ان تكون الحماسة والنخوة او الطاقة ، رفيقة هذا الدرب ، لأنك إذا كنت رخواً

فلا يمكنك ان تعتمـــد على نفسك لأنك بلا نفس ، فالنفس هي دينمو الطاقة ، وبقدر ما يكون هذا الدينمو مولّداً تكون الاستطاعة وافرة .

علمتني الأيام أن ليس في شرع العزم شيوخ وشبان . وقـــد يوجد العزم في الشبان والشيب، فإذا كان رافائيل وبيرون وبو ماتوا في السابعة والثلاثين تاركين ميراثاً أدبياً فنياً خالداً ، فهوميروس نظم الاوديسه في شيخوخته ، والجاحظ كتب بخـــلاءه في التسعين . فإذا كنت آمنت بالاعتماد على النفس فزِنْ نفسك بميزان حميتك ونخوتك ، وإياك أن ترجّح ، فما تخدع إلا نفسك ...

كمال العلم بالحلم

عندما زرت دمشق أول مرة أعجبت بصناعتها النحاسية المزركشة، ولفتت نظري الكلمات الجامعة المحفورة والمنزلة في صدور تلك الأواني الطريفة، فاشتريت منها واحدة ما زلت أحتفظ بها لأجل كلمة رائعة وهي : كمال العلم بالحلم .

ومرّ بخيلتي حينئذ ما قالت العرب في مدح الحلم وكيف كانوا يعدونه رأس صفات خلفائهم وأمرائهم وأولي السلطان منهم . فهذا الأخطل يقول في أحبابه بني أمية : وأعظم الناس أحلاماً اذا قدروا . كما قال قبله زهير في الناس أجمعين:

وان سفاه الشيخ لا حلم بعده ... وان الفتى بعد السفاهة يحلم

أما المتنبي العنيف فلم يقبل الحلم على علاته بل راح يقول :

كل حلم أتى بغير اقتدار ... حجة لاجىء اليها اللئام

كما قال عن نفسه هو : ولا اصاحب حلمي وهو بي جبن .

والعرب ضربت المثل بحلم معاوية حتى رووا عنه الحكايات الكثيرة . منها انهم خاطروا رجلاً مرة على مال يؤدونه له إذا أضحك معاوية وهو في موكب الجمعة ، فاجترأ ذلك الرجل عليه وسلم من العقاب . ثم مضى معاوية لسبيله وقام

ابنه يزيد فخاطروا الرجل على مثل ذلك ، فلقي حتفه . فقــال فيه من شهد المشهدين : قتله حلم معاوية .

قال الفرزدق يصف رهطه :

أحلامنا تزن الجبال رزانة   وتخالنا جناً إذا مــا نجهل

أما معاوية فكانت أيام ولايته حلماً، فقلما غضب . وإن كان للغضب وقت ، فعنـد معاوية لا مجال لدخول الغضب الى أعماق نفسه ، فكأن بيت عنترة ، إذا صحّت نسبته اليه ، كان دستور ذلك الخليفة الداهية . قال عنترة :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب   ولا ينال العلى من طبعه الغضب

وقال معاوية معرباً عن حلمه ودهائه : لو أمسكت العرب بشمرة من طرف وأمسكت بهـــا من طرف ، لما انقطعت . فإذا أرخوا شددت ، وإذا شدّوا أرخيت ، وهكذا ضرب المثل بشمرة معاوية .

أما الغضب الذي يتمجدون به ، إذ لا يعقل ان تكون الحياة كلهـــا حلماً لا غضب فيها ، فهو الذي يكون عنـد نصرة الحق المهضوم ، والثورة للشرف الجريح ، ولذلك وصف به الشاعر جماعته فقال :

إذا مــا غضبنا غضبة مضرية   هتكنا حجاب الشمس او قطرت دما

وكأني بالعرب قد فرقوا بين الغاضبين فلم ينعتوا من لا شأن لهم بالغضاب بل سمّوهم سفهاء وجهّالا .

على هـــذا كانوا في الجاهلية ، أما الكتب السماوية فتشجب الغضب وتحذر الناس منه لانــه منبع الشرور ، والحكيم الحكيم هو ذاك الذي يتجنبه ويتقيه إذا شاء ان يحيا سليماً من الأذى .

وهؤلاء حكماء التوراة ينهون عنه في كل موقف، حتى تجرّأ النبي داود على ربه وهتف في ضيقته : الى متى يا رب تغضب كل الغضب وتتقد كالنار غيرتك.

أما ابنه سليمان فيوصي الانسان بالرفق واللين فيقول في سفر الجامعة : لا تسرع بروحك الى الغضب . واليوم نقول نحن : عدّ العشرة .

أجل ان الحلم يذهب شرور الغضب الكثيرة، وقد جاء في أمثالهم : الجواب اللين يصرف الغضب . تصوّر رب بيت ضيق الصدر فإنه يحوّل مأواه الى ساحة صراع وقتال . فزوجه وبنوه يكونون منه في جهد جهيد فينغص عيشهم وتهجر السكينة والطمأنينة ذلك البيت . ان صاحب الأعصاب المجهدة يجب ان يداوي هذا الداء العضال بالأناة والتروّي، وقبل ان يشعل نار غضبه فليفكر. فليطالع سير الرجال الذين اتصفوا بالحلم ، ويحاول ان يتجمل بأخلاقهم ما استطاع ، فيصبح من بيته في نعيم مقيم . أليس أفضل له من ان يعيش في جحيم !

قال المثل العربي : إذا عز أخوك فهن . وإذا مرّت عاصفة غضب على البيت فعلى أهل ذلك البيت ان يستنيموا لها حتى تمر وإلا فلا يعرف أحد ماذا تقتلع وماذا تهدم . ان الكلمة اللينة لهي مثل كأس ماء بارد يصب في قدر فائرة . أما إذا قابلنا الغاضب بغضب كغضبه فإننا نزيد النار اتقاداً .

قد يغبى عليك من كنت تعرفه إذا ما تملكته سَوْرة الغضب فتنكره كل الإنكار ، فالغضب يعمي الأبصار والبصائر فيقضي على المثل العليا ويخفي معالم الحق ضبابه الكثيف .

وإذا كنا نريد أن يجري كل ما في الحياة على هوانا كيلا نغضب ، فهذا أمر لا يتحقق. شاء الفرس أن يجنبوا الناس الغضب فأنشأوا هذه القصة الطريفة ، وجعلوا بطلها ابراهيم الخليل ، قالوا :

اشتهر ابراهيم الخليل بالكرم وحسن الضيافة ، وقد حدث أن مضى أسبوع ولم يحضر مآدبه أحد أبناء السبيل ، فخرج من بيته وسرح نظره في كل وجهة من أطراف الوادي حتى رأى رجلاً في الصحراء طويلاً كالسرو وقد اشتعل رأسه شيباً كأن الكبر قد كساه بثلجه .

فنادى ابراهيم عابر السبيل ، ولما أقبل عليه حياه ورحب به . وأعد الطعام فعزم على ضيفه فقبل الرجل شاكراً ، وكان يعرف كرم ابراهيم ويسمع أخبار مضيفته . وأقبل الخدم فأجلسوا الرجل في مكانه من المائدة بالتجلة والتكريم ، فلما اكتمل الجمع وأخذ كل مكانه بدأوا بذكر اسم الله الرحمن الرحيم ، ولكن الضيف لم يذكر اسم الأجل . تعجب ابراهيم من ضيفه الشيخ الكبير واستغرب أن لا يذكر اسم ربه قبل أن يضع الخبز في فمـه ، فسأله لماذا لم تفعل كما يفعل الشيوخ في اخلاص وايمان ؟

فقال الرجل : لا أستطيـع أن أفعل شيئاً لم أسمع عنه في سدنة بيت النار .

فأدرك ابراهيم أن ضيفه مجوسي من عبدة النـــار ، فاستولى عليه الغضب وأمسك بالرجل فرفعه من مكانه وطرده، حرصاً منه على أن لا يشارك الأتقياء أكلهم ، فبعث الله جبريل إلى ابراهيم يقول :

يا ابراهيم ، أنا تحملت هذا الشيخ ومنحته الحياة والقوة مائة سنة ، أمـا أنت فلم تستطع احتماله لحظة واحدة . إذا كان الشيخ يسجد للنار ، فما بالك أنت تكف اليد التي بسطها الله لك بالجود !؟

إن الأديب الفارسي كتب هذه القصة ليصيب عصفورين بحجر واحد ، فهو يعلمنا ألا نغضب ، ثم ألا نغضب لما لا يعنينا ولا يمسنا مباشرة .

وفي حكاية النبي يونان – يونس – مع ربه وأهل نينوى عظة كبرى لأهل الغضب . حرد يونان لأن ربه لم يضرب مدينة نينوى كما وعده . فانتحى مكاناً قصياً . صنع هذا النبي لنفسه مظلة شرقي المدينة ، وقعد تحتها يراقب ما يحدث في نينوى ، فخلق الله له يقطينة تظلله ففرح بهـا . وبعد حين سلط الرب على اليقطينة دودة فأيبستها ، ثم أرسل ريحاً شرقية حارة فضربت الشمس رأس يونان فذبل وتمنى الموت .

فناداه الله ، حسب قول التوراة ، وقال له : هل اغتظت حقاً من أجل اليقطينة !

فأجاب يونان : اغتظت حتى الموت .

فقال الرب : إذا كنت أنت شفقت على يقطينة ؟ أفلا أشفق أنا على مدينة؟

لم تقلْ التوراة كيف راح غضب يونان ، فلا شكّ في أن حوت هذه الموعظة قد ابتلع ذلك الغضب ... وعلّم يونان الحلم .

اللهم نجنا من الشرير . فلا نغضب للاشيء ، ثم لا يرضينا شيء .

اللهم ، لا تكثر بيننا اخوة يونان . فنغتاظ حتى الموت لذهاب يقطينة ، ولا يطيب لنا عيش حتى نخرب مدينة ... إن العمر قصير والغضب الحامي يقصره أكثر ، فما علينا إلا أن نداوي هذا الداء بالحلم . وإذا لم نستطع أن نطفىء ناره المتأججة فلا أقل من أن نتجنبها .

كانت امرأة ابراهيم لنكولن حمقاء بل مجنونة ، تغضب لأقل بادرة تصدر عن زوجها ، وقد عجز ذلك الرئيس العظيم عن الإقلال من غضبها . فبينما كانا يفطران يوماً إذا بها ترميه بفنجان القهوة فتحرق وجهه وتبللْ ثيابه ، واتقى شرها بالصمت طلباً للسترة ولكنها لم تكف عن السبّ واللعن حتى سمعت شتائمها المارة .

أما كيف كان يداوي لنكولن هذه المرأة السبابة الشتامة فيروي مؤرخوه أنه كان ينام في الفنادق النائية لأنه كان يخاف المجيء الى بيته حيث لا يسمع غير الشتم والسب واللعن. هذا ما يورثه الغضب أهله،فانه يؤذي الغاضبين والمغضوب عليهم ولا دواء لهذا الداء إلا الحلم، فهو الذي يخفف مرارة الحياة وقسوتها . ولو لم يكن الغضب شر الشرور لما جرى ذلك الحوار بين النبي يونان وربه في التوراة. حوار يدل على أن الله ندم على غضبه على نينوى ولم يشأ أن يخربها ، فغلب حلمه غضبه ونجت المدينة .

وفي القول الذي نسبه الجاحظ الى معاوية والحسن بن علي تصديق لقولهم : كال العلم بالحلم . قال معاوية : اذا لم يكن الهاشمي جوّاداً لم يشبه قومه ، واذا لم يكن المخزومي تيّاهاً لم يشبه قومه، واذا لم يكن الأموي حليماً لم يشبه قومه. فبلغ قوله الحسن بن علي فقال : ما أحسن ما نظر لقومه ! أراد أن تجود بنو هاشم بأموالها فتفتقر الى ما في يديه ، وتزهى بنو مخزوم على النـــاس فتبغض وتشنأ ، وتحلم بنو أمية فتحب .

سير العظام تخلق العظام

نحن قوم خياليون يروعنا مشهد الحقائق عارية فنلجأ الى الخيال نتذرى به، والى الصوفية فتشغلنا عن العمل المثمر . تهنا في دنيا أحلام اليقظة مكتفين بما عندنا من ميراث تاريخي ، ثم تمادينا في غرورنا ، فأمست تلك الأحلام الهرمة الشائخة ، رسالة ، وأصبحنا جميعاً رسلا وفلاسفة .

فماذا تنفعنا العزلة يا أخي ، بل ماذا يجدينا وقوفنا في عرض الطريق غير مرور القوافل بنا ضاحكة هازئة . ما رأيت عظيماً واحداً قعد كالدراويش في واحة الأحلام والأماني، ولكنني رأيت مواكب العظماء ضاربة في عرض الصحراء متخبطة في غمار البحار ، ولولا المغامرات لما كان في الدنيا عظيم ، بل كانت الدنيا سواسية كأسنان المشط ..

فنصيحتي لكل قارىء هي أن يضع سير الرجال العباقرة موضع قصص المغامرات المصنوعة ، وحكايات الحب ، التي لا تزيد على أنها حوادث تتكرر بصور مختلفة .

لقد أصبح التعليم اليوم عملياً ، فلماذا لا تكون قراءتنا مثله عملية ؟ فلنقرأ في أوقات فراغنا سير رجال نهضوا باوطانهم من الحضيض الى الذرى فصاروا هم قمماً انسانية خالدة . ان قراءة قصة هؤلاء تدفعنا الى المحاولة فنصيب ، ولو بعض الشيء ، مما أصابوا .

فاذا قرأنا تاريخ رجال البر والاحسان وماشيناهم في طريق حياتهم فلا شك في أن تلك المرافقة تحرك فينا عاطفة الاحساس الى البؤساء والمساكين. وإذ تصفحنا سيرة مثالي رفيع الأخلاق، حاولنا أن نقتبس من فضائله شيئاً تزدان به شخصيتنا.

لهذه الغاية النبيلة كتبوا السيرة النبوية وكتاب الاقتداء بالمسيح. فعلينا نحن في هذا العصر أن نكثر من قراءة سير الأبطال. ففي السياسة أبطال نبلاء حرّروا الامم والشعوب، وفي الادب فلاسفة وكتّاب وشعراء مرّوا عجالى في مجاهل التاريخ ولكن خطواتهم الرصينة عبّدت الطريق للذرية. فاذا قرأت، مثلاً، سيرة فتى نجم من كوخ متداعٍ ثم صار زعيماً مطاعاً وقائداً أكبر لأمته، أفلا يحرك ذلك همتك مهما كانت ساكنة؟ ألا تتمنى في قعر نفسك لو تستطيع أن تعمل ولو بعض الشيء؟ فاقرأ كثيراً من أخبار هؤلاء، فلعلك واجد عند بعضهم ما يلائم ميولك وأهواءك.

لا تحتقر نفسك ولا تقل من أنا. فأعاظم الرجال ليسوا خيراً منك إلا بجدهم وثباتهم، وسعيهم الحثيث نحو الغاية.

اسمح لي أن أصارحك القول: ان أجلّ ما أقرأ فائدة هو ما تنبئني به الكتب عن هؤلاء العباقرة، وخصوصاً من كانوا يسقطون في معترك الحياة ثم ينهضون ليدخلوا في معترك جديد.

قد يستولي عليّ الكسل صباحاً، فأتذكر مثلاً أن أحد هؤلاء الرجال كان ينهض في الساعة الفلانية، ويعمل ساعات، فأنهض حالاً الى عملي متشبهاً به وان لم أدرك ما أدرك. ان تاريخ الرجال العظام هو خير مدرسة للناس، فعلى السياسي أن يقرأ سير السياسيين، وعلى التاجر أن يقرأ سير أكابر رجال الأعمال، وعلى الأديب أن يقرأ سير الأدباء، ففي هذه السير دروس عظيمة الفائدة، وهي تدفعنا دائماً الى الأمام.

اذا كنا نحب كثيراً بطل قصة خيالي ونتشبه به فكيف بنا اذا قرأنا سيرة

رجل عرفنا أنه عاش كما نعيش نحن وعمل ما نعمل ؟ فلو لم يتشبه نابليون بمن تقدموه من أبطال لمـــا كان ذاك من عمالقة التاريخ ، وكذلك قل في جميع الرجال ، وعلى اختلاف أشكالهم ومشاربهم وميولهم .

ليس تاريخ الامة إلا تاريخ بضعة من رجالها ، فهؤلاء الرجال العظام هم الذين يوجدون أمة لم تكن ، أو يبعثون أمة شاخت وهرمت حتى دفنت حية في ظلمة تاريخها ..

من يستطيع أن يتخيل النهضة العربية دون أن تمر أمامه صورة أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وهارون والمأمون وعبد الرحمن وغيرهم . ومن يتمثل أثينا بدون ديمستين ، وسقراط وافلاطون ، وأرسطو . وهل تاريخ رومية غير قيصر وشيشرون وأوريليوس ، ويوستانيوس . وهل كانت قرطجنة لولا هانيبال ؟.

لا تعجب ان رأيتني أخلط لك رجال السيف برجال القلم . انني أنحو بذلك نحو فولتير. كتب فولتير الى احدهم عندما كان يعد كتابه (تاريخ لويس الرابع عشر) : انني لما طلبت منك بعض نوادر عن عصر هذا الملك لم أعن الملك بقدر ما عنيت الفنون التي تمت وازدهرت في زمانه . فأنا أوثر التفاصيل التي تتعلق براسين وبوالو وموليير وبوسيه وديكارت وأمثالهم على ما يتعلق منها بمعركة ستنكرك فإن الذين يقودون الجحافل والأساطيل لا يبقى بعدهم إلا اسمهم. وأية نتيجة حصلت للجيش البشري من الفوز في مئة معركة؟ أما الرجال العظام الذين ذكرتهم ،فهم من أدخلوا المسرّة والبهجة في القلوب،ولا تزال آثارهم تقوم بذلك.

فالرجال العظام لا ينحصرون إذن ، كما زعم فولتير ، فيمن ولوا الاحكام وحكموا الشعوب ، بل هم في نظر هـــذا الفيلسوف من وفروا السعادة للبشر ، وهدوا الناس سبل الحرية ودعوا الى كل ما يحقق المثل الانسانية العليا . وهؤلاء نجدهم بين الملوك أيضاً ، فقد وجدت على قبر ملك مصري عاش منـذ أكثر من أربعين قرناً هـــذه الكلمات : انني لم أؤذ ولداً ، ولا ظلمت أرملة ، ولا أهنت راعياً ، ولم يكن في أيامي شحاذون ، ولا مـات أحد من الجوع . ولما جاءت

أعوام المجاعة زرعت أراضي مملكتي كلها حتى أقصى حدودها الشمالية والجنوبية، وأطعمت كل سكانها موجداً لهم القوت فلم يمت أحد فيها جوعاً ، وقد جعلت الأرملة تعيش كما لو كان لها بعل .

فمن يقدر ، في عصرنا ، ان يقول هذا القول او يدّعي هذا الادعاء ؟ أليس في هذه (القبرية) تاريخ حقبة من الزمن ، وما هي إلا قطعة من حياة رجل عظيم أخلص لأمته وأدّى الأمانة التي في عنقه ؟! فلو قرأ هذا من ألقيت اليه مقاليد الشعب ألا يدفعه مثل هذا الكلام الى العمل الجدي بدلاً من طلب الجاه الذي يذهب مع طالبه الى غير رجعة ؟ هذي هي فائدة مطالعة السير، انها تمزق برقع الغرور عن أعيننا فنرى الحقيقة كما هي .

إن في الكون أناساً طبعوا على الشرف والنبل،فرافق هذا الشرف نفوسهم، فكانوا خيراً وبركة لأمتهم ، وزانوا تاريخها كما تزين الجوهرة العقد الثمين ، وسير هؤلاء يجب ان نطالع . فالرجال العظام الحقيقيون هم من يتجسم الشرف في أعمالهم، وتنطق به ألسنتهم فيمسي سنة وشريعة وهم يحيون مع هذا النبل وفيه وبه. ان التسامي عندهم إله معبود، وهو الذي جعلهم عظماء مقدمين مستقيمين.

قال أحد المشاهير العظام : لم يصل أحد الى العظمة الحقيقية إلا وقد شعر بأن حياته مختصة بأبناء جنسه ، وان ما أعطاه الله فقد أعطاه إياه ليخدم به البشرية .

إن مثل هذا الشعور لا يولده فينا إلا اطلاعنا على سير من اتصفوا به ، وبهذا نصحنا فيلسوف المعرة قائلاً : خذوا سيري فهنّ لكم صلاح . لم يقل خذوا علمي لأنه يعلم ان القول غير العمل . قد يختلف الناس في أقوال المعري ، أما سيرته فإنسانية فاضلة، وهؤلاء الأفاضل هم سرج الأزمنة ومنارات الدهور والأجيال، فلنتعرف بهم لكي نفلح .

نحو عالم افضل

١

وجد الناس فكانوا ولا يزالون يتخبطون في ظلمات السعي وراء انشاء عالم جديد ، عالم يستريحون فيه ، عالم كله سلام وطمأنينة يأتيهم فيه رزقهم رغداً ، كما كان جدهم في الجنة يعمل بقول الحطيئة : واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي ... أما نواميس الحياة فكانت دائماً تقطع عليهم الطريق فيظلون مسيرين غير مخيرين .

إن هذا الموضوع « حول عالم أفضل » الذي كثر التحدث عنه في هذه الأيام يوجه الكاتب إلى التفكير بخلق عالم مثالي لا شر فيه . وعندي أنا ان الشر ضربة لازب بخلاف ما قال النابغة في ممدوحية الغساسنة. وإذا عدنا إلى ما وراء التاريخ رأينا أن آلهة البشر الأولى كانت آلهة حرب ، وتلك الآلهة هي التي خلقت انيبال والاسكندر ، وبالرغم عن أحلام اشعيا وأفلاطون بعالم فاضل منقّى من جميع أدران الشر .

فإذا نظرنا في أساطير الأولين رأينا أن آلهة فينيقية واليونان وجميع الآلهة القدماء آلهة تتطاحن فترعج السماوات والأرض . يقاتل بعضها بعضاً قتالاً

لا هوادة فيه ، يخلقون العُدد اللازمة ارتجالاً لأنهم آلهة يقولون للشيء كن فيكون .

فهذا هركيل ، الذي عبدته فينيقية زمناً طويلا ، زعمت أساطير الأولين أنه زحف على المغرب بجيوش لا تحصى . جمعها من كل جهات المشرق ، وكان هو على رأس تلك الجيوش الجرارة فافتتح قبرس والجزائر المجاورة ، وجزر الأرخبيل ، وبلاد اليونان ، وكل ما عمر ربنا من بلدان فاستولى عليها . ثم عاد هركيل بعد تلك الحرب الأولى العظمى ليموت حتف أنفه في قادش .

ولم يكتفوا بفحول الآلهة الذكور فجعلوا مينرفا آلهة الحرب . زعموا أنها ولدت من جوبيتر فخرجت من دماغه لتجعل ربة الحكمة والفنون الحربية ، حتى زعم فانيلون ، وهو يكاد يكون من المعاصرين ، بالنسبة إلى العصور التي نتحدث عنها ، فوصف لنا جمال وجه مينرفا كأنه كان معاصراً لها ، فقال انه لم يكن فتاناً ، يهيج الشهوات في الناظر اليه ، كجمال فينيس ، ولكنه كان جمالاً طبيعياً خالياً من التصنع يحرك على الاحتشام ، وكل ما فيها كان موقراً شريفاً مملوءاً من العزة والشهامة . يقول هذا فانيلون متحدثاً عن الاهة خرافية كأنه جاد غير هازل . والأساطير تجعل شعار هذه الالاهة مجناً ودرعاً مصنوعين من جلد أحد الجبابرة الذي غلبته . وهوميروس شاعر اليونان الأعظم جعلها مدرّبة ومساعدة لليونان في حرب طروادة .

ثم يأتي مارس إله الحرب العظيم فيكون في عون الطروادين ، وقال في وصفه الشاعر اشيل : إنه إله ميال إلى الاتلاف والخراب ، ولا شيء مقدس لدى قساوته وتحت يده الثقيلة . وبالاختصار حميت المعركة ، وانتقلت ساحتها من بين بني البشر ، فصارت بين آلهتهم ومعبوداتهم . وها هي مينرفا ترمي الإله مارس بحجر فجرجته ، فضج ضجة عشرة آلاف رجل ... ولما سقط على الأرض غطى بجسده مساحة سبعة فدادين .

وتنتقل فكرة الحرب في ظلمات تلك العصور حتى تبلغ عصر بني اسرائيل ،

فاذا إلههم إله الحرب أيضاً . يصفونه بأنه ينتصر لقومه وينتقم لهم ، كما جاء في سفر الخروج . يقول الرب : اني نحو نصف الليل أخرج في وسط مصر ، فيموت كل بكر في أرض مصر ، من بكر فرعون الجالس على كرسيه الى بكر الجارية التي خلف الرحى ، وكل بكر بهيمة . خذوا باقة من زوفا واغمسوها في الدم ، ومسوا العتبة العليا حتى اذا اجتاز الرب ورأى الدم على العتبة يعبر عن الباب ، ولا يدع المهلك يدخل بيوتكم ليضرب .

وها هو داود يترنم في زبوره ، يسبّح ويمجّد يهوه ويسميه دائماً رب الجنود فيقول : في ضيقي دعوت الرب ، والى إلهي صرخت ، فسمع من هيكله صوتي ، وصراخي قدامه دخل اذنيه . فارتجت الأرض ، وارتعشت أسس الجبـــال . صعد دخان من أنفه ، ونار من فمـــه آكلة . برد وجمر ونار ، أرسل سهامه فشتتهم ، وبروقاً كثيرة فأزعجهم .

وفي مزمور آخر يقول في وصفه : الرب القدير الجبـــار ، الرب الجبار في القتـــال ، ويكسر أرز لبنان ، كما يقول داود ، إكراماً لسواد عيون شعبه اسرائيل .

ويتطوح داود فيقول لربه : خاصم يا رب مخاصمي ، وقاتل مقاتلي ، امسك مجناً وترساً وانهض الى معونتي ، واشرع رمحاً وصد تلقاء مطاردي .

وفي مكان آخر يقول أيضاً : عجت الأرض ، زعزعت الممالك ، أعطى الرب صوته فذابت الأرض ، رب الجنود معنا ...

أما حين يشيخ داود فيتغير رأيه في إلهه ، فيقول في آخر زبوره : حنان رحيم ، طويل الروح وكثير الرحمة . الرب صالح للكل ، ومراحمه على كل أعماله (مز ١٤٥/٨) .

وكأني بأشعيا الذي جاء بعد داود الذي اعترف أخيراً أن الرب للكل ، شاء أن يحلم بعصر سلام ، ولكن حلمه هـذا كان بعيد المنال لا يمكن أن يكون

فقال متنبئاً عن عـالم جديد : ينصف فيه لشعوب كثيرين ، فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل ، لا ترفع أمة على أمة سيفاً ، ولا يتعلمون الحرب فيما بعـد . ويخرج قضيب من جذع يسى يقضي بالعدل للمساكين ، ويحكم بالانصاف للبائسين ، فيسكن الذئب مع الخروف ، ويربض النمر مع الجدي ، والعجل والشبل والمسمن معاً ، وصبي صغير يسوقها . والبقرة والدبة ترعيان . تربض أولادهما معا ، والأسد كالبقر يأكل تبناً ، ويلعب الرضيع على سرب الصل ، ويمد الفطيم يده الى جحر الافعوان ، فلا يسيئون ولا يفسدون لأن الأرض تمتلىء من معرفة الرب كما تغطي المياه البحر .

وقبل أن يخرج قضيب من جذع يسى سمعنـــا صوتاً في اليونان هو صوت فيلسوفها أفلاطون صاحب المدينة الفاضلة – جمهورية أفلاطون – فتصور عالماً مثالياً كما لا يزال الإنسان يتخيل ويتصور ويحاول الابتعاد عن الشر . ولكن تخيلات هذا الفيلسوف العظيم قد ذهبت عبثاً ، وما زال الناس يتخبطون في ظلمات أطماعهم جارين ذيول الجشع مقتتلين على حطام الدنيا ، متعثرين بأذيال الطمع ، إلى أن ظهر يسوع وبشر برسالة السلام فسمع العالم صوتاً جديداً ، صوتاً يدعو الناس أجمعين إلى طاعة الله ، إلهه وإلههم . دعا إلى المحبة دعوة صارخة حتى قال : من ضربك على خدك الأيمن فحول له الأيسر ، ومن طلب رداءك اعطه ثوبك ، ومن سخرك ميلاً امش معه ميلين .

ولكن كل هـــذه التعاليم لم تثمر وظل الانسان يتدهور في هوة الشر ، وينقلب من درك إلى درك . وجاء محمد ، رسول الله ، فعلم ان الله غفور رحيم منزّه عما وصف به سبحانه وتعالى ، دعـا الى التسامح والأخوة العالمية مناصباً العبودية العداء .

ثم قام من أتباع عيسى ومحمد رجال كثيرون يدعون الى نصرة تعاليم المرسلين لهدى الناس ، ولكن آذان الناس صمّت عن سماع كلام المرسلين فكانوا كأنهم صم ، بكم ، عمي ، متى لاحت لهم فريسة لذيذة .

فهذه الصوفية تنادي بأن الكون جزء لا يتجزأ ، هـــذا هو أحد فلاسفتها ينحو نحو افلاطون راسماً للبشر عالماً جديداً ، يشد أزره في دعوته (السلامية) فريق من شعرائنا إلا واحداً منهم فإنه لم يؤمن بالسلام،ما دامت جرثومة النزاع متأصلة في النفس البشرية ، فقال في ذلك :

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من أمره ما عنانا
وتولوا بغصة كلهم منه   وان سر بعضهم أحيانا
كلما أنبت الزمان قناة   ركب المرء للقناة سنانا

فهو يرى ان الشر طبع فينا ، وان النضال مستمر ما استمرت هـذه الميول في النفس البشرية .

وفي الحقبــة الأخيرة من عصرنا الحاضر الذي يسمونه عصر النور ، يفكر الناس بقطع دابر الشر، وخلق عالم جديد يستريح فيه الانسان من متاعب الحياة ومشقاتها ، ومن الحروب وضرباتها وويلاتها ، فيخلقون مؤتمر لاهاي، ثم جامعة الامم ، ومنظمة الامم المتحدة ، وأخيراً الأونسكو .

أما ما يكون فهذا علمه عنـد الله ، عز وجل . ولكن الطبخة الطيبة تبين من المصر ، فلا أظن ان المشاء يكون كما تتخيل ونتفهم .

أما العالم الذي أراه أنا فهو هـذا العالم الذي نعيش فيه ولا يمكن ان يكون غير ذلك . وكلما بعد عهد الانسان بالآلهة المحاربين الذين عبدهم في أظلم العصور اقترب الانسان من أخيه الانسان وفهمه . ان عالم الاختراعات التي قربت شقة السمع والعيان بين البشر هي التي ستقرب بينهم وتؤلفهم فيتفاهمون ويأتلفون ويطل علينا عالم جديد .

انني أرجو منك ، منـذ الآن ، أيها القارىء الكريم ، ألا تطمع بالنوم على ظهرك ليلاً نهاراً وأن يأتيك رزقك الىالبيت مطبوخاً وما عليك إلا ان تلتهمه، فلا غصة ولا فواق ، ولا ولا .. يجب ان تعلم انك لا تلتذ مـــا لم تتعب ، ولا تترقى ما لم تنافس وتناضل ، فلا بد لك من عرق جبينك لتأكل خبزك .

٢

عاش الناس قبلنا حالمين ، عاشوا في دنيا أساطيرهم وخيالاتهم مترجين عالماً أحسن وأفضل . وقد ضرب صاحب ألف ليلة وليلة الرقم القياسي فيما ترجى ، فجعل المستحيلات عصا يتوكأ عليها أبطاله ويقضون مآربهم الاخرى . حقاً ان الانسان عمل كثيراً واكتشف أسراراً كثيرة وخطيرة إلا سراً واحداً لم يستطع اكتشافه ، ألا وهو سر العدالة والسّلام والقناعة والرضا بما قسم له .

فمن عهد تلك القميص التي خاطتها حواء من ورق التين ، الى عهد فساطين الدنتلا والبوبلين لا يزال الانسان لا يهدأ ولا يقرّ له قرار ، ينظر الى جاره بعين محمرّة ويحاول القبض والاستيلاء على ما يملك .

ما لي وما لغيري ؛ فلأحدثك عن نفسي : قد لبست القنباز والشروال ، والعباءة والعقال ، كما ألبس اليوم ما صنع على مثال آخر طراز . ومع ذلك ما وجدت تغيراً في ملاذي وراحتي وعواطفي وإنسانيتي . وسكنت البيوت الرفيعة العماد ، كما أويت الى البيوت المتواضعة ، ورتعت في قلب المدينة الكبرى كما عشت في القرية النائية فما رأيتني في تلك خيراً مني في هذه .

وركبت الحمير والخيل والبغال ، والعجلات والسيارات – ولا أقول الطائرات فما طرت بعد – فما زادتني الأخيرة نشاطاً ولا منحتني قوة ، ولا وفرت لي لذة .

فقد تقول هذا رجل رجعي . لا يا عزيزي فما أنا ذاك ، ان أنا إلا رجل عاشي الزمان ، وان شئت فقل يسبقه ولا تخف .

انني أروي لك ما أشعر به وما أحسسته ، فكل ما حدث في زماني من اختراعات ما رأيته غيّر شيئاً من أخلاق الناس وميولهم . فالبغض ظلّ بغضاً وزاد ، والطمع استحال جشعاً وكلَباً . هذا اعتراف مني أمامك وقد سجلته على نفسي .

إن ما كنا نعده خرافات وأوهاماً قد صار على عهدي حقائق ملموسة . كان أستاذنا الذي علمنا الأدب العربي يرتبك في شرح هذا البيت الذي كان يعجبه جداً ، إلا أنه لم يكن مرتاح إلى ما فيه من مبالغة :

غنت سليمى بالعراق فأطربت   من كان في أرض الشآم نشيدا

فيحاول أن يخفف من إغراق الشاعر وغلوه ، إلى أن جاءنا ذات يوم يقول لنا : قد تحقق زعم شاعر سليمى التي غنت بالعراق ، واخترعوا الفونوغراف . فصحنا : الفونوغراف ! وما هو الفونوغراف؟ وأخيراً رأيناه وسمعناه. وعندما جاءنا الراديو بعد الحرب الأولى ترحمت على الأستاذ وقلت: الراديو يحقق الفكرة أكثر ، فليت أستاذنا ظل حياً ليراه ويسمعه .

وكان هذا الأستاذ عينه يهز برأسه حين يشرح لنا (التمني والترجي) ويردد هذا البيت :

أسرب القطا هل من معير جناحه
لعلي إلى من قد هويت اطير

فيقول : ما أقلّ عقل الإنسان وما أطمعه . اسمعوا يتمنى أن يطير ، فما عليه لو مشى على مهله ! ثم رأيت طائرة فدرين تحلق لأول مرة في سماء الشرق فقلت : أين أنت يا معلمي ، لترى مطامع الإنسان تتحقق .

واني لأتخيل جدي ، وقد استيقظ ورأى المخترعات الجديدة ، أفلا يصيبه ما أصاب رجال الكهف ؟

قد شهدت بيروت تستضيء شوارعها بالكاز والغاز ، وشهدتها مضاءة بالكهرباء ، وشهدت أناساً من ماضين وحاضرين فما رأيت هؤلاء أسعد حالاً ولا أفضى بالاً .

رأيت الناس يلبسون الخام المصبوغ ويجلسون على مقاعد من الخيش

والجنفيص ، رأيتهم في القصور الحاضرة المنيفة ، حتى إذا سألتهم عن حالهم هذا. وحالتهم تلك ، فما سمعت إلا تأوهاً .

يقولون لنا اننا مقبلون على عالم تخدمنا فيه الآلة فتغنينا عن الخدم والحشم . وزعموا أننا سنعيش على (الخلاصات) فلا نضطر إلى مضغ وبلع ، وإذ ذاك ندرك السعادة والنعيم المقيم . أما أنا فما أرى ان العالم يصلح أكثر إذا خلا من العمل ، ولعمري كيف تدرك لذة بلا تعب . أما خبرونا عن أغنياء العالم الذين لم يذوقوا طعم التعب ، انهم يتسلقون الجبال العالية ليشعروا بلذة الراحة بعد التعب .

الطائر يلتذ بالاسفاف كما يلتذ بالتحليق إلى أبعد مدى يستطيع إدراكه ، وكذلك الإنسان فلا يعيش عيشة لذيذة إذا لم تتنوع حياته ، بين بؤس ونعيم ، وهناء وشقاء . وقد قال أحد القدماء : لا تأكل لقمتك إلا مغموسة بعسل ، أي لا تأكل إلا بعد تعب جوع فتستطيب الأكل مهما كان رديئاً .

إن الحياة الخالية من كل شر وعناء لهي أغنية على وتيرة واحدة ، ومن تروق له مثل هذه الأغنية؟ فالحياة لا تحلو وتطيب ما لم تتنوع. وإنني لا أتصور حياتي الهانئة في الجنة حيث النعيم المقيم إلا وأخشى مللها وإن كان يترجاها غيري ويتفانى في سبيل إدراكها .

إن من يطلب عالماً لا شر فيها كمن يطلب لحماً بلا عظم ، وناراً بلا دخان ، ونوراً لا يحرق . والذي أراه ان خير ما في هذا العالم هو هذا التقلب الذي فيه . فلا تحلو الطبيعة إلا بهدوها وثوراتها ، ونسيمها وعواطفها ، وبردها وحرها . ما أصدق قول أبي تمام :

وإني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

أعرف رجلا عاش فقيراً وكان أسعد الناس . يحمل حملة حطب لم تحمل أعظم منها امرأة أبي لهب ، ولما رزق مالاً استراح واسترخى ، وترهل وجاء

الموت . وقد سئل أي الحياتين هي أحب اليه، فأجاب : لولا هاتيك ما شعرت بلذة هذه .

فالعالم الأفضل الذي يصبو اليه الانسان ويحلم به لن يكون إلا هـذا العالم ، فكل راحة نكسبها نجد متاعبها منها وفيها ، وهيهات ان نجد عالماً بلا شرور ودواهي ،ولا أخالني أكفر اذا قلت: انه لا بد من الشر لأنه من مقومات الحياة. تصور إنساناً لا يطمح ولا ينافس، ويرضى بالحالة التي هو فيها ، فأي تقدم يدرك وماذا تجني الانسانية من وجوده ؟

اخترع الله سفينة لنوح ليحفظ الجنس البشري من الفناء ، وها هو الانسان الذي حفظه الله يخترع المدرعات والنسافات والغواصات والطائرات والحاملات وأخيراً القنبلة الذرية فالهيدروجينية ليقتل ويدمر ، ومع ذلك ما زال النـاس يعيشون كما كانوا يعيشون في عهد الكبش والمنجنيق .

وما أرى الشقاء في الحياة إلا كالسموم التي هي في دمائنا . لا بد لنا من كمية منها ، وإلا فلا تصلح دماؤنا . ان القليل من السم دواء ، أمـا كثيره فيقتل . ولا شك في ان عالم اليوم خير من عالم الأمس ، كما ان عالم الغد سيكون خيراً من عالمنا شكلا ، وأما الجوهر فواحد . لا بد للانسان من الشقاء ليدرك لذة الحياة، فاللذة تصبح شقاء ، والانسان يسأم ويضجر .

وخير ما أختم به مقالي هذا هو حكاية سمعتها او قرأتها صغيراً :

كان رجل تقي يسكن كوخاً تقوم الى جانبه تفـاحة . وكان ذاك الرجل لا يملك من أشجار الدنيا غيرها ، ولكنه قلما ظفر منها بثمرة . فلا تكاد ان تنضج واحدة حتى يقطفها أحد الصبيان . وفي احدى أمسيات الصيف ضافه درويش عليه سيماء الخير والصلاح ، فسأله أن يبيت عنـده ، فعشاه على فاقته ومدّ له فراشاً لينام ، فركع الدرويش ليصلي ، ثم انفتل من صلاته وقال لمضيفه : تمنَّ عليَّ فأسأل الله ان يُنيلك ما تبتغي .

فضحك الشيخ ولم يصدق ما يسمع . فقال له الرجل : جرّب ، فأنت لا تخسر شيئاً إذا لم يستمع ربي صلاتي . فاستضحك الرجل وقال لضيفه : اسأل لي ربك ان لا ينزل من يصعد الى تفاحتي إلا بإذني .

فصلى الدرويش لربه بحرارة وإلحاح شديدين، ولما وثق من استجابة الله تعالى له ، نام ملء عينيه . وعند الصباح ودّع مضيفه شاكراً سائلاً له الثواب من الله تعالى لأنه آوى في بيته أحد أبناء السبيل .

وقضى الرجل نهاره يراقب الغزاة الذين يشنون الغارة على تفاحته ، وما جاء الليل حتى سمع حركة في التفاحة ، فأضاء قنديله ليرى ، فوقعت عيناه على صبي قد ملأ عبّه تفاحاً ، وهو يحاول النزول ولا يستطيع . فتذكر ضيفه تلك الليلة وأدرك انه نبي ، وقد استجاب الله طلبته، فقال للولد : عاهدني يا بني ألا تقرب تفاحتي لكي آمرك بالنزول .

وكان العهد وكان النزول ، فطار الخبر وابتعد الناس عن التفاحة المرصودة ، ونعم الرجل بأكل التفاح زمناً . وفي ذات ليلة جاء الموت ، فظنه صاحبه الذي صلى في قديم الزمان ، فقال له الزائر : لا ... أنا عزرائيل، جئت لأقبض روحك .

فتنهد الرجل الشيخ وقال بألم : نعم ، حان الوقت ... طال عمري وكبرت جداً . ولكن لي رغبة يا عزرائيل ، أسألك إياها ، وهي أن تصعد الى التفاحة وتأتيني ببضع أثمار فأنا شيخ لا أستطيع التسلق . فخف عزرائيل الى التفاحة وقطف بعضاً من ثمارها ، ولكنه لم يستطع النزول . فضحك الشيخ الذي هو (الشقاء) وقال له : عاهدني يا عزرائيل على أنك لا تجيئني إلا عندما تنتهي من قبض أرواح جميع الناس . فعاهده ، وصدر أمر الشيخ بالنزول .

قال الراوي : وهكذا سيظل الشقاء ما بقي انسان على وجه الأرض .

القصة حكاية خرافية ، ولكننا كثيراً ما نرى في الخرافات روح الحق . فقد

نتصل بالمريخ وقد ... وقد ... ولكننا مهما عملنا فلا نستطيع أن نمحو الشقاء لا من الارض ولا من العوالم التي نكتشفها . فسعينا وراء عالم أفضل لنستريح من الشقاء والألم لسنا ببالغيه مهما سعينا ومهما رسمنا من الخطط لهذا العالم . وكأن الفرزدق قد عنانا نحن بقوله لجرير :

ولئن رغبتَ سوى أبيك لترجعن
عبـــداً اليه كأن أنفك دمّلُ

الحظ اعمى

يمشي الانسان من المهد الى اللحد ويعيش معه ثلاثة : اثنان لا يفارقانه أبداً ، وواحداً قد يدركه وقد لا . أما الأول وهو الأمل ، فستقر أبداً في هوة الفكر الانساني التي لا قرار لها . يظل يمنينا ويحثنا ويطوّل لنا الحبل ، وينخسنا دائماً بمهمازه ويدفعنا الى السعي وراء الشخص الثالث ، المجهول محل الاقامة ، ولا يعلم إلا الله متى نلتقي به .

أما الثـــاني فنراه معنا حيث نكون ، وهو ذو أسماء متعددة . يسمى في المصائب الصبر ، ويدعى في الأعمـــال الثبات ، ويقال في الشدائد الحزم . فحيثما مشى الانسان مشى معه الأمل والصبر لعلهم يلتقون بالحظ الرفيق الشارد . كثيرون زعموا أنهم ماتوا وما التقوا به ، وأشهر هؤلاء شاعرنا المتنبي الذي قال في رثاء جدته : طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني ... بعدما قال أيضاً في شرخ شبابه :

أقلّ فعالي بله أكثره مجـــد وذا الجد فيه نلت أم لم أنل جد

كما قال أيضاً :

هو الجد حتى تفضل العين أختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

لا بد أن نتساءل : وكيف تفضل العين أختها ، وكيف يكون اليوم سيداً

في الأيام ؟ اسمع أقل لك . يسود اليوم إذا وقع فيه حادث خطير وأصبح عيداً، فيصير الأربعاء مثلاً سيد الخميس ، أفلا يوجد سادة إلا في البشر ؟ إن لكل شيء سادة حتى النمل كما روى الجاحظ . أما كيف تفضل العين أختها فهذا يقع كثيراً ، كأن يكون الرجل ماراً فتصيبه ضربة تذهب بإحدى كريمتيه فتفضل السليمة اختها المصابة ، وهذا عمل الحظ عند المتنبي . قضى المتنبي حياته القصيرة يطاعن خيلاً من فوارسها الدهر ،وهو يرى أن الدهر والحظ متحالفان على قهره. وقد بلغ هذا الاعتقاد الأوج حين قصد مصر وتمثل له شخص كافور ، فغضب على الدهر تلك الغضبة الكبرى . رأى الحظ يجعل من العبد كافور سيداً صاحب حول وطول يقهر القاهرة ويضرب من الكنانة بأسهم ، فصرخ :

هل من فتى يورد الهندي هامته … كيما تزول شكوك الناس والتهم

لم يشبع المتنبي ما ناله من مجد أدبي فظل يشكو ، وهـذا شأن البشر ، فما أقل الذين يرضون بقسمتهم ونصيبهم . كل واحد يرى أنه مظلوم من دنياه فلا تسمع على الألسنة إلا سبّ الدهر وابنه الحظ ، فكل من يقصر يحمل خطيئته في رقبة الدهر ، الذي لم يسلمه رسن الحظ ..

إذا قصر أحدنا تأفف وقال : حظ .. وإذا سعى وراء مطلب وخاب يقول حظ . حتى إذا ضربت له موعداً وفـــاته لأنه ابطأ وتكاسل يقول : حظ . فتأمل يا صاحبي كم في ذمة الدهر والحظ من ضحايا . لقد قل في الناس من رضي بحظه . فالبحتري الذي قطع درب الرزق على ابن الرومي حتى استأثر بجميع الجوائز لم يقنع بكل ما أصاب من الخلفاء فراح يقول لنا في سينيته المشهورة ، بعدما شبع مالاً واعتباراً :

اتسلى عن الحظوظ وآسي … لمحل من آل ساسان درس

وإذا تركنا البحتري يسقيه ابنه أبو الغوث في أبيض المدائن ليتسلى عن الحظوظ رأينا خصمه ابن الرومي الشاعر البائس ، الجوعان العريان ، يصرخ في كسر بيته ، ان كان أرجع اليه :

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره   للبحتري بلا عقل ولا أدب

أفلا تحار مثلي في تعليل مـــا قاله البحتري بعدما سمعت قول معاصره المسكين .. وأعجب من هذا وذاك قول شاعر النيل، حافظ ابراهيم، في سقوط السلطان عبد الحميد :

لا رعى الله عهدها من جدود   كيف أصبحت يا ابن عبد الحميد

ماذا تراه يطلب حافظ من الحظوظ أن تعمل ليرعى عهدها ؟ أيطلب للسلطان عبد الحميد حكماً أطول من ثلث قرن يكمن فيه الموت بين شفتيه ؟

وشاعر العرب الذي قال :

إذا غامرت في شرف مروم   فلا تقنع بمـا دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير   كطعم الموت في أمر عظيم

كيف استولى عليه اليأس والقنوط في ساعة لم تهضم فيها معدته ما أكل ، حتى راح يجتر فكرته الكبرى وقال :

وما الجمع بين الماء والنار في يدي   بأصعب من أن أجمع الحظ والفهما

أشهد أن المتنبي ، على حبي له ، قد ضلّ هنـــا . وإذا صدقناه أن الحظ والفهم لا يجتمعان ، احتقرنا النبوغ في جميع ميادين الحياة . كان هدف المتنبي المال والحكم ولأجلهما سبّ الدهر وغضب على الحظ ، وهو لو لم يدرك ما تمنى ولم تجرِ الرياح بما لا تشتهي السفن كما قال ، لكان أتعس الناس حظاً وما كان فاز بهذا الخلود . لقـد كان الحظ في خدمة المتنبي ، والمتنبي لا يدري ، وهكذا كان يشقى في النعيم بعقله كما قال .

والذي يتراءى لي من حديث البشر عن الحظ هو أنهم لا يعنون إلا المـادة ، فما سمعناهم قالوا عن رجل كبير العقل، وافر العلم ، انه صاحب حظ اذا لم يكن في يده المال . فالانسان في عرفهم لا يكون محظوظاً ما لم يحصل على المال من أية

الطرق كانت ، فكأن العقل لا قيمة له في نظرهم . اذا أثرى واحد كان عند هؤلاء من الذين خدمهم الحظ ، أما كيف أثرى ومن أين فهذا لا وزن له ولا اعتبار . يقولون لك : حظ . فاسرق وانهب ولا ترد يدك عما تصل اليه ليسموك صاحب حظ . فهم لا يفكرون قط بما قاله عاشق الحظ :

ولا أقيم على مال أذل به ولا ألذ بما عرضي به درن

وبعد ، فلماذا كثر ذكر الحظ في أدبنا وخصوصاً الشعر منه ؟ ما وجدت لذلك سبباً غير تواكل شعرائنا وأدبائنا حتى ملأوا شعرهم أنيناً وطنيناً ، والذي يظهر لي أننا نحن جميعاً اتكاليون ننتظر أن يأتينا الرغيف الى البيت ثم لا نكلف أنفسنا غير أكله ...

قلت في نفسي : لعل الشعر الشرقي كله يتحدث عن الحظ تحدث شعرائنا ، ويعزو اليه الإخفاق في الحياة ، فرحت أنظر في كلام شعراء التوراة ، فما رأيت كلمة الحظ وردت فيها على ضخامتها ، إلا أربع مرات :

واحدة عن أيوب : وفوق الظهيرة يقوم حظك . وأخرى في سفر الأمثال : عندي الغنى والكرامة قنية فاخرة وحظ . وثالثة في سفر الأمثال أيضاً : التابع للعدل والرحمة يجد حياة ، حظاً وكرامة . ورابعة في شعر إشعيا : هذا نصيب ناهبينا وحظ سالبينا .

أما كلمة نصيب كما يفهمها الناس اليوم ، أي بمعنى الحظ ، فلم ترد قط عندهم ، وهذا ما جعلني أعتقد أننا نحن وحدنا نؤمن بالحظ هذا الإيمان المطلق فنعزو اليه كل توفيق وكل إخفاق .

ولا تنسى تكالبنا على حطام الدنيا فهو الذي يجعلنا نسمي النذل صاحب حظ اذا وقع على المال الحرام ولم يعفّ عنه . لست من أصحاب المروءة اذا أكلت مال السحت ، وأنت أتعس الناس اذا اؤتمنت وخنت . فنعم الحظ حظك إذا كان ما أصبته حلالا زلالا ، وما أتعس جدك اذا فرحت بلقطة وقعت في يدك فالتهمتها وعددت ذلك حظاً وحللتها ، بينما ضميرك يصرخ : ردها ...

وبعـــد ، فأنا لست ممن يؤمنون بالحظ . لا أؤمن إلا بكلمة واحدة . أؤمن بليس للانسان إلا ما سعى .

أنت تؤمن بالحظ وكأني بك تومي برأسك: نعم. اذن الدنيا في رأيك قسمة ونصيب ، وعلى هـــذا اتفقنا يا صاحب . فأرجو منك أن لا تقوم من فراشك غداً . ابقَ نائماً ، ومتى غابت الشمس نتحاسب . أريد أن أعرف أي حظ ساق اليك الرزق الى البيت ، وماذا سقط عليك من السماء من مَنٍّ وسلوى ، وماذا أطلعت لك الارض من خيرات ... طبعاً لا شيء . اذن الإيمان بالحظ خرافـة كبيرة ، وليس الرزق مطراً تجود به السماء .

الرزق يا صاحبي كامن بين مخالب المصاعب ، ولا ينتزعه من بين براثنها إلا كل جبار . فاذا كنت تشكو قلة فداو نفسك بالكد والجد . إياك أن تقف . فالوقوف موت . اعمل ولا تيأس .

لا تصدق ذلك الخامل ابن الرومي فلو كان سعى كان رعى . ولكن ابن الرومي يريد العصفور محلوقاً منتوفاً مشوياً ملفوفاً برغيف، ولولا القليل لالتمس من يمضغه له ، وما هكذا تكون الرجال .

فبحياتك إذا كنت ذا أولاد لا تذكر الحظ على مسامعهم لئـــلا تربي شباباً فاترين ، مائعين يقصرون في أول العقبة . خبرهم عن الذين خابوا في الحياة وأبوا ان يتراجعوا. حدثهم عن الذين سقطوا في الميدان مرات ثم نهضوا وجرّوا وظلوا يقعون ويقومون حتى بلغوا الغاية .

وإذا حاجوك في أناس يبلطون في حظهم ، فقل لهم ليس هؤلاء في الحساب ، ولا نريد ان نكون منهم .

العام الجديد

تعوّدنا ان نودّع ونستقبل كل رائح وآت حتى من الأعوام . ولكتابنا وشعرائنا بدائع وطرائف في هذا الموضوع . فالذاهب ، وخصوصاً من السنين ، حبيب قلب ابن آدم . إنه يرى الخير كله في القديم على إطلاقه وإن لم يكن شيئاً مذكوراً .

على ألسنتنا يدور الترحم على ما فات ، وفي أعيننا تحلو الذكريات . وما أرانا نحن في شيخوختنا إلا الى قوة فارقتنا في منتصف طريق العمر ، وآمال ضيعناها على درب الأبد . فكأنما استقبالنا لعامنا الجديد بهذه اللهفة دليل على اننا ما كنا نصدق اننا نبلغ هذه المحطة .

سوف لا أنشر شراع الخيال ، ولا أقرع طبول الفصاحة في موكب استقبال العام الجديد . فلا تهليل ولا ترحيب ولا تمنيات ولا آمال . ان عجلة الزمن لا تنتظر زجري لتسير ، ولا إيماءتي لتقف . فتهليلي لها لا يقدم ولا يؤخر . فالذي فات فات ، وما هو آتٍ آت .

إن تمنياتي لا توازي ثقل حبة خردل في ميزان القدر ؛ فلماذا أتعب نفسي لأحشو أذهانكم بتعابير فارغة لا تنفعني ولا تنفعكم مقدار جناح بعوضة ؟

إن عبارة (كل عام وأنتم بخير) على صغرها وبساطتها ، لهي أحب وأغنى

دعاء في هذا المقام، على شرط ان يكون للبؤساء والمساكين شيء من الخير الذي يتمناه الشبعان لأخيه المكتفي .

من عادة التجار ان يرصدوا حساباتهم في آخر كل عام، ويعدّوا للعام الجديد دفاتر بيضاء ، تحمل في أولها رصيد العام الماضي من مكسب وخسارة ، فينظر التاجر الى الـ (يكون) إما بعين مفتوحة او بقلب مكسور .

إننا في زمن انحصرت فيه كل القيم بل المثل العليا بالصناديق الحديدية . فإذا كان الصندوق متخماً من كثرة مـا زلع وبلع فصاحبه هو ذاك الرجل ، وإذا كان الصندوق غير مبشوم أحسّ صاحبه انه دون جاره العائم في بحر من الثروة بعيد القرار .

حنانيك يا أخي ، لا تم على وجهك حنقاً وسخطاً لأن مبلغاً من ميزانيتك مفقود . إن الله سيخلف عليك إن كنت أحسنت به الى المساكين ونسيت ان تقيـده . لا تدقق في دفتر الصندوق بهذه الشدة والصرامة ، لتعرف أين ذهب ذلك القرش . أرجوك يا سيدي ، عفواً أرجوك يا سيد الصندوق ، وأتضرع اليك لكي تعيد النظر في دفتر حساباتك لترى فيه مقدار أرقام الاحسان ، وعمل الخير ، وخدمة الانسانية . أنسيت يا أخي أنك انسان ؟

مهلاً لا تزرع الدنيا أملاً ورفقاً . لا تعدّ الخطط الجهنمية لاقتناص القرش ، فأنت في التقدير والله في التدبير .

فبدلاً من أن تستقبل عـامك الجديد بالدف والعود والمزمار وتنفق على السهرات الصارخة ألوفاً ، اخلُ بنفسك هنيهة ، وارفع وجهك ، الى فوق ، ولو في السنة مرة . نسيت ان لك نفساً . أتظل دائماً تفتش في الأرض عن حطامها ؟ بربك قل لي متى تشبـع ؟.

عند النصارى شيء يقال له (فحص الضمير) وهذا ما يعمله المسيحي المهارس كل ليلة . يستعرض حسنات النهار وسيئاته ، وبعـد ان يقصد إصلاح نفسه في

الغد ينام مستريحاً. وقد سمعنا الحجاج ، على قسوة قلبه، يقول في احدى خطبه: امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ راقب ربه . فهل فعلت هـذا ؟ هل ودّعت عامك الذي ينسلخ اليوم بفحص الضمير إن كنت مسيحياً ، وهل حاسبت نفسك إن كنت مسلماً ، لترى ما أحسنت ؟ معاذ الله ان أسيء الظن بك ، وأقول إنه لا يعنيك إلا ان تعرف مقدار ما جمعت . ومعاذ الله ان أقول ان دفترك ليس فيه للفقير باب (الى) .

قل لي ماذا أعددت للإنفاق الليلة على الطاولة الخضراء ، بل ماذا ارصدت لزوجتك ؟ ألا تستحي يا أخي ان تلعب وأولادك على طاولة واحدة بحجة كشف البخت ؟ أتصدق الورق الكذاب ؟ ألا تدري أن صغار الامور تؤدي الى كبارها ، فكيف تدفع ولدك الى هاوية اللعب ؟ قل لي كم ستكون تكاليف مأدبتك اليوم ؟ بحياتك لا تكذب .

هل خرج من كيسك ثمن رغيف للفقير ؟ هل فكرت بإعطاء شيء من ثيابك وأحذيتك العتيقة الى الحفاة من اخوانك الآدميين ، يا آدمي ؟

كم دفعت بمناسبة هـذا العام ثمن لعب وهدايا ؟ وكم قطعت من الثياب الأنيقة لزوجتك وبناتك وبنيك في هـذا العيد ؟ ترى من هو أحوج اليها ؟ أأولادك وأحفادك وخزائنهم ملأى بها ، أم ابن جارك الحافي العريان ؟ إنه محتاج الى رغيف ليفك ريقه ويسند قلبه ، والى قطعة من القماش الرخيص يستر بها عورته .

وكلب زوجتك ، جلّ شأنك وشأنها ، ما ضرّه لو عوّدته أكل الخبز بدلا من البسكوت ، وأكل فضلات المطبخ بدلا من لحم الضان ، ثم أعطيت فضل ما بينهما فقيراً ملهوفاً يأكل الخبز بعينيه ولا يلمسه بإصبعه ؟

الناس ، اليوم ، يلجأون الى التقنين الصارم ، فلماذا لا تعوّد ، ولو كلابك ، على هذا ، وتحسن بما توفره الى أخيك الانسان . أنت غني من فضل الله وكدّك واجتهادك ، فلماذا لا تزكّي مالك وتزين غناك بالإحسان ؟

ان من طالت يده بالمواهب تمتد اليه ألسنة المطالب ، وأنت تعترف ولا شك بنعمة الله عليك ، فلماذا لا تقضي حقوق المروة وتفي ديونها عليك ؟ ان البيت الذي لا يخرج منه شيء في سبيل الله لا بد من أن تقفل أبوابه إما عاجلاً وإما آجلاً .

الثمر يُستحلى في أوانه ، والشيء يحسن في ابانه ، وهـذا وقت الإحسان بصديق الدينار . لا تقسُ قلبك فيقسو قلب الله عليك ، فهو حين أنعم عليك كأنه اختارك دون غيرك قيّماً على البؤساء والمساكين فإن كنت لم تقم بهـذا الواجب بعد فعجل ، وقم به غداً ، وخير البرّ عاجله .

اذا كانت محاسبة النفس واجبة علينا كل ليلة ، فكيف بها حين يموت عام ويولد عام ؟ أفما يجب أن نولد نحن معه ، وكما نعمل ميزانية تجاراتنا يجب أن نعمل ميزانية حسناتنا ، لنرى ما علينا وما لنا عند الانسانية .

أرأيت في عمرك ودهرك حيواناً يشاركه أحد في طعامه ؟ فكيف أكون حيواناً بعدما شرّفني الله فخلقني انساناً ؟

وهناك محاسبات كثيرة غير هذه ، ولا بد من هذه المحاسبات لجميع طبقات البشر ، من السيد الرافع الى الخادم الوضيع ، وما بينهما من خلق الله . فكل منهم مسؤول عن عمله .

الحاكم يجب أن يحاسب نفسه ليرى كيف ساس رعيته فيحسن ان كان ظلم وأساء ، ويحسن أكثر ان كان احسن ، فمجال الإحسان رحب واسع .

ان هذا اليوم لهو يوم الحساب الشديد لتقويم كل اعوجاج فينا . ليس هو يوم قمار وشرب ، ولا يوم أكل مما رزقنا الله من الطيبات دون أن نفكر بالآخرين . أمرنا الله أن نأكل من طيبات ما رزقنا ، وأمرنا أيضاً بالزكاة والإحسان فهل تعمل يا صاحبي بواحدة وتترك الثانية ؟

فلو خففنا من هذا البطر ولو قليلاً ، لننفق تكاليفه على المحرومين لأمنّا شر

العواقب . ان الحيــاة مراحل ، واذا حمدنا الله على قطعنا احداها ، فلنقدم مع الحمد قرباناً من الإحسان ليأخذ الله بيدنا ونصل آمنين الى الواحة الكبرى ، الى بيت الجميع .

هنالك ينعدم الفقر الذي هو صوت صارخ يطلب الانتقام من ثروتك . اخمد هذا الصوت بإحسانك وترقب عاماً جديداً يكون لك فيه إحسان جديد .

ليتك تتعود العطاء ! جرّبه تنسَ لذة الأخذ . انــــه أسمى وأرفع . واليد العليا خير من اليد السفلى ، والسلام عليك ان كنت محسناً ، وإلا فسلامي يرجع إليّ لأنك لا تستحقه .

عداوة المهنة

ويسميها العوام عداوة الكار ، وشعارهم فيها : على أزميلك أن ينحت دائماً في صخرة زميلك ، وإذا لم تفعل ذلك فكنز الثروة المرصود لا يظهر على وجهك. هكذا يتوهم من لا يعتقدون أن النجاح حليف الصادق الأمين ، فيظلون دائماً يثرثرون ويهذرون . يطرون أنفسهم ، وينادون على ما عندهم ممتدحين ، ويطعنون في زملائهم كلما وجدوا مجال القول واسعاً . صور تجدها إذا تأملت في جميع أسواق المدن ، بل في كل مكان تطأه رجلك .

أما الصادقون من الناس الواثقون من أنفسهم ، العاملون بأمانة وإخلاص ، فهؤلاء لا يغشون ولا يغدرون ، لا في الأسعار ولا في الموازين والأمتار .

عداوة الكار آفة سرى سمها الزعاف في عروق مجتمعنا فأفسد الدم وقرض اللحم ونخر العظم . وهي العصا التي توضع بين أضلاع الدواليب فتقف لا تكر ولا تفر . قد استفحل شرها بيننا وطغى فثقلت وطأتها على مجتمعنا حتى كادت تخنق الصناعة ، وتسحق رأس التجارة ، وتقعد كل نهضة وتثبط همم رجالها .

فالصانع عندنا مهما سمت أو انحطت مهنته يطعن في رصيفه زميله ، وتقوم بينهما قيـــامة البغض وتسود الشحناء حتى تتقطع بينهما حبال المواصلة . فإذا دخلت مخزن تاجر تسوم بضاعته قضيت عنده ساعة يسمعك فيها أولاً خطبة

العرش التي تدور حول خامه وجوخه وشيته وعنبر كيسه . وإذا قلت له في معرض الكلام : عند جارك مثل هـــذا وبثمن أقل ، احمرّ واصفرّ وازورّ وقدحت عيناه شرراً وراح يكلمك بفم يندلق فكه التحتاني كأنه باب عتيق مهرهر ، ثم يزعم لك ان بضاعته نازلة من السماء وانها لا توجد عند غيره ، وان بضاعة جاره مغشوشة مقلدة . وإذا طغاك الشيطان واجترأت على القول له : ان لا فرق بين بضاعته وبضاعة رفيقه سوى أن تلك رخيصة الثمن، رمى جاره المنافق بقذائف الطعن والشتم وسب عرضه ودينـه ، وأخذ يخترع الأكاذيب زاعماً أنه غش أمس فلانة ، وقبلها خدع السيدة الفلانية ، ومنذ ساعة جاءه فلان وهو يحلف ألف يمين أنه لا يدخل محلّ ذلك الغشاش والخداع الذي لا يقتني إلا اردأ أصناف البضاعة . ثم يقول: أما أنا فلا يدخل مخزني إلا أحسن البضائع وأجودها ، وخير الناس وأكرمهم .

وأخيراً يرمي قدامك دفتره ويقلّبه وشفاهه ترقص حقداً وغيظاً ثم يقول لك : أنظر هـــذا اسم من ؟ تفضل اقرأ بعينك ، ألا تحسن القراءة والكتابة ؟ هذا اسم الشيخ الفلاني ، أو الأمير الفلاني ، أو الوزير الخطير وكلهم ، والحمد لله على هذه النعمة ، من زبائن المحل . ثم يقلب صفحة أخرى قائلاً : وهذا تعرف من هو ؟ هذا وزير الاقتصاد ، وهذا وزير المدلية ، أعرفت الآن من هم زبائني؟ ثم يقلب صفحات دفتره بنزق ليقول لك بعد تنقيب وتقليب : وصلنا. هذا اسم (مدام) فلان وهي لا تشتري ذراع قماش الا من عندي . تقول دائماً للناس ، مـــا رأيت مثل فلان بين التجار : سعره محدود ، وبضاعته فاخرة . ليس في المدينة مثله ، هـــذا لو كان في باريس او لندن لكان صاحب ملايين ، ولكن الناس في بلادنا لا يعرفون قيمة الأوادم .

ثم يتنفس الصعداء ويستريح قليلاً ليستأنف ما بدأه من جهـــاد ويقول : بحياتك لا تذكر جاري إذا شرفتنا ثاني مرة ، فهذي إهانة لي وللتجارة . حرام أن تقابل بيننا ، فما يدخل دكان جاري غير فقراء الحال .

وإذا رأى أنك لم تخدع بتلك الفصاحة والبلاغة لجأ الى الايمان المغلظة ، فأقسم لك بنبيك ان كان يعرف ملتك ، وإلا فهو يقسم بهم ثلاثتهم متكلاً على الله داعياً إياك الى ذلك بقوله : توكل على الله وغمض عينيك .

ولا تخرج من باب دكانه حتى ترى جاره واقفاً لك بالمرصاد . انه يأبى إلا أن تشرّف محله. يتمسك بأذيالك كأنك غريمه وله عندك دين حتى اذا ما سايرته ودخلت ، أقسم لك بالله وملائكته وعرشه وكرسيه أن سيبيعك ما تريد برأس المال فقط نكاية بجاره الأثاني الملعون الذي يريد أن يستأثر بكل الناس ويقطع لقمة جيرانه .

ان الاسطوانة عينها تدار أمامك ، وعليك أن تسمعها إما مجاملة وإما غصباً عن رقبتك ، فتتحير في أمرك ولا تدري من تصدق . وأخيراً تعزم على أن تدخل مخزن تاجر يحترم نفسه ، ويعلم أن من غربل الناس نخلوه . فيبيعك ان شئت ، ولا يكذب ولا يذم لأنه يعلم أن هذا الكيل يرد كيلين .

فمن دعا الناس الى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

هذه خطوط من صور بعض التجار . أما هـــذا المرض ، مرض عداوة المهنة ، فلا حصر لما فيه من تماثيل وصور لأن هذه الآفة لا تنحصر في منطقة واحدة من مناطق الحياة ، بل تتعدى الأسواق الى العلماء والأدباء . فالعالم ان رأى الناس ينظرون الى زميله نظرة إكبار وتقدير ، أو رددوا ذكره مع الثناء ، أو استحسنوا شيئاً من آثاره الأدبية ينقبض صدره ، ويكفهر وجهه ، ولا يخفف من آلامه المبرحة إلا الطعن والتنديد ، فيقف للنـاس بالمرصاد منتظراً الساعة التي ينفسح له فيها المجال ليشبع جوع نفسه الصغيرة .

ومن يجل في شوارع مدننا الكبيرة ير أن هــذه العداوة قابضة على القلوب الضعيفة ، جاثمة فوق الصدور . والأكثرون منا يخضعون لحكمها وينقادون اليها ، حتى ندرت الصداقة بين اثنين يعملان عملاً واحداً ، فكأن مكروب البغض والحسد يختبيء بين ثنايا تلك الأصناف والمهن .

ترى ما يضر أرباب الحرف وأصحاب المتاجر لو دعوا البشر إلى متاجرهم بالتي هي أحسن ، وما ضرهم لو تنافسوا في اجادة العمل ، والصدق في المعاملة ، والتنزه عن الغش والخداع ، بدلاً من التساب والتشاتم ، ألا يعرفون ان تبادل هذه (العواطف) يسقط الاثنين من عيون الناس ؟

إن الصدق وحده هو الرائد الذي يصدق أهله. أما الغدار وان أدرك نجاحاً فالخيبة أمامه : انه يستطيع أن يغش الناس مرة ومرتين ، اما أن يغشهم كل مرة فهذا لا يكون .

إن الأمانة من صفات الناس الذين يثقون بما يعملون ، فالمعمل الذي لا يتقن منتوجاته عمره قصير ، وإذا كان خطير الشأن وليس له وجدان فإنه يكون خطراً على الناس ويقضي عليهم بالجملة . فمعمل السلاح الذي لا يصفي حديده من الخبث يقضي على كثيرين من البشر من حيث لا يدرون ثم لا يطالب بالدية . ومسمار أو برغي غير متين أو غير محكم الوضع قد يهلك المئات من الناس متى غرقت السفينة التي صنعها ذلك المعمل .

والصيدلي الذي لا يتقن عمل العلاج هو أخو عزرائيل ، والطبيب الذي لا يهمه غير قبض الفلوس هو حليف ملك الموت ، على قبض النفوس ، فخير له وللناس ، إن كان لا يحذق مهنته ، أن يفتش عن غيرها .

هذه صور مختلفة الملامح والألوان والأشكال نراها كل يوم بل في كل ساعة إذا أعرناها انتباهاً. فليت هذه الوجوه تتجمل بدلاً من أن تسعى لكسب الرزق بالحيلة ، فحبل الكذب قصير .

فأنت يا أيها المعلم غيره مـا ينقص من قدرك إذا أثنى الناس على زميلك ؟. أهذا يحط من كرامتك أم هو حب الذات قد عقد لسانك ؟ ان ثناءك على ابن مهنتك يسوق الثناء اليك عملاً بقول المثل : كما تراني يا جميل أراك .

فحتام يعمي ظلام الحسد بصائر الأنام ويجرهم الى المهاوي ؟ ومتى تتبدد من سماء عقولهم ظلمات الحسد فيروا العظمة الحقيقية ؟

فليت هذه العداوة تستحيل منافسة شريفة ، فنتسابق ، ونحن بشر ، كما تتسابق الخيل . أليس كل منها يسعى الى الغــــاية ، ولا يهمه ان يعرقل خطى سواه ؟ فلنكن جياداً على الأقل إذا لم نشأ ان نكون بشراً .

العالم اليوم يتنافس بالاعلان لا بقذائف اللسان . حتى ان خياطاً روسياً شاء ان يعلن عن دكانه فكتب فوق بابه : أكبر خياط في روسيا .

وقرأ ذلك جار له فشاء ان يفوقه اعلاناً فكتب : أكبر خياط في العالم .

وكان هناك خياط شهير لم يجد ما يقوله ليبز زميليه ، ومــــا دونه شهرة ، فاستعان بأحد الظرفاء فقال له : المسألة بسيطة جداً . اكتب : أكبر خياط في هذا السوق .

هكذا يتنافس الناس عندهم ولا يتعادون كما نتعادى نحن .

فلا نجاح إلا بالصدق وإتقان العمل . وكما ان لكل إنسان وجداناً كذلك يكون لكل مهنة وعمل ومصلحة ضمير . ومن خان هذا الضمير ولم يستجب له حين يدعوه ، يشرف على الخسارة والبوار من حيث لا يدري . فاتقن عملك واصدق تفلح إن شاء الله .

بين الاذن والفم

شكت إليّ أذني ثرثرة فمي ، فقلت لها : عجيبة شكواك . انه لا يصلني شيء مما تدعين .

ثم تفكرت ملياً في ما قالت فوجدتها مصيبة ، وأدركت شر المصيبة المضحكة .

سمعت الناس كثيراً ما يقولون خداع النظر ، وقلما سمعتهم يقولون خداع السمع . اني أحسبهم مخطئين ، فما أقل الذين تخدعهم أعينهم . أما الذين تخدعهم آذانهم فأكثر عدداً من الرمل . ان فيّ وفيك شيئين ، قريبين بعيدين ، أتحزر ما هما ؟

– هما أذناي وأذناك وفمي وفمك . ألا ترى كيف نصبت الأذنان كبوقين على جانبي قمة رأسي ورأسك ؟ ألا تراهما ككفتي ميزان – وخصوصاً إذا كانتا طويلتين – ننتقل بهما من مجلس الى مجلس ، ومن ناد الى ساحة ؟ لقد خلقتا ميزاناً لأنفسنا أولاً ، ولكننا لم ننتفع بهذا الميزان .

وكأني بك تعترض عليّ قائلاً : أليس للحيوان اذنان وفم ؟ فماذا اخترعت بسؤالك هذا ؟

– اي نعم يا سيدي : نحن والحيوان وكل من يسعى الى رزقه في هذا سواء.

إنما هناك فرق . الحيوان ، أجلك الله ، تصدق اذناه جميع ما ينطق به فمه ، فلا ينافق متى تكلم بلغته . لا يكذب الحيوان على قانيه اذا كان داجناً ، ولا على فريسته متى تهدد وتوعد ، اذا كان آبداً . أما أنا وأنت فما أبعد فمنا عن آذاننا . ان أعمالنا تؤكد لمن يسمع أقوالنا إن آذاننا في واد وفمنا في واد ، مع أنه ليس بينهما قدر أربع أصابع مسافة .

غريب . عجيب . كيف يصب في هذين القمعين كل ما في الدنيا من كلام ! كيف تلتقطان كل حرف من حديث النمامين الكذابين ، والهمازين اللمازين ، ثم لا يبلغهما شيء من الفم الذي لا يبعد عنهما إلا قيد كف .

جعلت الطبيعة الاذنين جارين للفم ،بابهما مشرع دائماً وأبداً ، ومع ذلك تبدو هذه الشقة بعيدة جداً كأنها صحراء مدّ النهار ، نحتاج الى تليفون لاسلكي لنبلغ اذنينا ما ينطق به فمنا . أليس هذا عجيباً غريباً ؟

لقد حان لي ان اقول لك كيف : تقعد يا صاحبي تعجن الناس وتخبزهم ، ثم تضع المقلى على النار وتدب بالحطب ثم لا تدري أنك ما تطبخ إلا نفسك ، فأنت الطابخ والمطبوخ ... وتحسب أن الناس لا يعرفون ما عندك .

أنت مغفل يا صاحبي ، اذا غرّك منهم إصغاؤهم اليك . وأنت أبله إذا ظننت أن كلامك جاز عليهم ، لأنهم أقبلوا عليك بوجوه تحير فيها ماء الهزء والسخرية . ليتك تعرف يا مغرور ماذا قال أحد الحكماء . قال : لو درى كل الناس بما يقوله كل الناس عن كل الناس لما خاطب احد احداً .

كم رأيتك ورأيتني قاعدين نتحدث كأننا ذوو سلطان ، نصدر أحكاماً صارمة كأننا شركاء العزة في تدبير الكون ، ومن كان يعرفنا ورآنا على تلك الحال يتأكد أننا لا نسمع ما نتكلم بـه . تقول أنت مثلاً : لو كنت ممن ولي الأحكام لعملت كيت وكيت ، وفعلت كذا وكذا ، بينما أنت تعرف أنك عاجز عن ادارة أهلك ، وتدبير شؤون بيتك ، وتعمير عقارك . واذا غرتك عينك

بالسامعين تقذف حنجرتك رعوداً اصلاحية تغص بهـا الأودية المجاورة ، ولكن صداها ، ويا للمصيبة ، ينبو عن واديك المنفتحين على جانبي فمك الذي ترمي أواذيه العبرين بالزبد .

زرت رجلاً عهد اليه قضاء صغار الحاجات فابتدأ يصف لي عظيم شأنه وأنا أعرف من هو . ثم استرسل في محاضرة غير قصيرة موضوعها اخلاصه وتفانيه في خدمة الامة ، وحرصه الشديد على قضاء حوائج النـاس فوراً . فهو لا يريد أن يؤجل عملاً ، فليس الناس عبيد أبيه ليروحوا ويجيئوا . وفيما هو يصارع أمواج موضوعه المتلاطمة دخل علينا صاحب حاجة فقـال له : مشغول الآن . غداً . فوجم الرجل كأنه يعتب صامتاً، فقال له هو : غداً . انتهينا . ودقّ على ظهره يسترضيه . فما كاد يخرج هـــذا حتى أطل آخر فسد الباب فقال له فوراً : بعد يومين ، ان شاء الله . وجاء ثالث فنهض ، وفيما هو يقفل الباب بوجهه قـــال : تعال بعد الظهر .

فقلت ، وأنا أتهيأ للذهاب : عرقلنا السير ... أزعجناك أودعناك .

فأمسك صاحبنا بطرف ثوبي وقال : اقعد . هـــذا شغل لا نهاية له ، ولولا (بكرة وبعد بكرة) البقية بحياتك كنا فطسنا من عشرين سنة ...

لا أخالك نسيت ما كان يقول منذ لحظات . أفتقول ، بعد هـذا ، ان اذني صاحبنا قريبتان من فمه ؟ أنا لا اصدق ذلك ، ولا اصدقك ان خالفتني .

واذا سمعت أنانياً جشعاً يندلع لسانه كالنار ، ويتدهور كلامه في أذنيك كما تتدهور مياه الشلال ، يحدثك عن طهارة النفس واليد ويتغنى بمحبة القريب والغريب ، وأنت تعرف أن قلبه قُدّ من الصوان ، يسلخ جلود اليتامى ويهتك ستر الأرامل ، ويستحل رغيف المسكين ، أفتقول إنه سمع ما قال وان أذنيه قريبتان من فمه ؟؟

وإذا جمعك سوء البخت بشيخ مهدم تعلم أنه لا يضحك إلا للفلس ، حراماً

كان أو حلالاً ، ثم قعد يصف لك تكالب الناس واقتتالهم على جيف المادة ، وأنت تعلم انه أكلب خلق الله ، فما عساك تفعل ؟ أتنتظره حتى يسد بوزه ؟ ما أراك إلا هامّاً بصفعه لتهشم أنفه وتذهب بما بقي في فمه من أسنان . ومع ذلك أقول لك اصبر عليه ، فلو أردت أن تكنس المجتمع لوجب عليك أن تزرع العامر والغامر من الأرض بما يصلح مكانس لتكسح المدن والقرى . ولكن بحياتك قل لي : بكم من آلاف الكيلومترات تقدر مسافة البعد ما بين اذني هذا الوقح وفمه !

ما لنا نترك ما يعنينا ، فلنعد إلى مهنتنا . إذا سمعت معلماً يحث تلاميذه على الجد والكد ، وسهر الليالي والإقبال على الدرس بشغور باسمه ، ووجوه تقطر نشاطاً ، وأعين وأيد تكاد تلتهم الكتب والأوراق ثم رأيته في الغد يقبل على عمله كالبغل الكئيب ، أفتقول ان أذنيه حد فمه ؟

وإذا رأيت من انتدب نفسه مختاراً لا مكرهاً ولا مجبراً ، ليكون للناس معلماً ومشيراً ، ثم سمعته يحضهم على فضائل تنكّر هو لهـا ، ولم يستح ممن ينكرون عليه ما تنكر لأنهم يعرفونه حلة ونسباً ، أفلا تهم بالدنو منه لتقرّ في أذنيه هذا المثل : اقعد اعوج واحك مقوماً .

وبعد فقد تكون سئمت القعود ومجيء الناس الينا ، فقم نتمش . سوف نمشي على المقربة – القادومية – فنقدّ السوق قداً . أنظر هذا الذي كان يوصي الناس بالراكضين خلف الرغيف والإحسان اليهم ، فها هو يساور حمالاً من أجل نصف قرش سقط من كيسه فوقع في عب الحمال .

تبصّر ترَ هناك الذي كان يحدثنا أمس عن المساواة والتواضع ، تأمل كيف يهش بعصاه على البؤساء ويطردهم من أمامه كأنهم الذبان الأزرق .

وهذاك اسمعه كيف يساوم رجلاً مضطراً في حاجة دفعته الى بيعها الحاجة القصوى . يريد أن يستغل خصاصته ويغبنه في متاعه ، كأنه لا يذكر شيئاً مما

رواه لنا أمس من احاديث وآيات . نسي الرجل أنه روى لنا البارحة حديثاً شريفاً وهو : ارحموا غنيّ قوم افتقر ، وعزيز قوم ذل .

أما هو الذي كان يحضنا أمس على المعروف حتى خلنا انه يتقاضى عن وعظه أجراً ، أو أنه من حزب الله ؟

وأخيراً التفتُ الى صاحبي اسأله : مـا تقول في هؤلاء ؟ فامتعض وأجاب أتطلب من الناس صمت الأبد ؟

قلت : ومن قال ذلك ! ولكن الكلام يا صاحبي كالنقد الدارج اليوم . اذا لم يدعهم بما يقابله من العين فأية قيمة له . فمن يرجو أن يتبعه الناس فليؤمن هو أولا بما يقول .

سئل النبي الكريم عن علامات المنافق ، فقال ثلاث : اذا حدّث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا ائتمن خان . فالله نسأل أن يقرب ما بين أفواهنـــا وآذاننا لكي لا ننطق الا بالحق ، ولا نتكلم إلا صادقين .

مشاهدات

أقبلت يوماً على عملي وكأني منصبٌ عليه انصباباً ، فما أفقت من غفلتي هذه حتى أحسست ان الأضلاع تكاد تهبط على الأحشاء وشعرت بأن نبضات القلب كخيل الطراد لا أستطيع لها عداً . واعتراني سأم لم أجد وسيلة تنقذني منه غير ترك القلم وإطباق الكتاب ، فنهضت أتفرج ، ولم أدرِ انني أطبقت الكتاب الصغير لأفتح الكتاب الأعظم . رأيت زهرة حنت رأسها لتسلم الروح . فقدت نضارتها بعد ما كانت تسحر النواظر وتدهش العقول ، فقادني تداعي الافكار الى طور الشباب ، زهرة الحياة .

لا يفترّ ثغر هذه الزهرة في الصباح ليستقبل قطرات الندى ، حتى تكويه حرارة شمس الواقع القاسية ، فيلفح الحر نضارة تلك الزهرة الحالمة فتذوي وتذبل . عراك مستمر وتنازع دائم . الليالي تطارد الأيام ، والأعوام تدوس الانسان بقدم لا تُبقي عليه ولا تذر .

ومن الزهرة تحوّل نظري الى شجرة كانت الناس تقيل في ظلها الوارف وتأكل من ثمارها الدانية ، وهي بثوبها النضير الأوراق ، والعيون عالقة بها ، ترجو ان تظفر الأيدي بما تسد به الأفواه والبطون . فتذكرت كيف يلتف الناس حول من يبتسم له الدهر ، سيداً كان او مسوداً ، حتى إذا هبط من القمة

الى الوادي ارفض الناس عنه لا يذكرون ماضيه ولا ما أغدق عليهم من أياديه .

ثم رأيت قصبة تميل مع الهواء كيفما مال لا تهاب الزوابع ولا يهلع فؤادها من هياج الاعصار ، فرأيتها تمثل حياة الناس الذين يتقلبون مع كل ريح ويلبسون لكل ساعة لبوسها . فلا يضيقون ذرعاً بحال من الاحوال ، يمشون مع التيار مؤثرين السلامة والعافية وينحنون الى الأرض حتى تعود العاصفة الى خدر امها . لا يعنيهم إلا ان يعيشوا آكلين شاربين ، ومن الهم خالين .

ومن القصبة تحوّل نظري الى السنديانة العنيدة الرابضة علي جبين الرابية تهزأ بالرياح وتعبس في وجه الزوابع الهائجة . تلوح بأغصانها كأنها تشير بعناد قائلة : لا أنحني ، فافعلي ما شئت . تتماسك كلما زمجرت الزوبعة فلا تلين لها ولا تتراخى . وظلت تجاهد حتى سقطت بعض أغصانها ، وعاد اليها سكونها وطمأنينتها ، ولا تبالي بما فقدت لأنها ثبتت في النضال وخرجت ظافرة ، فذكرتني نضال النفوس الكبيرة من أجل القضايا الخالدة .

ولاحت لي بقعة صغيرة من الأرض لبست ثوباً ارجوانياً من شقائق النعمان . فما دنوت منها حتى كرهتها وما أكره القلوب السوداء في هذا المجتمع . تلك القلوب التي فيها الحقد والبغض ، والتي لا تعرف إلا الانتقام ، ولا تنسى سيئة . ودّها خبّ ونفاق ، وابتسامها دمل مفتوح ينهار منه القيح والصديد . حناجرها قبور مفتحة ، وسم الأفاعي تحت شفاهها .

ورأيت كلباً على مزبلة ينهش كل ما وصل اليه فلا يعفُّ عن شيء مهما كان قذراً ، فتمثلت ذلك البخيل الذي يفني حياته بجمع الأموال يأكل ولا يطعم ، لا يفتح يده لنجدة ، ولا يهتز لاسعاف ، ولا يحسن الى فقير . درهمه عفريت في قمقم سليماني وديناره في حبس الدم . همه أن ينال ولو الخسيس لأن ذلك من طبعه .

ورأيت طائرة تخترق الفضاء مروعة النسور . وما غابت عن نظري وراء

الغيوم حتى رأيتها تنقض كالكوكب الذري وتتحطم على صخرة الوادي ، فتمثلت الجبابرة الذين يرتفعون ويرتفعون حتى اذا ما انطفأت النار او نفذ البنزين ، أو طرأ خلل على المحركات ، هبطوا الى الحضيض إما أمواتاً وإما مهشمين .

ورأيت الأسهم النارية تشق كبد الظلام محلقة صعداً في الجو ، ثم لم تلبث أن عادت حيث كانت ، فتمثلتُ ذاك المتكبر الذي يرفع رأسه ويصعد على أجنحة ... ارتقى أعلى ذروات المجد ، ولكنه مهما شمخ بأنفه فلا بد من ان يسقط ويعفر جبينه بالتراب ، ويلوي رأسه كالسهم عند هبوطه .

ورأيت ظلمة الليل الموحشة بعدما كنت مبتهجاً بنور القمر . كان يسكب عليَّ نوره الحالم فلما فقدته شعرت شعوراً كاملاً بقول أبي فراس في بيته المشهور وعرفت أنه لا بد من هذا وتلك ، وأن الحياة لا تطيب على نمط واحد .

ت الجداجد تصر في سنديانة الكنيسة فتذكرت الثرثارين الذين يتكلمون دائماً وأبداً ولكنهم لا يقولون شيئاً وحسبهم أن يقال أنهم جداجد .

وعدت الى غرفتي فرأيت الفراش يحوم حول السراج فتمثلت أمامي اولئك الذين يطوفون حول الثروة ، يجمعون الأموال ملطخة بدماء القلوب والأكباد ، يتحينون كل مورد ويلغون فيه ولكنهم لا يُروى لهم غليل فيموتون ، وقلوبهم محترقة بنار مطامعهم كما احترق ذاك الفراش الطائش .

ولا أدري كيف تذكرت أخيراً ذلك الطائر الاسطوري عائداً الى وكره ، بعد ما جاب الفضاء ولم يقع على قوت لأفراخه ، فطعن صدره بمنقاره وغذاهم بدمه ، فبدت لي صورة الشهيد الذي يجود بنفسه دفاعاً عن امته حين لا يستطيع ان يفتديها بغير مهجته .

وعدت الى عملي أهمس في آذان الصحيفة المصغية الى ما يمدني به ذهني ، وإذا بمصباحي ينطفي . قطعت عاصفة مجنونة مجرى النور فرأيتني في ظلمة دامسة فتذكرت كيف يطفي القدر سُرج الأزمنة من مفكرين ومصلحين ، فلا

ينطفيء مصباح حتى يُضاء سراج ، ولكن الحيوان الكامن في الانسان لا يفهم إلا لغة غرائزه ، فهي التي تصمه وتعميه .

وأخيراً أومأ إليَّ النوم فعلمت اننا أخيراً كلنـا نائمون ، وما أحسن العمل بقول شاعرنا الفحل :

تمتع من سهاد او رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

نماذج شتى

في الدنيا أجناس وأنواع وأصناف من المخلوقات ، فكأنما الطبيعة فبركة عظمى تقذف منتوجاتها إلى الأسواق بالمئات والألوف ، والفرق بينها وبين الفبارك البشرية هو أن هذه تطبع مصنوعاتها على غرار واحد فلا تستطيع أن تميز الواحد من الآخر . أما الطبيعة فلا تتقيد بغير الجنس والنوع ، فقلما يتفق الأفراد في الشكل كل الاتفاق ولو كانوا توائم . لا بد من علامة تميز كل فرد من مصنوعاتها ، سواء أكان ذلك في الشكل الجسدي أم كان في الشكل العقلي ، حتى جاء في الكلام المأثور : عقول البشر مثل نبات الأرض .

قد تحرم الطبيعة أحد أفرادهـا من الهبات العقلية الكبرى ، ولكنها في الوقت نفسه تجود عليه بما يغنيه عما يسمونه عبقرية ونبوغاً . فكم من عالم كبير وأديب عبقري لا يفهم أساليب الحيـاة حق الفهم ، فيتعثر بأذيال الخيبة عملياً كيفما وأينما توجه . ومن هنا جاء تشكي العبقريين والنوابغ الذين يقصرون في ميدان الواقع بينما نراهم يحلقون في آفاق النظريات إلى أعلى عليين .

فمن الخير لنا ألا نبني رجاءنا على الكتب ، ففائدة الكتب تُطلب خارج دفاتها . ان الأفراط في التأدب والتعلم يضعف الرجل ويجعله غير أهل للحياة العملية اذا لم تهبه الطبيعـة حنكة وتجاريب . فالتهذيب بالكتب يجعل المرء

مبالغاً في الانتقاد ، جباناً غير واثق بقدرته ، رقيق المشاعر لا يتحمل مشاق الحياة ومشاكلها الآلية . وهكذا تحول رقته المتناهية دون الجزم ويفصل أدبه العالي بينه وبين العمل اليومي .

ان تربية المدارس والكتب تلطف وتدمث ، وهي ليست أحياناً الا تربية أخلاقية يفني المرء في سبيلها طاقة نشاطه وعزيمته . فهـذه التربية المثلى ، اذا اعتمد عليها ، وحدها ، تشل القوى العملية لأن المفرط في الدرس بلا تجربة يفقد ذاتيته ويمتلىء دماغه بالنظريات ويبتعد عن الواقع حتى أنه يفقد النشاط العقلي الذي رافقه قبل دخول المدرسة ثم ما لبث أن تلاشى فيها . ان حفظ البرامج التعليمية عن ظهر قلب لا يخلق شخصية صالحة للحياة . ومن ينشأ هكذا يدهش اذ يخرج الى مدرسة العالم ويجد أنه فقـد المقدرة على تفهم الناس والأشياء ، يتعجب اذ يرى غلاماً فقيراً محروماً من تحصيل العـلوم يسبقه في ميادين العمل .

ان خريج المدارس العليا يعيش في عالم خيالي ، ويخال تخاذله قوة ، بينما يرى العـالم يضحك من نظرياته المثلى التي لا يستطاع تطبيقها . ان تلك النظريات كمسرحية لم تمثل مشاهدها وأدوارها ليرى الناس قيمتها الفنية . نحن في زمان يتطلب رجالا عمليين ، وليست معارف غير العمليين من ذوي العقول الكبيرة الا مواد يستخدمها وينتفع منها انصاف المتعلمين الذين وهبوا مقدرة الدخول والخروج من أبواب معضلات الدنيا ومشاغلها . ان هؤلاء الذين لا يفهمون الا المحسوسات يعرفون ماذا تفيدهم النار في أعمالهم ، ثم لا يعنيهم بعد ذلك أن يعرفوا كيف وممّ تتولد الحرارة .فمن الخير لنا أن نعلّم بنينا كيف يستفيدون من طاقة الماء قبل أن نعلمهم أنه مركب من الاوكسجين والهيدروجين .

فإنسان الكهوف ، حين حك العود على جدار كهفه واكتشف النـــار واستخدمها في منافعه لم يبحث عن أصلها وفصلها ولكنه شوى عليها صيده وأكل هنيئاً مريئاً ، ثم قعد يتدفأ عليها بعدما ملأ بطنه واستنار بهـا حين فقد

البدر . ان في الطبيعة نماذج عديدة من البشر تضحك اذا تأملتها ورأيت كيف تجتمع فيها الأضداد . فمن ذكاء حـــاد الى جانبه غفلة كأنها البلاهة . فاسحق نيوتن استطاع أن يدرك سر الخليقة ، ولكنه كان يضيق ذرعاً بالنهوض عن كرسيه ليفتح البـاب لهرته . فقوّر لهـا طاقة في أسفل الباب لتدخل منه متى شاءت ، ثم عمل طاقة أصغر لجروها ، ولم يدرك أن الطاقـــة الواحدة تكفي البسة وجروها .

وبتهوفن الموسيقي العظيم كان لا يعرف أن يقطع كوبوناً من سند لديه ليقبض فائدته حين يحتاج الى المـال فكان يبيع ذاك السند بل ربما باعه بثمن بخس من تويجر يضحك من عبقريته وان أعجب بما يبدعه من أنغام .

ويحكى عن أحـــد الكتّاب الكبار الألمان أنه عاد مرة الى بيته وقرع الباب ، فأطل عليه خادمه من النافذة ، ولمـــا لم يقدر أن يعرفه بسبب الظلام الحالك قال له : ان مولاي الاستاذ غائب الآن عن البيت .

فأجابه الكاتب العبقري وهو ذاهل : حسناً قل له سأعود لزيارته في فرصة اخرى . وهكذا نام عبقرينا لا نعرف أين ليلته تلك .

وأحد أساتذتنا البلديين وكان من المتفوقين في علم الرياضيات ، رافق مرة زائريه الى الشارع مودعاً، وبعد أن سار معهم مسافة غير قصيرة وقف يترجاهم أن لا يزعجوا أنفسهم أكثر بوداعه : وسألهم بإلحاح أن يعودوا ، ولم يشعر أنـه هو الذي يجب أن يعود إلا عندما أفهموه ذلك بالقلم العريض .

وأعرف أيضاً استاذاً خرج من صفه وما زال عقله مشغولاً بحل معضلة،فرأى في طريقه الى غرفته كاهناً عريض الأكتاف واقفاً يصلي امام تمثـــال في ساحة المدرسة ، فشرع يخربش أرقاماً على ظهره ظاناً انه امام لوح اسود .

قلّ منا من لم يسمع بأديسون العظيم ، فهذا الرجل الذي أدرك كثيرا من أسرار الطبيعة واستخدامها لرفاهية الانسانية ، لم يعلم أن البريد ينقل بسرعة

كل ما يعوزنا من القارات الاخرى ، فلما قيل له : ظهر في المانيا كتاب جليل عن الكهرباء قال : ابعثوا رسولا الى المانيا يجيئني به .

وصاحبنا الجاحظ النابغة العظيم حصر مثل هذه الغفلة في المعلمين فكتب دفتر المعلمين المشهور فأضحك الناس ولا يزال يضحكهم منهم ، وقد نسي مولانا الجاحظ أن العلماء العظام مثله أغفل من المعلمين أحياناً ، وإني لأعجب من الجاحظ العظيم الذي لم يترك شاردة ولا واردة عن غفلة المعلمين إلا دوّنها في ذلك الدفتر كيف نسي غفلته هو حين حدثنا أنه نسي اسمه ثلاثة أيام .

ان هذه الغفلة قد تنفع في العلم فينصرف صاحبها النابغة بكليته الى قضية ما فيحلل ما اعتاص منها ليأتي رجل وسط ويستغل تلك الموهبة الخارقة .

ان علم هؤلاء لا ينفعهم بنافعة في الحياة ولكن غيرهم يستفيد من ذكائهم ويستغل علمهم ومعرفتهم ، فهو أشبه بالأرض التي تطعم ولا تأكل من ثمارها الشهية . كثيراً ما ترى رجلا يندب أمامك حظه ، ويرى نفسه فوق رؤسائه ، بل يرى أنه أهل لأن يدير أمته ، ويدير شؤونها ، ولكن الناس حساد يكرهون أن يسودهم عبقري مثله ، ولذلك ظلَّ هو حيث هو ، بينما فلان الذي كان رفيقه في المدرسة وكان دونه في الصف يتمتع اليوم بمركز مرموق . فإلى صاحبنا هذا قل : لقد ظلمتك مدرستك التي عظمت ذكاءك لأنها نظرت اليك من جهة واحدة وأنت فيك موهبة لا تطعمك خبزاً ولا تسقيك كأس ماء بارد . نظرت الى نخروب عامر من دماغك وعميت عما في تخاريبه الاخر من خراب ، فجاء حكمها العام فاسداً .

إن كتاب الحياة يقرأ بغير الطريقة التي تقرأ بها الكتب العلمية والفلسفية والأدبية ، فلا تتعجبوا إذا رأيتم من لا يعرف الخمس من الطمس يتفوق في ميادين شتى على الشباب الجامعيين الذين قتلوا العلوم الحديثة درساً . تعلموا مثلاً ، الاقتصاد السياسي ثم ما عرفوا اقتصدوا ولا ساسوا . وحذقوا مواقع النجوم في

قبة الفلك بينما لا يدرون موقعهم على الأرض . وتعلموا سرعة النور وانتشار الضوء ، ولا يزالون أيضاً كالسلحفاة قابعين في مدارجهم لا يعرفون أن العمل غير العلم .

إن الرجل العملي المحنك هو الذي خلق لاستغلال العقول الفنية الرفيعة التي لا تعرف أن تفكر إلا بالقضايا التي تستبد بذكائها . فكم حال انصباب بتهوفن على رائعاته الموسيقية دون تفكيره بخبزه اليومي ، فلم يكن لديه أحياناً ، غير قطعة بسكوت وكأس ماء لغذائه .

حقاً إن العبقرية نعمة وكارثة في وقت معاً ، وما أجمل وأصدق قول أم الاسكندر لابنها : إني أتمنى لك أصحاب عقول تخدمك ولا أتمنى لك عقلاً تخدم به غيرك .

اكلة لحوم البشر

فكرت أياماً في موضوع أكتبه فما اهتديت إلى واحد يعجبني . ولكن المصادفة ، كما يقولون ، خير من الميعاد فجاءني الموضوع إلى البيت . ففي ليلة جبينها مزرور ونجمها مغموم ، وقد أعددت لها كافات الحريري السبعة إلا واحداً ، دخل علي رجل ليسهر عندي ، فتعجبت كيف قطع مسافة ميلين وأكثر في هاتيك الليلة السوداء ، ولكني عظمت أجره وشكرت سعيه . هذا الرجل يطلقون عليه في جوارنا لقب منشار الصقالة ، له لسان كمدقة الطبل يضرب به دائماً على قفا كل غائب من جيرانه واخوانه . وبينما كنت أتأهل به قلت في نفسي : هذا هو موضوعي .

وقعد قبالتي على موقد يطحر ويزحر مصارعاً البرد فتعدّل الحمل . وبعد أن فتل شاربيه ورفع بأصبعيه أرنبة أنفه افتتح الحديث بالمقبلات : أخبار خارجية ، وأخبار محلية ، وأخبار أطول منها نفساً ، ثم عاد الى الداخل فبدأ على خيرة الله ، بعد ما ألح صوبي ومدّ عنقاً كمنق السلحفاة وقال :

عندك للسر مطرح .

قلت كما يقولون : بئر عميق هات ما عندك .

فقال : منذ أيام كان فلان جارك عندنا ، فقال عنكم كيت وكيت ، فقلت :

من كان مثلك يا رجل لا يتطاول الى من هم أكبر منه، وأنا أعرف أن من تسبه عندنا محسن اليك ، فقال : محسن إليّ ! من قال ؟ أنا صاحب الفضل لا هو .

فقلت : يا بو عزيز ، الكلام صفة المتكلم .

فصاح : معلوم معلوم معلوم ، ولكن أنا يقهرني نكران الجميل .

فقلت : هذا مرضنا يا عمي بو عزيز ، كلنا في الهوى سوا .

فقال : الحق معك ، هذا مرضنا ، والبرهان على ذلك أن فلاناً الذي هو من عظام الرقبة ، ظل يحكي طول النهار ، ولكن عمك عم ، سد بوزه باجلك الله ، فلفّ ذنبه وراح . وتصديقاً لقولك أننا كلنا في الهوى سوا ، أمس كان فلان يروي أخباراً وحكايات عن شخص محترم جداً فما احتملت سفاهته، ولو لم يقفوا بيني وبينه كنت خطفت روحه .

فقلت : نشكر الله على أنها انتهت عند هذا الحد ، ولم ترتكب جناية .

فأجاب وهو مصدق نفسه ، وأنا شكرت ربي ، ولكن طبعي لا يحتمل .

وحاولت أن أقلب الاسطوانة ولكن صاحبنا يلذ له هـذا النغم فعاد اليه . وأراد أن يوقع بيني وبين صديق حميم أعرف حق المعرفـة أنه لي غائباً وحاضراً فقال : صديقك فلان ، آه ، الله لا يغرك منه . هذا قال كذا و كذا ، فقلت له : عيب علينا أن نشرب من البئر ونرمي فيه حجراً .

وبينا هو في الحديث اذا بصاحبنا الذي وضعه على طاولة التشريح يقرع الباب ويدخل ، فقال في سره : يا مسا القرد . ثم نهض أبو عزيز يعانقه حتى كاد يخنقه . وبعـد أن جلس أطرق ابو عزيز هنيهة ثم رفع رأسه وحدّق إليّ بعينيه البيضاوتين وقال مشيراً الى صاحبي : هـذا صديق لا يثمن ، وهنيئاً لمن عنده صاحب مثله . ليت لنا في جيراننا وأهلنا واحداً مثله . الأقارب عقارب، كلهم يشتهون لنا الضرر ، ويفرحون في قلوبهم حين تصيبنا مصيبة . هل سمعت

في عمرك ودهرك أن من نقاسمه اللقمة اذا اعتـاز يتمنى أن تكون فقيراً مثله ؟ هؤلاء أقاربنا وجيراننا .

فقلت له : ولكن ابن عمك بطرس رجل طيب يا بو عزيز .

فقال : بلا طيب بلا بلوط ، ليس في الحيـاة صالحات ، خبيث قلبه أسود مثل الزفت .

وهكذا قضى صاحبنا السهرة الطويلة ولم يقف لسانه لحظة ، كان ينتقل بسرعة من ظهر الى ظهر ومن قفا الى قفا ، لا يهدأ كأن محركاً يديره . ولمـا طالت الجلسة نهض صاحبنا الذي أرسله الله لإنقاذي وقال :

تفضل نم عندنا يا بو عزيز .

فضرب براحته الأرض وقال : نومتي هنا .

وما ذكر كلمة النوم حتى نهضت وقلت : دله على الغرفة يا ...

وفي الصباح أراد أن يحرش عظام من بقي ممن يعرفهم ونعرفهم ، فما أفسحت له مجالاً . ونويت اذا ما عاد الى مثلها ، أن أعمل كما عمل عبد الملك بن مروان . قال له رجل : إني أريد أن أسرّ اليك شيئاً .

فقال عبد الملك لجلسائه : اذا شئتم .

فنهضوا . وأراد الرجل الكلام فقال له عبد الملك: لا تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك . ولا تكذبني فإنه لا رأي لمكذوب . ولا تغتب عندي أحداً .

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، أفتأذن لي بالإنصراف ؟

قال له : إذا شئت .

لقد أحسن ذلك الخليفة الجبار . فهذه ثلاث خصال قلما يفلح من يتصف بها ، وما أكثر انتشارها عندنا . فلا يدير أحدنا ظهره حتى تتناوشه سهام وسنان الألسنة التي لا التئام لجراحها .

فلا تسلوا خناجر الاغتياب لتمزقوا بهـا أعراض اخوانكم وبني عمكم وجيرانكم ، فليس العرض ثوباً يرتق بعد الخزق ، ولا غصناً يزداد نمواً إذا شذب . ان انتقاصكم من قدر اخوانكم غائبين لا يجعلكم أسياد الحضرة. ليس بالكلام يبلغ المقـام . جاء في المثل : من غربل الناس نخلوه ، فحذار حذار وتذكروا قول الشاعر :

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى   وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء   فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت اليك مساوئاً   بقوم فقل : يا عين للناس أعين
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى   وفارق ولكن بالتي هي أحسن

قد استفحل أمر الاغتياب عندنا حتى صار رواية تمثل في كل محضر . انها لمأساة فاجعة أبطالها نحن رجالاً ونساء . وللنساء الباع الطويل على هذا المسرح ، وهن الحائزات قصب السبق في هذا الميدان . فلا تسمع بتهمة أو اغتياب تقوم لها الناس وتقعد إلا كان أبطالها نساء أو أشباه النساء . فمتى اجتمعن – ولا أعني الراقيات المهذبات منهن – فلا تسل عن موضوع حديثهن، فهو، أنا وأنت وهو . وأغلب جلوسهن يكون قبالة النوافذ لينظرن الجائي والرائح ، استمداداً للوحي والإلهام، فيفصلن لكل رجل ثوباً ، ولكل أنثى ، إذا كانت أجمل منهن فساطين مختلفة الأزياء والألوان ... ثم لا يقفن عند حد من الكلام ، ولا تفرغ جعبتهن من السهام . فلو وهب الله خطيباً سرعة خاطرهن وفصاحتهن في مثل هذه المواضيع لكان يقتل الناس بكلامه ولا ينتهي .

ومن تقصى في البحث عن غايتهن من الاغتياب علم انها بسيطة ، فهن لا يقصدن، غالباً غير التسلية ، وتلك سجية طبعن عليها. أما الرجال فهم أصحاب الغايات، وهم الذين يغتابون تشفياً وانتقاماً. وإذا أمعنا النظر عرفنا أن المتاجرين بهذه البضاعة هم الجبناء الذي يطعنون في الظهور لا في الصدور . يكبرون العيوب بنظارة لومهم فيظهر القذى جذعاً عريضاً . ناهيك بما يخلقون منها ،

وما أقدرهم على الخلق والإبداع . انهم يتوسلون بذلك إلى مدح أنفسهم ، ولو فطنوا لعرفوا أن طول لسانهم لا يزيد في علو قدرهم شعرة . ولو كانت هـذه الافة في غصن من الأغصان لقطعناه واعتضنا عنه بغيره ، ولكنها سوس مندس في قلب الجذع ، فلا يفيق الولد ويفهم معنى الكلام حتى يسمع أمه في اجتماعاتها مع الجارات تطلق للسانها العنان في ميدان الطعن بفلان وفلانة فتنطبع اذ ذاك هذه الصورة على لوح فؤاده . ثم تكبر وتتجسم كلما كبر وشب إلى أن تصبح عادة يصعب استئصالها .

• فلنصن ألسنتنا نأمن شرها . وما أصدق المثل العامي القائل : لسانك حصانك ان صنته صانك ، وان خنته خانك .

الصبر مفتاح الفرج

لا شك في أنك تقول حين تقرأ هذا العنوان : عنوان مبتذل .

نعم يا سيدي ، هذا صحيح ، ولكنّ هذا المفتاح العتيق ، الذي أكله الصدأ يجب أن يكون في يدك أو في عبّك ليلاً نهاراً . فأنت محتاج اليه في كل ساعة : في السوق ، في المنزل ، وفي السيارة وعلى الطريق وحيثما تنتقل . وإذا متّ ، بعد ألف عمر طويل ، فأوص الورثة أن لا يستأثروا به بعد . بل فليضعوه تحت مخدّتك في التابوت فلربما احتجت اليه في المطهر أو عند الحوض وعسى ألا يكون حوضك محلقاً كحوض الفرزدق .

الصبر يا أخي سلاح العباقرة في معارك الإبداع والاختراع . فلولا صبرهم وثباتهم ، ما حق لهم علينا هذا الاحترام ، ولا فازوا بهذا التعظيم والاكرام .

هذا في الأمور الجسام ، أما في توافه الأمور فيجب أن يكون مفتاح الفرج في زنّارك . فحين تصطدم بلئيم فمن يفتح لك الباب لتفرّ من المأزق غير الصبر . إن في الحياة مزالق لا ينجّينا من شر عواقبها شيء غير الصبر . فلا تهزأ به إذا شئت أن تحيا سالماً من الأذى .

أما في عظائم الأمور فالصبر أمضى سلاح . قال نابوليون : إنما يدرك النصر من هو أشدّ صبراً وثباتاً . أما رأينا دودة القزّ تقضي أياماً لتنسج شرنقتها

الحكمة التي تصير فيما بعد زينة للحسان ، وحلة لصاحب التاج والصولجان ؟ أما الدودة الخائرة القوى التي لا تستطيع الثبات حتى تُحكِم عملها فلا تترك إلا فيلجة رخوة قذرة لا تقبض عليها إلا وفي يدك من نتنها عود .

قال أحد الفلاسفة : إن النجاح في معظم الأمور يتوقف على أن يعرف الانسان إلى متى يجب أن يصبر حتى يفوز . فالأعصاب التي لا ترتخي ، والعين التي لا تكلّ ، والفكر الذي لا يتشتّت هي التي تُحرز الغلبة دائماً . فلا بد لنا من الصبر حتى ندرك أمانينا ، وإذا كنت تنتقل في أعمالك كالشمس من برج الجدي إلى برج الثور ، مردداً قول الطغرائي : إن العزّ في التنقّل ، فاعلم انك لن تبرع وتمتاز .

قال كارليل : أعرف عملك وثابر عليه واعمل فيه كجبار .

فيا ليت شعري كيف ينجح طالب أي عمل وفن إذا كان يريد التفوّق وهو ملول سريع السأم قريب الضجر لا يثبت في عمله ولا يصبر عليه ؟ إن العبقرية تشبّ بين ليلة وضحاها وتستعجل الأمور قبل أوانها ثم تكلّ ، أما الثبات فإنه يعمل رويداً رويداً ويدرك أخيراً ما يسعى اليه .

كثيراً ما يهولك ما ينتظرك من أعمال فتجبن وتخاف أمام هـذه الكثرة ، فتتردّد وإذا لم ينجدك الصبر خسرت المعركة . وتتراجع وتظلّ تحوم حول مكتبك حتى يضيع يومك. أما اذا ابتدأت حين تفتكر فإنك ترى نفسك أكبر من عملك . إنك تظل أصغر منه حتى تشرع بـه ، ولذلك قالت العوامّ : العتبة نصف الطريق .

قال أحد الكتاب : ان من يتردد دائماً بين عملين لا يدري أيهما يفعل أولاً ، ومن يعزم ثم يرضى أن يتغير عزمه لأول معارضة يلقاها من صديق له وينتقل من رأي الى رأي ، ومن خطة الى اخرى لا يعمل شيئاً عظيماً أو مفيداً . فالثبات هو الذي بنى الأهرام وقلعتي بعلبك وتدمر التي زعم النابغة انها من عمل الجن ،

وأيّ جنيّ أعظم من الانسان ان صمم وثبت وصبر ؟ وهل بغير الصبر والثبات وصل الانسان الى القطب الشمالي وتسلّق أعلى الجبال ؟

وهؤلاء العلماء الذين يحاولون اليوم فتح السماء ، فما قولك فيهم ؟ انهم صابرون ومصرّون وسيصلون. فكل ما في هذا الكون من اختراعات وعجائب لم يكن لولا الصبر والثبات. ان المصادفات لم توجد شيئاً عظيماً كما يخبرنا أديسون، فهو لم يخترع اتفاقاً إلا الفونغراف كما قال . أما جميع اختراعاته الاخرى فهي بنت الثبات والصبر والجهاد المستمر .

كتب تيتان حين قدّم صورة العشاء السري الى شارل الخامس : انني أقدّم الى جلالتكم صورة العشاء السري بعد أن واصلت العمل فيها كل يوم تقريباً مدة سبع سنوات .

وأبو الفرج الأصبهاني الذي خلّده كتابه الأغاني قد صرف في تصنيفه معظم عمره .

ربما قلتَ لي كيف أثبت وأنا بائس ؟ فأقول لك ان الأحوال المعاكسة تولّد القوة ، والمعاكسة تصيّرنا أقدر على المدافعة . والتغلب على عقبة واحدة يزيدنا قوة للتغلب على عقبات عديدة . فكم صبرَ كولومب وكم صبر غيره من الرجال العظام حتى بلغوا الأماني . أفتريد ، وأنت الناشىء ، أن تدرك فوراً ما أدركه من شابت نواصيهم في طلبه ؟! لا تكن رخواً ، قل لا بد لي من أن أصل ، ثم واصل سيرك تبلغ المدى . أما اذا قعدت حسيراً تنتظر مركبة إيليا النارية وبساط الريح ،فإنك تظل حيث أنت لأنك طلبت المدَد من غير نفسك فقصّرت كحمار الشيخ في العقبة .

ان الفضل الأكبر في نجاح الرجال العظام يعود الى صبرهم وثباتهم أولاً والى مواهبهم الطبيعية ثانياً .

فالعبقرية ترتعش أمام الصبر والكد . والمواهب السامية تلقي سلاحها عند اقدام الاجتهاد العظيم ، ولذلك قالوا : العبقرية صبرٌ وثباتٌ ونبوغ .

ألا يعجبك تلميذ يقصّر مثل أناتول فرانس ثم لا ينثني عن دخول الامتحانات ، ويظل مصراً على ذلك سنوات حتى ينال درجته العلمية ؟

لا شك في أن زهير بن أبي سلمى هو الذي جعل الشعر العربي فناً بثباته وصبره على تنقيح قصيدته عاماً كاملاً ، ومثل هذا روي عن ديكنز . سئل مرة أن يقرأ على جمهرة قطعة من روائعه فأجاب : إنه لا يتلو قطعة على الناس قبل أن يكرّر تلاوتها لنفسه يومياً ستة أشهر .

قال شاعر ايطالي: ان الصبر هو الشجاعة العظمى التي يمتاز بها المنتصر ، وهو الفضيلة الكبرى التي يتسلح بها الرجل المجاهد ضد الحظ ,وقد قال المتنبي :

وإن أمرض فما مرض اصطباري
وإن أحمم فما حمّ اعتزامي

إن هذا الرجل العظيم يعلمنا دروساً كثيرة مفيدة أهمها الثبات ، فهو كالسنديانة الجبارة المنتصبة في وجه العواصف لا تنحني ولا تلين . ألم يقلْ ، ويا نعمَ ما قال :

أطاعن خيلاً من فوارسها الدهر
وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ

فأي مخترع لم تكن عدته الصبر ؟ وأي فنان مبدع يستطيع أن يخرج للناس رائعة إذا لم يستعن بالصبر ؟ وهل أعظم من اصطبار الأم على أولادها لتقوّم ما اعوجّ من سلوكهم وتخلق منهم رجالاً ؟ وهل من صبر أعظم من صبر المثّال على الحجر ليُدبّ اليه جدولاً من ينابيع الحياة ؟

والمؤلف المبدع ألا يظلّ سنوات يكتب ويمزق ويكتب وينقح ليُخرج للناس كتاباً يقرأونه في بضع ساعات ؟ أما بقي مونتسكيو يكتب ويفكر عشرين عاماً حتى أخرج كتابه الخالد روح الشرائع ؟

وكم بات دوستوفسكي وغوركي على مضض ، وكم قاسيا من شقاء وآلام ، وكم صبرا على الفاقة والمرض حتى أخرجا كتبهما الخالدة ؟

اسمع يا صاحبي ، إذا كنت من الفاشلين. أراك كأنك تقول لي : الحكي هين، والصبر ما الصبر ؟ الدنيا حظ . لا يا عزيزي ؟ لا تعزُ فشلك إلى سوء بختك بل انسبه دائماً إلى قلة جلَدك وانصرافك عن عملك . فعدَم ثباتنا هو الذي يحول دون التقائنا بالحظ ، فنقصّر عن إدراك المظائم ، وقد يطرحنا في أبعد مهاوي البؤس واليأس . فلنثبت بوجه المصاعب تندحر هي أمامنا كما قال شاعرنا :

قد هوّن الصبرُ عندي كل نازلة
وليّنَ العزم حدّ المركب الخشنِ

مختصر مفيد

يقول العوام : مختصر مفيد ، وهم يعنون بذلك أن يكون كلامهم ضمن حدود البلاغة القائمة على قول الفصحاء : خير الكلام ما قل ودل ولم يمل .

إن أكثر الناس يعرفون هذا ، ومع ذلك تجد بعضنا إذا صادفك في الشارع يمد من ذراعيه سياجاً في طريقك ليوقفك بين زحمة من السيارات وهدير الترام واصطدام المارة بالمناكب ، والتفاف الساق على الساق ، ثم لا يعنيه الى أين يكون المساق ... يستوقفك ليبدي على قارعة الطريق أشواقه القلبية ويظهر لك في ذلك المحشر عواطفه الأخوية ، ولا يعنيه ان كانت الشمس تكوي العصفور . يبتدرك أولاً بالسؤال عن صحتك الغالية : كيف صحة الجناب ؟ كيف حال العائلة الكريمة ؟ فتجيب . ثم يعيد الكرة : الهمة مليحة ان شاء الله ؟

ثم يرجع الى الصحة يستفسر عنها باهتمام زائد ، حتى اذا ما اطمأن اليها توغل في أدغال العيال ، وشؤون البيت وشجونه ليطمئن قلبه المحروق .. ومن أهل البيت لا بد من الانتقال الى أولاد العم وأولاد الخال ، وإذا كان يعرف أحداً من الجيران فلا بد من أن يستطلع أخبار الجميع واحداً واحداً . أليس الكريم من يسأل عن جيرانه ؟.

وتحاول أن تهرب فلا يدعك . يستمهلك ليفرغ جرابه ، وجرابه هاوية

هيهات أن يدرك آخرها ، وإذا ضاق الحرف معه عاد الى صحتك الغالية فيسأل عنها . وقد لا ينسى في ذاك المضيق أن يسأل عن كل ما عندك من مال ناطق وصامت ، وعليك أن تجيبه على كل سؤال ، وإلا فأنت متكبر لا تكلم الناس إلا من فوق . كل هذا وهو ممسك بيدك الكريمة لا يفلتها بل يظل يعصرها حتى لا يبقى في عنقودها غير العماشيش .

وقد تكون على موعد فتحاول أن تتفلت منه ، ولكن من أين لك ذلك وقد علقت في شراكه علوق الذبابة في عش الرتيلاء ؟

هذه ضروب العناء التي تصادفها مشياً. أما اذا رمتك الأقدار بزائر يرى من الضرورة أن يقص عليك تاريخ حياته منذ دب وشب واكتهل وشاخ ، وما صادف من أهوال وما فعل من فعلات كبار في حياته ، فهناك الويل والبلاء ، فانه يصل بعض أقاصيصه ببعض لا يقسمها كشهرزاد لأنه يعتقد أن زيارته لك يجب أن تكون حافلة بالأعاجيب السندبادية ، فينتقل بك من حكاية الى حكاية يصلها ببراعة عجيبة ، بينما تكون أنت ساهياً صامتاً تنتظر النهاية ولا نهاية .

وماذا تقدر أن تعمل ؟ هل تتركه في مكتبك أو في بيتك وتودعه على أمل اللقاء ؟ أما هو فلا يدعك حتى يشبع . وإذا تحلحل للذهاب وقلت له : اقعد ، أناخ عليك بكلكل ليل امرىء القيس .

عدت مرة سيدة ثرثارة. وكنت آنذاك مقيداً بمواقيت معينة لا تستقدم ولا تستأخر . فغاصت حضرتها في بحر الحديث وراحت تصارع غماره ، فلا تذهب موجة حتى تجيء واحدة أكبر منها ، وظللت أنتظر النهاية ، وأنظر الى عقارب الساعة ولا أدري ماذا أصنع ، وعاذا أحتال لأخرج من هذا البحر الهائج ، فمن قلة الذوق والكياسة أن تودع محدثك وتنصرف وهو في منتصف حديثه . وبينما كنت أنا في التفكير كان الله في التدبير . جاءتهـــا نوبة حادة من السعال فتعذر عليها الكلام ، واغتنمت الفرصة ، وودعت معتذراً . صار الوقت... وخرجت

أهرول . كنت لا أزال شاباً فقطعت في خمس دقائق مسافة يقتضي لهـــا ربع ساعة . وهكذا لم يفتني قطار المدرسة ونجوت من لوم مديري .

واذا دخلت دكاناً لتشتري حاجة، ولو صغيرة، اضطررت الى الوقوف ساعة تقضيها في المساومة ، ويدق قلبك تسعين دقة ، وتروح وتجي حتى ينزل السعر نصف قيمته ان لم يكن ثلاثة أرباعه . فكأن صاحب ذلك الدكان لا شغل له ، وهو ينتظر رجلاً يباحثه ويجادله ، فـلا يبيعه شيئاً إلا بعد كرّ وفر في الجدال والنضال . فلو قال صاحبنا هذا الكلمة الفصل أما أراح واستراح ؟

وكما في البائعين كذلك في الشارين ، أناس يعتقدون أن كلمة (السعر محدود) خلطة ، أو انها احبولة تصطاد بها الزبائن . ولذلك يقبل بعضنا على المخازن التي تساوم ، فيكر فيهـــا ويفر ، ويفتح ميدان الكذب من الجانبين والله ينصر من يشاء .

تلك حالات من أحوالنا وعادات من عاداتنا. نحب تكرار الكلام، ونعتقد أنه ضرب من الوفاء والاخلاص والفصاحة واللسن ، ولو عدلنا لأقللنا من هذه العبارات المملولة التي هي على حد قول جميل بثينة : لكل خطاب يا بثينَ جواب. فما أجمل الحديث متى كان أخـــذاً ورداً ، وليس فيه من التكرار الذي يفلق السامع ، وقائله يظن أنه السحر والدر .

يقول شيشرون أمير المنابر : الاختصار هو خير الكلام لمن كان عضواً في مجلس الأعيان أو خطيباً في المحافل . أما أنا فأقول : الإيجاز أوجب ما يكون في السوق ، وفي الطريق إلى مراكز الأعمال ، وفي الزيارات في مكاتب الأشغال. فقد يكون الرجل الذي تنفجر على رأسه هذه القنابل الشفوية قـد جاء متأخراً على موعده لسبب من الأسباب فكيف تزيد في طينة تهاونه بلة .

قال أحدهم : الكلمات كأوراق الأشجار . فحيثما تتلبد يندر أن يكون تحتها ثمر . ان لوثر المصلح الديني المشهور ، يرى أن الصلاة الأكثر اختصاراً هي الأشد وقعاً لديه تعالى .

فلنعتمد الإيجاز في جميع أغراضنا . فإذا كتبنا فلنسر تواً إلى غرضنا ، فلا نقتل من نكتب اليه بالمقدمات والخاتمات التي كثيراً ما تجيء أشبه بالأذناب ، وإذا خطبنا فلنقصر مسافة الكلام . ان الكلام المختصر أفعل في النفوس من الكلام المبسط، الممدد. اما جاء في المثل: شبر من الملى ولا ذراع من (المرقوق)؟ فلماذا لا نصوب كلامنا كالسهام ، أو نجعله مندفعاً كالشلال ليفعل في النفوس ويؤثر بها .

كان أحد المشاهير يقول لزائريه : اختصروا فالوقت ثمين . إن المحافظة على المواقيت ، والنشاط في العمل ، وتعمد الإيجاز، هي كلمات السر في هذه الحياة.

وقد كتب أحد كبار الرجال رقعة وضعها في مكتبه على أعين الناس : على من يطيل الإقامة عندي أن يساعدني على اتمام عملي .

أما نحن فنحسب مراكز الأعمال نادياً للتسلية، ونعيب على صاحبه إذا قصر بواجبات الترحيب، وجر الحديث إلى أقاصي المسكونة . فليت أصحاب الأعمال يكتبون (الوقت محدود) كما يكتب بعض التجار : (السعر محدود) شرط أن يكون هذا السعر بلا حسم ، كما يفعل بعضهم ارضاء للزبائن . . .

فإذا كتبت الى رجل عمل فاختصر ما استطعت إذا كنت ترباً بكتابك ألا يطرح في سلة المهملات . وفي كل حال الايجاز موهبة نادرة . تأمل الناس تجد أن القليل منهم من يسلم حديثه من عبارة تردد ، أو كلمة يقفون عليها فيشجون رأسك بهـــا . فبعد كل جملة ، مثلاً يقول لك واحد : فهمت ؟ وآخر : فاهم يا سيدي ؟ وثالث : نعم . فتسمع منه ألف نعم في حديثه ، وما تكون هــذه النعم إلا نقم .

قال فنلون : ان حسن الذوق الخالص يقتضي أن نقول كثيراً في كلمات قليلة . وحكماء اليونان السبعة ، كان السبب الأهم في ما حصلوا عليه من شهرة ، هو ايراد كل منهم جملة واحدة في كلمتين أو ثلاث . ولذلك نرى حكمة الشعوب مدرجة في أمثالها المختصرة .

ولساننا العربي يؤثر الإيجاز دائماً . وقد أطلق السلف الصالح على الكلمات المختصرة المفيدة اسم (جوامع الكلم) ولذلك قالوا : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . حتى بالغوا في هذا فقال شاعرهم : إن اللبيب من الاشارة يفهم . واذا نطقت فلا تكن مكثاراً .

فما بالنا نحن نحمل من نخاطبه أثقالاً باهظة في حديثنا ورسائلنا وخطبنا ؟ فاذا وقفنا على منبر لا نتحول عنه حتى تنوء بنا أعواده ، وتتثاءب الجدران من حولنا . يضج سامعونا متململين ، ونحن لا نرى تلك الأفواه تفتح وتغلق أمامنا ، فكأن لنا عيوناً لا تبصر وحواس ولا تشعر . ومن هؤلاء الخطباء المصاقع من يهمهم له سامعوه ولا يهم هو بقضب حبله الطويل . فكأنه جرّاح لا يدع ضحيته مهما تألمت وتوجعت . فالله نسأل أن ينجي السامع من كلام يقع عليها كالمقارع .

المطالعة غذاء الموهبة

كما يحتاج جسدك الى مواد مختلفة ليتغذى وينمو ، كذلك يحتاج عقلك الى غذاء ينميه ، وما المناهج المدرسية إلا خطوط ومعالم للطريق التي يجب أن تسير عليها لتحسن المطالعة ، وتستفيد منها فائدة كاملة غير منقوصة . وكما تتعرف الى أشخاص كثيرين في حياتك العملية فإنك في قراءتك الكتب القيمة تتعرف بأصحابها ، فمنهم من يصير لك صديقاً حميماً يعضك الابتعاد عنه ، ومنهم من لا ترغب فيما بعد أن ترى له صورة وجه . فالكتب ، وقد كفانا وصفها أبو الادب العربي أستاذنا الجاحظ، هي الأصدقاء الذين يخلصون لنا النصح ويعطوننا كنوز المعرفة بسخاء لا نظير له .

وقد اختلف كبار الادباء في وصف القراءة ، فمنهم من عدها الرذيلة التي لا عقاب عليها ، وأكثرهم قالوا : انها التحدث الى أشرف أهل القرون الخالية . ان الرأيين لعلى صواب ، فالقراءة ككل الأشياء ذات وجهين مختلفين . فالقنبلة الذرية تستعمل للإبادة فتفني بالجملة ، وهي لو سيرت في سبيل النفع لأتت بأجزل الخيرات وأهمها .

فمتى استعملت القراءة للهو والتخدير ، والتواري من وجه العمل فهي رذيلة دون شك . فمن يقرأ لأنه يحب أن يقرأ ليتناسى الأعمال وهموم الحياة ، فهذا لا تفيد قراءته . ومثل هذا ، اذا فاته الكتاب المفيد ، تناول جريدة صدرت

منذ أشهر وأخذ يقاطع أنهارها ، تارة يأتي النهر من قُبُل وحيناً من دُبر فهو لا يعنيه إلا أن يقرأ .

وهناك قارىء آخر هو من شغف بالمطالعة ووجد فيها متعة عظمى . وهذا خير من الذي تقدم وصفه لأنه يتوخى الاستفادة جهده ، فيقابل ويملل ويحلل ويستخرج العبر .

وهناك قارىء ثالث ، وهو الممتهن وأعني به الطالب ، فهذا يبتغي من قراءته معلومات معينة لا بد له منها لإتمام تكوينه العقلي . فهو كحصان العربة يسير تواً على طريقه المعبدة – أي المنهاج – ولا يستطيع التحول عنها ، وان خرج عنها يميناً او شمالاً تدهورت عجلته ، ولم تصل سالمة الى ساحة الامتحان حيث تلقي أثقالها. فإن كنت أيها القارىء طالباً فعليك ان تقرأ ، والقلم بيدك والدفتر عن يمينك ، وتلخص للمراجعة حين تأتي ساعة الامتحان الرهيبة .

أما اذا كنت مؤلفاً فإنك لا تحتاج الى إرشاد لأن لكل مؤلف طريقته . وعلى كل فلا غنى لأحـــد عن القلم والورق مهما كانت ذاكرته حادة جبارة . ان للقراءة كغيرها من الأعمال الاخرى قواعد لا بـد من اتباعها . فعلينا أولاً أن نقرأ الكتاب أكثر من مرة ، وقراءة غير سطحية ، لأن محاسن الأدب كالجمال تبدو لك وتزداد كلما ازددت تأملاً ، كما قال ابو نواس في وجه احبه :

يزيدك وجهه حسناً اذا ما زدته نظرا

وعلينـا أن نؤثر الفصول أو الكتب أو الأبحاث الجيدة على غيرها ، سواء أكانت لكتاب معاصرين أو قدماء .

ليس في الأدب قديم وجديد ، بل فيه ممتع وطريف . فكم من قديم ينبض بالحياة وكم من جديد مات ساعة خلق .

واعلم يا صاحبي أنك لا تستطيع أن تقرأ كل كتاب ، فاختر ، وخصوصاً في الكهولة ، أنفع الكتب وأمتعها. إن مشاهير الأدباء والعلماء والفلاسفة معروفون ،

ومع ذلك ترى من يفضل هـذا على ذاك ، والأذواق والمشارب مختلفة فاختر لنفسك ما يحلو .

قـــد يقول لك واحد : أعظم الكتاب فلان فلا تطيب لي غير مطالعته . فترجع أنت اليه فتجد أن كاتبك المحبوب هو غيره . اتبع اذن هواك إن كنت عارفاً وصاحب ذوق سليم . وحذار أن تنخدع كغيرك . فأكثر الناس يظنون أنهم يقرأون حيث اتفق لهم ذلك . لا تصدق هؤلاء . القراءة المنتجة تحتاج الى خلوة هادئة كالتآليف ، أما إذا قرأت في كل مكان ففائدتك من قراءتك ضئيلة جداً .

أهّب نفسك لتستطيع قراءة أسمى الكتب وأفضلها ، وهذا لا يكون إلا بالتدرج ، حتى إذا تعودت مجالسة هذه الفئة من البشر تصبح في قابل مستطيعاً أن تفهم حديث الكبار منهم لأن الفكرة الإنسانية تمر عندهم جميعاً ، وكل يعبر عنها بما أوتي من بلاغة .

وهناك مطالعة ضارة وكتبها معروفة ، فهذه أحذرك منها أولاً . وإذا كنت أحذرك أنت منها فكيف بأولادك ذكوراً واناثاً .

اسهر على أولادك واعرف بطريق غير مباشرة ما يقرأون ،فإن كانوا يؤثرون هذه الكتب فجرّب بدهائك أن تنفرهم منها . إياك والعنف ، فانه يزيدهم رغبة فيها وإقبالاً عليها. إن هذه الكتب التي تؤجج العواطف تلقي الشباب في مهاوي الرذيلة ، فاسهر على أولادك .

لا تقل ان ابني راغب جداً في القراءة لا تفلت الكتاب من يده ، إلا بعد أن تعرف ما يقرأ . قد يكون يقرأ مـــا حذرتك منه وليس هذا مما يفرح قلوبنا نحن الآباء .

وبالاختصار ان القراءة باب المعرفة ، وعلينا أن نحسن الدخول من هذا الباب لنستفيد . وما دور الكتب إلا مطاعم كبرى تقدم لك الغذاء المري النافع بالمجان فلا تحرمها من زياراتك مـا استطعت إلى ذلك سبيلا . وإذا كنت من الذين لا يطالعون فاعلم أنك كما قال أبو نواس : اخو الحب نضو لا يموت ولا يحيا .

حارب على جبهة واحدة

الرائج اليوم في الحياة المعاشية هو أن ينصرف الانسان الى شيء واحد دون سواه فيختص به ويسعى الى التفرد به . تقرأ هنا وهناك وهنالك لافتات كتب عليها : فلان الفلاني أخصائي بكذا ، وتقرأ فوق أبواب المخازن نبيع كذا . وفي الغرب رجـــال علم اختصوا بفرع من العلوم لم يتعاطوا سواه ، وكذلك في الأدب فإن بعض مشاهير الأدباء العالميين يصرفون العمر كله في درس موضوع ما.

ما هي النملة وأية فائدة جلى يرجوها الباحثون من درس طبائعها ومراقبة حركاتها، ومع ذلك نجد علماء كباراً وقفوا عمرهم عليها وكتبوا المجلدات الضخمة عن هذا الكاهن الحقير . وما أظن هذه الاختراعات الجليلة التي دفعت الانسانية خطوات كبرى في سبيل التمدن والحضارة إلا بنت الاختصاص. فمنه، وحده، أتت هذه العظائم التي حكمت الانسان في رقاب العناصر ، فقيدها بسلاسل العلم وسيرها في ركابه .

فالحكمة كل الحكمة في الحيـــاة هي أن نحصر قوانا في منطقة صغيرة لأننا لا نستطيع أن نبحث في كل فن ومطلب،ولا أن نتاجر في جميع السلع. ان الضرر كل الضرر هو في تفريق قوانا حتى نضعف فنموت ولا نؤدي عملاً على حقه .

فمن يتطلب في حياته شيئاً واحـداً لا يتعداه الى سواه يقدر أن ينجزه قبل

أن ينقطع حبل حياته ، وأما من يطلب كل شيء فلا يحصد من الآمال التي يزرعها هنا وهناك إلا حسرات عميقة.

فالذي يقضي به الوقت الحاضر هو أن يعمل الانسان عملاً واحداً بملء قواه، لا أن يتحول الى أعمال عديدة فيعملها كيفما اتفق له عملها أي بدون اتقان .

كنا فيما مضى نجد في حانوت ما ، او مخزن واحد جميع ما نحتاج اليه . أما في هذا العصر فقد اختص كل مخزن ببضاعة ، وكل سوق بأصناف دون سواها ، لا يعني من يتاجر بها إلا التجويد وانتقاء الأفضل .

كان الطبيب فيما مضى يعالج المرضى بالجملة ، يكتفي بجس النبض والإنصات الى دقات القلب ، ثم يصف الدواء والله الشافي من كل داء ... أما في هذا الزمن فأصبح لكل عضو طبيب ، والى جانبه من يفحص له كل مادة، ولهذا قلّ الموت وطالت الأعمار وتدارك الناس الخطر قبل استفحاله .

كل هذا بفضل الاختصاص الذي عمّ كل شيء في هذا الكون حتى لم يبق سبيل الى النجاح بدونه . فاذا أردت أن تفوز في معركة ، فهيء لها سلاحاً ماضياً من الاختصاص .

أما من يتبع الخطط القديمة كأن يكون نجاراً وحداداً وخياطاً وطياناً وبناء ، فهو لا يجيد عملاً من هذه الأعمال .

أعرف كاهناً كان ثاقب العقل وقد اشتهر بحدة الذهن ، وسرعة الفهم . كان خطاطاً ومصوراً ودهاناً وعالماً وكاتباً وشاعراً ، يتكلم ستة ألسن وما أكل بواحد منها خبزاً . لم يتقن عملاً من أعماله ، ولا لغة من اللغات التي ألمّ بها ، فكان من المصورين الدون يرسم أشباحاً . وقد قال له أحدهم مرة : هذه ليست صورة والدي، فأجابه بروحه الخفيفة : تتعود عليه، ومع مرور الزمن يصير...

وكان دهاناً أقل من وسط وخطاطاً عادياً ، وشاعراً رديئاً وكاتباً مبتذلاً ، وعارفاً باللغات معرفة أقل من سطحية ، وأخيراً مات وما على جلده قميص لأنه أراد أن يكون كل شيء فكان لا شيء .

قال الامام علي : من أومأ الى متفاوت خذلته الحيل ، أي من أراد إدراك كل شيء لا يدرك شيئاً .

وقال كارليل: إن أضعف مخلوق يستطيع أن يعمل عملاً اذا جمع قواه حول موضوع واحد ، في حين أن أقوى النـاس اذا وزع قواه على مواضيع متعددة لا يكون نصيبه إلا الفشل والخيبة . فالقطرة بتكرار سقوطها على الصوان ، تبقي عليه أثراً ، وأما السيل السريع فانـه يكرُّ على الصخور بضجيج وصخب ويذهب كأنه لم يمر فوقها .

فما جبابرة الانسانية ونوابغها إلا رجال جمعوا قواهم وضربوا ضربات شديدة حول نقطة واحـدة فأفلحوا وفازوا . ان الناجحين هم الذين يصوبون عزيمتهم نحو هدف واحـد . فالطريقة المفيدة في القراءة ، مثلاً ، هي أن تنصرف بكل قواك حتى تنتقل مع الكاتب الى المكان الذي يصفه لك فتراه كأنك فيه حقاً .

وقد سئل بيكنس، الأديب العظيم، عن سر نجاحه فأجاب : انني ما مددت مرة يدي الى أمر لا أقدر أن أنصرف اليه بكليتي . ومار توما الأكويني الذي صار من أئمة الفلسفة العالميين ، كان طالباً لا يرجى منه خير . سماه رفاقه الثور ولم يبال بهزئهم بـــه ، وظل منكباً على درسه . وأخيراً فهم ما استعصى عليه ونطق به بعد ذلك الصمت ، ولاحت بشائر عبقريته في الفلسفة اللاهوتية ، فما استطاع استاذه أن يكتم إعجابه به وقال لرفاقه : سيعج هذا الثور ويملأ خواره أقطار المسكونة . وهكذا كان . ان حصر القوى العقلية يفعل العجائب ، أما رجل الأحلام الذي يتنقل كالعصفور على الأغصان فـــلا يكون نصيبه إلا حبة يلتقطها أو برغشة يتصيدها .

ان من يفعل هكذا وشعاره: ان العز في النقل، فهو يشبهنا يوم كنا صغاراً، ننقل قضيب الدبق الى حيث نرى عصفوراً قـد سقط ، ثم ننتظر عودته ، فلا يعود ، ولكننا نعود نحن الى البيت غير فائزين إلا بتمزيق ثيابنا .

فاكثر فشل الناس متأت عن تجزئتهم عنايتهم بمواضيع شتى . يريدون أن

يكون على حـــد قولنا : عنده من كل فن خبر ، فإذا بهم يعرفون شيئاً من كل شيء ولكنهم لا يعرفون شيئاً كما يجب أن يعرف .

قـــد يقرع الشاب أبواباً كثيرة ولا تفتحها له شهاداته الضخمة ولا أصله وفصله. وهب أن الشهادة فتحت الباب، فهي لا تمكنه من الرسوخ على الكرسي الذي قدم له اذا كان لا يحسن عملاً . أما اذا كان من ذوي الاختصاص انفتحت بوجهه الأبواب على مصراعيها ومشى في ميادين العمل قدماً ، وأغلب الناجحين ليسوا من حمـــلة الألقاب العلمية بل من العاملين الذين صعدوا في السلم درجة درجة ...

قد نضيع الوقت في اختيار الأعمال ثم لا نقع على عمل ، وما ذلك إلا لأننا صالحون لكل الأعمال ولا نصلح لعمل ما بعينه . فلو كان لنا مدارس توجيهية تقوم بدرس مواهب كل شخص وتوجهه في الطريق السوي لما كان شبابنا حائراً ، أو لما أضاع السنين من عمره مفتشاً عن الموضع الذي يجب أن يستقر فيه .

ان تعيين القصد والغرض والسعي هو طريق التفوق والنجاح . فعليك أن تنصرف بكليتك إلى عملك لتبرز فيه . وليس يعني كلامنا هنا أننا إذا سعينا سعياً حثيثاً في طلب المستحيل أدركناه ، ولكننا ندرك ما يستطيع الإنسان أن يدركه إذا حصرنا قوانا في نقطة ما . فالعدسة البلورية لا تحرق ما لم تنحصر أشعة الشمس على بورتها ، فلنحصر قوانا لكي ندرك ما نبتغي .

إن الحك – البوصلة – لا يتجه إلى جميع أجرام السماء باحثاً عن أيها أفضل ليومىء اليه ، فجميعها تحاول أن تجذبه ، ولكنه لا يتجه إلا نحو هدفه . إن خاصيته توجه دائماً الى الغرض ، الى القطب ، فيومىء اليها ولو برقعتها الغيوم بسدولها الكثيفة ، أو ألقت الشمس عليها رداءها .

فالإنسان الواحد لا يستطيع أن يقوم بكل الأعمال بل لا يصلح لها جميعاً ، فعلينا أن نختار منها ما يلائم ميلنا وذوقنا ومعارفنا لنقوم حق القيام بواجبنا الانساني . قد وجدنا لنعمل ، فلنختر من الأعمال ما تحتمله طاقتنا ، ولنضع كل

جهودنا ومقدرتنا فيه ولو كان تافهاً . فالأمر التافه المتقن الصنع أفضل كثيراً من أمر سام رفيع غير متقن. فكم من طبيب أو محام أو صاحب مهنة حرة سامية لم يبلغ ما بلغه من اختص وعرف باتقان عملاً ما مهما كان تافهاً حقيراً . فكم من دهان مجيد أثرى ، وكم من رسام بين بين لم يأكل من فنه رغيفاً أسود ، وما ذلك إلا لأنه لم يجعل كل وكده فيه .

فاذا رأيت ابنك يدرس ويتحدث مع الساهرين فاعلم أنه لا في العير ولا النفير ، لم يذق لذة السمر وفاتته فائدة الدرس ، لم يحصر قواه فيما يعمل ليفوز وتقر به عينك .

إن النهر الجاري على الحصباء مترنماً ومزغرداً لا يدير محركاً مهما غزرت مياهه ، أما الشلال المحصور ، فمهما قل ماؤه فهو الذي يولد ويحرك .

وإني لأوثر أن تكون شلالا صغيراً محصوراً يدير ، ولا تكون نهراً تخوضه الأرجل ولا تهابه .

الى كل امرأة

إن موقفي منك يا سيدتي ، في هذه الكلمة سيكون كموقف الطبيب الصادق من مريضه . لا يقول له قلبك مثل الحديد وأعصابك فولاذ ، وصدرك كير حداد فينام على صوف ، ثم لا يستيقظ إلا على صوت جرس القطار فيسافر بلا حقيبة وبدون جواز سفر .

حفظك الله ومتعني بربيع رضاك . كنت بالأمس يا سيدتي أمنا وأختنا . كنت قعيدة البيت وصرت اليوم قائداً يحمل البند والعلم في ساحة الدفاع عن الوطن . قال عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

أما اليوم فقد أمسينا نقول :

تسير أمامنا بيض حسان نحـــاذر أن تقسم أو تهونا

ويقول بعد بيته ذاك :

يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنـــا إذا لم تمنعونا

أما اليوم فصرنا شركاء في النضال والدفاع ، وليس هذا بشيء جديد. كذلك كنت يا سيدتي في الزمن الأبعد . كذلك كنت يوم خلقت جدتك حواء وجدنا

آدم . أما تنعما معاً في الفردوس ثم عصيا وطردا من جنة ربهما ! اذن هـذه المساواة بيننا قديمة العهد ولذلك سموك شريكة الحياة .

حسبك يا سيدتي أن ينتصر لك السيد المسيح ، فيقول لمضطهديك : من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر . أما جاء رسول الله محمد ﷺ ففرض لك وأعطاك ما أنت جدير به من حقوق ؟ وقد سماك قارورة فلا تجعلي نفسك خابية لادقانية ...

فلو اعتبرتك التوراة أقل عقلاً من الرجل، ما حملتك مسؤولية المعصية حين أكلت تلك التفاحة فوقع القصاص عليكما معاً .

منذ البدء ، يا سيدتي ، ويدك في يد ابن عمك الرجل . كنت الى جانبه في ظلمة الكهف تحتملين المشاق وتناضلين ، وحين بنيتما القصور اتكأت على الخز والديباج وجعلت بيتك جنة ذات حور وولدان . فلله أنت صالحة ، فلولاك كان الوجود حملاً ثقيلاً ، وكانت الأرض جهنم حمراء .

تقول التوراة : إن يهوه رأى الوجود ناقصاً فخلق المرأة ، وهكذا تكون المرأة الوتر الذي تمت به آلة التكوين الشجية الألحان ، ولولا هذا الوتر لظلت شوهاء جوهاء جوفاء .

فان صحت رواية انها ضلع من أضلاع الرجل ، فيكون الله ، جلت قدرته قد شرفها منذ البدء بهذا الخلق ، وشتان ما بين التراب واللحم ...

واذا كانت لم تخلق على هذه الصورة فيكون القالبان قد صبا في وقت معاً ، ولا مجال اذن لهذا التفريق بين المخلوقين .

ان حكاية الفردوس الأرضي تؤكد لنـا المساواة بين الرجل والأنثى ، فلو اعتبرها المشترع أقل عقلاً من أخيهـا الرجل لما عوقبت مثله . فنهضة المرأة للمطالبة بحقوقها ليست بدعة جديدة . وجدت يوم استبد الرجل بالأمر ، ومنا أشد استبداد الرجال ما دام شعارهم : انما العاجز من لا يستبد .

كان الرجل والمرأة ، قبل الشرائع والقوانين، متساويين . لم تحبس في قفصها الذهبي ، الا عندما مدت المدنية البشرية أسلاكها الشائكة حول البيوت فأنانية الرجل حملته على حبك ما حبك من قيود القوانين ، فالشرائع كلها من صنع الذكور ، ومن يكون الدفتر في يده ويكتب نفسه من الأشقياء ؟

يظن الناس أن المدنية والرقي قاما على أكتاف الرجال . أما الواقع فيكذب هذا الزعم ، فاذا عدنا الى فجر التاريخ رأينا المرأة والرجل ، آدم وحواء ، راحيل ورفقا ، ويعقوب واسحق يضربان معاً في مجاهل الأرض عرضاً وطولاً . وكم رأينا الرجل عاجزاً في بعض الميادين فتجاهد المرأة وتحفظ الأمة والوطن .

ولكن الرجال يقولون بلا روية ولا تفكير : الرجل أفضل من المرأة . أما التاريخ فينتصب على قدميه ويقف ليقول لنا : ان أسمى الدرجات الانسانية هي النبوءة ، وكان من النساء نبيات . كانت حنة نبية وبذلك تعترف توراة موسى ، ودبورة أيضاً كانت نبية شهيرة وقاضية وفيها يقول سفر القضاة : — ف ٤ ص ٥ — وكانت دبورة تحت نخلة بين الرامة وبيت ايل في جبل افرائيم ، وكان بنو اسرائيل يصعدون اليها لتقضي لهم . وهي التي دفعت باراق لقتال سيسرا فظفر بها .

بدأت بالأمر دبورة النبية القاضية ، وأتمته ياعيل ابنة حابر العيني فقتلت سيسرا ، حين دخل خيمتها فاراً ، وأذلت الكنعانيين أمام شعبها اسرائيل .

واذا توغلنا في استقراء التوراة رأينا خلوة النبية ، محترمة من الرجال جميعهم ، يخضعون لها ويعملون بما تقول .

قالت التوراة : جاء حلقياً مرسلاً من يوشيا ملك اورشليم ، يستشيرها فيما يفعل، فقالت الرسول : قولوا للرجل — أي الملك — الذي أرسلكم إليّ : كذا قال الرب آله إسرائيل . هذا جالب شراً على هذا المكان وعلى سكانه ، فأهب غضبي عليه ولا ينطفي . أما ملك يهوذا الذي بعثكم لتسألوا فكذا تقولون له : ان الله يضمك الى آبائك فتنضوي الى قبرك بسلام ، ولا ترى عيناك هذه البلايا لأن قلبك لان للرب إلهك .

هؤلاء هن النساء النبيات ، أما المنقذات فحسبي أن أذكر منهن يهوديت التي قتلت اليفانا الأشوري ، وأنقذت شعبها ، وأستير صالبة هامان ، ودليلة مذلة شمشون .

هـــذه هي المرأة ، وسوف لا أتعدى حدود التوراة إلا قليلاً ، فالحديث شجون والزمان طويل . ولكنني أقابل قليلاً بين التوراة وبين قوانين نابليون الحديثة العهد .

ترى قوانين نابليون أنـــه لا يسوغ أن يتولى الوصاية والعضوية في المجالس العائلية ، القصّر والمحجور عليهم والنساء ، وكل من اشتهر بسوء السيرة . ويقول أيضاً : لا تستطيع المرأة الحضور في المرافعات أمام هيئة القضاة بلا تفويض من زوجها . وفي المادة ٢١٧ يقول : لا تستطيع المرأة أن تهب ولا تبيع، ولا تقتني من غير إذن زوجها ومشاركته . بينا نرى في التوراة أن احدى نساء اسرائيل، بعد أن رفض زوجها أن يرسل زاداً الى داود عندما كان فاراً من وجه شاول ، جاءت هي اليه تحمل الزاد والخمر .

وفي المادة ٢٢٢ يقول:اذا كان الزوج محجوراً عليه أو غائباً فإن في استطاعة القاضي أن يفوض المرأة في المثول أمام القضاء . ويقول في المادة ٢٢٤ : اذا كان الزوج قاصراً فلا بـد للمرأة من الحصول على تفويض من القاضي للحضور أمام هيئة القضاء لإبرام عقد .

وهذا ما حمل رينان الفيلسوف الفرنسي على الإعجاب بشرائع موسى بشأن المرأة . ففضلها على شرائع امته إذ قال : ان هذه الشريعة أكثر إنسانية وعدالة من كل ما كتب في ذلك العهد .

ولشعراء العهد العتيق –أي شعراء التوراة– أقوال طيبة في المرأة المنشودة. وإني لأكتفي ببعض كلمات مراعاة للمقام :

من يجد المرأة الفاضلة ؟ ان قيمتها أغلى من اللآلىء .
تبسط كفيها الى البائس . وتمد يديها الى المسكين .

لا تخشى على بيتها من الثلج لأن أهل بيتها جميعاً لابسون الحلل .
تلقي يديها على المكبّ ، وأناملها تمسك المغزل .
تفتح فاها بالحكمة ، وفي لسانها سنة الرأفة .
رجلها معروف في الأبواب حيث يجلس بين شيوخ الأرض .
تلاحظ طرق بيتها ولا تأكل خبز الكسل .
المرأة الحكيمة تبني بيتها ، إنها إكليل لبعلها .
لطف المرأة ينعم رجلها ، وأدبها يسمن عظامه .
الشمس تشرق من على الرب . وجمال المرأة في عالم بيتها .

لقد أطريتكن نعتاً فلا يغركنّ ثنائي. أما طلب بعضكن أن تخاطبن بالواو والميم بدلاً من التاء والنون فهذا شطط . انه لطمع تأباه موسيقى لغتنا . فنعومة التاء وليونة النون أليق بكن من خشونة الميم والواو ولهذا خصكن سلفاؤنا الاذكياء بهذين الحرفين ليتلاءما مع أنوثتكن . ولم يقصر لغويونا الالباء عن نحاتنا فقالوا : صفقت الرجال وصفّحت النساء .

فلا تطلبن الزيادة لئلا تقعن في النقصان. ها هو باب الحياة قد فتح بوجوهكن فإلى العمل الجدي . لقد أعطاكن لبنان جميع الحقوق فأرونا أنكن جديرات ولا تخيبن الآمال .

طيش الامهات

الله ، جل جلاله ، بـدأ بالرجل فخلقه . هكذا تقول التوراة . أما أنا يا سيدتي ، فأريد أن أبدأ بك لأن تقاليد العصر وآداب سلوكه قد تغيرت . اما صرت تقدمين علينا في المجالس، وتسلمين علينا قاعدة ؟ تمدين نحونا يدك كما يمدها اقطاعي عتيق الى فلاحيه وشركائه .

سيدتي .

لا أسمع من الاذاعات ولا أقرأ في الصحف الا هذه العناوين : حقوق المرأة. يجب أن تعطى حقوقها . لا رقي ما لم ينل شطرنا الآخر حقوقه . وما سمعت أحداً وجّه اليك ملاحظة يا مولاتي . ترى هل صارت كل أنثى كاملة ولا تقصير عندها ؟ ترى الا ينقص البيت شيء . أما أنت ربته لا الرجل !.

أنا يا مولاتي ، وان كنت شيخت ، فلي لسان حال يردد ما قاله البهاء زهير منذ بضعة قرون :

ونعم كبرت وانما ... تلك الشمائل باقيه
ويميل بي نحو الصبا ... قلب رقيق الحاشيه
فيه من الحب القديم ... بقيـة في الزاويه

اذن أرجوك وأتضرع اليك أن تحملي كلماتي على محمل الصدق والاخلاص . ان تثقي بمجموعكن كبيرة ، ولست أعني ولا أصف أو أصور في حديثي هذا الا نموذجاً واحداً الآن ، وما أكثر نماذج الحياة وصورها .

فالى تلك المتكفة في غرفة الزينة ، تائهة بين مرآتين ، تتأمل قوامها من الجهات الست وكأنها مصور ينظر في احدى روائعه التي يريد أن يتقدم بها الى معرض عتيد، الى تلك المنكبة بيديها الثنتين على دلك خديها، وتزجيج حاجبيها وتكحيل عينيها أسوق هذا الحديث وان ثقل عليها .

سيدتي ، أنت أم أفلا تسمعين ضجيج أولادك المكومين حواليك !. ألا ترينهم يتنازعون أذيالك من هنا وهناك ، ويتجاذبونك كأنهم يحاولون ابعادك عن حبيبة قلبك المرآة !

الا تسمعين لسان حالهم يناديك : كفى يا أماه ، تكفيك ساعة نراك تخلقين شخصاً جديداً ، لقد تنكرت حتى كدنا ، نحن أولادك لا نعرفك ؟ ألا تعلمين يا أماه ، ان لنا حصة من وقتك ، فهذه شمس العمر قد مال ميزانها ورجحت كفة المشيب ، فما لك اليوم وهذا الالحاح ؟ خمس دقائق تكفي . أنت ربة بيت عليك مسؤولية ادارتـــه ، فما بالك تغمضين عينيك عن كل غرف البيت ولا تنفتحان الا في غرفة الزينة ، حيث المرآة والملاقط والمقاريض والمشدات .. والمساحيق والعطور ..

يا أمي ، ما لتلك الأواني مبعثرة على الأرض وقــد ارتدت ثوباً سميكاً من الغبار حتى أوشك ان يأكلها الصدأ والزنجـــار ، أفلا تستحق بعضاً من بعض عنايتك بوجهك وأظافرك ؟! ما لدارنا غير منظمة كبيت جارتنا ، مع أنــه حقير اذا قيس ببيتنا الرفيع .

الجواب عندي يا بني ، اسكت حتى اخبرك : جارتكم يا بني لا تعتني بطرتها وتجعيد شعرها ، وان فعلت فهي لا تقدم ذلك على تنظيم بيتها وترتيب

منزلها . تلك الجارة يا بني ان وقفت امام المرآة لمحة ، أقامت في المطبخ حيناً لترتبه وتنظفه، وفي المنزل زمناً طويلاً لتدبره . تلك ما زالت على البرَكة ولهذا تحتضن اولادها وتناغيهم وتحرص على تربيتهم • وترشدهم الى واجباتهم .

ولكن الولد ككل ولد يريد أن يثرثر فقاطعني وراح يناجي والدته قائلاً : ما بالك يا أماه تقصينا عنك ، لماذا لا تطبعين على أوجهنا قبلات الأم كما تفعل جارتنا . أليس في قلبك ما في قلبها ؟ تلك تقابل زوجها، والابتسامة ملء فمها، فما بالك أنت لا تقابلين الوالد إلا حامضة الوجه . وقصارى الحديث ان بيتنا وبيت جارتنا لا يتفقان بشيء ، فمرأى ذلك ينشرح له الصدر وينفتح له القلب ، أما منظر بيتنا فكئيب محزن ، فهل لك أن تخبريني السبب ؟.

خلصت يا بني ! امك مشغولة لا يسمح لها الوقت بالجواب فخذه مني . امك مع السينما على موعد فما عندها وقت لترد عليك فأعرني أنا أذناً صاغية فأخبرك: امك أسكرتها خمرة التشبه ، وانطبعت في مخيلتها صور السيدات الغربيات . فقلدت أزياءهن وحركاتهن حتى فقدت لذة الأمومة ، فلا تطلب منها أن تحملك متى قصرت عن مماشاتها . إنها تنتقك نتقاً لتمشي معها مشية الغزال الشارد . ان المشد يمنعها أن تنحني للأخذ بيدك، أو لمّ شعث الأمتعة المتفرقة في زوايا البيت. ورائحة العطور والطيوب لا تتفق ورائحة المطبخ . امك تبغي حمل الحقيبة في يد ، والمظلة في يد اخرى ، ومن أين لها يد ثالثة لتداعبك بها ، امك ألهاها اللهو والطرب والرقص واللعب. امك أشغلها التقليد عن واجبات ربة البيت والتشبه أعمى بصيرتها . ألهاها إصلاح هندامها عن ترتيب منزلها وتدبيره . لقد صارت تعدُّ ذلك عـــاراً فعهدت الى الخدم والحشم بكل شؤون البيت حتى تربيتك ، ومتى كانت الخدم تربي أسياداً ...

وأبوك ، واأسفاه عليه ، يحتمل المشقات ويريق ماء وجهه ليحصّل المـال ، ويعدَّ لكم مستقبلاً سعيداً ، ولكنه مغلوب على أمره ، مكثور عليه ، لأن امك تسدد ما يجمع على الكماليات ، فكلما رأت زياً جديداً تجتهد أن تكون

سبّاقة اليه ، وعلما تدوم الأزياء من الصباح الى المساء . ويا ويل أبيك اذا لم يماش الموضة . إن غاظها تجرعه المر ، تلبس وجهها بالمقلوب ولا تكلمه إلا نبراً ، واذا كبّر رأسه فهي تعلم بما تصغره ...

المرأة يا عزيزي ، عمود البيت وأساسه ، وبهـا ، ان كانت صالحة ، تصلح أحواله وإدارته ، وتتوطد دعائمه . انهـا تربي له من يسنده اذا هبّت عليه رياح العسر . وهي تلك المنارة التي تهدي الى ميناء البر والفضل عقول أولادها التائهة . وباقتصادها يمكنها ان تدخر لمنزلهـا ما يقيه وطأة الأزمات الطارئة ، وبتعقلها ترفع رأس زوجها ، فهي بمـا تدخر للأيام السود تعمر بيتها وتكفي زوجها ذلّ السؤال . وبإسرافها وتبذيرها تضع على كتفيه أحمالاً ثقيلة . وهكذا ينعق البوم في زوايا البيت . واذا رزقهـا الله ابنة ، فهناك الطامة الكبرى ، فانها تتلقى عليها علوم التبرج والتزين عن صغر استعداداً لذلك البيت العتيد الذي تدخله .

وبعد فقد كان الزواج ، منذ عشرات السنين من أسباب الغنى ، أما اليوم فقد أمسى مخوفاً كثغر ترابط فيه الأعـداء . الشاب اليوم يدق قلبه حين يقدم على الزواج خوفاً من فقر يجر اليه التشبه . انه يهرب منه هربه من القيد . لا يخفف رهبة هذا القيد إلا حكمتك يا سيدتي . وقناعتك بمـا تيسر من الكماليات ، أما سموك شريكة الحياة ؟ أليس على الشريك أن ينمي هذه الشركة ؟ وإلا ففسخ هذه الشركة المفلسة أمر واقع ويا للدمار ؟.

هذي هي الحلقة الأولى من هذه السلسلة . وكأني أسمع بعض سيداتي يقلن : ما أثقل دمه ، هذا كلام مثل وجهه ، ماذا تطلب من رجل يابس العود ؟

كل هذا منتظر يا سيدتي . فأنتن تعودتن التقريظ والثنـاء . أما أنا فعددت العشرة قبل أن كتبت هذا الحديث . الحمد لله على أني أرمل دهر ، وليس عندي امرأة . وإلا لكان استقبالي في البيت صارخاً ، وكانت النومة عند الجيران ان لم تكن في الشارع ...

والى اللقاء .

اشبعوه على الأقل

يؤلمني أن أرى خراف الثقافة بلا حظيرة . ويجرح قلبي أن أرى المثقفين ، وخصوصاً المعلمين ، لا يربأون بأنفسهم أن يرعوا مع الهمل ، كما قال اخونا الطغرالي حين فجع بوزاته . لكأنهم لا شيء في هذا البلد . يقول لهم أولياء الأمر لنفخهم ، وجبراً لخاطرهم المكسور ، وقمعاً لوساوسهم الجامحة : أنتم مربوا رجال الغد . أنتم الخالدون ... واذا رجعوا الى أنفسهم سمعوا بآذانهم رنة السهم في قلوبهم . رأوا أن كل حصتهم من غزوات حرب المعاش ، تنحصر بالكلمة المأثورة : القناعة كنز لا يفنى .

نعم : ان القناعة كنز أي كنز . وحسب القناعة رفعة شأن بين الفضائل المعزية منكسري القلوب ، قول الطغرائي فيها :

ملك القناعة لا يُخشى عليه ولا يُحتاج فيه الى الأنصار والخول

هذا ملك محترم ، عزيز الجانب ، أيها الاخوان ... ومن باب الشيء بالشيء يذكر ، أو تداعي الأفكار ، وهو من علم النفس الذي يدعيه ، اليوم أكثر الناس جهلا به . ومع ذلك يناقشون بلا استحياء سبينوزا ودركايم كأنهم وإياهما رفقاء الصف .

أقول انني تذكرت قول أحد أساتذتنا الذي ناقش هذه الكلمة : القناعة كنز

لا يفنى، فقال : هذا الكلام ناقص ولا يصح السكوت عليه إلا إذا قلنا : القناعة كنز لا يفنى ، بعد تأمين المأكل والملبس والسكنى . فالجائع والعريان ومن لا بيت له كيف يقنعون ؟

صدق المعلم ، فاليد لا تغل إلا اذا كان صاحبها مكفياً هموم المعاش ، أمـا المعلم في أرضنا فهو كأبي الطيب عند كافور . لا هو في العليق ولا اللجام ... يعللونه بالذكر الخالد ويصدق ذلك، لأنه مسير بناموس أزلي نجهل سرّه، ناموس الحياة الذي يسوق المخلوقات جمعاء بعصاه اللينة . ومن يبالي منا بالمعلمين ليحيي ذكراهم ؟ الناس لاهون عنهم بسفافهم ، ولا يذكرونهم إلا بمعرض فخر يريدون أن يظهروا فيه عراقة الأمة ، وأن منها نوابغ . أما في الحيـاة فينظرون إلى المثقفين والأساتذة والمعلمين هازّين أكتافهم ، غامزين بعيونهم كأنهم يقولون : ما أخف عقول هؤلاء ، يصدقون ما نقوله لهم ....

نحن شعب يرى الفخر كله ، والمجد بشحمه ولحمه ، وعظمه ودمه وجلده ، في المناصب . كأنما الدنيا كلها محصورة في الكرسي ، وكأنه هو الذي وسع السماء والأرض ... إذا قلت لذي مال أو موظف : هذا أديب أو شاعر يعيرك نظرة بلهاء . أما إذا قلت له : هذا أستاذ أو معلم ، فقد يقابل هذا التعريف بهمهمة ودمدمة .

وإذا قلت له : هذا الأمي يملك مليوناً فلم يستطع دون السجود له صبراً ، كما قال أبو نواس في خمرته ...

وما زال هذا هو تقديرنا لمربي أكبادنا التي تمشي على الأرض ، فكيف نرجو أن يكون لنا معلمون مخلصون ؟ إن معلماً غير مخلص ، لشر على الأمة من أفعى ضيق صدرها آب اللهاب ، وأقرب إلى أذى وطنه من العقرب . ومن ير كرامته ممتهنة في وطن ، فهيهات أن يخلص لهذا الوطن إلا اذا كان أديباً مثالياً يظن أنه يعمل لخلق انسانية كاملة ، أو جبرانياً يزعم أن امرأة أخرى ستلده ، فيرى في إحدى دوراته الآتية عالمه المنشود .

إن ذوي العقول الثاقبة من وطننا لا يقبلون وظيفة مرب إذا وفقوا إلى أحقر وظيفة في إحدى دوائر الدولة . وما سبب هذا إلا تغاضي الدولة عن شؤون المربين . فكأنهم في أعين السادة ، من سقط المتاع ، ومع كل هذا يطلبون من المدارس تهذيباً رفيعاً ، وتعليماً دقيقاً وتربية وطنية ...

يقولون إن مستوى التعلم ينحدر، ويطلبون من المدارس رفعه ، وهل يرتفع المستوى بلا أيد تنهض به ؟ فأين هي الأيدي ومن يغذيها ؟

يقول المثل اللبناني : لا ينهض بالركب غير البطن ، وهل ينهض البطن وهو فارغ ؟ وماذا يشجع النبهاء ليكونوا معلمين صادقين ؟

إني لا أقول ولا أحابي أحداً ، إن أكثر من يتقدمون إلى ممارسة التعلم هم من الذين لم يوفقوا إلى عمل آخر . فكأن المدارس أصبحت ملطى للهاربين من وجه قافلة الحياة. فلكي يكون لنا معلمون يجب أن نزيل من العقول هذا الاعتقاد القديم ، وهو أن المعلم كائن بليد . وعلى حي لصديقي ، نديمي وسميري ، الجاحظ الأديب أقول : يجب أن نحذف من الوجود كتابه (دفتر المعلمين) وإن كان أبو عثمان لا يعني إلا معلمي الصبية الذين عرفهم ولابسهم في زمانه .

نريد أن نبني وطناً ثم لا نعنى إلا بقرميده وشرفاته ورفارفه ثم نهمل الزوايا والأسس . إن الوطن لا يبنيه غير المدرسة . والمدرسة بمديرها وأساتذتها ، فإذا لم يكونوا للوطن ، يعلمون أبناءه حبه ، فلا يثبت ذلك الوطن . وإذا ازدرينا المعلم دار الدولاب بالمقلوب ، وحاك لنا ما لا نريد أن نلبس .

ان ابتسامة حائرة من معلم ماكر تزعزع إيمان النشء بالوطن . والطالب يقلد اثنان لا ثالث لهما : أباه ومعلمه . ان الوطن يحتاج الى مؤمنين ، ككل رسالة من الرسالات العليا ، ولا يبشر بهذه الرسالة ولا يغرسها في النفوس إلا المعلم . فلنعن بالمعلمين إذا شئنا توطيد الوطن ، حتى لا تكون هذه المهنة ، وهي أسمى المهن ،

ملجأ للقصرين ... فالمعلم الذي لا يرى في التعليم عمله الدائم لا يثمر عمله ، وهو والمدرسة والتلامذة خاسرون .

ان الساعة التي يتقدم فيها منا رجال لهم منزلتهم العلمية والأدبية والسياسية لإدارة المدرسة والتعليم فيها ، هي الساعة التي نستطيع فيها أن نسمي أنفسنا مواطنين .

فليسمع من يعنيهم الأمر ويعوا ، ففي المدرسة تكوّن الامة لا في التهاليل والتسابيح ، والزغاريد والأناشيد .

مأوى عجزة

فكر وزير الصحة والاسعاف العام بناء مستشفيات في جهات عديدة وشكل وزير الشؤون الاجتماعية لجنة تعيد النظر بقانون العمل ، بشكل يؤمن للعامل، في أطواره كافة ،جميع الحقوق التي تطبق على العمال في البلدان الاخرى.

ورصدت وزارة التربية الوطنية نصف مليون ليرة لبناء دار للمعلمين ، وحسناً صنعت ، فالمعلم حجر الزاوية في بنيان الأوطان .

إننا في أمسّ الحاجات الى المعلمين ، وبنيان معمل لهؤلاء ضروري جداً . ولكن الحكومة، حفظها الله ، نسيت أمراً مهماً جداً جداً ، وهو أن تبني دار عجزة للمعلمين القدماء الذين قدموا لهذه الجمهورية العزيزة ، الرؤساء والوزراء والنواب والقضاة وكبار الموظفين .

فمن نطلب نحن بعدما قرأنا — وان كان حبراً على ورق — نبأ استعداد جميع الوزارات كل واحدة في نطاقها ، لانشاء ما يرفه عن جماعتها ؟

فهذه وزارة العمال تعنى في سن قانون لهم أعدل وأحسن ، بينا نرى قانون معلمي المدارس الخاصة مدفوناً وليس من يضع على قبره زهرة ولا من يسأل عنه في مقره الأخير .

فبأي عدالة اجتماعية يشتغل الرجل أربعين وخمسين سنة ولا يعطى تعويضاً

إلا عن عشرين عاماً فقط . وهذه العشرون عاماً يحاول قيم صندوق التعويضات باجتهاداته القانونية أن يصيرها مثل صبّيرة طمسون .

اننا نراكم تفتكرون بكل شيء إلا بمعلم المدارس الخاصة ، ولولا المدارس الخاصة لم يكن عندنا حاجب ولا بواب .

قال المسيح : من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر . وأنا أقول : دلوني على أحدكم يا كبار موظفي لبنان لأرى إذا لم يكن من طلابنا . اذكروا أن السيد قال : ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان . فبحياتكم انظروا في قانون من قدموا خبز المعرفة وأبرزوه للوجود ، لنراه ، ونهتف مع سمعان الشيخ : اطلق يا رب عبدك بسلام لأن عيني أبصرتا خلاصك .

لا تعللونا بالآمال ، ولا تقولوا رويداً ينضج الطعام ، بل كونوا كالخليفة ابن الخطاب الذي حمل على ظهره كيس الدقيق لتلك الأرملة .

قلت فيما مضى: اشبعوا المعلم على الأقل . والآن أقول ان الكثيرين من المعلمين المحتاجين ، الضعاف الوجدان يتمثلون بقول المثل القائل : على قدر زوادتكم نرعى لكم دابتكم . واذا كان هذا هو الشعار فمصير الوطن إلى أين ؟.

فإذا أردنا أن يكون لنا معلمون مخلصون محترمون ، بناؤون لا هدّامون ، فعلينا أولاً أن نكفيهم مؤونة التفتيش عن الرغيف والكساء . علينا أن نحوط المعلم بالوقار والاجلال ، وهـذا لا يدرك إلا بالاستغناء عن السعي وراء اللقمة والكسوة . أحسن جداً وزير الشؤون الاجتماعية حين فكر بمساواة العمال باخوانهم في البلدان الأخرى فهل من يفكر بمساواة المعلم بالعامل ..

يلذ لي في هذا المقام أن أنشر نبأ أذيع عام ١٩٤٧ وهذا هو نصه :

واشنطون — ٢٥ حزيران : أعلن اليوم ان الجنرال دويت ايزنهاور القائد العام الأكبر لقوات الحلفاء في حرب أوروبا ، والذي قاد أعظم جيش عرفه التاريخ بعدده وعدده ، واحتل المانيا بعد كفاح سنة كاملة قـد قبل أخيراً أن

يكون مديراً وعميداً لجامعة كولومبيا في نيويورك وسوف يضطلع بمهام منصبه العلمي الجديد في مطلع السنة الجديدة .

وقالت وزارة الحربية ان الجنرال ايزنهاور ، رئيس أركان حرب الجيش الأميركي ، قبل أن يكون مديراً للجامعة ، بعد موافقة رئيس الولايات المتحدة ووزير الحربية .

أظن أن الجنرال ايزنهاور رأى أنه يعمل في أساس مهنته الحربية بادارة أقدم جامعة في الولايات المتحدة . فمن هناك تخرج الرجال الذين يقودون الأمة الى جميع الساحات. أما نحن فنرى أن منصباً كهذا لا يعادل كرسياً صغيراً في زاوية يقبع عليه موظف صغير كالخنفساء .

نحن لا نلوم وزارة بعينها على هذا الابطاء وعدم الافتكار بالمعلمين وقانونهم المضمّر ، ولكننا نلوم الوزراء جميعاً ، والنواب جميعاً ، والموظفين ذوي الصلاحية فمن منهم لم يتعلم عند معلم . الا يقضي الواجب على كل من تعلم أن ينصر قضية معلمه . ولو فكر بعضهم قليلاً لانحلت المشكلة في أقرب وقت .

والوزارة التي تفكر بالانشاءات الضخمة ، أما عليها أن تفكر بالترميم ؟

ان المعلم جسر عبروا عليه حتى وصلوا الى ما وصلوا اليه . أيجوز أن لا يفكروا بترميمه كيلا يسقط ؟

والأنكى في القضية أن ذاك القانون الممسوخ يريد أن يمسخه من كلفوا في تنفيذه حتى تكون حكاية المعلم كحكاية الجبنة التي تولى قسمتها القرد ، فظل يأكل منها حتى يعدل بين الاثنين ، وأخيراً أكلها هو ، ولم يذق منها صاحباها شيئاً .

وإذا سألناهم قالوا لنا : حتى يطلع القانون الجديد فهو أحسن لكم . لقد صح أن نقول لهم اسطورة البقر : قالوا للبقر : متى متم نكفنكم بحرير . فأجابت : نرضى أن تبقى جلودنا علينا .

فاذا كانت الحكومة تحسب معلمي المدارس الخاصة عاجزين عن مطالبتها ،

فلا أقل من أن تبني للقدماء منهم (مأوى عجزة) الى جانب هذه الدور الفخمة التي تبنيها لاداراتها .

فالى المسؤولة الاولى ، الى وزارة التربية ، أوجه هـذه الكلمات راجياً أن تبعث القانون الدفين . واذا لم تشأ أن تساوينا بعملي الدنيا فلتحسبنا عمالاً ، وما نحن في الحق إلا عمال في حقل آخر .

ان من يعمل خمسين عاماً يحق له أن يطالب بمساواته بغيره من خدام الامة .

ان الشيخوخة رهيبة ولو كان الانسان نائماً حد صندوق مشحون ، فكيف بها اذا كان ينام ولم يدخر القرش الأبيض لليوم الأسود .

ومن أين له ذاك القرش ؟ أمن راتبه الضخم ؟ أمن تعويضه الذي يحاولون مسخه أكثر مما هو ممسوخ .

لم يبق أمام المجاهدين القدماء إلا التأسف على زمن أضاعوه ،ووقت في خدمة بني امهم ، صرفوه . لا ينقذهم من هذه الورطة التي هم فيها ، ما دام (قانونهم) يعطيهم الخمسين عشرين ، إلا المأوى الذي اقترحناه على الوزارة .

فما رأي معالي الوزير ؟

محل الامتحانات الرسمية

كان موسم امتحانات عـــام ١٩٥٤ ماحلاً . خاب فيه ظن أولياء الطلاب والمدارس والشباب ، فصح فيهم جميعاً قول المثل : حساب الحقل لم يقوم على البيدر . أجفل هؤلاء كأنما أحلت بهم أم المنايا بناتها ، وشاركتهم في هـــذا الارتياع بعض الصحف حتى خلنا أن الكارثة الكبرى نزلت بلبنان الأثم ... ولذلك نقول للجميع كلمة تعوّد أن يعزي بها الفلاحون أنفسهم : اذا فاتك عام استبشر بغيره .. الموعد قريب ، والسنة خلف الباب .

إنا لفي زمن عشق فيه التلميذ وذووه الشهادات عشقاً تمّ فيه قول ذلك العاشق المفتون : جننا بليلى وهي جنت بغيرنا . الشهادة عندنا أعذب الأماني وأحلاها طعماً ، وحسب الوالد فخراً أن يجيب على سؤالك عن ولده : أخـــذ السرتفيكا ، ما رأيت صورته في الجريدة ؟ معه بريفيه ، معه بكالوريا .. فبعد أن كان يدعى عندنا للفتى بفرحة العرس أصبحوا يدعون له بفرحة الشهادة ، عروس الأحلام والأماني . وهكذا أصبح التلاميذ هواة لا محترفين ، حسبهم الشهادة ولا بأس عليهم ان كانت كالبندقية الفارغـــة التي فزّعت اثنين . ومن أغرب ظواهر جونا الثقافي ، تهافت الطلبة على جمع ما هب ودب من هـــذه الشهادات فكأنها طوابع بريد يتبعها الهاوون ويهيم وراءها فتياتنا في أودية الدنيا وأنهارها... فالطالب الواحد يتقدم الى البكالوريا اللبنانية والفرنسية والسورية

والمتريك، ولو وجد بكالوريا يابانية او صينية ما ارتد عن اقتحامها ولو سيجت دربه بالعليق وللقندول ...

الشهادة أكبر هموم الفتى وأسرته . أمـــا المدارس فحسبها أن تذيع في الجرائد : تقدم باسم المدرسة الفلانية الى الامتحانات الرسمية خمسة عشر طالباً فنجح عشرون . وان استغربت شرحوا لك هذه الفلسفة الاكوينية التي تشغل اليوم بال شاعرنا سعيد عقل . ثم تغدق الصحيفة مذيعة هذه البشرى الطريفة ، على تلك المدرسة عبارات الثناء والاطراء ، فلا تدع واحداً ممن لهم أصبع في تلك المؤسسة حتى تخصه بكلمة شكر . وهكذا يغمر طوفـــان نوح جديد جدران تلك المدرسة حتى يكاد يجرف أسوارها ويخرج من بوابتها عارماً كأنه مياه مغارة أفقا ابان الربيـع .

لفتت نظري كلمة في جريدة هذه هي : كانت نتائج البكالوريا هذا العام من السوء والانحطاط بمكان ... فمن هو المسوول عن هـذا التقهقر ؟ الطالب ، أم المدرس ، أم المدرسة ، أم الوزارة التي تجري الامتحانات ؟

السؤال وجيه . وليس أجدر بالجواب عليه ممن خبر الطالب والمعلم والمدرسة والوزارة . ولكن طارح هذا السؤال نسي مسؤولاً آخر ، وهو ولي الطالب وبهذا أبدأ أنا .

فهؤلاء الأولياء من آباء وامهات وأوصياء مزعجون . لا يؤاخذني أحد اذا قلت انهم ثقلاء مبرمون أكثر من الذي قال فيه الشاعر :

يا مبرماً أهدى جمـــل ... خذ وانصرف ألفي جمل
قال وما أحمالهـــا ... قلت زبيب وعسل

إلى آخر القصيدة التي حفظتها صغيراً .

إن هؤلاء الأولياء يحبون الجمز . فإن قرر مدير المدرسة أن يعيد ابنهم صفه قامت قيامتهم وعلت ضجتهم وملأوا الأرض احتجاجاً ، فان رأوا تصلباً لجأوا

إلى أصدقاء المدير وعادوا حاملين اليه رسائل توصية من مراجع مختلفة السمو والمقام ، كأن (المحروس) محكوم عليه بسجن القلمة ... وإذا جابهت صخرة المدير معاولهم نقلوا ابنهم إلى مدرسة أخرى فتفتح هذه له ذراعيها غير مهتمة لازدياد عدد طلابها واحداً . هذا إذا كان الولد أعمى البصيرة ، أطرش الذهن ، أما إذا كان يتمتع بذكاء عادي طمع وليه بترقيته صفاً أو صفين ، وإن لم ترضخ أنت لارادته أطاع غيرك . فاختر لنفسك ما يحلو .

هذه مسؤولية الأولياء . أما مسؤولية التلميذ فتنحصر في هذا المثل :هاتيك الغبره ورثت هذه الوحلة . ان الفوز الباهر في امتحانات البكالوريا الماضية قلل من اهتمام الطلاب حتى حسبوا البكالوريا أكلة بطيخ . مـا عليك إلا أن تكسر الرأس ، وما أهون شجه ، ثم تأكل هنيئاً مريئاً . اذا كان الطالب ابن وجيه فما أغناه عن عبوسه وجه الكتاب لينشغل بالوجوه المبودرة المحمرة ، والحواجب المزججة ، والعيون المكحلة . ليتحدث عن أفلام السينما بدلاً من أقلام تاريخ الأدب ، وما له وللمتنبي والجاحظ فحديث جياد السبق أشهى وألذ . لينشغل بالتحدث عن سياسة فلان وفلان وتأييد (جناب حضرة) والده المحترم لهذا أو ذاك ، فهي أجدى له في معركة الامتحان من درس سيـاسة الدولة الأموية والعباسية . ان الممتحنين ينتظرون إشارة أبيه لينقذوا الموقف ، فهو لا يعنيه إلا الشهادة (ويوم الله يعين الله) المركز محفوظ . والأسرة جمعاء في انتظار الساعة ليقبع الولد في كرسي الوظيفة . الخطبة عقدت منذ زمان، فأهلاً بعروس الأماني والأحلام .

أما اذا كان الطالب من الأذكياء النبهاء ولا عضد له ولا سند فيخدعه نجـاح طالب مقصر سبقه الى إكليل الغار ، وظفر بـه باحدى الوسائل المكتومة ، فيتراخى ويتهاون ظاناً أن البكالوريا لا تقتضيه الدرس العنيف. يقول في قلبه: ان كان فلان ، وهو لا يعرف الحس من الطمس ، أخـذ البكالوريا ، فأنا آخذها من درجة جيد اذا لم أفتح كتاباً ، فلماذا كل هذا التعب والسهر ؟

كثيراً ما كنت أسمع من أبطال البكالوريا : الوزير الفلاني او النائب الفلاني صديق الوالد . قتلنا حالنا حتى نجحناه في الانتخابات . انه ينتظر الساعة حتى يقوم بالواجب . اذا أمر صارت الخمسة ، خمسة عشر ... الشهادة إذن في العب. وهكذا ينام صاحبنا على صوف ، ومهما حاولنا إيقاظه يظل يشخر وينخر ولا يستفيق إلا يوم تسودُّ وجوه وتبيضُّ وجوه .

أما زملاؤنا المعلمون فلا يعني بعضهم أو أكثرهم إلا أن يلموا مما كتب هنا وهناك ، من قديم الأقوال وحديثها . يخيطون من كل هذه الرقاع ثوباً فضفاضاً يسمونه دروس البكالوريا ، حتى اذا احتضر العام المدرسي زودوا تلاميذهم حين خروجهم الى ساحة الامتحان ، بهنات هينات يسمونها (بلان) فيبرز الطالب فيها بروز أبي دلامة ، وسلاحه تلك الدجاجة التي سد بهـا بوز قرنه ، وأمن شر يوم كان يعده الأول من الآخرة ، والآخر من الدنيا .

لا يعني هـذا الاستاذ الذي (يعمّدونه) استاذاً للأدب العربي ، أن يصلح ما فسد من لغـة تلاميذه . لا تهمه سلامة التركيب ، وخطأ الانشاء من الخطأ النحوي والصرفي ، فيدخل تلميذه معترك البكالوريا كالحصان الأعرج . يصك في كل سطر صكات . يرفع المفعول ويجر الحال ، ينصب المبتدأ ويجرّ التمييز . يفتح فم التـاء ذراعين ويرسم الهمزة قافاً ، ويكتب الدال ضاداً ، ثم يتألب الساعون بالخير على أعضاء اللجنة الفاحصة طالبين منهـا (السبعة عشر) علامة لهذا الأخفش المعاصر ... وحجتهم أنه كتب سبع صفحات عن المتنبي ، كأن مسافة الكلام تقاس بالباع والذراع . يقول لك أبو هذا الطالب : ابني ، يخزي العين عنه ، ما نسي كلمة سمعها من المعلم ، ذاكرة عجيبة غريبة . كيف لا ينال علامة فوق الربح ...

الحق معك يا صاحبي ، حفظ ابنك ، حفظه الله ، كما قلت ، ولكن المرشح للبكالوريا يجب أن يكتب صحيحاً . ان تلميذ الصف السابع أصح عبارة من (المحروس) أقر الله عينك به .

اذن على من يتولون تثقيف النشء أن يضربوا نطاقاً من الأسلاك الشائكة حول صف البكالوريا .

فلنكهرب اذا اقتضى الأمر، هذه الأشواك. فلنحاول تهذيب عبارة الطالب قبل أن نحشو مخه بروايات أساتيذ الأدب العربي وقولهم : امرؤ القيس أول من بكى واستبكى ، وزهير او النابغة اول من أكل بشعره في صحون من الفضة . وشعر ابن أبي ربيعة الفستق المقشر . وما علينا اذا قلنا جرياً على قياسهم شعر ابن الرومي رز مفبر ، وشعر أبي نواس سمن مكرر، فيحشو تلميذنا بهذا كرش دراسته المطلوبة . وهكذا تنضج طبخة البكالوريا وتقسام الولائم والأفراح إعلاناً لهذا النبوغ وإجلالاً لهذا الفوز .

إننا في حاجة الى من يعبر عن فكره بلغة ان لم تكن فصيحة ، فلتكن على الأقل صحيحة. أما أن يحمل البكالوريا اللبنانية من يهز كلما كتب حرفاً عظام الخليل وسيبويه ، فهذا لا نرضاه للبنان الذي يسمونه منارة . لقد شحّ الزيت فأدركوا هذا السراج بنقطة تبل لسان الفتيلة ...

أما المشرفون على الامتحانات فنشكر لهم ما واجهوا به الطلاب من شدة وتدقيق ، فالشهادات العليا لا تنثر كورق تشرين ... اذا كانت المعامل المحترمة لا ترضى أن تسجل (ماركتها) على بضاعة مشكوك في جودتها ، فهل يليق بأمة ما أن تطبع بطابعها الثقافي شباباً لا يقرأون ولا يكتبون صحيحاً ؟

ان مستوى التعلم قـد تدهور . انه عندنا بين يدين : واحدة غافلة عن واجباتها لأنها تجهلها ، وأخرى تستفز التلاميذ ساعة الحاجة قضاءً لمآربها . فعسى أن تكون قلة الناجحين انذاراً للشباب يصرفهم عن شؤون السياسة وشجونها فلا يسوسون غير الدفاتر والكتب .

لا ينكر أن هناك حيفاً يلحق ببعض التلاميذ ، وسببه اختيار مميزين لا

يستطيعون التمييز والحكم فيما ليس من اختصاصهم. أقول هذا مع اعترافي بكفاءة بعضهم ، وانكاري على فريق منهم هذه القدرة .

وهناك قضية أخرى لا تعيرهـا الوزارة اهتمامها ، وهي اختلاف أذواق ومشارب هؤلاء المميزين . فاذا وقع طالب بين براثن متنطس متحذلق حطمه تحطيماً لأنه لم يكتب كما يريد ذاك المميز ، بينما رفيقه الذي هو دونه معرفة ينقذ في المضيق لأنه وقع بين يدين ناعمتين أو غير متمكنتين. إن الخير كله في الرجوع إلى تأليف لجان ثلاثية ، أو رباعية ، أو خماسية من عارفي المنهاج حتى المعرفة لتميز الغث من السمين وتطبع على غرار واحد ، فلا يُظلم طالب ويرحم آخر . والظلم في السوية عدل في الرعية . ناهيك أن (وسطاء الخير) يعجزون عن الوصول الى الخمسة واستجدائهم .

ان الشاعر والكاتب والصحفي والموظف غير الاستاذ في الأدب ، فلا تغر الوزارة كفاءات لا معنى لها . إن لهذه الكفاءات سماء تشع فيهـــا غير امتحانات البكالوريا .

أما الأسئلة ، وعسى أن تحقق الوزارة ما نطلب ، فأرى أن تكون أدق وأضيق نطاقاً . إن أكثرها واسع فضفاض يضل فيها الممتحِن والممتحَن فيقع كلاهما في محنة لا مرجع (رسمي) يحلها اننا محتاجون الى اختصاصيين فاهمين العربية . أقول هذا وأنا واثق بأني تعرضت لغضب سيبويهم و (حرد) ابن أثيرهم ....

ولكنها حقيقة مؤلمة لا بد من الجهر بها ، ولتقع السماء على الأرض ...
ما دام العارفون والمختصون غرباء عن أورشليم ، فلا أمل ولا رجاء. وهيهات أن تثمر المؤتمرات الثقافية ثمارها المرجوة .

أمـا الاهلون — أولياء التلاميذ — فانصح لهم أن لا يهبطوا العاصمة ابان الامتحانات، وأن يدعوا الطواف واللف والدوران وقرع أبواب أصحاب النفوذ

ليعينوهم على المميزين . ليدعوا التفتيش عن هؤلاء بالفتيلة والسراج ليستجدوهم علامة تنول أولادهم شهادة كاذبة .

إن هذه الفوضى التي أراها في كل موسم امتحاني لا تشرف وطناً يردد صباح مساء : ملء عين الزمن ، سيفنا والقلم .

اذا كانت البكالوريا تعطى وتوهب اكراماً لسواد عيون هـــذا وذاك ، واذا كان النفوذ يزج في الثقــافة والعلم ، نصبح لا سيف ولا قلم ونسقط من عين الزمن .

ان الزمن لا يرحم ولا يحابي .

بواريد فاضية

حملت شهاداتي ورحت أعرضها هنا وهنـــاك حتى كادت تتمزق . وأخيراً نصحني زميل لي قائلاً : سائل المجرب ولا تسأل الحكيم . أنا كنت قبلك . اسمع مني واعمل مثلما عملت . صوّرها . الرسوم الفوتوغرافية أخف حمـــلاً وأيسر تداولاً . فحملتها ثاني يوم ورحت الى المصور ، وما كان أشد دهشته حين رآها .

– حقاً انك نابغة ! أنت حاصل على كل هذه الأوراق . حقيقة انها (أوراق اعتماد) . قطيعة . بحياة أبيك قل لي أسماءها ؟

فرحت أعد باعتزاز واعتداد : بكالوريا لبنانية . بكالوريا فرنسية . بكالوريا سورية . هاي سكول . سوفومور .

– يا بارك الله ! تريد صوراً عنها كلها ؟ صورة واحدة او اثنتين .

– لا . اريد أن افتش عن عمل .

فافتكر قليلاً وقال : ولمـــاذا التعب ! العمل موجود . اريد كاتباً يمسك الدفاتر ، ويكاتب الفبارك ، ويحسن الضرب على الآلة الكاتبة . ما رأيك ؟

– لا احسن مسك الدفاتر ولا الضرب على الآلة .

– وماذا تحسن !

فأطرقت ورحت أحك ذقني وأفكر ، ثم لم أقل شيئاً .

فحوّل المصور عني وجهه ، ورفعت رأسي أنظر الى قفاه ، فإذا بي أرى كل جسده يهتز ، حتى نضح من الضحك وكدت أراه ثم سمعته يقول ويغص : تعال غداً خذ صور شهاداتك . بعد الظهر تكون حاضرة .

آلمني جداً ذلك الاستخفاف ولكني سكتّ .

وكتبت بعد يومين عدة رسائل طويتها على صور شهاداتي وبعثت بها في البريد ، مسجلة ، الى دوائر عديدة وقعدت أنتظر الجواب فلم يرد عليّ أحد . وأخيراً تذكرت مثلاً قرأته : من سعى على رجله رعى . فقمت ابرز نفسي واصلح من هندامي ، ثم حملت صور شهاداتي ورحت الى ادارة احدى الشركات الكبرى ، فقابلني مديرها باسماً فاستبشرت ، وتجرأت عليه وعرضت مطلبي فقال : نحن نفتش عن شاب من مثلك ، أنيق ، لطيف ، حسن السمت .

فأجبت على حديثه بحياء وخفر ، فقال : أتعرف شيئاً عن الميكانيك ! المركز محتاج الى من يعرف شيئاً يسيراً من هذا . عليك أن تفهم المشترين شيئاً عن أسرار الماكينات والمحركات وغيرها .

فقلت : لا يا سيدي . ما علمونا هذا .

فسكت هنيهة ثم قال : اني آسف يا عزيزي .

فودعت وانصرفت لأدخل باب شركة زراعية اذا بمديرها يباحثني في الأسمدة الكيماوية ، والتربة ، والغرس ، والمكافحة والحرث ، فوجدتني كالأطرش في الزفة ... وخرجت من مكتبه يائساً .

ونمت تلك الليلة قانطاً وما أصبحت حتى تشددت فقصدت شركة تسفير فطفق مديرها يسألني عن الموانىء والمسافات بين القارات والأقطار فاذا بي لا أعي شيئاً ، بل نسيت كل ما أعددته من الجغرافيا لاجتياز الامتحان ، مع أنه لم يمض على ذلك أكثر من ثلاثة أشهر .

وسمعت أن اوتيلا كبيراً أجنبياً يحتاج الى كاتب ، فأبرزت لمديره شهاداتي فقبلني بلا بحث . واشتغلت هناك أياماً ، ولمـــا استأنست صرت أشارك بعض الزبائن في الحديث عن الادب والادباء الكبار الذين درسناهم وذات يوم بينا كنا نتحدث عن المتنبي اذا بالخواجا يتبرم ولكنه انتظر انتهـاء المؤتمر ليقول لي في مكتبي : ما هكذا يا عزيزي تساس الفنادق . نحنا هنا في اوتيل سان فنسان لا في شارع المتنبي ... وحاولت أن أقنعه اني أتحدث عن المتنبي لا عن شارعه المعروف ، ولكنه لم يفهم عني .

فأنفت أن أعمل في محل لا يفهم مديره الأدب ولا يعنيه منه شيء . اردت أن أظهر ثقافتي التي أحرزت بهـــا شهاداتي فاذا بي أخسر مركزي . فلا حول ولا ...

وقصدت بعـــد اسبوع ادارة جريدة كبرى فأكبروا ما في يدي من صور شهادات . فكلفوني الكتابة ، ثم الترجمة فرأوني ضعيفاً جداً . واستكتبوني في المواضيع المحلية والاجتماعية فـــا أعجبهم إنشائي لضعفه وركاكته وأخطائه الإملائية والنحوية . ولا تسل عن جرح قلبي البليـغ حين سمعت رئيس التحرير يقول : عجيب ! كيف نلت هذه الشهادات؟ أنا ليس في يدي شيء منها ، وهذا انشائي . اقرأ يا استاذ .

– فقلت له : كنا نكتب مقالات عن الشعراء والكتاب وغيرهم .

فتضاحك وقال : والإملاء يا عزيزي ! لا تعتذر .

فوجمت وأطرقت . أما هو فقال : لا تيأس . تتعلم في الحياة ان شاء الله . نصيحتي لك أن تعلم في احدى المدارس ما تعلمته فيها ، فبضاعتك تنفق هناك .

وأخيراً وجدت عملاً في مدرسة ما ، ولكنني وقعت في شباك التلاميذ، لأني غير متمكن من الاصول واللغة . فشكرت لي المدرسة جهودي بعد شهر ...

وأخيراً توسط لي نائب كنا معه في الانتخابات ، فعينت معلماً في مدرسة

رسمية ، فنفقت شهاداتي حيث لا يسأل أحد عما يعلم ولا عمــا يعمل ... ولكن ما النتيجة ! اذا اكتسيت جعت ، واذا شبعت عريت .

وقعدت ذات ليلة أحاسب نفسي فوجدت أن عاملاً في كاراج ، وخادماً في مطعم ، أيسر مني حالاً ، فقلت لوالدي : لو أعطيتني ما أنفقته على تعليمي ما لا ينفعني ، لكنت صرت غنياً مثل فلان الذي لا يعرف الخمس من الطمس .

فامتعض الوالد ، وكأنه اشتم رائحة نكران الجميل ، ثم قال : ما الحق عليّ ولا على العلم . كل الحق على من علموك ما لا ينفعك في الحيــاة حتى كنت كذلك الشويء ، لا مع اللحم ولا مع العظم ..

المستقبل لا يرتجل

سموها وزارة المعارف يوم مولدها ، ثم طاب لهم أن يسموها وزارة التربية الوطنية والشباب ، ولكن كلمة (الشباب) ماتت مع فجر حياتها فصارت وزارة تربية وطنية بلا شباب . واليوم يقولون أنها ستصير وزارة (الجامعة اللبنانية) ... قالوا إذا غضب الله على قوم جعل صيفهم شتاء ، ونحن نقول : جعل وزارتهم مدرسة ...

ما أعظم حيرتنا في هذا البلد ! وما أتعس حظ التربية عندنا ! ما زلنا نبدل المناهج كأننا ننقل حجارة دومنو ولا نضع منهاجاً . وضع المنهاج أول مرة فضم تاريخ أدبنا العربي كله ، وظل كذلك أعواماً ، ثم اجتمعنا لتشذيبه فأبقينا على تسعة وعشرين أديباً وشاعراً ، فتنفس الطلاب والأساتذة الصعداء ، وخف من لا يفكرون إلا بجيوبهم فجمعوا النصوص ، فما كان (في الروائع) نقل عنه ، وما لم يكن فتش عنه ، فصار لنا كتاب يتدارسه المعلمون وطلابهم .

وقالوا بعد حين : هذا منهاج ضخم يجب أن نقل من شحمه لأن السمنة بشير الشيخوخة ، فقعدوا يطبخونه في الخفاء . وأخيراً طبعوه وقالوا : هـــذا هو المنهاج الجديد . ونظرنا فيه فإذا التسعة والعشرون عادوا كما كانوا أولاً أي مئة وأكثر . واليوم يقولون انهم يعملون على تنظيمه وتعديله ، ولكن ظني ، وظني لا يخيب ، انهم لا يتعدون الخطة التي عرفنا وإلا كسدت الكراريس الملومة ..

إن مـا نسميه وزارة التربية عندنا ليس إلا وزارة قراءة وكتابة في لغتنا القومية واللغات الأجنبية الأخرى . إن خلق رجال يوافقون مقتضى الحال ، فهذا لا تحققه مناهجنا ما زالت تسيرها أيد غريبة من وراء الستار ، تنفخ في بوقها وبوقها يقيم القيامة وهو صامت .

إن أهدافنا عتيقة جداً من عهد كانت وبستالوزي وغيرهما ، وهذه لا تتفق أبداً مع التربية التي يتطلبها زمننا الحاضر . فالتربية الوطنية لها هدف خاص أي خلق رجال مختصين ببقعة من الأرض ، فهل نعمل لهذا ؟

أتستطيع الوزارة التي سميناها وزارة التربية الوطنية أن تقول لجميع مدارس الجمهورية اللبنانية : افعلي هذا ودعي ذاك ؟ وإذا كانت الوزارة وهي مستمدة قوتها من شكلها الرسمي ، ومهابة الكرسي لا تستطيع ذلك ، فكيف إذا صار الأمر إلى مدرسة عليا سميناها جامعة لبنانية ...

هل تستطيع هذه أن تفرض ارادتها على الجامعتين الكبيرتين ؟! أما إذا كان القصد أن نبسط سلطاننا على المدارس الأخرى التي لا شأن لها، وننتفش كديوك الحبش ، فهذا شيء آخر .

يقول علماء التربية : إن التربية التي تصلح لأمة أو فرد قد تضر بأفراد آخرين وبأمة أخرى ، ومع ذلك نظل نحن ننسج براجنـــا نسجاً ونسير على منهج لا يتصل بحياتنا . فإلى أين يا ترى نحن واصلون ؟

التربية الحق هي التي توحد عواطف الامة وأفكارها فتصير الشعور واحداً، فهل فكرنا في شيء من هذا إذا كنا نريد أن نبني وطناً لا دولة ؟ فالانسان الذي تتطلبه تربية اليوم ليس ذاك الآدمي الذي أوجدته الطبيعـة بل الانسان الذي تتطلبه الامة . انهـــا تريده كما تقتضي ظروفها وأحوالهـا الطارئة . فلكل عصر رجال .

وإذا كان التعليم وسيلة تربوية فماذا تربي لنا هذه المناهج المنسوخة الممسوخة؟

ألا يرى القارىء معي ان من نربيهم ، بل قل نعلمهم ، يصلحون لكل مكان ولا يصلحون لمكان بعينه . فإذا كان هدفنا التربوي تربية رجال دوليين فلنسمّ وزارتنا وزارة التربية الدولية ، فهو أعم وأفخم .

للطيور التي تعيش مجتمعة نظام اجتماعي موحد ، فكيف بنا نحن البشر . أيظل لبنان حائرا ؟

يقول دركايم : إن مجتمعاً يعلم بدون عقيدة تربوية هو جسم بلا روح ، فما هي عقيدتنا التربوية يا ترى ؟

الجواب عند الجنسية والطائفية . فلكل مدرسة عندنا هدف ، ولا يرتقي إنسان ما إلا إذا استهدف غرضاً سامياً .

وإذا سألنا استاذاً منا : ما هو هدفك يا صاحب من تعليمك ؟ أجاب : اصطبغ باللون المحلي ، فأنا لاتيني عند اللاتين وأمريكي عند الامريكان وسكسوني عند السكسون ، ولبنان والعروبة على الله ...

الاستيطان يمنح الحجل لون تربة البقعة وصخورها ، وهكذا مدارسنا الرسمية . فهي مسيحية إذا كان المحيط مسيحياً ، وإسلامية إن كان إسلامياً ، وهكذا قل : أرمنية ويهودية ..

إننا نتشبث بلقب التربية لا لشيء سوى انها هكذا سميت عند غيرنا ، كما لم أسمّ مارون إلا لأني ولدت يوم عيد ذلك القديس .

إن مهمة التوحيد عندنا شاقة ، ونحن لسنا نطلبه كاملا لأن دولاً كثيرة لم تحققه بعد . فخير لنا أن نسمي هذه الوزارة جمعية خيرية او اخويات متحدة ، تصلي لله لأجل الوطن الحائر وبألسنة عديدة كتلاميذ المسيح حين حلّ عليهم البارقليط في علية صهيون ...

لقد أصبحت الوظائف والمعاهد عندنا (سيامة وعماد) فمن مسحناه بزيت (الواسطة) المقدس أمسى مكرساً . أما سميناها جامعة لبنانية وهي دار

معلمين ؟ أما كان يجب ان يكون المشرف عليها من ذوي الكفاءات النـــادرة والشهادات الرفيعة ؟ ومع ذلك سميناه وصار . واليوم هــا هو يسعى ويحاول أن يسيطر على مقدرات البلاد الروحية والقومية علناً ، لأننــــا سكتنا امتثالاً ومجاملة ...

كانت غاية مدارسنا العتيقة أن تخلق منا أناساً تقرأ وتكتب . واللغـة كما يقرر علماء النفس ، أخطر عناصر التربية القومية ، فخرجنا قارئين كاتبين . أما اليوم فالقراءة معدومة ، وأساتذتنا يضيقون صدراً بتعليم لغتنــا العربية . فمن قائل بترك الاصول وعدم الاكتراث بها ، ومن قائل باللغة العامية ، ومن داع الى الكتابة بالحرف اللاتيني . وسبب ذلك هــذه المناهج الموضوعة لنيل الشهادات لا أكثر . فالفرق بيننا وبين طلاب اليوم اننا تعلمنا لنعرف ، واليوم يتعلمون ليطبقوا المنهاج .

كانوا يقولون فيما مضى : فلان يطبق المفصل . واليوم يقولون : طبق المنهاج وأخذ بكالوريا فهي مفتاح الاعمال وإن كانت بارودة فاضية .

شعر العرب ان لكل إقليم خاصة فقالوا في شعر ابن أبي ربيعة حين كان يقرزم الشعر : شعر حجازي تحس فيه البرد في تموز . أمــا لبنان فيدرس بنيه ما هب ودب ، ولا عجب في ذلك ، فالمخلوطة أكلة لبنانية ...

عندما اجتمعنا لترميم منهاج البكالوريا عـــام ١٩٣٢ كان مستشار المعارف المسيو كوانته يتجه دائماً في اختيار من كتبوا عن الشرق من أدبا الفرنجة . أما أعضاء (مجلس المعارف الأعلى) البلديون فكان لا يعنيهم في اختيـار أدبائنا إلا نعراتهم الطائفية .

لست أتوقع حدوث العجائب اذا عدّل المنهاج . فمثل هذه المناهج وخصوصاً منهاجنا يقتل قوة الاستنباط والاستقلال العقلي ، فلا يهم شبابنا إلا اجتياز المحنة بسلام ... ان التفكير يصير التقليد والممارسة صالحين للزمان والمكان ، فمن تراه

يفكر في إبداع ما يتفق وميول أبنائنا وطموحهم ؟ الدنيا تتغير وتتحول ونحن ثابتون كالشمس ، صامتون كالارض ، مع أن هدف التربية خلق انسان جديد لحياة جديدة .

نعم ان الطفرة محال ، وليس المستقبل قصيدة ترتجل ، بل هو الماضي تُصلح حجارته وتنقح لتلائم الطراز الحديث .

قال هانيكين : ما من حادثة في الطبيعة كلها إلا تتولد من الماضي، وتكون في الوقت نفسه عاملاً مقوماً وعلة مفيدة للمستقبل .

أما نحن واأسفاه ، فكل تجديدنا واهتمامنا في التسمية . كانت تسمى وزارة معارف فسموها وزارة تربية وطنية ، ثم كانت للشباب فأمست بلا شباب ، واليوم يجب أن يسموها وزارة الجامعة اللبنانية اذا وقعت الكارثة .

ان فكرة الاحتكار والاستغلال متمكنة منا ، يفكر كل واحد منا أن يسيطر على المنابر وحقول الاختبار ، وهكذا ينقضي العمر، ونظل نحن كما نحن. فبدلاً من أن نفكر بالإصلاح الجذري نفكر بنقل الأعمال من يد الى يد فكأن ميزانية الدولة تركة ميت توزع على بنيه وبناته والاقربين الذين هم أولى بالمعروف ... المخلصون يذكرون المرحوم وفي العين دمعة ، ولكن ذوي قرباه ملتهون بالجمع والقسمة ، وليس فيهم من يقرأ الفاتحة على قبره ، ولا من يصلي عن نفسه الأبانا والسلام. شعارنا : اذا هبّت رياحك فاغتنمها ... نفرح بمرسوم ويحزننا مرسوم ، وما كانت المراسيم قط تبني وطناً .

مسكين لبنان ! فما فيه حد وسط . فهناك إما لبناني يظن نفسه جزءاً من أوروبا ، وإما لبناني يظن أنه من السكوت وحضرموت . وقد نسيا كلاهما أن اللبناني تمغرب وظل لبنانياً ، كما أن العربي أولع بوطن ثان كلبنان هو الأندلس .

يقول المثل : من يأكل خبز السلطان يضرب بسيفه . أما لبنان فلا يوضع

موضع الحزم فيه إلا التفتيش عن المنافع . فبدلاً من أن ننتقي المعلمين ونشبع من اختيرناه ، نحاول أن ننقل صلاحية الوزارة الى دار معلمين ..

المسيحي يقول (النؤمن) والمسلم يقول كلمة الشهادتين ، والمعلم اللبناني يجب أن يؤمن ، أولاً ، أنــه يبني وطناً . ولكن من أين له ذلك ، وباله ببطنه الخاوي ، وبال استاذ الجامعة اللبنانية في كيف يبسط نفوذه على هؤلاء البؤساء .

وبعد تفكير عميق أقول كما قال زياد بن أبيه : اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح إلا بما صلح به أوله . ولهذا أقول كما قال الحجاج : يا أهل لبنان ، انني لم أجد لكم دواء أدوأ لدائكم من الجندية . فالجندية هي وزارة تربية حقاً هي البوتقة التي تصهرنا جميعاً وتطبعنا على غرار واحد فنحس أن لنا وطناً . فكل تربية وطنية تظل عقيمة حتى ينــام المواطن شهوراً في الثكنة العسكرية يحيي علمه بالسيف والبندقية . المدارس تخرج مخنثين ، أما الثكنة العسكرية فتطهرهم وتخرجهم رجالا صالحين لحرب بغير النظارات .

ويح للبنان ، فشعبه بخلاف الشعوب . للشعوب قلب وليس لهـا أعين تنظر بها ، فهي تحس ولا ترى . والحكومات بالضد ، فهي تنظر ولا تشعر ، ويا ويل أمة شعبها ينظر ، وحكومتها تشعر ، ان الهوة بينهما عميقة .

واعجباً كيف صارت المدارس التي أوجدها النوابغ الثائرون تخلق للأمة عجزاً وقاصرين ، ومشلولين ومسلولين .

عندما كان هدف التربية يصلح لكل زمان ومكان قال أجدادنا : لولا المربي ما عرفت ربي . فالرب كان هدف التربية في زمن الروح ، أما في عصرنا هذا ، عصر المادة ، فهدف الرجل وطنه . والتربية التي تصلح له هي تطعيم وتلقيح ، فالميول المكتسبة تطعم وتلقح بالميول الغريزية . والمربي " ...ح م يخلق ميولاً جديدة بل ينمي الميول الغريزية أو يقاومها . فقصارى المربي أن يروض الشخص ليصلح للجري في الشوط المنتظر . إن الأخلاق الفاضلة تكتسب بممارستها وتمودها فتصير خلقاً وسجية .

ولنستئر أخيراً بشيء من علـم النفس : إن لمسنا جسدنا يختلف عن لمسنا للأجساد الأخرى . إذا لمسنا جسدنا أحدث هذا اللمس احساساً مزدوجاً ، لأن اليد اللامسة تكون لامسة وملموسة ، أو فاعلة ومنفعلة كما يعبر الاختصاصيون . فالمربي الوطني يكون إحساسه مزدوجاً إن كانت عقيدته صادقة لا زندقـة فيها . أما المفلوج فيفقد هذا الإحساس المزدوج ويخال عضوه المريض ليس أحد أعضائه . فإذا شئنا أن نربي للوطن رجالاً صالحين ، فلنقص المفلوجين ...

الدواء في الثكنة

عندما دخل عليّ المقدم زين الدين ومعه طبيب مصلحة التدريب الدكتور فؤاد أبو حمزة تهللت لما عرفت انهما قادمان بمهمة تربوية علمية ، وهي التدريب العسكري في المدارس الثانوية . إن ما كان حبراً على ورق جاء من بصيره عملا نافعاً مفيداً .

وعادت بي الذكرى إلى ما كتبت في نقاش حول التربية الوطنية ، فقلت حينذاك : إن دواء الداء الذي نحن فيه ليس في المدرسة ، انه في الثكنة العسكرية ، فهي البوتقة التي تطبع أبناء الوطن على غرار واحد ، فينسون نعراتهم وعنعناتهم .

ثم مرت الأيام وأخيراً ، أقر التدريب العسكري في المدارس ، فشكرنا وانتظرنا ساعة التنفيذ لنرى طلائع التجنيد الذي يرعب اسمه الكثيرين منا كأنه الغول الذي خوفونا به صغاراً .

كان عهد ومضى . كان ذلك يوم كان سيف اللبناني مخدته ، يوم كان يقول ككل عربي : أيقتلني والمشرفي مضاجعي . ولا ينكرون القول حين يقول .

كان عهد ومضى ، عهد الرجال القشمريين والأبطال المشمرين ، وجاء دور بنطلون الشرلستون ، عرض ساقه أربعون سنتمتراً ، يلف سيقان الفتيان

المرهرهة ، فوق مرمر المقاصف . كانت الشراويل الخشنة تمر بالقندول المعجرم مر الكرام ، وصارت بذلات السموكن تترحم على طيلسان ابن حرب ...

رحم الله عهد اللبادة والكوبران ، والصدرية المزرة كأنها الدرع ، وزنار الكشمير والعباءة المخططة .

ليس فيما أقول حطة من قدر النفوس والهمم ، فالبـــلاد لا تزال تنجب الغطاريف ولكن تربيتنا وأنظمتنا تخمد الهمم وتميت الآباء والشمم .

شاءت دول أوروبا السبع أن تسبغ ثوب حمايتها على لبنان فوضعت له ذلك النظام المخنث المشلول، النظام الذي خنق الرجولة في صدور اللبنانيين فأصبحوا يرتعدون إذا ضجت الخيل والبارود . كان اللبناني يستقبل المنايا كالحات ولا يلاقي الهوان ، فصار يؤثر العافية . اتكل على (الدول السبع) فعاش يأتيه رزقه رغداً ، ولم يرحل لبغية المكارم ، ولماذا لا يقعد الزبرقان وهو الطاعم الكاسي .

كثيراً ما سمعت : هنيئاً لمن له مرقد عنزة في لبنان . إن هذا المرقد الذي تغنى به الشعراء قد صير اللبنانيين اعنزا ونعاجاً . قتل الإباء وأخمد المروءات فأصبحنا نغلق الباب ونعيا عن رد الجواب . وهل يعز وطن بلا جنود ؟

أمنا شر العدو الطارق فتعادينا مللا ونحلا وأسرا وبيوتاً ، وتقسمت مدننا وقصباتنا حارات وأحياء ، فصح فينا ما قاله شاعرنا في الأمس :

وأحياناً على بكر أخينا   إذا ما لم نجد إلا أخانا

رحم الله عهداً كان فيه اللبناني فلاحاً ومحارباً في وقت معاً . ينحت صخور جبله مسالماً ، ويهب للذود عن حوزته مهاجماً .

كان يسوق ثيرانه إلى الحقل ليحرث أرض آبائه وأجداده . يعاونه بنوه وزوجه ، كلهم عمال ، يدهم واحدة حتى إذا داعٍ دعا وسمع الصوت في الحقل لم يرجع إلى بيته . يلقي عن بقراته النير ، ويسوقها إلى مراحها ابنه الصغير ، وتمضي الأم لإعداد الزاد .

ها هو يستبدل المساس بالطبنجة والسيف ، والقدارة والقرابينة ، وجراب البذار يصبح كنانة الفلاح البطل. وإلى أين ؟ هو يلبي صوت الداعي ولا يدري. يمضي مسرعاً ووجهته الصوب الذي طرح منه الصوت . لا يعنيه مـاذا . كذا نشأ وتعود ، وهكذا عاش كريماً ومات عزيزاً .

– اطرح الصوت يا صبي ، هكذا يخاطب ابنه ورفيقـه إلى المعمعة . لعل أحداً لم يسمع الصوت فيعتب علينا. ناد فيسمعوا ويجيئوا معنا . ناد يا ابني ناد، لا يبقى في بيته إلا الجبان والعاجز . اسرع يا ابني ، عجل قبلما يفوت الفوت .

في ذلك الزمان كان لبنان أشم ، وذلك العهد يعود إن عادت اليه الجندية ماحقة النعرات الطائفية . فلا يحيي تبلبلنا القومي ما لم تصهر نفوس ابنائنا في بوتقة واحدة وهي بوتقة الجندية . وإلا بقينـا نماذج وأشكالاً تزدريها الأمم وتحتقرها الشعوب .

لا يرجى من المدارس أن تخلق للوطن رجالا . فمدارسنا كما هي حالها ، لا تخرج إلا كل مخنث رخو إنها مضطربة الميول ، متعددة النزعات والأنظمة ، في مناهجها سم ودسم . ان (ولدنا) عرضة لعوامل شتى مفسدة ، أهمها البيت المستضعف والمدرسة المسترخية .

أصبحت المدارس لتخاذلهـا ولتنافسها ، ولسقوط سلطة الآباء عن بنيهم تراعي طلابها ، فانفرج بركان الحرية المدرسية عن دائرة واسعة خطرة . بات النظام مهدداً وخرج الشبان أقرب الى الفوضى منهم الى النظام، ولم يتأصل فيهم شيء من العادات القومية لأنهم مسوقون بسياط التقليد .

العـادة تكوّن الأخلاق التي يحتاج اليها المواطن ، والمدرسة عاجزة عن توطيد هذه الأخلاق في معظم الدول العريقة في القـدم ، فكيف تطلبها من مدارسنا البابلية ؟

بالتكرار تستقر فينا الأخلاق التي تحتاج اليها الامة ، ومدارسنا تريد ذلك

ولا تقدر عليه لتباين أهدافها وتنوّع أغراضها ومراميها . إنهـا تعلم ولكنها لا تربي الخلق القومي الذي لا وطن بدونه . هــذا الخلق لا يستقر في أبنائنا إن لم يصبح من عاداتهم الراسخة . والعـادة لا ترسخ وتصبح خلقاً إلا بالتكرار . ولذلك قالوا : من شبّ على شيء شاب عليه . العـادة تكوّن الرجل تكويناً يقتضيه الزمان والمكان ، ومدارسنا جميعها عاجزة عنه لأن لكل مدرسة منها نزعة وغرضاً .

فلا رجاء لنا ولا أمل إلا بالجندية الواجب فرضها على كل مواطن ، ليخلق فينا بالتكرار والعـادة ما يسميه علماء الأخلاق ، بالوازع الباطني . إن الوازع الباطني مفقود عندنا ، ولا أثر له في أكثر شخصياتنا المنحلة.كلنا يرجو الثواب، كلنا يأبى الدنية — إن أباها — لا لأنها دنية بل لمآرب اخرى . فالمأمور لا يتم عمله إلا خوفاً من أن يتقلقل تحته كرسيه او خوفاً من الفضيحة ، أما إباء العار لأنه عار فلا بد له من وازع باطني نام في الصدور .

(نظام عسكري) كلمة كثيراً ما سمعتها من اخواني القرويين . إذا وصفوا رجلاً دقيقاً مثابراً على عمله ، لا يتوانى ولا يتكاسل ، ولا يتأخر ولا يبطىء ، أثنوا على عمله وهمّته قائلين : نظام عسكري .

أجل ، إن المدرب العسكري هو المربي الأكبر لا نحن . والثكنة العسكرية هي مدرسة الوطن . عند عتبتها ينسى الطالب ملّته ، وتحت سقفها يصافح ابن بلده غير ناظر الى ملّته ودينه .

لا وطن بلا حدود ، وحدود الوطن وتخومه الصحيحة تخم جنوده .

وهنـــا يطيب لي أن اوجّه الى الجندي اللبناني الذي له في نفسي أسمى الاحترام :

ان يدك الكلة يا أخي الجندي ، لنقية شريفة طاهرة فلا تمدها الى مواطنيك إلا مضطراً .

ان ثوبك الخشن لأرخم من البرفير والارجوان ، فاحفظه من الوسخ والتلطيخ . لست أعني لطخات الزيت والدهن ، بل الذي لا يمحوه الغسل ، فافهم عني . .

ان سيفك مغمد الى حين ، فلا تدعه يصدأ .

ان بندقيتك مجن الوطن ، فتفقدها كل يوم .

ان الجندي محترم ونبيل ومسؤول ، فليرعَ احترامك صدق طويتك وصُنْ نبلك بجمال خلقك ، وعزّز المسؤولية بالحق والعدل .

إحفظ القانون يحفظك ويحفظنا .

كن شجاعاً ، فالشجاعة اسّ الفضائل – حتى عند الرهبان – فكيف بها عند الجندي .

لا تظن عملك يدوياً وسيرك آلياً . أنت مسؤول عن علمين : علم عام ، وعلم عسكري . فازدد منهما ما استطعت كل يوم ، بل كل ساعة .

لا ترج المهابة عن يد التهويل والتنكيل والعدوان ، فالوعورة والخشونة تذهب الهيبة والوقار .

ان يد القانون طويلة فلا تقصرها بعدها . ان خير شعار لك يا أخي الجندي، كلمة زميلك زياد بن أبيه : شدة في غير عنف ، ولين في غير ضعف .

اعرف القانون وطبقه ، تعرف قدرك وتحفظ هيبتك .

كنيسة العلم والثقافة

إلى أولادنا بالعلم والتربية سلام .

أيها الأبناء الأعزاء .

سوف يدهشكم هذا العنوان الغريب « كنيسة العلم والثقافة » ويشدهكم أسلوبي (الرعائي) فكأني أصدر منشوراً إلى أبنائي بالرب . نعم أيها الأخوة : إن كنيستنا ، كنيسة الثقافة والعلم ، محتاجة إلى رعاة ومرسلين ومبشرين ،فالأخوة المؤمنون كثيرون وهم أنتم أيها الأحباء . فمن على قمم المنابر الحقيرة المنصوبة في زوايا الغرف الصغيرة طارت رسالتنا في الآفاق البعيدة ، فإذا أصدرنا لكم منشوراً فهذا من حقوقنا ، وإن كنا رعية بلا راع . لا تخافوا فليس أمرنا إلا رغبة ، وما نهينا غير استحسان وحض، وقصارى الحديث ان نيرنا طيب وحملنا خفيف . أما أنا فأطمئنكم إلى شبابي الذي أراه يتجدد كل ساعة ، وإني لأشعر كأنني أولد كل يوم فأنسى ما ورائي وأنبسط إلى ما قدامي كما قال بولس الرسول.

يؤلمني أيها الاخوان أن تكون خراف الثقافة مشتتة أسراباً وقطعاناً ، وأن تكون الموارد والمراعي بلا نواطير ، وأن :

(يهدم) بعضنا بعضاً ويمشي   أواخرنا على هـــام الأوالي

يقولون لنا نحن المعلمين ، متى شاؤوا نفشنا ونفخنا : أنتم مربو رجال الغد ،

ومكونو الأمة ، يرددون على مسامعنا قول أخينا بسمرك : غلبنا فرنسا بمعلم المدرسة .

هـــذا فخر جزيل لنا ، وبه نرضى وإن جرح اتضاعنا العميق ، فنحن الأساتذة متواضعون جداً . فحسبنا فخراً برفع رؤوسنا انكم أنتم رعيتنا ، ومن كنتم رعيته كان المستقبل له ، وإن قال أخونا هيغو : المستقبل لله . وحسبنا تعزية في ضيقتنا انكم ميراثنا الخالد ، كما قال داود النبي : وأعطيك الأمم ميراثك ..

اننا راضون ، ولنا إذن ملء السلطة بمخاطبتكم هكذا لأن رسالتنا إنسانية بحت ، ورعيتنا النسل البشري كله ، على اختلاف الملل والنحل ، وإن لم يكن لنا لباس معلوم كرجال الرسالات الدينية ولا أوقاف عندنا ... ألم يكن المعلم يسوع بلا مكان يسند اليه رأسه ؟ هكذا نحن ولا ينقصنا إلا الصلب ويا ليتنا أهل له . وبعد ، فلماذا الشكوى ! أليس كل ناد هو نادينا ، وكل مجتمع يحمل مصباحنا ؟ فالحمد للروح القوية التي هي فينا فتدفعنا في سبيل الواجب المقدس .

أيها الأبناء ، انكم ترون فينا أشكالاً وألواناً ، وهذه سنة الطبيعة ، أما منبع هذه الفوضى ، فإهمالنا (التأصيل) . فالبصل يؤصل ، أليس كذلك ؟ ولكن الثقافة والعلم كالدين لا يعدمون أفاضل يخدمونهم ، نزهاء مخلصين يرضون بالكساء والرغيف . فإن كان يابساً بلوه ، وان اتسخ نظفوه ، وكفاهم الذكر الخالد ...

أيها الأعزاء .

لا تنسوا انكم ورثة مدنيتين ، أحدهما اندثرت وذهب ذكرها مع الدوي ، والأخرى احتضرت زمناً ، ولكنها لبطت عزرائيل وقعدت في فراشها ،والحمد لباريها . فهلا تمدون اليها يدكم فتقف وتمشي ؟ لا تنسوا أنكم أحفاد أول من ركبوا البحر وأخضعوه لمجاذفهم وغرسوا على شواطئه فسائل المدنية فأورقت وأزهرت وأثمرت ثم سلموا رسنه إلى الإنسانية .

لا تتفرقوا حول كلمتين : فينيقية وعروبة ، فهما واحدة . ومن يتقعر في البحث عن الجذور فهو كالخلد لا يعيش إلا في الأنفاق .

اللسان يوحدكم فاحفظوا ذكر انبيائكم ورسلكم في قلوبكم ، وهم لو عادوا اليوم لما قالوا لكم غير هذا ، لا بل قالوه يوم جاؤوا . كل المعابد تعلّم الخير وتنهي عن الشر ، أما البلوى فمن أكثر رعيان القطيع ، متى تقاتلت الغنم على المراعي ؟ أليس الرعاة يتقاتلون ؟ فاسمعوا وعوا كما قال ابن ساعدة .

يا أولادي ، الناس يتقاتلون اليوم على (المنفعة) فلا دين لهم ولا مذهب . فلا تتصارعوا أنتم عند باب السماء ، السماء مشاع . كانوا فيما مضى يستعمرون باسم الدين ، أما اليوم فيحاربون الشعوب ليمدنوها ، كما يزعمون .

أجل ، لقد صار التمدن دكتوراً في الأدب يلقي دروسه غازات خانقة ، والعلم من حملة الليسانس في الحقوق يلقي بألسنة المدافع مرافعات طويلة.. لم يعد للمذاهب تلك الصولة كأيام الصليبيين ، فانسوا ذلك . إن الدول التي تتناحر ، كلها على دين المسيح ، وأحبار وكهنة المسيح يحاربون في المعسكرين ، فمن يتمظ منكم .

ما لكم وللأديان فلها معابد . لكم دينكم ولي ديني ، ومتى رأيتني ملتهباً في جهنم – لا سمح الله – فلا تستغث بالأطفائية .

الحياة لعبات يا أولادي ، ولكنها خطيرة ولذيذة ، فنظموا صفوفكم جيداً لتلعبوا وتفوزوا . تعلموا الرمي وإلا كنتم الكرة . وسيان أن تدفع بالرأس او ترفس بالأقدام فأخيراً مستقرها الارض .. أفهمتم ؟

ليس العلم وحده بالعدة الواقية في معترك الحياة ، فكم من معلم مغفل تهزأون منه وتتاجنون عليه ولا يحس بل يضحك معكم على نفسه ، ان هذا يجني عسلاً ولكنه يضل كالنحلة فلا تحولوا فم الخلية .. أما الفتى الذكي الفؤاد فقد يكون القائد لأمة لا قائد لها، وما رأيت أمة نهضت إلا بفرد. لست أعني (الدكتاتور)، فأنا أمقت المستبد ولو دفق الخير على الامة دفقاً .

وأنا ، وقد تستغربون ، لست ممن يثقون بالرأي العام ، ففكروا ولا تسيروا خلفنا لعل الله يفتح عليكم ، كونوا شجعاناً واشغلوا عقولكم بالتأمل وأعينكم بالمراقبة ، فكروا بمحيطكم ، ولكن بمقـــدار ، وقوّوا أجسادكم وعقولكم فالوطن بحاجة الى أدمغتكم وسواعدكم .

اطلبوا التجديد دائماً ، ولا تتغنوا بالماضي فيلهيكم عن الحاضر . تذكروه للعظة ، لتعلموا أين كنتم وأين صرتم ، فلا يكون أجدادكم خيراً منكم فيقال لكم نعم الجدود ولكن .. ان المدارس تسلح العقول وتجهزها لمعترك الحيـاة ، فاحسبوا كل يوم كم رمية تعلمتم . لا تناموا قبل ان تفحصوا ضمائركم . ومن رأى أنه غير كفء للكتاب فليأخذ الفأس ... ليذهب الى الحقل ، فكتاب الحقل ارحب من هوامش المدن ، تعودوا النقض والابرام وحدكم ، ما لكم ولنا ، فما نحن اوصياء عليكم إن نحن إلا مرشدون لكم ،، نصارحكم بهذا لأننا لا نريد ان نربي عبيداً ، فمن نستعبده نحن عاش عبداً لغيرنا .

حذار ان تبصقوا في وجه الهواء..واحسنوا السباحة لئلا تأخذكم (الحامولة) ،فنهر الحياة هادىء ماكر .

ايها الأبناء :

في الكنيسة المسيحية اربع فضائل يسمونها (اصلية) اوصيكم بثلاثة منها وهي : الفطنة ، والعدل ، والشجاعة . أما الرابعة ، وهي القناعة ، فلا اوصيكم بها . فإياكم والقناعة ، فلا قناعة في الثقافة .

وفي الكنيسة ايضاً سبع خطايا رئيسية قبالتها سبع فضائل ادبية :

١ – الكبرياء : ويقابلها التواضع ، فأنا اوصيكم بالاثنتين معاً . تواضعوا لمن يحسب تواضعكم ادباً وكياسة ، وتكبروا على من يخاله ذلاً وجبناً .

٢ – البخل : ويقابله التجرد عن حب المال . وهذه ننسخها فتعمل عمل كان واخواتها صار . أأشرح لكم كيف ؟ أعني كان بخلا فصار اقتصاداً ، فماذا نفعنا كرمنا وسخاؤنا ، غير ضحك الناس على ذقوننا .

٣ – الدعارة : وتقابلهـــا العفة . فاحذروا الدعارة الف مرة . الشباك والفخاخ منصوبة في طرقكم فاجتنبوها تعيشوا أباة ، فالأدعر قليل الهيبة لا مروءة له يقبل حتى النعال ، ولا ترتفع عينه الى فوق .

٤ – الحسد : وهذه نسميها المنافسة او الغيرة ، ونعمل عمل اللاهوتيين حين يتفلسفون على ربهم – في زعمهم – ليبرروا عبيده ، مأجورين ...

٥ – الشراهة : ولا اخاف عليكم منها ، لقد أتيتم في أسوإ الأزمنة فأعنى لكم الشبع .

٦ – الغضب : ويقابلها الحلم . فاحلموا متى قدرتم ، واغضبوا لكرامتكم وإياكم أن تحولوا خدكم الأيسر لأحد فتشبعوا ضرباً ولطماً .

٧ – الكسل : تأملوا النحل والنمل وتعلموا منها ، اهتموا للغد . فالغد ، لا يهتم لشأنه . وليس قصد المعلم يسوع الشاب ان تناموا على ظهوركم فيأتيكم رزقكم في انابيب . لا وألف لا ، اني اسأل المفسرين الأتقياء ان يتكلوا عليه ليلة واحدة ويوزعوا مؤونتهم على الفقراء . أما احـذ المعلم الوزنة الواحدة من العبد البطال الكسلان وأعطاها صاحب الوزنات الخمس لأنـه تاجر وربح . ألم يخرج ذلك العبد البطال الى الظلمة البرانية حيث البكاء وصريف الأسنان .

أيها الأبناء :

انكم لقائلون : حدثنا هذا المعلم عما نعلم ونعمل ، ولم يحدثنا عن مهمته .

يا اولادي، اوصيكم، بل اوصي النابهين منكم بالآداب خيراً، انها عصارة كرم الامة ، استنبطوا فيها وأبدعوا لتخلقوا مثلا عليا ، وان لم تطعمكم خبزاً فليس بالخبز وحده يحيا الانسان .

بركة الثقافة تشملكم جميعاً .

صدر عن كرسينا في عين كفاع

فتش عن ذاتك

الطبيعة أم تقاسي مشقات كثيرة حتى تكوّن أبناءها وهي تأبى ان يتوجه، من تعبت حتى أنتجته، في غير الطريق التي خلقته لها . فإذا رأيت رفيقاً لا يسير على الدرب الذي خطها له ذووه فاعلم ان فيه منبّها داخلياً يهتف بـه : ليست هذي طريقك . دربك من هنا .

ان صاحب الموهبة لا يستقر إلا في مكانه . قد لا يهتدي منذ اول خطوة ولكن الطبيعة تعمل دائماً حتى توجّه ابنها . تقاوم أبويه ومعلميه وكل من يعنيهم امره حتى تضعه في صحنه ويعمل عمله .

فالموظف عندنا يريد ان يكون ابنه مثله ويرث عرشه . والكاهن يريد ان يكون في بيته من يرث جبّته وقاووقه . والمحامي يتمنى لو يخرج ابنه من البطن لابساً الروب ويكلم الناس في المهد صبياً .

لاحظوا العائلات تجدوا أن أسماء المهن تخوض بيوتنا خوضاً . قد يكون ذاك الحداد أو النجار أو النحاس أو الصائغ أو الشدياق عبقرياً في عمله ، حتى نسبت عائلته اليه وحملت اسمه قروناً بينما أحفاده لم يخلقوا لمهنته .

إن هذا التقليد يجعل الناس عاديين يعيشون من قلة الموت . لا يبتدعون ولا يخلقون ، يسيرون على الطريق المعبّدة كحصان العربة . فكم من رجل خلق

ليكون من رجال الشريعة تراه يفلح وينكش ويقطع الحطب، ويحل محله من كان يجب أن يكون هناك . وكم من فتاة خلقت لتكون خادمة تجلس على كرسي التعلم . وكم من فتى ُخلق ليكون معلماً تراه في مخزن يكيل الحبوب أو يذرع الخام والمقصور. وكم من فتيان يعملون بأيديهم في المصانع كان أولى لهم أن يتعلموا الرياضيات والعلوم ويحلوا محلّ الذين في الكليات والجامعات . وكم من سياسيين قعدوا في غير مقاعدهم بينا نرى الجدير بحلهم يعمل في مخزن ما . وكم من رجل خلق ليكون أمهر جرّاح نراه جزاراً في يده الساطور. وكم من جرّاح هو جزار يقطع أعضاء بشرية .

كل هـذا لأن الناس لا يحسنون توجيه بنيهم ، أو لأن الأولاد خاملون لا يتطاولون إلى الأسمى . المواهب كالبراعم منها ما يتفتق باكراً ، ومنها ما يبقى كامناً إلى حين ، ينتظر الساعة التي يهبّ فيها الهواء السخن . فعلينا أن نصبر ولا نيأس . علينا أن نسير في الطريق التي تنفتح أمامنا وإذا اصطدمنا بعقبة علينـــا أن نذللها بالصبر والعمل المتواصل ، فإننا لا بد أخيراً واصلون . إن المقاومة الطائشة لا تجدي ، وفي كل مخلوق ميزان يستطيع أن يزن به قدرته . إذا كانت الحيوانات لا تقدم على ما لا تستطيع ، فهل نكون نحن دونها تمييزاً ؟ هذا هو سبب الاخفاق في الأعمال ، والسر كله هو في أن ننتقي ما يلائم غرائزنا وأن لا نعتزّ بأنفسنا فنماشي التيار الذي فينا . إن الحوت الذي يجري في الغمار لا يخطو خطوة على الرمال ، والقطار إذا حاد عن خطه فقد قوته وسرعته . فربّ نابغة يعجز عن القيـــام بأبسط الأعمال ولكنه يستطيع أن يتفوّق في العظائم .

فكراموبل بقي في مزرعته يعالج الخس والفجل والثمار حتى شارف الأربعين وأخيراً انفتحت أمامه الطريق التي وجد ليقطعها .

وفولتير حاول أن يعدّ نفسه ليكون من رجـــال الحق والقانون ففشل هناك ، وانصرف إلى الفلسفة والأدب فكان الأديب الفيلسوف الخالد .

وموليير المسرحي الفرنسي العظيم لم تجد عبقريته مرعى لها في المحاماة فانصرف إلى الأدب وكان الرجل الذي أضحك زمانه في كل وقت ولم يضحك هو مرة .

وكانت الفنون الجميلة عنوان الفقر ، ولا تعدّ إلا ألهية من لا عمل لهم ، وكثيراً ما خاطب والد ميكال انج ، ابنه بلسان القضيب ليحول دونه ودون حيطان البيت التي يرسم عليها شخوصه . ولكن الميل والعبقرية انتصرا أخيراً، وكان الخلود حظ هذا الولد الذي شقي صبياً حتى انتصر .

واذا اختار أحدنا ما لا يلائمه ، فإن الطبيعة لا يهدأ لها بال حتى تضعه في مركزه الخاص به . فما علينا إلا أن نسير ولا نقف لأننا واصلون لا محالة . علينا إذا كنا في غير مستقرنا أن نعمل بأمانة واخلاص لنبلغ أخيراً المحطة المعدة لنا . فلنعمل الواجب بأمانة وإخلاص وعملنا هذا يؤدي بنا إلى ما نرجو ، أو إلى ما أعدته لنا الطبيعة منذ البدء . إن العبقرية كالماء الجاري تحت الارض ، ينتظر الساعة التي يشق فيها طريقه إلى النور ، فيروي ويُنمي ويخلق أثماراً وأزهاراً

أمـا وقد ذكرنا نفراً من نوابغ غيرنا فأين نحن من نوابغنا . فهذا أمين الريحاني أراده أبوه معاوناً له في المتجر ، وأراد هو أن يتعلم الحقوق والتمثيل ، فالتحق بجوقة وأخفق ، وأخيراً سار في طريقه ، وكان الاديب اللبناني الذي احتل مقاماً عالياً بين ادباء الارض .

وجبران هاجر كسواه ثم عاد الى الشرق ليكون اديباً فأفلح ، وكان الامام المتبوع .

والجاحظ احب ان يكون إماماً ، صاحب طريقة ، ولكن الطبيعة سدت الطريق لتوجهه الى الادب ، فكان اديب العرب الاول .

والمتنبي شقيَ في طلب السعادة فأخفق وأسلس لطبعه قياده ، فكان الشاعر الخالد .

وفي سيرة احمـــد فارس الشدياق عبرة العبر ، فمن فتىّ ينسخ الكتب الى معاون للمير حيدر يدوّن له تاريخه ، الى عطار يكاري على حمـار يطوف القرى ليبيع بضاعته من هـذا وذاك ، الى صاحب خان على طريق صيدا ، الى فارّ الى مصر حيث حرّر الوقائع المصرية ، الى مهاجر الى مالطة ولندن وباريس ليترجم التوراة ، ويكتب الفارياق ، الى راحل الى تونس ليتولى ادارة المعارف فيها ، الى نازل في الاستانة حيث استقرّ وصار نجيّ السلطنة ولسان حالها في الجوائب .

هكذا تسيرنا الحياة حتى نؤدي الخدمة التي انتدبتنا لها ، فما علينا ان نيأس اذا لم نكن ، من اول رحلة ، من الفائزين .

عندما عُيّن فرنكو باشا متصرفاً للبنان زار المدرسة الداودية في عبيه التي أسسها سلفه داود باشا ولا تزال تحمل اسمه . وشاء فرنكو ان يخطب في التلاميذ فما وجد موضوعاً افيد لهم من مجمل سيرة حياته . قصّ عليهم كيف ذهب من حلب الى اسطمبول فتىّ لا عتاد له ، واستخدم عند تاجر يوجهه الى هنا وهناك في قضاء حاجاته ، حتى اذا ما قضاها عاد الى مساعدة خالد ، رفيقه في الخدمة ، تارة ينظفان الواجهات وحيناً ينظمان البضائع ويكنسان المحل .

وشاء فرنكو ان يتعلم مبادىء القراءة والكتابة فكان يذهب الى مدرسة ليلية . وبعد حين خرج كاتب من المحل فطلب صاحب المحل من فرنكو ان يحمل رسالة الى واحـــد يدعوه التاجر ليكون كاتباً عنده فقال فرنكو لمعلمه : أنا يا معلمي اكون محله .

– انت يا فرنكو ، وأين تعلمت ؟ من الكناسة الى مسك الدفاتر . هـــذا كثير يا فرنكو !

فقال فرنكو : جربني يا سيدي .

فجربه ونجح ، وكان كاتباً فاهماً غيوراً .

اما خالد ، زميل فرنكو في الكناسة ، فظل حيث هو . ومات مدير المحل فجأة فقدّم فرنكو نفسه وحلّ محله بنجاح .

وظل فرنكو يتعلم ، وترقى حتى صار سكرتيراً في وزارة الخارجية ولما انتهت مدة داود باشا متصرف لبنان الاول أجمعت الدولة والدول السبع على تعيين فرنكو باشا متصرفاً للبنان .

وصرت باشا . هكذا قال فرنكو لتلاميذ المدرسة الداودية في عبيه ، وذهبت لأزور معلمي الاول وأقترض منه ٥٠٠ ليرة عثمانية انفقها على إعداد طقم الوزارة وسيفها وسفري الى لبنان ، فاستقبلني معلمي بالاحترام والمحبة . وجاء رفيقي في الكناسة يُظهر لي أشواقه وهو لا يعلم عن مصيري شيئاً .

وأعطاني الخواجه المبلغ المطلوب فتهيأت للسفر بعد ان قطعت الثياب الرسمية اللازمة ، وفي موعد الذهاب مررت في عربتي على محل معلمي وأنا لابس طقم الوزارة ومعي الياور ، فما أبصرني خالد حتى هجم عليّ بالمكنسة صائحاً : ولاه، يا فرنكو عامل كراكوز في البلد . ولو لم يتدخل معلمي كان كسر رأسي ومزّق طقمي المقصب .

وختم فرنكو قصته هذه بقوله : هذا هو العلم يا أولادي ، ومن يدرينا انه ليس بينكم من هو مثل فرنكو. لا احد يعلم ما يصير، وما علينا إلا ان نعمل، فتعلموا لتعملوا .

يتحير الواحد منا في سيرورة هذا الكون ، اذ يرى الناهضين من الحضيض، ولكن ليس هناك ما يحير ، فمن يسعَ ليجد ذاته ينجح متى وجدها ، وهنا سر الفلاح كله . فلنفتش عنها .

الأدبُ الحق

لا يعني الاديب محترف الانشاء . فالعرب حين قالوا: ادركته حرفة الادب، لم يفهموا الحرفة بالمعنى السوقي . يقصدون بأدركته حرفة الادب ، أن الاديب هو العاجز عن النضال في حرب المعاش . انحصر فكره في بؤرة واحدة فأصبح من ادبه كذوي الفكرة الثابتة ، ولهـذا يقول شكسبير : حبر الكاتب كدم الشهيد .

يناضل الاديب ولكن في غير سبيل الرغيف . ولا بد لكل قضية كبرى ، مهما سمت وتنزهت ، من ادباء يناصرونها لتتوطد دعائمها . أما رأوا أن محمداً رسول الله كان يدعو لشاعر الرسالة حسان بن ثابت بقوله : اللهم أيده بروح القدس . ثم يقول له : شن الغارة على عبد مناف ، فوالله ، لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في حلك الظلام .

وإذا فتشنا عن العنصر الأدبي في جميع مـا أسعد الإنسان من تعاليم رأينا سحر البيان ، وهو أقوى عناصر الأدب ، من دعائم الرسالات الكبرى . ان الله ، تقـدس اسمه ، لم يكلف برسالته في كل دور إلا أفصح خلقه . فالسيف والمدفع لا يؤديان رسالة السلام والاطمئنان. فما لهذه الرسالة غير الأديب يحملها على أجنحة خياله ، ويطير بالنفوس معها . فهل أراني مخطئاً إذا حددت الإنسان

تحديداً جديداً وقلت : الإنسان فصيح فنان . فالإنسان لا يقاد طائعاً راضياً إلا بسحر البيان والفن .

وحب الوطن من يعلمه غير الأديب ؟ تنقشه أقلام الأدباء في الصدور كما يدق الوشم في اليد ، فلا يمحي إلا باندثار الجسد . انه يستحيل نفوساً تسيل على حد السيوف ، وقوى غريبة عجيبة تقاوم الدبابات ولا تخشى قنابل الطائرات . ان حب الوطن الذي يصور جماله الأديب يمسي حقيقة ثابتة في ذهن كل مواطن ، حتى يستحيل هذا المواطن جندياً مدرباً في ثكنة الأديب يلبس درعه وسيفه ، وما هما غير الايمان ببقعة من الأرض خلع عليها قلم الأديب رائع السحر والجمال.

فالوطنية من عمل الأديب ، يغرسها كالنخلة ليجني رطبها وثمرها غيره . زرعوا وأكلنا ، وتزرع ويأكلون . هذا هو نهج الأديب . يعلم انه لا يجني ثمرة ما يزرع ، ولكنه يزرع ولا يبالي بشقائه لأنه خلق الانشاء والإبداع ، ومن يستطيع أن يمحو ما خط في لوح القدر ؟

إن مخيلة الاديب في حلم دائم ، والعالم يعبر تلك الاحلام ويحققها . فمخيلة الاديب تحبل وتلد ، ورجال العلم يلتقطون المولود . يحلم الاديب الملهم بتجميل الحياة واسعاد الناس ، والجبابرة يصيرون تلك الاحلام يقظة قاسية .

إذا حاق الظلم بالانسانية ، فالاديب أول من يتألم . يرفع صوته تحت بريق السيوف ، لا يكتم كلمة ولو أعطي بها ملء الارض ذهباً ، فهو لا يبتغي إلا العدالة ، ويؤثر الموت على الخزي والعار .

وصف كنفوشيوس الاديب منذ أربعة وعشرين قرناً فقال :

الاديب يكرم نفسه ويحترم الناس ، يخاف الموت وينتظره ، يغذي نفسه ليعيش ويعمل ، ليس الذهب بكنز الاديب ، بل الصدق والامانة هما كنزه . فهو لا يبتغي من الدنيا الا العدالة . لا يطلب الغنى المفرط ، وفي الاخلاق السامية سعادته . لا يأسف على الماضي ولا يتأهب للمستقبل . يصادقك الاديب طائعاً مختاراً ، لا مكرهاً ، ويؤثر الموت على الخزي والعار .

الامانة درع الاديب ، فعلى رأسه يحمل الانسانية ويمشي ، والعدالة تتكيء على صدره في البيت،ومهما طغى الاضطهاد فهيهات أن يزحزح عقيدته الراسخة.

يعيش الاديب بين معاصريه ويفكر بالمتقدمين . يساير عصره ويعمل بما يوحي به اليه الغد ، وعلى الاجيال الآتية أن تقتدي به .

ليغضب معاصروه ، ليحتقره من هم دونه ، ليتألب النامون والمالقون ففي مقدورهم أن يهلكوه ، أما ارادته فلا تلين ولا تنهزم أمام المخاطر والاضطهاد ، وفي ضيقته وبلواه يتذكر أبداً شقاء الشعب .

الاديب يسعى وراء المعرفة بلا ملل ولا راحة ، يعمل لذلك أبداً تحت سقف بيته .

يعز الخيرين ويتحمل الاشرار ، يساعد الغرباء والاعداء ولا يقدر الا الجدارة والاعمال ، وهدفه الاسمى خير أمته وبلاده .

لا يفتش عن الثروة والمكانة . يزرع الاديب معرفته بين أصدقائه ليفيدهم وينير أذهانهم ، ينشر من طوتهم حجب النسيان ويذيع فضلهم .

الاديب يطهر جسده ويهذب فضيلته وينقيها ، وينصح أولياء الامر ويصلحهم بهدوء .

في السلم لا يزدري ولا يحتقر ، وفي زمن الاضطراب لا يشرى ولا يباع .

في عزلته يثقف نفسه ويهذبها ، وينمي شفقته .

يقسو على نفسه ليخفف من غطرستها ويهذب اتصالها بالناس.يحب الأساليب الحسنة ويبتهج بالذين يسيرون على نهجه .

سلوكه قائم على اسس الفضيلة ، ودعامته الانصاف . يتقرب من زملائه ويبتعد عن سواهم .

الدماثة والصلاح هما جذع الانساني .

احترام الناس واللطف هما تربة الانساني .
الكرم والاحسان هما آثار الانساني .
التواضع والادب هما وسائل الانساني .
اللباقة والحفاوة هما وجه الانساني .
الكلام والحديث هما زينة الانساني .
الغناء والموسيقى هما تآخي الالحان عند الانساني .
التقسيم والتوزيع هما تصرف الانساني .
والاديب يجمع هذه المواهب كلها ، فهو اذن الانسانية كاملة .
في الفقر والضعة لا يسقط الاديب كالحصاد .
وفي الغنى والوجاهة لا يتنفش فرحاً وكبرياء .
لا السن ولا المكانة يستطيعان قلقلته ، ولذلك يسمونه الاديب المثقف .

أما الذين يسميهم الجمهور اليوم بالمثقفين والادباء فليسوا كذلك ، ولذلك صارت الثقافة وصمة .

انتهى كلام كنفوشيوس .

ومع احترامي لآراء المعلم الصيني الأكبر ، ارى أن الشقاء عنصر مقوم للأديب اذ لا بد للأديب من العبور في معصرة الألم ، لتبقى خمرته على الدهور والاجيال . ولهذا ارى بالاستقراء ان الاديب اذا لم يجـد شقاء شقي بعقله كالمتنبي مثلا .

قرأت مسرحية طريفة تدل على طمع الامم بالادباء فأحببت ان ألخصها ختاماً كلمتي بها :

كان في احدى مدن فرنسا اديب تاعس الجد، تحييه زوجته المهذبة بما تصافح به العقرب متى شرّفتنا بزيارة صيفية ، ويزدريه من عرفوه في المجالس والمجامع فعاش المسكين في حربين داخلية وخارجية . وكانت الحرب العظمى والاولى

فاختفى أثره ، واشتهت بلدته أن تشتهر بأديب تفتخر بـه كثيرها من المدن ، فرأت أن تشيد اثراً فخماً لأديبها هذا، فاضطلع رئيس البلدية بالأمر ورفع الأثر عالياً . ثم كانت حفلة ازاحة الستار عن التمثال فتصدرها الوزير ، وزوجة الشاعر ، وكان السواد يجللها من فوق عينيها الى رجليها .

وفي تلك الساعة الخطيرة من تاريخ المدينة وفد الشاعر بعـد غيبته الطويلة ، على الطائر المنحوس . ولشد ما دهش إذ رأى نفسه استحال تمثالا من رخام ورفع على خازوق المجد .

أظهر نفسه للحفل الكريم فأنكروه جميعاً حتى زوجته المتباكية . وخاف سعادة رئيس البلدية ان تفسد الطبخة ويحرم الحلوان ــ الوسام الذي في جيب الوزير ــ فسار بالشاعر ناحية وقال له جاداً : انت مت يا صاحبي، وقد صرفنا مبالغ طائلة من الفرنكات لتمجيد ذكرك، فليس من الكياسة ان تكذبنا ، ولا من الحكمة ان تخسر هذا المجد. وكان الاديب نبيهاً فتذكر زوجته ورفقها به... فصدق انه مات . ولكنه عاش طويلا يتفيأ ظل تمثاله ، وينظم الشعر في تمجيد صاحب التمثال اديب البلد وشاعره الكبير .

أكثر الله من ادبائنا المنتخبين وأقل من المحترفين الدجالين ...

التدقيق

اذا رأيت الرجل، موظفاً كان او معلماً ، عاملاً او تاجراً ، يأتي متأخراً عن موعده ، فلا تلمه . لا تلم إلا الذين ربوه ناشئاً . لُم البيت لأنه لم يربِّ ، ولُم المدرسة لأنها لم تهذب . فلو علم الأبوان أن ابنهما سيكون يوماً ما حزمة عادات تمشي على الأرض ، لأرضعته امه في مواعيد مضبوطة ، وأنامته في أوقــات معينة ، ولقيدته بنظام صارم صغيراً لترى منه رجلاً دقيقاً في سلوكه مستقيماً في أعماله .

تفتح المدرسة بابهـا الساعة الثامنة ، والولد لا يزال منسلاً تحت لحافه ينعم بالدفء. ويسمع الأب الساعة تدق السابعة والنصف فيرفع عقيرته مؤنباً وموبخاً ، فاذا بالام تنتصر لولدها ، متغضبة على العلم والمدرسة : الصحة قبل كل شيء . ويسمع الصبي ، النائم نومة الهر ، فيطمع . ثم ترتفع الكلفة بينه وبين النظام المدرسي ، فيصبح ولداً غير مكترث ، ويشبُّ على الميوعة والإهمــال ، ويصير آخر من يروح الى المدرسة وأول من يرجع الى البيت . ويشبُّ على هذه الخصلة فيدخل دور الاعمال من بابها الغربي ليخرج من بابها الشرقي ويعود الى امه شاكياً قلة العمل وانسداد باب الرزق .

ما سدّ باب الرزق بوجهه إلا اليدان الأبويتان ، فلو كانتا حازمتين دقيقتين لما انتهى ابنهما الى حيث انتهى من سوء المصير .

من يحمل منا ساعة تقدّم او تؤخر ولا يلعنها عشرين مرة في اليوم ؟ واذا كانت هذه حالنا مع ساعاتنا فكيف تكون حال أرباب الأعمال مع معاونيهم الذين لا يدققون في مواعيدهم .

حكي عن احد رؤساء الولايات انه انتظر كاتبه الخاص دقيقة ، ثم تكرر هذا التأخر فضاق صدر الرئيس فدعا كاتبه ولامه على عدم تدقيقه . فنظر الكاتب الى ساعته وأجاب معتذراً : ساعتي تؤخر .

فأراه الرئيس وجهاً كالقفل وقـــال له : إما أن تغير ساعتك أو انني أغير كاتبي .

قد استغرب الرئيس العظيم تأخر كاتبه دقيقة واحدة واستفظع عمله حتى أنذره بالصرف ، فما قولنا نحن بمن يتأخر ساعة او ساعتين ، والناس في انتظاره وفي أيديهم أوراقهم.حتى اذا سمع وقع خطاه في الرواق دقت القلوب وتنفست الصدور ، وزال الكابوس . ولكنه لا يلج الباب حتى يرده في وجوههم .

ها هو يستريح منتظراً فنجان القهوة ، فالفطور يتناوله على مهل وبتأن ورزانة ووقار عملاً بنصائح الأطباء مجيداً المضغ ، والناس قيام عند بابه يضجون وهو هادىء البـــال بارد القلب .. حتى اذا حانت الساعة الحادية عشرة قلب بعض وريقات على مكتبه ببطء يتخلله مط شفتين وهز رأس ثم يأمر بدخول عبيده الواقفين بالباب ، واحداً واحداً ، فينظر اليهم مرة ، وإلى أوراقه أخرى ، لاعناً الحياة ساخطاً متبرماً سابا .

لا أحد غيره خليق بالسب لأنه أضاع ثلاث ساعات بين تأخير وسوء تدبير . وإذا ضمك وإياه مجلس تشكى اليك أنه لم يقفز في سلم الترقي درجات .

وإذا انتقلت إلى أصحاب المهن رأيت أكثر رجالها يسلكون هذا المسلك . يضرب لك أحدهم موعداً الساعة الرابعة ثم لا يأتي إلا الساعة السادسة ، هـذا إذا صدق وجاء . فكيف تتعاطى فيما بعد مع من يقتلك صبراً في غرفة الإنتظار

قبل أن يقتلك بألاعيبه وأكاذيبه. وشر من هذا وذاك ما يقوله لك المستخدمون عنده ، حين نسألهم عنه : يأتي بعد خمس دقائق ، فتنتظر ساعة أو ساعتين ولا يطل القمر ... انني أؤكد لك ان رب عمل هذه صفاته لا يفلح أبداً . وإن أفلح أولاً فهو مخفق أخيراً . ما رأيت شيئاً يخلق الرجال ويكبرهم في عيني مثل التدقيق في أقوالهم وأفعالهم .

إن نفسك يا أخي ، تركب رأسها إذا لم تحاسبها حساباً دقيقاً . إن ضميرك يموت ويهجرك هجراناً لا لقاء بعده إذا كنت لا تدقق في الاصغاء اليه ، وتجري الحساب بينك وبينه يومياً . الدقة قوام الحياة ومن يثق منا برجل يعرف انه غير دقيق في أقواله وأعماله؟ علينا أن نتعلم الدقة من الطبيعة ، فالتفاحة لا تفرق بين جنينة القصر المنيف وبين أطراف الحقل وظل الكوخ الحقير ،إن عملها واحد في المكانين : صبر ودقة واتقان . والوردة في البرّية تدقق في صنع زهرتها كما لو كانت في بستان ملك الملوك .

والأجرام في نظامنا الشمسي لا تتأخر قط عن مواعيدها ، ولو تأخرت ثانية لاضطرب الكون ، فلماذا لا نتعلم من هؤلاء الأساتذة : التفاحة والوردة والأجرام ، فحفظ النظام مطلوب من الكبير والصغير .

التدقيق أخو الاستقامة ، ولهذا نفضل (ماركات مسجلة) على غيرها ، فنشتري هذه البضاعة مطمئنين مبتهجين . إن أصحابها لم ينالوا ثقتنا بما ينتجون ويصدرون إلا لأنهم ثابروا ويثابرون على الدقة في العمل . يخال البعض ان الاعلانات تجرّ الرواج ، فالربح الطائل . نعم إن الاعلان المشوق المغري ينفع مؤقتاً ، أما الأنفع فهو اتقان الصنعة والتدقيق .فلا يفتخر أحدنا أنه عمل كثيراً بل فليفتخر بالعمل المتقن الدقيق . وليس في العمل عار مهما سفل ، بل العار كل العار في عدم الدقة والاتقان .

قال أحد أعضاء مجلس العموم الانكليزي لعضو آخر اثناء اشتباكهما في

مناقشة : اذكر يوم كنت تمسح حذاء أبي . فأجابه هذا على الفور : هذا صحيح، ولكن ألم أكن أمسحه بدقة ؟

وعيّر أحدهم المسيو فالير عندما كان وزيراً، وقبل أن صار رئيس جمهورية فرنسا ، بأن اسمه مطبوع على النعل ، فأجاب : نعم، ولكنه نعل دقيق الصنعة لا غش فيه .

إن عبقرية بلا تحقيق وعمل متواصل لا تخلق إلا التافه. ليست الالماسة بنت ساعة ولكنهـــا بنت عمل دقيق مستمر . وأروع الآثار الأدبية عمل في سنين تعد بالعشرات .

روي عن مونتسكيو أنه قال لصديق له عن أحد مؤلفاته ، ولعله (روح الشرائع) : انك ستطالع هذا الكتاب في ساعات ولكني أحلف لك أنه كلفني من التعب ما شاب له شعري .

أمـــا أمثلة التدقيق الكثيرة فنجدها في سيرة الجندي المظيم نابليون . كان يدقق في الكبائر والصغائر ويسهر على تنفيذ أوامره سهراً كلياً . عهد مرة إلى أحد جنوده بخفارة مخرم خطير يخشى أن يعبر جيش الأعداء منه ولكنه لم ينم قبل أن استوثق من سهر ذلك الخفير ، فرآه غافياً على كرسيه يشخر وينخر ، فتناول الامبراطور العظيم البندقية وانتصب خفيرا حتى أفاق ذلك الجندي التعب من غفوته ، وهكذا علم جيشه الدقة وإتمام الواجب على حقه .

ان التدقيق واجب في كبار الحاجات وصغارها ، فالأم التي لا تدقق تركب الزر عشر مرات لقميص ابنها ، بينا الام الدقيقة لا يقع الزر الذي تركبه إلا عندما تلفظ القميص روحها . وبين العملين فرق زهيد جداً لو تأملنا وتبصرنا .

ان حياتنا تذهب هدراً ان لم نستعملها بتدقيق ، فالذين أحسنوا استعمال وقتهم ، على اختلاف طبقاتهم ، جاءوا بأعمال ذكرت بالاحترام والتقدير ، فكم من عامل أمين مدقق صار رب عمل، وكم من رب عمل أمسى فقيراً لأنه لم يصن متجره او مصنعه بدقة ، ولكن أكثر الناس لا يعتبرون .

إن سلاحنا ، نحن الشرقيين ، هو : غداً نعمل كذا وكذا ، وبعد غدٍ نعمل كذا وكذا ، وغداً وبعد غد لا يأتيان أبداً . فنظل حيث كنا . ولو كنا ممن يدققون لجعلنا لكل يوم عملاً ، وأفلحنا كثيراً . وهب أننا عملنا ، فأكثر ما نعمل يكون إما ناقصاً وإما فجاً غير ناضج ، وهذا شرٌّ من عدم العمل .

الذهب والالماس أثمن المعادن ، فاذا صنعت منها عقداً غير دقيق الشكل والصنع كان عقد الخرز ، الدقيق النظام ، أجمل منه وأبهى .

قد تقول لي : أراك شخصت المرض وجئت بالأمثلة لتحثنا على التشبه بالكرام ، ولكننا نطلب منك أن تصف لنا دواء نستعمله فنشفى من دائنا .

هاكم يا أحبائي الدواء :

(٥) غرامات من الارادة .

(٥) غرامات من العادة .

و (١٠) غرامات من المثابرة .

و (٣) غرامات من حب عملك الذي تعمله .

امزجها جيداً واشرب كل صباح جرعة ، ولا تنس أن تخضْ القنينة جيداً عند الاستعمال .

يجب ان نريد أولاً ، ثم نعوّد أنفسنا يومياً القيام بواجباتنا ، وان كنا لا نحبها ونميل اليها ، فاذا أردنا وثابرنا ، تعودنا . ومتى تعودنا أن نقوم بأعمالنا بدقة وجدنا أنفسنا أقوياء في الشدائد نستطيع الصبر والمقاومة ، والصبر والمقاومة ضمانة الحياة .

الاخلاق ضمان جماعي

دار بيت شوقي في الأخلاق على كل لسان حتى استفز الشاعر ، رحمه الله ، الى ترديد هذا المعنى في قصائد عديدة من شعره الرائع . حقاً ان الفقير خاصة لا رأس مال له إلا أخلاقه ، فالرجل الفاضل ، كما قال ابن سيراخ في سفر الأمثال ، يتاجر بماله ومال غيره .

وأنا أعرف رجلاً كان عندنا لا يملك شبر أرض وهو أخو عيلة وليس عنده عشا ليلة ، ومع ذلك عاش ميسوراً لائتمان الناس له على الكثير والقليل . عاش عمراً طويلاً ولم يأكل قرش أحد من الناس ، ولم تكن الدنيا تنسد بوجهه ، بينما كان غيره من اصحاب العقارات الواسعة يعيشون في ضيق وضنك متى أصيبت حاصلاتهم بمحل ، أو ألمّت بهم نكبة لأنهم لم يكونوا يعطون رطل طحين ما لم يدفعوا ثمنه نقداً .

وأعرف عن هذا الفقير أيضاً انه كان هو دائماً أحد المزكّيَين . فالشرع العثماني كان يقضي في الدعاوى الحقوقية أن ترسل المحكمة الى قرية الشاهد استعلاماً يسمى (مستورة) تطلب فيه تزكية الشاهد من رجلين لا يطعن في أمانتهما ، حتى اذا لم يزكيا ذاك الشاهد تسقط شهادته . وكانت هذه التزكية سرية لا يعرف بها احد ، وكثيراً ما كان هذا الرجل الفقير الصادق لا يزكي أوجه القرية حتى انه لم يزك ابنه مرة لاعتقاده انه لم يشهد بالحق .

ان الأخلاق الفاضلة هي ملاك حياتنا وعليها ترسخ أساسات المجتمع ، ولهذا شهد الله العظيم لرسوله الكريم في كتابه العزيز بقوله : وإنك لعلى خلق عظيم .

والأخلاق ، كما قال امرسون ، معروفة دائماً . فما كانت السرقات لتجلب الغنى ولا الصفقات لتجلب الفقر . فلماذا لا تكون فاضلاً متين الأخلاق ؟ ولما تعجب لويس الرابع ، وهو سيد مملكة عظمى كفرنسا ، كيف لا يقهر مملكة صغيرة كهولندا ، أجابه وزيره كلوبرت : يا مولاي ، ان عظمة بلد من البلدان لا تقوم بسعة مساحته بل بأخلاق سكانه .

فإذا كان في العالم قوة تجعل النـــاس يشعرون بتأثيرها فإنما هي الأخلاق الفاضلة . قد تكون غير متعلم وغير غني ولا مركز لك يخشاه الناس أو يرجون منه خيراً ، ومع ذلك تتمتع بنفوذ يضمن لك الوقار والاحترام لأنك ذو أخلاق سامية . فالأخلاق قوة ونفوذ، وهي تكسبك الأصدقاء وتوجد لك رأس مال، وتجلب لك الحماية والوقاية وتفتح أمامك طريق المعاش . يجب أن تقف أخلاقنا وراءنا لتعضدنا في كل موقف ، كما قـــال احدهم : في القصيدة ، والصورة ، والقصة ، حتى في الشارع حيث نسير لنكون قدوة لأولادنا وأصحابنا والناس أجمعين .

جاء في بعض الأساطير : ان الملك ميداس طلب من ربه أن يتحول كل شيء يلمسه الى ذهب ، فاستجيبت طلبته ، فاذا بملابسه التي مسها وابنته التي قبلها ، وأزهاره التي داعبها ، والكأس والماء ، والأرض التي داسها قد تحولت كلها الى ذهب . فتضرع أخيرا الى الآلهة أن تسترد ما منحت ، واعلم اذ ذاك ان في الكون أشياء كثيرة هي أثمن من الذهب الذي يستطاع استخراجه من الأرض في كل حين .

ان الأخلاق هي أثمن وأغلى من الجواهر التي في عنقك يا سيدتي. أنت تتحلين بالالماس واني لأؤكد لك أن الأخلاق هي الالماسة التي تخدش كل حجر آخر .

وأنت يا سيدي الغني العزيز ، صاحب الصناديق المصفحة ، المحشوة حشو

الموز والرمان بالذهب والأوراق النقدية والسندات المضمونة ، ثق انها لا توليك ذرة احترام اذا لم تكن متين الأخلاق .

قال فولتير : انني لا أعرف رجالاً عظاماً الا الذين قدموا خدمات عظيمة للجنس البشري ،فالناس يقاسون بأعمالهم لا بما تحتوي عليه صناديقهم من جواهر وكنوز . وهل تعد من تدلك ملامحه البهيمية الشرسة رجلاً مفلحاً لانه جمع ثروته بالاخذ دون العطاء ؟ فكم أجاد الجاحظ حين سمى هؤلاء التماثيل : أصحاب الجمع والمنع . من منا لا يلمح على وجوههم المقطبة آلام الارامل واليتامى ؟وهل من أمات الآخرين واستنزف قواهم ليحيي نفسه ، وهل من هدم بيوت غيره ليبني بيته يعد رجلاً ذا أخلاق ؟ وهل يكون هـذا عصامياً داهية كما يسميه الناس ، وهل يكون رجلاً كريماً يحق له أن يرفع رأسه بين البشر من تظهر على وجهه علامات الفقر بأجلى معانيها كما يظهر الجوع على وجه الذئب ؟

ان العالم يقابل هؤلاء بالازدراء فيقتص من نقائصهم ووهن أخلاقهم . فقلما تسمع كلمتهم وتسمع كلمة رجل ذي أخلاق فاضلة دون أن يلجأ الى فصاحة وبلاغة . فقد يشتبك الناس في شجار ولا تستطيع حراب الشرطة والجند أن تفصل بينهم ، ثم لا يسمعون كلمة رجل فاضل ، حتى يلقوا سلاحهم عند قدميه . فلا تتعجب اذن متى عرفت ان الاخلاق قوة لا تضارعها القوى المادية .

يقول صاحب الاخلاق السامية كلمته فيتبع وتطيعه الناس بينما ترى من لا أخلاق له يطيل الكلام حتى يتعب حنكه ويخدر لسانه ولا يقنعك . يحلف لك ألف يمين فلا تصدق من كلامه حرفاً لانك تعرف أنه غير ذي خلق .

كان ابراهيم لنكلن مهزأة لاعيان أوروبا لانه غير كيس ، وكانت صحفها تصوره صورا مضحكه لتدل على سماجته . أما هو فلم ييأس بل ظل معتصماً بأخـــلاقه السامية فكانت درعه الحصين في محكمة الزمن الذي يدين العظماء بعد حين .

ولما كان محامياً أعاد الى سيدة أوراق دعواها بعد أن درسها ورأى أنها

ليست على حق . أعادها مع المثني الدولار التي كان قبضها منهـا فقالت له : ولكنك قد استحققت هذا المبلغ أجرة تعبك فأجابها : كلا . انك غير مصيبة في هذا ، فأنا لا أقبض أجرة امامي واجباتي .

أرأيت كيف تكون الاخلاق ، ان في حياة الإنسان شيئا أعظم من مهنته وأكبر من الكسب والثراء ، وأسمى وأعلى من العبقرية ، وهو الاخلاق .

قال شكسبير في مسرحيته كليوبطره : انه لشيء ضئيل أن يكون الإنسان امبراطورا ، اذ ما هو الا خادم الحظ والمنفذ لارادته ، وانه لامر عظيم أن يقوم المرء بعمل حاسم في تاريخ أمته . ولكي نقوم بما عناه شكسبير في كلامه يجب أن نكون من الأخلاق في حصن حصين لتنهار عند أقدامنـــا معاقل الباطل والبهتان . ان الزمان هو القاضي القديم الذي يحاكم جميع المذنبين ويفسد جميع الخطط التي لا يكون قوامها الأخلاق الفاضلة

ولو لم يكن الخلفاء الراشدون والرسل والحواريون ذوي أخلاق عظيمة لمـــا ثبت الاسلام والمسيحية . فكل مبدأ جديد يحتاج الى الأخلاق لترسخ دعائمه وتستقر ، فلنمتـّن أخلاقنا لتمتن أخلاق بنينا وأحفادنا ، وبذلك تكون الامة العظمى .

ان الأخلاق هي الضمان الجماعي الأوحد ولا خوف على صاحبها ولا هو يحزن ، فهي درع في الشباب والكهولة ، وإكليل مجـد في الشيخوخة ، وأمامها تصغر عظمة الموت .

الرجل ابن البيت والبيئة

لكل امرىء من دهره ما تعوّد . بهـذه الكلمة البسيطة المركبة استهل شاعرنا الأعظم احدى قصائده الخالدة . خصّ المتنبي العادة بالناس ، أما الشاعر العربي الأسبق النابغة الذبياني فألصقها حتى بالطيور الكواسر ، فقـــال في الغساسنة والطيور المحلقة فوقهم : لهن عليهم عادة قد عرفتها .

ويقول أصحاب علم النفس ، الصغير السن : ليست أخلاق الامم إلا كومة عادات جمعها كرّ الغداة ومر المشي . وبقدر سمو هذه العادات ونبلها يعلو قدر الامم والشعوب التي اكتسبتها . أما اكتساب العـــادات فقوامه مقاومة ميول النفس وقهرها وتطويعها ، ومتى أذعنت تعودت .

تصف للرجل أمراً فيه صلاحه فيهوله الرأي ويشق عليه ويقول: ما تعودت أن أعمل هــذا ، او ما عملت هكذا في عمري ودهري . فتجيبه أنت بتلك السذاجة الناعمة : وما عليك يا اخي لو جربت . حاول ، تعود . وقـد يعمل بنصيحتك مرة فيعتاد ، وتقولان معاً قول المتنبي أيضاً :

كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهل فيها اذا هو كانا

إذن نحن مدينون للعادة بما فينا من صلاح وطلاح .

يقول الأبوان اذا أنكرا من ولدهما عادة او خطة : غــداً المدرسة تربيه . يا ويل المدرسة ما أقصر يدها ! ان العادات الأصيلة هي من بنيّات البيت . لاحظي يا سيدتي بنيّك في مهده ، وراقبيه حين يدب ، وحين يحبو ، وحين يمشي . تأملي جيداً تري أنه يكتسب في كل يوم عـــادة ، فهل تقفين مكتوفة اليدين تنتظرين المدرسة لتقوّم اعوجاج ولدك ؟

ألا تعلمين أن عملك التربوي ابتدأ يوم وضعته . فالعادات تغرس في حقلك الصغير منذ ميلاده ، فاستعدي لمكافحة الحشرات التي أخذت تنتشر في الجذع والفروع . طاردي المكشوفة منها بالمستورة ، وأعدي العدة لاستئصالها لتسلم غرستك الطريئة التي نبتت حديثاً في حقل الانسانية . ان عهد الطفولة هو عهد الزرع والقلع ، أي زرع الفضائل واقتلاع الرذائل . يكبر الطفل عاماً فتكبر العـــادة أعواماً ، ولا يبلغ العاشرة حتى تصبح عاداته من عمر نسر لقمان . ان البيت يؤسس والمدرسة تبني ، فحري بالآباء والأمهات أن يوطدوا ذلك للمدرسة لئلا تبنى على جرف هار .

قد يقول قائل : وما عمل المدرسة إذن ؟ ونحن نجيبه : ان عمل المدرسة هو أن تهذب ، والتهذيب غير التأديب . تحاول المدرسة أن تغرس عادات حسنة ترجح بها كفة الميزان عملاً بقول الشاعر: ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها . هذا هو عمل المدرسة قبل التعليم . ان ما نعلّم قد ينسى . أما العادات التي تصبح ما نسميه أخلاقاً فيما بعد ، فهي العدة التي تسلح بها المدرسة تلاميذها .

ان شيخ معلمي المدرسة هو ذلك الاستاذ الطمطماني ، أي الجرس . فلنعلم تلاميذنا أن يطيعوه أدق طاعة ففي طاعته الغنم وعلى من لا يلبي نداءه الغرم . فاتباع النظام الدقيق نجـاح وفلاح . أما التلميذ الشارد الناد فيستحيل عليك ، مهما طغى جبروتك ، ان تعلمه غصباً عنه . عليك أولاً أن توطد النظام لتسترعي انتباه تلاميذك وتشوقهم ، فإن فعلت تكون قـــد عودتهم خير العادات ، وإذ ذاك تستطيع أن تغرس في عقولهم ما شئت . لا تقل لي هـذه مادة مملة ، فأين

شخصيتك ... إذا كان صفك ميتاً فهـذا يعني أنك انت ميت لا حياة فيك ، أو انك فونوغراف لا أكثر ولا أقل ، وفي إمكان المدرسة أن تستعيض به عنك. فعليك بمـا فيك من موهبة أن تضع تلاميذك في الجو المطلوب ، وأن تطهر ذلك الجو من كل ما يضيق الصدور ، عليك أن تدخل اليه مجاري جديدة وهـذا لا يكون إلا كما قـال ريبو : اجعل الشيء جذاباً بصورة اصطناعية اذا كان غير جذاب بطبيعته، فالانتباه الارادي يكون في أوله اصطناعياً ثم يصبح بالتكرار عادة او طبيعة ثانية .

ان المعلم ، ولنقل المربي ، أشبه شيء بالطبيب ، فكما يصنع الطبيب عندما يضيق الصدر ، ما يسمونه نفساً اصطناعياً ، هكذا يعمل المعلم اذا كان موضوعه مما تنكمش له الصدور وتتقلص الوجوه، فيخلق انتباهاً اصطناعياً. ومتى وجدت طلائع الرغبة وجد الانتباه لأن الانسان كالحيوان لا ينتبه عفواً إلا لمـا يهتم له ويميل اليه ، واذا جردناه من الشعور باللذة والألم عجز عن الانتباه .

نعلم جيداً أن الانسان لا يولد كامل العقل ، وهـذا النقص في الكمال العقلي يتبعه النقص في التدريب او التعويد على العمل المثمر . والتعويد يقتضي دهاء وحنكة وعناء ، وهـذا هو عمل المدرسة . على المدرسة أن تدرّب طلابها وتمرنهم على اتباع خطوات ثابتة في ميادين الأعمال ليصيروا من أبطال الحيـاة الذين يربحون معارك فاصلة في تاريخ حياة الامة . وأول ما يقتضينا من عتـاد لهذه الميادين هو روح النظام ، روح الجلد والمثابرة ، حتى يصبح كل ذلك فينا عادة فنكمل طريقنا بلا تعب ولا عناء .

إن الإرادة القوية الواجب خلقها في ابنائنـا يعوزها تعزيز النظام ، وكلما اقتربت المدارس من النظام العسكري القاسي تخلق رجالاً شديدي المراس . فمن أطاع استطاع ، إن في الطاعة قهراً للنفس وتعويداً على تنظيم الأعمال وإتيان الأمور في مواقيتها . فتخلف طالب دقيقة واحدة عن ميعاده قد يورطه في الغد

فيترك المدرسة نهاراً كاملاً ، وترك اليوم يؤدي إلى غياب أسبوع ، وكثيرا مـا ينتهي ذلك بهجر مقاعد المدرسة إلى الأبد .

إن آباء كثيرين هم شركاء بنيهم في هـــذه الجريمة ، يدفعهم حنوهم الأبوي فيكتبون تلك الوريقات الكاذبة ليحولوا بين بنيهم وبين قانون المدرسة . لا يدري الأب أي جريمة ارتكب حين استهل الكتابة على تلك الورقة : نرجو أن تعذروا ولدنا عن تأخره لأن أسباباً عائلية قضت علينا ذلك.

لقد ارتكب هذا الأب الكريم جريمتين : الاولى وهي هدم ما بنته المدرسة من تعويد ولده على الدقة وضبط الوقت ، والثانية هي تعليم ابنه الكذب بالمثل ، ويا له مثلاً صالحاً يرفعه إلى أسفل . والغريب هو أن يكلف ذاك الاب الصادق نفسه ويسعى الينا ليشكرنا لاننا صدقنا أن هناك أسباباً عائلية حالت دون حضور المحروس إلى المدرسة في الوقت المعين .

واذا رأى الاب شدّة ، فقد يستعين بطبيب البيت فيخربش له ورقة ، وهنا تلبس الكذبة ثوباً رسمياً فلا بد من تأدية التحية لها فضلاً عن قبولها . وكأن أبا الطالب في هـــذا العمل يقول لابنه : تعلم يا صبي . هكذا يجب أن تعمل إذا ضاقت بك الحيل .

فيا ليت شعري كيف تكافح المدارس عادات مثل هؤلاء الفتيان ، كيف تعودهم على الدقة والضبط ، وكيف تقوّي ارادتهم .

وكأني بمثل هذا الاب حين يرمي ولده في أحضان المدرسة يحس أنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً وانتظر أن يعود ابنه اليه كاملاً مكملاً . انه لا يعلم انه يفسد ما تصلحه المدرسة بشحطة قلم . ويا ليت الضرر لا يتعدى ابنه ، فهذا درس يتعلمه ضعفاء الإرادة من الطلاب فيلجأون حين تراودهم التجربة الى مثل ما لجأ اليه رفيقهم .

وهذا الاب الضعيف الرأي ، الخائر الهمة ، لا يستحي أن يسألك بعد حين،

عن محافظة ابنه على النظام . فإذا ذكرته بتلك الرسالة حلف على مسمع ولده بالغالي والرخيص ، وأولها حياتك ، ان ذلك هو الواقع . وهنا ينتقل بابنه من درس الى درس .

فيا أيها الاولياء ساعدوا المدارس تساعدكم على تهذيب أولادكم . ان الحنان الوالدي له حد يجب أن يقف عنده ، فليس الخلاف هنا على قضية درس فات ليعوضه ذكاء المحروس . ان القضية لأهم من ذلك ، فاعلموا ان كنتم لا تعلمون . ان عمل المدرسة عمل تكوين قبل كل شيء ، فإذا لم يتعود ولدكم أن يأتي الامور في أوقاتها لا يأمن شر فواتها.. ان عمل المدرسة غرس عادات لا بد منها للنضال في حرب الحياة ، فساعدوها على تقويم أبنائكم ، وان عجزتم عن المعونة فميلوا ، على الاقل ، من طريق المدرسة ولا تعرقلوا السير .

بلا عنوان

الوقت من ذهب . كلمة تدور على ألسنة الناس، وكثيرون منهم يضحكون حين تقال ، فتراهم يثرثرون ما طابت لهم الثرثرة فيضيعون وقتهم ووقت غيرهم من خلق الله . ان الذهب لا يعادل الوقت ثمناً لأن ضربة حكمة لا تقتضي إلا قليلاً من الوقت ، تساوي أحياناً منجماً من ذهب . ولهذا قـال شاعر عتيق جداً : ان الخسارة التي تقع في دقيقة ما قـد لا يعوضها الدهر الأزلي الأبدي . رب دقيقة أضاعها فاتح خسرته بلاداً جديدة ، وضعضعت جيوشه وخطت له في التاريخ أسطر الخيبة والانكسـار .

قال هوراس مان : بين شروق الشمس وغروبها، تضيع في مكان ما ساعتان من ذهب مرصعتان بستين دقيقة من الالماس، ولم توضع جائزة للبحث عنها لأنها لا ترجعان .

وقال شاعرنا العربي :

اذا مرّ بي يوم ولم أكتسب يداً ولم أستفد علماً ، فما ذاك من عمري

وان العمل الدائم المستمر المنتج هو علامتنا الفارقة في بطاقـة الهوية التي حازتها المخلوقات منذ البدء . فالحيوان لا يعنيه غير القوت حتى اذا ما ملأ بطنه طابت نفسه وقعد يجتر . أما الانسان المجدد، الباحث المكتشف، المعمر والمدمر

في وقت معاً ، فهو الذي يعرف قيمة الوقت ، واذا أضاع يوما من عمره يحسب أنه أضاع كنزاً .

كثيراً ما تزورنا الأيام بصفة أصدقاء متنكرين ، حاملة الينا أسنى الهدايا ، فاذا نحن لم نقبل تلك الهبات تذهب بها سريعاً وهي صامتة ولا تعيدها الينا أبداً .

ما أخال أساطير (الرصَد) التي كانت تقصها علينا جداتنا في أيام حداثتنا إلا رمزاً للوقت الذي يجب أن نحرص عليه حرصنا على الحياة نفسها ، ولأنه يتوارى ومعه كنوزه كما يختفي (الرصد) .

قالت الحكماء : الثروة المفقودة يستطاع استرجاعها بالكد والاقتصاد ، والمعرفة تسترجع بالدرس ، والصحة بالحمية والدواء ، أما الوقت المفقود فلن يسترجع أبداً .

كان الرئيس الثاني للولايات المتحدة جون آدمس يشكو ممن يضايقونه بزياراتهم الطويلة المملة فيسلبون وقته ، وقد تدارك أحد علماء إيطالية أمر هؤلاء الثقلاء فكتب فوق بابه هذه العبارة : يجب على كل من يتأخر عندي أن يساعدني في أعمالي .

أما احمد فارس الشدياق فكتب فعلا في الجوائب منددا بهؤلاء الزائرين الصباحيين الذين يقتلون وقتهم باللف والدوران ، ولا شغل لهم غير التنقل من ناد الى ناد حيث يرتعون في انتقاد الآخرين واغتيابهم .

ان الرجال العظام يملأون أوقات الفراغ بأعمال من لون غير لون أعمالهم اليومية لتقوى قابليتهم للعمل فلا تمر دقيقة بلا انتاج .

قال قيصر : في أهول معامع الحروب كنت حين أجلس في فسطاطي لا أحرم الوقت الكافي للتفكير في امور اخرى عديدة .

ويروى عن أحد الأطباء العظام انه ترجم كتاباً نفيساً أثناء ركوبه جواده

لعيادة مرضاه . فالكثيرون من أعاظم الرجال قـــد أحرزوا مقامهم الرفيع باستفادتهم من أوقات الفراغ القليلة التي يبددها غيرهم من الناس . فحياة رافائيل القصيرة وروائعه الكثيرة الخالدة ، هي خير استاذ يعلمنا فوائد الوقت .

ولا ننس نابليون العظيم . فانـه نموذج العمل الأعظم حتى انـه لم يكن ينام أكثر من أربع ساعات . ولم يكن دانتي مكرساً كل وقته لنظم الشعر كبعض شعراء اليوم بل كان يتاجر ليكسب معاشه نهاراً وينظم الشعر في أوقات فراغه . وهكذا خلق منه الوقت الضائع شاعراً خالداً من أعاظم شعراء المسكونة .

ومع ذلك ترانا نتذمر دائمـــاً وأبداً من ضيق الوقت ، نجلس جلسة واحدة للمسامرة أو المنادمة والثرثرة ساعات متوالية ونقول لجلسائنا بــــلا خجل ولا حياء : الوقت قصير . فاذا كان الوقت قصيراً ونجلس هـــذه الجلسات الطويلة حتى تملنا الكراسي وتضيق بنا ذرعاً صدور الجدران ، فماذا كنا نفعل لو كان الوقت غير قصير !

انها العادة يا اصحابي . العادة هي التي ألقتنا في هذا الجب . فلنغالب أنفسنا لننقذها من هذه النقيصة . لا تترددوا ، ولا تقولوا بعد ساعة ، بعـد ربع ساعة نشرع في عملنا . باشروا حالاً وإلا ضاعت الساعتان الذهبيتان المرصعتان بستين دقيقة من الالماس .

لا تدع التراخي يستولي عليك فتضيع نهارك . ابدأ بعملك فور نهوضك من فراشك ، ومتى استيقظت اطرح اللحاف عنك وانتصب على قدميك . انهض حالاً ، لا تتوان . الله معك .

وأنت يا عزيزي العامل ، وكلنا عمال في هـــذه الحياة ، ان الدقيقة التي لا تستعملها على حقها قد تطيح بك الى حيث لا تدري ، كما أن الدقائق التي تنقض فيها على عملك كجلمود صخر حطه السيل من عل ، قـد تكون رأس مال لك . اعلم أن أولياء الأمر يضعون مستخدميهم دائماً ، في كفة الميزان ، فاذا كنت ممن يحرصون على الدقائق والثواني رجحت كفتك وشال سواك في ميزانهم .

زن نفسك كل يوم قبل أن تشكو من الجور وعدم التقدير والانصاف ، فاذا ارتقى سواك في السلم درجات وبقيت أنت حيث كنت ، فاعلم أنك كسلان متوان تضيع الوقت ، واشكر أولياءك لأنهم لم يعزلوك .

ان الثروة والترقي وراحة البال تنتظر من يضن بالدقائق والثواني ، فكن أيها العزيز ، ذلك الرجل .

البكالوريا بين المعلم والطالب

أسلم ، وحييت ، أبا الملد   مفتاح باب الحدث المنسد

هذا ما قاله بشار بن برد في ممدوحه ، وهـــذا ما يصح أن يقال في شهادة البكالوريا . انها والحق يقال ، مفتاح باب الثقافة والعمل ، وبدونها يظل الطالب واقفاً على العتبة يقرع الباب ولا يسمع الجواب . ومتى كانت كذلك فلماذا لا يلح الطالب على نيلها إلحاح الذبان في اليوم القائظ ؟

كنا في ذلك الزمان نتعلم لنعرف ، أما اليوم فيتعلمون ليأخذوا علماً وخبراً بأنهم تعلموا ... أو ليحملوا لقباً علمياً لا يُدرى على ما يدل ولكن هذه البندقية القاضية لم تعد تخوّف اثنين ، كما يقول المثل . فحرب الحياة قاسية عوان لا يظفر فيها إلا المدجج بالسلاح الحديث . فنصيحتي الأولى للطالب هي أن يتعلم ليأخذ الشهادة بحقها ، فيكون كالجواد الأصيل تؤيد قوائمه الأربع حجته التي في رقبته ، فالميدان أصدق حجة وأكبر برهان .

الامتحان مشتق من المحنة ، فعلى الطالب أن يتهيأ ويعدّ العدة ، لواقعة آخر حزيران ، فهي أحمى من وقعة عمورية التي نضجت فيهـا جلود تسمين ألفاً قبل نضج التين والعنب ... من تأمل الطلاب وآباءهم وأولياءهم ومن يعنيهم أمرهم رآهم في تلك الساعة يملأون فنادق بيروت يفلتون هذا ويمسكون ذاك يسألون

عن الممتحنين ... يقرعون باب الأستاذ مصطفى وينتقلون الى باب الأستاذ بولس حاملين في أيديهم وجيوبهم (أبسطة الرحمة) يستجدون هذا وهذاك العلامات التي يعدونها حجر الزاوية في بناء مستقبل بنيهم ، سلمهم الله للعلم والوطن ...

سمعنا بشحاذة الخبز والمال وغيرهما ، اما أن تشحذ المعرفة فهذا كثير . فالذي عندي هو ألا يتكل المرشح إلا على باعه وذراعه ، فلا يلجأ الى التماس المعونة من أحد لأنهم يكذبون عليه . انه لا يفوز من هؤلاء إلا بكلمة (تكرم) فينام ابنه على صوف، ولا يستيقظ إلا ساعة تعلن النتيجة فإذا بظهره معقور...

أما سبب السقوط والانهيار ، الذي يسمونه الرسوب ، تلطفاً ، فله علل : توسط الآباء في ترقية بنيهم من صف الى صف من دون أهلية ولا استحقاق ، وهذه الجريمة تشترك فيها المدرسة التي تنزل عن قرارها. هذه واحدة ، وواحدة اخرى وهي اصرار الآباء على اتمام دروس طالب لا يصلح للعلوم العالية لأن عقله سميك. فلو تضافر الأهل وأولياء المدرسة لما رأينا الممتحنين يتساقطون كأوراق الخريف بعد عاصفة الامتحان . أليس من الخير أن يعطى الطالب غير الكفء المبلغ الذي ينفقه أبوه على تعليمه ، فيكون له رأس مال ينصرف به إلى الكفاح في ميادين الحياة المختلفة ؟

أليسَ ذلك أجدى للأب والابن والمدرسة ؟ نعم أجدى أيضاً للمدرسة لأنها ترتاح من أمثال هؤلاء الضعفاء الذين يضرون بسواهم . فالتنقية ضرورية جداً بعد الشهادة الابتدائية . فعلى المعلم أن يصدق ادارة المدرسة وعلى المدرسة أن تخلص النصح للآباء ، والرزق على الله ... ولكن هب أننا أقنعنا المدارس فمن يستطيع أن يقنع أباً أن ابنه لم يوهب ما يؤهله لتحصيل العلوم العالية ؟ بل من يجرؤ على التلفظ بهذه الحقيقة أمام أب ولا يصيح : ابني شعلة ذكاء ، ما رأيت في حيـــاتي ودهري ولداً أذكى منه . طوّل بالك يا استاذ ، الولد يسر خاطرك . ويبدأ بالدفاع عن ذلك المحروس وعبقريته ، مؤيداً زعمـه بحكايات ونوادر عن ابنه منذ أبصر النور حتى الساعة ، وكلها بشائر نبوغ وعبقرية ...

والمعلم الذي يزرب في قاعته أربعين خمسين طالباً فماذا تطلب منه أن يعمل بهؤلاء ؟ كيف يستطيع أن يعدهم إعداداً صالحاً لتلك الساعة، ساعة الامتحان ؟

كلما خرجت من المدرسة في تشرين ورأيت كبشاً رازحاً وأمامه امرأة تحشوه حشو الموز، تلقمه النخالة غصباً عنه لتزيد شحمه ولحمه، أتذكر معلم البكالوريا، انه يفعل مثل هذا بتلاميذه، يريد أن يحشوهم معلومات ونظريات وآراء في الشاعر وعصره وبيئته. لا يغفل عن كلمة قالها صاحب الأغاني وغيره إلا دوّنها في دفتره وأملاها على تلاميذه. تلك هي الذخيرة التي يزودهم بهـا لمعمعة حزيران، وما عليهم إلا أن يحفظوها كالماء الجاري ليقابلوا بها الامتحان ويخرجوا من المعركة ظافرين،فما تحين الساعة وتلقى عليهم الأسئلة حتى يستعجلوا الموضوع خابطين به خبط عشواء. يدونون في ورقتهم ما حفظوا عن المتنبي أو البحتري او الجاحظ مثلاً، دون أن يصيبوا الغرض. ويا ليتهم يكتبون كتابة لا لحن فيها ولا خطأ. فقلما يخلو سطر من غلط بل قـل غلطات، فيتعجب المصحح ويقول في نفسه: أيجوز أن يحمل مثل هـذا الطالب شهادة البكالوريا اللبنانية بل قل الشهادة الابتدائية ولا تخف.

فمن أين حصل هذا الضعف الانشائي ؟ سببه أن استاذ الادب العربي، حمى الله عصمته، يعتقد أنـه غير مسؤول عن النحو والصرف، والنحو والصرف ينساهما الطالب اذا لم يذكّر، وهنا تضيع الطاسة كما يقولون. يظن المعلم وتلميذه أن بحث الموضوع هو الأهم، وهـذا ضلال. فلو نظر الممتحن موضوعاً واحداً كتبه تلميذان: طالب أبدع الإبداع كله في بحث الموضوع، ولكن بتعابير شاع فيها الخطأ، وطغت عليها الركاكة. وطالب آخر يكتب كتابة صحيحة التركيب ولكنه دون ذاك عمقاً في البحث، فمن تظنون أنه يقدم، بل من يجب أن يقدم ؟ لا شك في أنه يقدم هـذا الأخير لأنه ينشيء كلاماً صحيحاً فلا خوف عليه في الغـد، أما هذاك فببغاء يردد ما أملاه عليه استاذه حافلاً بالأخطاء الصرفية والنحوية.

ان موضوعنا يدور حول المعلم والطالب ، فإلى المعلم أقول بكل تواضع واحترام : ان التلميذ تنور يحمى ، لا وعاء يملأ ، فعلينا أن نحمي هـــذا التنور ليعطينا أرغفة كالتي وصفها ابن الرومي . وعلى ذكر الوعاء نقول : لا بد من الحفظ لتؤدى الدراسة على حقهـــا ، فعلى التلميذ أن يحفظ ما يشير عليه معلمه بحفظه ، فرب قصيدة يحفظها الطالب من أولها الى آخرها وهو لا يحتاج منها إلا بضعة أبيات متفرقة . فليختر المعلم للطالب مجموعة قليلة من شعر الشاعر تنفعه عند محاولته درسه . فهذه المختارات المنتقاة يجـــد فيها الطالب جميع الألوان والخطوط التي تتألف منها صورة الشاعر او الكاتب .

وخير درس لشعراء وأدباء المنهج هو أن ندخل بيوتهم ونبحث في الزوايا دالين الطلاب على الخبايا، لا أن نخبرهم عنهم خبراً ، فما راءٍ كمن سمعا، كما قيل. فمعرفة بيروت سماعاً ليست كمعرفتها عياناً،ولولا الحاجة الملحة الى المشاهدة لما ذهب القصصي وجاب البلاد التي جعلها مسرحاً لأبطال قصته . وهناك أمر آخر هو علة كل هذا الضعف وهو أن الطالب يظن ان ما يمليه عليه أستاذه هو كل شيء ، فلماذا يكلف نفسه البحث والقراءة ؟

لا يا ولدي ، إن ما يملى عليك ما هو إلا صندويش تسند به قلبك . أمـــا طعامك المغذي حقاً فهو ما تطالعه أنت وتحاول أن تفهمه . فعلى أستاذك أن يدربك لتستطيع ، وحدك حين تنفرد في غرفتك ، أن تقرأ وتدرك مواطن الجمال. فالمنهاج وضع ليربي ملكة الذوق فيك ، ويحملك على التمييز والاستنتاج. ولأجل هذا قالوا : وزارة التربية بدلاً من وزارة المعارف . فإذا ظللنا نحشوك بالمعلومات حشواً فنحن لا نربيك بل نعلمك ، بل يا ليتنا نعلمك ، فالعلم الذي لا يربي هو علم خير منه الجهل .

والخطر كل الخطر عليك أيها الطالب العزيز — إذا كنت تكتب صحيحاً — هو في عـدم فهمك الموضوع . إن في الموضوع ، الذي يُعرض عليك سراً مخبأ فاجتهد دائماً أن تكتشف ذلك السر ، وإلا فتعبك يذهب عبثاً .

إياك أن تأتي على جميع ما تعرف عن الشاعر إذا كلفت بحث احدى نواحيه . ثم احذر التحويم حول الموضوع . قع عليه بدون مداورة ومقدمات لا طائل تحتهـا .

حاول أن تحسن الابتداء دون أن تلجأ إلى الزوائد ، واحذر التطويل الذي لا طائل تحته ، واكتب بخط واضح ، فقد يكون الممتحن قد ثقل واسترخى بعد الغداء وتناول مسودتك فهو لا يوسع صدره . فتدبر أمرك ... ثم لا تكتب ما تؤاخذ عليه .

الشاعر أو الكاتب دنيا واسعة . ومن يصف دنيا بكاملها في ساعات معدودات فاحصر نفسك حيث وضعك السؤال الذي طرح عليك ، ولا تحاول الاستطراد لتسرد كل ما تعرف ، فتطلب الزيادة فتقع في النقصان .

إن نصائحي لك كثيرة ، وهي من بنات التجربة لا من بنيات الكتب ، ولو شئت أن أسردها كلها لكتبت مجلداً . ولكنني لا أعتقد بفائدة النصح للطالب ، فالطالب يُسهر عليه ويُسير ، وإذا ترك أمره للنصيحة يركب رأسه ويسقط . فلا دواء لداء الطالب في هـذا الزمان أفضل من نظام حرّيف ورقابة لاذعة كاوية ، وإلا فمصير الثقافة الانهيار ..

متى تستوي الطبخة

وما أعني غير طبخة المنهاج ، فقد زيد ماؤها مرات ولم تستوِ بعد ، ومثلنا يقول في التفاهة : الطبخ المزاد والكلام المعاد .. ان التعليم وسيلة الى التربية ، وغاية التربية صقل الغرائز الموروثة لا خلق غرائز جديدة ... اننا لا نريـــد دهاناً بل صقلاً يبرز لنا عرق الأصل ، كما يفعل النجار بالخشب الشريف . فأي هدف يرمي من يقول لتلميذ عصر الكهرباء : عندي رطل زيتاً ، هـــذا مثل وضعه نحـاة العراق ، بعـد الهجرة حين كانوا يكتبون على ضوء مصباح راهب امرؤ القيس ، فلماذا نردده نحن على مسمع من في بيته قناطير زيت ؟

السيارات احتلت مملكة الدواب واستعمرتهـا ، فقبعت الجحاش في الأرض مبتئسة واجمة ، والمعلم ما فتىء يصيح بجبساء صفه : قام القوم إلا حماراً !

لقد بعد عهد الحمير بالشعير فكيف تقوم يا مولاي ؟

ألم يطرق مسمعك يا حضرة المعلم قول جون ديوي فيلسوف التربية الأميركي: العلم وسيلة لا غاية ، فبماذا تتوسل أنت يا زميلي ؟ وإلى أية غاية تسعى ؟ أنظل نتلهى بعقول أبنائنا وننقرها ونحشوها كأنها القرع او الكوسى ؟

تدخل الصفوف فترى الطلاب كأنهم الشحم المغروس، أو سردين مكبوس،

وعلى المنبر هُبَلٌ يقال له الاستاذ منتصب كأنه شيء اللوف ، أو نطار في مقثاة يخاف عليها عدوان الثعالب .

عفواً ، يا اخي الاستاذ، فأنا وأنت رصيفان ، ومن ساواك بنفسه فما ظلمك. هذه حالنا ومن ينكر أننا مسيرون ولا مخيرون ، يذلل رقابنا نير منهاج أخرس أطرش ، لا يحول ولا يزول كأنه شراع مادي وفارس ، او لوحة الوصايا العشر التي كتبها الرب لموسى . لا يدخل مدارسنا شيء من الخارج ، فما فيها إلا وجوه كالحة على أجسام جامدة ، وان تنشط يحل بهـــا العقاب ، فيا ويل الامة من مدارسها البالية !

مدارس خالية من كل شيء إلا من الألواح السوداء ، والمقاعد والمناضد الصفراء، فارغة كتابوت العهد ومن يمسها يصعق . على كل منبر من منابرها جبار لا تبين له سن ولو جعلت مخل أرخميدوس بين فكيه . أمجنون هو حتى يضحك؟ ومن يضمن له هيبته ووقاره اذا ابتسم ! كان في الأمس رفيقاً ومرشداً فصار ناطور ورشة ، وخفير أسرى حكم عليه بالأشغال الشاقة ... ليس لهم أن يقفوا. وجد ليكون صديقاً مشيراً فأمسى حاكماً بأمره . ان عطس تلميذ عطسة رنانة طار صوابه ، وعدّ ذلك تحدياً لهيبته وأبهته ، وان تنحنح او أحّ امتعض على كرسي مجده ، فما هذه الطباع ومن أي الطرق خلصت اليه !

مسكين المعلم ، ان حمله ثقيل ، لا بد من بلوغ المحج ، وتأدية الحساب على البيدر ...

على التلميذ أن يحفظ من روائع الأدب كذا وكذا ، وكذا وكذا من علم أصول اللغة ومفرداتها ، وعليه أن يحفظ التاريخ ووقائعه ، وفي أي عام وشهر ويوم حدث كيت وكيت ، وان يعد الأنهار والبحيرات في قارة أوروبا ، وان يستظهر كتب العلوم من حساب وفرضيات ومعادلات ، وكيمياء وطبيعيات ، وأن يعرف علم النبات والحيوان جمـــلة وتفصيلا . وعليه أن لا يخرم من تلك

(الخطط) التي دبرها الأستاذ لينقذ تلاميذه في مضيق أواخر حزيران ، وعليه أولاً أن لا يفكر وحده ، ولأمه الهبل إن كان ذا شخصية .

أمـا التربية والرجولة والتفكير فليست في الحساب ، إنها أمور تافهة . لكن رأس الطالب رمانة معارف لا وردة تتطاول للنور والهواء . إن هـذه المعلومات التي يخبئها الطالب ليوم الفحص الأسود لا تبقى في الذاكرة وتنسى بعد ستة أشهر – كما يقول تين – وهي مع ذلك جل ما يعرفه بنونا من شؤون الحياة . فهذا الطالب النجيب الحائز قصب السبق في الرهان لو كلف القيام بعمل أدبي آخر غير الذي حفظ ودرس لتخاذل وتلكأ ، وتلعثم ووأوأ ، واذ ذاك نخجل نحن ونعلم ان مناهجنا لا رجالاً خلقت ولا علماء أوجدت . علمناهم ما لا ينفع ، علمناهم ما لا يحتاجون اليه في دنياهم ، وسلمناهم للحرب العوان بندقية الفتيل والصوان في عهد القذائف والقنابل الذرية والهيدروجينية . رحم الله عظام غوستاف لوبون القائل : ان انتخاب طرائق التربية أولى باهتمام الأمة من انتخاب شكل الحكومة .

كم سمعت تلميذي يتذمر ، وكم سمعت ابني يتأفف فرثيت لهما ، فاكثر من يتغذون بمواد البرنامج كمن يشرب زيت الخروع ، وهم عليه صابرون وله كارهون.

شكا إليّ جملي طول السرى   صبر جميل فكلانا مبتلى

أجل ، كلانا نمشيها خطى كتبت علينـــا ، ولا نلتقي إلا على منهج كما قال العرجي . ولا أقول ان كل الشر في المنهاج ففي عقول الأساتيذ شيء كثير ، فالاستنباط عندهم قليل ، والأساليب قياسية مطردة ، وما أقل الخارجين من حظيرة القدماء .

بحياتك يا سيدي المعلم قل لي ما يعني ابن هـذا الزمان من عراك شب بين سيبويه والكسائي ؟ سيان عنده لسعة العقرب والزنبور ، فلا صفا قلب الفراء وليخرفش الأخفش ما شاء ، وليظل ثعلب في كرم أبي الأسود حتى تفنى العناقيد.

أما أنت فعلم تلميذك أن يكتب صحيحاً ويفكر تفكيراً مستقيماً ، وإياك أن تجعله اسطوانة فونوغراف .

أما الأدب فأصبح صوراً معدة تمليها الأساتذة ليحفظها التلاميذ ، كأنها صلاة يلقنها المؤمن الساذج ليتحدث بها الى ربه حين يخلو بنفسه . إن هذا المنهاج كان طويلاً مملولاً وعدلناه فزدناه أربعة أضعاف . فيه وجوه متماثلة لا يدري الأستاذ ما يقول فيهـــا فيملها الطالب ويكره لأجلها وجه المعلم . فجل صور الأدباء المفروضين بلهاء حائرة لا تحدث الولد إلا عن غرائز فطرية متماثلة ، والولد يتطلب الجديد ، حريص كالنملة على الجمع والادخار ، فما أمرّ خيبته إذ يمد يده ولا يرى شيئاً .

أما في الفلسفة فيمر طلابنا في رواق أرسطو مرور النسر في الجو ، ويحصى في جمهورية أفلاطون من أبناء السبيل ، ويعلم من مذاهب علم النفس ما يكسر العطش ولا يروي الغليل ، فحسبه أن يتبجح بما قال جيمس وريبو ليصير فيلسوفاً فحلاً ، ومتى حان الامتحان جثم المميز كأنه النمر الحردان ، لا يرق ولا يرحم . لا يريد أن يعلم أن هذا الفتى الرطب العود قد استظهر في عام آلاف الصفحات ليقف بين يديه بضع دقائق يقول له في نهايتها إمـــا اذهب عني يا ملعون ... أو ادخل فرح سيدك .

من راقب أعمال التلاميذ في السنة المدرسية ، وخصوصاً قبل الامتحان بأسابيع يرثي لهم. حياة كأنها الأعمال الشاقة . فمنهم من لا يلم بالنوم إلا بطرف ليجني من العوسج تيناً ، وهيهات . العمال تقلل ساعات عملهم ، أما تلاميذ المدارس فتزداد . مساكين هؤلاء يهرقون شبابهم ثمن نظريات لا تطعم أكثرهم خبزاً .

ان أكثرها بعيد عن الحياة التي تنتظرهم ، وفي كل برهة تزداد المناهج شحماً وورماً ، وتنحط الثقافة انحطاطاً مخزياً ، وعـــدد العارفين والرجال يقل قلة مخجلة . فهل من يضع حداً لهذا التكالب على جمع معلومات لا قيمة لها في الحياة

العملية ؟ المنهاج لا يسعف على طلب العلم للعلم ، وهدف التلامذة والمدارس فيه الشهادة لا المعرفة ولا التكوين الشخصي ، فمتى تلائم بين النقيضين ؟! متى تدق الساعة التي تمشي فيها المدرسة والحياة يداً في يد ؟ فهذه المعلومات التي تحشى بها الذاكرة ليست عدة الكفاح الحيوي ، وقد يخرج التلميذ من المدرسة كما يفر عصفور من ظلمة البيت ليقع على نافذة زجاج ، فإما أن يكسر الزجاج وينطلق ، وإما أن يسقط دائخاً فينشب به الهر مخالبه .

الولد ، كما يعلم ديوي ، هدف المدرسة ، وعلى المواد التدريسية أن تخضع له وتجعل أداة لتطوره ونموه وارتقائه ، فمن زعم أن المدرسة وجدت لتكديس المعلومات في رأس الولد فقد ضل . ان غاية المدرسة هي تكوين الشخصية ، فطبقاً لنفسية الولد ترسم المدرسة لا بناء على كتب بعينها لمؤلف بعينه رافق وسيرافق المنهاج – بعد عمر طويل – من المهد الى اللحد . ومن أين يفر المنهاج من بين يديه ومن دائرة كتبه؟ كان عدد المؤلفين تسعة وعشرين فأعادوه الى مئة وما فوق . ولا نعلم ما يفعل القائمون على تعديله وكم يفرضون علينا من روائع ..

فليكن قائدنا العقل ، فإخضاع حياة الولد لمنهاجنا الحاضر يقود الى هزال نفسي ، فلنهذبها لتكون وسيلة لحياة مثلى أفيد وأنفع . فلنجعل الحياة المدرسية طبيعية كما تتطلبها الحياة التي تصخب وتضج في جسوم أبنائنا ، فوظيفة المدرسة الاندغام في الحياة لا الابتعاد عن العالم . والمناهج وسائل لخلق جو ملائم يحيا فيه المتعلم حياة نشاط وعمل لا حياة ملل وضجر .

ان المكتبة خير ينبوع يستقي منه الطالب فينتعش ويذهب يأسه ، ولكن من أين لأسير هذه المناهج الوارمة ان ينعتق ولو ساعة في النهار ليخلو بكاتب يحبه ، او شاعر يستملحه ، او علم تدفعه اليه عاطفة ملحة ، او فن دفنت بزوره في أعماق كيانه ، فخير العلم الذي يجب أن نوجه اليه همنا هو ما ينفع أبناءنا ويلذ لهم ، فلا يجهدهم ولا يضنيهم ثم ينفعهم بنافعة في العالم .

اذا هبت رياحك فاغتنمها

اذا زرته عند انتشار النهار رأيته في فراشه متمطياً بصلبه كأنه ليل امرىء القيس ، يتقلب يميناً وشمالاً كالمريض في دور إبلاله . وإذا تحدثتما وسألته عما كسبه أمس تأوه وتألم وقال لك : حظنا قليل .

تفرس فيه قليلاً ترَ أنامل الكسل تداعب وجهه الناعم ، وهو مسترخي الأهداب منكسر العينين يحلم بالعظائم ، يتنهد كأنه يشكو سوء حظه ، وأشعة الشمس تمد اليه حبالها من خلال السجف لتنشله من لجة الأحلام ، فيفتح عينيه نصف فتحة ليحاور نفسه قائلاً : أقوم الآن ؟ كم الساعة ؟

ويلتفت الى المنبه فيرى أنه قريب من الميعاد ، ولكن الوقت لم يحن بعد فيخاطب نفسه قائلاً : بعد ربع ساعة . وينقلب على جنبه الآخر ويستدير في فراشه ان كان الزمن شتاء ليستأنف نومة هانئة لذيذة ، ثم لا يستيقظ إلا على صفير القطار او عزيف جن زمارات السيارات فيهب الى الانزلاج في بنطلونه ، وهيهات ... الوقت قد فات ، وها هو قد وصل ، ولكن ليسمع التبكيت إن كان مأموراً او ليبكت نفسه ان كان من ذوي الاعمال الحرة .

ينتظر صاحبنا وهو متهدل في فراشه أن يأتي اليه الرغيف سعياً على الوجه او مشياً على الرأس . فلا يدري حضرته ان الأرض وما عليها وما فيها ، والسماء وأجرامها ، لا تقف قط عن العمل ، ولا تضيع ثانية واحدة من الوقت .

كم من فرصة مرّت بباب هـذا الذي يشكو قلة الحظ ، ورأته محكم الإقفال فلم تستطع الدخول، فراحت في طريقها تفتش عمن هو في انتظارها ليقبض عليها بيديه الثنتين ويضمها الى صدره ضمة عاشق منتظر . كثيرون منا ينتظرون أن يأتيهم رزقهم رغداً ، وأن ينزل عليهم الرغيف في قفة من فوق ، وقد فاتهم ما قاله احد رجال الفكر : إن خير الرجال هم من لا ينتظرون أن يجيئهم الحظ الى البيت ، ولكنهم يهاجمونه ويحاصرونه ليتغلبوا عليه ، ويجعلوه خادماً لهم .

فالقول بالحظ وعدم سنوح الفرص واقتناصها حجة لاجيء اليها خائرو الهمم، هؤلاء الذين وصلوا متأخرين جـداً حين وزع الله الحزم على عباده . فليتهم يتذكرون قول شاعرنا العظيم : على قـدر أهل العزم تأتي العزائم ، فيفيقوا من ثبات كسلهم ، فلا يدعون الفرص تدخل بيوتهم من الباب وتخرج من الشباك .

يزعم مصنفو الأساطير ان الفرصة صلعاء من خلف ولهـا شعر طويل من قدام ، فاذا جاءتك وتشبثت بناصيتها فذاك ، وإلا فلا .

وبعد فما هي الفرصة ؟ انها كل عمل نتقنه ، وكل أمانة نؤديها . فكل سعي صادق نسعاه هو فرصة تفتح لنا باب الفلاح . فأي رجل منا ، إذا حاسب نفسه وفكر تفكير رجل يريد أن يكون شيئاً في الحياة ، لا يتذكر أنه أضاع فرصة ما لو كان أحسن الاستفادة منها لغيرت تاريخ حياته ، بل ربما غيّرت مجرى حياة كثيرين غيره مما يعملون معه . إننا نتذكر تلك الفرصة التي تفلت منا بالحزن والأسف ونهتف قائلين : آه ! لو كنا عملنا كذا لصرنا كذا وكذا . لو لم تتأخر خمس دقائق ما فاتتنا الغنيمة الفلانية . قد أدركها فلان فأصبح اليوم من الأغنياء العظام وقبر الفقر .

افحص ضميرك يا صاحبي تتذكر جيداً انك كثيراً ما سمعت شيخاً أو كهلا أو شاباً – ولعله أبوك أو عمك أو أخوك – كان يردد أمامك : فاتتني الفرصة الفلانية . فليتك تتعظ ولا تدع الدقيقة الخصبة تفوتك . اني أراك تتململ في

فراشك ، وأسمعك تقول : هيهات ، ذاك شيء مضى وراح. أما أنا فأقول لك: مـــا راح شيء غير حزمك وعزمك ، وان ظللت تقول هكذا فإنك ستظل حيث أنت .

كثيراً ما نسمع الكثيرين يقولون : الزمن الذي واتى فلاناً حتى حكم ، أو اغتنى ، أو أنشأ ما أنشأ ، قـد ذهب ولن يعود . بيد أن الأيام ترينا ، في كل فترة ، انهم مخطئون . أما نسمع كل يوم بأشخاص اغتنموا الفرص ولم يضيعوا الوقت فنالوا ما تمنوا ، ولم يقصروا عمن كنا نظن أن الزمان لن يأتي بمثلهم . فالذي يسمونه اليوم (انقلاباً) ما هو إلا فرصة يكتسبها عصامي استولى على المبادرة . أما من ينام على صوف منتظراً ورقة يانصيب فهو لا يصيب خيراً . انه أبله يؤمن بالفرص البلهاء ، ولن يفلح ولو ربح .

ليتك تعرف كيف أثرى روكفلر ! كان هذا المثري العظيم في بادىء عهده أحد ثلاثة ألفوا شركة لتصفية النفط ، فأخذ أحد الشركاء الثلاثة واسمه اندروز يتذمر ولم يصبر حتى يفيض الخير . فسأله روكفلر : بكم تبيع حصتك ؟

فأجابه أندروز : بمليون دولار ، فقال روكفلر : اشتريت ، ومـا مضت أربع وعشرون ساعة حتى دفع روكفلر المبلغ المرقوم إلى شريكه أندروز قائلاً له : أفضل جداً أن أشتريها منك اليوم بمليون ولا آخذها فيا بعد بعشرة ملايين.

إن تلك الفرصة هي التي عملت روكفلر وصيرت منه ذلك المحسن الذي نسمع كل يوم بفضله ومعروفه. وهي التي محت اسم شريكه أندروز من سفر أصحاب الثروات الضخمة والمحسنين . والفرص التي تفوتنا نحن الشرقيين هي التي جعلت منا قوماً اتكاليين ينفقون ما يملكون ، وينتظرون فتح باب الفرج القريب .

يقول المتكاسل المتواني : تفرج ، ان شاء الله . وينسى حضرته انه هو أيضاً له مشيئة. إن تربيتنا الأولى هي التي تقف عقبة في سبيلنا. تربية ترهل واسترخاء تنشأ في البيت ، وتشب في المدرسة ، وتكتهل وتشيخ في معترك الحياة .

فإذا رأيت فتى بطيء الحركة ، قليل الاحترام للنظام ، بارد الدم لا يغامر في اقتناص الفرص السانحة ، بل يدعها تمر بسلام لأن صيدها عنده حرام ، فقل ان الحق على والديه لأنهما لم يجبراه على السعي والتدقيق في صباه .

لم تبق له تربيته الناقصة إلا التفكر بالغد . فالعمل المطلوب منه انجازه اليوم يرجأ الى الغد أو ما بعد الغد . وهكذا يقتل الوقت متردداً ، وهو لا يدري أنه يقتل الفرصة التي يشكو عدم سنوحها .

إن المتيقظ يفلح ولو متأخراً ، أما الساهي اللاهي فالفلاح منه بعيد .

موسم الرحمة

أرادوا ان يحددوا الانسان فقالوا انه حيوان ناطق ضاحك مستوي القامة . ولعلي أرى ان احدده غير تحديدهم فأقول انــه حيوان محسن رحيم . ما رأيت حيوان يجود على حيوان بما عنده ، او يدعوه الى مأدبة يعدها له . ما رأينا غير الانسان من المخلوقات يفعل هذا ، فلنكن إذن إنسانيين .

ان الذكريات الراقدة في اعماق النفس ، تستيقظ في هذه الأيام وتوقظ معها الغضب والسخط ، فماذا نفعل لترقد تلك المشاعر في مكامنها فلا تجيش ولا تثور؟ ان انسانيتنا تدعونا الى قضاء ثلاثة حقوق لها قِبَلنا . ففي مجتمعنا اليوم ثلاث فئات يجب علينا أن نفكر بها تفكيراً جدياً: الاولى فئة الطارئين الذين أخرجوا من ديارهم ، والثانية فئة البؤساء البلديين ، والثالثة فئة العائلات المستورة . فماذا نعمل لترفه عنهم كما يقولون؟ فالرفاه لا يخطر ببال هؤلاء ولا ببال الكثيرين منا ، بل لنقدم للفئتين الاولين خبزاً يسندون بــه قلوبهم ، وثياباً تدفي جلودهم وتستر عوراتهم . ان رؤية امثال هؤلاء لشاهد صارخ على قساوة القلب ، وحب الذات ، وبغض الغير ، والمجتمع الذي هذه هي صفاته لا يستحق التهنئة والشكر . .

كم رأيت وسمعت اناساً يشكون موجة البرد القارس وقــد احصنوا اطرافهم بكلــات الصوف وقفازات الجلد المبطنة ، وصدورهم بقمصان الفانلا السميكة ،

ثم لبسوا فوقها ما لبسوا وأخيراً تدرعوا بالبردويسهات السوابغ . ومتى عادوا الى دورهم وقصورهم فهناك التدفئة الكهربائية ، والشاي الساخن، والكونياك والويسكي ، وحرامات الصوف وأكياس الميـــاه المغلية التي تسبقهم الى الفراش ليصير أهلا لاستقبال اجسادهم الناعمة .

نومة الهنـاء يا سيدي ، ولكن ارجوك عندما تندس في ذلك الفراش الوثير وتسترخي ليلتك على فرد جنب، ان تعيد النظر في احلامك حين تستيقظ . أما ابصرت في نومك اشباح البائسين الذين مروا بك في النهار فحولت عينيك عنهم؟ اما جاؤوك حين لا تستطيع ان تشيح بوجهك وقالوا لك : تذكر انك كنت مثلنا ، او نحن كنا مثلك وقد تصير مثلنا ؟ فهاذا اعددت لنا في هـــذه الأعياد لنسأل الله أن يعيدها عليك ؟

وذلك المهاجر ، او اللاجىء كما يسمونه ، العريان المقرور ، او المريض المصدور ، الجوعان الذي يدور على المخـــازن والقهاوي والدور ، ألم يرعبك منظره ؟ ألم يفسد مشهده احلامك الذهبية ؟ !

واذا سمعت اولادك يقولون اح" برد، وهم حول مدفأة تهمهم، هل تذكرت ذاك المنكوب وأولاده العراة ؟ وذاك البائس البلدي الذي له مكان يسند اليه رأسه ولكنه في حالة اللهيف ، وأحوج الناس الى الرغيف . هل تذكرته وأنت تفطر على القهوة والحليب والبيض والبسكوت والكاتو والشوكولا والكنافة والتفاح والليمون ؟ انـــه محتاج ايضاً الى ما يلف به جلده المقشعر ، فقم حالاً وفتش في زوايا خزانتك أو في مستودع سقط المتاع وابعث اليه ببالطو أو بنطلون أو بوط أو مشاية ، ومهما كانت عتيقة فهي خير من لا شيء .

إن في بيتك خبزاً عتيقاً لا تطعمه الست الى كلبها الأثير خوفاً عليه من تلبك المعدة ، فابعث به أنت الى من حولك من المساكين .

اليوم ، تماماً ، بدأ فصل الشتاء ، والبرد مقبل علينا بطبل وزمر فقابله أنت

بشيء من فضلاتك ، فحولك جيران بائسون ، وفي المضارب والخيام اخوان لنا يكاد الخوف يميتهم ، فهب أيها الكريم الى نجدتهم بما عندك مما ينفعهم ويخفف بلواهم ، وليس على الكريم شرط .

ستذكرهم الأعياد كيف كانوا ينعمون في بيوتهم في مثل هذه الأيام فتكبر مصيبتهم ولا يخفف من حدتها غير مؤاساتنا لهم فماذا تريد أن تفعل . لا بد من أن تفعل شيئاً ، فالمثل يقول : قللها ولا تقطعها . وهناك أيضاً عائلات مستورة بلدية وطارئة . كانت هذه العائلات قبل أن زالت عنها النعمة — لا تنس هذه الكلمة — تحسن وتتصدق وتتبرع ولكنها اليوم محتاجة ، فضع اسمها في قائمة من تريد أن تحسن اليهم . من ينكر ان معظم هذه العائلات المستورة لم تكن دعامة راسخة ، وقد تركت بسقوطها فراغاً عظيماً لا يملأه أي كان من الناس . فطالما كانت عضداً للفقير ، وساعداً للبائس ، وعوناً للضعيف المسكين . بل وكم انتشلت بحسناتها من التعساء الذين أنشب بهم الفقر مخالبه . ولكن الدهر جار وأبى أن تظل هذه البيوتات الكريمة غارقة في النعيم . فهوت الى الحضيض ، وليس لها بسطة كف تستعين بها لتقوم من سقطتها .

انها صابرة على نوب الزمان ، وتأبى عليها عزتها الأصيلة أن تموت صغيرة . لم يطرأ على هذا العنصر الكريم ما يفسده عند فقد المال ، فكان كالذهب الذي لا يأكله الصدأ وإن طرح بين الأقذار . وما أمر حياة من سقط من عرش النعمة الى حضيض الشقاء ، وقد صور هذا شاعرنا العربي حين قال :

ان الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهود

ففي هاتيك البيوت حاجة صامتة ، وبين تلك الجدران فقر لا يرفع صوته ، فلا بد تبسط على قارعة الطريق ، ولكن العيون تتكلم ، فكن ممن يفهمون لغة العيون .

اعتبر أيها السيد واشفق على هذه الطبقة من الناس ، فربما وصل الموسى لذقنك . من يدري يا سيدي .

فالليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

فليت كل سامع يبحث في محيطه عن هؤلاء ، ليبذل ما يستطيع لهذه الأسر المسكينة ، ولا يتركها كما ترك خزيمة بن بشر أصدقاؤه بعدما أنفق عليهم ماله ، وأبى أن يخرج من بيته فقيراً ، حتى يقرع الموت بابه ويخرج درة تلك النفس الأبية من صدفها . فلنكن كعكرمة الفياض الذي حمل اليه تحت جنح من الليل كيساً من الدنانير ولم يشعر بذلك أحداً .

إن في صدر تلك الفئة تختلج نفوس لم تتعود الصغارة . انها تكتم داءها ، والكتمان يزيده هياجاً ، وتخفي آلامها المبرحة والخفاء يضنيها ، فإلى أمثال هؤلاء نلفت أنظار الجمعيات الخيرية ونسألها التفتيش والبحث عنها .

انني أخال بعض القراء يقولون : الذي يفصّل من جلد غيره يوسّع . لا يا سادتي ، عندي حل وسط ، فإذا كنتم لا تسمحون بزيادة ميزانية النفقات فاعملوا بما يلي واسمحوا لي أن أتبع طريقة الوصايا العشر :

١ – بعض التقنين لكلابكم .

٢ – استغنوا عن لون من ألوان ولائمكم . وليكن ديك الحبش رطلين بدلاً من أربعة .

٣ – استبدال مشروب بمشروب .

٤ – اعطوا من فضلاتكم وعتيقكم ، ولا تتذرعوا بقول المثل: احفظ عتيقك جديدك لا يبقى لك .

٥ – بدلا من اللوج ، اقعدوا على كراسي في السينما أو المسرح .

٦ – بدلا من مصارفات التزحلق البعيـدة ، اقصدوا الى أماكن قريبـة وزحلقوا الكربة عن صدور البائسين .

٧ – بدلا من أن تهدوا أولادكم ، اعطوهم ليهدوا ويتعلموا الإحسان .

٨ – بدلا من دعوة الوجوه والأعيـــان ، ادعوا الفقراء ولو مرة ، لبخف سخطهم ، ولا يدعون عليكم .

٩ – بدلا من أن تبيع عتيقك بثمن لا يزيد ولا ينقص ثروتك ، بعه الى الله إن كنت تؤمن بأنه يجازيك خيراً .

١٠ – إذا كنت لا تخـــاف الله فخف دورات الزمان ، واحسب حساباً لدعوات البائسين واجتهـد أن تكون معك لا عليك ، واسمح لي أن اقول لك سراً : بلا ليلة قمار يا سيدى . وبلا ... وبلا ... الخ .

واعلم أخيراً ان ثروة لا ينفق منهـا في سبيل البر والإحسان لهي شوكة في عين الإنسانية وبصمة عار على جبينها .

إن بيتاً تخرج من أبوابه الأرغفة ، تدخل من شبابيكه وطاقاته النعمة . فلا تغلقوا أبوابكم لئلا يغلق الله باب نعمته عليكم .

الزكاة في الاسلام ، والعشر في المسيحية فرضاً للانماء والتخمير . ولو روعيا ما كان في الدنيا فقير وما كانت هذه الثورات الفكرية .

لحكمة أزلية خلقت حبة الحنطة مقسومة . لك نصفها والنصف الآخر لأخيك المحتاج . هكذا قال فيلسوف المعرة .

كن محباً ، فالمحبـة الخالدة فينا تغذي روح الخليقة جمعاء ، وبإرادتها تحول كل عشبة عروقها الخضراء نحو الشمس .

كن لطيفاً

الأدب عدة وبه يستغنى عن العدد. فلا خوف على الأديب في حرب المعاش. فأدبه يغنيه عن كل شيء حتى رأس المال . لسنا نعني هنــا إلا أدب السلوك ، فالأدب الذي في الكتب قتلناه بحثاً . ناهيك انه لا خوف علينا من عنترة إن لم نفهمه كما يتطلب منهاج البكالوريا ، وإنمــا الخوف كل الخوف من المتعنترين الذين لسانهم مسدس ، وساعدهم عصا ، وأصابعهم سكاكين وخنــاجر . فنحن أحوج ما نكون الى الأدب لتسلم رؤوسنا .

لا يهمني أن افلسف للنـــاس كما يهمني أن أضع أصابعهم على الدمامل التي نحملها في رقعة من جلدنا الاجتماعي . فتحت ثيابنا الحديثة ، لا يزال يكمن إنسان الكهوف . إذا ارتكب أحدنا جرماً ، فكثيراً ما يقول ، في معرض الدفاع عن نفسه : فلان استفزني . ومعنى قوله استفزني انه سمع منه كلمـــة لم تعجبه ، وكيف لا يصيح ويثور ، ويضرب ويجرح ، والشاعر الحكيم يقول :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

فإذا تتبعنا آثار الجنح والجنايات رأينا ان سبب أكثرها كلمة جارحة يرسلها من يعوزه مثقال ذرّة من اللطف . ومــا أصدق من قال : من وطّأ كلمة وطا جبلا . لاحظت وألاحظ ان الكلمة في الشر أفعل منها في الخير . تقضي سنوات

عديدة لتكتسب صديقاً ، وفي دقيقـــة واحدة تجعل جميع الناس أعداءك إذا شئت . ارخ للسانك العنان فلا يبقى لك صديق وتغنم لقب السفيه .

جاء في احدى الأساطير ما يأتي: قالت العاصفة للنسيم: ألا تتمنى ان تكون لك قوتي ؟ فأنا أحطم الأشجار ، وأهـدم البيوت ، وأغرق المراكب ، وأجعل عالي الأشياء سافلها فتتوارى الناس عند مروري لئلا أقتلهم ...

فاحمرّ وجه النسيم اتضاعاً وتنفس، فتهلل كل شيء في الكون : تفتقت أكمام الأزهار، واشرأبّت أعناق البراعم، وامتلأت الأرض عطراً ، فتزحزح الكابوس عن صدور الناس وصاحوا جميعاً : ما ألطف هذا النسيم وأحلاه، وما كان أبشع تلك العاصفة .

آلا ترى ان الرجل الشرس أردأ من العاصفة ؟ تتقيها بالمداراة فتتوارى حتى تمر ، أما الفظ الغليظ القلب والكبد فيتبعك كظلك، وقد يترصدك .. للعاصفة مهب ، وإن شئت فقل ممر. أما الرجل الشرس فيهبّ عليك من الجهات الأربع فأين تهرب ؟

وأنت يا صاحبي، لِمَ لا تكون نسيماً. إنك تحصل على هذه الثروة الاجتماعية بلا رأس مال إذا أردت . ثلاثة أشياء تجعـــل منك رجلاً لطيفاً مهـذباً ولا تكلفك إلا الارادة الحسنة : ابريق ماء يجعل منك رجلاً نظيفاً . وتحيـــة او ابتسامة تجعـل منك رجلاً محبوباً . وكلمة اعتذار ناعمة ، تجعلك رجلاً مهذباً لطيفاً . فابتسم واعتذر لمن تؤذيه خطأ . أأنت دافع حقها .

قال حكيم قديم : اللطف رشوة من لا رشوة له . ان الجواب اللطيف يا صديقي يطفىء آتوناً من الغضب ، فاكسر الشر بكلمة لينة . أليس استعمال لسانك اهون عليك من استعمال باعك وذراعك . أن تصرمني بابتسامة ، خير من أن تقضي لي حاجتي بوجه حامض . الابتسامة سمة الرجل المهذب ، وهي المفتاح الصغير لجميع الأقفال فاجعلها عدتك . والكلمة اللينة تقيك شر الحديد

والنار فلتكن ترسك أرأيت في حياتك حيواناً يبتسم ، فكن انساناً . ماذا تكسب لو قطبت وجهك دهراً، وورم أنفك شهراً، وانتفخت أوداجك عمراً ! لك الله ما اصغر عقلك ان كنت ذاك الرجل !! فأقل نعت تغنمه هو : رجل فج . ناشف . حامض الوجه . مقطوع من حرش . يقول المثل الانكليزي : تحية اللورد فطور المجنون . فافترض الناس مجانين وأنت لورد ، وامح اساءتك اليهم بكلمة لطيفة .

كانت سيدة نبيلة تمشي في منعطف شارع معوج ، فصدمت شحاذاً صغيراً فوقفت في الحال تعينه على النهوض من سقطته ، وتعتذر اليه بحنو : عفواً يا عزيزي الصغير ، اني حزينة جداً لأنني اصطدمت بك .

فحدق اليها الفتى بدهش وعلت ثغره ابتسامة لطيفة . وبعد أن مرت قال لرفيقه : هذي اول مرة اسمع فيها واحداً يعتذر لي . ان ذلك حنو منها ولو كسرت رجلي .

وبعكس هذا ما رأيته انا مرة . صدم رجل في الشارع رجلاً من الذين يتكلمون بايديهم لا بألسنتهم ، فتهيأ هذا للصراع فقال له الرجل : غضباً عني يا اخي ، ارجوك ... عفواً . فوضع هذا اصابعه العشرة في وجهه وصاح : اقتلني ، وقل لي عفواً ... ثم طفق يكيل له الشتائم بالمد . وقفت أتأمل الرجلين: واحداً يتفانى في الاعتذار ليكسر الشر، وآخر يتنمر ولا يشفي نفسه إلا بعد ان يبل يده ... وأخيراً فازت الكلمة اللطيفة ، وكان القول الفصل لها لا للسكين والعصا .

ان الكلام الغليظ يزيد مشقات الحياة ومتاعبها وكثيراً ما يحول دون أمانينا من حيث لا ندري . طرقت مرة احد الأبواب فأطلت الخادمة ، فقلت لها : معلمك بالبيت يا بنت . فغمغمت كلمات لم أتبينها ثم قالت بجفاء : لا . وردّت الباب .

لقد علمتني تلك الفتاة درساً بليغاً ، فسرت غير سيرتي الأولى مع زميلة لها ابتدرتها بقولي : صباح النور يا مدموازل . فنكزني رفيقي ليقول لي : هذي خادمة .

فقلت له : اعرف ولكنني قلت لمثلها مرة« يا بنت ، فدفعت ثمنها غالياً وصرفتني . أما هذه المرة ، وقد كان سيدها غائباً حقاً فانفتح الباب واسترحنا من عناء صعود السلالم ، وشربنا قهوة .

فحيثما يكن اللسان الدافىء يعيش الناس في سلام واطمئنان ، ولذلك قال المثل : لسانك حصانك ، ان صنته صانك . وان خنته خانك . فكن لطيفاً تسترح وترح .

انك لست آلة تدار

كانوا إذا امتدحوا رجلا بالذكاء وأصالة الرأي قالوا : فلان داهية ، وفلان من دهاة العرب . ومتى قالوا هذا أرادوا أنه يدبر أموره ويفصل شؤونه بعقله لا بيده . وهل كان معاوية بن أبي سفيان معتمداً على السيف والرمح والعدد والعُدد حين قال : لو أمسك العرب بطرف الشعرة وأمسكت أنا بطرف ما تركتها تنقطع بيننا ، فإن أرخوا شددت وان شدوا أرخيت .

انه لم يقل كابن كلثوم :

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

ولكنه اعتد برأيه وحصافته ، وبهما وطد أسس المملكة الأموية وسكنت دنيا العرب بين يديه .

انه لا يطلب منك يا أخي ، أن تكون كنوابغ العالم علماً ومعرفة لتمسي داهية . فقد تكون صاحب عقل عادي وتكون داهية ، بينا يكون جارك الثاقب العقل ، الواسع العلم ، مقصراً عن مجاراتك في الحياة . لعلك تبيعه وتشتريه ، كما نعبر اليوم ، وتأخذه منه وترده عليه ، كما عبر القدماء ، ثم لا يحس ولا يشعر . فالدهاء هو حسن تصريف الشؤون واتيان الأمور من أبوابها .

فرب تلميذ كان متفوقاً على جميع رفاقه في المدرسة ثم قصر عنهم في مضمار الحياة فقضى عمره شقياً بائساً، يجري والرغيف في المضمار فيقطع الجري أنفاسه،ويبيت على الطوى كصاحبنا ابن الرومي .

فالأسد ، مع ما اتصف به من قوة وبطش،قد تصطاده بسهولة لأنه لا يحسن تدبير أمره ، أما الثعلب فقد يعييك في التواءاته ولفه ودورانه .

قال فيكتور هيجو : سأل برهما القوة : أي شيء أقدر منك ؟ فأجابت : الدهاء . نعم ، ان الدهاء يخلق الفرص ، أما فقدانه فيضيعها . فمن لا يعرف أن يطبق سلوكه على مقتضيات زمنه فهيهات أن يبلغ أصغر أمانيه .

اني أراك ، يا عزيزي ، تغضب لأقل بادرة تعترض طريقك ، فما أراك تتغاضى عن أتفه الأمور ، بل قد تخوض عدة معارك قبل أن تبلغ مركز عملك. إن هذا ، يا صاحبي، ليس من الدهاء والحنكة في شيء ، فهناك اساءات تداوى بالاعراض ، أو الابتسامة ، أو بكلمة باردة . أما أنت فتحشد لمنازلتها جميع قواك وحواسك فتخسر المعركة تاركاً فيها وقارك وكبرياءك اشلاء مبعثرة ، ولو كنت داهية لداويتها بغير هذا الدواء .

قال مونتسكيو : إن الله لما رزق الناس عقولاً لم يقصد أن يكلفهم . فالدهاء هو أن تلجأ الى عقلك في كل موقف ، فتعالج به أمورك معالجة الحكيم .

قال المتنبي في مدح صاحبه سيف الدولة الذي حاز إعجابه :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهي المحل الثاني

ألا ترى معي ان المتنبي وبرهما متفقان على ان الرأي الحصيف السديد خير من القوة في المواطن التي تعرض لك كل يوم ؟ فاسمع من عبدك الفقير ولا تلجأ الى باعك وذراعك إلا عندما تضطر الى ذلك اضطراراً كلياً ، أي عندما تجدك في مضيق لا يخرجك منه إلا سلاح الحجاج بن يوسف : وترٌ مثل ذراع البكر او أشد ...

أما عنـدك لسانك وعيناك وفمك ؟ فرب كلمة حلوة ، او نظرة استخفاف تروي ما بك من ظمأ الى البطش وتغنيك عن المصارعة والملاكمة .

وإذا اضطررت الى اكتساب ميل الناس ، فانح نحو ابراهيم لنكلن معهم . روي عنه انه لما رشح نفسه لعضوية المجلس الاشتراعي كان لا بد له من الدعوة لنفسه ، فذهب الى مزرعة فيها ثلاثون رجلا فوجدهم جميعاً في الحقل يحصدون . فتوجه اليهم وهو لا يدري عن أية ناحيـة من نواحي برنامجه الإصلاحي يحدثهم ليربحهم . أما هم فلم يسألوه عما يرمي اليه من تنظيم الشؤون الداخلية، ولكنهم رغبوا في أن يعرفوا قوة عضلاته ، ليتيقنوا من انـه سيمثلهم في المجلس أحسن تمثيل ، فما كان منه إلا أن أخذ المنجل من يد أحدهم وهـاجم الزرع فلم تبق سنبلة قائمة على ساقها ، وهكذا منحه الثلاثون فلاحاً أصواتهم وفاز .

تُرى لو لم يكن لنكلن داهية وقعـد يحدث هؤلاء الفلاحين عن القوانين والمثل العليا ، فأي نجاح كان قد أصاب عندهم ؟

إن البراعة في العلوم والنظريات قد يخفق صاحبها كثيراً . وأما الدهـاء إذا اقترن بالموهبة الفطرية ، فقلما يخفق . البراعة قوة ، والدهاء فطنة وحيلة ، ومهما كانت قوتك فإنك لا تستطيع اقتلاع صخر كبير أما التجاوئك الى المخل فيهون عليك اقتلاع ما هو أضخم منه وأكبر .

اريد ان أقول ان الدهاء في تصرفاتنا الاجتماعية يشبه هـذا النوع من علوم الفيزياء ، فرأي جيـد يحط عن منكبيك جميع الأثقال التي لا تستطيع قوتك وعلمك النهوض بها مهما كانت .

إن البراعة والذكاء شيء معين ، أمـا الفطنة وجودة الرأي فكل شيء . وليس الدهاء بحاسة سادسة كما يقولون ، ولكنه الحواس كلهـا مجتمعة ، بل هو ملاك هذه الحواس جميعاً .

لاتعتمد على مـا قرأت وتقرأ من نظريات وعلوم في الكتب ، واعلم ان

الكثيرين من العلماء والفلاسفة العظام لا يحسنون التصرف في الحياة، فاعتمد انت على الرأي والفطنة فهما مصباحا الحياة . وإذا سرت على ضوئهما أمنتَ العثـار ، وحزت ثقة من تعاونهم إن كنت تعمل عنـد غيرك . إن رب العمل يتطلع ، دائما ، بالنظارة المكبرة الى عماله ، فهو يغربلهم وينخلهم في كل آونة ، ويفتش دائما لتقع عينه على من يستطيـع أن يحمل عنه أعباء التدبير التي تثقل ظهره .

ليتك تربيه دهاءك وحصافتك لتكون المضادة التي يعتمد عليها بنيانه . أما إذا لم تكن ، مع ما منحت من طول وعرض غير آلة تدار ، فاعلم ان مصيرك كمصيرها ، هل سمعت ان آلة ارتقت ؟

إذن أنت يا صديقي تجاه أمرين لا ثالث لهما : فإما أن تكون داهية فتدير ، او بليداً فتدار . فتدبر أمرك ، واختر لنفسك ما يحلو .

ان المجد مبتدر

هذا ما قاله جرير حين نقض رائية قرنه الأخطل . وكثيراً ما كنا نسمع في الحرب الأخيرة قول الفئتين المتحاربتين : قد استولينا على المبادرة . فما هي المبادرة وأية فائدة تجتنى منها ؟

ان من يقتل الوقت بين احجام واقدام ، يقدم رجلاً ويؤخر اخرى يظل حيث هو في غمرة طريق الحياة ، اذ ليس في ساعة الزمان الكبرى إلا دقيقة واحدة اسمها (الآن) . أما (غداً) فقد حدده الشاعر العربي بقوله :

ترجو غداً وغداً كحاملة ... في الحي لا يدرون ما تلد

وأنا أشهد اني في أثناء سبعين عاماً مرّت على رأسي ، ما رأيت هذه الحامل تلد إلا مسوخ خيبة ويأس . قال قدماؤنا . في التأني السلامة . وقالوا أيضاً : العجلة من الشيطان . ولكني رأيت الإبطاء يضيع الأماني الكبيرة ولا يخلف غير الأسف والحسرات .

قال أحد أعلام العالم : ان من يسير في شارع (رويداً رويداً) يصل حتماً الى منزل (ابداً) . أما روي عن امرىء القيس أنه قال عندما بلغه نعي أبيه : اليوم خمر وغداً أمر ؟ فما أصاب ، وماذا أدرك ؟ فلو كان هبّ من فوره لأدرك ذلك المجد المؤثل والملك الذي حاوله فمات ولم يعذر .

ان ما كان يقتضينا سفر شهر اصبحنا ندركه في ساعات ، فهل يليق بنا أن نتراخى ؟ قـــال أحد المشاهير العاملين : ان السؤال الوحيد الذي أوجهه الى نفسي هو : ماذا أعمل ؟ ومتى تلقيت جواباً عليه ، سألت : وما الذي علي أن أعمله بعد ذلك .

قالت العرب : اضرب ما دام الحديد حامياً ، وهذا سر من أسرار الفلاح . قال كوتون : تقول غداً ، وهذا لا أريد سماعه ، فما الغد إلا محتال يرهن فقره عندك ويأخذ ما لديك من المـال ولا يدفع لك إلا آمالاً ووعوداً ، وهـــذه نقود الحمقى .

ما أصدق المثل العامي الذي لم يدع شأناً من شؤون الحياة إلا عالجه ببساطة رائعة ، قال : حقل غداً بور ولو كان الحراث فيه .

فالغد مدة لا أثر لها في شيء من سجلات الزمان إلا في تقاويم المجانين . أما الحكمة فإنها تنكر هــذه الكلمة ، والمجتمع لا يتعامل مع الذين يتخذونها رأس مال لهم . هي ابنة المخيلة ، والجنون أبوها ، منسوجة من المواد التي تنسج منها الأحلام ، فكم من رجل عاش على رجاء الغد فلم يظفر بغير الحرمان .

قال احد الكتاب المشهورين : السرير مجموعة ألغـــاز . فنحن نذهب اليه محجمين ، ولكننا نتركه آسفين . وفي كل مساء نعقد العزم على أن ننهض باكراً ولكننا نبقى فيه كل صباح متأخرين . وفي حديث شريف : باكروا في طلب الرزق والحوائج ، فإن الغدو بركة ونجاح .

يرينا التاريخ أن نابليون كان يعمل دائماً ويحاول أبداً أن يكون مستولياً على المبادرة ، كما نعبر اليوم . كان يعلم أن الضربة لمن سبق فاستغل هذه المعرفة الى أقصى حد ممكن . روي عنه انه دعا مرة أركان حربه لتناول الغداء على مائدته فأبطأوا عليه ، فجلس وحده الى المائدة وأكل ، وما انتهى من تناول طعامه حتى جاؤوا فقال لهم : أيها السادة ، مضى وقت الغداء فهبوا بنا الى العمل .

إن البطء والتراخي دليل على نقص في الطاقـة . ومن لا يتحمس لعمله ، فهيهات أن ينجزه بالسرعة المطلوبة . إن الامبراطورية العربية التي استولت على الشرق والغرب لم تكن إلا بنت المبادرة والعجلة والحماسة . فالتأني فيه الندامة لا السلامة متى كان في غير ابانه .

فإلى الشباب أوجه هذا الحديث ليفيقوا من سبات تراخيهم .

قال رسكن : ان أبدع الآثار الفنية إنما عملت في سن الشباب . وقال آخر : إن مصالح العالم هي ، بعد الله ، في أيدي الشبان . فحماسة الشباب هي التي تذلل الصعاب وقلما حازت أمة انتصاراً بغير سواعد شبابها المتحمسين ، الذين يندفعون كالتيار وتومض عزائمهم كالبرق في الليالي المدلهمة فتشق الطريق للصواعق . وحسبنا قول طرفة عن نفسه :

إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت انني　　عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

قد يقول لي بعضهم : وأي رأس مال عندي لأعمل ما تطلبه مني ؟ أما أنا فأجيبه : عندك يا حبيب القلب ، ارادتك وحماستك . أما سمعت قول المتنبي :

عجبت لمن له حد وقد　　وينبو نبوة القصم الكهام

ألا ترى قامتك المشوقة وساعدك المفتول . وإذا لم تصدقني فعليك بالمرآة . وبعد . فأي رأس مال كان لأديسون الذي أثار الدنيا ، ووضع الزاوية العظمى في بناية أميركا الصناعية . أما كان بائع صحف كهؤلاء الذين تراهم يطوفون الشوارع ويزعجون الناس بصراخهم ، ويسيجون الطرقات منادين على جرائدهم ليبيعوها ويكسبوا قوتهم اليومي .

كان أديسون يبيع الجرائد في السكك الحديدية ويعمل في مختبره الكيماوي حين يفرغ من بيع المسافرين صحفه . وبينما كان يختبر مرة تعوج القطار ، انكسرت قنينة حامض كبريتي وانبعثت منها رائحة كريهة ، فلم يطق ذلك سائق القطار فقذف بأديسون الى الخارج بعد أن لكمه لكمة على أذنه فأصمت من

أسمع الناس الأغاني حيث شاؤوا . ولكن ذلك الجبار لم ييأس وظل يكد ويجد حتى وصل الى ما وصل . ولما سُئِلَ عن سر نجاحه أجاب : ان سر نجاحي ينحصر في مبالغتي في اجتناب المسكر والاعتدال في كل شيء مـا عدا العمل . أمـا أنت يا صاحبي فتريد أن تكون مثله وأنت تعاقر الخمرة وتقضي وقتك في اللهو .

قال دزرائيلي الوزير العظيم : إن ما حدث في الماضي من المظائم يمكن عمله في المستقبل ، فما أنا بعبد ولا أسير ، وفي وسعي أن أتغلب بالعزم والثبات على مصاعب أعظم من التي أنا فيها .

وفيلسوفنا الفارابي لم يكن له رأس مال إلا عزمه وثباته ، فكان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف مستضيئاً بقنديل الحراس .

فكم من رجال بدأوا جهادهم في معترك الحياة ورأس مالهم لا شيء ، وكم من مهاجر جاب مجاهل أميركا على رجليه ليكسب القرش ، فكم لاقى من مشقات وكم استقبل من صدمات ومع ذلك لم يفتر عزمه ، وظل يجـــاهد حتى استقر أخيراً على كرسيه فصار مخدوماً بعد أن كان خادماً . فأي رساميل أو رؤوس أموال حمل مهاجرونا الى دار غربتهم حيث زاحموا أهل الوطن في أرضهم . انهم لم يحملوا في حقيبتهم شيئاً لأنهم ذهبوا بلا حقائب .. ذهبوا وما عليهم غير ما يلبسون ، ولكنهم بكدهم واجتهادهم شادوا المعامل والمصانع التي كست العراة وأطعمت الجياع ، ورفعوا اسم أبناء جنسهم عالياً .

اذن لا تقل لي ليس لدي رأس مال لأبادر ، فرأس مالك عقلك ، ورأس مالك حزمك وعزمك وجرأتك .

ان الحياة فريسة المجتهد النشيط : فتسلح بهذه المزايا تربح المعركة ، معركة النضال في حرب المعاش .

نحن الشرقيين نحيا غالباً إتكاليين ، وأصحاب الثروة منا يبددونها معتقدين

انهـــا خالدة لا تزول ، ولهــذا يسابقنا الغريب في أراضينا على الثروة ، فنقعد حسيرين ملومين ، فلو تنبه أبناء البيوتات منا لما صاروا الى ما صاروا اليه .

إن العمل الدائم هو رأس مال لا يفنى ، أما المـــال المخزون فمصيره الى النفـاد ، فبادر الى العمل ، ولا تصم اذنيك عمن يناديك كل يوم خمس مرات : حيّ على الفلاح .

شعرة من شواربك

كانت الكلمة ، في ذلك الزمان ، تغني عن السند المسجل وصك الطابو . إذا قال لك أحدهم : بعتك ، خرج المبيع من يده مع تلك الكلمة وصار ملكاً لك.

ولهذا نقرأ في تلك الوريقات الموروثة عن جدودنا : حضر فلان مجلس عقده وباع من فلان قطعة الأرض المعلومة الحدود الخ. كان ختم محكمتهم ضرب الكف بالكف ، ومتى ارفض المجلس ثبت كل ما قيل فيه وكأنه كتب باصبع الرب . وكم من رجل من اولئك الأفاضل ذهبت بعقاره كلمة قالها .

كنت اذا ثنيت الكلمة على رجل وعدك اشمأز وقال لك بغضب : الرجال تربط بألسنتها لا بقرونها .

كانوا يدينون في خلوة ويحذرون الدائن من البوح بالسر ، حتى اذا مـا حان الأجل المضروب عـاد الى صاحبه سراً ، ولذلك لم يعرفوا الازمات ، وعاشوا مكتفين مستورين يتداولون المال الحلال الزلال ، من معه يعطي من ليس معه .

ودارت الأيام دورتها وذهب الذين كانوا يفزعون من حمل الأمـانة ، فكثر المرابون وكثرت الى جانبهم عُصُب المحتالين ، فلجأ الناس الى السندات ، ثم الى الرهن بجميع ضروبه . وغلا سعر الفـائدة حين قلّ الصدق بين البشر ، فصار ولا بد للمضطر الى مبلغ ما ، من تأمين موجع الثمن وإلا فلا تصل يده الى مـا يرفه به عياله وحاله .

وضاقت بأحد الفلاحين المستورين الحال فلم يجد ما يرهُن . ركبته العيلة فباع كل ما يملك إلا البيت . والبيت كما يقولون في لبنان : أول المقتنى وآخر المبيع. كان هذا الرجل من أصحاب القول ، كما يسمون الصادق عندنا ، فذهب الى أحد الميسورين وقال له بعين مكسورة ولسان يتعثر بالكلمات : يا بو مجيد أنا محتاج الى مئة ليرة عسملية ، وليس عندي ما أرهنه لك ، لا عقار ولا عفش ولا مصاغ . نفقنا يا عمي ، والجبر على الله .

فقال ابو مجيد : الغالي يرخصلك ، وإذا طارت الأرزاق فالنفس ما زالت في موضعها . ثقتي بك كبيرة . المئة عسملية حاضرة ، لا ترهن عندي غير شيء بسيط جداً . شعرة من شواربك .

فتنهد ابو يوسف وقال : شعرة من شواربي يا بو مجيد ؟ الشعرة من شوارب بو يوسف شيء بسيط جداً ؟؟

فقال له ابو مجيد : ماذا تريد ! فلان لم يدفع لي إلا بعد دعوى دامت سنين ، وفلان رهن لي عقاراً كان باعه من قبل ، وفلان الشريف النظيف أنكر امضاه وما استحى . ألا يعجبك أنت أن ترهن عندي شعرة بمئة ليرة ذهباً ؟

— ولكنها شعرة من شواربي ، فلو تأخرت او عجزت عن الدفع ماذا تفعل بها : ألا تهينها وتسبها ؟ ألا تبزق عليها ؟ صعب هذا الرهن يا عمي . قال هذا وودع وانصرف ترافقه همومه .

كانوا في ذلك الزمان ، وقبل حلق الشوارب طبعاً ، لا يحلفون الرجل بدينه بل بشواربه . فإذا وعد قالوا له : امسك شواربك ، وإذا توعّد هو يمسك شواربه ، ومتى فعل لا يعود عن وعده ولا وعيده . ومهما حاولت أن تزحزحه عما قال يقول لك : غير ممكن ، أمسكت شواربي .

وإذا كانت هذه قيمة الشوارب فكيف يرهن ابو يوسف شعرة منها لقاء مال العالم ؟ وانتفض ابو يوسف وقال: لا لا لا ، هذا لا يكون. والتفت يميناً وشمالاً،

وفوق وتحت، وخلف وقدام، فما وجد منفذاً . الحاجة قصوى والعيال لا ترحم والبيت المفتوح يقول : المعجن فارغ . إذاً لا بد من هذا الرهن .

وما كاد يعول على ذلك حتى تمثلت كرامته أمام عينيه وصرخت به : حيف على راعي الشوارب أن يرهن شعرة من شواربه . كل شيء ولا هذا .

وأخيراً نام ابو يوسف ولكن فكره لم ينم . قلبَ أمر الرهن على جميع وجوهه. وفي الغد الباكر كان عند ابي مجيد ، فدفع له المئة الذهبية نقداً وعداً، وأخذ منه تلك الشعرة الكريمة ولفها بورقة ووضعها في الصندوق موضع الذهبات وهو يقول : قدرك الله على الوفاء .

ولما دنا الأجل ساعدت الأحوال أبا يوسف ورجعت الشعرة الى قواعدها سالمة من الأذى .

وسمع أحد أغنياء البلد ، وكان معسوراً ، ان فلاناً رهن شعرة برشاء وأخذ بها مئة صفراء ، فذهب الى ابي مجيد يستدين ، فقال له ابو مجيد : انت تعرف اني لا ادين إلا برهن .

فأجابه الرجل : فلان رهن عندك شعرة من شواربه وأنا مستعد أن ارهن لك شعرات ، فما قولتك ؟

فقال له المرابي : هذي غير هاتيك . اعذرني يا سيدي .

— ولماذا ، اذا لم أدفع فأملاكي نصف الضيعة .

فأجابه : هذاك لا يملك غير الشرف ، وأنت تملك الشرف والعقارات وتكون حراً اذ ذاك بتضحية احدهما، وأنا لا أريد أن يكون مالي من الأضاحي.

تلك كانت عقليتهم في معاملاتهم . أما اليوم فالتكالب على المادة يحملنا على رهن كل ما نملك وكل ما في حوزتنا من شعر شرط أن نحصل على المال .

كان الصدق في الأقوال والأعمال مجداً وشرفاً ، وأمسى الكذب والاحتيال والنصب دهاء . والكذب ملح الرجال. وعدتك وما قدرت، أو قلت وبطلت، هكذا يقول الناس اليوم ، وألف قلبة ولا غلبة .

ازمة التربية والتعليم

لا تنفرج هذه الأزمة عندما نحبر مقالات تظل حبراً على ورق . ومثل الحبر والورق مشهور عندنا ، فنحن محتاجون الى ما قاله ذلك الأعرابي : أنتم الى امير فعّال احوج منكم الى امير قوّال .

وكذلك البحث في التربية ، بصورة عامة ، فهو لا يطعم من جوع ولا يؤمن من خوف. فالتربية تختلف باختلاف الناس وبيئاتهم. لا يستفيد الناس من قوانين التربية العامة إلا اذا رجعوا الى عصر المغاور والكهوف فصارت أهدافهم ومثلهم العليا واحدة . ومن يعتمد على هذه المبادىء العامة المدونة في الكتب ، فهو كمن يعتمد على كتب الزراعة الاوروبية ، يترجها بدقة ليعمل بها في بلاده ناسياً أن لكل تربة خواص ، ولكل مناخ تجارب خاصة ، فلا يصلح في هـذا ما ينجح في ذاك .

وماذا تنفع الكتب التربوية بل ماذا تفيدنا هذه الالقاب العلمية الضخمة عند بعضنا ما دامت الاستاذية لم تبلغ عندنا بعد درجة يثنى عليها، فهي اولى وسائل المرتزقة . اذا ضاقت مسالك العيش على حملة البكالوريا والليسانس ولوا وجوههم شطر المدارس ودخلوها لاجئين .. فتوليهم تعليم الفتيان ، بعد إلقاء نظرة عابرة على شهادتهم . ومنهم من يقبلون بلا شهادة ... كانوا اول من امس تلاميذ تفرك

آذانهم عند كل شذوذ، وصاروا اليوم أساتذة، والويل لك اذا خاطبت احدهم بيا معلم ، فهو لا يرضيه ، على حداثة عهده ، إلا لقب استاذ .

واذا كان المعلم ، كما هي الحال ، جاهلاً الطبيعة الانسانية ، ولا عدة له إلا ما قرأه من نظريات – هذا اذا كان قرأ – وما جمعه وكدسه من معلومات – هذا اذا كان جمع – فأنى له تدريب فتيان يجهل هو الدرب مثلهم بل من أين له الوصول الى مطاوي نفس تلميذه اذا لم يُعدّ إعداداً فنياً لمهمته . فالتعليم فن قبل ان يكون علماً ، والجمهور عندنا يعبر عن هذا بقوله : المعلم الفلاني اسلوبه ممتاز يفيد تلاميذه .

ان علم التربية والتعليم لا يكلف المعلم إلا تنبيه غرائز تلاميذه وإثارتها . فما عليه إلا ان يفتح لهم الأبواب دون ان يلجها هو قبلهم . فالمعلم الحديث مرشد ومعين لا يجديه علمه الغزير في مهمته الصعبة ان لم تطغ عليه خصلة التعاون مع تلميذه ليأخذ بيده الى الهدف . فالمعلم المستبد برأيه ، المعلم الذي يملي مذاهبه إملاء على تلاميذه لا ينفع امته . ان تلك المذاهب تدخل من اذن وتخرج من اذن ، فعلى التلميذ ان يبحث ويجدّ بمعونة استاذه وإرشاده ، لأن الذي يجده التلميذ بنفسه يبقى ، أما الذي يسمعه من معلمه فيذهب .

ليس على المدرسة اخراج بيانيين ورياضيين ومؤرخين ولكن مهمتها تكوين رجال للوطن بواسطة هذه العلوم. والمعلم لا يعطي صفات وطرقاً يتبعها الطالب. بل يخلق فيه ضميراً حياً يرشده في مهنته . فكل شخص يعلم بلا إيمان تربوي هو شخص بلا روح ، كما يقول دركايم . فهدف المعلم الأول ان يخلق نفساً في الجسد الذي يعلمه، ولا يقدر على دخول هذا الجسد احد سواه. ان عملاً كهذا يستغرق حياة بكاملها ، فكيف يقوم به من لم يكن معلماً لو لم تضق به الدنيا ، وهو لاطٍ الآن في احدى المدارس ينتظر ان تمر العاصفة ويفتح الله عليه ...

المعلم جندي ، والجندي الجوعان لا يضرب بسيف السلطان لأنه لا يأكل

خبزه . فاذا أردنا أن ننشىء وطناً فما علينا إلا أن نشبع المعلم ونشعره بأنـــه عيال على الوطن .

أما كيف تعلمنا نحن ، وكيف صرنا رجالاً – اذا كنا صرنا – فهـــذا ما يحيرني ، لا بل يشككني بعلم التربية الحديث الذي أتكلم عنه .

أذكر ولا أنسى واحـــداً من معلمي الأفاضل . كان كاهناً في جبّته رائحة اعزب الدهر . كثّ اللحية ، متجهم الوجه كأنه المعري كما رسمه جبران ، له كف مثل المدرى ، أصابعه مصفرة ، وسبابته مثل ململة الفيل . يدخن بلا انقطاع ، كأن سيكارته نار المجوس التي لم تنطفىء إلا ليـــلة المولد الشريف . يتغلغل الدخان في لحيته ثم ينبعث منها رويداً رويداً كأنهـــا حطب الموقد قبل اشتعاله ، ولكنها ما اشتعلت كما كنا نتوقع . نعم بلغت النـــار أقصى عقب سيكارته.فأخذت بعض الشيء من شاربه الذي أكله داء الثعلب ، فكحّ وعرفنا إذ ذاك أن له أسناناً ...

كان مولعاً بأكل الليمون ملتوتاً بالسكر . والليمون في نهر الجوز رخيص ، وفي مدرسة مار يوحنا مارون سكر كثير . والرئيس راض عن حضرة الاستاذ يثق بعلمه الغزير ، فهو يعرف الصبان والخضري والاشموني بشعره وبعره ، ما دخل الصف يوماً إلا سبقته اليه سلة الليمون وصحن السكر وحزمة من السكاير دخان بلدي كوراني يشرقط مثل البارود – والاستاذ ، أيـــده الله ، يؤثر إشعال سيكارته من القداحة والصوانة فتملأ غرفة الصف رائحة الصوفان .

كانوا في ذلك الزمان يفتتحون كل درس بصلاة (الأبانا) ،ويختمونه (بالسلام) فنصلي عند كل أستاذ وفي كل صف.وأذكر ان أستاذنا كان يصلب باليمنى محتفظاً ببقية سيكارته باليسرى . ومـــا تنتهي الصلاة حتى يولجها في ذلك الثقب الذي يذكر بأصبع الربيع بن زياد فنترحم على لبيد .

أما طرق الأستاذ التعليمية فدونك نموذجاً منها وقد يكون هذا هو الذي حببه الى سيادة المنسنيور .

– أتعرفون يا أولادي ، لماذا نصبت إن الاسم ورفعت الخبر بعكس الأفعال الناقصة .

فتطاولت أعناقنا اليه فتنحنح وقال : هذي ان اشبهت الأفعال في الوضع وقصرت عنها في الفعل ، فأعطاها النحاة عمل الفعل مقلوباً .

فضحكت وقلت : قصاصاً لها . فقال : وقصاصاً لك تكتب مئة سطر من باب إن وأخواتها في ابن عقيل . ما أطول لسانك .

هذا ما كان أقصى همّ معلمينا في التعليم ، ولولا ضيق المقام لسردت كثيراً من نوادرهم .

فعسى أن يكون لنا مدارس تعلم لتربي وتخلق للوطن رجالاً وعسى أن توطد أسس المدارس على صخرة منهاج موحد ، تسهر على تنفيذه الدولة التي تريد أن تبني بيتها طبقاً لخريطة عصرية حديثة .

وجوه بلا ماوية

شقاء هي الحياة وعراك مستمر ، العواطف في حرب عوان ، والشهوات في اضطراب وهياج .

الحياة الغاز لا تحل ، ومعميات قصرت عن ادراكها الحكماء . آمال تذبل وتموت ، فلا يبتسم لنا فجر الرجاء حتى يعبس مساء اليأس ، ولا نصافح الأمنية حتى تنفض الخيبة المرة منا يدها ، وأحياناً المنية .

مضى عصر المضارب والخيام التي تقتلعها العواصف ، كانوا ينحتون الجبال بيوتاً فصاروا يرفعون من الحديد والاسمنت ناطحات سحاب مفروشة أرضها بالمرمر مزينة حيطانها بأروع التصاوير الفنية ، ومع ذلك ما زال الانسان يتأوه ويتوجع ويتطلب المزيد من المال ولا يجد سعادته إلا فيه ، كما قال بخيل الجاحظ: سلم إليّ المال وادعني بأي اسم شئت ، المال زاهر نافع ، مكرم لأهله معز ، والحمد ريح وسخرية .

كان الانسان في طور بداوته ندي الوجه تؤذيه ألطف نسمة تهب على أنانيته واحترامه لذاته ، يأبى كل ما يؤذي ويشين شرفه ومروءته فيبتعد كل البعد عن كل ما ينكره الشرف ، وكانوا في ذلك الزمان يقولون : الصيت الجيد خير من المال المجموع ، أما في عصرنا هذا فأمسى الدرهم هو الدستور المكرم ، والمشير المفخم ، على حد تعبير فرمانات سلاطين بني عثمان .

وكان الرجال يرون الحياء أشرف خلال النساء والرجال ، وفي هـــذا يقول ابو تمام :

يعيش المرء ما استحيا بخير	ويبقى العود ما بقي اللحاء
فلا والله ما في العيش خير	ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
إذا لم تخش عاقبة الليالي	ولم تستحِ فافعل ما تشاء

أما اليوم ، فالوقح : صاحب العين البلقاء ، هو الظافر بحاجته كما قال بشار ابن برد ، لأنه لا يفرق بين حلال وحرام ؛ تستحي الأرض التي يمشي عليها مما يلطخ به وجهها من مخازيه ، أما هو فلا يندى له وجه... ومن أين للوجه اليابس أن يندى !؟ ألم تسمّ العوام مثل هذا الوجه الناشف وجهاً من عظم !

الوجه زهرة لطيفة تأخذ نضارتها من ماء الحياء ، والحياء في المحيـا كالجوهر في صفحة السيف والدرة في التاج ، تكلسب منه جمالا ، وكالورق والثمر للغصن الاملود ، فالغصن إذا عري من كليهما بدا كريهاً في العين بعيداً عن القلب ، وقد قال الشاعر : ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه .

إنا لفي زمن قـــد خلع فيه الكثيرون العذار فاستباحوا الحرمات وعبثوا بالأمانات التي طالما اعتد الشرف بالحفاظ عليها ، فإذا نظرت رأيت شباباً يربضون على أبواب المعابد كالهررة ، يترصدون هذه وتلك ، فيبسمون للجميلة ويعبسون بوجه القبيحة ، ويلقون في طرق المخدرات المحصنات شباك نظرات مريبة وقحة ، حتى صرت تحسب المعبد معرضاً للنساء ، او (سوق حرج) .

وإذا ركبت الترام فإنك ترى فتياناً يتسابقون الى الحافلات ، الحافلة بالحسان حتى إذا بدت لهم جميـلة أكلوها بعيونهم ، والسعيد السعيد من سبق الى القعود حدها او كاد ، حتى إذا ما أذنت بالذهاب راح كل منهم يبتهر بوقاحته ويفاخر بقلة هيبته ممثلا دور كازانوفا ، فتخرج من بينهم وصفرة الخجل تكسو وجههـا

الارجواني ثوباً زعفرانياً . هذا ما كان في الأمس ، أما اليوم فإنا نراها تدعوهم الى جوارها إن لم يكن بلسانها ويدها فبمينها ...

فعلينا ان نهذب بنينا صغاراً ليحسنوا السلوك كباراً ، علينا ان نقبّح في عيونهم هذه الصور السمجة ونذكر أصحابها بالتنديد واللوم . ولكن من أين لتلك المبادىء ان ترسخ في الأذهان ما دام الصغار يقتدون بالكبار ، يسمعونهم يعتدون برذائلهم بلا خجل ولا حياء ذاكرين على مسامعهم ما تجاوزوا به حدود الأدب ، كأنهم نسوا الكلمة المأثورة : وإذا ابتليتم بالمعاصي فاستتروا .

- أصاب ، من إذا أراد ذم أحد ذماً يجرده عن المروءة ، قال في لهجته : فلان بلا حياء . فلنقن حياءنا فهو التخم الفاصل بين مملكة الإنسان ومملكة الحيوان .

أما قليلو الحياء فأنواع : منهم الادعر المنحط الأخلاق ، ومع ذلك تراه يغشى نوادي المهذبين ويمد نفسه في طليعتهم ، وينسى انهم غير ناسين انه كان وما يزال يتمرغ في أوحال المعرة ، ومن حق من كان مثله أن يرمى في مزابل البشرية لأن للبشرية مزابل دونها المزابل الحقيقية نتانة . تلك يتقى شرها بالمطهرات ، أما هذا فهو مزبلة نقالة لا يقي من بعوضه وبرغشه فونيك ولا مازوت ، ولا د. د. ت...

ومنهم ذاك المتبجح بالشرف والأمانة وسامعه يعلم أنه أحط خلق الله وأقلهم شرفاً ، لأنه لا يرأف بعِرْض ولا يعف عن عرَض،فهو لا يكف يده عن طعام ولو وقع عليه ألف ذباب .

ومنهم ذاك اللص الذي يمشي على الأرض مرحاً ويبتهر على مسمع الملأ انه يجيد الاختلاس ، وانه في هذا الفن أمهر من مشى عليها . ينزع الدبس عن الطحينة كما يقولون ، وما عليك إلا أن تعد أصابعك اذا فرغت من مصافحته فربما يكون قد اختلس احداها أو بعضها ولم تدر . وإذا ذكرت أمامه رجلاً

فاضلاً مطّ شفته وغمز بإحدى عينيه وافترت أسنانه عن ابتسامة رقطـــاء وقال لك بلا حياء : مسكين ! حمار بأربع اذنين هل تطعمه أمانته خبزاً إذا جاع ؟ وهل يلبسه صدقه ثوباً اذا عرى ؟

إن هذا الضفدع الهرم لا يعجس إلا بلجج مستنقعات الدناءة ولا يعيش إلا فيها ، يزعم أن أيدي جميع الناس ممدودة مثل يده وانهم لا يهمهم إلا أن تكون لهم ثروات طائلة .

ومنهم من يقول لك ولا يستحي : إن وظيفتي محدودة المعاش وليس فيها (براني) ولا ضرب كم ولذلك لا أزال كما دخلت ليس في كيسي قرش ، بل لا كيس لي. . .فما قصرني عن طلوع الجرد إلا الحفا،فمتى يرزقني الله مداساً لأجاري زملائي في هذا المجال ، فليس فيهم من يعف عما تصل اليه يده .

على هــذا كان موظفو دويلات العصر العباسي وقد عجز الخلفاء عن تقويم اعوجاجهم فلا تصفية الأموال أجْدت ولا حبسهم ردع ، فاللصوصية مرض نفساني لا يحد من نشاطه القصاص . حكي أن لصاً شهيراً عجزت محكمة لندن عن إيقافه عند حده ، فكان يسجن سنوات ، ولا يطلق سراحه حتى يغير على بيوت المال ، وأخيراً أصدر القاضي بحقه حكماً غريباً . كانت جريمته خلع باب وكسر صندوق واختلاس ألوف الليرات . وكان العمل يوم الأحـد ممنوعاً في انكلترا وبما أن هذا اللص اقترف جريمته هذه في ذلك النهار قضى عليه القاضي برد مـا سلب والحبس أربعاً وعشرين ساعة عقاب من يتعاطى مهنته في ذلك النهـــار .

يقال ان هذا الحكم كان رادعاً للص لم يمت ضميره كل الموت ، أمـا الذين شيعوا الحياء الى غير لقاء فانهم يضحكون في عبهم اذا حكوا مثل هذا الحكم اللاذع .

والنساء وما قولتك فيهن ؟ فقد صارت أخدارهن المنيعة حمامات البحر ،

يعرضن بعد الغوص فيها أجسامهن البضة على عيني وعينك يا تاجر . ينبطحن على الرمال عاريات وكأنهن في خلوة ولا عين تنظر .

كنا فيما مضى نشتاق سماع امرأة ذات صوت رخيم تبوح بسر الهوى، وصرنا اليوم نستحي من بنينا وبناتنا أن نسمع وأياهم تأوهات المغنيات التي تبثهـــا الاذاعات بلا حياء .

كنا فيما مضى إذا مالت بنـــا العربة في منقلب نحمرّ ونخضرّ ونصفرّ إذا احتككنا بأنثى ، وكانت الأنثى تحاول أن تخترق جدار المركبة لتنجو من لمسة يد غير مقصودة ولا تعني شيئاً . أما اليوم ففي هذه الترامات المزروكة المشْوكة لا ندري كيف نهرب من الجنيات اللواتي ينهضن من كل محطة ويملأن الحافلات المحشورة فيها الناس كالسردين وكبس الجبن .

كنت مرة واقفاً في مقدمة حافلة فإذا بفتاتين انسلتا ووقفتا أمامي منتصبتين كالهدف ، فوجدتني في موقف حرج . الترام يتراوح ذات اليمين وذات الشمال وأنا أتماسك خوف الأهواء عليهما ، فما كان منهما إلا أن قهقهن ضاحكات من حشمة في غير محلها ، فضقت بهما صدراً وقلت لهما : يا بناتي جئتماني متأخرتين وكم تمنيت لو كنت خلقت في زمانكما ، زمن المتعة بلا حياء .

بهذه اللهجة الوقحة نطقت لأرد عني كيد فتاتين هزئتا بشيبتي . أما الخبيثتان فقالتا : قد عرفناك ، وما فعلنا ما فعلنا إلا لاحراجك وسماع نكتة منك .

عفواً اذا استطردنا الى ما كنا ننهى عنه، فنحن لم نذكر ما ذكرنا إلا لندل على أن الرجل كان في الزمان الماضي طالباً وصار اليوم مطلوباً .

شبب عمر بن ابي ربيعة بنساء عصره وذكر ما كان يقع له معهن ففسقوه ، كما عدوا قبله امرأ القيس متهتكاً لأنه اقتحم بركة دارة جلجل وقعد على ثياب العذارى المستحمات فيها ، وأبى إلا أن يخرجن اليه عاريات ففعلن مكرهات . ترى ماذا كان يقول اليوم معاصرو امرىء القيس لو قاموا من قبورهم ورأوا

عذارى هــذا الوقت ونساءه منبطحات على الرمال عارضات جمالهن كاملا غير منقوص على كل عابر سبيل ، ولسن في حاجة الى من يقعد على ثيابهن ليخرجن اليه في بذلة حواء قبل ورقة التين .

إني لأمسك القلم عن عد ما عندنا من قلة حياء تجمعها كلمة قالها الإمام علي : صار العفاف عجباً ، والفسق نسباً ، ولبس الاسلام الفرو مقلوباً .

فالسراق لا يخجلون ، والنصابون المحتالون لا يستحون لأن من هم فوقهم شر منهم ، وتقصير الحكام والأحكام يحمل على الاجرام .

الكلب الذي تطعمه لقمة يبوس يدك مرات ، أما الهر اللئيم الناكر الجميل ، القليل الحياء ، فإنه يهرب بها ويتوارى عنك ثم يعود اليك طالباً غيرها . واذا لوحت له بلقمة كريمة جمع نفسه في زوره وقفز كأنه يتضيد ولا يستعطي، وهذا منتهى الخساسة والغدر .

نجنا اللهم من هؤلاء ، من وجوه بلا ماوية .

ما أحلى أيام المدرسة

كلمة تسمعها أيها الفتى من أبيك وجدك وجدتك العجوز ، وان لم تكن هذه الأخيرة قد عرفت المدرسة إلا عن طريق اذنيها المصفرتين كورقة خريف نصف يابسة . وهــذه الكلمة ستقولها انت يا عزيزي ، حين تتكوم حول الموقد ، ويرقص من حولك أحفادك رقص جراء الهررة حول أمهن النائمة .

ليس التحسر على أيام المدرسة تحسراً على أيام كنت فيها محبوساً بين أربعة جدران . فالمدرسة حبس موقت يقبله طالب العلم طائعاً مختاراً . ولكنه تحسّر على فتوة خسرتها ولم تعرف قيمتها ، وأنت تتمنى لو تعود تلك الأيام أدراجها فتحسن التصرف بها ، انك تتحسر عليها تحسر المبذّر على ثروة أنفقهـا بغير حساب ، وها هو يذكرها والدمعة السرّية في العين والحسرة في القلب . وإذا لم تكن من الذين خرجوا منها بخير فستذكر حين تحاسب ذاتك انك كنت تسرق نفسك ، كنت تسرق مالك وعمرك .

كنت ترى اليوم كالشهر في الطول ، والساعة كالنهار ، وأنت الذي طوّلت مدة كان في استطاعتك تقصيرها . لم يكن يقع نظرك على صفحات كتابك حتى كنت ترفعه نحو الساعة المعلقة في قاعة الدرس تماشي عقاربهـا ، وتتعجب من بطئها ، تسبّ أباها وأمها وتتغضّب عليها لأنها لم تسرع حسب مشيئتك .

ما أطول ساعة هذا الدرس !! كثيراً ما كنت تقول ذلك، أما الحق فهو ان ساعة الدرس كغيرها من الساعات الاخرى ، ولكن إساءتك استعمالها أطالتها ومططتها فصارت أطول من ليل امرىء القيس والنابغة . اعمل يا عزيزي ، تجد الوقت قد مرّ ، وبهذا العمل تقتل السأم والضجر وتستفيد علماً ولكن الكسلان عدو نفسه .

قد تقعد مع رفيق على شاكلتك وتنصبان ميزان الدينونة ، فتزنان هـذا الاستاذ وذاك، ثم تنتقدان المدرسة من مديرها الى بوابها، ومن معلمها الى طباخها، فتبدو لكما مسودة الجدران ، ضيقة المساحة على رحبها . ولو فطنتما لأدركتما ان هذا الاسوداد هو في نفسيكما ، وان ذاك الضيق الذي تنعتان به المدرسة هو في صدركما . فأنت يا عزيزي حاضر غائب . انت مع معلمك تشخص اليه وتسمع درسه ، ومعلمك القصير النظر ، السطحي الاختبار ، يخالك مصغياً اليه تكاد تأكله بعينيك لاتساع حدقتيها ، في حين أنك تسبح في عالم غير عـالم الصف ، تسمع دروسه ولا تسمعها ، وترى شخوصه ولا تراهم . انك في دنيا غير دنياهم وأستاذك الجليل لا يدري انك لست معه .

انه ينقصك شيئان لتفلح في المدرسة ، عفواً ، وفي العـالم أيضاً . وهذان الشيئان هما : الرغبة والانتباه . فاذا كنت راغباً فيما يلقى عليك من دروس فأنت مفلح فيها . والانتباه يذلل جميع مصاعب الدروس ، العويص منها يصبح مفهوماً ، فتنحل أمامك جميع العقد التي كنت تخشاها ويدق قلبك دقات فرح حين تجيء ساعة هذا الدرس الذي كنت تقول : انه لا يدخل عقلك .. وكيف يدخل عقلك وأنت تسد الباب بوجهه؟ من أين يدخل والنوافذ مقفلة! ان أذنيك وعينيك نوافذ تخلص الحقائق منها الى مخدع دماغك لتستريح فيه ، ومتى كانت هذه الطاقات والنوافذ مسدودة فعبثاً تلتمس العلم . لم يستطع العلم حتى الآن ان يخترع أنابيب تحقن بها العقول وتلقح الأدمغة ، ولهذا تظل فاشلاً إذا لم تنتبه .

كثيراً ما تقول : هذا المعلم لا يحسن تفهيم المادة التي يعلمنا إياها . قد يكون

ذلك ، أما غالباً فأنت العلة لا المعلم . فاذا كنت لا تعيره اذناً صاغية فمن أين يبلغ عقلك ليفهمك . ان أكثر سقوط التلاميذ في دروسهم ناتج عن قلة رغبتهم فيما يتعلمون ، لأن الزهد في الدرس يجر الى عدم الانتباه ، وهنا علة العلل . هنا المعركة التي يجب أن يجاهد في سبيلها المعلم المربي فاذا تغلب عليها أدرك النصر المبين وبلغ غايته التربوية والتعليمية .

يبلغ الغاية التربوية إذ يخلق في تلميذه خاصة الانتباه وهي سلاح العاملين في الحياة.ويبلغ الغاية التعليمية إذ يسلحه بأعتدة علمية تسهل له الكفاح في ساحات شتى من ميدان النضال .

ان الذي عبرت لك عنه بلغة الجدود وسميته (رغبة) هو ما يسميه اليوم علماء النفس (ميلاً) ، ومن هذا الميل يتولد الانتباه . ان الانتباه أنواع في كتب علماء النفس ، ولا يعنينا منها الآن إلا العفوي . فالانتباه العفوي يتولد فينا من اهتمامنا بالشيء وميلنا اليه ، وهذا يكون في اشخاص ولا يكون في آخرين ، فاذا حصلت عليه بالطبع غنيت عن التطبع ، ولكنه ان لم يكن فيك طبعاً فباستطاعتك تقويته اذا أردت . فعليك ان تغالب نفسك لتخضعها الى إرادتك فتجمع فاعليتها حول مركز لا تميل اليه بالفطرة ولكنك مضطر اليه اضطرار المريض الى قبول علاج تتقزز منه نفسه . ولولا هذا الانتباه الارادي ما كنت حيواناً أسمى وأفضل من جميع مخلوقات الله كما ادعينا وندعي . مارس هذا الانتباه مراراً فترى انه استحال انتباهاً عفوياً او كالعفوي وهكذا تدركه بدون مشقة . استعن بالعادة فهي التي تنفعك هنا ، فاذا تجلدت وثابرت على اقتبال ما تكره استحال ما كنت تكره الى شيء تميل اليه .

ان الرياضي يحتاج في اول امره الى ارادة وجهد ولكنه متى استغرق في تفكيره ينسى نفسه ويميل كل الميل الى مسائله فتذلل جميع العقبات أمامه ويصبح منصرفاً بكليته الى شؤون مشكلاته وكل معضلاته ، اي ان انتباهه يصبح عفوياً. كل ذلك بحكم العادة التي تهون علينا تحمل كل شقاء ، وتخلق فينا طبيعة ثانية .

لا أنكر أن فينا ، نحن الأساتذة ، وجوهاً كالحة لا تحسن استرعاء الانتباه ، لأن الانتباه ينتج عن أسباب انفعالية ، واذا كان الاستاذ جامداً عاجزاً عن التفاعل فمن أين له أن يوقظ في طلابه العوامل الانفعالية .

ان معلماً كهذا يا ولدي ، كشربة زيت الخروع . انها كريهة الطعم ولكنها مفيدة فاجبر نفسك على قبولها ، ولعلك بعد قليل تنتقل الى حضرة استاذ آخر ينسيك طعم هذه الشربة . والانسان معرض دائماً لاقتبال مرارة الحياة وحلاوتها.

يقول المعلم النفساني ريبو: اجعل الشي جذاباً بصورة اصطناعية اذا كان غير جذاب بطبيعته ، وهـــذا ما يقدر عليه أساتذة ويعجز عنه آخرون ، فلا بد للاستاذ من خفة روح ، فكلمة ظريفة تنعش الصف وتولد فيه حياة وانتباهاً ، وهذا ما يجب أن يعنى المعلم بتوليده في جو الصف ، فبدون الانتباه كل الأعمال ضائعة ، ان الانتباه يزيد سرعة الادراك فتتضح التصورات للمتنبه وتبين وتزداد ترتيباً ، والانتباه يثبت الذكريات ويحفظها ، ومن هـذا يتضح لك أن نجاحك العظيم الذي تصبو اليه لا يتحقق إلا بانتباهك الأولي في المدرسة حتى اذا خضت عباب بحر الحيـــاة استفدت من الانتباه الذي بلغ البشرية ما بلغت اليه من عجائب الاختراعات والآثار الفنية .

قال جيمس : يجب على الانسان أن يحسّن ملكة الجهد فيه دائمـــاً بالتمرن عليها كل يوم ، فاذا كنت تريـد أن تكون رجلاً فعليك أن ترغم نفسك كل يوم او يومين على القيـام بأمور لا تميل اليها ، حتى اذا دقت ساعة الشدائد وجدت نفسك قادراً على الصبر والمقاومة وهذه ضمانة الحياة . فلا تقل لي اذن أنا لا أفهم هذا الدرس . انه لا يدخل عقلي .

ان كلامك هذا لا يدخل عقلي أنا. انك لم تُرِد ، ولو أردت أن تنتبه لفهمت وأدركت ، أما اذا كنت تنتبه وتريد ثم لا تفهم فالأحرى بك أن تتخلى عن مقعدك المدرسي لمواطن آخر .

ان هذا الكلام يؤلمك، ولكنه يؤلمني أيضاً أن أرى تلاميذ لا يستحقون نعمة

العلم . ان لهم عملاً آخر في الحياة فلينصرفوا اليه ، فاذا لم يخدموا وطنهم في هذه الناحية فقد يبرزون في ناحية اخرى على ما لا يقدر عليه العلماء .

ما أحلى أيام المدرسة ، انها كلمة تدور على كل شفة ولسان ، وما أجملها خارجة من فم رجل انتبه واستفاد ، وهو يتأسف لأنه لم يغترف من العلم والمعرفة أكثر مما اغترف .

أما من يقولها من المقصرين في مضمار الحياة ، من الكسالى الذين لم يفلحوا ، فإنه يقولها متذكراً راحته واتكاله على ذويه ، حين كان ينفق من مال جناه غيره وهو لا يدري أنه يسرق نفسه . ان هذا البائس يعثر لسانه بالخيبة المرة حين يقول : ما أحلى أيام المدرسة .

فرجائي اليك يا عزيزي ، أن تعمل بما قلته لك لتستطيع أن تقول في غد على مسمع بنيك وأحفادك : ما أحلى أيام المدرسة . فلا يتغامزون عليك ولا يقولون : ماذا أفاد أبونا وجدنا من المدرسة ليستحلي أيامها .

ليتهم ادخروا لنا ما أنفقوه عليه ، انه كان رأس مال لنا ، أما أيام مدرسته فساقطة من الحساب ولا محل لها في التاريخ .

عمودا البيت

لا يقوم البيت على حيط واحد . فالله ، وحده ، بنى السماء بلا عمد . إن للبيت عمودين هما المرأة والرجل . كانت كلمتنا الأولى موجهة الى المرأة لأنها المسؤولة الأولى ، ولهذا أطلقت عليها كلمة ربة البيت حتى في عهد وأد البنات ، أما الآن فالكلام عن الرجل .

قيل لي ان بعض الرجال كانوا راضين عن كلمتي السابقة فكانوا يتغامزون فيما بينهم ، كانت المرأة تخضر وتحمر وتحرق على أسنانها متمنية لي قصف العمر غير آسفة على شبابي الغض .. مهلاً يا سيدتي فها قد جاء دور رجلك .

الغرض من الزواج يا سيدتي هو حفظ النوع وترقيته بتكوين الأسرة المثلى . كان لله سفر تكوين واحد ، أما نحن ، بني البشر ، فلنا دائماً سفر تكوين . العائلة هي الخلية ومن الخلايا تتألف الأجسام . ومتى كانت الخلايا صالحة كانت الأجساد قوية منيعة ، فماذا نعمل يا سيدتي ويا سيدي حتى نوطد أركان الوطن بما نعد من رجال . قد تظنان كلا كما أن هذا من عمل المدرسة ، وأنا كرجل ممارس أقول لكما : لا . البيت يربي ، والمدرسة تهذب . فإذا أعطيتماني المحروس بلا مربى عاد اليكما بلا تهذيب لأن الحطب لا يقوّم .

قرأت كتاباً فرنسياً في التربية صُوّر على جلده والد يتأهب لمغادرة البيت وأم كل بالها في زينتها ، والولد حيران لا يبالي به أحد .

وكأن شاعر هذا الجيل المرحوم شوقي قد رأى هـذه الصورة وقرأ ذلك الكتاب فأوحى اليه بهذين البيتين :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من   همّ الحيـــاة وخلفاه ذليلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له   أماً تخلت أو أباً مشغولا

تلك هي حالة الكثيرين من الآباء والأمهات . وإذا قلت لأب ما : ساعدنا على تربية أولادك ، قال لي : هذا شغل أمهم يا أستاذ ، أنا مشغول في أعمالي من الفجر إلى النجر .

— والليل يا سيدي ؟

— الليل للسهرة والتفريج عن النفس .

— والبيت يا مولاي ، ألا يفرج عنك فيه وجه زوج من ملكات الرحمة ، ووجوه فتيان وفتيات كأنهم ولدان وحور الجنان ؟ قلت لي انك تتعب وتشقى طول النهار ، فاسمح لي أن أسألك : أين تذهب جنابك ؟ ألست تهدره في تلك القهوة ، وذاك المرقص ، وهـذا النادي ؟ ألست تضيعه على الموائد الخضراء ، ألست تطرب لليل طرب الصيام الى آذان المغرب ؟

تدخل بيتك من باب غربي لتخرج من باب شرقي ، وتترك قعيدة بيتك في جهنم أولادها ، فهم لا يهابونها لأنك تزدريها ، ولا يخافونها لأنك تحتقرها .

وإذا سهرت ليلة في البيت لبست وجهك بالمقلوب ، ورحت تتغضب على امرأتك وبنيك وبناتك. لا يعجبك العجب، تحتج على كل شيء ، وتخلق الأسباب لتغادر البيت بسلام : الى القمار ، إلى تصيد الغواني ، الى السكر ، لتعود في آخر الليل منطفئاً تقبل ذا الجدار وذا الجدار . والويل لبنت الحلال إن لم تبق ساهرة حتى تجيء . انت تلهو بالطقش والفقش وهي ساهرة واجمة تنتظر تشريفك يا صاحب الوفاء ! ثم تستلقي على فراشك بشبابك وحذائك ، وإذا استيقظ بنوك على زعاقك وبعاقك فهناك البلوى . إنهم يتلقون عنك أنفع الدروس يا خواجه .

وإذا استيقظت في الغد رحت تتمطى عشرات المرات . وبعد تردد تزج جسمك في ثيابك ، لتنصرف الى القهوة وتقعد حد الشباك تسرح نظرك لعله يقع على طريدة أيها الصياد الماهر . أمـا زوجتك المسكينة ، فلها الله . تسافر خلفك عيناها حتى تختفي عنها في جيوب الشوارع ، وإذ ذاك تتنهد وتهتف من غير قصد وبدون شعور : يا خالتي ملـّي الجرة ...

صبراً جميلاً يا سيدتي . جاءني زوجك أمس الى المدرسة ، قبل أن يتوجه الى الخمارة ويستفتح ... وقبل أن يقع على زبون يلعب معه الطاولة أو يقامره . نعم مر على المدرسة وقال لي : الأولاد لا يشتغلون في السهرة . لا يدرسون ولا يكتبون ، نبه الأساتذة لكي يعطوهم فروضاً .

فقلت له : أشكر لك هذه الملاحظة . هـذا واجبنا . اليوم أرى أولادك وأسألهم ، وسأسأل أساتذتهم عنهم . وفي الوقت المناسب يا سيدتي دعوت بنيك الثلاثة وسألت كبيرهم : لماذا لا تدرس ولا تكتب في البيت ؟

فأجابني : اسأل المعلمين عني .

فلت عنه الى الثاني وأنا أقول في نفسي : لعله هذا الذي يعنيه أبوه ، فتململ الفتى وفتح فمه ليقول شيئاً ، ثم أطبقه وأطرق اطراقة مكظوم وفرّت دمعة من عينه .

فقلت للصغير : يظهر أنك أنت الذي يشكو منك أبوك .

فحدق الي وقال : ومن أين يعرف والدي إذا كنت أكتب فرضي أو لا أكتبه ؟ وما يدريه ان كنت أفتح كتابي أو لا أفتحه ؟

فقلت له : أبوك أعمى يا ابني ؟

فقال : لا سمح الله . ولكنه لا يرانا ولا نراه فيجيء إلى البيت وأنا نائم ، وأجيء أنا الى المدرسة وهو نائم .

قلت : إذن لا تلتقيان .

قال : بلى . إذا بكّر في المجيء ، ولكن بدون نتيجة .

قلت : وكيف بدون نتيجة ؟

وسكت الصبي فألححت عليه ، وهمّ بالكلام فسد أخوه بوزه بيده .

وأخيراً قلت له : خبرني يا فريد فلعلي أنفعكم بشيء .

فقال الصبي : أستحي أن أخبرك عن والدي . ولكن اهجّي لك .

قلت : هجّ منك حرف ومني حرف .

فضحك الفتى وضحك أخواه ، فتجرأ وقال : س . فقلت : ك ؟ فقال : نعم . ر . فقلت : ألف . وقال : ن .

فقلت : ما شاء الله ، هذا هو رب البيت الذي يطلب منا تهذيب أولاده . يريد منا أولاداً مهذبين وهو كما وصفه ابنه . ومع ذلك إذا رأى بنيه لا يتعلمون يأتي المدرسة بكل وقاحة ويتساءل أمامنا : لا أدري على من طلع هذا الصبي .

خرج عليك يا سيدي . الديك الفصيح من البيضة يصيح . إن من يتخرج من مدرستك هيهات أن يستفيد عندنا. فإذا شئت أن يكون لك أولاد صالحون فاصلح نفسك . الأم وحدها لا تربي ، واعلم انك لا تستطيع ان تحمل بطيختين بفرد يد . فأما ملذاتك وشهواتك ، وأما تربية بنيك وبناتك . التربية تكون بالمثل ، فالزم بيتك واسهر على تربية أسرتك . ومتى رأوك تفتش خزائنها قبل أن تتوجه الى السبق وغيره ... تعلموا منك هذه الفضيلة... وإذا رأوك تزدري أمهم أمامهم ، ازدروك وازدروها واحتقروكما معاً .

رشادك يا سيدي ، خذ حذرك يا صاحبي ، أما بلغك بعد ان المرأة أعطيت حقوقها . فقد مضى الزمن الذي كنت تتعنفص فيه لأنك رجل . ستمشيان معاً بعد غد ، رجلها ورجلك الى صندوقة الاقتراع ، فتنتخب هي كما تنتخب أنت ، وقد تصير هي نائبة ولا تصير أنت ، وهناك النائبة العظمى . فدارها ما دمت في دارها .

قالت لي انك أنفقت ثروتها على ملذاتك ، ثم زهدت بها حين أفلس وجهها وجيبها فحاسب ذمتك يا صاحب . أما وقد أكلت المال فلا أقل ان تترفق بالحال ... ان الأبوة حمل ثقيل حتى على الحيوان الأعجم. فكن على الأقل كذكر النعام إذا كنت لا تريد ان تكون انساناً ... وإلا فلا تطمع بالبنين الصالحين ، فالابن سر أبيه .

العوسج يا أفندي لا يطعم تيناً ، ولا القطرب عنباً . مـــا لك عليَّ يمين ، ومع ذلك أحلف لك انني أحكم على الآباء والأمهات من مراقبتي أبنـاءهم . اني أعرف البيت من مسلك الأولاد .

وقد تتساءل وتقول : ما لهذا الواعظ ، أهو خالٍ من العيوب ؟ لا يا أخي ، ولكني لا أطلب من أولادي إلا مـا اكلف به نفسي . لا أغرق بالأوحال حتى ركبتي وأقول لهم : توقّوا الوحل يا أولاد .

أنا لا أطلب منك ان تكون حبيساً في صومعة ، ولكن أمن العدل ان تحبس زوجتك في قفص وتفرفر انت ؟

اني اطالبك بمـا ألزمت نفسك به حين قيدت نفسك ، فلو كنت اعزب لنجوت من هذا التوبيخ ، وأما ان تتزوج وتخلّف وتصير أباً وجدّاً وتظل راكباً رأسك فهذا كثير . فالله أسأل ان يهديك ، او ان يقصر مدى غوايتك ، فبطن الأرض خير لك من ظهرها .

الشباب التائه

صح النوم أيها الساهي في ليـــالي المقاهي والمراسح . أمامك الكاس وإلى جانبك حسناء (سكوند هند) تغريك وتغويك . ألهذا اللهو وحده، خلقت ؟ ومن قال لك ان الحيـاة لهو فقط ؟ أتجهل ان للانسانية عليك ديوناً مستحقة ، وللوطن فروضاً لا بد لها من وفاء ؟

هبْ انك أعلنت إفلاسك لتأكل هذا الدّين العام ، فكيف تهرب من الدّين الخاص؟ دين أم سهرت عليك ودين أب جاهد وكدّ ليصير ابنه رجلاً. ولنفرض انه لا يهمك أمر غيرك ، أفلا تعلم ، هداك الله ، ان من يكلل شبيبته بالورد يكلل شيبته بالشوك ، ومن يزرع الكسل والطيش يحصد الخيبة والذل ! فاستفق ، يا رعاك الله ، من سكرة الجهل، فمستقبلك يظل مظلماً إذا لم ينبثق نجم اجتهادك. إخلعْ عنك ثوب التواني واعمـل ، وإذا لم تنفع ذويك فلا أقل من أن لا تظل عيْلاً عليهم .

المستقبل طريدة لا يقتنصها إلا الجـادّ الكادح ، فهل نلام اذا أيقظناك من رقدتك ؟ فلو أننا بقينا في جنة عدن متنعمين بأطايب تفاحها ورمانهـا وعنبها وتينها ، لضربنا على غير هذا الوتر من أوتار عود الحيـاة . ألسنا في عصر الجوخ لا ورق التين ؟

ولو كنا لا نزال نعيش في عصر البداوة لما حذرنا احــداً من الشبان وحثثناه على ترك العبث والمجون .

ولو كنا في أرض تدر علينا لبناً وعسلاً ، وكان لنــا موسى ثانٍ له رب يمطر المنّ والسلوى ، لكان لنا سلوى عن العمل . ولكن هذاك عصر مضى وراح ، وعقبه هذا العصر الذي تفنن به الانسان في أعماله فكثرت مطالب النـــاس واقتضتهم المدنية الحديثة ما لم تطالب بـــه جدودهم . فلماذا لا يكون وقتك مقسماً على حد قول المثل : ساعة لك وساعة لربك ؟

كان للهو حظ كبير في الزمن الخـالي . كانت الجارية تعزف على العود وتنفخ في المزمار من خلف ستار ، وكان الناس يقولون ما هذا ؟ أما اليوم فتراهن على الملاعب أسراباً ، وقد نضب ماء الحياة من وجوههن ، يأتين على أعين النـــاس أشياء تصبي وتغوي ، فصارت المسارح والسينماءات فخاخاً تصطاد بهـا الناس ، وشباكاً تطرح في طرق الشباب . فالشاب الذي يستطعم مرة هــذه المشاهد لا يحجم عن أن يثني ويثلث حتى يعتادها وتمسي شغله الشاغل . يضيق صدراً بالنهار ولو قصيراً ، ويتمنى ان يدوم له الليل ولو جاءه منه الف ويل ... وكم سمعناهم يرددون معتزين مبتهرين : الليل لنا .

نعم ، الليل لكم ، والله أسأل ان يدرككم الصبح وفيكم بقية ممـا حبتكم به الحياة من نشاط وعزم ...

ولو كنا نقنع بحضور ساعة لكانت المصيبة اخف ، ولكن بين شبابنا فريق يسهر الليل وينام النهار ، ومتى استيقظ يبرز بأبهى زينة ويسير تواً الى القهوة ، وهناك يصرف بقية نهاره لاعباً مقامراً ينتظر المساء .

وطالب العلم ينيم كتبه نومة أهل الكهف ويسرع الى تلك الدور حيث يسبح في جو الخيـــال ، ويطير قلبه مع كل نغم . أقلامه في غرفته تحنّ الى مصافحة الطرس ، وجنابه تائه النظر شارد الفكر وراء ظبية الانس .

أما الشابّ المعروف باسم (شمّام هوا قطّاف ورد) فإنـه يشرّف الملاهي كل ليلة . ما سمعت الطلاب يشكون غلاء الكتب ولكنهم يشكون غلاء سعر السينما. ليس لأن الكتب رخيصة بل لأنهم أمسوا لا يسألون عنها. والأمر الذي يبكي هو ان بعض فتياننا يشتركون في هـذه النوادي اشتراكاً شهرياً كما يشترك الادباء منهم بالجمعيات والمكتبات. وهل تتعجب اذا قلت لك انني سمعت احدهم مرة يتبجح زاعماً انه اقتصد بهـذا الاشتراك فربح كذا وكذا ... انه يتباهى بحنكته هذه ، فيا له ذكاء يرفع صاحبه الى اسفل .

هذه بعض جراثيم الأمراض التي فشت في بلادنا ، وتلك حال الكثيرين من اولادنا . وستأتي ساعة يندمون فيها ، كما ندم غيرهم ، على بيع زهرة العمر بيـع السماح في أسواق اللهو . انهم سوف يتذكرون ايام الشباب حين يلمّ برأسهم ذلك الضيف غير المحتشم ، وتثقل عاتقهم وطأة السنين .

واذا وقفت بوجه احـد هؤلاء السادرين الجامحين ، ورخصت لنفسك زجره وردعه ، صاح بك : أنا حرّ ، يا سيدي ، انا بالغ رشيد ، وغني عن وعظك فاتحف سواي بآيات نصحك الذهبية .

نعم يا عزيزي ، انت حر ، انت بالغ كما قلت ، ولكنك والله غير رشيد ، ولهذا ترفض النصيحة التي كانت في الزمن الغابر بجمل ، ثم تملأ فمك بكلمة أنا حر ، لأنه لم يبلغك قول الشاعر :

يا رقيقاً لذات خصر رقيق   برئت منك ذمة الحريه

أنت حرّ إذا كنت تتنعم وتنفق مما جنيت . وأما ان تبـدد ما جمعه أبوك وجدك فأنت عبد اي عبد ، عبد لشهواتك وميولك ، عبد لنزوات الشباب التي جرّتك الى حمأتهـا حنو أمك وعطف أبيك . ولو أنصفا لتركاك تقلع شوكك بيدك . فتقلع إذ ذاك ، عن هذا الجنون .

فلولا هذه البطالة التي انت فيها ، واليسر الذي متعك به أبواك لما اجتمعت فيك هذه المعايب : القمار والسكر والمجون ...

وما بلغت الى هنا حتى دخلت عليّ آنسة عانس، أنثى جنت عليها كبرياؤها وعويناتها السوداء التي نظرت من خلالها الى الشباب الطامعين بمالها وجمالها وعلمها. الآنسة بعد أن كانت (برسم الزواج) مدة انتزعت تلك الفكرة من رأسها وحل محلها حب الأدب، وقديماً قالوا: أدركته حرفة الأدب.

قالت الآنسة حين شقت الباب دون أن تحيي او تسلم: في ساحة من أنت نازل اليوم ؟

فقلت على الفور: في ساحة الشباب يا آنستي.

فابتسمت ابتسامة كالإجهاشة، فعلمت انها أدركت مجاملتي لها ثم قالت: ليس الحق على البنات كما توهمت هذه المرة. لقد ضعف الإيمان بالزواج، فشباب اليوم كالعابور الذي يظهر في أيام الربيع ضعيفاً هزيلاً لأنه قطع البحر. فلا يصدق، حين يبلغ الشط، انه رأى عوداً قائماً ليقع عليه. تلك حالة شباب هذا الزمن، فهم لا يفكرون بالزواج إلا بعد ما يقطعون مسافات من الحياة ينهك قواهم قطعها... وأما البنات فهن في غرفة الانتظار والرازق الله. هذا قصير، وهذا طويل. وهذا غني لكنه جاهل، وهذا ابن بيت ولكنه قبيح الشكل، وهذا ملائم جمالاً وشباباً وعلماً، ولكنه ليس من اصهارنا... وذاك شاب غني ولكن عينه شاردة، وهذا يكد ويعمل والكنه يبدد في سهرة ما يجمعه في شهر. ناهيك انهم جميعاً يريدون المصفور وخيطه: المال والعلم والجمال.

وهناك حجارة جديدة توضع في طريق الزواج، وهي خفة رأس البنات، فلو اعتصمن في بيوتهن، وضربن حولهن أسلاكاً شائكة مكهربة فلا يدخلها إلا طالب زواج حقيقي، لما حصل ما نراه ونسمعه كل يوم، من عقد خطبة ثم حلها بعد أيام.

تنسب إعراض الشباب عن الزواج الى كبريائنا، فأي زواج ترتجي بعد مساواة المرأة والرجل في الحقوق السياسية، أفلا تظن اننا واصلون الى وقت تخطب فيه البنت الشاب بعد ما كان يخطبها هو ؟

فنصيحتي لك ان لا تحاول حل هـذه المعضلة الشائكة ، فالأنثى أقبلت على الزواج حين كانت أبواب الرزق مقفلة بوجهها ، أمـا اليوم وقد صارت في مأمن من ضيق العيش ، فهي تؤثر العمل على حجز حريتها .

قلت : ولكن أنسيت يا آنستي ان في الدنيا شيخوخة ؟ وان للأبوة والأمومة لذة تفوق لذة الفرفرة والثرثرة ، أما خلقنا الله لنتعاون ؟؟

قالت : نعم ، ولكن هذا التعاون الذي كان ، قد قضت عليه المساواة في الحقوق . والمخلوق الذي له رأسان هو مسخ عجيب . انتظر المشاكل الكبرى عند كل انتخابات . من المختار الى عضو البلدية الى النائب ، سوف ترى إذ ذاك كل بيت مقسوماً على نفسه .

فقلت : وهل عندك حل لما تنذرين المجتمع به ؟

قالت : نعم ، فإما السياسة وإما العائلة . فعلى من تطمح الى السياسة ان تنصرف عن شؤون البيت .

فقلت : ولماذا تتشاءمين ؟ فهذا الرجل، ألا يعالج الشؤون الأخرى وشؤون بيته في وقت واحد ؟

فأجابت : لأنه كان متكلا على الأم ، ولا أم بعد الآن .

فقلت : وهل تظنين أن جميع النساء ينصرفن الى السياسة ؟

فقالت : ولا كل الرجال ، ولكن لكل جديد حلاوة ، ثم نهضت لتودع .

فقلت لها : الف شكر لك ، لقد كملت موضوعي . وان انحرف قليلاً عن عن السمت الذي كان فيه . قال المثل العربي : في بيته يؤتى الحكم ، وأنت حكم جاء البناء وأفتانا غير مأجور .

كنت ألوم الرجل ، وها أنت تلومين المرأة ، ولكل شيء آفة من جنسه .

ارع الجار ولو جار

رعي الذمم وحفظ الجار سجية عربية أصيلة . كانت اولى مفاخر الجاهلية وعنوان السيادة وشعار النبل . بها يعتدون في مجالسهم ، وحكاياتها تدور على ألسنتهم . فهذا كليب يجير قبرة عششت في حماه ، ويناديها مهدئاً من روعها حين طارت من أمامه :

يا لك من قبرة بمعمري ‏ ‏ ‏ ‏ قد ذهب الصياد عنك فابشري
خلا لك الجو فبيضي واصفري ‏ ‏ ‏ ‏ ونقري ما شئت أن تنقري
فأنت جاري من صروف الحذر ‏ ‏ ‏ ‏ الى بلوغ يومك المقدر

رعى جوار تلك العصفورة فقتل الناقة المشؤومة التي دعست بيضها، ثم قتل هو بتلك الناقة فذهب شهيد كلمة خرجت من فمه . وأشعلت الانفة العربية حرباً دامت أربعين عاماً حتى قيل في أمثالهم : أشأم من ناقة البسوس .

وإذا تقدم بنا الزمن قليلاً سمعنا السموأل الشاعر المشهور في تاريخ العرب يصيح بملء فمه :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ‏ ‏ ‏ ‏ فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا ‏ ‏ ‏ ‏ عزيز وجار الأكثرين ذليل

وبعد فترة من الزمن قال الأعشى في وفاء السموأل الذي ضرب به المثل قصيدة رائعة . خيروا السموأل بين سلامة ابنه وبين تسليم أدراع امريء القيس فقال بلسان الأعشى : اقتل أسيرك إني مانع جاري .

وجاء الإسلام فأوصى بالجار ، وقال الله في كتابه العزيز : وان أحد من المشركين استجارك فأجره . كما قال السيد المسيح من قبل : أحبب قريبك كنفسك .

وأبو تمام حين وقف يبرر أحراق الافشين في الأشهر الحرام استعان بالجوار فقال في الخليفة :

ملك غدا جار الخلافة فيكم   والله قد أوصى بحفظ الجار
ما كان لولا فحش غدرة حيدر   ليكون في الاسلام عام فجار

وهذاك امرؤ القيس اما رووا انه قال :

أجارتنا إنا غريبان ههنـا   وكل غريب للغريب نسيب

والفحول الثلاثة الذين تناطحوا حول حوض المثالب لم يجدوا عاراً يصم به بعضهم بعضاً أعظم من الغدر بالجار ، فقال جرير يعير الفرزدق :

قتل الأجارب يا فرزدق جاركم   فكلوا مزاود جاركم وتدموا
لو حل جاركم إلي منعته   بالخيل تنحط والقنا يتزعزع

فرد الفرزدق عليه صارخاً :

ترى جارنا فينا يجير ، وإن جنى   فلا هو مما ينطف الجار ينطف
ويمنع مولانا وان كان نائياً   بنا جاراه مما يخاف ويأنف

كما قال مفتخراً في قصيدته الثانية المسماة بالفيصل :

جار إذا غدر اللئام وفى به   حَسَبٌ ودعوة ماجد لا يخذل

وشاركهما الأخطل في هذا الميدان فقال يسب قوم جرير .

قبح الاله بني كليب انهم   لا يحفظون محارم الجيران

وإذا تركنا الشعر ورحنا نروي الكلام المأثور سمعنا معاوية يقول: المروءات أربع : العفاف ، وإصلاح المال ، وحفظ الاخوان ، واعانة الجيران .

وفي العصر العباسي يقدس الرشيد الجوار ويبالغ في تعظيمه حتى يقول : الجوار نسب .

وإذا عدنا إلى الشرع رأيناه يولي الجار حقاً عظيماً ويعنى به ، فيجعل الأولية للجار في المبيع وهذا ما يعرف حتى اليوم بالشفعة . وبناء على حرمة الجوار العظمى جعل النحو للجوار حقاً ، فالعامل أحق بالمعمول المجاور له، فهو الذي يأخذه ، لأن الجار أحق بجاره .

وإذا تركنا الكتب وتقصينا ما يدور على ألسنة العوام من أمثال سمعنا هؤلاء يقولون ممتدحين الجار : جارك القريب خير من أخيك البعيد ، وجار الرضا . والجار ركن الدار . هيىء الجار قبل الدار . كما يقولون أيضاً : البغض بين الأقارب والحسد بين الجيران .

كذلك كانوا يوم كانت البيوت نقالة، اما اليوم وقد أصبحت البيوت مسمرة في أماكنها لا تحول ولا تزول ، فما علينا إذا أردنا أن نعيش مطمئنين هانئين إلا أن ننسجم مع من نجاور لنقاوم بهم ما يعترض سبيلنا من عقبات . ولكن ذلك التآلف قضت عليه مشاغل الأعمال ، وحال الركض وراء المادة بيننا وبين الائتلاف مع جيراننا . فرب جارين ، حيث تتراكم الأعمال ، لا يعرف بعضهم بعضاً .

زرت مرة صديقاً لي ، وفي بحر الحديث قلت له : فلان جارك .

قال : نعم جاري .

فقلت : احب ان ازوره فهل ترافقني ؟

فأجاب : لا تزاور بيننا .

قلت : عجيب ، ومن تزور اذا كنت لا تزور جارك !

فقال : ثقال الدم . زيارتهم مزعجة .

فقلت : أهم أثقل وأزعج من المصيبة ، فمن يشاركك في حملها غير جارك . ومن يكون اول راكض الى بيتك متى حلت .

وهب ان زيارته زيار يا سيدي ، فهي أخف من النكبة في كل حال .

وكانت زوجته تصغي الينا وأبت إلا أن تدس أنفها،ومضت تكيل لجيرانها القدح والذم بالمدّ ، كأنها لا تعرف إلا المكاييل القديمة .

لقد تغيرت أساليب الحياة . كان الانسان فيما مضى يرحل متى شاء ، ففي ساعة زمان يهدم بيته ويبنيه حيث يشاء ، أما قال طرفة يخاطب ابن عمه :

فدعني وشأني والذي أنا فاعل ولو حل بيتي نائياً عند ضرغد

أما اليوم فكيف نستطيع أن ننأى ؟ اننا مسمرون كما قلنا ، فما علينا إلا أن نتآلف ونتعاضد ونتكاتف لنعيش في هناء ، وسلام ، ولا تهيج صدورنا أتفه التوافه . قال مثلنا : جارك الذي تصبحه وتمسيه كيف تقدر تعاديه .

لقد اصبحت العمارة الواحدة تضم أسراً عديداً ، أفما على هـــذه الأسر أن تتسالم ، وتحافظ على راحة بعضها . أليس على الذي في الطابق الفوقاني أن يتئد في سيره فلا يزعج من هم تحته . الجـــار أمسى اليوم قعيد البيت فكم علينا من واجبات نحوه ؟

أما علينا أن نلجم الراديو ولا ندعه ينهق كالحمـار المربوط في الساحة ، يغني بأعلى صوته نشيد الغرام لكل أتان تلوح له .

أما علينا أن نحافظ أشد المحافظة على آداب اللياقة فلا يشمئز من هم فوقنا

وتحتنا من تصرفاتنا . ليت شعري علام يختلف الجيران ويتنافرون ، أليس على مثل هذه الامور التافهة ؟ فلولا تحاشيناها لجنبنا أنفسنا شروراً كثيرة .

نام أمير « لا أذكر اسمه » عند المأمون ، فكان الخليفة العظيم يكم فمه بلحافه اذا أخـــذه السعال لئلا يزعج ضيفه . ثم عطش المأمون فقام يمشي على رؤوس أصابعه لئلا يوقظ جاره .

فمن منا اليوم يفعل مثل هذا ؟ ارع الجار ولو جار ، هكذا قال من نفتخر عليهم اليوم بمدنيتنا ، مع أنهم كانوا أرعى منا لجيرانهم ، لهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم ، فأين كنا وأين صرنا .

اقتتل في قريتنا جاران ، فهاجر احدهما الى امريكا تاركاً أمه امريضة في البيت . وفي احدى ليلات كانون المطرة سقط جذع من سقف بيتها فكان اول من أسرع الى نجدتها خصمه . واحتمل البرد القارس والمطر الغزير ، وما انفك حتى وقاها من خطر محتم. أما أقرب الناس اليها فما دروا بما حل بها إلا ثاني يوم.

هذا ما قلته في الجوار ، وقس على ما قيل ما لم يقل ، واللبيب من اتعظ .

العفو حبيب الله

لولا استسلام الناس لغيظهم وغضبهم لما كان في الدنيا شر ، ولو اتسعت صدورنا ما خربت دورنا ، فرُبَّ غضبة يليها من الشرور ما لم يكن في الحسبان. أما تقول لجليسك إذا احتدّ او احتدم : خذنا بحلمك . فترى أن هذه الكلمة أطفأت نار صدره المتأججة ، وأغنت عن تكاليف كثيرة .

تدوس خطأ رِجل إنسان في الطريق ، فيقف ليرد لك الكيل كيلين حتى إذا ما قلت له بلطف : عفواً يا أخي ، او يا سيدي ، أجابك : لا بأس ، ويمضي كل منكما في طريقه ، وينتهي كل شيء . فهذه هي الكلمة التي يجب ان نعلمها أبناءنا حين يشبون عن الطوق ، فهي أمضى سلاح في معترك الحياة .

فالكتاب العزيز يعلمنا بل يأمرنا بقوله : خذ العفو وأمُرْ بالعرف وأعرض عن الجاهلين .

يظهر ان العفو سجية من سجايا العرب الأولى ، ولذلك مدح بها الشعراء كل ذي فضل . كنت فيما مضى أستشهد بأعاظم من كل الشعوب أما هنا فسأتكلم عن هذه المكرمة العربية مؤيداً ما أزعم بما أثر عن العرب من أحاديث تدل على محبتهم للعفو ، وتنافسهم فيه ، وكم في القديم من عبَر ودروس للمعاصرين ، وربما كان الميت أوعظ لنا من الحي . فالدرس الذي نعلمه بصورة إيجابية لا يؤدي

الفائدة التي تؤديها الدروس الاجبارية ، فمن طبيعـــة الانسان التشبه بمن سبقوه وهكذا تتأصل أخلاق الشعوب .

وأشهر من اشتهر بالعفو في الخلفاء كان المأمون الذي قال عن نفسه : لقد حبب إليّ العفو حتى أني أخاف ألا أثاب عليه . وقال أيضاً: لو علم أهل الجرائم لذتي بالعفو لارتكبوها وتقرّبوا إليّ بالجنايات .

وعمرو بن العاص ، وهو المشهور بصلابة العود مع دهاء ، روي أنه ركب بغلة له شهباء ومرّ على قوم ، فقال بعضهم : من يقوم للأمير فيسأله عن أمه ، وله عشرة آلاف ؟ فقال واحد منهم : أنا ، وقام وأخذ بعنان بغلته وقال : أصلح الله الأمير ، أنت أكرم الناس خيلاً ، فلماذا ركبت دابة اشهابّ وجهها !

فقال ابن العاص : اني لا أملّ دابتي حتى تملني . فقال الرجل : أصلح الله الأمير : أما العاص فقد عرفناه وعلمنا شرفه ، فمن الأم ؟

فكظم ابن العاص غيظه وقال : على الخبير سقطت. أمي النابغة بنت حرملة ابن عزة سبتها رمـــاح العرب فبيعت ، فاشتراها عبد الله بن جدعان وزوّجها للعاص بن وائل فولدت وأنجبت . فإن كان قد جعل لك جُعْل فارجع وخذه .

أما معاوية فأشهر من عرف بالعفو حتى ضُرب به المثل وقالوا: حلم معاوية. وحوادث عفوه وحلمه تكاد لا تحصى وما نذكر هنـــا إلا كبيرة تدل على سعة صدره وبُعد نظره وكيفية حله للمشاكل الخطيرة .

قالوا : كان لعبد الله بن الزبير أرض ، وكان له عبيد يعملون فيها ، وكان الى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها ، فدخل عبيد معاوية في أرض ابن الزبير ، فكتب هذا الى معاوية يقول : أما بعد يا معاوية ، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي فانههم عن ذلك ، وإلا كان لي ولك شأن والسلام .

أسمعت هذه الرسالة الجافة ؟ إنها تهديد للخليفة وإنذار بقتال . ولكن ابن حرب الذي حمل أثقال الدولة قبل وبعد لم تهجه هذه الرسالة بل قرأها ودفعها

الى ابنه يزيد ، حتى إذا ما قرأها قال له معاوية : يا بني ، ما ترى ؟

قال يزيد : أرى ان تبعث اليه جيشاً يكون أوله عنده ، وآخره عندك ، يأتونك برأسه . فأجاب معاوية : بل غير ذلك خير منه ، ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه : أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ وساءني ما ساءه ، والدنيا بأسرها عندي هينة في جنب رضاه . نزلت عن أرضي لك فأضفها إلى أرضك بما فيهـا من العبيد والأموال ، والسلام .

فلما قرأ ابن الزبير هذا الكتاب كتب اليه : وقد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، ولا أعدمه الله الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل والسلام . وقرأ معاوية هذا الكتاب ودفعه الى ابنه يزيد فلما قرأه تهلل وجهه فقال أبوه : يا بنيّ ، من عفا ساد ، ومن حلم عظم ، ومن تجاوز استمال اليه القلوب ، فإذا ابتليت بشيء من هذه الادواء فداوه بمثل هذا الدواء .

فكم من دماء تسفك من أجل شبر أرض ، ولو عقل المعتدي والمعتدى عليه لقابلا هذا التمدي بصدر رحب واقتدوا بمعاوية ولم يقتتلوا على حطام الدنيا التي لا تساوي كلها نقطة دم . فالعفو يجب ان يكون سلاحنا في حرب المعاش .

وأمر زياد بن أبيه بضرب عنق رجل ، فقال الرجل : يا أيها الأمير ، إن لي بك حرمة . فقال زياد : وما هي ؟

فأجاب الرجل : إن أبي جارك في البصرة .

فقال زياد : ومن أبوك ؟ فقال الرجل:يا مولاي ، إني نسيت في هذه الساعة اسم نفسي ، فكيف لا أنسى اسم أبي !

قيل : فرد زياد كمه على فمه ، وضحك وعفا عنه .

وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال له ذلك الرجل : ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هـذه الحسنة ، ووجهك هذا الذي يستضاء به ،

فأتعلق بأطواقك وأقول : أي ربي ، سل مصعباً لماذا قتلني .

فقال : اطلقوه . فلما أطلقوه قال : اجعل أيها الأمير ما وهب لي عفوك من حياتي في خفض عيش ، قال مصعب : قد أمرت لك بمئة ألف درهم .

وكان الخلفاء يتنافسون في العفو ، وكانت بطانتهم من أهل الخير ، فكانوا يمهدون أمامهم السبيل ، ومن ذلك ما جرى لعبد الملك بن مروان . غضب عبد الملك عن رجل فقال : والله لئن أمكنني الله منه لأفعلن به كذا وكذا . فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حياة : يا أمير المؤمنين ، قد صنع الله ما أحببت ، فاصنع ما أحب الله . فعفا عنه وأمر له بصلة .

وقال أبو ذر الغفاري الصحابي الصالح لغلام له : لمَ أرسلت الشاة على علف الفرس ؟ فقال الغلام : أردت ان أغيظك . فأجابه أبو ذر لأجمعن مع الغيظ أجراً . أنت حر لوجه الله تعالى .

وروي ان رجلاً شتم رجلاً فقال: يا هذا لا تتمادَ في سبنا ودع للصلح موضعاً، فإني أبيت مشاقة الرجال صغيراً فلن أجيئها كبيراً ، وإني لا أكافىء من عصى الله فيّ بأكثر من ان أطيع الله فيه .

وسبّ رجل الأحنف وهو يماشيه في الطريق ، فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له : ان كان قد بقي معك شيء فهات ، وقله ههنا فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا .

والأحنف هو الذي يقول : إياكم ورأي الأوغاد . قالوا وما رأي الأوغاد ؟ قال : الذين يرون الصفح والعفو عاراً .

وقال الرشيد لأعرابيّ : بِمَ بلغ فيكم هشام بن عروة هذه المنزلة ؟.

قال : بحلمه عن سفيهنا ، وعفوه عن مسيئنا ، وحمله عن ضعيفنا . لا منان اذا وهب ، ولا حقود إذا غضب ، رحب الجنان ، سمح البنان ، ماضي اللسان.

قيل : فأومأ الرشيد الى كلب صيد كان بين يديه وقال : لو كانت هـــذه الصفات في هذا الكلب لاستحق بها السؤدد .

وروي عن جعفر الصادق أن غلاماً له وقف يصب المـــاء على يديه ، فوقع الابريق من يد الغلام في الطست ، فطار الرشاش في وجهـه ، فنظر اليه جعفر نظر مغضب ، فقال الغلام : والكاظمين الغيظ . قـــال : قد كظمت غيظي . قال : والعافين عن الناس ؟ قال : قـد عفوت عنك . قال : والله يحب المحسنين قال : اذهب ، فأنت حر لوجه الله تعالى .

هذا ما نرجو ان يكون لنا منه شيء ، فإذا عفونا وغفرنا الاساءة ولم نقابلها بمثلها قضينا العمر هانئين ، ولأجل مثل هؤلاء قال الشاعر :

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالكرام فلاح

كتم السر فلاح

السر كالزهرة فإذا قطفت ذهبت معها الثمرة المرجوة ، والسر قطب تدور حوله دواليب الحيـــاة فلا تقف . فإذا بحت بسرك الى غير محب كتوم عوّقت أمانيك عن الدوران ، وأمسى سرك عقارب تلسع وأفاعي تلدغ ، فمن حبس سره في غيابات صدره بحيث لا يطل عليه أحد كفى نفسه شر الخيبة والخذلان وحبوط المسعى. ولهذا جاء في الحديث الشريف: واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود .

فأخو الحزم هو من امتلك قيــاد سره ، فلم يدعه يشرد ولم يطوّل له فيرعى حول بيوت الجيران ، ومن يفتح على أعين الحساد سجل أفكاره ليطالعوه وينشروه على الملأ فهيهات أن يبلغ مأرباً او ينال غاية . فأمناء الأسرار أندر من أمناء الأموال ، والسر حمـــل ثقيل لا ينهض به غير الحازم من البشر ، وليس بحكيم من يفضي به الى كل انسان . فكم جر البوح بالأسرار من ويلات على الأفراد والجماعات . فالذين يجرون الأسرار الى غاياتها ، مسلمين أعنتها الى من لا يستطيع ضبطها يسقطون في ميدان الكفاح وهيهات أن ينهضوا من تلك الكبوة.

فكم من دول طويت أعلامها وتحطمت سيوفها ودارت الدائرة عليها حين خانها احـــد رجالها وأطلع أعداءها على أسرار خططها . وكم من ملوك تناثرت

تيجانهم وهُدّت عروشهم إذ أذاع رجال حاشيتهم أسرارهم. كل هذا يعلمنا أن للسر شأناً عظيماً وأنه من دعائم الحياة الكبرى . فاذا تزعزعت الدعائم سقط البيت على من فيه وكانت العثرة التي لا تستقال. قال عمر بن عبد العزيز : القلوب أوعية ، والشفاه أقفالها ، والألسن مفاتيحها ، فليحفظ كل انسان مفتاح سره

وما حكاية شمشون الجبار وصاحبته دليلة إلا اسطورة ، ولكن الأساطير على ما فيها من غرابة ، تعلم الناس ألا يبوحوا بأسرارهم فينخذلوا . وكم من اسطورة يجد فيها من يقرأ بين السطور دروساً بليغة تغنيه عن الحقائق ، بل كم من لعبة نتسلى بها في سهراتنا دون أن نعلم أنها دروس لنا . لست أنسى لعبة (اعمل مخزنك عبك) التي هزئت بها صغيراً الى أن علمتني الحوادث كبيراً أن اجعل صدري مخزن اسراري .

واذا سألنا شمشون الجبار: أما انت الذي قتل ألف رجل بلحي حمار طري، فأين قوتك ؟ أفلا تستطيع ان تقطع هذه القيود الواهية ؟ ألا تقدر أن تفلت من قبضة أعدائك وتعيد سيرتك الاولى في البطش والنكاية ؟

انه يجيبنا ولا شك : بحت لزوجتي دليلة بسر قوتي فجزّت شعري من حيث لا ادري ، فهنت على اعدائي وصرت ألعوبة لهم .

من يجهل منا أهمية الجاسوسية في الحروب، فشمشون وصاحبته يمثلان الدول وجاسوساتها . فكم هتكت الجاسوسات الحسان من أسرار شمشونية ، فكانت الوسيلة العظمى لتغلب من يتجسسن لهم على أعدائهم .

نسمع كل يوم الاحاديث عن القنبلة الذرية وأسرارها . فهنا دولة تسدل على مصانعها ستوراً كثيفة ، وترخي عليها سدولاً أين منها سدول امرىء القيس التي شبهها بموج البحر . وهنالك دولة اخرى تحاول اكتشاف تلك الأسرار للتوفق الى قوة جامحة تفني الأعداء جملة وتفاريق .

فلنحذر اذن اولئك الرواد الذين يطوفون حول بيوتنا ويدخلون مخادعنا

ليكشفوا عوراتنا ويطلعوا عليها أعداءنا بل فلنتق ذاك الذي يرينا اخلاصاً لا تشوبه شائبة ، وفي قدر صدره يغلي الحقد والحسد . فاذا قلت له اريد يا جار ، أن أستودعك سراً فهل تقدر أن تكتمه ، فيجيبك بقول العجائز ، عندي للسر بئر عميقة . حتى اذا ما فاز بأمنيته حمل سرك الى أعدائك وأحبط مساعيك . عبثاً تحذره من الإفشاء ، وإياك أن تصدقه ولو حلف ألف يمين . إن قولتك له : هذا سر بيني وبينك ، قد تكون دافعاً له على اذاعته . فالسر على خفة حمله قلما ينهض به احد ، انـــه كالأمانة بل هو أعظم أمانة لا يحملها إلا الجمل بمكارم الأخلاق ، ولذلك حضنا الاولون على الكتمان بقولهم: كل سر جاوز الاثنين شاع.

نعلى من يبتلون بأصدقاء يذرون كلما طابت لهم الريح ، أن يتكتموا وأن يجعلوا علىأفواههم أقفالاً.فمن الغلط بل من الشطط أن تبوح لمثل هؤلاء بسرك، فخير نصيحة لنا في مثل هذه الحال هي أن نعمل بقول الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربمـــا انقلب الصد يق وكان أعـــلم بالمضرة

وكأني بمن يسلم سره الى غيره يقول له في تلك الساعة : ها قـــد صرت أسيراً لك فارفق بعبدك يا سيدي .

وبعد فمن طبيعة الناس وفضولهم تسقط الأخبار ومعرفة الأسرار ، ولذلك علموا بعضهم طرق الحصول عليها من أقرب سبيل ، فقالوا : خذوا أسرارهم من صغارهم .

وإذا قلبنا الأسفار ، رأيناها ملأى بالنصائح الكثيرة التي تحض على كتم السر وتعد من يحفظه مثلاً للذين والواتي .

فهذا جرير يصف أم حرزة بحفظ السر واللسان فيقول :

ولا تمشي اللئام لها بسر ولا تهتدي لجارتها السبابا

وقال الأعشى قبله في هريرة : ولا تراها لسر الغير تختتل .

وقال بشار بن برد ينصح : ولا تشهد الشورى امرأ غير كاتم . اما ابن المقفع فله في هذا أقوال تصلح دساتير يجب ان تعمل بها الناس لتتقي شروراً كثيرة .

وقالت العرب : من أقبح الغدر أضاعه السر،فلا تستبطن إلا الثقات الأمناء. وعندهم ان إفشاء السر وإظهار الغدر ، وغيبة الأحرار ، وإساءة الجوار ، هي أربع من علامات اللؤم .

كما ان هناك اربع خصال تدل على الجهل وهي : صحبة الجهول ، وكثرة الفضول ، وإذاعة السر ، واحتقار البر .

والعوام إذا أرادوا ان يمدحوا رجلاً بكتمان السر والترفع عن الاغتياب قالوا : لسانه دافىء . وليس من يشيع الدفء بين الناس كمن يرميهم بالعواصف والقر والزمهرير. إن من يذري أسراره في مهب الرياح لهو كمن يطلق من قفصه طيراً يعز عليه ان يفارقه .

قال الجاحظ في وصف الكتاب: هو أكتم للسر من صاحب السر، وما ذاك إلا برهان على أن كتمان السر ليس بالأمر السهل ، فإذا طلبت بين الناس من لا يبوحون به فقد لا تجد في الألف واحداً لان البشر مطبوعون على الثرثرة .

يتهمون المرأة بإذاعة الأسرار ، وقد عرفت رجالاً لا يتحدثون إلا بقال فلان ، وقالت فلانة . واذا فرغت جعبتهم من أسرار الجيران ينشرون ما في بيوتهم لأن ذلك من طبعهم ، ودليل على ضعفهم . فلنتق شر هؤلاء وخصوصاً إذا كانوا ممن لا يكتفون بالمتن بل يعلقون عليه الحواشي والذيول ... وقد صدق الشاعر الذي قال فيهم :

لي حيلة فيمن ينم ... وليس بالكذب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتي فيه قليلة

وأخيراً فنحن لا نعني بالأسرار ذلك الكلام الذي يقال في جلسات يعقدها

من لا مروءة لهم للواقعيــة بالناس . فتلك أصحابها جبناء ضعاف يطعنون في الظهور لا في الصدور ، وعلينا ان نشهر بهم ليتأبام الناس، فليس ما يستودعونه صدور الآخرين إلا اغتيابا . وإنما نعني بالسر ذلك الأمر الذي ينفعنا ولا يضر غيرنا ، فهذا ما يجب ان ندفنه في قاع الأرض .

فلا تفتح يا أخي باباً تعجز عن اغلاقه ، ولا ترم سهماً لا تستطيع ردّه ، وان عاد فإلى صدرك ، وإذ ذاك يصح فيه قول الشاعر : وإذا رميت أصابني سهمي .

الى جندي

بان لي انك متبرم بما صرت اليه ، كأنما كنت ترجو غير ما وقعت عليه ، وكأنما الجندية في نظرك – كما اشتممت من رسالتك – أحط منزلة مما كنت اليه تصبو وتطمح . ربما دار في خلدك ان تهرق شبابك على حفافي كرسي .. فلا تقوم عنه حتى تترهل مثلي وتفقد ماء شبابك فتجده قد ساح تحت أرجلها ، وتفتش عن نشاطك فتراه قد تسرّب من ثقوب غربالها .

الله الله يا بنيّ ! لا لوم على المخضرمين مثلنا إن صغرت الجندية في أعينهم ، قد نكون غير مخطئين مثلك ، لأن الجندية في عهدنا كانت رزقة من لا رزق لهم . كنا في لبنان مرقد العنزة ، لبنان البروتوكول ، ولم نكن مثلكم في عصر الكفاح والجهاد ، في العصر الذي تتجند فيه المرأة والملائكة .

تقول لي : وأخيراً صرت جندياً ... كأنك تعني انك بعدما تبحرت في دراسة آداب العرب والعجم ونلت ما يسمونه البكالوريا تأسف ان تكون العقبى ما كانت .

أما أنا فرأيي غير رأيك ، ووجهة نظري تختلف جداً عن وجهة نظرك . أتوقع ان أراك مروضاً خشناً مطيعاً ، تسمع كلمة الآمر فتدور كخذروف وليد امرىء القيس ، وتقبل وتدبر وتنحط من عل كجواده . ان صوت جرس المدرسة

رخيم ، أما بوق الثكنة فنعّار . سوف تشكو في بادىء الأمر ، وقد تسيل دمعاً من خلائقه الكبر متى أضواك الليــــل ، ولكنك ستكون رجلاً إن صبرت . تصور الساعة التي يزين بها هندامك بالشرائط الفضية والذهبية وتلمع على صدرك نجوم المجد وبدور الشرف فتصبح فلكاً دواراً .. احلمْ بمجد الجندية الذي يسير مع مجد الوطن جنباً لجنب تستمرىء فظاظة المدرّب وخشونة الآمر . فالوطن كله يتجسم فيك ، في قلبــه وعلى حدوده ، فأنت الوطن والوطن أنت . ان الجندية يا عزيزي ، هي المدرسة العملية تدخلها الآن بعــــد مدرستنا النظرية ، ولك فيها دروس قاسية كل واحد منها يروض بمقدار ألف درس من دروسنا .

شتان مــا بين بيتكم والثكنة . فقد كنت لا تنهض إلا متى شئت ، تستسلم للفجر فتدغدغك أصابعه السمراء وتغرق وتعوم في بهجة الصباح ملقياً همك على أبيك . ولكن للفجر لذة اخرى لا يذوقها إلا المستيقظ النشيط ، وللصباح محيّا وثاباً لا يستقبله إلا المبكر . سيعلمك الواجب العسكري كل هذا فاصبر تتعود . ان المرء مجموعة عادات ولا مكان يثبت العادة ويمكنها مثل الثكنة العسكرية .

إن أول رب واحد عرفناه كان رب جنود، رب ابراهيم ويعقوب، أما اليوم فجميع الأرباب يا عزيزي، أرباب جنود ، فهل نبقى وحدنا في هذا العالم نهرب من الجندية هربنا من الطاعون ؟ افتح مزامير داود واقرأ المزمور الرابع والثمانين ففيه يصيح : مــا أحلى مساكنك يا رب الجنود ، طوبى للساكنين في بيتك ، يا رب الجنود طوبى للمتكلين عليك .

أجل إن الوطن يتكل على جنوده الايقـــاظ .. انهم السور المحيط بالقصر والسور يظل منتصباً حارساً. لا تحسبن الجندية أمراً حقيراً ، انها فضيلة عظمى، فضيلة عملية. انها فضيلة في ذاتها وفضيلة في مفعولها. هي الحارس الأمين للفضائل التي تواضع المجتمع على تقديسها . ففي يدك أنت الذي تستحقر عملك ، حيــاتي وحياة آمرك وآمري ، فلا تستصغر مهمتك . فالمهمة تكبر بمن يتولاها ، فإذا عرفت منزلتك وعظم شأنها أدركت الاحترام الذي تصبو اليه نفوس الشباب .

إن الجندي هو أحد الحروف التي يكتب بها تاريخ الوطن . فجد لتكون حرفاً مشدّداً فلا تخرج رخواً ولا مائعاً فيمجكَ الذوق وتنبو الآذان عن سماعك. كن حرفاً يتم المعنى ويقويه ويخلع على التعبير حلة سحرية . ان الوطن في أقصى الحاجات الى الجندية ولا يتحـــد بنوه إلا تحت سقف بيت رب الجنود الذي هو الوطن .

لو علمت يا عزيزي كم حبـة من القمح تتحد لتؤلف غذاءك اليومي ، الغذاء الذي تلح صباح مساء على ربك في طلبه ، لهان عليك الأمر . هلمّ نتأمل معاً أطوار الحبة فتهون عليك أطوار الجندية . فالحبة تموت أولا ، وأنت بحمد الله لا تموت ، ثم تخرج عشبة تقاسي ألف ويلة قبل ان تصير سنبلة تتلع عنقهـا بغنج وحيـاء حتى إذا استوت ونضجت بين يدي الحرّ والقرّ حُصدت وحُملت الى البيدر لتحتمل محنة النورج . وبعد آلام الدياس يأتي ضغط الرحى ويا للهول ثم العجن وكم في العجن من آلام . ناهيك بمـــا ينتظرها من حرّ متقد في التنور ، ومن نار حمراء تحت سقف الفرن ، حتى إذا أصبحت رغيفاً قدمت لك فأكلتها هنيئاً مريئاً .

إن الحبة لا تتذمر إذ تقطع هذه المراحل الشاقة ، وهل تظنن اننا جميعاً غير حب يطحن ليغذي ويبقي النوع . إن قول أبي العتاهية يؤيد ما أقول :

النـــاس في غفلاتهم ورحى المنيـــة تطحن

تأمل يا عزيزي كأس الخمر التي فتنت الأخطل وأبا نواس وتذكر كم تحدثنا عنها في الصف ، تارة مجدين ، وطوراً ضاحكين ، وأحياناً مستهزئين ومقبحين. انها مؤلفـة من آلاف حبوب مرّت في أطوار أقلهـــا هولاً وألماً يفوق أشد أطوارك . فكما تتحد ملايين الحبات لتؤلف غذاءنا وشرابنا ، كذلك يجب ان تتحدوا أنتم الشباب لتؤلفوا الوطن ، ولا وطن بدون جنود .

أرجو أن أراك رغيفاً شهياً في مأدبة الوطن ، رغيفاً تفترسه العيون قبل

الأيدي . أرجو أن أراك كأساً مثل عين الديك صرفاً . أتخيلك كولونيلاً أو جنرالاً بعد أن تمر في محنة القمح والعنب. إن الوطن يحتاج الى مثل هذا الاتحاد، اتحاد الحنطة والعنب ، ولا يكون ذلك إلا في صفوف الجنود . إن للخبز والخمر في المسيحية معنى كهذا الذي بسطته لك ، وما أسماه معنى ، فلسنا نجد قوتنا القومي إلا في مساكن رب الجنود وما أحلاها يا عزيزي .

عرفت الجندي لعيناً ونطاراً . ورأيته جلاداً ، وعشت حتى رأيته ، اليوم في هذا العصر ، صديقاً ومرشداً ، ولا شك في أنك ستكون من عصابة المرشدين الحكماء لأنني لمحت فيك ، إذا عرفتك واختبرتك ، الفضائل الأدبية الأربع : الفطنة والعدل ، والقوة والقناعة .

ففطنتك تنير طريقك فلا تعثر بحجر رجلك ، والعدل ينظم أعمال إرادتك ويرتبها فلا تظلم ولا تحابي ، والقوة تجملك تتمثل بقول القائل : لاستسهلن الصعب أو أدرك المنى . والقناعة تحفظك بريئاً من كل مـــا يتسخ به ثوب من يخدمون الجماعات .

وقصارى القول يا أخي ، إن الجندي الأمين يحمل الناس فضلاء غصباً عنهم. فهو حافظ الحقوق من الامتهان متى كان عادلاً ، وحارس على الأخلاق الفاضلة متى كان فطناً ، وصائن الضعيف وحاميه متى كان قوياً ، وقاتل الطمع ، علة المجتمع الكبرى ، ان كان قنوعاً . ومن كان عادلاً قوياً قانعاً فطناً كان رجل التضحية . ونحن أفقر الناس الى التضحية .

وان قلت ما هذه المواعظ الجافة يا معلم، فما هكذا عودتنا ! فاسمع الجواب: اني أخاطبك جندياً ، والجندية لا تعرف الهزل لأنها جد كلها ، ومتى خالطها الهزل تشوش نظامها وسقطت الفائدة المرجوة منها .

تصور فرقة تتمرن وتضحك ، فما تراه ينطبع في نفوس أفرادهـــا . انهم يخطئون أهدافهم وتنقلب نعالهم ويضيع تعبهم . ان مهمتك جدية كلها ولا

متسع فيها للنوادر والفكاهات . ومتى استقام لك نظامها وتمكن من نفسك وكتبت إليّ كتاباً عامراً بالإيمان حافلاً بالرجاء منتمشاً بالمحبة لرفاقك ولمدربيك الذين قلت فيهم : انهم وجوه من خشب فارقتها المأوية منذ قرن ونيف ...

أجل متى حدثتني عن الجندية حديث أخ بطل لا مكره ، أكتب اليك باللهجة التي تمهدها بي ساعة النشاط والجمام . أما الآن ، يا حبيب القلب ، فأقول لك المثل المعروف : من دق الباب سمع الجواب ...

أودعك الآن وأترقب بصبر تباشير الساعة التي أرى فيها الحجل مزوقاً ، أي ساعة تظهر على جناحيك الألوان ، فأنت الآن يا حبيبي ، كأفراخ الحطيئة بذي مرخ لا ريش ولا وبر . فاجتهد تصر طاووساً ، نجاك الله من خيلائه وزهوه . نسيت أن أحييك وأقبلك فاعذرني . ولك أن تسمي كتابي هذا (الأبتر) كما سموا خطبة زياد البتراء ، والى اللقاء .

الميلاد

أجراس تطن ، ونواقيس ترن ، في أربعة أقطار المسكونة تمجيداً لذكرى ميلاد من أرسله الله آية للناس ورحمة منه . انه يوم تجديد أمل الإنسانية بعالم أحسن وعالم أفضل . فمنذ ألف وتسعمائة وخمس وخمسين سنة رأى المجوس نجمه في المشرق فجاؤوا ليسجدوا له مقدمين القرابين مراً ولباناً . وفي مثل هذه الليلة سمع الرعاة أصواتاً ترتل في الأعالي : المجد لله في العلا ، وعلى الأرض السلام ، وفي الناس المسرة ، والرجاء الصالح لبني البشر .

هذا ما اعتاد ترديده الناس يوم هذا العيد السعيد. أما أنا فلست ممن يعومون في غمر الصوفية ما دام هناك قنبلة ذرية . وكيف أقول : وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة ... ان صح ان دولة مـــا تستطيع ، لو شاءت أن تبقي على الجنس البشري أو أن تمحوه من الوجود .

المجد لله في العلا ، وعلى الأرض السلام ، تخرج اليوم من أفواه مئات الملايين مرتلة ترتيلاً شجياً ، موقعة توقيعاً رخيماً على اصوات الاجراس والنواقيس ، والصنوج والأرغن والبيانو . ولكنها ، ويا للأسف ، لا تتجاوز طرف اللسان ، ولا يحس بها الجنان .

ما أحوج البشر الى الغوص على كنه كلمات يسوع وتعاليمه ، وما أفقر العالم

الى درهم من علاجه الروحي . جاء يسوع ليشيد مملكة الروح ، فأين هي تلك المملكة الروحية ؟ أتتجاوز مبادئه السامية حدود التغني بها .

أترى الميلاد هو في أن نهدي الى اولادنا لعباً طريفة ، والناس حولنا وحوالينا لا يجدون رغيفاً .. وهل الميلاد في تبادلنا أكياس الملبس وعلب الشوكولا ، بينا غيرنا يعد لنا القنابل صغيرة و كبيرة .

وهل الميلاد في التنافس بعمل شجرة اصطناعية ، بينا جناتنا الحقيقية مجتاحة يابسة تحن الى الحراث وتبكي على المعول ؟

وهل الميلاد في إنفاق الملايين على اصطناع (مغارة) لا تنقع غلة عطشان ولا تشبع كبداً جائعة ؟

والمسيح الذي نعيد لميلاده قال لنا : من سقى هؤلاء المساكين كأس ماء بارد باسمي ، فأجره لا يضيع . فوالله لو مرّ المسيح مرة واحـدة على بيوتنا لعادت اليه نخوته ، يوم دخل الهيكل ، وأعمل في ظهورنا السوط الذي طرد بـه باعة اليام والحمام .

وهل عيد الميلاد في أن نحمّل شجرته مئات الشموع ، ونضيء مغارته بمئات اخرى ، وبيوت جيراننا في ظلمة دامسة وقلوبنا في ظلمات أدجى ؟

وهل العيد في أن نذبح الديوك حبشية ، وهندية ، وبلدية ، ونأكل ونشرب هنيئاً مريئاً ، والبؤساء حولنا مشتهون العضة بالرغيف ؟

وهل الميلاد في أن نقطع لأولادنا ثياباً نسيج وحدها ـ كوبون ـ والفقراء اخوة المسيح ، عراة حفاة ليس لهم اطمار يسترون بها عوراتهم ؟

اللهم سترك ، وعفوك عمن يعيدون هكذا !

الهياكل والكنائس والمعابد تمتلىء ليلة الميـلاد بالمرتلين : هاليلويا . كيرياليسون . آمين .

ستردد هذه الكلمات مئات ملايين المرات ، من أفواه الملايين المعتقدين أن العيد بدونها لا يكون كبيراً وعظيماً، مع أن صاحب العيد هو القائل في انجيله: ليس من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات ، بل من يعمل إرادة أبي الذي في السماوات .

لقد جاء المسيح ليبلغ الناس إرادة أبيه الذي في السماء ، وقد شعر بذلك تلاميذه فأطلقوا عليه لقب (المعلم) وما دمنا نعيد لذكرى ميلاد معلم إلهي فحسناً نصنع اذا ذكّرنا الناس بما علم .

ان السيد المسيح هو رسول تحرير ورحمة . ظهر في زمن كان فيه البؤس عظيماً فألقى محياه الإلهي رجاء وأملاً في نفوس الساقطين تحت الأحمال الثقيلة ، فقال في خطبته على الجبل : طوبى للحزانى لأنهم يتعزون . وكأنه أراد أن يدخل الرأفة الى قلوب الملوك الذين اذا ما دخلوا قرية أفسدوها ، فقال أيضاً : طوبى للرحماء فإنهم يرحمون .

ثم التفت الى تلاميذه الملتفين حول منبره الجبلي وقال لهم: أنتم ملح الأرض، وان فسد الملح فبماذا يملح . أنتم نور العالم وهل يوقد سراج ويوضع تحت مكيال.

وأدرك السيد أن السلطة تحصي عليه أنفاسه،وان جواسيسها حوله وحواليه، فقال أولاً : ما جئت لأنقض الناموس بل لأكمل . ثم مضى في النقض والإبرام فقال : قيل للقدماء لا تقتل ، أما أنا فأقول لكم ان كل من يغضب على أخيه باطلاً يشجب ، ومن قال له يا أحمق ، يستحق عذاب جهنم .

وهنا تصطدم في رأس السيد فكرة كانت سائدة في ذلك الزمان ، وهي اعتقاد الناس ان بالصلاة وحدها تمحى الذنوب، فأمر بترك القرابين على مذابحها، والذهاب الى مصالحة من تذكرنا اننا أخطأنا اليهم .

وأراد ان يخفف من حدة شريعة ذلك الزمان فقال : سمعتم انه قيل : العين بالعين والسن بالسن، أما أنا فأقول : لا تقاوموا الشر بالشر . من طلب ثوبك

اترك له رداءك ، ومن سخّرك ميلاً امشِ معه ميلين . ومن سألك فاعطه ومن أراد ان يقترض منك فلا ترده .

ورأى تباغض الناس، وتطاحنهم حول حطام الدنيا فقال : قيل لكم : حب قريبك ، وابغض عدوك . أمـا أنا فأقول : أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم . أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم لتكونوا أبناء الله الذي يشرق شمسه على الأشرار والأخيار ، ويمطر على الأبرار والظالمين . فإذا أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم . أليس العشارون يفعلون ذلك ؟ وإن سلمتم على اخوتكم فأي فضل تصنعون ؟

وكأن السيد أراد ان لا تكون الأعمال خبثاً ورياء ، بل أرادها صادرة من القلب ، منبع المحبة والرحمة ، فقال يحث على الإحسان لتخفيف ويلات البشر : لا تتصدقوا قدام النـاس فيضيع أجركم . فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون ليمجدهم الناس ، بل لا تدع شمالك تعرف بمـا صنعت يمينك .

ثم ينهى عن الغش والخداع والكذب ويريد ممن يريد ان يكون مسيحياً ، ان يكون شجاعاً صريحاً لا يداجي ولا يداهن ولا يماحك فيقول: ليكن كلامكم نعم نعم، او لا لا. أنتم تعرفون الحق والحق يحرركم فلا تخافوا . إن حبة الحنطة إن لم تمت لم تعش .

وقد يقول القائل : قل لنا كيف نعيد ؟ الجواب عندي يا أخي، هو أن تخلع ثوب أنانيتك . فإن كنت حاكماً فوزّع العدل بالقسطاس والميزان ، وبهذا تعيد الميلاد على حقه . وإن كنت محكوماً فابتعد عن الإساءة ، ولا تضرّ بالنـاس ، وهذا ما يسألك إياه صاحب العيد .

وإذا كنت معلماً فحاول أن تبث الأخلاق الفاضلة في نفس من تعلم واقترب جهدك من المثل الأعلى . لا تنس أن يسوع هو المعلم .

وإذا كنت سيد شعب فلا تجرّ أمتك الى المجـــازر البشرية ، فالمسيح جاء رسول سلام وهو الذي علم : من ضربك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر .

وإذا كنت صاحب مصنع فتذكّر مَثَـــل من بنى بيته على الرمل ، وأتقن صناعتك جيداً .

كلنا يعلم اسطورة (البابا نويل) . يزعمون ان هـــذا الشيخ يأتي ليلاً ويمنح هداياه وجوائزه الجميلة للأولاد الصغار الهادئين الذين لا يقلقون سكينة البيت وراحته . ترى ألا يتجاوز هذا البابا نويل صلاحيته الصغرى ، فيمنح قادة العالم جوائزه العظمى ، لعلهم يتركون عباد الله المساكين مستريحين في مزارعهم ، فلا يغرقوهم في بحار الدماء ...

وقصارى الكلام ، إن عيد الميلاد يكون عيد ميلاد على حقه إذا ولد فينـــا قلب جديد ، قلب يرافق تعاليم صاحب العيد ويعاشيها .

ويكون الميلاد ميلاداً حقيقياً متى حوّلت الاختراعات الهدامة لخدمة البشرية التي أحبّها يسوع ، وإذ ذاك تنتصر مملكة الروح التي أرادها المعلم حين قـــال : ليس ملكوت الله أكلا وشرباً بل براً وسلاماً .

الى رجل الغد

يا حبيب القلب .

لأجلك اليوم أضع الحبر على الورق ، وهما سميراك ونديماك . أنتم جماعة الطلبة ، غاية كل امة . أنتم الحجارة التي نشيد بها صروح الأوطان . يسمونكم اليوم رجال الغد ، وقد سماكم الشاعر من قبل ، أكبادنا التي تمشي على الأرض . فأنتم ، كيفما دارت بكم الحال، رأس مال البيت الأصغر والبيت الأكبر ، أي الاسرة والوطن ، ومن لا تهمه صيانة رأس ماله وتنميته . فاقرأ اذن ، غير مأمور ، كلمتي الموجهة اليك ، أيها العزيز ، في تشرين الأسود ، لا الأغر .

أرجو يا بنيّ ، ألا تكون ضيعت اللبن في الصيف . فأمانيك الصيفية قد تناثرت امنية امنية ، كما بدأ يتناثر ورق الشجر ورقة ورقة ، فعسى أن تتعلم من الخيبة كما تتعلم من الفوز والنجاح .

غداً او بعد غد ، وان امتد الأجل فبعد اسبوع ، ستفتح بوابة المدرسة ذراعيها الكالحتين وتنطبق عليك كماشتها السوداء ، فلا سراح ولا براح .. غداً ستراها ، ولا أخالك مت شوقاً الينا ، ولكن اخوك مكره لا بطل ، كما قال المثل القديم، ومن يدري فلعلك قائل مع الذي استبشع وجه الحريري : وجه الحريري وجه قرد والضرورات أحوجتنا اليه ، فليكن . أما انا الذي لا أكتم

شيئاً عنك فأقول لك ما قاله البدوي :

شكا إليّ جملي طول السرى   صبر جميل فكلانا مبتلى

فهلم اذن يا عزيزي ، الى مدرستك طيب النفس ، مرتاحاً الى لقاء أساتذتك المتساوين معك بالعظمة والكرامة ، فكلا كا تقولان معاً : الله مع الصابرين ...

رويدك يا ولدي ولا تكن لجوجاً ولا حروناً ولا شموساً . فالعلم لا يدرك إلا بالصبر، والصبر الطويل الجزيل، فاصبر على كل ما لا يرضيك ... فمنذ زمان لم أخصك بشيء ، مع أنك يا عزيزي، موضوعي المنشود ، وعليك أبني الرجاء، فعسى ألا يكون بنياني على شفير هاوٍ . سوف لا أنقطع عنك بعد اليوم ، وأما خير ما ازودك به الآن من نصائح الموسم فهو رسالة أخ خرج من المدرسة كتبها الى أخيه الصغير الداخل اليها حديثاً .

ان عهد هـــذه الرسالة يرجع الى ربع قرن تقريباً ، وهأنذا أسردها لك بحروفها لترى اسلوبها وتعلم أن الكتابة تسير سير الأزياء في موكب الزمان . فاسمع الى المعـاني المقصودة وأعر طرفك الصور . إن جدك لبس مثلك حريراً وصوفاً وكتاناً وقطناً ، ولكن الهندازة تغيرت والتفصيل تنوع . فاصغ ، حفظك الله ، الى ما كتبه ذاك الأخ ، قال :

أخي الحبيب .

أمس كان عقد شملنا منظوماً ، وملائكة الاتحاد ترفرف فوق رؤوسنا . أما اليوم فقد انفرطت منه حبة صغيرة عزيزة على قلبنا وهي أنت. قد بتَّ سجيناً، والمدرسة سجن يدخله الولد طائعاً مختاراً . إن قفص المدرسة حلو ، فكما يسجن الطائر الذي ترجى فصاحته ليطرب ويشجي ، كذلك يسجن الفتى الذي مثلك ليسمع الوطن صوته في غد ، فاجتهد لكي تبرع ، فمـــا نحن إلا طيور عابرة في فضاء التاريخ الهازىء .

ليست آلام أمي وأمك ، بأخف من آلام أم الطائر الذي انتزعته أنت في

أول الصيف من عشه . أتتذكر صراخها ؟ هـــذي حال أمي وأمك . أتذكر العصفورة المفجوعة بولدهـا كيف كانت تحوم حول بيتنا ؟ كانت تقع بحذر على عيدان القفص الذي أعددته أنت لابنها . هـذه حال امك اليوم ، لا يزال قلبها يرافقك وعيونها ترف حول أسوار المدرسة ، ودموعها جارية في وادي الوجنات ، فبالله عليك لا تتوانَ . ادرس ليل نهار لتحول دمعتها الريّانة الى ضحكة رنانة .

لا بد من ان تبكي عنـدما ترى نفسك صغيراً بين أفراخ الانسانية ، ولا سيما عندما تحملك الذكرى على أجنحتها الى عالم الأحلام فتبدأ لأول مرة تتذكر أيام صبوتك الحلوة . ستتذكر أيام كنت تلعب مع عشرائك تحت سنديانة الضيعة ، أيام كنتم تطوفون قاطفين الأزهار ، قابضين على الفراشات اللطيفة المنكبة على الزهرة تصافحها وتناجيها ، وتسرّ اليها ما لا يعلمه إلا المبدع الحكيم . قد كنت قاسياً أيها الصغير .

أنا عارف انني اهيج شجونك ولا أعزيك في بليتك الجديدة . لا بد من الألم يا عزيزي ، فهو مهماز يحثنـــا على السير لنبلغ الواحات المرجوة . هكذا تألمت قبلك حين تذكرت ، ففاضت شؤوني واتقدت شجوني . الذكرى مُرّة يا أخي الصغير ، ولكنها لا تخلو من حلاوة ، ولولا المر ما عرفنا قدر الحلو .

سوف لا يروقك هـذا الطور الجديد ، ولكن تصبر لتذوق طعم الحيـاة المدرسية ، إن لهـا حلاوة خاصة لا تنساها طول عمرك فتمتع من شميم عرار نجد ..

لا تخشَ بأس المعلم فهو ليس غولاً كما صوّروه لك . إنه أخ وأب وصديق إذا أحسنت سياسته ، فكن لبقاً ولا تزعجه . فهذا المسكين يخشاك كما تخشاه ، فاعرف أنت من أين تؤكل الكتف . إن (فلق) الخوري ابراهيم ، و (طبشته)

لا وجود لها في دنياك الجديدة، فبالكلام اللين يروضون اليوم أشبال الانسانية. الضرب ممنوع ، ولا يحظى بلقائه إلا صاحب المخ اليـابس ، فكن مطيعاً تنجح وتسلم . لا تهتم بغير تقليب صفحات كتـابك إذا شئت ألا يقلب لك المحيط صفحته . احفظ النظام يحفظك ، لا تكن ثرثاراً واذكر قول والدتنا : لسانك حصانك إن صنته صانك .

النهـار الصافي يعرف من صباحه ، فلتزهر صبوتك ليثمر شبابك . الطريق الطريق . أما سمعت حكاية المرحومة ستي عن النعجة التي شردت من الصيرة ، فأكلها الذئب ؟.

إن في المدرسة طغمة هم غير رفاقك ، صغار الضيعة . فلا تعـاشر إلا خيرهم لتعود الينا كما خرجت من عنـدنا . لا تبالِ بقول من يزعم انه يقوّم اعوجاج رفيقه ، فالخل لن يعود خمراً مهما حاولنا وتعبنا . الدرس الدرس . أنسيت كلمة والدنا : الدارس غلب الفارس . فاجتهد ترجع الينا فائزاً منصوراً .

كان أبي يسأل عني بعض معلميّ فيمتدحون عبقريتي حتى سموني فيلسوف المدرسة . أما حين دخلت العـالم فوجدتني أجهل أبسط الأمور . قد كنت أضحكُ ما استطعت حين أسمع شهادة الزور فيّ ... عفواً ، شهادة المبـالغة التي تعوّدناها في أحاديثنا كلهـا . كنت أضحك من مديح معلمي ومغالاته وأقول في قلبي : مسكين والدي . إنه يجهل العلومَ التي أتلقاها ، فلو ألقى عليّ بعض أسئلة لأضحكه جهلي الواقع ، وعرف ان ابنه يتعلم ما لا يمس حياته ولو عن مسافة أميال. أما أنا والشكر لوالدي الذي باع (كرم الجوره) حتى علمني، فصرت لا أسأل عنك المعلم بل أتولى فحصك بنفسي .

ان الطحّان لا يغبر على الكلاس . فاجتهد لتحسن الاجابة على أسئلةٍ ،

وأدق لك على ظهرك أمام الأهل والجيران فتطول قامتك شبرين ... .

نصيحة يا أخي . إن المدارس أمست تعلم الاسراف وليس الذنب ذنبها . فالولد مطبوع على التشبه فلا تتشبه بسواك . كن مقتصداً لا مبذراً ولا بخيلاً ، فالمبذرون اخوان الشياطين ، والاسراف وخيمة عواقبه . لا تتشبه بابن من هو أوفر ثروة منا بل اجتهد لتفوقه أدباً وعلماً ، فالعلم سيكون رأس مالك الكافي لتعيش مثله في العالم . ان المدرسة التي أنت فيها توطئة لمدرسة أعلى منها ، فتعلم جيداً ليسهل عليك دخول بوابتها ، انها بوابة العالم التي شبه بها طرفة فخذي ناقته بقوله : كأنهما بابا منيف ممرد .

تذكر حكاية ابن حنا مرقص الذي قضى خمسة عشر عاماً في المدرسة ثم خرج منها مثل الشعرة من العجين . أظنك مـا نسيت سهراتنا وضحكنا عليه ، وكم كانت خيبته مرة حين قرأ على الناس في السهرة خبراً محلياً في احدى الجرائد . تذكر أسف شيوخ القرية على مال ضيعه أبوه ومـا أكل من العوسج تيناً . فإذا أردت أن تكون مثله فالمسألة هينة ، اسمع أعلمك : اضرب بالكتاب عرض الحائط وقل مثلما قال : حمار طيب خير من فيلسوف ميت .

فبالمحبة الأخوية استحلفك وأسألك ألا تدع نسيم الكسل يطفي شمعة ذكائك. اجتهد ليكون هذا القبس ناراً مضيئة تحترق وتنير. ثق اننا وضعناك في مدرسة معظم رجالها من أهل الخير والصلاح ، فإذا خاب ظنك في واحد منهم فالكمال لله وحده . لا تنتقد ولا تذم ، وبالعربي الفصيح : لا تطول لسانك . ففي كل أسرة اخيار وأشرار ، فكيف بالمدرسة التي تلم من هنا وهناك .

وأخيراً وكأني أراك تبكي وتنوح ، وتكتم ذلك ، لأن وجه تشرين الأصفر حالك السواد في أعين التلاميذ . اصبر عليهم حتى ينسوا صفاء ليـالي الصيف

ويشرعوا بالعمل بعد أن تمحي في عقولهم صور الغابة والنهر والوادي والبحر . لا تحسب أنك تاعس الجد ، فأنا اليوم أتذكر مقعد المدرسة القاسي وأفضله على كرسيّ الناعم الذي أجلس عليه بفضل العلم .

طمني دائماً عنك ، واطلب مني ما تشاء من حاجات لا بد لك منها ، فأنت أمانة في رقبتي . قدرني الله على وفاء دين المرحوم والدي بتعليمك كما علمني .

وختاماً أقبلك ، والى اللقاء .

أفقد عقله

في ليلة ارتديت ثوب النسك والزهد ، قرع بابي قرعاً مزعجاً فعرتني هزة وقلت : من يدق الباب ؟

فأجابني صوت عريض أجش يتمطـّق بالكلام ، قـال : فقير ضربه الدهر كفاً أطارت صوابه ، ومسكين ضيع حظه فراح يفتش عنه في بيوت المحسنين الكرام . ضعيف يستجير بالأقوياء ، وبائس ولا كالبؤساء .

فقلت في نفسي : أفي عصر بديع الزمان نحن ؟ ان شحاذنا استاذ محنك . ثم صحت مقاطعاً : أشحاذ أنت أم خطيب؟ متى كان المتسول يلقي خطاب عرش. ومتى صارت الفصاحة من آلات الشحاذة . مضى يا رجل عصر الهمذاني والحريري ، فلله انت من فارس بيان . تفضل ادخل .

فدخل وهو يشخر وينخر . وبعدما مسح جبينه ، عرض علي رأساً كأنه بطيخة صفراء فيها عينان تبصان لم يطفىء البؤس لمعانها وقال : تنظر البشر الى الفقير الضعيف نظرة هزء واحتقار ، ويدوسون على جسمه ليصعدوا الى عرش الغنى والرفعة . قرعت أبوابهم فكان رد الجواب : الله يعطيك . وعلى الله . دعاء جميل ولكنه لم يشتر لي رغيفاً أسدّ بـه ما في بطني من فراغ ، ولا كساء عتيقاً ألفّ بـه أعضاء لم يبق منها إلا ما يدل عليها دلالة غامضة ... وها هي ربح

الشمال تهمهم وتزمجر ، تدق الأبواب دقات أعنف من قرعي بابك .

فقلت : عدنا إلى الخطابة ، قل ماذا تريد مني ؟

فراح يهمهم ويردد : اريد منك . اريد منك . اريد منك . وكأنه أمسك خيط الخطاب الذي أفلت منه فقال : دخلت تلك البيوت فلم أرَ غير نظرات احتقار ووجوهاً عابسة يابسة . التمست برّهم فتجهموا لي ، وما جادوا عليّ بالكسر المتساقطة عن موائدهم . قال لي خدمهم : لقد أعييتنا يا هــذا . كيف قدرت على صعود هذا السلم العالي وأنت على ما أنت من الهزال . فعلمنا ، وهو كالجاموس ثخانة وسمناً ، لا يرتقي فيه بضع درجات حتى يكاد يلفظ آخر نفس .

تلك كلمات خاطبني بها بواب البيت . وأما أصحابه فكانوا ملتفين حول مائدة القمار كالحلقة المفرغة ، ساكتين لا يسمع لهم حس كأنهم في صلاة عقلية . فنزلت من ذلك البيت كاسف البـــال اقول لربي : اذا كان الأغنياء لا يغيثون البائس فمن يغيثه ، أأترابه سكان الأكواخ ! ان الغني وصي على الفقير ، فلماذا لا يرفق به . ثم انت يا الله ، يا عارفاً بخفايا القلوب ، كيف أنعمت على هؤلاء الذين لا يقرون بفضلك ؟

فقلت : ومتى تنتهي .

فقال : وعرجت على بيت توسمت فيه الخير فسمعت فيه أنيناً وبكاء. رأيت هناك صبية صغاراً قد تعلقوا بأذيال أمهم وهم يصرخون : جعنا. هاتي اطعمينا. فقلت في نفسي : كالمستجير من الرمضاء بالنار . في ذلك القصر سعة وفرح وفي هذا الكوخ ضيق وشدة . وفي ذاك القصر تأكل جراء الكلاب حتى تنبشم ، وفي هذا الكوخ يشقى أطفال بني الانسان . ولكن هؤلاء كانوا أرحم أولئك فأنزلوني بينهم باشين هاشين ، فقضيت عندهم عشية تشاكينا فيها ، لاعنين الدهر على رنين الأقداح المتصاعدة من القصر . كانت تقع في آذاننا فتجرحها وتزيد آلامنا المبرحة هياجاً .

وحاولت أن أقاطعه ولكن صاحبنا استولى على المبـــادرة وقذف بهذه الكلمات : وفي الغد ، وكان يوم أحد ، بكرت إلى المعبد لأشكر من لا يشكر على مكروه سواه ، وأسأله خبزي اليوم لأنه قال : اطلبوا تجدوا .. فجلست على كرسي كان في زاوية المعبد. فما استرحت عليه قليلاً حتى أقبل خادم غليظ الكبد والقلب ، وحذفني عنـه بعنف وقال انه لا يليق بك . قم عنه ، هناك محلك . وأشار الى البلاط . ثم طار بالكرسي ليقدمه الى أحد الأغنياء فتركت مكاني وانتقلت الى احدى الزوايا وقبعت فيها مستنداً الى الجدار ، فكرّ عليّ ثانية ليبعدني عن الحائط المزوق وعن صندوق الفقراء الذي كان بالقرب مني . فتأثرت اذ ذاك منه وصحت به قائلاً : كما يسهر الغني على صندوقه ويقيم بالقرب منه ، كذلك أنا أقيم بقرب خزانتي لاحفظها .

ولما رأى جرأتي عليه تركني حيث أنا فتكومت في تلك الزاوية . ولـمـا انقضت الصلاة خرجت وبسطت يدي للخارجين من الهيكل فأدركت بعض الصدقات من الطبقة الوسطى . أما أصحاب الجيوب الوارمة فلم يكترثوا لي بل كانوا يسيرون ومن حولهم جماهير المدلين .

وذهبت الى الملاهي فرأيت فتية كأنهم من بقايا أبي نواس ، خمرة في العيون والخدود ، يلوكون ألسنتهم من الخمار ويتساقطون تساقطاً على الخوان والى جانبهم الغواني الخالعات العذار ، فما رأوا ما عليّ من أطمار حتى استعاذوا بالله ، وأومأوا اليّ بأطراف البنان مزوّرين لاعنين شاتمين لأن منظري عكر صفو مجلسهم . وكأنهم أنفوا أن يلوثوا أيديهم بي فاستعانوا عليّ بالساقي ، وكانت صدقتهم لعنات وشتائم .

وانتصبت في الشارع حيناً أمد اليد تارة وأرفع الصوت جهرة ،ولكن خرير الدواليب وعواء المزامير وصراخ الباعة كان يبتلع ذلك الصوت المغبون وفي الشارع أبصرت الزاهد يسير مطرق الرأس، والسكير يتعرج على الجانبين والغني

يجر ذيول الغطرسة منتفخاً ، وقل من يعير البائسين التفاتة . يتحدثون بألسنتهم عن البر والاحسان وتزكية المال ولكنهم يقولون ما لا يفعلون .

وذهبت الى احدى المدارس وهناك اللباقة وحسن الاستقبال . يا ويلي على أولاد هذا الزمان ، وألف ويلي منهم . ضحكوا مني . كنت كيفما جلت في المدرسة لا أسمع غير قهقهة وصفير . سخر واستهزاء ، وتنادر وتهكم . واحد يدفعني وآخر يتلقاني ، فخلتني كرة يتلهون بها ، في الملعب . كانت هذه الاهانة أشد وقعاً في نفسي المتألمة من كل ما قاسيت من خيبة ، فقلت في قلبي أما كفاهم انهم لم ينفعوني بنافعة حتى يضحكوا علي ..

فناديت المعلم بأعلى صوتي : إذا كنت تعلمهم الضحك من الفقير البائس والاستهزاء به فما نفع تعليمك ؟ ما فائدة العلم الذي لا يعرف الانسانية . علّم تلاميذك أن يكونوا بشراً قبل كل شيء . علمهم الاحسان ، وإن لم تكن أنت محسناً ، فكثيرون هم الذين يعلمون بما لا يعملون به . وان لم تقدروا على الاحسان فلا أقل أن ترثوا للفقير وترحموه .

فبهت الأولاد من حديثي ، وأخذوا جميعاً ينظرون الي معجبين ، فاسترسلت في الكلام وقلت : سمعت ان أكثر مدارس هذا الزمان تعلم الرفق بالحيوان ، فما قولكم يا شباب بأخيكم الانسان ، أليس هو الأجدر بأن ترثوا له . يقول المثل : زاد واحد يكفي اثنين ، وأنتم جمهور ، بارك الله فيكم ، أتعجزون عن أن تغدوا رجلاً لم يمتع نظره اليوم برؤية وجه الرغيف .

وجاء الرئيس على صراخي فأمر باخراجي لئلا أضيع وقت الطلاب مدرسته ، فأجابه كبير منهم : دعه يتم خطبته فهو يلقي علينا درساً لا تأتي المدرسة على ذكره .

وأراد زائري الكريم أن ينثر ما بقي لديه من الدرر ، فقاطعته قائلاً له : كيف تجهل وأنت الحصيف الفصيح قول القدماء : السائل ذليل ولو أين السبيل ؟

فقال : إننا نسأل لنعيش ولا نطلب إلا قوت من لا يموت . ولو كان السؤال حراماً ما قـــال الله : وأما السائل فلا تنهر . وإني رأيت ذل السؤال أعز من خدمة الأنذال ، فما قولك دام فضلك ؟

فقلت : أراني احدث فقيراً ولا كالفقراء ، فمن أنت يا رجل ؟

فزفر زفرة ملأت الغرفة وأجاب : أنا فلان رفيقك في المدرسة ، نسيتني ، يا مارون !

فقلت : الله ، انت فلان ؟

فأجاب : نعم أنا هو ، وما أفقرني إلا عقلي .

ضلال الآباء والابناء

كثيراً ما أسمع من الأب أو القائم مقام الأب هذه الكلمة : أنا والله متحير بأمر هـــذا الصبي ! أنهى دروسه وحاز على الشهادات ولا أدري ما أختار له من الأعمال .

حقاً ان الحيرة لا تستولي علينا إلا عند مفارق الطرق . هنـــاك نقف ولا ندري من أية بنيات الطرق نتوجه . قد ينفق بعضنا كل ما يملك راجياً أن تتفجر الثروة من بين يدي ولده ، ولكنه متى بلغ المحجـــة وقف في ظلمة الحيرة يترقب بزوغ فجر الأمل فيرى احمراراً واشقراراً . وأما الصبح فيظل منه بعيداً .

يريد الأب أن يوجه ولده ، كما يشاء هو ، ليرضي كبرياءه ، مع ان هـــذا لا يعنيه . فصاحب الحق الأول هو (المحروس) أقرّ الله عينه به . إن آفتنا نحن الشرقيين ، بل آفة جميع العالمين هي ان الأب يريد أن يورث ابنه مهنته كما يورثه العقـــار والسجاد ، والخرثي من متاع البيت ، فصرنا نرى ابن القسيس قسيساً ، وابن الإمام إماماً ، وابن الحداد حداداً ... وهكذا دواليك حتى سميت الأسر بأسماء المهن فصارت لهم نسباً وحسباً .

أما أنت ، يا قارئي الحبيب ، فلا تفعل ذلك إذا شئت أن يفلح ابنك. دعه

وما يميل اليه لأنه سيعود أخيراً الى العمل الذي انتدبته اليه ميوله وطبيعته . فخير لك ولابنك أن يكون بناء ماهراً من أن يكون استاذاً يهزأ به تلاميذه ، وسياسياً يضحك ذوو الدهاء على ذقنه ، وحاسباً لا يعرف الخمس من الطمس ، وعالماً لا يعرف الكوع من البوع . وعامياً يضيع حقوق الناس ، وطبيباً يفقي ويعمي فتتذكر كلما رأيته قول ابن الرومي :

فإذا مررت رأيت من عميانه أمماً على أمواته قرّاء

لست أستطيع أن أستعرض لك الجيوش الجرارة من أعاظم الرجال الذين اختاروا مهناً لا تلائم فطرتهم فأخفقوا ، ولم يفلحوا إلا حين لبوا نداء ميلهم فكانوا من عباقرة الدنيا .

فمن هؤلاء موليير المسرحي العظيم . شاء حين غادر المعهد أن يكون محامياً ولكنه أخفق في تمثيل دور المحامي على مرسح القضاء ، ولما انصرف الى العمل الذي يحسنه لمع نجمه وما زال ساطعاً في نظام المسرح .

وفولتير ، هجر كتب اللاهوت والقانون ليكون فيلسوفاً وكاتباً وشاعراً فقوضت كتاباته عرش الملكية ، وشبت نار الثورة الفرنسية ، وخلقت عالماً جديداً يكون فيه الفرد كما يجب أن يكون الانسان .

ولعلك ممن يسمعون بكرامويل ، قائد الثورة الانكليزية . فهذا الجبار الطائر الصيت ظل فلاحاً مزارعاً حتى اكتهل ، ولما دنت ساعة دعوته غيّر وجه تاريخ انكلترا ودعي حامياً للجمهورية .

وبسكال ، أوجب عليه والده أن يتعلم اللغات الميتة ، ولكن ميله الى العلوم الرياضية تغلب على الفراماطيق فكان منه ذلك المفكر الحر .

وميكالنج ، احتمل العقوبات المرة من والديه لأجل ما كان يخربشه على جدران البيت وأمتعته ، ولكن العبقرية أبت إلا ان تنتصر. فخلد ذكره بآثاره الباقية على جدران كنيسة القديس بطرس وفيها .

أمين الريحاني ، كم دق باباً من أبواب الحيـــاة ولم يفتح له إلا باب الأدب فكتب (ملوك العرب) وغيره من التآليف الباقية .

فالمصيبة ، يا صاحبي ، هي أن أكثر البشر يحترفون ما لم يخلقوا له . فكم من فتى خلق ليكون معلماً، نراه خادماً في مخزن . وكم من أناس خلقوا مزارعين ونراهم أطباء ومحامين . وكم من غلمان يعملون في المعامل وكان الأجدر بهم أن يكونوا علماء . وكم من طلاب في الجامعات كان أحرى بهم أن يكونوا حراثين . وكم من رسامين كان أولى بهم أن يكونوا طيانين ودهانين . وكم من رجال خلقوا ليكونوا سياسيين فاذا هم أساكفة أو باعة جوالون . وكم من سياسيين يجب أن يكونوا في الاصطبلات لا في الندوات . وكم من جراحين حقيقيين نراهم بين المدية والساطور ، بينا نرى غيرهم جراحين وما هم غير جزارين يبقرون البطون ويساعدون عزرائيل على تأدية واجبه ...

ان حب الجاه والمجد هو الذي يحولنا عمـــا خلقنا له ، فصرنا نرى السواد الأعظم من النـــاس يختارون لأولادهم المهن الحرة ، او يعدونهم للجلوس على الكراسي ، وقد فاتهم ما قاله ذلك الحكيم : ان الحراث الواقف على قدميه في العراء تحت عين الشمس لهو أرفع شأناً من سيد جاث على ركبتيه .

فانظر يا صاحبي ، او دع ابنك ينظر الى أين تنتهي يـــده . فأنت وهو ، تعرفان ما عنده من مواهب . فليتكما تعرفان ان حداداً ماهراً خير من صانع يضيع بين يديه لمعان الذهب وبريق الالماس .

الحيوان لا يحاول القفز فوق حفرة لا يستطيع تجاوزها . أما الانسان ، والانسان وحده ، من دون جميع المخلوقات ، فيحاول أن يقاوم الطبيعة . يريد الألثغ أن يكون خطيباً ، والأعرج راقصاً ، والثقيل السمع موسيقياً ، والأبهر مصوراً . فاذا رأيت ابنك يعمل ما تظنه انت عبثاً فلا تهزأ به ، دعه وشأنه

انها بشائر خير لا يحق لك ان تتذمر منها . فالنابع يفتش عن ذاتـه . ومتى وجدها عثر على الكنز الذي كتب له أن يقع عليه ويسعد .

لا تسأل احداً ماذا تعمل لابنك حتى تحالفه السعادة ، فهـذا سر لا أعرفه أنا ، وتجهله انت . لا يعرفه إلا واحد فقط . أتعرف من هو ؟ انه ابنك ، فدعه وشأنه . ولا توصه إلا بشيء واحد : الاخلاص لعمله مهما كان نوعه .

هذا أوان الرشد

اذا شئت أن تنجح أيهـــا الطالب فانظر الى الزارع كيف يغدو الى الحقل وتشبه به . ان ما تزرعه اليوم تحصده غـــداً . فاعمل ليكون بيدرك كبيراً وغلتك كثيرة . فأبوك أعد المدل ، وأمك هيأت الكوارة ، وقدر ما تحط بالقدر تشيل في المغرفة . ان خلاصك بيدك . بحيـاة كل عزيز على قلبك قل لي ما هي المدرسة ؟ أليست المدرسة سجناً اخترناه أنا وأنت ؟ فاعمل بكل ما عندك من قوى لتبارح هـــذا السجن الجميل ، هذا القفص المذهب ، أيها البلبل الطري العود .

أنا وأنت لا تعنينا السياسة الجوفاء . ان السياسة كالنار تدفئك جالساً وتحرقك ملابساً ، فتمتع بمنظر ألسنتها المندلقة من فم موقدها الشبق . ان ثرثرتها ناعمة مغرية ، ولكنها كالحب تكوي وتحرق . فحذار أن تمد يدك اليها، فانها ألسن تلحس ، ومداعبتها التهام وهضم .

أنت سامع ضوضاء الانقلابات وأنباءها تنقلها الى أذنيك محطات الاذاعات، فتتراءى لك على شاشة مخيلتك أشباحاً لا تعلم من يتجسد منها أرواحاً . لا بأس، تسل هنيهة يا عزيزي . ولكنني أرجو أن لا تسد الطاقة التي بيننا. إصغاء هنيهة ونعود الى عملنا . أعود أنا الى مكتبي حيث أكتب قصة لبنانية عتيقة تحبل بها

مخيلتي وذاكرتي ، وألدها غصباً عني ، أو مقـال نقد وكيسي لا يعرف النقد . وتعود أنت الى درسك لتتأهب للغد الذي ينتظرك .

أنت غدي أيها الفتى . أنت الفسيلة النابتة على أرومتي ، وجنة الشرق تنتظرك . أجل لم يبق لي غد سواك . وهذا هو الخلود الملموس ، خلود الآباء بالأبناء والأمة بالذرية . أتعلم كم قطعت أنا من الأشواط ؟ اسمع فأخبرك ، هذا سر بيني وبينك ، لا تبح به لأحد يا عزيزي . ففي النفس آمال وفيك فطانة ... شيخك دعس في السابعة والستين بحسب الهوية ، وفي التـاسعة والستين كما في دفتر المعمودية ، لا ترع يا ابني فالعقل مـا زال في الرأس ، والنفس طرية ، وبكلمة ألذ وأطيب : النفس خضرا . وما نفع الحياة إذا يبست النفس : انها لا تصلح إلا وقوداً ، وفي تلك الساعة نعوذ برب الفلق من شر ما خلق .

هذي مقدمة أحببت ان أسترعي بها انتباهك ، بل قل أنها احبولة او طعم . فنحن المعلمين أشبه بالصيادين نضع ذبابة في الصنارة لنصطاد حفشاً . ثق وتأكد انني احب ان أتحدث اليك لأنني عاشرتك أربعين عاماً وأكثر ، والمثل يقول : عاشر القوم أربعين يوماً ، فإما أن تصير منهم أو ترحل عنهم . فما قولك بعشرة خمسين عاماً إلا قليلاً ؟ . لا تقل انني صرت مثلك كما يتهم الجاحظ معلمي الصبية . فهذاك ماجن ، وأنا ممن يتكيفون وقلمـا يتكيفون . إن فيَّ نفسين : واحدة خصصتك بها ، وأخرى أبقيتها للحياة . والحمل ، والحمد لله ، معدل . عدلان متوازيان ، فسر معي حتى لا تقصّر في العقبة . لا تقل مـا أفضى باله . الحديدة حامية ، وهو يلهو ويلغو . لا يا أخا الكتاب ، انني أقول لك ما قـاله المعلم الأكبر لذلك الرجل : دع الموتى تدفن موتاها واحمل صليبك واتبعني .

صليبك كتابك ، ووطنك يترقب صعودك الى الجلجلة ليرى أي رسالة تعلم ، فهيّىء لتلك الساعة عدتها .

أنت عمود الوطن ، وللعمود صفتان اوليتان : المتانة والجمال الفني . فالمتانة هي الأخلاق الموروثة من دم سليم جرى في عروق الأجيال والدهور حتى انتهى

اليك نقياً . فهل يليق بك ، وأنت أمل الأمة ورجاؤها ، ألا تحفظ الأمـــانة وتؤديها الى الذرية كما استلمتها ، نقية سليمة، لا تشوبها شائبة ؟. أما الجمال الفني فيك ، أيها العمود الحقيقي، فهو الثقافة التي جئت المدرسة في طلبها ، فهل تخرج منها مثل الشعرة من العجين ؟ إن فعلت هــذا ، فأنت يا عزيزي حرامي ، وإن كنت لم تسرق غير نفسك ، وسارق نفسه أجـــدر بالقصاص من غيره . أليس الأفضل او الأجدى لك أن يبقى هذا المال في عبّك فتعمل به عملاً مثمراً ؟

وبعد ، فما المدرسة يا عزيزي ؟ قل انها حبس كما قلنا ولا تستحِ من ذقني . وأنت طرحت نفسك في ذلك الحبس بملء إرادتك فاعمل إذن مريداً تكتسب علماً ، وإن كنت لا تريد فمن يعلمك ؟ إن الوحي انقطع كما تعلم وتؤمن ، والعلم لم يوفق حتى الساعة ، الى اكتشاف مصل مدرسي . لم تخترع بعـد أنابيب للغة العربية واللغات الاجنبية ، وأنابيب للرياضيات والطبيعيات ، وأنابيب للأدب والفلسفة فتحقن بها شرايين دماغك لتأخذ العلم من أقرب طريق . العلم يتطلب كداً واجتهاداً ، ومهما قلّ ذكاؤك فأنت واصل الى ما تبغي إن اجتهدت . فلا تقل هذا العلم لا يدخل عقلي، وذاك لا يلذ لي . يجب ان تعرف كل شيء، لتتفوق فيما تميل اليه .

لا تحلم بالشهادة ولا تسعَ الى إحرازها سعي جاهل . انهـا ورقة ليس غير إذا لم يكن في صدرك علم . الشهادة تحيا بعلم صاحبها كما يحيا الكتاب وينطق بفهم صاحبه . انها تظل حبراً على ورق ولا تدب الحياة فيها إلا منك . فمنك تستمد حياتها وبقدر معرفتك يرتفع قدر شهادتك . هب شهادتك سيفاً يمنياً ، فالسيف محتاج الى زند ولا يقطع نائماً في غمده . وبعد ، فلو حزت الشهادة عن جدارة واستحقاق وزينت بها صدر القاعة ثم لم تعمل ، تظل تلك الشهادة ورقة مزوقة كقطع السلاح القديمة المزينة بها حيطان بيتك .

أية شهادة حازها الامام علي ، والجاحظ ، وبديع الزمان والشدياق ؟ وأي

دكتوراه نالها أفرام السرياني وتوما الاكويني ، وابن رشد وابن سينا ؟ والمعري والمتنبي والسمعاني والأوزاعي ؟

لا أشبه لك الشهادة إلا بمفتاح تعطاه لتدخل متحف الفكر الانساني، فعليك المعول لا عليها حين تلج كهف الدهور . هناك ترى أناساً استحالوا حبراً وورقاً، ونضدوا كتباً فيها كل مـا في الأحياء من ميول وأهواء . انهم يرحبون بك ، وكل منهم يجذبك صوبه بعنف ويريد أن يستأثر بك ، ويا خيبتك حين تجلس اليه إن كنت لا تفهم عنه . انك تزدري شهادتك حينئذ وتلعن من أولاكها لعنة قايينية . فلا تسع لادراكها عن طريق الغش والخداع، فما تخدع إلا نفسك. لا تحصلها إلا بباعك وذراعك . إن ارادتك ورغبتك تسهلان مهمتك ، وإذا كنت لا راغباً ولا مريداً فانصرف الى الحقل،فراع حاذق خير من متعلم جاهل. رحم الله اسكندر العازار الذي نسيناه ، فقد قال : دخلت المدرسة حماراً بلا شهادة وخرجت منها حماراً بشهادة .

يقولون القناعة غنى ، والطمع ضر ما نفع . إن القناعة في العلم لا يرضى بها إلا صديقنا الطويل الاذنين . كثيراً ما أسمع أولياء الطلاب يؤاخذون المعلمين ويشجبون المدارس إذا قصر أبناؤهم . يسألونك عن أبنائهم ولا يسرهم إلا أن تكذب عليهم بافاضة الثناء . فإذا قلت لأحدهم ابنك مليح ولم تشد على كلمة مليح حتى تسحق سناً من أسنانك قال لك : رخوة يا أستاذ ... وإن صارحت أحدهم بقولك : ابنك لا يقبل العلم ، معدته لا تقطع ، عبس وتولى حانقاً وأنحى على المدرسة ومعلميها . ومهما تفه قدر المعلم يظل خيراً من تلميذ ضيع ذكاءه بين البيت والمدرسة .

نعم ، قليل جداً عدد الأساتذة الذين يحاسبون أنفسهم عندمـا يأوون الى فراشهم متسائلين: ماذا طبعنا اليوم في نفوس تلاميذنا من أخلاق فاضلة ، وماذا علمناهم ؟ انه لا يسأل كيف أدى درسه وهل هناك نمط أمثل يلتجي اليه . إنه لا يتحدث إلا عن التلميذ الذي حفظ درسه كالماء الجاري . والذي عرفته أنا

بالاختبار هو أن الأستاذ مهما حذق مهنته وأخلص لها ، لهو عاجز عن أن يعلم من لا يريد أن يتعلم .

المعلم في قاعة الدرس ، أشبه ببائع على الرصيف ينادي على الكعك السخن ، على الترمس أحلى من اللوز . ولكنه لا يكون غريماً فيركب كتفيك ويتمسك بأذيالك فلا تفلت منه حتى تشتري . فعليك أنت ، أيها الطالب أن تغتنم رياحك متى هبت ، وإلا فالدائرة تدور عليك أنت لا على معلمك ، إن الوطن ينتظر فيك رجلاً فلا تنتظر أنت ورقة . ليست الشهادة بحد ذاتها سلاحاً ، فما أشر من الحبر إلا الورق . فلا تكن في يدك كما كانت تلك الورقة في جيب ذاك المغفل مشتري المعلاق . نتشه الكلب من يده فصاح به : خذه ، انك لا تعرف أن تطبخه . فالورقة معي .

ألستما سواء بسواء اذا كانت (شهادتك) لا تشهد لك الا زورا ؟ ..

الفهرس

هذا مذهبي ٩
التكوين الوطني ١٣
أعيادكم بغضتها نفسي ١٨
أذنان ولسان واحد ٢٣
الابتسامة رأس مال ٢٩
الفقر سلم المجد ٣٤
الدين إيمان وعمل ٣٩
اتكل على نفسك ٤٤
كمال العلم بالحلم ٤٩
سير العظام تخلق العظائم ٥٥
نحو عالم أفضل (١) ٥٩
« « « (٢) ٦٤
الحظ أعمى ٧٠
العام الجديد ٧٥
عداوة المهنة ٨٠
بين الأذن والفم ٨٥
مشاهدات ٩٠
نماذج شتى ٩٤
أكلة لحوم البشر ٩٩
الصبر مفتاح الفرج ١٠٤
مختصر مفيد ١٠٩
المطالعة غذاء الموهبة ١١٤
حارب على جبهة واحدة ١١٧
الى كل امرأة ١٢٢
طيش الأمهات ١٢٧
اشبعوه على الأقل ١٣١
مأوى عجزة ١٣٥
محل الامتحانات الرسمية ١٣٩
براريد قاضية ١٤٦
المستقبل لا يرحم ١٥٠
الدواء في التكنة ١٥٧
كنيسة العلم والثقافة ١٦٢

فتش عن ذاتك	١٦٧	ازمة التربية والتعليم	٢٣٠
الأدب الحق	١٧٢	وجوه بلا ماوية	٢٣٤
التدقيق	١٧٧	ما أحلى أيام المدرسة	٢٤٠
الأخلاق ضمان جماعي	١٨٢	عمودا البيت	٢٤٥
الرجل ابن البيت والبيئة	١٨٦	الشباب التائه	٢٥٠
بلا عنوان	١٩١	ارع الجار ولو جار	٢٥٥
البكالوريا بين المعلم والطالب	١٩٥	العفو حبيب الله	٢٦٠
متى تستوي الطبخة	٢٠٠	كتم السر فلاح	٢٦٥
إذا هبّت رياحك فاغتنمها	٢٠٥	الى جندي	٢٧٠
موسم الرحمة	٢٠٩	الميلاد	٢٧٥
كن لطيفاً	٢١٤	الى رجل الغد	٢٨٠
أتكون آلة تدار	٢١٨	أفقره عقله	٢٨٦
ان المجد مبتور	٢٢٢	ضلال الآباء والأبناء	٢٩١
شعرة من شواربك	٢٢٧	هذا أوان الشد	٢٩٥

القسم الثاني

حبر على ورق

حِبرٌ على وَرق

يقولون لك : أكتب . وماذا تريدون أن نكتب ؟ ومَنْ يقيم وزناً لما نكتب ؟

تعوّد النّاس أن يقرأوا ما يُكتب بالقلم المريض ، فماذا يؤثر بهم الهمز والغمز ؟ الجلود متمسحة ، وهيهات أن تغرز الإبر فيها ، فلا بدّ لها من المسلاّت ...

كان والدي يوصي الفلاّح ، حين يسلّمه الفدّان في أول الرّي ، ألاّ يُكثر من النكز بالمسّاس ، ويقول له : اسمه مسّاس يا نعمه ، ومن اسمه تعرف كيف تستعمله . الفدّان الذي تنكزه دائماً يتعوّد ، وهناك البلاء .

أنا أعتقد أن كثرة الكتابة ، ولا سيما تلك التي تكتب بالنبّوت ، لا تؤثر بأحد وخصوصاً في هذا الزمن الذي انهارت فيه المثُل العليا وقلّ الحياء . ألا يسمّون الكذّاب داهيةً ، والدجّال سياسياً ، والوصولي ألمعياً ، والانتهازي عبقرياً ، والأنوف الأبي حماراً لا يعرف يعيش ؟

ماذا تريدون أن نكتب لمن يطمسون ما نسطّر بكلمة عابرة : حكي جرائد ؟ إن الذي كان يتوارى حيــاء إذا لاكت اسمه ألسنة الناس قلّما تجده في هذه الأيام .

غفر الله ذنب ابن الوردي الذي جنى على العدالة حين قــال :

إن نصف الناس اعـداء لمن ولِيَ الأحكام،هذاإن عدل

فامسى يتمثّل ببيته هذا كل مسيء ممن يَلُون الأحكام . أعرف واحداً كان متهما في نزاهته ، وقد رأيته في مساء يوم لهجت فيه الصحف بسوء ، فقال يعتذر عن ذلك : إرضاء الناس صعب . المسيح لم يُرضِ كل البشر ، وما سلم من لسانهم ، فكيف تطلب ذلــك من هذا العبد الحقـير .

فقلت له : ضميرك مرتاح ؟

فقال : جداً .

فسكتّ .

فقال : ما بالك ؟ يظهر انك مصدّق ما كتبوه عني .

فقلبت شفتي وهززت كتفي .

وفي صباح اليوم التالي رأيته متصدّراً إحدى الحفلات وقد أقيمت برعايته،فكالوا له المديح بالمد.كان مطمئناً جداً في تلك الجلسة ينظر وكأنه يتمثل بقول النواسي :

خير هذا بشر ذا   واذا الله قد عفا

رحم الله ذلك الزمان ، يوم كانوا يشهّرون الساقطين من أعين الناس فيركب المفلس حماراً ، ويُطاف بــه في شوارع المدينة في محفل مهيب . تمشي وراءه صبيان الأزقة ويحييه أصحاب الدكاكين بالبيض المذر ، والبندورة المهترئة .. والصرامي العتيقة . في تلك الأيام كان الرجل ، إذا مُسّ اسمه ، هرول إلى الحاكم يقيم دعوى الافتراء ليسلم شرفه الرفيع من الأذى . أما في هذه الأيام ، فمن يُطعن به يضحك ويهزأ ، والتي تمدحه لا يبالي، فكأن الكلام أمسى لعبة أطفال ليس غير .

ومع ذلك يقولون لك : اكتب . وماذا تريدون أن أكتب ؟ ولماذا أكتب ؟ ألأعيش ؟

ان صاحب النبّوت أرفه مني حالاً. إنهم يحتاجون اليه حيث لا يغني عنه غيره ...فيعلفونه ويظل معلوفاً موقوفاً ذلك اليوم .

والمقامر أحرى مني بالحظوة والالتفات ، لأنه يجالسهم ويهدر مالاً كما يهدرون . والماجن اقرب اليهم ، لأنهم يرون فيه الجليس الأنيس .

الأديب ، وما هو الأديب ؟! أما قالوا قديماً : أدركته حرفة الأدب؟ اننا في بلد،آخر الناس رتبة فيه،حامل القلم .

كنت عزمت على ألا أخوض هـذه الغمرات لأني لا أحسن السب والشتم ، ونحن في زمن لا يفهم ناسه إلا هذه اللغة ، وأنا لا أحسنها . شعاري :

العبدُ يُقرعُ بالعصا والحرُّ تكفيه المَلاَمه

ولكن أحرار هذا الزمان تعّودوا التقريـع ... فأية فائدة ترتجى من الكتابة ؟ ولهـذا جعلت عنواني الدائم « حبر على ورق ... » إحياء لذكر ذلك المجهول الذي قال هذا المثل : « مثل شهاب الدين واخيـه .. » ولا عجب ، فالحبر والورق اخوان .

ان الكلمة لا تصير جسداً ما لم يتقمصها القارىء وتحل فيه . وإلا فإنها تظل حبراً على ورق . وأين هـذا القارىء من قارىء أميّ يعتقد انه فوق الأُمة وعلى القمة ؟ ..

صندويش

صندويش على وزن سلسبيل . وكما جمعوا سلسبيل ، سلاسب وسلاسيب ، أريد أن أجمع صندويش ، صناديش وصناديش . الصندويش طعام المستعجل وزاده ، يأكله كيفما يشاء : قاعداً، أو واقفاً ، أو ماشياً ، ولا حرج عليه.

· إن المأكولات ، المعدّة في العلب أغنت الكثيرين عن موقد يدب له بالحطب ، وقِدْرٍ تراقب مراقبةَ الرجل الغيران لزوجةٍ فارك شاردة العين. ان زمن طبخ المريسة مضى وراح ، فالناس أمسوا على دين امرىء القيس ، بعد تلك القعدة على ثياب العذارى وإخراجهن من بركة دارة جلجل بالثوب الذي فصّله لهن ربهن . ثم كافاهن الشاعر على فضيلتهن تلك ... بذبحه ناقته لهن .

وظلّ طهاةُ اللحم ما بينَ منضجٍ

صفيف شواءٍ أو قديرٍ معجّلِ

إن الناس اليوم في حاجة إلى ما هو أسرع من ذاك القدير

المعجل ... إلى صندويش يسندون به قلبهم ، لا إلى طعام يد ويدين يقعدون له . وكذلك قارىء هذا العصر ، فإنه محتاج إلى ما يرفه عنه ولا يتعب دماغه واعصابه . إن أدمغة الناس أصبحت في أصابعهم، وستصبح العقول آليةً متى رخص الدماغ الالكتروني ، وصار في استطاعة كل واحد ان يقتني دماغاً كما يقتني قلم الحبر ـ الستيلو أو المداد ـ كما شاء بعضهم ان يسميه .

ان التفكير العميق مهدّد بالاندثار كما كادت أن تندثر النياق والخيول والبغال ... ولذلك رأيت أن افتح دكان صندويش ازوّد بها عابري السبيل . ويا لهف قلب الأدب من القرّاء المستعجلين ! فلا يستغرب القارىء ، إذن ، هذا العنوان الجديد . فهو مستعجل لا ينتظر حتى نطبخ ، فلا يكاد يقول: هات . حتى نجيب : خذ ، فينتش ويكدم .

أظن أن المرحومة ستي كانت أبرع من علماء اللغة في انتقاء الأسماء الجميلة. أما سمت الصندويش عروساً ؟ أليس بين الصندويش والعروس شبه رائع؟ كلاهما ممشوق القامة، لذ المقبل . ناهيك ان اسم العروس حلو الوقع في جميع النفوس ، ولا أحاشي نفوس الشيوخ مثلي ...

وبعد، فأي صندويش تقدمه اليوم؟ إن السياسة طاغية على تفكيرنا في هذه الأيام، وإصلاح الوطن وجهة الجميع...

وكل يدعي وصلاً بليلى . فالمثاليون منا ملتهبون غيرة على اصلاح الوطن ، حتى لتعجز الإطفائيـة عن اخماد نـــار حميتهم ...

لست أنكر أن فينا مَن هم مِن هذا الطراز العـــالي، أمّا الأكثرون فتنطبق عليهم هذه الحكاية :

ضاقت الدنيا بأحدهم فالتجأ إلى الدير لينخرط في سلك الرهبانية .

وبعد ألف يا ويلاه ، اجتاز أزمنة التجربة الحادة التي يمر بها المبتدىء . وأخيراً هوّنها الله وجـــاءت ساعة التكريس . ركع الطالب على درجة الهيكل أمام قدس الأب العام ، فطرح عليه هذا السؤال التقليدي : ما غايتك من لبس هذا الأسكيم ــ قلنسوة الراهب ــ يا أخي ؟

فأجابه الأخ بعين بلقاء : راحةَ جسمي وكبر بطني .

فمات الرهبان الحاضرون من الضحك ، ولكن الأب عبس في وجوههم ، فعادت الضحكات أدراجها . وقـال المحترم للأخ : ما هكذا يجاوبون يا أخي . قل : حباً بمريم العذراء وخلاص نفسي .

ونحن اذا عرضنا هذا السؤال على موظفي الدولة، فكم واحداً يجيبنا بغير ما يشبه جواب ذاك الراهب الهارب من الفقر الذي لم يتعرف عليه الروح القدس ، ولا مرّ بباب

اصومعته ؟

كنّا نقول فيما مضى عند التعجيز : إن فعلت كذا اعطيك طربوشي ، أو إن صار كذا أحلق شواربي ... ولكني اليوم صرت بلا طربوش ولا شوارب ، فما عساني أقول له ، وعلى ماذا اخاطره؟ ليس له عندي إلا صندويش لا يحلم بمثله . وهدية المقرف ليمونة حامضة ...

الأونسكو وإنتاجنا الأدبي

الكتاب يتيم مسكين في لبـــنان . وأين يبيت الفقير المعدم ؟ فالأوادم « الطازة » يبنون قصوراً مقبّبة لا يجد الكتاب فيها مكاناً يسند إليه رأسه . والموظّفون ، كباراً وصغاراً ، بينهم وبين المطالعة عداوة بيت الأعور ... إذا أهديت الى واحد منهم كتاباً فلا يفض بكارته لأنه عنّين لا يأتي الكتب ...

الأغنياء « الطـازة » لا يطربون إلا لرنّة الذهب ، وخشخشة الورق النقدي . فاهدِ إليهم كتاباً يعلّم الجمع ، فما يجديهم كتاب أدب يلهيهم عن الطرح والضرب ؟

ماذا تقول في موظف كبـير يحشر في زمرة الأدباء ، تهدي إليه كتاباً فتراه بعد حــين عند غيره ؟ فوالله لو استطعت استعادة كتابي ذاك لزففته اليه ثانيةً بطبـــل وزمر ...

يقولون : لبــنان بلد الإشعاع . وأين هو الاشعاع ،

وأنت إذا دخلت بيتاً من بيوت زعمائه فلا تجد فيه إلاّ سلاحاً عتيقاً وحديثـــاً : خناجر وطبنجات ، بندقيات ومسدسات ، قلّما تجد إلى جانبها كتاباً أو كرّاساً ؟ إني أرجو وآمل ، بعـد أن سألتنا منظمة الاونسكو عــن محصولنا الأدبي ، أن نخلص من هزئهم واستخفافهم بالأدب. إذا قيل لهم : فلان عائد من اميركا وهو ملـك الأحذية في دار هجرته ، حملوه وماركته المسجّلة على الرؤوس . وإذا قلت لهم : هذا الأديب رفـع رأس المغتربين ، أشاحوا عنك وعنه بوجوههم مستخفين .

التقيت عند أحد صيارفة بيروت تاجراً لا يملأ العين سمته ، فقلت للصيرفي: من هذا الذي تجله كل هذا الإجلال ؟

فقال لي باستغراب واعجاب : أرأيت « الكمر » الذي على وسطه ؟ انه محشو بالليرات الذهبية . فقلت : المجد لـك أيها الكمر . المجد لك . ورأسه كيف ؟ فأجاب : انا يعتنيني خصره .

أبمثل هذا الرأس البور تنمو الكتب الأدبية ؟

قالت الصحف إن الجداول التي أرسلت إلى منظمة الأونسكو تدل على أن الانتاج الأدبي ضئيل في لبـــنان . قلت : ولماذا لا يكون ضئيلاً ، وأحد الأدباء المتظرفين قد أعدّ خاتماً يسم به وجه كتابه : هـذا كتاب اهديه لأني لا

أجد من يشتريه .

يا لها من دعاية مرة ، ويا ذل الكتاب في لبنان !

حلو أنت ومر يا سعيد ، ولكنك تغمز حماراً ، كما قال ابن العميد للصاحب .

الكتب يا منظمة الاونسكو موجودة اذا كنت تطبعين . فدور النشر طبعت وتطبع ما تستطيع. ولكن الكتب الأدبية لا يقرأها غير الأُدباء والمتادبين وقلّما يستطيع أديب شراء كتاب . وإذا بيع كتاب استعاره العشرات من الناس . وهكذا تنام الكتب في مستودعاتها، لا تحلم بغير مداعبة الفئران ومغازلة الجرذان ...

أرأيت كيف استحال بلد الأبجدية بلد موزر وتوميغان؟ النافذون من الأُمة لا ينشدون غير « جدعانها » اصحاب الزنانير العريضة ، والسراويل « القرقية » . اولئك هم الذين يكتبون المدائح بالنبوت ، ويخطبون بالبندقية ، ويحيّون بالمسدس ، فتظهر « الشعبية » و يُبلغ الأرب الرخيص ...

بقــرة وعــنزة

« تادبوا يا قضاة الأرض » هكذا صاح النبي داود في المزمور الثاني. و «الحكم ملح الأرض» هكذا جاء في المثل . فمتى كانت لنا ضمائر حية عدلنا واطمانت قلوبنا واستراحت نفوسنا القلقة . ولهـذا خلقت الموازين والسجلات .

إن في اعماق شخصيتنا يستقر ذلك الشيء الذي تواضع الناس على تسميته ضميراً او وجداناً ، وهذا الضمير يقوى ويشتد إذا ظل الانسان يدفع نفسه في طريقه إلى التسامي. الضمير تخلقــه فينا تربيتنا الأولى ، ولكننا اذا أهملناه وتركنا محاسبة أنفسنا وتصاممنا عـن سماع صوته ، مات رويداً رويداً ، وقضينا حياتنا في سكرة لا نستفيق منها الاّ في السكرة الكبرى ، سكرة الموت .

إذا أراد واحد منّا أن يمتدح رجلاً ويثني على إستقامته، قـال : فلان صاحب ضمير ، وفلان ضميره حي كأنهم

يعتبرون الطماع غير العادل ميت الضمير .

قد راقبتُ الحيوانات الداجنة فوجدت في تصّرفات بعضها ، أثراً للضمير أو الوجدان . فالكلب أو الهر ، إذا اخذ خلسة ما لا يحق له أخذه، بدا عليه القلق والإضطراب حين يراه صاحبه متلبساً بالجريمة .

وما الإقرار بالجنايات الكبرى إلا من عمل الضمير . ولولا ذلك فلا يعترف مجرم بما جنت يـداه . وما العدالة البشرية الا بنت الضمير : تلك الجرثومة التي تجعـل من الانسان ملاكاً بشرياً . ومتى نمت فيه جعلته فوق البشر .

كان مكتوباً على تاج كسرى أنو شروان أربـع آيات عرفت بآيات التاج ، والآية الأمامية هي هذه : العدل يدوم وان دام عمّر ، والآية الورائية : الظلم لا يـدوم وان دام دمّر . فحسب الملك العادل انه لا يحتاج إلى جنود تحميه وينام ملء عينيه .

ومن حكايات الفرس انـ ملكهم انو شروان ذهب ذات يوم في رحلة يصطاد ، ولما حان وقت غدائه افتقدوا الملح فلم يجدوه ، فأمر احد غلمانه ان يذهب إلى قرية قريبة ويجيء بالملح ، ثم اوصاه ان يشتريه بحقه ، ولا يأخذه مجاناً لئلا يحيق الخراب بالقرية .

فقال الوزير : أبحفنة ملح تؤخذ بلا ثمن تخرب القرية؟

فقال كسرى : هكذا بدأ الظلم في الدنيا ، بدأ قليلاً جداً ، ثم تمادى الحاكم فيه حتى بلغ الحد الذي نراه .

وحكي عن مار افرام السرياني انه كان سميك الذهن ، يقرأ ليل نهار ولا يعلق بذاكرته شيء . فيئس من نفسه وقنط . وفي ذات يوم مر ببئر فرأى أثر الحبل في « خرزتها » وقد حزها حزاً عميقاً حتى كاد يبريها . فسأل إمرأة كانت تملأ جرّتها عما فعل بالخرزة هكذا ، فأجابته : الحبل يا أفرام .

فعاد أفرام أدراجه وحمل كتابه إلى البرية حيث اتخذ مقعداً على صخرة قائمة على كتف واد . وهناك ظلّ يدرس سنوات . ولكن بقرة لجاره كان يسرحها فتاتي وتعكر عليه وحدته بخوارها . وبينما هي على شفير إذا بافرام يصيح بها صيحة ردّد الوادي صداها ، فاضطربت البقرة واختل توازنها فتدهورت إلى الوادي وفكّت رقبتها .

وجاء صاحبها يندب حظه وبقرته التي كانت كل رزقه . وراح أفرام يساعده على سلخها وتقصيبها محاولاً بذلك طمس معالم جريمته .

وخلا لأفرام الجوّ زمناً وكان له الهدوء الذي أراد بعدما قضى على البقرة . وتفتقت براعم مواهبه فصار ذلك الشاعر المسكوني . ولكن جناية ارتكبت ، وكان

أفرام واحداً من المتهمين ، فزجّ في السجن . وطال الحبس فاخذ أفرام يناجي ربه متذمراً من الظلم ، لأنـه بريء مما اتهم به .

وطالت الصلوة والنجوى ، والسجن لم تنفتح أبوابه ، وأفرام يتألم ويصرخ إلى ربه يسأله الفرج . وفي هـــدأة الليل ، بينما كان المسجونون يغطون في نومهم جثـا أفرام يتضرع الى ربه بحرارة ويبكي وينتحب ويقول : أنت تعلم يا رب أنني بريء ، فكيف تتركـني في ضيقي ؟ أنا مظلوم يا رب، أنا لم أسفك دماً كما اتهموني ، فمد يدك يا الله وافتح باب حبسي . إنتشلني من جب العذاب كما انتشلت يوسف، وانقذني كما أنقذت دانيال . أنت وحدك تعلم أني بريء من هذه التهمة فنجـنّي إذن . أين قدرتك يا الله ؟ أيقتل الناس بعضهم بعضاً ويجازى عبدك ؟

وبينا كان أفرام في معمعة هذه الابتهالات ، إذا بـه يسمع هاتفاً يقول له : والبقرة يا أفرام ؟ فأصغى افرام الى الهاتف وهو متعجب كأنه يتساءل ، فـــاذا به يسمع من يقول ثانية : نعم ، البقرة التي قتلتها يا أفرام ، وشاركت صاحبها في سلخها كانك لم تقترف إثماً .

فتذكر أفرام جريمته وخر إلى ذقنه يبكي : استيقظ ضميره وعرف أنه يكفـّر عن ذنب قديم كان نسيه ، ولكن

الله لا ينسى .

واستحال سجن أفرام هيكل توبة فنظم في استرضاء ربه من شعر الكفارة شيئاً كثيراً . قبل سجنه بريئـــاً ، وأخيراً تطهرت نفسه ، واعترف المجرم بجنايته ، وخرج أفرام من سجنه خروج الذهب من النار .

وفي حكاياتهم أمثلة كثيرة على العـــدل ومحاسبة الله ملوك أرضه عما فعلوا في عباده .

حكي عن عبدالله بن عمر انـه حينما اقتربت المنية من والده سأله متى يراه بعد موته . فقـــال عمر : أراك يوم القيامة ، إن شاء الله .

فقال عبدالله : وددت لو اراك قبل ذلك .

فقال عمر : إذن تراني في المنام بعد يومين أو ثلاثة .

ومات الإمام العـادل ، ومضت الليـالي الثلاث ولم ير عبدالله أباه . وبعد اثني عشر عاماً جاءه في المنام فسأله ابنه عبدالله : أما قلت لي ، يا ابت ، اني أراك بعد ثلاث ليال من موتك ؟

فقـال عمر : لم يكن لي الوقت يا بني ، كان ربـــك يحـاسبني عن جسر تهدم أثنـاء فتح العراق ، ولم يصلحه العمال . وقد عثرت بـه عنزة فكسرت ساقها .

الله الله . فـكم من رقاب تفك في هـذا الزمان ، وكم

من نفوس تزهق بسبب اهمال العمال ، وليس من أحد يحاسب نفسه حتى كاد العدل أن يتوارى .

وقد قرأت ، في أيام الصبا ، حكاية يونانية كتبت لحث الناس على العدالة . قيل ان العدل ساد في احدى المناطق الرومانية حتى كان القاضي يحضر الى مجلسه ويتربع فيه ، ثم لا يمثل أحد بين يديه ، فيرجع الى بيته . وأخيراً أذاع انه مقيم في بيته ، فاذا شاء أحد ان يرفع اليه ظلامة فما عليه إلا ان يشد حبل الجرس ، فيخف القاضي الى استقباله وسماع شكواه .

وانقضى الشتاء ولم يدعُ القاضي أحد . وجاء الربيع فنبت العشب حول حبل الجرس فغطاه . وفي ذات يوم سمع القاضي صوت الجرس فخرج ليرى من الطارق ، فاذا هو بغل خلي سبيله ليرعى . البغل مهزول ما عليه غير جلد منشور على عظم . عمل حتى أدركته الشيخوخة ، ولما لم تبق منه بقية ألقى صاحبه حبله على غاربه وصرفه من الخدمة ... وظلَّ القاضي يفتش عن صاحب البغل حتى وجده ، ولما مثل بين يديه حكم عليه وأجبره على إطعام بغله .

إنها حكايات ، وقد تكون أساطير ، ولكنها كيفما دارت بها الحال ، تعلمنا درساً سامياً .

كلنا نطلب العـدل ، وقلما نجدنا عادلين في أعمالنـا . فالعدل يجب أن يسود في كل مكان. في البيت ، في الشارع، في الهيكل ، في المحكمـــة . لا يطلب العدل من الحـكام وحدهم ، بل علينا نحن جميعاً ان نكون عـادلين . وقديماً قالوا : لو أنصف الناس استراح القاضي .

شبابنا الحائر

انقضى موسم الشهادات وانتهى كما ينتهي كل موسم في إبانه. فإلى الذين خرجوا من معارك الامتحان سالمين غانمين نقدم تهانينا . وإلى الذين خانهم الحظ - كما يزعمون - تعازينا بأسف غير عميق . أما قال الحكيم العامي : إن فاتك عام فاستبشر بغيره ؟ فالى العمل الجدّي ، أيها الاخوان ، فالرجل المنتظر هو من يقع ويظل ثابتاً حيث هو .

ستظفر ، يا أخي ، بشهادة إذا انصرفت الى الكتاب ولم تتلفّت الى هنا وهناك ، ولم يكن وكدُك في الصيد منذ اليوم ... دع أخبار ابن أبي ربيعة التي يفرضها عليك المنهاج ، واقرأها عملاً بالواجب ولا تعمل بها . ولكن ما لنا وللمنهاج ، فأنتم شباب اليوم ترمون الى ابعد من عمر ، تراسلون الفتيات الأوروبيات وتنتظرون الجواب قبل موعد الدرس . واذا أبطأ عليكم فتّشتم عن عنوان ثانٍ وكتبتم الى التي تعرض بضاعتها على كل قارىء ، وقعدتم

تنتظرون ساعي البريد لعلّه يفتح لكم باب الفرج . ومن أين تدخل الشهادة التي تنتظرون ...

من ينكر حب هذه البقعة اللبنانية للعلوم والآداب ؟ فمنذ عصور ودهور، وبيوت العلم تشاد فيها . واليوم ألسنا نرى على كل قمة مدرسة تطاول قمم لبنان الشاهقة ، وفي كل بطحاء دور علم مفترشة كلكلها كما قال الأخطل في عبد الملك، وفي كل مدينة عدداً عديداً من المدارس تكاد تضاهي الحوانيت والمخازن عداً ؟ اما العاصمة فلا تسل عن معاهدها. فقد أصبحت اكثرها كليات ولم يعد يرضى أصحابها باسم مدرسة...وكل هذه الدور محشوكة بالطلاب حشكاً تزاحم بعضها بعضاً لتحصل على أكبر عدد ممكن من الطلاب والطالبات .

لا يدرج الطفل عندنا حتى يحبسه والده بين جدران مدرسة . وهناك يطوي الأيام وينشر الأعوام . يظل يخرج من المدرسة ثم يعود إليها إلى أن تقبل السنة الأخيرة،وينال شهادته النهائية التي يحسبها ثروته العظيمة. تتمثل له آلاف الدنانير كارجة بين سطورها، ويرى كل حرف من حروفها يضارع أشهق قصور إسبانيا . وعلى هذه الآمال يخرج من المدرسة إلى مدرسة الدهر .

في موسم الشهادات تفعل المدارس كما يفعل المزارع

تماماً . هناك يكوّم حنطته المدروسة على بيدره، والمدارس تغربل محصولها أولاً . تغربله وتصدّره الى العالم أكياساً .

وذوو الشباب تملأ صدورهم الآمال بالغد،فقد انفقوا الكثير مما يجبون حتى رأوا في يد ابنهم هـذا السلاح الثقـافي الذي يقاتل بـه في حرب المعـاش . يتخيّـل الأب كل حرف من شهـادة ابنه مبلغاً ضخمـاً من المال ، وانـه يقبر الفقر متى تخرج الصبي .

ها قد طارت الطيور بأرزاقها ، ولكن إلى أين ؟

أفلت الصبي من القفص، فانزاح برقع الوهم عن عينيه، فنظر الى العالم مدهوشاً وتمثل لعينه حرج موقفه ، فبهت ووقف وقفة المتحـير ، إذ لاح له نور مستقبله الضئيـل . الآن درى ان الشهادات كالأوراق المالية . فبقدر ما وراءها من الذهب المرصوف في خـزائن الدولة ، تكـون قيمتهـا الحقيقية ، وها هو يعرض مـا في يـده في الأسواق ، والله أعلم بالمصير .

فماذا يصنع يا ترى؟ أيتعلم فن الطب؟ ربما انه لا ينجح وأمه لا ترضى،لأن الطب يقتضي تحصيله الزمن الطويل ، وهي مستعجلة حتى تفي الديون ، وإلا راح البيت وبستان الليمون وكرم الزيتون .

هـل يدرس علم الحقوق ؟ فعمـه وأبوه لا يرضيـان .

عرفا ان البعض قد دنسوا هذه المهنة الشريفة حين اتخذوها وسيلة لابتزاز اموال الأيتام وتحميل الناس احمالاً ثقيلة .

أيكون مدرّساً، وهو يعرف ما كان يكابده استاذه من الأتعاب وأعمال الفكرة ليبين له غوامض دروسه ؟ ناهيك ان الراتب طفيف ، ولربما انه لا يجد مدرسة يدرّس فيها ، لأن التدريس صار حرفة من ليس له حرفة ، والرواتب كمشاريع الحكومة توضع في المناقصة . وجنابه لا يقنع بالقليل ، وأهم من كل ذلك ان بضاعته قليلة وهو غير واثق من نفسه .

أيرضى بعمل عند أحد التجار مدة ليختبره ؟ لا . لأن والده أنفق عليه ثروته حتى تعلم هذه العلوم ، وهو أيضاً لا يطيق ان يكون مرؤوساً . وان رضي بتاسيس محل تجاري يعارضه والده وعمه وابن عم أمه زاعمين ان بعض التجار يبيعون الذمّة والضمير ، ويلجاون أخيراً إلى الإفلاس ليأكلوا مال الناس . وقبل وبعد ، فمن أين له رأس المال ؟

أمّا الوظيفة. فقدحاول إدراكها فما. أدرك إلاّ غبارها. انها كالنعامة، ومن أين له خفة الرجل ؟ وجَـدَ خلف كل كرسي الفاً من أمثاله ، وكيف يصل وهو مقطوع الظهر ؟

فالخلاصة ، إذا عزم الشاب على عمل ما يصادف أمامه

من المصاعب جبالاً ، فيطرق مدة طويـلة دون أن يفتـح الله عليه .

امّا إذا غضب الله عليـه ومـال من صغره إلى الشعر والكتابة ، فهناك النجاح العظيم ، وكيل المالَ المد بالمـد . إنه يقضي حياته سابحاً في البحر « الطويـل » مسترسلاً إلى « المجاز المرسل » طامعاً بالدر من بحر « الوافر » « هازجاً » في أودية النجاح . وإذا اعياه الوزن ففي « الشعر المنثور » نثار الدر والعسجد .

وهكذا يعود خائباً ، لأن مدرسته لا يعنيها النظر إلى شؤون الحياة ، فما علّمته غـير النظريات والعصر عصر العمل. ما تعلّم غير أدب وبحوث اجتماعية تنأى به عن المهن التي تطعم خبزاً . لقـد غرستْ المدرسة في نفسه مـا غرّه منها ، فاصبح يرى العمل مهانة تحط من قـدر شهادته التي لا يليق بها غير كرسي واسع يترهّـل عليه ..

يدخل الفتيان المدارس وفي نيتهم الهرب من كل حركة يدويّـة . يرون في الصنائـع عاراً عظيمـاً إذا لم يكتب لهم النجاح في العلوم ، وتطمح أنظارهم إلى المراكز التي ألقيت عهدتها إلى رفاقهم الناجحين فيقفون عن العمل، ويأخذون يقيسـون الشوارع عرضاً وطولاً ، يمسـون على أمـل ، ويصبحون على فشل ، وربّـك أعلم بالنهاية .

فيا أيها الشاب الغيور، إذا كنت تطمع بمركز رفيقك فلماذا لم تتشبه به أيام كان يسهر ليحصل،وأنت منبطح على « طبقتك » لا تبـالي بالدرس خوفاً على صحتك الغاليـة ، وعملاً بقول المثل « حمار طيب خير من فيلسوف ميت » ؟ ألم تتمخّـض بك أمك المدرسة بضع عشرة سنة نظيره وإذا بـك أنت تولد مسخاً ويا للأسف ؟ اما سمعتما شروح معـلم واحد فما هذا التفاوت بينكما ؟ لقـد صدق المثل الإنجيلي بك ، فأنت كالعذارى الجاهلات ، تذهب اليوم إلى العرس ومصباحك لا زيت فيه !

وإن قلت : كان رفيقي ذكيـاً مجتهداً ، فنحن نعذرك على هذا ، ولكنا نلومك على البطالة . فدونك الصنائع ، إذ لا بد من أن تجد حرفة توافق ذوقك . ليست الصنائع تحط من شأنك ـ زادك الله علاء ـ فكل عمل محلل هو شريف، اما العار ، يا صاحبي ، ففي البطالة . أما سمعت المثل الذي يردده أبوك وجدّك على مسمعك: اشتغل بنحاسة وحاسب البطال ؟

فلماذا نطمح حيث لا يحمد الطمع، ونقنع حيث تضر القناعة؟ أتقنع من العلوم بالقشور، وتطمع بلباب الرواتب الضخمة ؟ هذا هو الجهل الفاضح ورابع المستحيلات. إنك ترى العمل الصغير محطاً من قدرك السامي لأنك تعودت

الترف ، وهذا هو النقص في تربيتنا البيتية . تخلع كل يوم بذلتين ، ولكل حصة من النهار عندك ملبوس ، وقد صح فيك قول الحريري : إلبس لكل حالة لبوسها . خبرني عن عدد قمصانك وربطات رقبتك ، ومناديلك وجواربك ، وبوطاتك اللماعه وغير اللماعة .

وهنا فليسمح لي الآباء ان أعنّفهم . فهم الذين أوصلوا أولادهم الى ضيق اليد. أرادوا أن يكبّروا نفوسهم بالملبوس، فاضاعوا الفلوس ، ورموا بهم في هذه الهوة .

لقد عاشوا صغاراً مدلّلين ثم درجوا « مدلوعين مهروقين » وشبّوا اتكاليّين ، وعاشوا في ظلّنا منعمين .

خبّرني لبناني هاجر وعاد إلى الوطن غانماً ، قال : كنت أتاجر بالثياب الجاهزة متنقلاً من مزرعة إلى مزرعة في أرياف البرازيل ، أبيع العمّال فيها بالدين وأقبض في نهاية الشهر من صاحب المزرعة . والمزرعة هناك مقاطعة كبيرة . فقلت : لا بد من تقديم هدية لابن هذا السيد . فاشتريت طقماً من الجوخ الممتاز وحملته إليه في آخر الشهر . فما رآه الخواجه حتى صاح : ما هذا؟ قلت: طقم للمحروس خورخي، اشتريته له خصيصاً لأنني لا أبيع إلاّ ثياباً عمالية من الكتان الأسمر .

فقال : يا صاحبي ، هـذا ليس ملبوس إبني ، لا أريد أن يتعود إبني لبس الجوخ فتياً لئلا يعرى شيخاً . ضب الطقم وبعه ممن تشاء . ثم نـدَه ابنه فجاء ، وقال له : نقِّ طقماً من هذه الثياب . فانتقى واحداً . وهكذا جـبر خاطري ولم يرد ان يعوّد ابنه « الجخّ » صغيراً ، فعـاد الفتى إلى مراقبة الالوف من عمال مزرعة أبيه والعمل معهم، ولم يضع فرصة الصيف .

امّا نحـن فنرى القعود هو الحرفة الشريفة ، وأن الفلاّح والخادم والعامل ليسوا بشرفاء . وهـذا الداء فاش بين طلاب المدارس ، ولهذا، إذا رفـع الله امرءاً بماله أو وظيفته، لا يرجع إلى عمله القديم إذا عانده الدهر. يا حبّذا لو كان التلامذة عندنا يشتغلون كابن هذا المزارع المليونير أو كالتلامذة الأميركيين . وهنا أذكر حكاية قرأتها في إحدى الصحف منذ نصف قرن : أقبلت المواسم في بعض جهات الولايات المتحدة،فاضطر الفلاحون إلى ازدياد الفعلة لحصاد المزروعـات ، فنشروا اعلاناً يقولون فيـه انهم يدفعون اجرة الحاصد في النهار خمسة دولارات ـ هـذا قبـل الحرب الاولى ـ فما طرق هذا الخبر مسامع طلبـة الكليات ، وكلهم أبنـاء بيوت غنيّـة ، حتى تسابقوا إلى العمل وحصل كل منهم نصيبه .

امّا نحن فقد قتلتنا القنفشة . ديوك حبش ، إذا عَلَونا فتراً تسامينا كيلومتراً . نحن نزوّج اولادنا وننفق عليهم ولا ينفصلون عنا . وهم يفصلونهم عنهم متى رشدوا، ويكون البيت مثابة لهم اذا شاؤوا ولكن ببدل . إن ابن تيودور روزفلت ترك ثروة أبيه ولم يتكل عليها ، وأراد هو ان يكوّن مستقبله كما كوّن أبوه مستقبله . أمّا نحن فلا يفارقنا همّ اولادنا . يرافقنا حتى نغمض أعيننا آخر إغماضة . قد سمعت واحداً بلغ السبعين يبكي أباه الميت الذي جاوز التسعين قائلاً : يا ابي . وصّ اصحابك فيّ .

زارني أحد اصدقائي – في مكتبتي – وهو أديب كبير، فسمعته يتأوه ، فقلت : مالك! فأجاب : بعت من مكتبتي كتباً نفيسة بالف ليرة ذهبية حتى زوّجت الصبي . .

فقلت له : لو كنت اميركياً لما عناك أمره ، ولما أخرجت كتباً كانت هي اساس شهرتك ، ومنها أتت ثروتك الفكريّة .

فقال : وليتك تعلم ماذا صار فيما بعد !

فأجبته : دعني ، يا سيدي ، من ماذا صار ! صار أن الأب يحب ابنه ، والابن يحب زوجته ، والزوجة هي وذمتها ، وحسبك الله يا محمد !

فبفتيان العالم الجديد فليتشبّه طلاّبنا، وبآبائهم فليقتدِ آباؤنا. ولعله من هنا قد جاء إخفاق المتعلّمين المهاجرين حتى سمعنا ان فلاناً الذي تخرّج في الكلية الفلانية هو في حالة من الفقر يرثى لها ، والمعّاز الأمي الذي لا يعرف الألف من العصا ، صار في غربته صاحب دور وقصور ، ومزارع ومعامل ، وشركات ضخمة . هذا الجاهل يطأ الشوك بأخمصيه غير مبالٍ بالصعاب، وذاك ، وهو صاحب الشهادة ، المتنعم في نشأته، تنفخه العظمة الكاذبة ولا يبالي إلا بتركيز القبّة وربطة الرقبة والنظر في المرآة ليرى أهي منسجمة مع ثوبه وبوطه وكلساته .

إن النجاح موقوف على العمل ، أي عمل كان ، ونحن لا عمل ولا ثبات . دأبنا الشكوى من ضيق البلاد ، وبطء الحركة، لا نعرف الحقيقة كطفل أصيب بوجع في جسمه، فأخذ يشير طوراً الى رأسه ، وحيناً إلى معدته ، فلم هذا الكسل ؟ أليس من الواجب على كل شاب ، إن غنياً أو فقيراً ، أن يجتهد في هذا العصر الذي لا يعيش فيه الانسان إلا لنفسه ؟ فمجد الأجداد ـ رحمة الله عليهم ـ قد دفن معهم . والمستقبل أسد هصور يزأر في غاب الحياة . وهل يقنص الأسد غير الأسد ؟

فيا عزيزي الشاب الحائر ، إسأل الله أن يهبك عملاً

تؤدّيه ، لا ملكاً تقتنيه . المدارس تعلم القراءة والكتابة ، والكليات تدلنا على ما سنفتّش عنه ممّا نحتاج إلى معرفته . وأنت تتعلم لتحسن تأدية عملك على حقه ، وهنا سر النجاح .

شهوة الحكم

مقالي ، كما تراه أيها القارىء العزيز ، مثل مخازن السمانة ، لا أعرف أنظمه على طريقة الـ A B C لأن جدّي علمني ، أول ما علمني ، الأبجد . فكما يقف المحارب القديم مستعرضاً الساحات التي خاض غبارها ، كذلك أقف أنا اليوم .

في مثل هذا اليوم ـ ٩ شباط ـ ولدت أنا ، وازداد عدد النفوس في لبنان واحداً . وقفت أتذكّر من عرفت، فما بلغت آخر حسي حتى رأيتهم يدرجون أمام عيني فرعوني. هذا شيخ يدب على العصا ، وذاك فتى عجل عليه الموت فطواه الردى ، وتلك عجوز صرّت الشيخوخة ثنايا وجهها ، وهاتيك فتاة ذبلت قبل إبّانها . مئات بل ألوف لم يضق عنهم بطن الأرض ، فصح فيهم قول شوقي :
فيا لك هرة أكلت بنيها وما ولدوا وتنتظر الجنينا

في هذه المحطّة التي أقف فيها كل عام لأودّع عاماً

واستقبل آخر وقفت اليوم ، لا لأقيم كوكتيل كما يفعل غيري في هذه المناسبة ، بل وقفت فنظرت إلى أشباح الماضين ، ثم استطردت إلى المقابلة بين الأمس واليوم .

انظر إلى ناس اليوم فأراهم غير الذين عرفتهم في شبابي. فالموظفون ، مثلاً ، كانوا غير بطرين ولا أشرين . ظلوا متواضعين لأنهم كانوا أغنياء فأفقرتهم الوظيفة وليس لهم مورد غير معاشهم ، ولأن ميزانية ذلك العهد كانت كبركة اليمونة ، لا تزيد ولا تنقص ، كما يقولون . وزيادة ربع قرش على مال الأعناق أو الأرزاق كانت تقيم البلاد وتقعدها . أما ميزانية هذه الأيام فكالعجين الخمر ، يطف على حفافي المعجن فتزداد ملايين بعد الملايين . والمعاشات والدرجات تقفز قفز القبابيط في اليوم القائظ .

وهذا الموظف الحديث النعمة الذي يظن أنه رب ثان على الأرض ، يخر على أقدام من هم فوقه ليحظى بالتحية ممن هم دونه . فلولا حبه الظهور لاكتفى بما يقبض ولم يلوث يده ... وهذا الجيش العرمرم من الموظفين ماذا يكفيه؟ فلولا وظيفته التي يستغنى عن خدماتها لكنا نأكل ويأكل ، وننتقل وينتقل بربع التكاليف التي نرزح تحتها الآن .

إن هذا الثوب الفضفاض الذي فصّلوه في ساعة طمع

وكلب هو الذي سبب هذا العسر والغلاء . كان معاش النائب خمسين ليرة ، فصار خمساية ، ثم جمز جمزة واحدة إلى الألف،وقس على هذا الوظائف الأخرى عالية وواطية. أما العدد فيزيد وينقص حسبما تقضي الأهواء والأغراض

والولائم لا اول لها ولا آخر ، حكوميّة وشعبيّة . الحكومة تنفق من كيس الشعب ، والشعب بطران لا يقتصد ، يتشبّه بعضه ببعض ، والتشريفات الشرقية هي طاعون الميزانية . علينا أن نزور ونزار، وعلينا أن نودّع ونستقبل ، وفي الحالتين لا بد لنا من إنفاق الملايين لنكون قمنا بواجب ضيوفنا الأعزاء . كل هذا لم تقع عليه عيني في فجر عمري المديد .

إن هذه التقاليد الشرقية ، وهذا التقنفش هي التي أورثتنا هذا الضيق . فماذا يضير الضيف لو زارنا وزرناه برفع الكلفة دون أن تهتز الأرض للقائه ؟ ترى ألا يصل بالسلامة الى المكان المقصود إلا إذا لاقته مفرزة من الجنود، وأخذت سلامه فصيلة ولم تحشد القوى كلها ؟

ثم ألا يشبع اذا أكل ثلاثة ألوان ، عدا الحلوى والفواكه ؟ والمشروب الوطني؟ ألا يصلح لشرب الأنخاب، ويساعد على افترار عن الثغر كما تساعد الويسكي والشمبانيا؟ إن كاس خمرة لبنانية معتّقة تعبىء الرأس أكثر من

الشمبانيا الفرنسية وبنت عمها الويسكي السكوتشية ، ومع ذلك يقول المغني :

ويسكي ما في   في عـــرق

لحم ما في   في مـــرق

رحم الله المصلح بنيامين فرنكلن الذي قال : كم من ضيعة ضاعت حين تركت النساء المغزل في سبيل الشاي ، وحين ترك الرجال المحراث في سبيل الكأس ..

أجل ان القرية اللبنانية خلت من سكانها تقريباً ، فالخوف والجهل والمرض متآمرون على سلامتها. يتصلون بالمكسيك تليفونياً ، والقرية التي تبعد ربع ساعة عن شط البحر لا تتصل بالطبيب ولا تعرف إلاّ وجه الجابي والمباشر .

فعلى الرؤوس أن يكونوا قدوة للشعب ويقلّلوا من اسرافهم الذي يتشبه به صغار الموظفين.وما اكثر الموظفين في لبنان ! تقطع سرة المولود اللبناني على اسم الوظيفة ، وقد ينذر لها في البطن كما ننذر شمشون الجبار لله . هكذا تحلم الأم اللبنانية بمستقبل ابنها . فليت موسى بدل بعض وصاياه العشر لتصلح للتطبيق في لبنان : لا تشته وظيفة غيرك . لا تشته مال الشعب الذي وكلتك به الحكومة .

عفواً اذا شبهنا الموظف بشمشون الجبار . وأي جبار

يبلغ السماء طولاً مثـل الموظف ؟ فهو يرى نفسه فوق الناس ، يزار ولا يزور ، ويعاد ولا يعود ، ومن المخطىء يا ترى ؟! هو أم نحن الذين نفتقده في كل مناسبة ؟ إذا حزن عزيناه ، وإذا استوحى طرنا اليه وحشدنا قوانا لتاييده . كان بالامس أديباً كيساً فما عدا مما بدا حتى نرى منه هـذا التزنبر ؟ لقد أصابنا معه ما اصاب ذلك اللبناني مع مشايخ ضيعته : كان في ضيعـة من لبـنان فلاّح مكفي ، تعشق مسايرة « المشايخ » حتى الوله ، واستطاب مذاكرتهم التي تثير الضحك على ما فيها العبر . فاخذ يتعشى قبل الغروب ليأتي بيوتهم ملس الظلام ، ثم لا يعـود منها حتى يتدهور الليـل .

وكثيراً ما كان المشايخ يزأرونه ولا يحس ، ويقابلونه بفجاجة ولا يشعر . يستحلي حديثهم ، ولو تماجنـوا به وتنادروا عليه . وما كان يهتم في حضرتهم إلاّ بأن يقول كلمة جرت العادة في قولها عنـــدنا للشاربين : هنيئـاً يا سيدي ، او هنيئاً لمن شرب ، او صحة وعافية ، بحسب مراتب الناس .

واخيراً تعوّد المشايخ رؤية هـذا الضيف ، فألفوه ، وتغيّر نظرهم فيه حتى صار في عـين نفسه كانه واحـد منهم ، فطيف بالشراب عليهم جمله ، ذات ليـلة ، فادى

صاحبنا مهمة : هنيئاً يا سيدي ، لكل واحـد منهم . ثم جاءت نوبته فشرب وأجال نظره فيهم ، فاذا هم في شغـل عنه . ورأى ان يتنحنح ففعل ، ثم أحّ ، ثم سعل ... وما من يلتفت، فانشق صدره من الغيظ حتى عدا طوره وقال لهم : محسوبكم شرب يا مشايـخ ! فأجابه أحضرهم نكتة وألذعهم نادرة : « كل عمره يشرب » . فكركروا جميعاً في الضحك ، ولم يفز صاحبنا منهم بكلمة « صحة » حتى بعد استجدائها ...

فمن الملوم يا ترى ؟ ألسنا نحـن الملومين لأننا أعطينا هؤلاء الناس أكثر مما لهم ؟ ألم يكن سامي بـك الصلح على حق حين قال:انه سيقترح على الحكومة تغيير اسم الموظف باسم خادم الشعب ، حتى تسير قضـايا الدولة والشعب في الطريق المستقيم ؟

فما معنى كلمة الوظيفة التي اشتق منها اسم الموظف؟هي طعام ورزق محددان يتناولهما المستعمل ممن استعمله ، ومن يأكل طعامـك وجبت عليه خدمتـك . إذن ، فالموظف خادم أمين شريف، يأخذ الجراية في حينها ، فيأكل رغيفه بعرق جبينه ، وعليه أن يتم الاعمال في مواقيتهـا . أمّا الموظف الذي يريد ان يسمّيه سامي بك خادماً فقد سمّاه المعري ، منذ الف سنة ، أجيراً .

الملبوس لا يعمل القسوس. فالبابا كان يوقع فيما مضى: عبد عبيد الله ، والبطاركة والاحبار . وغيرهم يوقعون : الحقير والفقير،والكردينال مري دلفال، وزير الفاتيكان على عهد بيوس العاشر ، وقّع لي : خادمكم المطيع .

كان سامي بك ، وهو استاذ الشرق اللبناني الأعظم ، يريد ان يحدّ من ارستقراطية الموظف وغطرسته حين فكر بهذا الاسم ، ولكن أي موظف ؟ ذاك الذي يتغطرس ويتفرعن ، ويتسلطن كديك الحبش ؟

أليس هذاك الذي قذفته سخرية القدر إلى دور الحكومة فجلس على طنافسها ، بعدما كانت قوائم كرسيه من خشب الحور الخام ، ومقعدها حبال قش فتلت فتل شزر ؟

ومن ينتفخ كضفدع لافونتين ؟ أليس ذاك الذي جاء السراي ببنطلون كان قفاه خريطة جغرافية للخطوط الحديدية،ثم صار، حين امتدت يده الى المال السايب، يبدل كل يوم حلة ؟

أليس ذاك الذي جاء منتعلاً بوطاً مفلطحاً كأنه خف جمل ، مرقّعاً كمداس أبي القاسم الطنبوري ، ثم صار اليوم من زبائن النجار وباتا ، وأشهر الماركات المسجلة ؟

أليس ذاك الذي كان يفترش أرض غرفته ، وإن

استراح، نام على سرير ثرثار ؟ كان يفر من تلك الزريبة مع الفجر لئلا يفاجئه احد فيها ، ولكنه صار بنعمة «الامانة» من زبائن أشهر مصانع الموبيليا ، ومخازن السجاد العجمي، وكل ذلك بفضل الغفلة وسوء التربية .

أليس ذاك الذي كان كابن الإنسان ليس له مكان يسند اليه رأسه ، فصار صاحب دار وعقار وسيارة وخدم، وهو اذا شبع من راتبه الشهري عري ، وان اكتسى جاع .؟..

لا باس بتسمية الموظف سيداً ، إذا كان أميناً ، أما أن نسمّيه خادماً ، ويده طويلة ، فهذا ، والله ، كثير عليك يا بيك !

فمن المسؤول عن هذه الكبرياء العارمة عند الموظفين؟ أليست النظم الحكومية التي جعلت درجة رؤساء الجامعات رابعة عشرة حين زارنا عظيم من عظماء الشرق ؟ ألم يأتوا بعد آخر موظف ؟

وفي أي مناسبة دعي واحد من رجال الفكر إلى تلك المآدب التي هي من مال المكلف اللبناني ، فكأن لبنان كان موظفاً في مطاوي تاريخه ولم يكن فكراً ؟ فساعة يريدون يتحدثون عن الإشعاع ، وكأنهم هم راديوم المعرفة الذي لا ينقطع إشعاعه ... وساعة يريدون يطفئون القناديل إلى حين ، كما تفعل عجائز القرية في تساعية الميلاد ، أو جمعة

الآلام ، حين يحضرن الصلاة في الكنيسة .

قلت أنهم لم يدعوا أحداً الى مادبة حكومية على وجه التعميم،مع اني عرفت أنهم دعوا مرة شاعرنا العظيم بشاره الخوري ـ الأخطـل الصغير ـ الى مادبة مـا ، ولكنهم حددوا له ثوبـاً بعينه . فكأن بشاره الخوري لا يكون بشاره الخوري إلا إذا لبس الفراك أو الريدنكوت . نسوا أنه كسا لبنان من قريضه حلة لا تبلى ولا تُخلع .

نحن غرباء في وطننـا ، يتمتّع غيرنا بمـا نغذّي به الصندوق من ضرائب ظـاهرة ومستورة ، ولا نحصل على رغيف نفكّ به ريقنا .

ستر الله علينـا وعلى حكومتنـا التي أصابنـا معها مـا أصاب يوسف ساسين العـاقوري مع رئيس دير ميفوق في ذلـك الزمـان : زار الشيخ يوسف ذاك الرئيس فوجـده مهموكاً باستقبال سيدة جليلة اسمها أم حنا،فلم يبالِ بالشاعر العامي ، فنام الشاعر تلك الليلة على مضض. وفي الغد صعد الى الخورس وخدم القداس لرئيس الدير ، فاعجب بصوته وحسن ترنيمه . ولما بلغ « فلنقف حسناً باجمعنـا » . صرخ الشيخ يوسف ببيت نظمه هو على ذلك الوزن فقال :

« جينا لدير ميفوق نتكنى قدّرنا الريّس بيسال عنا
وأنـا عتـي على ربي اللي ما خلقني مثل أم حنا»

فهل نعجب بعد هـذا إذا رأينـا حركة سير الدولة لا تتعرقل إلا عند التعيينات والمناقـلات ؟ فالتوظيف قوام الدولة عندنا . أقول الدولة وأعني ما أقول ، فلم يقر لنا وطن بعد. وهل نعجب اذا رأينا هذا التهافت على الوظائف؟ تصور أن واحداً خفيف العقل قعد مرة قدّامي في إحدى الحفلات ، وشاء أن يعتذر عن تصدره فقال: لا تؤاخذني. بحكم الوظيفة .

ويا ليتـك تعرف مـا هـو ، كاتب صغير ، قضى في المدرسة سنوات ، وظل يكتب ايضاً ايظاً . ولكن وراءه لحية كالتي وصفها ابن الرومي ، استطاعت أن تجلسه على كرسي سيقانها من قصب،فصار « ابن حكومي » ا تقول والدته .

هـذه نتفة من ذكرياتي يوم مولدي ، وعش رجبـاً ترَ عجباً .

الدنيا واسطة

أنها كلمة تدور على رأس ألسنتنا ، وهي التي حطمت شخصيتنا وأفقدتنا الاعتماد على أنفسنا . فأفراد العائلة يتوسط بعضهم لبعض . الابن يتوسط لأخته عند أبيه وبالعكس . والأم تلجأ إلى بنيها ، والأب كذلك ، وهكذا دواليك ، حتى إنه لا يطلب شيء في البيت من مرجعه مباشرة ، ولا يذهب احد إلى الهدف توا .

فكرت في ذلك كثيراً لعلي أهتدي إلى موضع الداء ، فما وجدت لهذه العلة تعليلاً إلا نشأتنا التوكلية . فالوساطة والشفاعة طبيعيتان في الإنسان ، وجدتا فيه منذ البدء ، منذ خلق الإنسان الآلهة وجعلها من ذوات الاختصاص . فللزرع إله . وللخمر آخر . ولكل غرض من أغراض الحياة قدّيس وولي ، حتى الحبل والولادة ... ولما صار الله الواحد الاحد فوق الجميع تحول ذاك الاختصاص الى القديسين والاولياء ، فصاروا كالاطباء اليوم : هذا للإذن ،

وذاك للعين ، وهذاك للرأس وغيره للصدر الخ .

لم أجد تعليلاً اقرب الى الحقيقة من هذا . وإلا فلماذا نراانا نلجأ في حل أبسط قضايانا الى الواسطة ؟ فـاذا قلت لاحـدنا : انت يا صاحبي صاحب حـق فما حاجتـك الى الواسطة ؟ اجابك وهو يأكلك بعينيه : الدنيـا واسطة ، وإلاّ فلماذا نصلّـي إلى الله ؟ ولماذا ننذر للقديسين ؟ ولـمـاذا نبتهل ونتضرع ونقرع صدورنا ؟ ولماذا نوقف أملاكنا في سبيل الله ؟ ألسنا نفعل ذلك ابتغاء رضاء الله عنا وادخالنا جنته ونعيمه ؟ واذا قلت لآخر : ولـمـاذا تقف على الأبواب ما زلت تعرف أنك صاحب جدارة وكفاءة ؟ اجابك : إن لمزاحمي يداً قوية . هو ظهره قوي وأنا مقطـوع الظهر . فما عساي أنال إذا لم يكن لي شفيـع عند اصحاب الحـل والعقد ؟

اما سمعت بحكاية تلك المرأة ؟ أراد أهـل الحي الذي تقيم فيه ان يخرجوها منه لأن مقامها رجس عليهـم لسوء سيرتها ، فطلب القاضي من أهل الحيّ عريضة موقّـعة من عشرين أو ثلاثين رجلاً ، ففعلوا . وقبل الجلسة التي كانت في ايام نضج التين هيأت تلك المرأة سلة وعباتها جاعـلة في كل تينة دينـاراً وحملتها إلى القاضي ، ولـمـا لم تقـدر على الوصول اليـه سلمت السلة إلى الحاجب ، فاعجبه تينهـا

افأ كل واحدة منها فاذا بدينار يقع تحت اضراسه فأخذه. وجرب تينة ثانية وثالثة فاذا الأمر كذلك، فتوقف عن الامتحان. ادرك ان تلك المرآة داهية من الدواهي وراح يحمل الهدية الى القاضي وأنباه بسرها الغريب، سر التين المحشو ذهباً...

ورفعت العريضة الموقعة من أهل الحي إلى مقام القاضي العادل وعليها توقيع ثلاثين رجلاً فقال القاضي: ولكن جاءني وفد بقارب الخمسين وجميعهم شهدوا بحسن سيرة المرأة فلا تظلموها.

فقال الحاجب: وبقي ثلاثة اربعة عندي فلم يؤدوا شهادتهم...

تلك هي حالتنا. ننشأ على الاعتقاد أن الدنيا واسطة، فنلجأ اليها في كل موقف، وشعار نا دائماً: الغاية تبرر الواسطة.

كانت الآستانة تعين متصرفاً للبنان كل خمس سنوات، فتحمى سوق الوسائط في لبنان. تهبط الوجوه والأعيان من طلاب الوظائف الى بيروت، فتزاحم مصطفين على ابواب القنصليات كعصفور العابور على قضيب الدبق، وتبدأ الاتصالات بالسفراء لعزل فلان وتنصيب فلان. فالبطرك الفلاني يوصي بفلان، وهذا المطران يريد غيره، ويجيء المتصرف فتعفر الجباه على اعتابه والقلوب تدق،

ثم يبدأ العزل والتعيين وهو في البحر ، اذ لم يكن في ذلك العهد رفع حصانة . فالقانون في فم المتصرف .

واذا كان حاكم لبنان غير اهوج مثل مظفّر باشا تأنّى قليلاً ، وطمع في غلاء الأسعار وكثرة الهدايا . فالوظيفة في ذلك الزمان كانت اقصى ما يطمح اليه ابناء البيوتات في لبنان ... يتنازعون عليها وينفقون بغير حساب ، ومن فاز بها كان صاحب المقام الرفيع. وهكذا طارت العقارات عقاراً اثر عقار ، وصار الأولون آخرين والآخرون اولين ... كانت الوظيفة في ذلك الزمان تأخذ ولا تعطي، ولا تفجر الثروة انهاراً .

حكي ان الشيخ رشيد الخازن اوصت به السفارة الفرنسية في اسطمبول ليعود الى قائمقاميته ، فخف الى البحر ليرحب بقدوم المتصرف الجديد،وكان ذاك المتصرف خفيف الرأس ، ابن حلال ، فحين عرّفوه بالشيخ دق على قفاه ، اي على جيبة بنطلونه الورائيــة ، وقال له : طمن بالك يا شيخ رشيد ، انت هنا .

فانصرف الشيخ مطمئناً مرتاح البال . وانتظر حيناً ثم عاد ليسمع المعزوفة الأولى ، أي الدق على القفا ، وظل يروح ويجيء . واخيراً عاد ليقدم لدولة المتصرف اصبعاً ظنها اصبعاً ذهبيــة لانه إِلفَ رؤية مثلها ، فانتفض

المتصرف وقال : ما هذا يا شيخ رشيد ! فقال الشيخ : هذه اصبع شربة ملح انكليزي يا افندينا حتى تخرجني من ذلك الموضع ...

واذا كنا هكذا نشأنا منذ قرون ، فهل ينتظر منا العدول عن الواسطة في جميع اعمالنا ؟ فنحن متكلون على الواسطة والشفاعة منذ وجدنا، وقد كان القدماء يفرقون بين شفيع وشفيع ، فهناك الذي لا ترد شفاعته ، بينما شفاعة غيره لا تقبل ولذلك قالوا ؟

ليس الشفيع الذي يأتيك متزراً
مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

فاذا سالت واحداً عُزل لارتكاب أو اختلاس، ثم عاد مكرماً وارتقى درجات : كيف عدت يا هذا ؟ الحمد لله على السلامة . اجابك بكل رباطه جاش ووقاحة : كانت الواسطة قوية جداً ...

واذا سالت آخر : كيف وصلت الى هنا وليس فيك الشروط المطلوبة ؟ اجابك بعين مفتوحة : كله خلط ! الدنيا واسطة .

ويجيئك واحد ويسالك : أتعرف فلاناً ؟ فتجيبه نعم اعرفه . فيفتح امامك كيس بضاعته مستجيراً بقوله : خلصنا . ما بقي إلا تتفة واسطة وبس. فبحياتك ساعدنا،

انت صاحبه ، وينام على يدك .

واذا سألت غيره : كيف خلصت من تلك الورطة ؟ اجابك : واسطتي قوية جداً جداً ، والواسطة كما تعلم غير منكورة . وكما في السما كذلك على الأرض !

واذا سألت الحقوق المقبورة في الادراج : اي سليمان حبسك في هذه القماقم حتى نمت هنا على فرد جنب ؟ اجابتك : انها كلمة قادر يقول للامر كن فيكون ، بل قل هي وحي يوحى ، وهذه هي الواسطة الكبرى .

هذا اذا كنت توفق إلى وسيط صادق ، اما إذا كان من يشفع بك من الذين يا كلون الطعم ويقضونها على الصنارة فالويل لك . انه يحملك خازوقك على كتفك ولا تدري . تقتل الأيام بين ذهاب وإياب ورح وتعال ، تارة يستقبلك وطوراً ينهزم ويتخبأ ، وربما لا يحدث بشانك احداً ، ويزعم لك انه اقام الدنيا واقعدها من اجلك .

لست مجنوناً حتى انكر فعل الواسطة وألوم من يتوسطون الناس في قضاء حاجاتهم ، ولا أقول لهم دعوها لأني اعلم ان الناس مطبوعون عليها ، والغريق يتعلق بحبال الهواء... أما رأيت من يلجأون إلى رسائل التوصيات ويزورون الوسطاء؟ أما يتوسل الناس بالسحرة ويعتقدون انهم يمهدون العقبات ؟

وأخيراً نقول : ما اكبر مصيبة من يـؤول اليهم امر الحل والربط والتوظيف والعزل ، فان النـاس يقلقون راحتهم وراحة من عندهم من أهـل حتى الخدم والحشم ، حتى تتعذر عليهم الاستراحة في بيوتهم . ان اولياء الأمور لا ينكرون ما قلت عن الواسطة ، فكثيراً ما يصرحون انهم يتكتمون في اجراءاتهم خوفاً من المتوسطين مترين وعريانين ...

مساكين نحن البشر ! قرأت انه صنـع في الريو دي جانيرو كأس علوها متران ونصف المتر ، وهي معمولة من مئة وخمسين كيلو من الذهب ، ومرصعة بالجواهر حتى بلغ ثمنها المليون . ترى ألم يصنع هذا كله واسطة للتقرب الى الله ؟ مع ان حمل الله قال : اريد رحمة لا ذبيحة .

اذا قلنا ان آغا خان ينتفع بالذهب الذي يوزن به ، فما حاجة القربان إلى كأس وزنها مئة وخمسون كيلو ، وعلوها متران ونصف المتر ؟ وبعد ألسنا في حاجـة إلى سلم يمكّن الكاهن من المباركة عليها ؟

أليس يحتاج إلى جرة نبيذ وصينية خبز ؟ انه منسف !

وأخيراً اقول : كل هذه وسائط مختلفة عرضاً ، متفقة في الجوهر . والله الهادي إلى الصواب : ثم كيف لنـا ان ننكر الواسطـة ما زالوا يزعمـون ان الوسيط يخاطب

الارواح ، وانه اذا كان ملكة جمال كان مستطيعاً اكثر ... وكان اقوى وافعل لان الله جميل ويحب الجمال .

ولولا الوسائط لم تكن عيال بأسرها ، بل قرى ومدن وقصبات تستأثر بوظائف الدولة ومرافقها ! أما من ليس لهم يد وواسطة ، فلينتظروا ...

لا يحُولونَ وَلا يزُولونَ

قيل لي ـ اما انا فما زرت اوربا ولا غيرها ـ انهم هناك يعيِّنون في المخازن الكبرى مستخدماً «برسم البهدلة». فكل تقصير مع الزبائن ينسب اليه ويصب عليه الخواجه جام غضبه حين يشكو اليه احدٌ ابطاءً أو تاخيراً. وكذلك فعل بنو اسرائيل حين صبوا تمثالاً سموه «تيس الخطية»، فكانوا يتمسحون به ليحمل خطاياهم عنهم، ثم يذبحونه ليبرأوا من ذنوبهم. وهكذا نحن نعيب زماننا، والعيب فينا. فلو تطهرنا من عنعناتنا عملياً لا قولياً، لاختفت اعراض الطائفية التي هي كالعر ـ الجرب ـ يكمن حينا ثم ينتشر. ان وباء الطائفية منتشر اليوم اكثر منه في كل زمان، والطائفية عندنا:

كاهلِ النارِ إن نضجتْ جلودٌ
أعيدتْ للشقاءِ لهمْ جلودُ

ندعي نحن أننا من ابناء عصر النور، وان المرحومين جدودنا عاشوا في الظلمات، ولكننا اذا قسنا انفسنا بهم،

رأينا انهم كانوا اكثر تساهلاً منا .

كان جدي يتمون ويتبضع كل عام من طرابلس ، ولم يكن يطيب له شراء مؤونته وحوايج بيته إلا من عند الحاج مصطفى . فلا ينتصف شهر آب ويأتي عيد السيدة ، وهو ميزان الأسعار عند القدماء ، حتى يتحرك موكب الدواب ، ويركب الخوري بغلته ويسير في الطليعة ، حتى إذا ما بلغ ابواب المدينة ، مشط لحيته ونفض عنه غبار الطريق ، ثم يتوغل فيها حتى يحط الرحال بباب مخزن الحاج مصطفى ، فتتشابك اللحى وتتهادى كالمراوح ، ويموج القاووق والعمامة كهرمين صغيرين ، ويرى من في السوق حاجاً طرابلسياً وكاهناً مارونياً جبلياً يتعانقان ويتصافحان بشوق .

ولا يأتي المساء حتى يحل الخوري ضيفاً مكرماً في بيت الحاج . يصلي كلاهما صلاته في حينها ، وصلوات الخوري الماروني خمس كصلاة المسلم : الصبح والظهر ، والعصر والمساء ، والليل . حتى اذا ما انتهت صلاتهما استأنفا الحديث. وبعد يومين ثلاثة يفرغ جدي من تعبئة المؤونة ، وتمشي القافلة ، على خيرة الله ، طلوع النجمة ، وتمسي في عبرين لتكون في الغد ، عند انتشار النهار ، في عين كفاع .

وفي احدى السنوات افتقد جدي كيسه عند عودته

من طرابلس فلم يجده ، فصفقت الخورية كفاً على كف ، وصاحت :

يا خراب البيوت ... اقطع الشك يا خوري حنا .

فقلب الخوري جيوبه لها ونفض كمه فلم يعثر على شيء ، فقعد كئيباً يفحص ضميره ويتذكر . المبلغ غير قليل ، وهو الحيلة والفتيلة كما تقول العوام . وظلت الخورية واقفة واجمة . واخيراً انفجرت فزجرها الخوري قائلاً :

ـ المال الحلال لا يضيع .

ومر شهران والمال الحلال لم يرجع ، والليرات الذهبية ظلت في غربتها . وجاء موسم الزيتون ، فغدا الخوري ليقدس ويذهب إلى القطاف . وبينا كان يدور بالكاس ، رأى رأساً عليه لفة امتد من الباب وارتد ، فخال انه شبه له . وانتهى القداس . وما خرج الخوري من الباب حتى رأى نفسه أمام مسلم يسلم عليه بوقار ودالّة .

وتعارفا اخيراً وقال الرسول لجدي :

ـ صاحبك الحاج مصطفى يسلم عليك . ارسلني حتى اسلمك هذه الامانة .

وعاد الكيس والليرات واغتبطت الخورية : يسلم دين لحيتك يا حج مصطفى !

وأراد الخوري أن يكرم الرسول الذي مشى ثلاثة أيام ذهاباً وإياباً ، فابى الرسول قائلاً :

اجرتي واصلة لي من الحاج ، حرّم عليّ اخذ بارة واحدة منك . وهو يسلم عليك ويقول لك : ما وجد طريقة امينة حتى يرسل اليك حلالك قبل الآن .

وامتنع الرسول حتى عن الزاد،لانه مزود من الحاج، فصح قول الشاعر : « ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد » .

وكان جدي رحمه الله ، كلما روى لنا تلك القصة ، يقول :

ــ العلة في البشر لا في الدين .

لقد سبقنا الأجانب في كل شيء حتى في الصلاة . فانك تقرأ صلاتهم فتراها عمومية ولا تشعر بأثر طائفي فيها . وكذلك لباسهم ، فهو لا يشير إلى لون من ألوان الملل والنحل . اما نحن فالثياب تفرقنا ، والأسماء تميزنا ، والصلوات وألحانها تدل على كل ملة وطائفة ، وخصوصاً في لبنان ، في الكوكتيل الغريب العجيب .

يخترع العلماء اليوم آلات ليدرسوا بها الشمس عن قرب ، فهلا حاول احد هؤلاء الجهابذة اختراع آلة تدرس لبنان وطوائفه ؟

الفلكيون يكتشفون نجوماً جديدة وكواكب جديدة،

إلا اقمار لبنان وكواكبه ونجومه،فهم في كل فلك يسبحون. ففي فلكنا السياسي الطائفي كوم ثريات ، وموازين ، ومجرات ، ودبب كبار وصغار ، كما في الفلك تماماً . ترى إذا اجلنا فكرتنا وفتشنا ابعاد نظام فلكنا السياسي الطائفي ، ألا نعثر على نجم أو نجوم جديدة تضيء لنا في الليلة الظلماء ؟

ترى أي فرق بين لبنان العصر العشرين ولبنان القرن التاسع عشر والثامن عشر ؟

كانوا يسمون ذلك العصر اقطاعياً لان كل مقاطعة كانت لواحد . واليوم يقتطع النواب البلاد باسم النيابة والنظام البرلماني ، فتطلق ايديهم في مناطقهم ويتصرفون كأنهم في عهد الاقطاع . ناهيك ان رجال السياسة هم هم، كأنهم حجارة الداما . ترى أليس في البلاد سواهم ؟ وإذا قلت هذا قالوا لك : الطائفية !

آمنّا ، يا سيدي ! انها الطائفية . ولكن في الطوائف غير هؤلاء . هل ورثوا الحكم والوظائف مع ما ورثوا من عقارات ؟ استند الشارع الى الطائفية ليحد من طغيان ملة على ملة ، ولم يقل بالطائفية لتظل مقدرات الدولة في يد بيوت معلومة ، لانهم توارثوا الوظائف كابراً عن كابر .

انها ، والله ، اقطاعية لا طائفية . ففي كل طائفة

رجال كثيرون ، فلم لا نجرّبهم ؟والشباب لماذا لا غرّنهم على الأقل؟ الطائفية تقول بالمساواة بين الطوائف في الوظائف، ولا تقول بالحصر والاحتكار ... لقد جربنا من جربنا من الناس ، فلماذا لا نجرب غيرهم ؟

وإذا كان لبنان دولة ديمقراطية علمانية حقاً ، فأين الوجوه الشعبية الجديدة التي تطل علينا ؟

تتغير رجالات دول الأرض في استمرار ،فأسماء تغيب وأسماء تبدو ثم تختفي إلى ما لا نهاية له ، إلا عندنا في هذه البقعة من الأرض ، فان رجالها في متاريسهم ثابتون ، والثابت وجههم ووجه الله ...

سُوسٌ وَقُرَاد

تنكر نابليون وركب جواده لنزهة ، فأقبل ، بعد مسير بضعة عشر ميلاً ، على فلاح عملاق مكب على مجرفته يسوّي بها الأرض . فحيّاه الامبراطور وساله :

ـ أتغل لك هذه الأرض ما يكفي عيالك ؟

فأجابه الرجل :

ـ الأرض كريمة وفية يا سيدي ، تدفع الدين اضعافاً .

ـ ولكنها مزرعة صغيرة جداً يا شيخي !

فابتسم الفلاح وقال :

ـ والأرض كالرجال ، لا تقاس بالطول والعرض . صدقني ، اذا قلت لك ، أوفّر كل عام نحو الف فرنك، مع ان عائلتي احد عشر .

فتعجب نابليون وصاح : كيف ؟

فقال الفلاح : حياتي يا سيدي، قلع وزرع . لا استريح ولا ادع الأرض تستريح . من الزرع إلى الضرع ، ومن

الدجاج إلى الارانب ، ومن الغنم إلى الخنازير . ثم لا تنس التدبير ، فحكة المرأة نصف المحصول . عندي فرس ، ان لم يكن كريم الأصل كحصانك ، فهو انفع منه . يفلح ويطحن ، ويجر المركبة ، ويسرج للركوب . وعندي ، اجلّ الله شانك ، كلب صيد يملأ البيت لحماً . ولي أيضاً جار رضا أعاونه ويعاونني ، يوم بيوم واسبوعاً بأسبوع . الأولاد الكبار يعملون معي ، والصغار يتعلمون مجاناً ، ومجاناً أيضاً نطبّب ونُداوى .

ـ يظهر انك راضٍ عن الكورسكي .

فصوب الفلاح اصبعه صوب السماء وصاح :

ـ لا تقل الكورسكي ! قل يعيش الامبراطور !

فابتسم نابليون وهتف : يعيش الامبراطور .

فقال الفلاح : الآن شرحت صدري .

ثم التفت صوب بيته وصاح :

ـ هيلين ، يا هيلين ، هاتي لنا قنينة نبيذ لنكرم الزائر الكريم .

ثم كانت منادمة لطيفة شربا فيها نخب الامبراطور . وأخيراً عرّف نابليون الفلاح بنفسه ، وساله ، بعد ان اجازه ، ألا يبوح بسره لأحد قبل ان يرى الامبراطور مرة ثانية .

وبعد العشاء ، عمر مجلس الامبراطور بأركان حربه

كالعادة ، فقال لهم :

ـ عندي جائزة قدرها خمسمائة ليرة لمن يرسم خطة لاستغلال مزرعة لا تزيد مساحتها عن ثلاث هكتارات ، وتكفي غلتها عيلة عددها أحد عشر شخصاً . ويوفر صاحبها الف فرنك كل سنة. فقعد الاركان يحكّون رؤوسهم طول السهرة ، فلم يخرج منها شيء .

لم يفت المارشال ناي ، رئيس الأركان ، ان مولاه الامبراطور رأى تلك المزرعة في نزهته امس فبكر اليها . امطر صاحبها وابلاً من الأسئلة فما ظفر منه بغير الابتسامة الحائرة وهز الكتفين . ولما لجا الى المال تمت له الصفقة بخمسين ديناراً انتقاها الفلاح من بين مائة ، ثم باح بسره . فرسم المارشال الخطة واحرز الجائزة .

وجاء نابليون المزرعة بعد يومين ، وعنف الفلاح لانه لم يف بالعهد، وافشى السر قبل ان يراه مرة ثانية، فضحك الفلاح وقال :

ـ خمسين مرة رأيتك يا مولاي .

ثم اخذ يريه الدنانير المرسومة عليها صورة نابليون واحداً بعد واحد . فأعجب نابليون بذكاء هذا المواطن الساذج .

تذكرت هذه الحكاية لما قرأت في جريدة « الفكر »

الاردنية ، موازنة مثالية وضعتها لموظف عنده اربعة أولاد ، وراتبه ثلاثون ديناراً اردنياً،أي ٢٦٥ ليرة لبنانية. عصرت الجريدة تلك الموازنة أشد عصر ، وقتّرت على الموظف ما استطاعت ، وظل العجز الشهري ثمانية دنانير وثلثي الدينار ، فاقترحت على قرائها مشاركتها في بحث المعضلة لعلهم يرفهون عن الموظف المسكين .

حقاً ، ان الأرض تفرق على شبر ! فكم من موظف حقير عندنا،راتبه أقل من راتب الموظف الأردني، وعيلته كعيلة الفلاح النابليوني عدداً ، ومع ذلك يشكو الكظة والبشم ...

كان ومن عنده ينامون على الحصير ، فصاروا ، بعد ان تعلق هذا القراد بجسم الدولة ، على سرر مصفوفة متكئين عليها متقابلين ، وإذا سألت من أين ؟ ذكروا لك سمكات المسيح وخبزاته ...

ليتهم يعلمون ان العث مهما رتع في الصوف ، ومهما انتفخ وتفلطح ، يظل دودة حقيرة ، والسحق امامه ولو بعد حين ...

إقطاعيّة برلمانيّة

ما سمع سماسرة الانتخابات بزيادة عدد النواب ، وان معركة نيابية حامية ستقع ، حتى انتشروا في العاصمة . خرجوا جميعاً من انفاقهم كما يخرج البزاق في اول الري ، وذرت انوفهم كما تذر قرون تلك .

انهم ادق شماً من النمل وأكثر جولاناً من النحل .

ـ جاءت الرزقة .

هكذا قال لي احدهم حين نكبت بلقياه في ساحة البرج. فقلت له :

ـ بكرت يا صاحب .

فاجاب وهو يسن اضراسه :

ـ اما قالوا الضربة لمن سبق ؟

فقلت له : وكيف السوق ؟

فقال : مع السوق نسوق .

وما ودعته حتى التقيت آخر ،وبدون حيّا الله،وسلّم

الله قال :

ـ ما أكثر المرشحين .

قلت : وكيف جيوبهم ؟

فقال : لا ينزل إلى هذا الميدان إلا كل محجّـل الثلاثة « مطلوق » اليمين .

فقلت : وانت لمن في هذه النقلة .

فقال : أنا للجميع في أول الميدان ، وللزائد الأخير أخيرا . الا تعرفني ؟ داعيك لا يقع على جمرة حرة .

قلت : بلى ، ولكن هم ، أيصدّقون دائماً من يضحك عليهم ؟

فقهقه وقال : الغريق يتعلق بحبال الهواء. وهل النيابة لعبة ؟ النيابة هي المتجر الرابح . تفضل اقعد معي نشرب فنجان قهوة .

ومشينا وهو يردد ما قاله ابو نواس حين استطاب الحج مع جنان :

ليت ذا الحج كان فرضاً علينا
كل شهرين حجّةً واعتمارا

ـ تعرف يا معلمي تلميذك . فأنا لا شغل لي غير هذه الحركة . عجزت عن الوقوع على شغل فاشتغلت بالناس . وكل مرة نلاقي عميان قلب . وربك خلق دودة في صخر

وخلق لها معاشها . نشكر الله .

فقلت : الف مرة .

ـ يا صبي ، هات كراسي . قهـوة شغل يدك الحلوة .

ثم حملق بي وقال :

ـ نعم يا سيدي ، سألتني عن المرشحين . انهم أكثر من الهم على القلب . فكل من معه مبلغ محترم يريـد ان يرّشح نفسه . ونحن على استعداد لخدمته . الوعود كثيرة ، ولكني اتغدام قبل ان يتعشوني . سألتني عن اقبال الموسم . ولماذا لا يكون الموسم مقبلاً ، ما دام المعاش الشهري الف ليرة ، والخدمة حرة ؟ إن حضرت الجلسة كان به وإلا فليس من يطالبـك ، ولا من يجبرك على الحضـور . أي موظف في الدنيا حر مثل النائب ؟

وإذا كنت صاحب مهنة كمحامٍ أو طبيب ، أو أو ...

تربح زبائن لانك مرهوب الجانب،وشعارك قول الشاعر :

إذا أنتَ لم تنفعْ فضرّ فانما

يُرجى الفتى كيما يضرّ وينفع

وما هو النائب في لبنان ؟ قل .

قلت : انت أخبرَ .

فقال : استغفر الله . هذا تواضع منك .

، سعل سعلة رنانــة لفتت الينا الانظار ، ولكنـه لم

يبالِ وقال :

ـ النائب حاكم اقطاعي . يـده مطلقة في المنطقة . وإذا مد نائب آخر ، أو موظف مهما كبر ، يده اليها يقطعها من الكوع ... وإذا الحكومة فكرت بذلك هددها بسحب ثقته الغاليـة ... الحكومـة معرضة للهزات كل يوم . اما النائب فيفعل ما يريد في ظل الحصانة. فيد القضاء قصـيرة عنه . وبعد انقضاء المدة يربح مدة جديـدة . ينصر حزبه فيكـون لهم الغنم ولغيرهم الغرم . وإذا كان داهية يربـح قسماً من خصومه ومعارضيه . وكما نحرك نحن اليوم يحرك هو بعـد حين ، ولا حركة بـلا بركة . تفضل اشرب . بردت قهوتك .

قال هذا واخـذ يحتسي فنجـانه على مهل ، وعينـاه شائحتان في المدى الأبعد ، كانه يجمع ما عنده بعد ، وكانه افاق فانتفض وقال :

ـ ايه ! عظيمة النيابة عندنا . كلها منافع مثـل زيت الغـار .

فضحكت وقلت له :

ـ يا مضروب ، تعرف كل الامثال .

فقال : لا تقاطعني . ماذا قلنا ؟ ايه ! عظيمة النيابة ! تقف الناس على ابوابـك وينتظرون في الدار ساعات حتى

يصبحوا جنابك ويعشوا في ركابك . وان وفق الله وصرت صاحب معالي ، فهناك العلا والعز ... تكون مطلق اليد في مقدرات البلاد . الضيعة التي كانت عليك تحرمها من كل المنافع ، وتعطي زلمك أين كانوا ، لأن الذي له يعطى ويزاد ، ومن ليس له يؤخذ منه الذي له ... وهكذا تدحش مؤيديك ، وتكحش معارضيك . وإذا لم تقدر على العزل تستطيع النقل والنفي والابعاد . تزوّد انصارك ببطاقات التوصية إلى كل مكان ، اما الذين لا تثق بهم فلهم البكاء وصريف الأسنان . ترقي من تشاء ، وتحمي من تريد . انت والحكومة « خوش بوش » حك لي أحك لك. تمنع من تشاء ، وتعطي من مال الدولة ومنافعها من تشاء . وإذا مشيت بين اعوانك ، فاي ديك حبش يضاهيك ؟ تسلح الجدعان ليمشوا خلفك وقدامك . وإذا شئت ان تركب فما عليك إلا ان تزور اقرب قرية من مقاطعتك فتركب حميراً بلا براذع .

والتفت إليّ ليقول لي :

ـ وتسألني بعد هذا عن وجود المرشحين، وعن طلائع موسم الانتخابات ؟ مقبلة جداً ان شاء الله .

ونهض فجأة كالمجنون وركض ، فاجتاح الكراسي في طريقه ، والتفتّ ، فرأيته يسلم على احد الزعماء . ومشى

معه ، فدفعت انا ثمن القهوة ، ومشيت .

وما خطوت خطوات حتى التقيت قريناً له فقال لي :

ـ رأيتك قاعداً مع فلان . أتصدق هذا الكذاب ؟ لم يترك باباً إلا شقّه في هذين اليومين . نحن نحكي الصحيح وهو يكذب . ومع ذلك اسهمه مرتفعة اكثر من اسهمنا . الناس لا يصدّقون إلا من يكذب عليهم .

وعاد الرجل بعدما ماشى الزعيم مسافة ، ودعاني أيضاً إلى الجلوس ليتم ما بدأ به من دراسة النيابة وتحليلها ، فقلت له :

ـ مشغول يا صاحبي .

وهكذا ودّعت الاثنين معاً، وتركتهما ، فدخلا القهوة وقعدا يرسمان الخطط العتيدة ، كساهمين في شركة .

كالعيس في البيداء

تمرونَ الديارَ ولم تعوجوا   كلامُكمُ على أذنٍ حرامُ

بالقرية يتغزل الشعراء، عاميّهم وفصيحهم، والأدباء، فصيحهم وكاتب المقالة منهم ، حتى تحسب القرية ذلك الفردوس الذي ركّبت المخيلة البشرية عناصره. والقرية حسناء رائعة، ولكنها منتوفة. ما عليها ثياب غير أطمار ، كما قال الأخطل التغلبي في ذلك العلج وخابيته التي لها رداءان : واحد نسيج العنكبوت ، وآخر من ليف ومن قار . نُسيتْ وأُهملتْ حتى تضاءلتْ : « كتضاؤل الحسناء في الأطمار » .

يتغنى الشعراء بشوقهم إلى القرى ، ويحنون إلى رؤية وجهها الجهم. والقُرى ليس فيها من القِرى غير الخبزات والبرغلات . فاهلوها يتسكعون في ظلمات البؤس ، والحكومة غافلة عنها وعنهم ، لا يهمها غير تزيين المدن . يجودون على هاتيك بالكماليات ، ويبخلون على الضيعة

بالضروريات . فهي ليست غنية إلا بما وهبتها الطبيعة من هواء ونور شمس .

كأن الدولة بائع خضرة يوجّه سحارته بالجيّد من المحصول . إنها لا يعنيها إلا المدن فتملأها نوراً وماء وأدوية وملاجىء ومدارس . أما القرية فلها جحيمها المقيم . فلا مواصلات ولا اطباء . يمرض الواحد منهم ويموت ولا يعلم به أحد .

هذه اعمدة كهرباء نهر البارد منتصبة على القمم المحدقة بقريتي كالجبابرة العماليق ، تحمل النور من نهر البارد إلى المدينة ، ونحن نعيش في الظلام .

ان الجوعان يكفر بربه حين يرى القدور ملأى بالطعام،وقد ملأت رائحته خياشيمه. افلا نكفر نحن حين نرانا في منتصف القرن العشرين وكأننا في منتصف القرن التاسع عشر ؟

الكهرباء تجري على رمية حجر منا ، واعمدتها الجبارة كأنها تقول لنا : « زرك عينك ! .. » .

أعطي امتياز الكهرباء حتى قرية معاد . فاذا به يصغر ويصغر حتى اقتصر على جبيل وعمشيت . فهل يجوز ان تبقى تلك القرى المنكودة في ظلام مراعاة لمصلحة اصحاب الامتياز ؟

يقول المثل: «حط المكسوره على المجبوره وخلّ القصة مستورة» . اما هم فلا يريدون إلا المجبورة، ولتبقَ القرية في ظلماتها .

والمثل يقول أيضاً : «الماء لا يمر على عطشان» ، افلا يطبق هذا على البلاد التي تمر فيها خطوط كهرباء نهر البارد ؟

أتمر بارضنا ولا تقضي غرضنا ؟

حقاً انها حالة بعيدة عن العدالة الاجتماعية . ان حالة القرية والحكومة كحالة رجل كثرت بناته ، فهو لا يكسو ويجهز منهن إلا التي هي على ابواب الزواج .

رضينا ، يا سادة أن نلبس ثياب اختنا الكبيرة ولكن أين هي ؟

ففي سنة ١٩٥١ صدر قرار بمد خطوط التلفون إلى قرانا،وتقرر مدها حتى كُلّفت تقديم طلب تلفون خاصّ لبيتي بتاريخ ٩ حزيران ، فقدمته وسُجّل في المديرية تحت رقم ٢٠٦٢ ثم كان المطل ، فراحت وزارات وجاءت وزارات ولم يشدّ ازرنا احد . وأخيراً قالوا :

ـ لا نجد المعدات قبل مد التلفون الآلي في العاصمة والمدن الكبرى .

فقلنا : رضينا ان نلبس ثياب اختنا العتاق ، ولكن

أين هي يا جماعة ؟

أيظل كل شيء حبراً على ورق ؟ أنظل نسقيك بالوعد يا كون ؟

أليس على الرعاة أن يُعنوا بالقطيع ؟ إنْ لم يكن عدلاً أو رحمة ، فعلى الأقل حرصاً على المنفعة . فمن يغذي المدن غير القرى ؟ ومن يغذي الميزانية غير هذا الشعب المسكين المحروم ؟ ومن ينتخب الذين يحكمون سعيداً ، غير ابي اللبّادة والسروال ؟

انهم يتغنون بالقرية ، ويقول شاعرنا العامي :

ـ مشتاق ارجع عالضيعة مشتاق كتير .

خفّف قليلاً من غرامك يا شاعري الحبيب . فالضيعة لم يبقَ فيها أحد غير العاجزين والعاجزات ... اما شبابها وبناتها فصاروا في المدن خدماً وخادمات ، وموظفين وموظفات . انهم معذورون ، فما تركوها إلا غصباً عن رقابهم ، لأن رزقهم فيها مقطوع ...

ان مشهد هذه الأعمدة الجبارة المنتصبة قبالة وجهي قد زاد بلائي بلاءً ، فهي كأنها اصابع تنتصب أمام عيني قائلة : إني امر بارضك غصباً عن رقبتك ولا اجود عليك بضوء شمعة .

إننا لا نتعزى في هذه الحالة إلا بقول يسوع : « من له

يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه الذي له » . ولكن ابن القرية هو العامل والكادح ليلاً نهاراً ، وليس بالعبد البطال ليخرج إلى الظلمة البّرانية .

قالوا : « الجوع كافر » ، عندما كان يكتفي الانسان بالقوت . اما اليوم فقد صارت هذه الضروريات أشد كفراً ن الجوع . أنعجز عن استدعاء الطبيب إذا اصاب احدنا عارض ، والتلفون مقرر منذ سنوات ؟ لقد شبعنا وعوداً من أناس أرخص شيء عندهم النفوس .

اسمعوا ، يا سادة ! على ارجلنا نمشي . ومثلما عاش جدودنا مستضيئين بالفانوس نعيش ، اما التلفون فلا غنى لنا عنه . ان عزرائيل متى طرق الباب لا ينتظر الجواب ، ولا يمكن أن يؤخّر أو يستمهل ، فاما أن تضعوا في كل قريتين طبيباً ندعوه عند الحاجة ، واما ان تعدوا لنا التلفون ونحن لا نكلفكم مؤونة تطبيبنا .

كثيراً ما سمعنا بالنقطة الرابعة ، أفلا تنعمون علينا بنقطة من هذه النقطة لنرى وجه ربنا ونموت على ضوء ؟

حِسَابُ الحِمِّصْ

بينما كانت الخورية تنفض جبة زوجها وتنظفهـا ، سمعت خشخشة حب في جيبها،فزجّت فيه يدها،فوجدت عشرين ثلاثـين حبـة حمص . فقالت تخاطب نفسهـا : « مسكين خورينا! يأكل كل يوم حبة!تقبر الشح والبخل. الحمص ملء البيت .

قالت هذا وأسرعت إلى خزانة المؤونة، وأخذت منها كف حمص رمتها في جيبة زوجها الخوري ، ثم راحت إلى شغلها بعد ان اطمأنت إلى نظافة الجبة .

اما حكاية هذه الحمصات فهاكم تفصيلها :

هذا الكاهن كان يعرف الصلاة عن ظهر قلب ، ويقرأ الإنجيل قراءة مفككة الأوصال ، وإذا صعبت عليه كلمة تهجاها . ولكن القرية احتاجت إلى خوري ، ولم يكن في الميدان غير حديدان ، فسامه الأسقف . وهكذا صار عليه ان يعرف مواقيت الأعياد قمرية شمسية .

ولما انتهى المرفع حسب للعيد والصيام حسابها . ففي

تلك الأيام لم تكن ظهرت روزنامات ، وذاكرة المحترم كانت أشد عتمة من كنيسته . فتدبر أمر العيد بأن وضع في جيبه خمسين حبة حمص ، وكان كل يوم يأكل واحدة ليعلن عيد الفصح المجيد ليلة يأكل الحبة الخمسين .

وظل حساب الحمص مضبوطا ، حتى أوحى إلى الخورية كرمها الحاتمي فوضعت ما وضعت من الحمص في جيبة زوجها الجليل .

وكان الناس يسألون الكاهن متى العيد، فيعد الحمصات ويجيبهم : العيد قريب يا أولادي . ولكن الجيرة عيّدت وعيدهم لم يجيء . ولما سألوه آخر مرة اجابهم وهو يضحك من نفسه وعينه في الأرض :

ـ على حساب الحمص العيد بعيد .

ونحن نقول والأسف ملء الصدر :

ـ ما دامت عقلية الناخبين كما هي فهيهات أن يكون لنا برلمان أمثل . ولن يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم .

قال غوستاف له بون : « لا يستطيع المرء أن يعيش بلا مذهب » .

وقال ابن المقفع حين زمزم على العشاء وهو قادم في الغد على اعتناق الاسلام : « كرهت ان ابيت على غير

دين » .

وهذا الشعب اللبناني لا يكون له برلمان غير هذا إلا عندما يتكتل غير هـذا التكتل . ان المسؤول الأول هو الناخب . فمتى اكتمل وعي الناخبين، انعتقوا من سلاسلهم العتيقة . فعبثاً نتحدث عن الضغط وحريـة الانتخاب ، وعبثاً تهيب الحكومة بالناخبين النائمين في اقبية تقاليدهم ، فانهم لا يستيقظون . مصيبتنا كبيرة في هذا الوطن . وشر مصايبنا اننا ما زلنا نقدس القديم ولا نرى في الجديد خيراً، وان كان ليس كل عتيـق غير صالح ، ولا كل جديد فيـه الكفاءة .

اما المرشحون فلماذا لا يقتتـلون على النيابة ، دام لهم منها رغيف مقرّص.. يتناولونه على الهينة؟فالطبيب يظل طبيباً ، والمحامي يبقى محامياً ، والتاجر تاجراً . ناهيك أن النائب يحضر ساعة يريد ، ويخرج من الجلسة حين يشاء . وقد يعطلها عن سابق تصوّر وتصميم إذا لم تكن على هواه، فيقبر مصالح ناخبيه في ادراج اللجان .

مرت عليّ انتخابات مشايخ ، وانتخابات مندوبـين ، وانتخابات افراد ، وغداً انتخابات نساء. وشهدت انتخابات اللوائح ، وغداً انتخابات دائرة ، وما اظـن الحال إلا على فرد منوال .

كان المعاش خمسين ليرة للنائب البيروتي، ومائة للجبلي،
ثم صار خمساية ثم الفا ، ولا نزال حيث كنا وكما كنا .

وكان النواب ٢٥ ثم ٥٥ ثم ٧٧ وبقيت النيـابة ، نيابة
مآرب ومصالح .

احسن الله الحال حتى لا تقول مثل هـذاك الخوري
ــ على حساب الحص « ما فيش » عيد .

عَلى هَامِش جَلسَة الثقة

يقول المثل : « البكاء على رأس الميت » اما نحن ، وضيعتنا أصعب اتصالاً بالعاصمة منها بالصين ، فهل نلام إذا عزينا بعد حين وجددنا الأحزان ؟

حُكي ان صياداً كان يرمي ولا يُصيب ، فتعقب ذات يوم طائراً كبيراً وكان كلما اقترب من المجال ، فر الطائر ووقع على غصن وثبت كانه ينتظر . ويجيء الصياد ويفر الطير وهكذا دواليك . وأخيراً هوّن الله وخال الصياد انه يصيب إذا اطلق جفته ، ولكن الطير خلص بريشه . وشاء الصياد أن يعزي نفسه فصرخ به :

ـ رح . مع السلامة . تكفيك هذه الرعبة !

لعل هذا كان لسان حال المعارضة . ولكن الحكومة نجت مثل ذاك الطائر ... وإذا غربلنا ونخلنا رأينا أن كل ما قيل ويقال في معارضتنا يدور حول نقطة واحدة هي الوظيفة ، قاتلها الله ! فقد كانت ، منذ كانت حكومات

لبنان،من عهد فخر الدين إلى اليوم ،نقطة الدائرة والقطب الذي يدور عليه الفكر اللبناني .

تحدثوا عن الفساد وما يعنون إلا فساد المأمورين، فرد عليهم رئيس الحكومة قائلاً : الفساد أنا عملتو ؟ الفساد موجود من مية سنة بالبلاد .

قلتها يا سامي بك . فلو قلت أكثر لما استطاع أحد أن يكذّبك . فلندع التاريخ القديم ، ولنراجع تاريخ الحكم في لبنان منذ قرن ونصف . أفلا نرى أن امير لبنان كان يشتري امارته على البلاد شراء ؟

اما كان يؤدي للجزار وغير الجزار ثمن الخلعة كل عام، والشعب المنقسم على نفسه يرحب بقدومها بالتهاليل والزغاريد ؟

وما معنى الخلعة ؟ انها ثوب ملبوس من ثياب ضاهر العمر، أو الجزار، أو عبدالله باشا، يؤمّر بها على البلاد من يلبسه اياها ، ثم يخلعها عنه ليجلل بها أميراً آخر إذا زاد في ثمنها . والله يزيد في عمر من يزيد .

ألم تكن الوظيفة على اختلاف درجاتها مفرقة الأحباب ومشتتة شمل الأصحاب ؟ .. أليست هي التي فرقت بين البشيرين : بشير شهاب ، وبشير جنبلاط ؟ اما قال الجنبلاطي للشهابي: البلاد لا تسع بشيرين،فأجابه الشهابي:

المكعوم يرحل ؟

ثم كانت بينهما معارك أدت إلى رحيل الجنبلاطي إلى الأبد. وبعد سنين دارت الدوائر فرحل أيضاً بشير الشهابي وصار يعرف ببشير المالطي .

ثم كانت الفتنة الكبرى التي أطاحت بإمارة لبـنان . وصار لبـنان أول قطر شرقي محكوم دستوريـاً ، يلعب اللعبة البرلمانية على نطاق ضيّق. ولكنها لعبة في كل حال . كان له مجلس ادارة كالمجالس النيابيـة اليـوم ، له رئيس يحـاكي رئيس المجلس النيابي اليـوم . اما الكلمة العليـا فللمتصرف الذي تنتخبه الدول الكبرى السبـع .

وتوالى على كرسي لبنان البروتوكول ثمانية متصرفين. سمعت بأخبار داود وفرنكو ورستم، وكنت وليداً في عهد واصا الذي قال فيه تامر الملاط :

رنوا الفلوس على بلاط ضريحه

وانا الكفيـل لـكم برد حيـاته

وكنت يافعاً في عهد نعوم،وعرفت السياسة وشاركت فيها في زمن مظفّـر .

كانت الوظيفة كقطعة الشوكولا أو البسكوتة الـتي يرضى بها الصبي فلا يزعج البيت ، ولكن ثمنهـا كان كاوياً موجعاً .

فلتَ الملقّ في عهد مظفّر فاخذ يعيّن في الوظائف الدقيقة اصحاب السوابق المحكومين بالجرائم ، شرط أن يؤدوا له ولزوجته وابنه المبلغ المرقوم . وصار لكل وظيفة سعر محدود لا يحسم منه شيء ، لأن الاقبال على الشراء كان كبيراً جداً . جعل ثمن المديرية مئتين وثلاثمائة ليرة ذهبية عسملية ، وثمن القائمقامية خمسمائة ، إذا كانت صغرى كزحلة وجزين، وستمائة وسبعمائة إذا كانت كبرى كقائمقامية المتن وكسروان والبترون . وكان مهر رئاسة المحكمة ٢٠٠ و ٣٠٠ عثمانية . وكان يؤخذ من عضو مجلس الادارة ٤٠٠ ليرة ذهبية ليوصلوه إلى الكرسي ، كما جعل ثمن مديرية مال المتصرفية ٣٠٠ ليرة .

كانوا يعينون وظائف الجندية تعييناً ، ولهذا جعلوا لكل رتبة تعريفة إذا لم يتقدم راغب . ان الثمن لا يكون إلا بالمئات الرنانة الطنانة : البكباشي بمئتين ، واليوزباشي بـ ١٥٠ . ثم ارتفعت الأسعار بسبب رواج السوق ، فصارت بثلاثمائة وأكثر ، والقائمقامية الكبرى بالف ، ورئاسة مجلس الادارة بالفين .

وانتحل المتصرف مظفر سلطة منح لقب بك ، فانعم به على كل من يدفع . ولما درت اسطمبول بهذه الحركة كدّرت المتصرف ، فاصدر امره بأن هذه الألقاب اطلقت

سهواً وانه الغاها ، فعاد البك باش بزق .

وكذلك كان يصيب الموظفين،فانه كان يوظف الوجيه ثم يعزله ، وهو في طريقه إلى مركز وظيفته . ولما تفاقم هذا الأمر طلب مواجهته أحد الأعيان وساله هل عليه ان ينقل عفشه أم يذهب وحده ؟

وعيـن احدهم مديراً مساء ثم عزله صباحاً، فقال فيه ، اي في المدير ، أحد شعراء لبنان :

خلَعوهُ ساعةَ وظّفوه فـكان في
رجلِ الحكومةِ كالحذاء الضيّقِ

قد يكون هذا الوباء ، داء حب الوظيفة ، منتشراً في كل بلدان الله ، ولكن أظن ان حالتهم غير حالنا . فهناك يعتقـدون ان لهم وطناً يؤمنـون به ، وإن أكلوه فكما يؤكل القربان . أما نحن فناكله بلا إيمان

انهم يبنون وطناً ، اما نحن فنبني بيوتاً في بـلد اسمه لبنان . فحالنا وحال الغرباء فيه سواء بسواء . نبيعه رأساً برأس ولا نطمع بزيادة .

فيا أيها الناس ، ان وجود الفساد لا يبرر بقاءه . كلكم اعترفتم بوجوده ، وكل مناقشة جلسة الثقة دارت وستظل تدور حول الوظيفة والموظفين والملاكات . فهذه الملاكات إن شئت ان تسميها خراجات اصطناعية فلا بأس ، وإذا شئت ان تسميها ثقوباً يخرج منها ناس وتدخـل ناس فـلا

حرج، ولكن لا تنسوا ان ثقب سدّ مارب كان سبب خراب ذاك المكان . يقولون ان جرذاً احدث ذلك الثقب فكان السيل العرم الذي قتل الناس . ترى ما عسانا نقول نحن ؟

ذكّرني قول سامي بك: «ما معنا وقت حتى نصرفهم» ـ هكذا قرأت ـ بهذه النادرة : إن سامي بك سيدُ النكات بين الحاكمين ، فليسمح لنا بواحدة من فضله .

تزوج رجل امرأة وكان اجيراً نهارياً . فقالت له امرأته :

يا رجال : ابن عمي صاحب دكان حمص ، فما عليك لو ساعدته وقبضت كم قرش ؟

فاستصوب رأيها وذهب يشتغل مع ابن عمها حتى نصف الليل .

ثم مضت أيام فقالت له :

- ابن خالي صاحب دكان فول وسحلب ، فما يضر لو غدوت اليه وساعدته حتى شروق الشمس ؟

وكان ما ارادت .

وبان الهزال في الرجل ، فرآه صاحب له وقال له : « على مهلك ، لا تجهد نفسك » . ثم دار بينهما الحديث ففهم الرجل مصيبة صاحبه بامرأته فقال له : طلقها .

فأجابه الرجل : أهو معنا وقت حتى نطلقها ؟

حقيقة ان وقت دولة الرئيس ضيّق جداً،وشغله فوق رأسه. نحن نعرف جيداً ان الحمل ثقيل،ولكن المثل يقول: « دبر الحملة لحمالها » .

أما حان للبيت اللبناني ان يستقرّ ، ان ينظف ، ان يكنس ؟ فليكن شعارنا بعد اليوم المكنسة. ترى أأُغلقَ الباب ، ومن ضرب ضرب ، ومن هرب هرب ؟ أتضيع النظافة والبلد طيب ، وهواؤه نقي ؟ لا تسمح ، يا بيك ، ان تكون وزارتك كغيرها ، مراسيم تظهير لا مراسيم تطهير .

جاؤوا ليقتلوا المحسوبية فجعلوا المحسوبية عصبية . وهكذا صح فيهم قول المثل : « جملٌ موضعَ جملٍ يبركُ »

مليحة سياسة « اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف » ، كما قال زياد . اما ان يستحيل الرفق ميوعة ، والعدل محاباة ، فهذا بشع . وما هكذا يكون الانصاف ولا الاصلاح .

واسيادنا النواب الذين لا يحضرون جميعاً حتى في جلسة الثقة ، لماذا زادوا راتبهم خمسمائة ليرة فصار الفاً ؟

ألف صحة ، يا سيدي ، ولكن فليحضروا . أيظنون إذا أسمعونا صوتهم مذاعاً انهم شالوا الزير من البير ؟ فهم

يشكون ببعضهم في المعارضة ، ونحن نشك بهم أيضاً . ان ما يقبضونه هو مالنا ، فليكن لنا من عملهم مقابل .

ان ما عملوه منذ اسبوعين كان يعمل مثله وأكثر المير فؤاد ارسلان والشيخ يوسف الخازن . كانا يتخاصمان تحت قبة البرلمان ، ويتصافحان على بابه ، ويخرجان متأبطاً كل منهما ذراع صاحبه .

وإذا عنّفت فاني اعذر أيضاً . يريد كل نائب وكل وزير - والوزير نائب - أن يرضي ناخبيه ، فكيف نطلب ألا يرفع صوته ؟ إن مطالب الناخب لا تعد ولا تحصى ، فكل ناخب رمى ورقة في صندوقة الاقتراع يظن أن له حقاً عند النائب الذي انتخبه ، وهو لا يطلب إلا وظيفة لابنه أو لابن عمه ، حتى بلغني ان أحد هؤلاء طلب من أحد النواب أن يعيّن له ابنه خادماً في اوتيل سان جورج .

حقيقة ان رمح مار جرجس صار قصبة ، وسيفه حديدة ، وحصانه حماراً . وإذا كانت الضوضاء تؤدي إلى الفوضى فالسكوت علامة الموت . اما ان تذاع جلسة كالتي سمعنا ، فهذه أكثر من فوضى . لقد كانت نكبة على البيوتات .

قلت لخادمي ، ولا فخر : وطّ صوتك حين تتكلم .

فأجاب : ولو ؟ احسبني واحداً من النواب .

لقد صحت في الانقلاب الذي نتمجد كلما ذكرناه الكلمة المأثورة : « كل شيء يخلق صغيراً ثم يكبر إلا المصيبة ، فهي تخلق كبيرة وتصغر » .

حقاً انه مصيبة . فما وُضِعتْ يدٌ على قذر حتى انبرى المكيّسون والمليّفون والمصوبنون والمعطّرون فأخرجوه نظيفاً شريفاً .

حكي ان قائمقاماً أخذ دجاجةً محشوةً إلى بيته بعد المأدبة التي أقيمتْ على شرفه ، فما قولكم ، دام فضلكم ، بقولة البرجاوي : إن زلة فلان بلع طنبر ... وبلع بغل»؟

رحم الله فؤاد باشا ــ الدالي فؤاد ــ الذي قال للسلطان عبد الحميد : « إذا كان أبو الهدى يبلع السيف ، فوزير الحربية بلع الدارعة » .

قرأت ان نائباً قال : إن الشعب لم تعد له ثقة بنوابه ، فاذا كان حقاً ما يقولون فلماذا يبقون ؟ أليهشم بعضهم بعضاً ، وينشروا الأعراض على صنوبر بيروت ؟

إن صنوبر بيروت لم يعد شيئاً يذكر بالنسبة للاذاعة ، فغطّوا « التنكة » قليلاً إذا شئتم أن تنشروا على المسامع مثل هذه الروائح الطيبة .

وعلى من يحترم نفسه من اصحاب الحصانة والمناعة،أي

النواب المحترمين ، ان يحضر كل جلسة ، لأنه بقبض ثمنها ولا يفلح على الكتفين ، فكتف واحدة تكفيه . عليه ان لا يغيب ابداً إلا بعذر ، وإلا فليس له ان يطالب سواه من الموظفين والنقص فيه . النائب مرآة الشعب والموظفين ، فلتكن هذه المرآة نقية .

النائب هو الرقيب فعلى عينه ألا تغفل .

ويؤلمني جداً أن اذكر كلمة نطق بها قروي في مجلسي :
« الاخلاص اللبناني الله يرحمه » !

مِن أينَ لكَ هذا ؟

خبرني والدي عن جدي ، عن جده ، قال : رزق احدهم ولداً على رأس سبع بنات،فاجتمع الأهل والأصحاب ليباركوا له فيه . وبينا هم يأكلون حلاوة الطفل ويتمنون له طول العمر ، إذا بشيخ رعشن يقول وهو يتمطّق : ماذا سميت المحروس ؟

فأجاب والده المعتز بهذا الفتح المبين : الرأي رأيكم . نقّوا له الاسم الموافق .

وكان استعراض طويل لدواجن الأسماء وأوابدها ، عربيّها وعجميّها، ولما كادوا أن ينصرفوا غير متفقين على اسم لهذا الذكر الذي شرف الدار بعد طول الانتظار ، تطاول لهم شيخ قابع في الزاوية وقال : لا تختلفوا على الاسم يا جماعة . سموه قريدان ، فاذا طلع على ابيه وجده شال اسمه ، وإلاّ كان هذا الاسم في محلّه .

ذكرني بهذه الحكاية ما فعلته اللجنة الاستشارية

التشريعيــة إذ سمّــت قانون : « من اين لـك هذا » قانون الاثراء غير المشروع .

ان من استامنوه فخان وغدر لا يستحق المجاملة في اسم قانون يدينه . ولهـذا نقول للاستاذ شفيـق حاتم ، مدير العدلية : ان جدك الشيخ عيـد حاتم لم يستحِ من ذلـك الـكاهن حين قال له بجفاء : « يا محترم ، احك مثل ثوبك أو البس مثل حكيك » .

سمّوا القانون ما شئتم ، فالمهم التنفيذ . نريد أن ينفـّذ كيما تزول شكوك النـاس والتهم ، وتعرف القرعا من أم القرون . ففي العــاصمة والمدن ترتسم امام أعين النـاس همزات استفهام كبيرة ، وفي كل قرية ودسكرة تنتصب همزات التعجب .

دمامل عدة في جسمنا الاجتماعي تصيـح : أين المبضـع؟ أيشقها هذا القانون أم تجد الأيام حبرها فتقرأ من عبر ميـل عياناً لا بقياس .

ان الـثروات غـير المشروعة تحتـاج إلى من يشرع ابوابها لترتفـع معنويات اخلاقنا . اما سمعنا الناس يعدون الموظف العالم النظيف حـاراً ، ويحسبون الامي المختلس الوقـح جباراً ؟

قرأت ان اللجنة قد فرغت من دراسة هــذا القانون ،

وبعـد عصر اليـافوخ ، انتقوا له هـذا الاسم اللطيف :
« الاثراء غير المشروع » .

عاش باسمه . ولكن هل من يقول لهذا المخلّـع : « احمل سريرك وامش ؟ »

دَجَاجَة الاسِتقلال

هذه واحدة من قصص بخلاء الجاحظ الطريفة . قال ، قدس الله سره :

كان ابو الهذيل اهـدى إلى مويس دجاجة . وكانت دجاجته التي اهداها دون ما كان يتخذ لمويس . ولكنـه بكرمه ، وبحسن خلقه ، اظهر التعجب من سمنها ، وطيب لحمها ، وكان يعرفه بالامساك الشديد . فقال ابو الهذيـل : وكيف رأيت ، يا ابا عمران ، تلك الدجاجة ؟

قال : كانت عجباً من العجب !

فيقول : وتدري ما جنسها ؟ وتدري ما سنها ؟ فإن الدجاجةَ إنما تَـطيبُ بالجنس والسنّ . وتدري بأي شيء كنا نسمّـنها ؟

فلا يزال في هذا ، ومويس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه ابو الهذيل .

وكان ابو الهذيل اسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً ،

واسهلهم سهولة ، فان ذكروا دجاجةً قال :

ـ اين كانت ، يا ابا عمران ، من تلك الدجاجة ؟

وإن ذكروا بطة أو عنــاقاً أو جزوراً ، او بقرة ، قــال :

ـ فاين كانت هذه الجزور في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج ؟

وان استسمن ابو الهـذيل شيئاً من الطـير والبهائم ، قال :

ـ لا والله ! ولا تلك الدجاجة .

وان ذكروا عذوبة الشحم قال :

ـ عذوبـة الشحم في البقر والبط ، وبطـون السمك والدجاج ، ولا سيا ذلك الجنس من الدجاج .

وان ذكروا ميلاد شيء ، أو قدوم انسان ، قال :

ـ كان ذلك بعد ان اهديتها اليــك بسنة ، وما كان بين قدوم فلان ، وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم ...

وهكذا كانت مثلاً في كل شيء ، وتاريخاً في كل شيء . انتهى .

ذكرني بحكاية هذه الدجاجة موسم الحكي الذي خلقته الميزانية . لا عجب في هذا . فاللهى تفتح اللها ، وحيثما تكن الجثة تجتمع النسور .

ما قرأت مناقشة ، رسمية كانت أو غير رسمية ، إلا واقت فيها دجاجة ابي الهذيل الهزيلة . فهو يذكرها في كل مناسبة . يصدّق هو ما يقول، ويريد ان نصدّق نحن أيضاً ان دجاجته التي اهداها الى الوطن هي فوق الكباش المعلوفة ، والعجول المسمنة... ولولاها لم تكن للأمة مادبة الاستقلال الفاخرة .

إنه يمنّ بها ، دائماً على « مويس » ، ومويس ، بكرمه وبحسن خلقه ، يظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها ...

لا يعني مويس إلا أن تبيّض مضيفته الوجه وتقوم بالواجب ، وليتبجح الهذيليون ما شاؤوا . وإذا هذروا وصخبوا رثى لهم وما زاد على القول : « يا ابتاه اغفر لهم! »

اللهم ! ابعد عنا الليلة الظلماء ... ولا تدخلنا في التجارب .

بوق البحصة يا شماس

كان لأحد المطارنة شماس رخيم الصوت. وكان المطران يطرب حتى يترنح حين يخدم له القداس هذا الشماس، ويرجع في التسابيح والميامر كأنه الحسون.

رأى المطران في شماسه شركاً ينصبه للمؤمنين فيقبلون على سماع القداس جماهير تعج بهم الكنيسة. لذلك صبر صاحب السيادة على ما في شماسه من عيب، وحاول اصلاحه جهده.

كان عيب الشماس انه يسب الدين، وسب الدين خطيئة مميتة. الوعظ والارشاد لا يقومان ما اعوج من اخلاق الناس، خصوصاً متى رسخت فيهم عادة. والشماس عسي وكبر، فما الحيلة فيه إذن؟

كان المطران يرشد شماسه كل يوم، ولكن السباب لا ينقص، حتى قال الشماس:

ـ يا سيدنا، لا أراني إلا نسيت، ودارت تلك الكلمة

على لساني . فاذا كان عندك دواء فـأنا مستعد ان اقبله مهما يكن صعباً ومراً .

فقال المطران :

ـ حط يا ابني في بوزك بحصة ، وكلما دعتـك حالة اقول تلك الكلمة تذكّرك البحصة فلا تقولها .

ـ طيب يا سيدنا ، البحصة تظـل في بوزي من الآن وطالعاً .

ووضع الشماس في فمه حصاة ناعمة ، ونجحت التجربة واقلع الشماس عن السب ، فشكر المطران المعجب بشماسه ربه على هذه النعمة التي صيّرت شماسه لا عيب فيه .

ودعي سيادته إلى مأتم فركب البغلة ، ومشى الشماس يحدوها بترانيمه الروحية التي لم تكن تنقطع إلا عندما يمرون بقرية ، حتى إذا ما خرجوا منها استأنف الشماس ترتيله الذي كان يطرب المطران والبغلة معاً .

واقيمت صلاة الجناز ، وتألّبت الجماهير لتسمع الشماس يرتّل « الحسّاية » ترتيلاً ملائكياً . وبعـد الدفن عاد المطران ادراجه ، وفي الطريق انهلّ المطر ثم استحال بَرَداً ، فتضايق مقدم صاحب السيادة . وفيما كان الشماس يحث البغـلة لينجو وسيده من الشؤبوب ذي البرد ، إذا بامرأة لاطية تحت شجرة على مقربة من الطريق ، تصيح

بكل ما في حنجرتها من قوة :

ــ دخيلك يا سيدنا ! يا سيدنا ! وقّف عندك .

فهال المطران ذاك الصراخ الفاجع ووقف ، والبرد يتساقط عليه .

وأقبلت المرأة ومعها دجاجة تقرق ولكنها قامت عن البيض ، وعجزت المرأة عن ردها إلى حضنها . فرأت ان يصلّي لها المطران عليها لعلها تلزم بيضها .

فهز المطران برأسه والبرد يتساقط كالملبس ، وجاءت سحابة ثانية أسخى من الأولى فصارت المهمة صعبة الانجاز. فهمز المطران البغلة وصاح :

ــ بقّ البحصة يا شماس .

فبقّها الشماس وجاد على ام تلك الدجاجة بما تيسر من سبابه . وبعد ان شبع ، عدا وراء صاحب السيادة وهو يقول :

ــ ما قلت لك يا سيدنا ان مسبةالدين في وقتها تسابيح.

وكان المطر قد خرق ثياب المطران حتى بلغ الجلد ، فلجأ إلى أول بيت ادركه على طريقه ، وهناك نشف قليلاً ذاك البلل .

ومن هنا جاء قول المثل عندنا : « بقّ البحصة » ، ومعناه بُحْ بسرّك المكتوم ولا تُبقِ شيئاً مما انت تكتمه

طويلاً .

ترى لو بقّ احدنا البحصة ، أفلا يقول لاصحابنا من نواب وحكومة : « لقد صيّرتم ما تسمونه اللعبة البرلمانية لعبة حقاً ؟ » إن الشعب الذي تخطبون ودّه قد هاله أن يصير مجلسه ندوة ابتهارات ، وسباب وشتائم . وكيف يحق لكم فيما بعد ان تقاضوه حين يخل بالأمن ؟

إذا كانَ ربّ البيت بالدف مولعاً
فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

إن السكرستاني يسجد للقربان كل ما مرّ امامه على أعين الناس ، وان كان يرفع الكلفة متى خلت الكنيسة من البشر . فعلى الأقل اجعلوا جلساتكم سرية متى اعددتم لها بضاعة مكتوب عليها : « سريعة الانفجار » ، وإلا فلا يبقى لكم وللندوة حرمة .

اني أتعجب كيف تجعلون قبة البرلمان كقبة العهد ساعة تشاؤون . وكيف تخترقون حرمتها ساعة تريدون . فأي صاحب بيت يرضى أن يفعل الناس في داره مثلما يُفعل في المجلس النيابي ؟ أليست الندوة بيت الأمة التي عنها تنوبون وباسمها تحكمون ؟

قد تقولون : في اوربا يفعل النواب كما نفعل . ولكن تقاليد اوربا غير تقاليدنا ، ونحن لم نتعود بعد تلك الحرية.

وبالقلم العريض نقـول إن الشعب ، وخصوصاً الذين يرون في النائب والحاكم شخصاً عظيماً ، لا يرضيهم هـذا الجدل الرخيص . قد يعجب هذا القبضايات أما من يحبون السكينة فلا يرضون عنه ، وقد أعلنوا اشمئزازهم وقالوا : ان النيابةعنهم والحكم عليهم لا يكونان في «ساحة بو علي».

ان جلستكم تلك كانت فوق التمني ، ولم تكن بالجلسة الكيّسة . وقد تكونون اصلحتم ما افسدتم بعد صدور هذه الكلمة ، ولكنني أقول لكم : وهل يصلح العطار ما افسد الدهر ؟

وسؤالاً واحداً اوجّه اليكم جميعاً :ماذا اقول للتلاميذ بعد ، إذا احدثوا ما تحدثون في كل جلسة من فوضى ؟

اني عند ذاك أعجز عن تعليمهم كما ستعجزون انتم عن القيام بهمتكم التي تقدسونها متراضين، وتنتهكون حرمتها ساخطين غاضبين .

هذا ما نقوله لكم عند بقّ البحصة ، وسنبقّها دائماً ان شاء الله . اما إذا بقيت في الفم فلا نقول شيئاً ، وننتظر أوامر سيادته حتى تطلّ عليه « قرقة » جديدة ...

إميـــل لجـــود

أذكر هذه الأسطورة، ولا أذكر أين قرأت حكايتها، وهي ان رجلاً كان مدبوقاً بامرأته ، وإذا فارقها ظل فكره عندها . فهو يخاف على حمامته الجميلة من الصقور والغربان ، وعلى قرقورته من الذئاب الخاطفة .

كانت عين تلك اليامة شاردة ، تبحث دائماً وأبداً عن غصن نضير لتقع عليه وتسجع ، فتحوم حولها الطيور ، ويقضي الزوج المفتون وقته بالمطاردة والكش .

وقعد الرجل وزوجته ذات ليلة يتسامران ، فتذكر الرجل ساعة الفراق الأخير ، فقال لامرأته :

ـ وإذا مت فكم تبقين بعدي مفردة ؟

فصاحت والدمعة تجول بين هدبيها :

ـ الله يبعد الموت. أي رجل يحلو لي بعدك ؟ لا تذكر هذا فالتفكير به يزعجني .

فضحك الرجل وقال :

ـ ومن يلومك إذا تزوجت بعدي؟انت ما زلت فتية.

فصاحت : قلت لك اقطع هـذا الحديث ، فاذا كان الزواج للشبع شبعنا .

والتوت عليه تدفن في صـدره جهشة المتبـاكي وهي تردد هذه الكلمات متقطعة : « تحرم عليّ الرجال بعدك».

فقال الرجل : هذا كلام فـارغ ... فكل ما ارجوه منك، يا عزيزتي، هو ان لا تعقدي حبلك من جديد قبل ان ينشف تراب قبري .

وما طال الوقت حتى كانت نفس ذاك الرجل في يـد باريهـا ، وكان الدفـن . ومشت المرأة خلف زوجهـا إلى حفرته مذريـة أغزر الدمـع وهم يهيلون التراب عليه ، وازداد تفجعهـا حين أمطرت السماء وعـام تراب القـبر في الماء .

وراحت تزور قبره يومياً ، صبـاح مساء ، وفي يدها مروحة تروّح بها على ذاك القبر فتناقلت الناس خبر وفائها لزوجها ، وأعجبهم منها انها تروّح دائماً فوق قـبره كأنها تعتقد ان الحر يؤذي الرفات .

اما المرأة فثابرت على ذلـك أياماً لتعجّـل بمروحتهـا جفاف تراب القبر ، ولمـا تبخّـر الماء وتفرق شمل تلـك الرمال ايقنت ، انها وفت نذرها ، ثم حققت ما تمناه عليها

المرحوم فكانت عروساً جديدة لعريس جديد .

هذه حالة تلك المرأة . اما اصحابنا « المستوبون » فلم يمهلوا الفقيد العظيم اميل لحود حتى يدخل باب القبر ويستريح ، بل كانوا يسيرون خلفه متحدثين عمن يرشحون .

حقا ان عشقنا الأعمى للمناصب يعمي ويصم ويعدمنا الذوق . أما استحى هؤلاء الماشون في جنازة رجل كان ملء العيون والآذان ، ان يتحدثوا في مأتمه عمن يرشحون خلفاً له ؟

ما أجرأ هؤلاء الأماثل ، وما أرخص الموت عندهم ! وماذا ترجو البلاد من رجال فقدوا كل كياسة ؟

ان النيابة في نظر هؤلاء هي كل شيء ، وإذا ماتت البشرية فبحفظ القرد .

قال المتنبي في رثاء ام سيف الدولة :

ولا مَنْ في جنازتها تجار
يكون وداعُها نفضَ النعالِ

أما وداع اميل فكان احلاماً وأماني عند هؤلاء . إنهم يشبهون بهلولاً عبقرياً في منطقتنا اسمه ملحم .

ذهب ملحم هذا إلى مناحة كبيرة في ضيعة من بلاد جبيل ، وكان الأكل بعد الدفن شهياً وكثيراً ، فأكل حتى

انبشم، وقال لأهل الضيعة بعد الحملة : «دائماً الموت عندكم، كل يوم موته ان شاء الله » .

لا اخال هؤلاء « المستنوبين المستوزرين » إلا قائلين مثل ملحم . بل يقول اكثر من هذا ، ذاك الذي يتحدث عن الخَلفَ ، في مأتم السلف وهو لم يتوارَ بعد ... اما خافوا أن يقوم من نعشه ؟ وكم من ميت قام ، وخصوصاً من الذين تأخذهم نوبات كهذه . ترى لو تمهّلوا قليلاً أكان فات الفوت ؟

فيا عزيزي اميل ، كن واثقاً ان قول ابي فراس : « سيذكرني قومي ... » سوف يصح فيك . قد نجد لك نداً في علمك وبلاغتك ونكتتك ، ولكننا لا نجد رجلاً له نكهتك وطعمك . فالرجل كالأثمار ، وانت كنت ثمرة شهية في بستان لبنان .

لقد استعادتك أمك الى احضانها ، فخلا الجو بعدك لمن يبيضون ويصفرون ... ولكن الفراغ الذي تركته لا تملأه النفوس الفارغة ، فمن لا يستطيع أن يسد فراغاً لا ينفعه فراغ يتركه سواه . لست أعزّي اهلك ، فكلنا لك أهل ، وانت ملك الجميع ، ملك لبنان .

إن حلم من كانوا يفكرون بخلَفِكَ وهم يسيرون خلف نعشك ، سيستحيل كابوساً مزعجاً عندما يصير

واقعاً . فعسى ان تخيّب الأيام ظني ، وأرى على مقعدك من يحقق قول السموأل : « إذا مات منا سيد قام سيد... ».

إن لبنان غير عقيم ، ولكن الشعب الناخب أعمى تقوده عميان ، وأعمى يقود أعمى ، وكلاهما يسقطان في حفرة . فمتى ترتفع الغشاوة عن الأبصار والبصائر ، لنرى الشخوص كما هي ، ونأخذ بيد كل منها إلى المكان المعد له ؟

إن لبنان محتاج إلى المخلصين له ، وما اقلهم .

مسكين لبنان ، فاقصى امانينا ، أن نبني لنا بيتاً في لبنان ، لا أن نبني من لبنان بيتاً في العالم . وإذا ظل اللبناني يفكر ببناء بيت سكنه قبل كيان وطنه ، وفي توطيد اسرته قبل أمته . فسوف يبقى لبنان حيث هو وكما هو ، نأكل خبزه ولا نضرب بسيفه .

فوضى النياشين

اذا رجعنا الى الوراء حوالي قرن ، الى سنة ١٨٦١ ، قرأنا فرماناً سلطانياً أذيع على الشعب اللبناني ، وفيه يمتن السلطان على اللبنانيين بانه عين لهم متصرفاً وزيره الخطير داود باشا حامل وسام «مجيدتي الرابع» أي المجيدي الرابع. ومنذ نصف قرن لا أكثر كان الموسومون في لبنان يعدون على أصابع اليدين .

ففي ذلك الزمان كانوا يقيمون الولائم والأفراح عندما يمنح أحدهم وساماً ، وفي التقليد العامي الزجلي ان وجيهاً منح وساماً ، طبعاً من آخر درجة ، فاقيمت له الحفلات الصارخة ، فغنّاه قوال مشهور بهذين البيتين :

بيلبقلك يا خواجا يو
طراحة فوق الفرا
من سطمبول جابولك هو
وبيعبدا حطولك ياه

وقد رخم الشاعر كلمتي يوسف والفراش لتصاقب القافية. واذكر انه عندما جاء الوزير فيليب ملحمه حاملاً وساماً سلطانياً الى البطرك الياس، مرّ على طريق البترون مار يوحنا مارون بين حائطين من الجماهير، من شط البحر الى رأس الجرد. وقد أنشد الشعراء البطريرك قصائد غراء عصماء، وظل قاعداً المنشدين مع الوزير ملحمه ساعات حتى فات وقت الغداء وجاعت الناس.

وعرفتُ بعد ذلك وجوهاً وأعياناً انفقوا ثروة محترمة ليحصلوا على وسام ورتبة ولقب. ثم أخذت قيمة النياشين تتدهور حتى سامها أخيراً كل مفلس أدبياً واجتماعياً...

عش كثيراً ترَ كثيراً. وقد عشنا حتى رأينا ما رآه غي دي موبسان حين كتب قصته: «حامل وسام». وقد ترجمتها ليرى القارىء اللبيب كيف يكون السخر.

ان هذا الطوفان العرمرم من الأوسمة التي تذرى هنا وهناك تدلنا على أن لبناننا العزيز غني بأربعة أشياء: النور والهواء، والماء والأوسمة التي تمنح بسخاء حاتمي للرائح والجائي، والمغترب والمقيم. وقد تأتي ساعة تُرسل فيها الأوسمة طرداً بريدياً كالحشيش والهيرويين... وربما جاء يوم لا نرى فيه صدراً عامراً غير مفضض أو مذهب. فاذا كانوا اليوم يقنعون بالوسام من رتبة ضابط، فسوف لا

يرتضون بأقل من رتبة كومندور أو ضابط أكبر فتمتلىء الدنيا وشاحات ...

كل يريد ان يكون شيئاً مذكوراً ، وحب الامتياز طبيعة الانسان ، فكان من يفوته اللحم قديماً يشبع من المرق ، أي يسكّج على أوسمة بطاركة أورشليم من غربيين وشرقيين .

كانت الدولة العثمانية تعطينا العصفور وخيطه ، أي الفرمان والنيشان معاً . أما دول أوربا فقلما تعطي غير البراءة ، واشترِ أنت النيشان ـ على ذوقك ـ من فبركة سنت اتيان . وبطرك القدس اللاتيني يمنحك وسام القبر المقدس باسم الحبر الأعظم ، ولكل درجة سعر ، لكن بشرطين : الأول ان تكون مستحقاً ، أي مجمّلاً بالفضائل ، والثاني ان تؤدي الثمن ، والسعر محدود ...

أما اليوم فيا بلاش! يكفي أن يكون وسيطك وجيهاً ولو من الدرجة الثالثة حتى تنال وساماً كبيراً بلا ثمن . فأنت ترقص والشعب اللبناني يحط النقود كما يقول المثل .

لا أقول ذلك حسداً أو ضيق عين ، ولكن أسفاً على شارات امتياز امتهنت . فقلّما نسمع عند جيراننا خبر منح وسام، وقلّ من زار ديارهم وظفر بنيشان. أما عندنا، فاول ما نفكر به لاكرام زائرينا هو أن نمنحهم من اوسمتنا.

فكان الوسام صار كالجبن ، شيخ السفرة ...

وأخيراً إني أرجو من القارىء أن يطالع بامعان هـذه الحـكاية التي وضعها موبسان ، وفيها يصف رجلاً مقصراً في كل ميدان يشتهي أن يكون صاحب وسام ، واليك بها :

بعض النـاس يولدون وتولد فيهم غـريزة مستوليـة عليهم ، أو رغبة تطاردهم منذ نعومة أظفارهم وقدرتهم على التفكير . والسيد سكرمان كانت تراود مخيلته فكرة ثابتة وهي ان يكون حامل وسام. فمنذ صغره كان يحمل كأمثاله الصغـار أوسمة من النحاس ، وكان اذا مـا سار في الشارع يمشي ويده في يد والدتـه ، نافخاً صدره المرصّع بشارات الأوسمة الحمراء .

فبعد ان أخفق في نيل البكالوريا أثر دراسات عقيمة ، فضل الزواج من امرأة جميلة لأنه كان غنياً. فعاشا في باريس كما يعيش البورجوازيون ، وهما فخوران بمعرفة نائب قد يصير وزيراً ... بيد ان الفكرة المبكرة التي راودت مخيلة السيد سكرمان لم تكن لتفارقه . وكان يتـألم دائمـاً لأنه لا يحق له ان يعرض في عروة ريدنكوته نسيلة ملونة . كانت تدمي قلبه رؤية حمـلة الأوسمة الذين يصادفهم في الجـادة فيختلس النظر اليهم محنقاً مغيظاً من الحسد .

وفي بعض أوقات فراغه وتزهاته ، بعد الظهر ، كان

يحاول احصاء عددهم قائلاً في نفسه : « فلأحاول احصاء عدد هؤلاء الذين أجدهم في طريقي في شارع ف. ثم يسير على مهل وعينه شاخصة تحاول اكتشاف هذه الشارة الصغيرة الحمراء . وكم كان يذهله العدد الذي يصل اليه في خاتمة مطافه : ثمانية من حاملي وسام جوقة الشرف برتبة ضابط ، وسبعة عشر من حامليه برتبة فارس . ويقول في قلبه : « إن توزيع الأوسمة بهذه الطريقة إسراف أحمق . والآن فلأحاول برجوعي أن أعد أيضاً حملة هذه النياشين». فمن أجل ذلك كان يسير بخطى بطيئة ، وكم كان يزعجه ازدحام المارة الذين يحولون بعض الأحيان دون دقة الاحصاء ، فيفوته واحد من حملة الأوسمة .

كان المسيو سكرمان يعرف معرفةً تامة الشوارعَ التي تحتوي أكثر من غيرها حملة الأوسمة . فعدد هؤلاء كان يكثر في شارع ش. ويتضاءل في شارع الأوبرا مثلاً . كما ان الجهة اليمنى كانت ملأى بهؤلاء أكثر من الجهة اليسرى ، لأنهم كانوا يفضلون ارتياد بعض المقاهي والمسارح دون الاخرى . وفي كل مرة كان السيد سكرمان يرى جماعة من السادة المسنين ، ذوي الشعر الابيض يقفون في منتصف الطريق ويعرقلون السير ، فكان يقول في نفسه : « هؤلاء هم من حاملي أوسمة جوقة الشرف من رتبة ضابط » . وكم

كان يود في قرارة نفسه أن يلقي عليهم تحيته .

إن مظهر أصحاب رتبة ضابط ـ وهـذا ما لاحظـه مراراً ـ هو غير مظهر أصحاب رتبة فارس . فكل منـا يشعر عندما يراهم انهم حازوا ، بصورة رسمية ، احتراماً وتقديراً ، وأهمية لم يحزها سواهم . وفي بعض الاحيـان كانت تنتاب السيد سكرمان سورة غضب شديد وحقد على جميع من منحوا هذه الاوسمة . وكان يشعر بالتالي نحوهم ببغض رجل اشتراكي .

وهكـذا كان يعود الى بيتـه عودة رجـل جوعان مرّ بباب المطاعم ... فيصرخ بصوت عال : « متى يخلصنا الله من هذه الحكومة الوسخة ؟ » . فتسأله زوجته متعجبة : « ما بك اليوم ؟ » فيجيب : « إني ثائر على هذه المظالم التي تجري كل يوم . آه . كم هؤلاء الاشتراكيون على حق ! »

ومع ذلـك فقد كان يخرج ثانيـةً من بيته بعـد الظهر ليتأملَ الحوانيت التي تعرض فيها الاوسمة . كان يفحص جميع هذه الرموز ذوات الالوان والاحجام المختلفة . كان يود لو يستطيع ان يمتلكها كلها ، ومن ثم يظهر في قاعة كبيرة ، حشدت فيها الجماهير ، ماشياً على رأس موكب وصدره مشعشع تتخلله الاشرطة بـين وشوشة المعجبين . ولكن ، ويا للأسف ، لم يكن لديـه أي لقب يخوّله حق

منحه وساماً . كان يقول في نفسه : « إنه لمن الصعب أن يحصل رجل لا يشغل وظيفة عامة على وسام جوقةالشرف. . آه لو كنت أحاول أن أنال لقب « اوفيسيه داكاديمي » ــ أي ضابط أكاديمية ــ .

لكنه لم يكن يعلم كيف السبيل الى بلوغ أمنيته .
وأخيراً فاتح زوجته بالامر فدهشت وقالت : « ماذا أديت من خدمات لتحوز هذا اللقب ؟ » فاجتاحته ثورة من الغضب وقال : « إنك بليدة حقاً بعض الاحيان . اني أتساءل : ماذا يجب أن أفعل ليكون لي ذلك ؟ »

فابتسمت قائلة : « إنك على صواب ، ولكني لست أعلم أنا أيضاً كيف العمل » .

وأخيراً حضرته الفكرة فقال لها : « النائب روسلين يقدر أن يسدي الينا النصح اذا حدثته بشاني. فانا يستحيل عليّ شخصياً أن أخوض معه موضوعاً مثل هذا مباشرة فالقضية دقيقة للغاية وصعبة ، أما اذا كانت المبادرة منك فانها تصبح طبيعية للغاية. »

وقامت السيدة سكرمان بمهمتها . ووعد النائب بأنه يباحث الوزير بهذا الشان. وبناء على طلبات السيد سكرمان الملحّة أشار عليه النائب أخيراً بان يقدم طلباً يذكر فيه ألقابه العلمية . ولكن كيف يمكنه أن يعدد ألقابه العلمية

وهو لم يحصل على البكالوريا ؟

ومع ذلك فقد بدأ العمل، وبدأ الكتابة باحثاً موضوع « حق الشعب في الثقافة ». ولكنه لم يستطع إكمال البحث لعـدم توفر الافـكار . فعدل عن هـذا وراح يفتّش عن موضوعات أكثر سهولة ، وبدأ يبحثها على التوالي . كان موضوعه الاول : « تثقيف الاولاد بالنظر »، فهو يريد أن ينشأ في الاحيـاء الفقيرة نوع من المسارح المجّانيـة للأولاد الصغار فيقودهم اليهـا أولياؤهم منذ طفولتهم . وهناك يكتشفون بواسطة فانوس سحري معلومات تتناول جميـع المعارف الانسانية. إن النظر ينير ويثقف العقل. والصور تظل مطبوعة في الذاكرة فتصبح المعرفة، بهذه الواسطة ، منظورة ملموسة ، وهل أسهل من أن نعلّم بهذه الطريقة التاريخ العام ، والجغرافية والزراعة و ... الخ ؟

وطبع السيد سكرمان هذا المقـال وبعث بنسخة عنه الى كل نائب ، وعشر نسخ إلى كل وزير ، وخمسين نسخة إلى رئيس الجمهورية ، وعشر نسخ الى كلٍّ من جرائـد باريس ، وخمس نسخ الى جرائد الضواحي .

ثم بحث قضية المكتبات في الشوارع . فهو يطلب من الدولة أن تسيّـر في الطرقـات عربات صغيرة ، كعربات بائعي الليمون ، ملأى بالكتب والمؤلفات ، ويكون لكل

مواطن حق استئجار عشرة مؤلفات كل شهر في مقابل غرش واحد . فالسيد سكرمان يقول ان الشعب لا ينتقل الى مكان ما إلا طلباً للذّاته. وما زال لا يسعى وراء طلب الثقافة والعلم فان الثقافة والعلم يجب أن يسعيا اليه .

ولكن هذه المحاولات لم تلاق أي صدى . ومع ذلك فقد تقدم بطلبه. فاجيب بأن المسؤولين أخذوا علماً بالامر وأنهم سيجاوبونه قريباً،فوثق إذ ذاك من نجاحه وانتظر.

ولما أبطاعليه الجواب قرر أن يقوم بمساعيه الشخصية، فطلب مقابلة وزير المعارف، فاستقبله ملحق الغرفة،وهو شاب ولكنه على ما يبدو خطير للغاية،ويحتل مركزاً مرموقاً .

كان يبدو كانه لاعب بيانو عندما كان يشد على أزرار الجرس البيضاء المتعددة ليدعو مرؤوسيه . وقد أكّد الملحق للمسيو سكرمان ان قضيته في طريقها الى النجاح ، وطلب اليه أن يتابع أبحاثه المرموقة حتى يكملها .

وعاد السيد سكرمان إلى العمل . ويظهر أن النائب روسلين بدأ يهتم كثيراً لنجاح المسيو سكرمان ، فقد جمع له المعلومات العلمية القيمة . فروسلين كان هو أيضاً قد منح وساماً دون أن يعلم أحد الأسباب التي جعلته جديراً بهذا الامتياز . لقد أشار على سكرمان بأن يتناول بحث دراسات جديدة ، وقدمه إلى جمعيات علمية كانت تهتم

بدراسة نقاط من العلم غامضة نوعاً ما قصد الحصول على هذه الانعامات . حتى انه كان يهتم بأن يوصي به في الوزارة أيضاً .

وبينما كان النائب ذات يوم يتغدى عند صديقه (وكثيراً ما كان يتغدى في هذا البيت منذ بضعة أشهر . .) قال له بصوت منخفض وهو يشد يده : « لقد توصلت ان استحصل لك على انعام كبير . فلجنة المباحث التاريخية شاءت أن تسند اليك مهمة التنقيب عن بعض المعلومات في مختلف مكتبات فرنسا . »

عند ذاك خارت قوى سكرمان حتى لم يعد بامكانه مواصلة الأكل والشرب . ولكنه سافر بعد مضي ثمانية أيام . كان ينتقل من بلد إلى آخر باحثاً منقباً في الكتب الصفراء ينهشه الحقد على أصحاب المكتبات .

ولما كان ذات مساء في روان ، مرت في خاطره فكرة « تقبيل » زوجته التي لم يرها منذ اسبوع،فاستقل القاطرة التي تسير في الساعة التاسعة لتوصله نصف الليل إلى بيته .

كان يحمل مفتاح الباب . فدخل بدون أن يحدث أية حركة . دخل ، تدغدغه النشوة ، ويسعده ان يُفرح زوجته بغتة بهذه المفاجأة الحلوة .

ــ انها مزعجة . لقد اغلقت على نفسها البـاب كأنها

سجينة .

عند ذاك صرخ : جانيت ، هذا أنا .

ويظهر انه انتابها ذعر شديد ، لأنه سمع صوت قفزتها عن سريرها وهي تحدث نفسها كأنها في حلم . وبعد ذاك ركضت إلى غرفة الزينة ففتحتها وأغلقتها ، ثم دخلت غرفتها وخرجت منها عدة مرات راكضة، حافية القدمين، مصطدمة بالأثاث الذي كان يسمع له قرقعة .

وأخيراً قالت له : هذا انت يا ألكسندر ؟

فأجابها : نعم نعم . هذا انا افتحي الباب .

وفتح الباب . فارتمت زوجته على صدره وهي تتمتم : يا الله . يا لفرحي وسروري. ما هذه المفاجأة !

وأخذ ينزع ملابسه بانتظام ، تماماً كما كان يفعل سابقاً. وعندما حاول أخذ معطفه الذي كان يعلقه عادة على كرسي في مدخل البيت ، اعترته دهشة كبيرة . إن العروة كانت مزينة بشارة حمراء . عند ذاك تمتم : « هذا المعطف يحمل وساماً ! » .

وبقفزة واحده ارتمت عليه زوجته وانتزعت منه المعطف قائلة : « لا تنخدع ! اعطني اياه » .

ولكنه ظل ممسكاً بأحد كمي المعطف وهو يردد مضطرباً: « ولكن كيف تفسرين ذلك؟ لمن هذا المعطف؟

انه ليس لي ، لأن معطفي ليس فيه شارة وسام جوقة الشرف . »

وحاولت جاهدة انتزاعه منه وقالت وهي ذاهلة :

« اسمع . اسمع . اعطني اياه . انه سر لا يمكنني البوح به الآن . اسمع ! » .

ولكنه غضب حتى شحب لونه وقال: « أود ان اعرف من أين جاء هذا المعطف . فهو ليس لي » .

فصرخت بوجهه قائلة : « نعم انه لك . استحلفك ان تسكت . اسمع . لقد منحت وساماً ... » .

وكان من تأثير العجب الذي تولاّه ان ترك المعطف وتراخى على الكرسي وقال: تقولين ... اني ... اصبحت صاحب وسام ؟

ـ نعم ! انه سر .. سر كبير ...

وأخيراً وضعت المعطف الأعزّ الأمجد في خزانة ، ثم عادت إلى زوجها صفراء اللون وهي ترتجف . قالت له :

ـ نعم إنه معطف أوصيت لك عليه . ولكني استُحلِفت أن لا ابوح لك بشيء . ولن ترتدي قضيتك الطابع الرسمي قبل مرور شهر او ستة اسابيع عندما تنتهي مهمتك . كان من الواجب ان لا تعرف شيئاً قبل عودتك . إن السيد روسلين هو الذي حصل لك على هذا

الانعام .

قال السيد سكرمان وقد خارت قواه :

ــ روسلين ... صاحب وسام ... هو الذي اسدى إليّ هذه الخدمة فمنحت وساماً ... أنا ... هو ... آه !

وكان مضطراً إلى تناول جرعة من كوب ماء . وصادف أن ورقة صغيرة افلتت من المعطف على الأرض عندما نازعته اياه زوجته فالتقطها السيد سكرمان . انها بطاقة زيارة كتب عليها : « روسلين . نائب » .

قالت له زوجته : هل لمست الشيء لمس اليد .

فبكى من شدة الفرح ...

وبعد مضي ثمانية أيام نشرت الجريدة الرسمية خبر منح السيد سكرمان وسام جوقة الشرف من رتبة فارس ، لتأديته خدمات استثنائية ...

الجنود سياج الدولة

من جملة الأحداث الجلّى التي مرت وانا مشغول في جسدي ، كما قال الحجاج لأهل العراق ، هذه الأحلاف العسكرية هنا وهناك ، غرب وشرق ، وشمال وجنوب ، وفوق وتحت، حتى تتم حدود الجهات الست.وهل تتعجب اذا قلنا فوق؟ففي هذه الأيام صار هذا الفضاء الواسع ساحة نضال . وهل هناك أعظم وأسهل من هذه الساحة العلوية التي لا تحتاج الى طرق واسعة ــ اوتستراد ــ ولا الى تعبيد؟ وما هذه هي المرة الأولى التي تدور فيها رحى الحرب في القطاع الفوقاني من هذه الأكوان .

أما كانت السماء ساحة أول عملية عسكرية بل معركة حربية كانت الأرواح السماوية عساكرها؟فثورة الملائكة أول ثورة عرفها التاريخ البشري. وعرّف الوحيُ الانسانَ أن لا بد لكل وطن من عسكر يحميه، سماوياً كان أم ارضياً . إن النزاع ملاك كل حياة . ففي كل مجتمع ، وفي كل اسرة،

بل في كل جسم مشادة بل تطاحن دائم يقوم فيه الجديد على انقاض القديم .

كان ابليس يرتع في ملكوت الله ونعيمه ، فتطـاول ببصره إلى العرش الاسنى ، فحدثتـه نفسه به . وشايعه فريق من اخوانه، خدام العرش ، فانشق الملائكة حزبين: حزب الله ، وعلى رأسه ميخائيل ، وبزات رهطه اجنحة خضراء فتـانة ، ووجوه فتيـة طرية ذات ثغور تفيض سحرا علوياً ، وحزب لوسيفوروس وشاراتهم قرون ، ثم اذناب لا بد منها لذوات القرون . وهكـذا تم لكل عسكر ما يمتاز به . اما اعتدة تلك الحروب الأولى، فكانت سيوفاً كما زعم لنا المصورون .

كانت حرب صاعقة حقـاً فاندحر ابليس وجنوده . وكانت الهدنة فاجلوهم عن حدود الملأ الأعلى ، وأصبحت الأرض مستعمرة لهم . فاذا جارينا العلماء وقلنـا معهم ان الفردوس الأرضي في الشرق ، كان الشرق مهد العسكرية الأولى .

فالعسكرية بزرة وجـدت في أول خليـة من خلايا الـكائنات . تنشق فتصير شجرة ، فغابـة أشبة كلما مست الأحداث انانية البشر التي يعبرون عنها بالشرف والكرامة . وما الكرامة والشرف إلا الدفاع عن النفس وتنازع البقاء.

فلولا الكرامة والشرف اندحر الانسان في جبهة الحيـاة وظلّ كابن عمـه القرد يراشق بالحجـارة . بيته الكهف وسراجه القمر ، ومصابيحه المعلّقة هذه النجوم الحائرة .

لسنا ننكر ان الحرب ويـل ، ولكنه ويل لا بد منـه للتطهير والتنقية . لا بد من نفي الزؤان ليسلم القمح ، ولا بد من اختيار الأصلح بذاراً لنحصل على الغذاء الأنسب ، والغلة المثلى . ولا يظلّ حصادنا خليطـاً لا تستلذ النفس رغيفه ، ولا تستطيب طعامه .

الحياة الانسانية،منذ نشأتها حتى الساعة التي نحن فيها، سلسلة أعمال عسكريـة ، قصرت وطالت بحسب الأحوال والظروف . وما تقهقرت امة وقصرت عن تأدية رسالتها إلا عندما ضعفت روحها العسكرية:ان لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب . أعلى الممالك ما يبنى على الأسل .

ومَنْ لم يَذُدْ عن حَـوْضهِ بسلاحهِ
يُهدَّمْ ومَنْ لا يَظلِمِ النـاسَ يُظـلَمِ

لا أحاول سرد اخبار الحروب والاعمال العسكرية ، فتاريخ كل امة هو تاريخ امجادها العسكرية . كان النـاس ولا يزالون يتمسكرون ليدافعوا عن قضيـة يرون فيها سر بقائهم الانسب ، فسموها تارة الله، وطوراً الوطن، وحينا التمدين . وهم في الحقيقة لا يدافعون إلا عن « الأنا » ، وفي

الأنا كل اسرار البقاء . سخّرتنا قوة نجهلها لمشيئتها،فنحن نعمل ما نشاء ولا ندري لماذا نعمل.وتتغيّر مظاهر اعمالنا في مجرى الزمن ، فنستقبح اليوم ما استحسنه اسلافنا ، ثم لا تلبث ان ناتي شراً منه متوهمين اننا نصنع خيراً .

وإذا فكرنا في التاريخ العسكري ، رأينا عباقرته يُسيّرون الانسانيةَ في سُبُلٍ جديدة فيخلق مرعى للقلم يدرّ اللبن .

فهذا ابو تمام تخلّده بائيته العسكرية ، وهذا المتنبي ينظم سيفيّاته الخالدة فيَخلُد ويُخلِّد اميره .

لا تبنى « القومية » ولا تقوم « التربية الوطنية » على الادب وحده . فللسيف قصائد رنانة ومقالات طنانة كما حدثنا ابو تمام . وإذا طلبنا المواد الاولية التي نؤلف منها تربية وطنية في امتنا المتضاربة الآراء فلا نجدها في شعر الشعراء ، ولا في علم العلماء ، ولا في القضايا الحسابية والهندسية ، فتلك « العقدة » لم يفكها إلا سيف الاسكندر عندما وقف المفكرون حيالها حائرين .

قد كنت زعمت إن تربيتنا الوطنية لا تستقيم إلا تحت سماء الثكنة العسكرية ، وها قد أعارت حكومتنا هذه القضية انتباها فأوجبت التدريب العسكري على صفوف المدارس العليا ، فسمعنا صدى خطوات الفتيان المتزنة ،

وشاهدنا صفوفهم ونفوسهم التي تكاد تقفز من صدورهم . ولكن فليسمح لي أن اقول إن التدريب المدرسي، والنظام الكشافي ، والترتيب الحزبي ، لا تشفي نفس الوطن المهدد، فلا ينهضنا من هذه الكبوة إلا التجنيد الاجباري .

ان الميل العسكري ضعيف فينا . فشبابنا ، ولا اقول كلهم ، يهربون من الجندية بالف حيلة . فكأنهم درسوا علم الحيل على ابي دلامة ، بل فكأن هذا الشاعر قد نفخ فيهم من روحه، واليك ما روى لنا عن نفسه كما جاء في الأغاني:

« أتى بي المهدي وأنا سكران ، فحلف ليخرجني في بعث حرب ، فأخرجني مع روح بن حاتم المهلبي لقتال الشراة . فلما التقى الجمعان قلت لروح : أما والله لو ان تحتي فرسك ومعي سلاحك ، لأثرت في عدوك اليوم أثراً ترتضيه . فضحك وقال : والله العظيم لادفعن اليك ذلك ، ولآخذك بالوفاء بشرطك . ونزل عن فرسه ونزع سلاحه ودفعهما إليّ ودعا بغيرهما فاستبدل به . فلما حصل ذلك في يدي وزالت عني حلاوة الطمع قلت له : ايها الامير ، هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت بيتين فاسمعها . قال : هات . فأنشدته :

إني استجرتُك أن أقدّمَ للوغى
لتطاعنٍ وتنازلٍ وضرابِ

فهبِ السيوفَ رأيتها مشهورةً
فتركتُها ومضيتُ في الهرّابِ
ماذا تقولُ لِما يجيء وما يُرى
مِن واردات المـوتِ والنشابِ

فقال : دع عنك هذا وستعلم .

وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة فقال : اخرج اليه يا أبا دلامة .

فقلت : أنشدك الله ، أيها الامير ، في دمي !

ـ والله لتخرجن .

فقلت : أيها الامير ، فانه اول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا ، وانا والله جائع ما شبعت مـني جار- ة من الجوع ، فمر لي بشيء آكله ثم اخرج .

فامر لي برغيفين ودجاجة، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف . فلما رآني الشاري ــ مفرد الشراة ــ أقبـل نحوي وعليه فرو قد اصابه المطر فابتـل ، واصابتـه الشمس فانفعـل . وعيناه تتقـدان ، فأسرع إليَّ فقلت له : على رسلك يا هذا كما انت .

فوقف . فقلت : اتقتل من لا يقاتلك ؟

قال : لا .

ـ أتقتل رجلاً على دينك ؟

ـ لا .

قلت : افتستحلّ ذلك قبل ان تدعو من تقاتله إلى دينك ؟

ـ كلا . فاذهب عني إلى لعنة الله . .

قلت : لا أفعل أو تسمع مني .

ـ قل .

قلت : هل كانت بيننا عداوة أو ترة ، أو تعرفني بحال تحفظك عليّ ، أو تعلم أن بين أهلي وأهلك وتراً ؟

قال : لا والله .

ـ ولا أنا ، والله ليس لك إلا جميل الرأي ، واني لأهواك وأنتحل مذهبك وأدين دينك ، وأريد السوء لمن أراده لك .

قال : يا هذا ، جزاك الله خيراً فانصرف .

فقلت : إن معي زاداً احب ان آكله معك واحب مؤاكلتك لتتأكد المودة بيننا ويرى أهل المعسكر هوانهم علينا .

قال : فافعل .

فتقدمت اليه حتى اختلفت أعناق دوابنا ، وجمعنا ارجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكاً . فلما استوفينا ودعني ثم قلت له :

ـ إن هذا الجاهل إن أقمتَ على طلب المبارزة ندبني

اليك، فتُتعبني وتتعب، فان رأيت ألا تبرز اليوم فافعل.
قال : قد فعلت . ثم انصرف وانصرفت .

فقلت لروح : أما أنا فقد كفيتك قرني ، فقل لغيري ان يكفيك قرنه كما كفيتك . فامسك .

وخرج آخر يدعو إلى البراز فقال لي : اخرج إليه ، فقلت :

إني اعوذُ بروحٍ أن يُقدّمني
إلى البرازِ فتُخزى بي بنو أسدِ
إن البراز إلى الاقران اعلمه
مما يفرّق بين الروحِ والجسدِ
إن المهلّبَ حبّ الموتِ أورثكم
وما ورِثتُ اختيارَ الموتِ عن أحدِ

فضحك واعفاني .

وبعد ، فعلى مَن نعتمد في حماية حدودنا ، اذا كنا على دين ابي دلامة ؟

ان ربّ اسرائيل ربُّ جنود ، فبماذا نواجه من كانت هذه عقيدته ، وعلى مَن نعوّل في صيانة أرضنا ؟

أعلى الدول الاخرى وقد عرفناها في أكثر المواقف أنها تخضع للأمر الواقع ما دامت الضربةُ بعيدةً عن جلدها ؟

ليست هذه أول مرة نعالج هذا الموضوع . فلنا فيه

جولات قديمة وحديثة . فقد تنبهنا للخطر الصهيوني يوم كنا شباباً من جنود السلطة الرابعة ، فحاربناه ، تحت عنوان « الخطر الاصفر » نسبةً الى السيد أصفر الذي كان يشتري أراضي فلسطين للصهيونيين . وكانت الحرب الكبرى الاولى فكان الذي خفنا ان يكون .

ومنذ خمس سنوات علّقنا على خطابٍ ألقاه مناحيم بيغان زعيم منظمة الارغون اليهودية الارهابية قال فيه : « ان عيد اليهود سيأتي عندما يرقص شبابنا في شوارع العواصم العربية » .

قلنا : ان هذا حلم توراتي عتيق جداً ، ولعله جال في خاطر لوط ليلة اسكرته ابنتاه ... فالتوراة تهب ارضنا لبني اسرائيل كما جاء في سفر تثنية الاشتراع ، الفصل الاول ، عدد ٦ و ٧ :

« الرب الهنا ، كلمنا من حوريب قائلاً : كفاكم قعوداً في هذا الجبل ، تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الاموريين وكل ما يليه من « العربة » والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر ، أرض الكنعاني ولبنان إلى النهر الكبير ، نهر الفرات . انظروا قد جعلت امامكم الأرض ، ادخلوا وتملكوا الأرض التي اقسم الرب لآبائكم ابراهيم واسحق ويعقوب ان يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم » .

وأخيراً جاء في الفصل الأربعين من إشعيا :

« هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان تُحسب . هوذا الجزائر يرفعها كدُقّة ، ولبنان ليس كافياً للايقاد ، وحيوانه ليس كافياً لمحرقة ، كل الامم كلاشيء قدامه ... (إشعيا ف ٤٠ ع ١٥ ـ ١٧) .

فهل من يقول لي ماذا اعددنا لاحباط اماني إسرائيل واحلامها ؟

ماذا اعددنا لمنازلة شعب وعده إلهه ، منذ آلاف السنين ، بامتلاك اوطاننا ؟

أأعددنا شيئاً غير مناقشات وتنابذ وانقسام إلى محورين؟

أأعددنا غير حفر الملاجيء ؟ فالى أين نلتجيء إذا أتت الساعة ؟ فلنستيقظ من غفلتنا ، فما في الحرب مكرمة كما يقولون .

سيكي الكلب البوليصي

منذ سبعين أو ثمانين سنة سمع أو شهد اديب بك اسحق سباق كلاب في باريس ، فكتب مقالاً رصّعه ببيتين قالهما في ذلك المشهد أذكر منها هذا الشطر : « حتى الكلابُ لها هناك جوائز . »

ترى ماذا كان يقول اليوم لو كان له عين ترى ؟

ماذا تراه كان يقول ، لو سمع ، مثلما سمعت ، بأخبار هذا الكلب العجيب سالكي أو سيكي ، كما قرأت اسمه في الصحف اليومية والأسبوعية التي صورته ؟

إذا كانت جوائز سباق كلبيّ قوّلتْ أديب زمانه وصحافي عصره شعراً، فماذا كان يقول لو رأى هذا الكلب البوليصي ، وقرأ وصف العناية التي يقتضيها أسلوب حياته حتى يُفلح ويقوم بمهمته على أتم وجه ؟ فلا بد له ، كما طالعت ، من تدليك وتمسيد وتمشيط يومياً ، إلى آخر ما هنالك ، عدا السهو والغلط ، لأنهم لم يذكروا أكان لا

بدّ من التعطير أيضاً . وقالوا إنه لا بدّ من توفير الوقاية والاسباب الصحية للأماكن والاوعية التي يتناول فيها غذاءه . وقالوا إن وجبة طعامه تتألف من اللحم والخضار المسلوقة ، ونوع من الخبز خاص .

ألا ترى أنها نوع من الريجيم ، تماماً كاسلوب الأكل في المستشفيات ؟

فاذا كنت لم تزرها بعد ، فلسوف تذكرني إذا دخلتها بعد حين ، لا سمح الله .

وأي مقال كان يكتب أديب اسحق لو درى ان هذا الكلب يتعلم كالطلاب الآدميين،وله سجلّ مدرسي فينتقل، بناء عليه ، من صفّ إلى صفّ حسب نبوغه الذي يدل عليه هذا الدفتر الخاص المبينة فيه اخلاقه ، وعاداته ، وعلاماته ، ودرجاته . حتى إذا ما بلغ الشوط الأخير من السباقات المدرسية يحوز الشهادة . لا ادري أكانت هناك أيضاً شهادات ثانوية وجامعية ، وألقاب علمية لهؤلاء الكلاب ...

وعلى كل حال قد أفسح وجودهم عندنا في المجال لوظائف جديدة . فلا بدّ لكل كلب من ماشطات ، وطابخات ، وغاسلات يسهرن على تسريح شعره وتنظيفه . ولا بدّ من ممرّضات تكون عيونهن عشراً عشراً لاعداد وجبات

اكله ، ولا بدّ من ساهرات على نظافة المنزل ، وتمهيد الفراش ، والحيلولة دون زعيق الراديوات وتزمير السيارات ، كما لا بدّ من مرافقين له في أوقات فراغه ...

اذن فليستعد الجنسان لتقديم الامتحان . والشرط الأول في من يتقدمن ويتقدمون إلى هذه الوظائف ان يكونوا يحسنون اللغة الانكليزية ويخرجون الحروف اخراجاً على حقه ، لا بلدياً كما نتكلم نحن ، فاصحابنا هؤلاء لا يفهمون إلا لغة وطنهم . وسيكي ورفقاؤه السبعة ينبشون المجرمين ولو كانوا في قاع الأرض ، بشرط ان تحسن رعايتهم وسياستهم .

وقد قرأت ان الطالب النجيب من هؤلاء الكلاب تراعى في تعليمه قاعدة جدودنا القدماء : العلم في الصغر كالنقش في الحجر . فلا يقبل أحدهم في المدرسة إذا تجاوز عمره السنة مهما كان لديه من الوسائط ... فهو ليس مثلنا ، نحن البشر ، يقبل في المدارس ولو كان طول عمود خلده .

ان هذا التعريف بضيوفنا الاعزاء – عفواً ، بل بالذين صاروا ، بعد اليوم ، منا وفينا – واجب جداً ليعرف القارىء مع من نتكلم اليوم .

والآن ننتقل إلى الكتاب المفتوح الموجه إلى زعيم هؤلاء الكلاب .

عزيزي سيكي ،

عِمْ صباحاً يا اخا الكلاب . لا تغضب إذا حييتك بتحية الجاهلية ، فأنت ، وان تفوّقتَ على الكثيرين منّا بالغريزة، فما زلت تعد غير عاقل، ولا يحلّ عليك سلاُمنا . لقد شرّفت جنسَك أيها الكلبُ الذكي ، وانتزعت الاحترام انتزاعاً حين اهتديت إلى المجرمين من البشر . إني لارجو أن يخجلَ الانسانُ حين يدلّ عليه كلبٌ ، ويقودُه صاغراً حين يطبق فكيه على ساعده .

يا زعيم الثمانية ، حقاً لقد ذكرتنا بمجد كلب أهل الكهف ، بل تعاليتَ عليه علواً كبيراً .قال بولس الرسول: « على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة » ، وانت بلا كلمة ودون ان تلفظ مقطعاً من كلمة ، تقوم شهادتك . فماذا ينفع الانسان نطقه إذا كانت لا تُقبل شهادته مفرداً ، وتُقبل شهادتك انت وحدك ؟

لقد رفعت اسم الكلاب عالياً يا عزيزي . وهل يحق لنا ، نحن البشر ، بعد هذا ، ان نعيّر ونحقّر بعضنا بكلمة يا كلب ؟

اما صار بعضنا تحت رحمتكم ؟

ترى هل لنا أن نطعن بشهادتكم ؟

وإلا فاين ذهب اجتهاد المحامين ، وهل له دور في

شرع الكلاب ؟

انت كلب بشهادة ، فصارت شهادتك لا تُردّ ، والمليح فيك أنك لا تحابي ولا تمالىء . تشمّ وتحكم حكماً مبرماً ، فلا اعتراض ، ولا استئناف ، ولا تمييز. وأحسن ما في الاحسن فيك انك لا تراعي في المنـــام خليلاً . تفعـل بوحي من منخريك ، واذناك لا تقبلان واسطة أحـد ، لا من رجال دين ولا من رجال دنيا ...

الحاكم منخرُك ، والمنفّـذ فكـُّك .

قيل قديماً : « مقتل الرجل بين فكيه » ، اما اليـــوم فصار مقتله بين فكيك . ولكن بحياة والدك خبرني : هل أنت معصوم ؟ وإذا اخطات ، يا كلب ، فخطيئتنا برقبة من تكون ؟

وبعد ، يا عزيزي سيـكي ، ترى أتعرف حلال العملة من حرامها ؟ واذا شممتها في المصارف حيث تودع أمانةً في صناديق حديدية برسم اصحابها ، أتقدر ان ترشد اليها ؟

وأيضاً ، يا عزيزي سيـكي ، أصحيــح أنك لا تاكل زادك ، ولو جائعاً ، إلا اذا امرك وليّ امرك ؟ فما قولتك غداً حين ترى البعض عندنا ياكلون غير الخبز ، ياكلون الصناديق الحديدية فوق الشبـع ؟

ثم ، يا عزيزي ، هل تظن اننا لا ننتزع المجرمــين من

اشداقك ، ما دمنا نكذّب السجلات وقيودها ؟

وهل يُعقل أننا لا نكذّب كلباً مثلك؟ فاذا سمعت مني يا سيكي فلا تتعب نفسك كثيراً . فانت تمسكهم والوسائط تفلتهم . أظنك تشم ولا تسمع ، وإلا لكان بلغك ما يقال تحت قبة البرلمان . فحديث « الواسطة » وغيره ليس من عندي ، بل من عند نواب الأمة ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ان بوليصنا وشرطتنا وامننا العام قلما أفلت منهم جانٍ ، ولكن المهم ان نقبض على من يفلتونهم ، ان نمسك بالذين يتدخلون لمصلحتهم . فلو وفّرنا للمسؤولين عن الأمن عندنا ما سيوفّر لك من الوسائل الصحية ، واعتُني بهم كما سيُعتَنى بك ، لعملوا العجائب . فاذا كانوا ، وهم على ما هم ، لا يخفى عليهم شيء ، إذا كانوا هم يعدّون كل كل شيء بأنفسهم ويفعلون ما يفعلون ، فكيف يكونون لو تهيأ لهم ما سيُهيّأ لك انت ؟

اما قلنا أنه سيكون لك نظام اكل صحي دائم ، تماماً كالذي روعيَ لي في المستشفى غصباً عني ؟

اما الآن فصرتُ لا أقدر على ذلك ، لأن نفسي رخوة أولاً ، وثانياً لأني لا أستطيع .

كنا فيما مضى نفتخر بالحمام الزاجل الذي كان ينقل

رسائلنا بامانة في الملمات وساعة الضيق ، أما الآن فأنت موضوع اعجابنا يا سيكي .

وبعد ، فاهلاً وسهلاً يا سيكي ، أرأيت كيف احتفينا بكَ ، وكيف خففنا الى استقبالك ؟ فقد احتللت الصفحة الأولى من صحفنا ، كانك ضيف كبير أو عبقري عظيم .

لا يدهشك هذا الاستقبال الرائع ، فتلك عادتنا ولو مع الكلب اذا كان يستحق الاكرام . ومن امثالنا : « من وقر الكلب وقر صاحبه » و « كلب المير مير » . اذن ، كان للكلب عندنا وقار قبل تشريفك . واذا كنت كلباً ذئبياً ، فقبلك دعا الفرزدق المرحوم جدك بقوله :

وأطلسُ عسالٌ وما كان صاحباً
دَعوتُ بناري موهناً فأتاني
فلما دنا قلت : ادنُ دونك ، إنني
وإياك في زادي لَمشْتركانِ
فبتُّ أسوّي الزاد بيني وبينه
على ضوءِ نارٍ مرةً ودخانِ
فقلت له ، لما تكشّرَ ضاحكاً
وقائمُ سيفي مِن يدي بكمانِ
تَعشَّ ، فان واثقتَني لا تخونني
نكنْ مثلَ مَن، يا ذئبُ ،يصطحبانِ

ذكرني هـــذا وصفهم لك بانك أطلس عسالُ ، ولا عجب ، فنحن نقول : « إن الأصولَ عليها تنبتُ الشجر » ، و « الابن سر أبيه » ، فبورك فيك من ابن أصل .

المصيبة يا سيكي ، إني وإياك لمختلفـــان . أنت تفهم الانكليزية ، وأنا أفهم الفرنسية . ومع ذلك ألخّص لك ما أريد أن أقول في هذا المقام الكلي الجد ...

أظنّ أن قصيدة ذئب دافيني الشاعر الفرنسي مترجمة إلى اللغة التي تفهمها أنت ، فاذا قـابلت بين وصف شاعرنا وشاعركم لاستقبال الذئب ، عرفت أننا نكرم الضيوف ولو كانوا ذئاباً ... ولسنا مثل غيرنا ، وفي هـذا يقول الفرزدق أيضاً :

ولو غيرَنا نبّهتَ تَلتَمسُ القِرى
أتاكَ بسهمٍ أو شباة سِنانِ

وإذا كان ذلك كذلك ، فكم ترانا نكرمـك أنت الآتي لتعاوننا على المجرمين منا وتدلنا عليهم .

اعذرني إذا خاطبتك برفع الكلفة ، فمـا لقبتك لأنني لا أعرف لقبـك وما كنيتك لأني لا أعرف الكبـير من أنجالك المحروسين ، حفظهم الله . الألقـاب عندنا محفوظة للغرباء وأنت، كا قلنا ، صرت منا وفينا ، ومع ذلك فنحن نقدر النـاس ، فعلى قدر موهبتك سوف يكون تعظيمنـا

لك . أما أسلوب معيشتك أو الراجيم المحدد فسيكون كاملاً غير منقوص . فالميزانية عندنا مرحرحة ، ونحن كرماء وأنت تستاهل .

يقولون أن الكلب ينبح على الفقراء فعسى أن لا تكون منهم ، أي من الكلاب غير المثقفين ، فتنبح على أكثرنا ، وخصوصاً أبناء القرى مثلي ، لأننا جميعاً فقراء مساكين ، مربى الجبال لا مربى سكوتلاند . كان ينقصنا الخوف ، والآن قد وجدناه بتشريفك ، يا عزيزي . أما إذا تعودت أن تقيسنا بغير اللباس فيزول فزعنا ، وإلا قاطعنا العاصمة وما أشبهها ، وتركناك غارقاً بين زبونات الماتينه والسواره وحفلات الكوكتيل .

إن الخطر الكبير هو عليّ ، يا عزيزي سيكي ، ولكن سوف أتنكر فلا تهاجمني بريئاً إذا رأيتني في الشارع . سوف آخذ ما يلزم من هذا الرفرف القائم فوق عيني ، فأتقي شرك . الآن أظن أن القارىء قد أدرك سبب توجيه هذا الكتاب المفتوح إليك وأنت كلب ابن كلب .

وجهت إليك هذا المكتوب الناعم لاتقي شرك ، وإني لواثق أن الثناء يغرك كما يغرني فتكف عني شرك . نحن ، يا أخا الكلاب ، بشر ، والناس تؤثر بهم الكلمة أكثر من العضة ، فبحياتك لا تكشر كثيراً عن أنيابك إلا حيث

يلزم .

حاشية ـ بيني وبينك ـ يا سيكي : أنا لا أؤمن كثيراً بما يقال . لا أصدّق حتى أجرّب ، فمن يكفل لي أنك لا تشهد بالزور ولو خطأ ، وتأخذ أحياناً البريء بجريرة المجرم ؟ ولكن لا خوف من ذلك ، فالجناية قد تصير جنحة ، والجنحة قد تُطمر ولا يستطيع نبشها أحد ، لا أنت ولا جد جدك ...

وعلى كل حال ، أرنا بتعك ، وعند الامتحان يُكرم المرء أو يهان . ولا تؤاخذني إذا ذكرت على مسامعك الامتحان وأنت صاحب شهادة ، كما يقول مدربوك، فعندنا يمتحنون أصحاب الألقاب العلمية الكبرى .

وختاماً تفضل بقبول فائق احترامي وتقديري ، ولو على غير معرفة ، فشاعرنا يقول : « والأذن تعشق قبل العين أحياناً » .

وإلى اللقاء القريب عن غير طريق الجريمة،ان شاء الله، واذا شئت ان تتفضل بالجواب ، وأظنك ستفعل ، فهذا عنواني : عاليه ، مارون عبود ، مع حفظ الألقاب ...

ديك يُصَلي ليلة عيد الميلاد

ولما دنا العيد استشعرت الدجاج ان الكارثة تحيق بهم . لم ينسوا مذابح السنين الماضيات واهوالها ، فرأوا أن يرفعوا أبصارهم نحو العلاء ، ويسالوا من بيده الأعمار ان يرد عنهم الضربة التي تنزل بهم كل عام في مثل ليلة عيد الميلاد . فعلا صياحهم ورفت أجنحتهم ، فقال زعيمهم الديك المرقش : تشددوا يا اخوتي ، فالفزع في مثل هذه الساعة لا يجدي ، فهيوا بنا نصلي .

فقالت دجاجة اكسبتها الشيخوخة خبرة: ومتى عرفنا الصلاة حتى تدعونا اليها أيها الناسك! فلنقاوم ما استطعنا.

فاستضحك ديك الحبش بلهجته المعهودة، فظن سرب الدجاج ان هناك بطلاً يربح المعركة اذا خاضها : صوت عريض يرسله متقطعاً ، فيخيف السامع الذي لا يعرف شجاعة الديك الرومي. ثم سكت ليعود الى مثل تلك النغمة المزعجة فقال له الديك: وبعد هذا ماذا ؟ قل فنحن مصغون

اليك . فلم يزد على شهقاته المعهودة . ولما لم يقل شيئاً قال له الديك البلدي : تفضل صلِّ بنا فنحن خاشعون .

فقالت دجاجة في عز شبابها : هذا تنبل . لا يعرف إلا أن يتنفّش ويزهو ، ويخضرّ ويحمرّ ، والله لا يحب المتكبّرين ، المتلوّنين . فان كان ولا بدّ فانت تصلّي ، لأن صلاة هذا لا يفهمها الله ولا عبيده ، فصوته الكريه يجلب علينا غضب الله ، لا رحمته .

فشقشق الديك الرومي من الغيظ وخرج من بين جماعة الدجاج، فضحكت احداهن وقالت: انه هو المطلوب اولاً ، فليذهب حيث شاء ، وفي هذا المساء تُقبض روحه، ان شاء الله .

ووقف الديك خاشعاً، وطفق يناجي ربه ، راجياً ان ينجي معشر الدجاج من المجزرة :

يا رب الجميع ، لا تسد أذنيك عن تضرعات عبيدك الدجاج ، فأنت خلقتهم ضعافاً ، ومن حقهم أن تحميهم ، ومن للضعيف غيرك يا الله ؟

إن الإنسان الذي خلقته على صورتك ومثالك ، يحلّل ما يشاء ويحرّم ما يشاء . فأية بدعة هذه خلقها ابن البشر ليأكلنا ليلة عيد ميلادك يا رسول الرحمة ؟ أيقول بلسانه : « وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة» ثم يهاجمنا ليخطف

ارواحنا ؟ اما انت قلت : « اريد رحمة لا ذبيحة ؟ » فما لهم في هذا اليوم يذبحونتا بمئات الألوف ؟

أصدّقوا قول واحد منهم ، زعموا انه نبي ، قال في مزاميره عن الانسان : « على اعمال يديك سلطته ، جعلت كل شيء تحت قدميه ، الغنم والبقر جميعاً ، وبهائم البر وطيور السماء ، وسمك البحر السالك في سبل المياه » ؟

فاذا كانت تلك مشيئتك حقاً ، فاين عدالتك ورحمتك يا رب ؟ هل في مخلوقاتك من يستيقظ مثلي في نصف الليل، وعند بزوغ الفجر ، وفي الصباح ليسبّحك ويتهلل ممجداً عظمتك وجبروتك ؟

أما أنا الذي نبهت بطرس ، كبير تلاميذك ، وأعدته الى حظيرتك بعد ما جحدك ، فصار رأس تلاميذك ، وعليه بنيت بيعتك ؟

يدّعي الإنسان أنه يحب الجمال ، وهل هناك أجمل مني ؟ تاجي عقيقي، ومنقاري زمردي ، وثوبي مخطط مقلم لم تلبس عروس أجمل منه ، فكيف يستحلّون ذبحي ؟

يقولون إنهم يحبون الموسيقى ، وهل هناك أروع من صوتي في ظلمة الليل ؟ أما انا الذي أبشرّهم بالصباح ، والصباح أمل ورجاء ؟

أراض أنت ، أيها الحمل الوديع ، عن هذه المجازر التي

يستقبلون بها ميلادك كل عام ؟

أهكـذا يصيب من لا ينسى مواقيت صلاتـه مرة ، فكأنه ناسك ؟ قلت ناسك ، عفواً ، فهؤلاء النساك أيضاً لا يعفون عن دمي ، كأنما عيدك عيـد ديوك ودجاج ليس أكثر ، وإذا لم يتمتعوا بلحومنا فلا يكون العيد على حقه.

وزاد في طين بلايانا بلّة هـذا البابا نويل . إنـه حيث يمشي تدب الرعبة في قلوبنا، فما هذه المساخر يا رب؟ أليس الأفضل والأجـدى ان يعملوا عملاً واحـداً صالحاً بدلاً من هذه المظاهر التي ليست من العيد في شيء ؟

عجيبة هذه البدع ! الديوك لعيد ميـلادك ، والبيض لعيد قيامتك ، وأنت حمل الله الحامـل خطايا العالم ، أفـلا تلهم هـذا العـالم ان يكفّ يده عنـا وترتاح أنت من حمل خطايانا ؟

يا ربّ ، ما لنـا غيرك في ضيقتنا ، فاسمع صياحنـا واستجب طلباتنا ، أفَلسنا نحن صنع يديك ؟

يقولون : « الابن سر أبيـه » ، فكيف خرج هـذا الإنسان ، المخلوق الذي صنعته على صورتك ومثالك وليس فيه ذرة من حنانك ورحمتك ؟

إنه أنانيّ يستمد أفراحه وملذاته من آلام غيره ، فاذا أنت لم تنجدنا ظللنـا ضحاياه إلى الأبد . فاليـك نتضرع

فلو رحمنا يا ربّ .

غداً تمتلىء بطون الناس من لحومنا ، وتنقطع ترانيمنا التي نسبحك بها كل حين ، أفلا ترحم من يمجدك ليلاً نهاراً؟ وعلى كل حال ان رحمتنا أم لم ترحمنـا فنحن لسنا كالبشر الذين يجحدونك في بلايام ، ولا يذكرونـك إلا حين تنعم عليهم .

كانوا فيا مضى يأكلوننا بعد قداس نصف الليل، واليوم غيروا الشريعة فصاروا يقدسون ساعة يريدون : في العصر وفي المساء وفي السهرة ، فلماذا لا يغيرون عادة أكل الديوك ويريحوننا ؟

كأنهم لا يصـبرون على الأكل لشراهتهم ، فحللوا مـا حرموه تسعة عشر قرناً، عدّلوا طقوسهم على هواهم،وبقينا نحن قرابينهم .

مساكين نحن الدجاج ، إننا لا نؤذي أحـداً حتى الذين يقبضون علينا ليقطعوا رقابنا . أهكذا تكون الأعياد على الضعاف الذين لا حول لهم ولا طول، فليـّن ، يا رب، قلب ابنك المدلّـل .

ارحم يا رب عبيدك الدجاج .

فقوقت الدجاجات اعجاباً بفصاحة الزعيم ، ووثقن بدنو الفرج القريب وسلامة الديوك من الذبح ، لانـه يعزّ

عليهن فراقهم . بيد ان تلك الآمـال قد خابت . وما جـاء المساء حتى كان في كل قـن بجزرة ، وأصبحت الدجاجـات أرامل ، وإن لم يلبسن الحداد .

كنا في ذلك الزمـان نصوم اثني عشر يومـاً منتظرين هذا الديك الشهي . أما في زمننا الحاضر فنأكل ديوكاً ولا نصوم .

كانوا يسمون الأيام الاثـني عشر : الصوم الصغير ، ولذلك كانت ضحيته ديكـاً . أمـا اليوم فيـأكلون ولا يصومون . وإني لأعجب من هذا الديك الذي صلّى يسأل ربه ان يرفع يد الانسان عنه وعن بني جنسه ، ترى أفـاته ان هذا الانسان يذبح اخوانه ولا يرحم أحداً ؟

ان رسالة البشر رسالة بطون ، وعبثاً يتعب اخوان المعرّي ان يردعوهم . أما الحيوانات الداجنـة فقد ظلمتهـا الحضارة ، فلو بقيت آبـدة لنجـا أكثرها بجلده وريشه ، ولكنها جاورت البشر فصارت في متناول أيديهم فقصرت اعمارها ، وما اشبهنا بها نحن البشر في خنوعنا .

ان تضرعـك ، ايها الديـك ، لا ينفعك شيئـاً ، لأن الانسان لا يفهم إلا شريعة القوّة، وما زلت ضعيفاً فهيهات ان تسمع صلاتك .

صَاحِبُنا الصَّيفُ

اذا كان الربيع عطراً وزهراً وجمالاً ، فالصيف جمال وعطر وثمر . هو أرحب الفصول صدراً وداراً ، وأوسعها بساطاً ، وأغزرها مادة تهب الحياة ، ولذلك جاء في المثل : « الذي لا يصيّف لا يشتّي » . فكأن هذا الفصل طبيب يمنحك مع علمه الدواء والشفاء .

أجل ، ان الصيف مادبة الطبيعة الكبرى ، وحسبك أنه حاز أكبر شهادة من أكبر من يهمه بطنه ، وهو ابن الرومي ، القائل :

لولا فواكهُ أيلولٍ إذا اجتَمعتْ
من كلِّ نوعٍ ورقَّ الجوُّ والماءُ
إذاً لما حَفِلتْ نفسي متى اشتَملَتْ
عليَّ هائلةُ الجالين غبراءُ
قلْ فيهِ ما شِئتَ مِن شهرٍ تعهّده
في كلِّ يومٍ يدٌ للهِ بيضاءُ

مع اننا نحن نقول : « ايلول طرفه بالماء مبلول » . لقد صدق المعري حين قال في احدى قصائده :

تَشتاقُ ايارَ نفوسُ الورى
وإنـما الشوقُ الى وَرْدِهِ

واذا اشتاق ابن الرومي ليحلّي اضراسه، فابو الطيب المتنبي لم يحنّ إلا الى الشميم... فبعدما وصف صيف لبنان الصارم في شتائه الكافر :

وجبالُ لبنـانٍ وكيفَ بِقَطْعها
وهـو الشتـاء وصيفُهـنّ شتـاء ؟

عاد يقول في مجال الغزل :

حيث التقى خدّها وتفاحُ لبنانٍ
وتغـري عـلى محيّاهـا

واذا هجس ابو الطيب بالجمال الانثوي ، فابو نواس لا عروس لشعره غير الخمرة ، فقال فيها :

سلافُ دنٍّ إذا ما الماء خالَطَها
فاحتْ كما فاحَ تفّاحٌ بلبنـان

يقول المغني : « كلنا نحب القمر » . ونحن نقول : كلنا نحب الصيف » ، فأولادنا يترقبون قـدومه لتطلق المدارس سراحهم ، فيسرحوا ويمرحوا. يحتالون للعصافير بالدبق، وللحجال بالمطاردة ، ويتمتعون بما في الرحلات من

جمال وأنس . يطوون الكتب ليفتحوا كتاب الطبيعة الاسمى ، يقرأون فيه سطور الجمال الرائع والحسن البديع. فالصيف يعتق الناشئين من عبودية النظام ، وهم ينتظرون مقدمه انتظار العاشق الولهان . اما المدني فيطلق عمران مدينته وما فيها من ترفيه اصطناعي ليتمتع بمحاسن الصيف في الجبال العالية ، حيث تبدو له المناظر التي كان يراها على الشاشة البيضاء ولا يهفو قلبه لها إلا بمقدار ما تهيجه الذكرى .

هؤلاء هم التلاميذ . اما اهل المساكن والدارات فينتظرون الصيف لتدر لهم بيوتهم المال ويدفعون ما عليهم في الآجال . والفلاح ينتظره ليبيع بعض غلته ويوسع بثمنها على أهله وبنيه .

أما العذارى فلهن في الصيف أمان وآمال . ومن يدري ؟ فالدنيا قسمة ونصيب ، وكما تفيض خيرات الصيف في كل مجال ، فقد توفق هؤلاء إلى طلاب ايدي فيظفرون بشريكة حياة تنتظر ابن الحلال . حقاً إن الصيف فكاك المشاكل ...

السائح في لبنان يصادف الناس في الصيف فرادى وجماعات حول الجداول والينابيع ، وتحت الأشجار حيث يقيلون ويبيتون . وإذا سرح النظر ، تبدو له العرازيل

والخيام ، فالناس يهجرون البيوت لينعموا بنسمات الهواء الطلق . وإذا لم يستظلوا الأشجار الوارفة ، خرجوا إلى مصاطبهم ونصبوا أسرّتهم فوق سطوحهم ، ولعله من هنا جاء قولهم المأثور : « بساط الصيف واسع ... »

وأي بساط أوسع من ان يكون العنقود مدلّى فوقك، وأوراق الكرمة تظلّلك ، والتينة حذّك ، والتفاحة والاجاصة على مقربة منك وفي متناول يدك ، فما تكلف نفسك عناءً كبيراً ؟ ما عليك إلا ان تمدّ يدك ، ولا باس عليها إذا كانت غير طويلة ، فالتينة هيّن غمز جانبها ، وليست كما قال الحجاج عن نفسه . فاذا كان ابو نواس رأى صورة العريشة في كنيسة ما وجنّ بها حتى قال في وصفها ما قال ، فما تكون حالك انت ؟ لا شك في انه يمر ببالك ، حيث تمر في هذا الجبل وتشاهد العرائش بحلوّة كالعرائس، قول ابن الرومي في وصفِ العنب الرازقي :

ورازقيٍّ مخطفِ الخصورِ
كأنّه مخازنُ البلّورِ
لم يبقَ منه وهجُ الحرورِ
إلاّ ضياء في ظروفِ نورِ

فلا بدع إن رأينا اللبنانيين أشدّ العالمين هياماً بفصل الصيف لانهم تجار بلا رأسمال. رأس مالهم نور وماء وهواء،

وثمار يقدمها الصيف بسخاء . فيا لله ما اعجب كرم الطبيعة الخيرة !

يقولون عندنا : « في الصيف المؤونة على العود » ، وانا اعرف الكثيرين من القرويين الذين يعيشون على الثمار صيفاً ، ومنهم من لا يذوق طبخاً ولا خبزاً . إن الصيف حبيبهم المفضّل ومثلهم يبيّن لي ولك مبلغ حسرتهم على انقضاء الصيف إذ يقولون : « لو كان للصيف أم بكَيت عليه » .

ولولا كرم الصيف وتوسيعه على الناس لما سمعنا المثل العربي القديم : « في الصيف ضيّعت اللبن » .

اما حكاية هذا المثل فهي : كانت دختنوس بنت لقيط تحت عمرو بن عدس ، فكرهته لأنه شيخ . والغواني ، كما قال الأخطل التغلبي : « فما لهنّ إلى ذي شيبةٍ وطرُ » . فطلقها وتزوجها فتى ، جميلُ الوجه ، وكان ذلك في عز الصيف . ولسوء حظها اجدبت تلك السنة فبعثت في الشتاء إلى زوجها الأول تطلب منه حلوبة حين زمجر الشتاء ، فقال يوبخها ويلومها : « في الصيف ضيّعتِ اللبن » ، كما قال النابغة يلوم عروس شعره :

ولا تَعِدي مواعدَ كاذباتٍ
تمرّ بها رياحُ الصّيفِ دوني

قد يخال القارىء أنْ لا عمل للقرويّ في الصيف غير

الأكل والشرب والنوم . يظن ذلك حين يسمع المطرب الأشهر عبد الوهاب يغني بصوته الحلو : « يا محلى عيشة الفلاح » . اما الحقيقة فلا . ان فصل الصيف عمل دائم لا انقطاع له ، فهو فصل الجمع والادّخار . يبدأ بالحصاد وينتهي بقطف الاعناب وعصرها ، وإعداد التين للخزن مع الزبيب والجوز واللوز وما اشبه من نقل الشتاء في الليالي الثرثارة .

ينتهي جهاد حبة الحنطة في أول الصيف ، ولكنها تنتظر جبهة ثانية : الطحن والخبز وآلام النار وأوجاعها، ثم العودة الى بطن الأرض لتحيا من جديد وتحفظ نوعها الذي هو قوت الانسان .

كانت دودة القز تنشر الحياة في القرية في ايام الربيع ، اما اليوم فلم يبقَ للبنان فصلٌ تدبّ فيه الحياة غير الصيف. إن كلّ المواسم فيه ، ما عدا موسم التزحلق الذي ولد جديداً ، فكان طفلاً ميمونَ الطالع على أهل الجرود حتى استانسوا باخوانهم الوافدين على أرضهم من كل فج عميق . أما الصيف فارحب وأسهل ، فلا هواء يقرصك ، ولا برد ينقضّ عليك . واذا لم تجد السرير ، نمت على الحصير وأنت ناعم البال تغنّي يا ليل ...

هذي هي نِعم الصيف علينا ، نحن أهل القرى ، ففي

الصيف الشمس ، كانون الله الذي يدفئنا . ومن حسنات الطبيعة أن المريض المايوس يعلل نفسه بآمال الشفاء في هذا الفصل الخيّر، فالوجوه تضحك فيه بملء افواهها، حتى اذا ما انقضى وبدأت أوراق الشجر تتناثر ، عبست تلك الوجوه الضاحكة ودبّ الذعر بالنفوس .

يظهر أن الإنسان يحبّ بطنه كثيراً ، ولذلك لا يُثني إلا على من يُطعمه من جوع . فما مدح الشعراء إلا الكرماء، وما تغنى بوصف الربيع غيرُ شبابِ الشعراء ، ومـا كان للخريف حظّ إلا من شعر المتشائمين .

أما الذي يعيش على الأرض فكل آمـاله معقودةٌ على فصل الصيف ليعبىء مؤونته حين تندر المؤونة في الحقول والبراري .

واذا لاحظنا النملة رأيناها لا تهدأ صيفاً ، بينا لا نرى لها صورة وجه في الفصول الأخرى ، فكانها والحب على ميعاد ، تدخر بلا توانٍ ولا تبالي بالمشقة لتستريح بعدئذ .

والقروي اللبناني مثلها يجمع في الصيف كل شيء حتى الحطب ، وتنتهي رسالته حين يبيت الزيتون والزيت في الخوابي. واذا كان من سكان المنطقة العالية ، يقبع في بيته طول فصل الشتاء كما تقبع البزاقة في حلزونها ، ويسكّر بابه كما تسدّ هي باب قمعها . ان الجبلي والبزاقة على طرفي

نقيض ، فهي لا تظهر إلا حين تسمع حس المطر ، وهو ينتظر سقوط الثلج ليتوارى ويقعد حد موقدته يحلم بمواسمه العتيدة . لقد دفن المحبوب على رجاء القيامة ، ومن كلامه المأثور : « التعب علينا والطعمة على الله ، والذي كتبه ربك يصير » .

« الذي لا يصيّف لا يشتي » هي من اقوالهم كما مر في بدء هذا المقال ، ولكنهم يعنون أيضاً غير المعنى السابق ، أي أن الذي لا يكدّ صيفاً لا يستريح شتاءً . فالشتاء ولادة ، والربيع فتوّة ، والصيف عزم وحزم وقوّة ، والخريف شيخوخة وهرم ، وقد ادرك ابو تمام سرَّ البقاء من نظره إلى الربيع فقال يصفه :

إن الربيعَ أثرُ الزمان

لو كان ذا روحٍ وذا جثمانِ

مصوّرٌ في صورة الانسانِ

لكان بسّاماً من الفتيانِ

عَجبتُ مِن ذي فكرة يقظان

رأى جفونَ زهرِ الألوانِ

فشك أن كلّ شيءٍ فانِ

إن الربيع هو ابن الصيف ، فما ينضجه الصيف من ثمار يعيد الحياة سيرتها الأولى ، فكأنها بعث موقّت يحيي

في نفوسنا الأمل بالبقاء ... فبـورك الصيف عبـداً أميناً مؤتمناً على حفظ النوع ، يعيد إلى الأرض ما أخـذ منها لتدور الحياة دورتها الدائمة .

ارفُسْ الحواجز وامْرق

كثيراً ما تخدعنا نفسنا فنحسب أننا جبالٌ راسخة لا تأخذ منها العواصف والزوابع مقدار ذرة .

وكثيراً ما نتوهم أننا على الأعمال الجلّى قادرون ،حتى إذا ما دقت ساعة العمل تدعونا ، ووقفنا أمامها وجهاً لوجه ، رأينا أننا قد تضعضعنا . وإذا بالذي كنا نخاله في حيّز طاقتنا قد ابتعد عنا .

إن مجابهة العظائم تتطلب اعصاباً لا ترتجف ولا ترتخي . وكل من لم يتسلح برباطة الجاش لا يستطيع إلاّ أن يخاطب نفسه ، حين يقف على شفير الهاوية ، بقول شاعرنا المشهور :

أقولُ لها وقدْ جَشأتْ وجاشتْ

مكانَك تُحمدي أو تستريحي

ركبت مرةً عربةً سائقها مكتهل . وكانت الطريق ، كأكثر طرق لبنان ، معلقة في صدر الجبل . تحتنا وادٍ

عميق لا تخترق احشاءه الشمس ، حتى يكاد يكون مظلماً صلاة الظهر . مشهد رهيب يقف فيه الرجل على ابواب الأبد ولا يدري متى تبتلعه الهوّة .

خشيت حلول النكبة ، فتنهدت ثم صعّدت زفرةً صارخةً وتافقت ، فاذا بالسّائق الكهل يرفع سوطه في الفضاء مفرقعاً به فتنحط الخيل وتنساب فارتجف. وكانه ادرك ما بي من خوف ، فانطوى نحوي وهو يقول : « اصبر يا عم ، لا تخف . الأرض تنهز ولا تقع . الرجل يجب ان يكون سنداناً لا يلين ولا يهتزّ تحتَ ضربات المطارق مهما ثَقُلتْ وضخمتْ » . قالها ثم عاد يناجي حصانيه ، وهو يخال أنهما يفهمان عنه ما يقول .

أكبرتُ كلمةً خرجتْ من فم ذلك الامي : « الرجل يجب ان يكون سنداناً » . فانتصبتْ امامي في تلك الهنيهةُ صور جميع ما رأيت في حياتي من سنادين ، فتشدّدتُ حتى حسبتني واحداً منها .

قد تكون مواجهتنا لاحدى النكبات التي تنزل بنا أكبر امتحان لذاتنا ، فالخوف وحدهُ نكبة كبرى ، وقد تكون كالمعركة الفاصلة في ميادين النضال ، فاما ان ننهزم فيها أو نفوز. إن ذلك كله يتوقف على شجاعتنا وسيطرتنا على اعصابنا ، فلا تضعضعنا اقل نسمة تهب علينا . وكان

كبلنغ ، شاعر الامبراطورية البريطانية ، قد شاء أن يضع ابنه أمام المصاعب الخطيرة ، فنظم له هذه القصيدة عارضاً عليه فيها ما يواجهه من عظائم مصاعب الحياة فقال :

« إذا كنت تقدر أن تنتظر ولا تتعجب من ذلك ، وأن تُبغض ولا تستأثر بالبغض ، وبهذه الحالة لا تفرح بمزاياك ، ولا يتملكك العجب فتتكلم بغلو في المعرفة ،

« وإذا كنت تقبل الظفر والانكسار مع ما بينهما من التباين ،

« وإذا كنت تقدر ان تسمع الحقيقة التي قلتها مشوّهة بالقصد السيّىء لخدع البلهاء ، وان تنظر إلى الأشياء التي خصّصت لها حياتك تندثر ، فتجمعها وتنظمها من جديد بالوسائل المعروفة ذاتها ،

« وإذا كنتَ تقدر ان تجمع كل ما ربحته ، ثم تخاطر بهذا الكل في قحمة مغامرة ، فتخسر ، ثم تبدأ من جديد دون ان تتذمر أو تشكو خسارتك ومصيبتك ،

« وإذا كنتَ تقدر ان تحرّك عضلات قلبك واعصابه بعد وهيها لتخدمك وتؤدي بك إلى هدفك .

« وإذا كنت تثبت في حين لا يبقى لك شيء سوى الارادة التي تهتف بك : اثبت ،

« وإذا كنت تقدر ان تخاطب الجماهير ، وان تحافظ

على فضائلك ، وان تتردد على الملوك بدون ان تخسر بساطتك ، ثم لا يقدر أحد ، سواء أكان عدواً أم صديقاً ، أن يحرج موقفك ،

« وإذا كنت تقدر أن تثقَ بكلٌ الرجال ، ثم لا تثقُ باحدٍ منهم ثقةً مطلقةً عمياء ،

« وإذا كنت تقدر ان تملأ الدقيقة المارة من حياتك ،

« فان العالم ، وكل ما فيه الآن ، وما هو آت بعد ، سيكون لك . وستكون رجلاً يا ابني » !

كثيرون منا يخالون أن ما يتحدث عنه الشاعر هو فوق طاقة البشر ، ولكننا إذا نظرنا إلى ما حولنا ، وجدنا هذه النماذج من المثل العليا التي رسمها الشاعر لابنه قائمةً حولنا ، وإن لم تجتمع كلُّها في واحد ، كما يريد الشاعر لابنه ، فهي موجودة في كثيرين . إنها كلها تتجه نحو هدف واحد هو الثّبات . وقد قال نابليون : « ان النصر حليف الأشد ثباتاً » . كما قال مونتسكيو : « النجاح في الحياة حليف من يعرف أن يصبر » . وهذا ما يعنيه كبلنغ في مطلع قصيدته لابنه : « إذا كنت تقدر ان تنتظر » . فكثيرون من شبابنا لا يقدرون على الانتظار ، فهم يريدون أن يجمعوا المالَ فورَ نزولهم إلى السوق إذا كانوا تجاراً ، وإلا أقفلوا أبواب مخازنهم ثاني يوم ، وباعوا أثاثها ،

وراحوا يفتشون عن عمل آخر . وإذا كانوا علماء ، يريدون أن يظفروا بالاكتشافات والحلول فور تفكيرهم بها. وإذا كانوا أدباء ، يريدون ان يطيروا إلى القمّة طيراناً .

كثيرة هي الشواهد على الثبات الذي عبّر عنه كبلنغ بالانتظار .

كتب أحد اصحاب المكتبات إلى شاب عهد اليه بادارة فرع جديد : « إذا بذلت كل جهدك ، وصبرت مدة نصف شهر لم تبع فيها كتاباً واحداً ، فإنك ناجحٌ في المستقبل ».

ويقول الشاعر لابنه : « إذا رأيت الأشياء التي خصّصت لها حياتك تندثر ، لا تيأس ، بل استأنف عملها من جديد » . وهذه أيضاً نجد لها أمثلة في التاريخ ، فكارليل ، صاحب تاريخ الثورة الفرنسية ، أعار جاراً له مسودة المجلّد الأول منه ، فتركها ذلك الجار على أرض غرفته ، فلمّتها خادمته على أنها من المهملات واشعلت بها النار . فانقضت هذه النكبة كالصاعقة على رأس كارليل ، ولكنه بدلاً من ان ينثني عن عزمه أكبّ على مراجعة المئات من المؤلفات الخطيرة ، ومن مخطوطاته واعاد في شهور ما احرق في بضع دقائق .

واديسون ، العالم الطبيعي ، أمضى سنتين طائفاً في غابات اميركا يصور الطيور التي فيها. ولما عاد وضع تلك

الرسوم في صنـدوق ثم غاب عنه مدة ، ولما فتحه وجـد الجرذان قد اتلفت تلك الرسوم ، فتشدد بدلاً من ان يقنط وييأس ، وراح يطوف ثانية في تلك الغابات مستأنفاً عمل رسومه ، فجاءت خيراً من الأولى .

أما الذين جمعوا كل ما ربحوه وخاطروا به فخسروه، ثم بدأوا من جديد بلا تذمر ولا شكوى ، فهؤلاء نجدهم في اسواق العالم الكبرى ، وإنهم ليستحقون التمجيد .

والكتّاب الذين لم تصادف تآليفهم الأولى نجاحاً ، بل اعادها اليهم الناشرون مع الشكر ، او استقبـل النظارة تمثيلياتهم بالصفير، ولكنهم ثبتوا بعناد واصرار حتى بلغوا ما يشتهون ، فحسبنا ان نذكر منهم برنارد شو الذي ظل ثابتاً حتى بلـغ أخيراً ما تمنّـى وأحلّـه اجتهاده المـكان الأسمى .

فالثبات هو الذي حضّ كبلنغ ابنه عليـه ليكون ذاك الرجل ، والخصال التي ذكرهـا في قصيدته ، وإن اختلفت تعبيراً ، فهي تقريباً واحدة ، ولا شك في انها درجات سلم النجاح في الحياة .

ان الحياةَ ميدانُ كفاحٍ او حقـلُ تجارب ، والعمر ساحتها ، فلا تقل : ماذا بقي من العمر . فالشاعر يحث ابنه على ملء الدقيقة الحاضرة من حياته .

فاذا كنت، يا أخي ، قد اكتهلت او شخت، فلا تقل: فلنسترح قليلاً. فمن يدري انك لا تعمل في العام أو الشهر او اليوم الباقي ما لم تعمله في حياتك كلها ؟

إن الحزم يقتضينا المحافظة على الباقي من حياتنا . فعام حافل بالجد والكد قد يكون أجدى من حياة صرفناها بين الإحجام والإقدام .

ان البطل الأمين يقبض على العلم بفكيه اذا فقد يديه ، فلنكن ذلك الرجل الذي تمنى شاعر الامبراطورية العظيم ان يراه في ابنه .

كوافيرنا

يطالبنا نفر غير قليـل بالعودة الى معالجة الشؤون الاجتماعية الاخلاقيـة الـتي هجرناها مدة ، مع أنها اولى بعنايتنا لأنها حجر الزاوية في صرح المجتمـع . فالاصلاح الجذري الذي ننشده ونتغنـى بـه دربه من هنا . فـاذا استصرخنا الضمير الانساني وايقظناه ، أمسى الإصلاح ممكناً ، وإلا فلا أمل ولا رجاء .

ان ضميرنا السياسي مخدر لا يحس ولو ثقبناه بمسار ... وقلمنا كلّ وجفّ ، فلم يعـد يؤثّر بهذه الجلود المتمسحة.

قالوا : « الحياء بالنظر » ، واصحابنا يرون الشذوذ العنيف كأنهم يرون القاعدة المثلى التي ما ضلّ صاحبها ولا غوى . لا يتورّعون عن وضع القوانين طبقاً لاشخاص معيّنين ، حتى اذا ما اجلسوهم في حضن ابراهيم ، او هووا بهم الى اسفل سافلين ، عادت تلك القوانين الى قواعدها بعد ان قوّضتْ ما قوضت ودكّت ما دكّت .

اجتهادات وحيل على القانون تجعل الأسود أبيض ، والصيف شتاء ، على سطح واحد . إن صاحب الحق عندنا مقهور . ومن منا يجهل من يقهره ؟

تقهره الوسائط والشفاعات التي لا يترفّع عنها أحد من أصحاب النفوذ ، فالتجىء إلى من يشد ازرك من رؤساء دين ودنيا ، واحمل منهم كتباً ووصايا تشهد ببراءتك تَفُزْ غصباً عن رقبة القانون ، ولإرضاء هؤلاء المتاجرين باسمه تعالى تكون الدولة كبش المحرقة، كما يكونون هم تيس الخطيّة ، ومن يتمسح بهم يبرأ من ذنوبه وخطاياه...

شهادات زور يؤدونها وهم لا يعرفون شيئاً من أسرار القضايا التي يتدخلون بها ، غير مبالين بالشكوك التي أتت وتاتي على يدهم ...

كانوا يقولون : « ألسنة الخلق اقلام الحق »، والاصح اليوم ان نقول : « افلام الحق »،لان التمثيليات التي تعرض على مسرح العدالة خدّاعة كذّابة. ولعل هذا هو الذي حمل شبلي الشميل ، الفيلسوف الاجتماعي اللبناني على القول : « رأيت الغني الشبعان يبلع الجمل ولا يتستر ، والفقير الجوعان يتلصص لسرقة الرغيف الأسمر ،والقانون يكافىء ذاك برفع القبعات ، ويعاقب هذا بالسجن سنوات » ...

كما قال جبران في مواكبه :

فالسجنُ والموتُ للجانين ان صغروا
والمجدُ والفخرُ والإثراءُ إن كبروا

أجل هذا هو واقع الحال. فسارق مئات الوف الليرات يتنقّل كالطاووس من بنك الى بنك يتفقّد ودائعه، ويمشي في الأرض مرحاً ، وسارق الاثني عشر الف ليرة تزعج انفسنا لنقبض عليه في مصر والسودان ونعيده مكبلاً بالحديد ...

وماذا تريد منا أن نقول بعد هذه الصراحة كلها ؟

ولكن هل من يسمع ؟ هل من يستحي ؟

إن السارق الصغير أقلّ من حمار، لأنه لا يستطيع أن يطير برزقه ، ولا أن ينقذ نفسه . فميزانيته ضعيفة ، لا يستطيع أن يُنفق منها ما تُشترى به الضمائر . اما أبطال الصناديق والخزنات، ففي مكنتهم أن يرضوا ويسترضوا، فتخرج « الدعوى » من باب شرقي ، والعدالة لا تزال قاعدة في قاعة الانتظار ، تندب حظها وسوء مصيرها ...

لقد خاب الأمل بمن رجونا عدالةً على يدهم . لقد استعجلنا الحكم عليهم، فهلّلنا وكبّرنا ولم نتعلم من الدرس الذي ألقته علينا الأيام . لم نتمهّل حتى نرى ما يكون من صدق الآية : « اعداءُ الرجلِ اهلُ بيته » .

عفواً ، لقد شطّ القلم ورحنا نشكو من الألم ، مع أننا قلنا فيما مضى إننا سئمنا تحديث من لهم آذان ولا يسمعون، ولهم اعين ولا يبصرون ، ومن اصلك عوجا يا عوجا .

كنا تقول فيما مضى : «عوجا من اسطمبول»، اما اليوم فاسطمبول صارت عندنا ...

أرأيتني كيف احاول الخروج من ذاك الموضوع ؟ من كلام لا فائدة منه ؟ فلنعالج إذن آفة من آفاتنا الاجتماعية، ونصبّ عليها سخطنا .

ان هذا الكذب الذي نسميه وعداً لهو شر آفاتنا الشرقية . فالشرقي أسرع ما يكون الى « نعم » ، وأبعد ما يكون عن الوفاء بوعده .

ان كلمة «تكرم» على رأس لساننا، ولكنها كلمة مقولة لا خير يرجى منها .

قال الله في كتابه العزيز : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين»؟قال هذا ليحثنا على الصدق والوفاء بالوعد،ولكن الانسان كان كنوداً . والمثل العربي كما ورد في مقامات الحريري :« أنجزَ حرٌ ما وعد ، وسحّ خالٌ إن رَعَد» ، يرينا ما للوعد من شأن عظيم في مسير الحياة . فالوعد هو تلك القطرة الدرية التي تتعهد زهور الأماني فتفترّ ثغورها ، وهو روح محيية تبعث ميت الأمل الشاوي في

الصدور . فكم أحيت من نفوس خنقهـا اليأس ، أو كاد يدفنها في غيابات قبور القنوط. وكم لمّت من أشتات امان لعبت بها رياح الخيبة والفشل ، فبددتها كما تتبـدد اوراق الخريف في يوم عاصف .

إن الوعد هو ذلك الوثاق المحـكم الفتـل الذي يربط الواعـد بالمـوعود ، والحجة الـتي يخطّـها لسان الكريم ، ويـسجّـلها بمحكمة الشرف والشهامة ، فيصبح الوفاء بهـا واجباً عليه .

وما الوعد غير كلمة بسيطة يلفظها الانسان ، فتكون قبل النطق بها نافلة ، ثم تصبح بعد ذلك فرضاً ، من فاته قضاؤه فاته من الشهامة والكرامة شيء كثير . وقد كانت العرب تَـعدّ الرجل ساقطاً دنيئاً إذا خلف بوعده . وإنه لكذلك، وذاك لأنه يكون مخيّـراً في تقييد نفسه بهذا القيد الذي لا تفكه غير يد الوفـاء والصدق . وقـد قال شاعر العرب :

إذا قلتَ في شيء : « نعم » فأتمّـه
لأن نعـم دينٌ على الحرّ واجبُ
وإلا فقلْ : «لا» تسترحْ وتُرحْ بها
لئلاّ يقـول النـاسُ إنك كاذبُ

والمثل يقول أيضاً : « وعـد الحر دين » . نعم ، انه

اكبر الديون . ومن قضى هذا الدين سما وارتفع ، لأنه يقضي بذلك واجبات الانسانية ، ويصون مقامه وكرامته .

والرجل الرجل هو من نظر وافتكر فيما وراء قوله : « ساصنع كذا » . حتى إذا تأكد أنه مستطيع ، وَعَدَ على نية الوفاء، وإلا فلِمَ يضع هذا الغلّ في عنقه ويُحمّل نفسه أثقال المطالبة ، فيتوارى خجلاً وحياء عند مرأى الموعود ؟ إن الوعد الكموني شين للكرام ، وقد وبخ بشار ابن برد ممدوحه بقوله :

وعدتَ فلمْ تَصدقْ وقلت : غداً غدا
كما وُعِدَ الكمونُ شرباً مؤخرا

وهذا المثل العباسي لا يزال على ألسنتنا فنقول : « اسقيك بالوعد يا كمون » !

وأولى الناس بوفاء الوعد هم الرجال، لأنهم إذا تقاعسوا عن وفاء وعودهم حطوا من كرامتهم، وجنوا على نفوسهم، واستمطروا عليها دعاء الخائب الذي قيدوه بخيط الرجاء الواهي ، وتركوه مدلّى فوق جب من اليأس ، تقلّبه رياح المطل كيفما مالت ، حتى اذا ما قطعته ، سقط ذاك المسكين في هوة الخيبة لاعناً من زيّن له الأماني .

من منا لا يذكر كافوراً الاخشيدي والمتنبي الشاعر

الشعر العربي لكان هو بيته :

فجاءت به إنسانَ عينِ زمانه
وخلّت بياضاً خلفها ومآقيا

ولما تقلّص شبح الرجاء وتوارى ، ولم يرجع الشاعر الهائم بحب الولاية ملكاً للعراقين ، عاد فهجا كافوراً هجاء مراً ، وذلك بعد ما يئس من نيل تلك الوعود الطويلة العريضة التي أسكرته سورتها وجعلته يحلم بالأماني فيطيعه الشعر . وانقضت تلك الهجمة الطويلة وتبددت احلام الشاعر الذهبية ، فراح يعيّر الرجل بسواده الذي تخيله مسكاً حين منّاه . ولما ذهبت غشاوة الأماني عن عين الشاعر ، لم يرَ في كافور إلا ماضيه القاتم فقال فيه :

لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معهُ
إن العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

صدقت ، يا أيها الشاعر ! وهذا جزاء من يُخلف الوعد . يا ليت لنا لسانك لنهجو « كوافيرنا » الذين يشيّدون لنا قصوراً شاهقة من الوعد ، ولكنها مبنية على رمال الغايات ، ودون الوصول اليها عقبات من المطل والإخلاف لا تُمهّد .

فما اكثر وعود ناسنا وأقل انجازها . يعدون ولا

يضربون للوفاء أجلا مسمى . ولكنهم يأخذون يتقاذفون الموعود من حين إلى حين . ويكثر عندهم في هذا المجال استعمال السين وسوف ، وينوّرون ظلمة وعودهم بكهرباء الآمال ، فيأتي الموعود عند كل أجل يقذفه تيار الرجاء بنيل المرام، ولكنه يعود من حيث أتى ظافراً بالتسويف. وهكذا يظلّ يجيء ويروح معلّلاً نفسه بالفوز ، وهيهات أن ينال مراماً .

يجرّعونه من المطل كؤوساً أمرّ من العلقم. يفوز منهم بحلو الكلام ، وينام على فراش من ريش النعام ، ولكن يقظته تذهب بحلاوة الأحلام . ولطالما ذابت روح بهاء الدين زهير اللطيفة، وتشكّى فؤاده الرقيق آلام المطل حتى انشد هذه الأبيات التي ترسم لنا صورة كل موعود وما يقاسيه من اوجاع الخلف . قال :

قد طالَ في الوعد الأمدْ
والحرُّ يُنجزُ ما وعَدْ
فوعدتني يومَ الخميس
ولا الخميس ولا الأحدْ
وإذا اقتضيتك لم تزدْ
عن قول : إي والله غدْ

فاعدْ أيامـــاً تمــرْ

وقد ضجرتُ من العـــددْ

وقد سمعنا أبا فراس يناجي ليـلاه ، بعد ما أعيـاه الصبر ، قائلاً :

معلّـلتي بالوصــل والموتُ دونه

إذا متُّ ظمآناً فــلا نزل القطرُ

نعم ، أيها الشعراء ، قد اصبتم . ولكن قلّ من يـُعير اقوالـكم آذاناً صاغية ، بل قلّ من يسمع لواجب الوفــاء نداءه، وللموعود انيناً يتصاعد من وراء جدران الحسرات الغليظة . لقد اصبح قومنا يتركون من يعدونه مطروحاً على حضيض الاصطبار متقلباً على شوك الانتظار ، يقاسي مضض الوعد ويتنازعه عاملا اليأس والرجاء. فما أحراكم، أيها الرجال ، بأن تدققوا في وعودكم وتضعوا حداً لها . ألا تعلمون أن العار عليـكم إذا سوّفتم وما وفيتم ، وليس إذا قلتم : « صنعنا ما قدرنا عليه ولم نقدر » ، فيعود الرجل شاكراً ملتجئـاً إلى سواكم ويتدبر أمره ، والله لا يترك احداً .

ومـا أحرى ذلـك الرجــل الذي يمـلأ الدنيـا وعوداً عرقوبية أن يصنعَ ما يريد صنعه من دون أن يمنّـي الناس بوعوده التي أرادها دليلاً على مروءتـه ، فـاذا بهـا تنقلب

شهوداً على انحطاطه إذ يُخلف وعدَه . فكم من الذين عادوا اصحابهم لأجل كلمة « نعم » التي كانت تنوب عنها كلمة «لا»،ولكنهم قصدوا بها توثيق عرى الصداقة والمحبة، فخاب ظنهم . لا شك في أنها توطّد أركان الالفة إذا وفى الواعد ، ولكنه إذا أخلف فلا يرى غير صدور تتقد فيها نار البغض والحقد عليه ، وقد قال المثل : « وعد بلا وفاء عداوة بلا سبب » . وما أجمل قولهم : « الكريم هو الذي إذا قال فعل » .

ومن يحاول صنع جميل مع رجل فلا يليق به أن يحمّله من اثقال الصبر جبالاً،بل عليه ان يقضي له حاجته فوراً، أو يضرب أجلاً للوفاء بوعده ، ولا يعلّله بكلمة : « رح وتعال » ، ويظل يمنّيه هكذا حتى يوم القيامة .

ويا ليت قومنا يفكّرون بما تجرّه عليهم كلمة « نعم » قبل أن يطلقوا سراحها ، لأنها ، وإن تكن في أوّل عهدها أسيرة سجن الفم، فلا تعتّم أن تصيرَ حاكمةً على الكريم ، إن رقدَ في الظلام تخيّلها مسطّرة باحرف نارية على حيطان غرفته،وتزداد كبراً متهددة تلك الغرفة بالاحتراق إذا لم يطفئها بماء الوفاء . وخير الناس من أنجز وعدَه ولم يترك لأحد مجالاً ليردد على مسامعه: « أنا الغنيّ وأموالي المواعيد » .

كان القدماء يقولون : « وعدناه فلا بد من الوفاء » .
اما اليوم فيقال : « قذفناه ... »

نعم ، يا سيدي قذفته ، أحسن الله حاله ، ولقاك المخلفين الكذابين لياخذوا بثاره منك .

ألا تعلم ما قيل : « وعد الكريم نقد وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتعليل ؟» فكيف رضيت أن تكون لئيماً ؟

ألم تسمع أيضاً : « العذر الجميل خير من المطل الطويل ؟ »

فلماذا لم تعتذر ؟

التقيت رجلاً من أبطال المعارك الانتخابية ، وزعماء السياسة القروية فسألته عن ابنه ، تلميذي ، ماذا يعمل ، فابتسم وقال : « موعودين » . وتكرر لقاؤنا وكرّرنا السؤال فظل الجواب كما كان. وقد شبّ الفتى وشاب ، ولم يدخل الكتّاب ليجلس على كرسي موسى ...

عثمان ومعاوية وأبو ذر

«وفي الماضي لمن بقي اعتبارُ». هكذا قال أبو الطيب، ومــا أجمل ما رواه المخزومي عن الافغــاني ، عن السلف الصالح ، هدانا الله الى سواء سبيله ، قال :

أتت عمر بن الخطاب الأنباء ممن أقامه «رقيباً» على سير وسيرة عمــاله ، بأن عامــل مصر ، عمرو بن العاص ، وعامل دمشق ، معاوية بن أبي سفيان ، قد بدا عليهما البذخ والثراء ، وهما الخادمان للجموع ، وانهما يصرفان سلطان الحكم ونفوذه بغير وجوه الحق . فخاف الفاروق أن ينفر المسلمون من حكامهم ، فأسرع لسد ذلك الخلل فكتب الى ابن العاص غاضباً :

« الى العاصي ابن العاصي . ما اقطعتك مصرَ طعمةً لك ولقومك ، ومتى كان ابن العاص في مثل ما بلغني عنه من ثراء ودور وقصور ؟ »

وبمثل هذا الكلام الخشن خاطب معاوية مهدداً . ثم لم

يكتف بما كتب ، ولم يسأل : « من أين لكما هذا ؟ » لأن هذه العبارة لم تكن رائجة في تلك الأيام، بل أرسل معتمداً من قبله ، وأمره ان يشاطر كل عامل مقتناه من ثروة ومتاع . ففعل المعتمد ما أمره به سيده . حتى أنه أخذ فردة نعل ابن العاص وترك له الأخرى .

وآلت الخلافة الى عثمان بن عفان ، فتغيّرت الحالة الروحية في الأمة تغييراً محسوساً ، فبطر العمال والأمراء، وأثرى دوو القربى من الخليفة . وقصّر « المجاهدون » ، مع جريهم وسعيهم وراء تدارك معاشهم ، عن اللحاق بالمنتمين الى رجال الدولة القابضين على مفاتيح بيت المال... فتكونت من جراء ذلك طبقة أخذت تتحسس بشيء من الظلم ، وتتحفّز للمطالبة بالحق الماكول .

وكان الصحابي الجليل ابو ذر الغفّاري أول من تنبّه لهذا الخطر الذي يتهدّد الخلافة ، فجاء الى معاوية بن أبي سفيان،وخاطبه بتقليل دواعي السرف والترف،وبوجوب الرجوع الى سيرة السلف ، وعدم التمادي في مسببات الحسد .

فأجابه معاوية : يا أبا ذر ، ان ما تقوله هو الحق ، ولكن ليس في استطاعتي الرجوع الى سيرة الصّديق والفاروق وسيرهما ، وغاية ما في امكاني الحثّ على بذل

الصدقات ، والقول الليّـن ارشاداً ، وعن طريق الوعظ لتخفيف دواعي الحسد .

قال ابو ذر : يا معاوية، قد نصحتك والدين النصيحة. فاحذر انت والخليفة عثمان مغبة ما انتما عليه . وذهب من مجلس معاوية مغاضباً .

ولـكي يسترضيه معاوية بعث اليه ليلاً ، بألف دينار ، فقبلها ابو ذر ، وفرقها في الحال على المعوزين .

وفي ثاني يوم أرجع معـاوية الرسول الى أبي ذر ليقول له : إن الألف دينار لم ترسلْ اليك ، وإنما غلطت أنا ، واني أخشى عذاب معاوية .

فقـال له ابو ذر : والله لم يبقَ معي من دنانير معـاوية ولا دينار .

وضاق معاوية ذرعاً بأبي ذر فاستجار بالخليفة عثمان ، فامره هذا بارسال أبي ذر اليه فارسله . ولما تقابل ابو ذر وعثمان لم يسمع منه أكثر مما سمع من معاوية ، فقال ابو ذر: يا عثمان ، أما تذكر حديث رسول الله ؟ ومعناه : اذا وصل البناء الى سلع ... واستعلى في المدينة .. وجبت الهجرة . فها قد استعلى بناؤك ، وبناء قريبك معاوية واعوانكما ، فاستودعـك الله ، تاركاً لـك ولمن استعملت من العمـال « اعمالكم » ، والله من ورائكم محيط .

فالحّ عثمان على ابي ذر ان لا يفعل . فقال ابو ذر : ان رسول الله أولى ان يُتبع .

وبالفعل قد هاجر هذا الصحابي الجليل من المدينة... حتى لا يرى المال الحرام يرتفع قباباً وقصوراً ، ويستحيل جنائن غلباء ، ودارات مربعة وقوراء ، وخيولاً عليها البراذع المفضضة ، وسيوفاً تنام في أغماد ذهبية استرقت لونها الأصفر من وجوه الرعية اليائسة .

أوانسنا وعوانسنا

دُعيتُ فلبّيت ، فاذا انا في بيت ينطح الجو ، تضيع في بهوه الضيوف مهما كثرت ، وغرف رحيبة يضاحك بعضها بعضاً عن بعد. وقبل أن نبلغ المقام، استقبلنا السيد والسيدة وعرّفانا بأولادهم ، فاذا هم خمس بنات لهن أخٌ واحد . فقلت في قلبي : « صبّر الله قلب هذا الرجل ، فمن أين يفبرك لهؤلاء الشابّات عرساناً ؟ ومن يجرؤ أن يتقدم ، اذا لم يكن قادراً على هذا الحمل الذي يقطع الظهر ، فهن لا يرضيهن إلا السري الأمثل ، والمثري كأبيهن ، وهؤلاء قلائل » .

وجلسنا ، وجلس معي ، في زاوية قصية من الدار ، واحد عرفني وما عرفته، فشقّ الحديث بدون كلفة وقال : « كيف رأيت هؤلاء العرائس ؟ »

فقلت : وهل حسبتني أفتش عن عروس ؟ انا ارمل دهر لا شهر ، كما قال العوام .

فأجاب : ان لم تكن لك فعندك اولاد ، تفرح منهم ان شاء الله .

فقلت : الذي هو مثلنا يصلّي لربه صباح مساء : « اعطنا خبزنا كفاف يومنا » ، ويعيش على رجاء قيامة عرق جبينه الذي يقبره في تراب الأرض ، لا يخاطر بحياته وحياة بنات الناس ...

فقال : وأية مخاطرة ؟ كل واحدة منهن معها مليون .

فقلت : لا توجع قلبي بحديث الملايين ، فذات المليون تنفق بلا حساب ، ومن ينفق بلا حساب لا يعلم مصيره إلا الله . فليتزوجها من يريد ان يكون خادماً لها ، ولمليونها .

وجاءنا ثالث فقطعنا الحديث ، وقضينا السهرة في أحاديث تناسب المقام .

لا حاجة الى وصف كرم المضيف ولطفه وبشاشة عقيلته ، وتكلّف بناته الظهور بمظهر النبل المبجّل، وإن دلّت حركاتهن على ان اباهن من الأوادم الطازة ... ثم انصرفنا وكلنا ألسنة شكر على كرم البيت ، وتحدثنا عن الثروات المفاجئة التي تنبت كالكمأة في السنين اللاغة ، فبينما أحدهم كان يشتهي العضة بالرغيف ، إذا به يعوم في المحيط الأطلسي ...

وبعد سنين التقيت بجليسي في تلك السهرة ، فذكرني

بها ، فقلت له : والبنات ؟

فأجاب : هن في البيت .

فقلت : بيتهن أستر لهن . ومن يجرؤ على اقتحام هذا الحصن المنيع ؟ فالبيت الذي يستقبل هاتيك التصاوير الزيتية الناصعة الدهان يجب ان يكون كاتدرائية ...

قال الأخطل في خمرته القديمة العهد :

عذراء قد كَلفتْ من طول ما حُبستْ

حتى اشتراها عباديٌ بدينارِ

أما العانس فلا تجد من يشتريها بفلسين ... لقد اغلوا السعر في أيام العز ورواج السوق ، فبقيت البضاعة في واجهاتها وعلى رفوفها تنتظر من يسومها . وهكذا تحفل البيوت بالعوانس ، ولا أمرّ من عيشة بنت تعنس وتبقى في بيت أبيها . فمن المسؤول يا ترى عن هذه النكبة الاجتماعية ؟

إنها تربيتنا . فالبنت التي هي من هذه الطبقة لا تعرف من البيت غير غرفتها والصالون . ولا تدخل المطبخ لئلا تؤذي رائحة الطعام عطرها المختار ، ويعلق شيء منه بذيولها . ثم من أين لها الوقت ، وهي لا تستيقظ إلا في الضحى ، ولا تخرج من غرفة زينتها إلا صلاة الظهر ، ثم تتغدى وتنام لتعود الى التزيّن مساء ، ثم تنتظر لأنها على

موعد مع أترابها للتسلّي بدق بريدج ثم يأتي العشاء والسهرة الراقصة ، أو الذهاب الى السينما .

وبعد السينما يدور لعب البوكر حتى مطلع الفجر ، فكل لياليهن ليالي قَدْر (بعيد الشبه) .

ومن يرى هذه المشاهد ، كيف تحمله رجله أو يتجرأ على دخول هذه البروج الحصينة ؟

وإذا رأيت في يد البنت كتاباً ، فلا يكون إلاّ رواية غرامية من العيار الثقيل، فكانها خريج كلية حقوق يعمل « الستاج » .

وهب أنه تقدّم لخطيتها شاب أعمى القلب لا يقـدّر العواقب ، فهناك البلاء وشروط المسكوب على السلطان :

سيارة كاديلاك موديل السنة الحالية ، وشوفير مثل يلور سلاطين بني عثمان، وماشطات،وطاهيات،وغاسلات، وألف ضربة سخنة ، في قصر من قصور ألف ليلة وليلة .

وقبل ان تكرر الزيارة ، لا بد من الإقدام على الخطبة، إذا ملأت عينها . وما هي الخطبة ؟

خاتم برلنتي ، « سوليتير » لا تقـلّ حبته عن عشرة قراريط ، وقرط مشلشل بالألماس،وعلبة تواليت تستحضر من باريس ، وغـير ذلـك من التحـف وليس على الكريم شرط ...

وإذا تم النصيب ، فلحفلة الإكليل شروط ، فبنت فلان ليست أحسن منها.كان في عرسها الحكام والصحفيون ومعهم المصورون ، وكلّلها صاحب الغبطة وعلى رأسه التاج المرصّع ، وفي يده العكاز الذهبي ، وكان شهود عقد الزواج فلان وزوجة فلان ، فهي لا ترضى أقل من ذلك .

أما العرس فلا تكون حفلته إلا منقطعة النظير تذكر بحفلة زواج المأمون من بنت بوران. يجب أن تكون الهديّة لكلّ مدعو في علبة من الفضة الخالصة ، والشرط الأول ألاّ يذهب أحد من المدعوين بلا علبة لئلا تحكي الناس بحقّنا ..

بقيت ثياب العرس ، فهذه يجب أن تصنع في باريس ، وتكون من أنفس قماش وأحدث موديل ، ويجب أن ترى هي تصميم الزي ، وإذا اقتضى أن تسافر الى باريس فلا مانع .

عفواً ، نسينا فرش البيت . فالسجاد العجمي تحصيل حاصل، ولكن القياس ... كل غرفة وسجادتها على قدّها ، وكذلك الدار والمائدة ... أما الموبيليا فعلى العريس أن لا يبقي شيئاً عتيقاً في بيته، بل يجب أن يكون كله «مودرن» وينظمه مهندس مختص.ثم لا يشتري إلا أغلى ما في السوق ، وإن كان من طبقة عليا ، فعليه أن يوصي عليها في أوروبا

حتى لا يكون لها نظير في البلد .

هذا ما تطلبه البنت . وإذا كانت مفتحة العينين ، أو من اللواتي منّ الله عليهن بشيء من الرحمة والحياء، فهناك أمها . إذا رضيت البنت فأمها لا ترضى . تعلمها الدرس اللازم يومياً : « خذي حذرك ، لا تقبلي بانقاص شيء مما ذكرته لك » . تلقي عليها المحاضرات ليل نهار ، خوفاً من أن تنسى شيئاً . وإذا قبلت البنت بعرس مختصر مفيد ، ولم تسخُ نفسها عن مال يذهب هدراً في يوم عرس ، فالأقارب والجيران والأصحاب والمعارف لا يرضون عن الاختصار . وهكذا يصح قول المثل : « لا عرس بدون قرص » . وإذا لم يسمعوا الكلمة وجّهوا قائلين : « عيب عليكم ! بنت فلان ما هي أحسن من بنتكم وأبوها ليس أغنى منكم ، وعريسها دون عريسكم ، ومع ذلك عملوا لها عرساً غنّى له الحادي بالوادي » .

أما شهر العسل ، فحسابه في رأس القائمة ، وقد يليه شهر دبس ...

حقاً ان مشكلة الزواج من أعقد مشاكل هذا العصر . فالشاب يراه قيداً ثقيلاً، فيتهرّب منه ما استطاع ، ويظل يماطل فيه ويؤجّل حتى يلمّ برأسه الشيب ، ذاك الضيف غير المحتشم . وإذ ذاك يفتش عن أنثى تلمّه ، بل فلنقل

عن ممرضة ..

والفتاة في تشدّدها وفحصها العريس بالمكروسكوب: هذا طويل وهذا قصير ، وهـذا أسود وهذا أبيض ، وهذا غني ولكنه غير متعلم، وهذا متعلم ولكنه فقير، فاذا مرض فماذا يحل بنا ؟ تحل بها قاصمة الظهر وتبقى عالة على بيت أبيها .

ان هذا التشدد وتلك المطالب تعرقل السير . فاتـكلوا على الله ، لا على ثروة العريس ولا على مال العروس ، تأملوا بالطيور ، كما قال المسيح ، فهي لا تزرع ولا تحصد وأبوكم السماوي يقيتها .

مـا رأيت في حياتي حيواناً مهموما ، ولا رأيت بهيمة ماتت من الجوع . ان الاتـكال على الثروات يهدم اللذات ، والهمّ مرض من ليس به مرض .

ان تربيتنا الناعمة لبناتنا هي سبب بقائهن في البيت . نخاف على أيديهن الرخصـة ان يخشن ملمسها ، فـلا ندعهن يعمـلن عمـلاً ، فيدخـلن بيوت النـاس كأنهن غريبات لم يسمعن قط بشؤون البيت ، فلا طبخ ولا نفخ ، ولا نذكر التنظيف بأيـديهن لأن هـذا يسقطهن من عـين من يراهن يكنسن أو يغسلن أو يشطفن أو يطبخن .

قيل لي إن أغنياء الألمان كانوا يتبادلون بناتهم ليعوّدوهن

على العمل البيتي كلّه . فبنتك تخدم في بيتي ، وبنتي تخـدم في بيتـك ، ومتى اتقنت كلٌ منهما العمـل تعـود الى بيت أبيها ، حتى إذا تزوجت تصلح ان تكون ربّة بيت ، ولا يصح فيها قول الشاعر الشعبي ، عمر الزعني :

بيضه ما بتعرف تقلي   شاطره بتركيب المقلي

ان تربيتنا من هذه الناحيـة ناقصة . فالرجل عنـدنا يكون عنده دزينة بنات ويستعين بالخادمات ، لأن الشغل في نظرنا عيب ، ولا يليق ببنات البيت الشبعان . قلما تجد في اميركا خادمات ملازمات البيوت كما هي الحالة عنـدنا . فالخادمة تأتيك ساعة زمان ، وفي وقت معـــين ، فكأنها استاذ في جامعة يوزع ساعاته هنا وهناك .

حدثني صديقي الاستاذ محيي الدين النصولي انه ضاف بروفسوراً فرآه يعـاون زوجتـه في غسل الصحون ولا خادم عنده .

زرت يافا منذ ثلاثـين عاماً ، سنة ١٩٢٧ ، فدعـاني تلاميذي لرؤية تل أبيب ، ودخلنا أكبر مقاهيها ، فـاذا سعر فنجان الشاي عشرة غروش فلسطينية، ولكن المقهى خال من البشر ليس فيه أحد غيرنا ، فسألت لماذا ، فأخذ بيدي تلميذي سهيل النـابلسي وأراني جموعـاً لا تحصى قاعدين على الرمل،وبعضهم معهم كراسي، وكلهم يصنعون

شايهم بأيديهم ، وبناتهم ونساؤهم قائمات على خدمتهم حتى إذا انتهى التجهيز قعدوا جميعاً يشربون ويأكلون .

قال سهيل : العائلة الكاملة منهم تدفع نصف قرش رسم بلدية، وفي عمرهم كله ما دخلوا هذا المكان لانه غال .

وفي سنة ١٩٠٨ دُعينا إلى حفلة تدشين مدرسة في وادي شحرور كان يترأسها قنصل إيطاليا في ذلك الزمان، فرأيت الحاضرات من نسائنا يلبسن أغلى الثياب وأثمن الحلي ، والأحذية اللماعة التي كعبها محط كف ، بينما زوجة القنصل الآتية لزيارة رسمية في بلد غريب كانت تلبس فسطاناً من « الساتان » وسكربينة لا كعب لها إلا قليلاً ، وليس في معصمها ولا أذنها شيء من الحلى .

أجل نحن نتنافس في كل شيء ثم نشكو الضائقة المالية . فلو ربّينا بناتنا كما يربي القوم بناتهم لكانت لنا عائلة مقدسة لا تحملنا احمالاً ثقيلة ، ولما بقي في بيوتنا بنات يكنّ حملاً ثقيلاً على اخوتهن .

مسكينات هنّ العوانس . إن تفكيرهن بآخرتهن يرعبهن ، ولو كنّ ممن يعملن ويأكلن خبزهن بعرق جبينهن ، لأن هذا العرق لا بدّ من ان ينضب ، وهناك يكون البكاء وصريف الاسنان .

فلا تغترّي ، ايتها الآنسة ، بعلمك ولا بمالك ، فلا

يخفف من اهوال الشيخوخة وفزعها إلا الزوج والبنون .

من التي لا تذكر منكن ميتة الكاتبة الشهيرة مي؟

أما ماتت من الكمد ولم يعلم بها احد ؟

تعلمي ايتها الآنسة لتحسني عملك البيتي، لا لتستلقي على الصفة او تضعي رجلاً على رجل . فهذا الكسل والفتور لا يحسن ببنات اليوم ، وإن رآه الاعشى من مغريات صاحبته هريرة حتى قال فيها :

يكاد يقعدها ، لولا تشدُّدها

إذا تقومُ إلى جاراتها،الكسل

فهذا الكسل غير مرغوب فيه في عصر السرعة بل في عصر الذرة . فنحن أحوج إلى ذرّة نشاط منك لنماشي أمم الأرض . ان جسماً اجتماعياً نصفه لا يعمل ، هو جسم مشلول.الحمد لله على اننا استيقظنا من نومة أهل الكهف ولم نعد نقول :

كُتب الحربُ والقتالُ علينا

وعلى الغانياتِ جرُّ الذيولِ

وأخيراً شكراً للآنسة مادلين ن . التي أوحت إليَّ رسالتها هذا الموضوع . اما قولها :« إن خطبة شباب اليوم لتقطيع الوقت والتسلية » . فجوابه : « خذي حذرك . لا تدعيه يتسلّى . فتطويل الخطبة مثل تطويل الحبل .

فقصريه ما استطعت وإلا فلومك على نفسك » .

حاشية : وإذا جاءك خاطبٌ فـلا تتعنتي . اطلبي السترة يا بنتي . اطلبي الحب أولاً ، وتشبّـهي ، انت الآنسة المثقفة ، حاملة الليسانس ، بتلك البدوية التي قالت :

ولبسُ عبـاءةٍ وتَقرَّ عيـني

أحبّ إليّ من لبسِ الشفوفِ

اطلبي قرّة العين ، يا نور العين . والسلام عليـك ورحمة الله .

بمناسبة العام الجديد

كل عام وانتم بخير .

وبعد ، فقد تعودنا ان نودع كل رائح ، ونستقبل كل آت حتى من الاعوام. ولكتابنا وشعرائنا بدائع وطرائف في هذا الموضوع. فالفائت، وخصوصاً من السنين ، حبيب قلب ابن آدم . إنه يرى الخير كله في القديم على اطلاقه ، وإن لم يكن شيئاً مذكوراً. على ألسنتنا يدور الترحم على ما فات ، وفي اعيننا تحلو الذكريات ، وما نحنُ في شيخوختنا إلا الى قوة فارقتنا في منتصف طريق العمر ، وآمال اضعناها على درب الأبد . فكأنما استقبالنا لعامنا الجديد بهذه اللهفة دليل على أننا ما كنا نصدق أننا نبلغ هذه المحطة .

لن انشر شراع الخيال ، ولن اقرع طبول الفصاحة في موكب استقبال العام الجديد . فلا تهليل ولا ترحيب ، ولا تمنيات ولا آمال . ان عجلة الزمن لا تنتظر زجري

لتسير ، ولا اياءتي لتقف .

إن تهليلي لها لا يقدم ولا يؤخر . فما فات فات ، وما هو آتٍ آت ، كما قال ابن ساعدة .

إن تمنياتي لا توازي ثقل حبة خردل في ميزان القدر ، فلماذا أتعب نفسي بتعابير فارغة لا تنفعني ولا تنفعكم ؟ ان عبارة « كل عام وأنتم بخير » ، على صغرها وبساطتها ، لهي أحب وأغنى دعاء في هذا المقام ، على شرط ان يكون للبؤساء والمساكين شيء من الخير الذي نتمناه لكم ، يا سادة .

من عادة التجار ان يرصدوا حسابهم في آخر كل عام ، ويعدوا للعام الجديد دفاتر بيضاء ، تحمل في أوّله رصيد العام الماضي من مكسب وخسارة ، فينظر التاجر الى « اليكون » أما بعين مفتوحة واما بقلب مكسور . اننا في زمن انحصرت فيه كل القيم بالصناديق الحديدية . فاذا كان الصندوق متخماً من كثر ما بلع وزلع ، فصاحبه هو ذاك الرجل ، واذا كان الصندوق غير مبشوم ، أحسّ صاحبه أنه دون جاره العائم في بحر من الثروة بعيد القرار .

وفي أميركا يعرفون الرجال بما يملكون من المال ، فاذا سألت عن واحد اجابوك : « فلان يسوى كذا من مئات ألوف الدولارات » ، وهكذا صارت الثروة ميزان القيم ،

فاقتتلنا لننال منها حصة الأسد .

حنانيك ، يا أخي ، لا تنم على وجهك لأن مبلغاً من ميزانيتك مفقود. إن الله سيخلف عليك إن كنت أحسنت بهذا المبلغ الى المساكين ونسيت ان تقيده . لا تدقق في دفتر الصندوق بهذه الشدة والصرامة ، لتعرف اين ذهب ذلك القرش ، ارجوك ، يا سيدي .

عفواً ، أرجوك يا سيد الصندوق ، واتضرع اليك لكي تعيد النظر في دفتر حساباتك لترى فيه مقدار أرقام الاحسان ، وعمل الخير ، وخدمة الانسانية . أنسيت يا أخي انك انسان ؟

مهلاً ، لا تزرع الدنيا أملاً ، ورفقاً ، لا تعدّ الخطط الجهنمية لاقتناص القرش . فأنت في التقدير والله في التدبير . فبدلاً من أن تستقبل عامك الجديد بالدف والعود والمزمار ، وتنفق على السهرات الصارخة ألوفاً ، أخلُ بنفسك هنيهة ، وارفع وجهك الى فوق ، ولو في السنة مرّة . أنسيت ان لك نفساً ؟ أتظل عينك في الأرض دائماً تفتش فيها عن حطامها ؟ بربك قل لي متى تشبع ؟

عند النصارى شيء يقال له « فحص الضمير » ، وهذا ما يعمله المسيحي الممارس كل ليلة ، فيستعرض حسنات النهار وسيئاته . وبعد ان « يقصد » اصلاح نفسه في الغد

ينام مستريحاً . وقد سمعنا الحجاج، على قساوة قلبه ، يقول في احدى خطبه: « امرؤ حاسب نفسه، امرؤ راقب ربه»، فهل فعلت شيئاً من هذا ؟ هل ودعت عامك الذي انسلخ بفحص الضمير ، إن كنت مسيحيا ؟ وهل حاسبت نفسك إن كنت مسلماً ، لترى اذا كنت زكيت مالك ؟

معاذ الله أن أسيء الظن بك، واقول إنه لا يعنيك إلا أن تعرف مقدار ما جمعت ! ومعاذ الله ان اقول ان دفترك ليس فيه للفقير باب « من » .

قل لي ، ماذا أنفقت أمس على الطاولة الخضراء ؟ بل ماذا خسرت زوجتك ؟

ألا تستحي، يا اخي، من أن تلعب واولادك على طاولة واحدة بحجة كشف البخت ؟ أتصدّق الورق الكذّاب ؟ ألا تدري ان صغار الأمور تؤدي الى كبارها؟ فكيف تدفع ولدك إلى هوّة اللعب ؟

قل لي كم كانت تكاليف مادبتك يوم العيد ؟

بحياتك لا تكذب ...

هل خرج من كيسك ثمن رغيف لفقير ؟ هل فكرت باعطاء شيء من ثيابك واحذيتك العتيقة إلى العراة والحفاة من اخوانك الآدميين ، يا آدمي ؟

كم دفعت ، بمناسبة هذا العام ، ثمن لعب وهدايا ؟ وكم

قطعت من الثياب الانيقة لزوجتك وبناتك وبنيك في هذا العيد ؟

ترى من هو أحوج اليها ، أأولادك وأحفادك ، وخزائنهم ملأى بها،أم ابن جارك الحافي العريان الجوعان؟ إنه محتاج الى رغيف ليفك ريقه ويسند قلبه ، والى قطعة من القماش الرخيص يستر بها عورته . وكلب زوجتك المدلل ، جلّ شانك وشانها ، ما ضرّه لو عودته اكل الخبز بدلاً من البسكوت ، وأكل فضلات المطبخ بدلاً من لحم الضان وعلب السمك والدجاج ، ثم أعطيت فضل ما بينهما فقيراً ملهوفاً ياكل الخبز بعينيه ولا يمسه بيديه ؟

الناس ، اليوم ، يلجاون الى التقنين الصارم . فلماذا لا تعوّد ، ولو كلابك ، على هذا ، وتحسن بما توّفره الى أخيك الانسان ؟

انت غني من فضل القدر الأعمى، لا كدك واجتهادك، فلماذا لا تزكي مالك وتزيّن غناك بالاحسان ؟

إن من طالت يدُه بالمواهب تمتد اليه ألسنة المطالب ، وانت تعترف ولا شك بنعمة الله عليك ، فلماذا لا تقضي حقوق المروءة وتفي ديونها عليك ؟

إن البيت الذي لا يخرج منه شيء في سبيل الله ، لا بدّ من تسكير أبوابه إمّا عاجلاً وإمّا آجلاً .

الثمر يُستحلى في أوانه ، والشيء يحسن في إبّانه .
وهذا موسم الإحسان ، يا صديق الدينار ، لا تُقسِ قلبك فيقسو قلب الله عليك ، فهو حين أنعم عليك كأنه اختارك دون غيرك قيّماً على البؤساء والمساكين ، فإن كنت لم تقم بهذا الواجب أمس فعجّل ، وقم به غداً ، وخير البر عاجله .

اذا كانت محاسبة النفس واجبة علينا كل ليلة ، فكيف بها حين يموت عام ويولد عام !

أفما يجب ان نولد نحن معه ؟

وكما نعمل ميزانية تجاراتنا يجب ان نعمل ميزانية حسناتنا ، لنرى ما علينا وما لنا عند الانسانية .

أرأيت في عمرك ودهرك حيواناً يشاركه أحد في طعامه ؟ فكيف أكون حيواناً بعدما شرفني الله فخلقني انساناً ؟

وهناك محاسبات كثيرة غير هذه ، ولا بد من هذه المحاسبات لجميع طبقات البشر ، من السيد الرفيع الى الخادم الوضيع ، وما بينهما من خلق الله . فكل منهم مسؤول عن عمله . الحاكم يجب ان يحاسب نفسه ليرى كيف ساس رعيته ، لكي يحسن إن كان ظلم وأساء ، ولكي يحسن اكثر إن كان احسن . فمجال الاحسان رحب واسع .

على الحاكم ان يحاسب نفسه عن الأيام التي ضيّعها في ملاهيه وملذاته وهو يقبض ثمن تلك الأيام من الرعية ، فربّ يوم يضيعه « الراعي » تهلك فيه نفوس الالوف من القطيع .

إن يوم رأس السنة هو يوم الحساب الشديد لتقويم كل اعوجاج فينا ، وليس هو يوم قمار وشرب وسكر ، ولا يوم أكل مما رزقنا الله من الطيّبات دون ان نفكّر بالآخرين .

امرنا الله ان نأكل من طيّبات ما رزقنا ، وامرنا ايضاً بالزكاة والاحسان ، فهل تعمل ، ياصاحبي ، بواحدة من وصاياه وتترك الثانية ؟

فلو خففنا من هذا البطر ولو قليلاً ، لننفق تكاليفه على المحرومين لأمنّا شر العواقب .

إن اعوام الحياة مراحل ، وإذا حمدنا الله على قطعنا احداها ، فلنقدم مع الحمد قرباناً من الاحسان ليأخذ الله بيدنا ونصل آمنين الى الواحة الكبرى ، الى بيت الجميع .

هناك ينعدم الفقر الذي هو صوت صارخ يطلب الانتقام من ثروتك . أخمد هذا الصوت باحسانك ، وترقّب عاماً جديداً يكون لك فيه احسان جديد .

ليتك تتعوّد العطاء !

جرّبه تنسَ لذة الأخذ .

انه لأسمى وأرفع . واليد العليا خير من اليد السفلى ، والسلام عليك إن كنت محسناً ، وإلا فسلامي يرجع اليّ لأنك لا تستحقه .

مَوسِم المقَامرة

لا بدّ من خصّ القمار بحديث . وقد تقول ، إذا كنت من المقامرين : « ما لهذا الرجل وهذا الموضوع الشائك ! انه يفتح ابواباً مغلقة في مطلع هذا العام » .

لا ، يا اخي ، إن هذا اليوم هو يوم المقامرة العارم . وكأني أرى زوجتك تضع هذا المقال حد رأسك، اذا كنت ممن تركوا المائدة الخضراء في ساعة متاخرة من الليل ، لتصبحك به . واذا كانت امرأتك من السيدات العصريات المقامرات ، وأنت لست مثلها ، فإني اتخيلك تقرأ هذه الكلمة بصوت جهوري لتُسمعها ما كتبت لأنك لا تجسر ان تؤنبها .. فهي حرة بمالها الذي جاءت به من بيت ابيها حين جاءت بيتك لتستتر تحت جناحيك .

اللهم صفحاً عن زلاّتنا وقوّم اعوجاجنا . فقد صار القمار سمة للناس الراقين ، وصار من لا يقامر ، في نظر الطبقة العليا، رجلاً غير متمدن. وقديعذر من ينفق ماله على

لذة من الملذات الدنيا ، اما من يقامر فأيّة لذّة يجد في تبديد ماله وثروته،فيمسي غنيّاً ويصبح فقيراً بين ليلة وضحاها، اذا شاكسه الحظ؟فكم من بيوت عامرة دكّ اساساتها القمار.

اعرف رجلاً كان يملك ربع عكار ، وكان له ولد وحيد اصيب بهذا الطاعون ، فقال واحد لوالده : انتبه لابنك ، فاذا بقي على هذه الخطة « طيّر الدكّة » . فأجاب الاب : عصفور على بيدر ، ماذا يأكل ؟

وبعد سنين التقيت ذاك العصفور في« سير »،فاذا به منتوف الريش مكسور الجناح .

اعرف اناساً كثيرين قامروا على ثيابهم ، واعرف آخرين عجزوا عن ايجاد المال،فباعوا عفش بيوتهم،واخيراً نزعوا الابواب وباعوها . واعرف غيرهم اقتلعوا شجر الزيتون وباعوه ليلعبوا في هذا اليوم السعيد ، لا يثنيهم عن فعلتهم الشنعاء شرف ، ولا يؤثر بهم لوم ولا تعنيف ؛ تاركين اولادهم عراة حفاة جياعاً .

ورأيت والداً ، وابنه كان من طلاّب مدرستنا ، جالسين على الطاولة الملعونة ليلة يوم « راس السنة»، فقلت له : « يا رجل، ماذا تفعل ؟ أتقامر انت وابنك ؟ »

فأجابني : ليلة وتمضي ، إننا نكشف بختنا في العام القادم .

فقلت له : أتعوّد ابنك المقامرة وتخرب بيتك لتتعلق بخرافة؟ الجدّ يا صاحبي لا يعرف المستقبل، فكيف باللعب؟

دارت بضع سنوات دورتها ، وصار الشاب في بيروت ، وأمسى مقامراً من الطراز الأول .

وفي الأمس ، كما سمعت ، باع البيت بعد موت الوالد ، حين فرغ من العقارات الاخرى والمنقولات ، وهكذا استعجل الفقر قبل أوانه . اذا احتال على أحد ونصب ، أكل واكتسى وقامر ، والا فيقامر بعينيه، لأنه عاجز عن ذلك بيديه .

إن آفة هذا العصر تشجبها الأديان والتقاليد ، ولكن الناس أعداء انفسهم ، فلا يردعهم وعدٌ ولا وعيد ، ولا سيا من تملكته عادة من العادات ، فإنه يصير عبداً لها .

إني ألفت نظر القارىء الى مقالة للمنفلوطي ، عنوانها « الكاس الأولى » ففيها العظة لمن يسمح لولده ان يلعب في « رأس السنة » ليستطلع أنباء عامه قبل أوانه .

وخير مـا قرأت في ذمّ القمار قصيدة نجيب الحداد . فليت المبتلي بهذا الداء يقرأها ، فأنا لا أعرف القمار لأحسن وصفه ، كما وصفه الشاعر .

إن القمار لخطر على العزة والكرامة ، فكم رجل عبث بالامانة ليقامر ، وكم من مرأة عبثت بأقدس الأخلاق حين

افلست ، فتداوت من الداء بالتي كانت شراً منه ...

أضحكني أحد أصحابي حين لمته على المقامرة فقال لي:
« وماذا تريد . انا موظف ، والقمار وسيلتي للاتصال بمن هم فوقي لأُوطّد مركزي » .

وبعد شهرين عرفت انه زجّ في السجن لانه سرق الصندوق المؤتمن عليه .. وهكذا وطّد مركزه فصار أمنع من الأهرام ..

ويا ليت شعري كيف يؤدي واجبه على حقه من يسهر الى الصبح ، وبأي وجه يستقبل صاحب الأعمال من لم ينم ؟ ألا يقاتل خياله كما يقولون ؟

واذا كان المبذرون اخوان الشياطين ، فالمقامرون اخوان من ؟

لقد حددهم نجيب الحداد تحديداً قاطعاً مانعاً بقوله :

قد اختصروا التجارة من قريب
فعدمٌ في الدقيقة أو يسارُ

اللهم كن في العون !

رسالة إلى السماء

يا سيدي يسوع المسيح ،

انت قلت : « اطلبـوا تجدوا ، اقرعوا يُفتح لكم » ، وهـا أنا ذا قـد أتيتك ، وعيني في الأرض ، ويـدي على صدري .

ما جئت لأطلب منك شيئاً ، فأنا من خيرك مكفي . أتذكر تلك المناجاة عام أول ؟ فقد أقدمت بعدها متكلاً عليك ، فنجوت من الموت الذي كان فاتحاً فمه ليبتلعني ، وها قد انقضى عام على نجاتي وجددت مثل النسر شبابي .

لقد تحدثت كثيراً عن ميلادك ، وسوف نفتّش اليوم عما يعنينا قوله لك ، فهل أنت مستعد أن تسمع ؟ اني لا أطلب منك غير الاصغاء ، فهل تنشط لذلك ؟

إني أصارحـك القول : لقـد تعبت ألسنتنا وآذاننا وحناجرنا من الترتيل : « المجد لله في العلا ، وعلى الارض السلام ! » .

لست أدري ما في العلاء من مجد،أما السلام على الأرض فلا أرى أي دليل عليه سوى دول تغلي كالقدر الفائر . كل منها يعد شبكته ليصطاد الحيتان والدلافين ، وباسم السلام يقتتلون هنا وهناك وهنالك، وباسم السلام نؤيد مضطهدي السلام .

حاشاك ، يا سيد ، أن تطلب مـني أن أقول غـير الحـق ، وانت الذي علمتنا منذ أجيال : «تعرفون الحق والحق يحرركم » ، فهل أكذب وارتّل معهم « وعلى الأرض السلام » ، وليس على الأرض إلا قنابل تزعـزع أساسات المسكونة وتجعل عاليها سافلها ؟

أمـا « الرجـاء الصالح والمسرة » ، فـما زلنا ننتظر قدومها ، وأظنها لا يأتيـان إلا معك ... أما وعدتنـا بالرجعة ؟ فما لك تأخرت ؟

عد،يا سيد، وقوّم ما اعوجّ من القيّمين على تعاليمك.

يا سيد ، يا أمير السلام ، ألهم تابعيـك أن يسيروا على ضوء تعاليمك ، لئلا يدركهم الظلام .

إنهم يقرأون وصاياك بالسنتهم، وقلوبهم بعيدة عنك .

أنت قلت : « يا بنيّ اعطني قلبك » ، أما هم فزنادقـة وذئاب يلبسون جلود الحملان . فاذا كنت حين تجلس عن يمين أبيك تقيم الخراف عن يمينك ، والجـداء عن شمالك ،

فاي مكان تعد لهؤلاء ؟ أليست الجداء خيراً منهم؟ فلا لحمهم يؤكل ولا جلدهم يسكّف .

يتحدثون عن فقرك ، ويرفلون بالحرير والديباج كالغواني ، ونتحلّى مثلهن بالذهب ، ونعصب رؤوسنا بالطراطير ونسميها تيجاناً .

لقد صار صليبك حلية، واكليل شوكك رمزاً يُزهى به . فاذا كنت عظيماً بميلادك ، فانت أعظم منك بحياتك وموتك ، واذا لجات الى الخيال بحديث ميلادك ، فاني لا اتجاوز تخوم الواقع اذا عظّمتُ حياتك وموتك .

أنغنّي « على الأرض السلام » ولا نخجل ؟

أنترنم بـ « المجد لله في العلاء» ونحن نزحف على بطوننا كالأفاعي ؟

أنفرح ونتهلّل في ذكرى ميلادك ، وأمس أجرينا الدماء أنهاراً ؟

أنسيت ان فلسطين أنبتتك ، وقلتَ أسمى الشعر الانساني في سهولها ووهادها وعلى شواطىء بحيراتها ؟ لقد كانت حياتك فيها أروع قصيدة ، أفلا ترثي لها وتشفق عليها ؟

ان الذين صلبوك هم الذين يضطهدون اليوم أتباعك ويقتلونهم غدراً وظلماً ، ويناصرهم مؤمنون بتعاليمك

ينتسبون اليك ، فتعال يا سيد .

ومصر ما ذنبها ؟

إذا كان يهود فلسطين أساؤوا اليك، فمصر آوتك حين هرب بك أبوك وأمك من وجه هيرودس. لقد ذقت يا سيد قسوة المستعمر ، فلو لم يهربوك من وجه هيرودس لكان قضي عليك ، ومع ذلك لم تنج من بيلاطس الذي قضى بصلبك وغسل يديه ليقول : « اني بريء من دم هذا الصديق » .

إنهم المستعمرون ، يا سيد . فهم هم في كل زمان ومكان ، جئت لتنقذ شعبك من ظلمهم وتعديهم، فتآمرت عليك السلطتان ، وكانت النكبة الفاجعة .

إن وطنك لا يزال تحت نير الاستعمار رازحاً ، فهل من مجير ؟

قال فيك شاعر من مصر :

عيسى سبيلُك رحمةٌ ومحبّةٌ
للعالمينَ وعصمةٌ وسلامُ
ما كنتَ سفّاكَ الدماءِ ولا امرءاً
هانَ الضّعافُ عليه والأيتامُ

لقد اعدت عليك ما قال لعلّي استنهض همتك، فتقول لأتباعك في الغرب : « قفوا ، يا جماعة ، ما هكذا علمتكم !

والا فاطووا انجيلي ولا تقرأوه، فما نفع علمٍ لا يعمل به ؟»

اجل ، يا سيد ، إن تعاليمك هنا وفي جارتنا القارة الاوربية قد شاخت ، وقد تكون في اميركا لا تزال شابة ، ولكن المصلحة تشوبها .

أما علمّت : « لا تفعلوا بالناس إلا ما تريدون ان يفعله الناس بكم ؟ »

أما قلت : « من ضربـك على خدك الأيمن فحوّل له الأيسر ، ومن سخّرك ميلاً امشِ معه ميلين ، ومن طلب رداءك فاعطـه ثوبك ؟ » فـما بال هؤلاء يضربون الآمنين ويقتلونهم بالآلاف ؟

اليوم ، لم تعد القضية قضية ضرب كفوف ، بل قضية ابادة واستئصال . فانظر ماذا تفعل ، فالاتكال عليك ، وعلى ممثلك على الارض ، ولكنه لا يزال كالذي بنيت بيعتك عليه لا يملك إلا سيفاً او سيفين ... وهو يعمل ، بعد ما جُرّد من سلاحه ، بقولك لذلـك التلميذ : « اردد سيفك الى قرابه ، فمن أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » .

فما الحيـلة ، إذن ، في الذين يأخذون البريء بـذي الذنب ، ويدّعون أنهم مسيحيون ؟

أراهم لا يحفظون من انجيلك إلا قولك : « مـا جئت لألقي سلاماً بل حرباً ، ولكن على الباغي دارت الدوائر ،

فقد نجونا بفضل ولسن وايزنهاور من الاستعمار السياسي ، وبيركة دمك وصليبك سننجو من الاستعمار الاقتصادي .

أما « أصحابنا » فقل لهم كي يعملوا بما يعلمون ، ولا يحمّلوا الناس أحمالاً ثقيلة لا يحرّكونها باحدى أصابعهم .

قل لهم: « دعوا السلام في الاسواق والجلوس في صدور المجالس ، واذهبوا بشروا برسالتي جميع الأمم » .

ليذكروا قولك : « كنت جوعاناً فاطعمتموني » ليطعموا الناس من أموال حبست عليهم . قل لهم ليس عيد الميلاد عيد أكل الديوك وشرب الخمور المعتقة ، ولكنه جعل لكي يتذكروا أخاً بالرب .

أتعرف لماذا نأكل الديوك في ذكرى ميلادك ؟ لكي لا يذكرنا صياحها بمن أنكرك .

بطرس تاب ، أما هؤلاء فلا يريدون . أنهم يأكلونها فراريج قبل ان تصيح ، والويل لهم متى صاحت الديوك .

لا بد من الصياح لأن الفجر قريب جداً . وقد لاح مفتوق من الشرق أشقر .

قل لو كلاتك عندنا يكفونا شرهم ، فأنت في غنى عن نصرتهم .

إذا كنت في معركة المحاكمة لم تدافع عن نفسك بكلمة، فقل لهؤلاء من جميع الطبقات: « لا تكلفوا خاطركم ، فأنا

في غنى عن محاماتكم ودفاعكم ، فليكن فيكم محبة قدر حبة خردل لتعيشوا سعداء آمنين » .

يعزون بخطبتك على الجبل، ولكن اقرأ تفرح جرّب تحزن . فأسيادهم يعطون ما لقيصر ليأخذوا ما لله ... على طول ، فلا حاجب ولا بواب ولا محاسب . الدفتر في أيديهم ، وهم الخصم والحكم . فقل لي متى نرى وجهك ليحدث الانقلاب الرائع ؟

لقد عتقت البشرية ، فتعال جددها .

أما قلت لتلاميذك ، كما روى انجيل متى : « أنتم الذين اتبعتموني في « التجديد » تجلسون على اثني عشر كرسياً متى جلس ابن الانسان على كرسي مجده ؟ »

تعال اجلس ، يا سيد ، ونحن نقعد على الأرض ، ولا شرط لنا إلا التجديد .

أما قال شاوول الذي اضطهدك ثم صار بولس الرسول حين اتبعك، أما قال في رسالته لأهل رومية: « لا تشاكلوا هذا الدهر ، بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم ؟ »

إننا نريد تجديد الملح ، وتجديد الخمير ، وإلا فمن يستحقك منا أيها المجدد العظيم ؟

انا حامل صليبي وتابعك منذ خلقت ، وإني أتعذب لأجل تطهير تعليمك. فاذا دعوتك للعودة الينا، فبحياتك

لا تحسب كلامي تطفلاً ، وتنتهرني كما انتهرت بطرس قائلاً لي : « اذهب عني يا شيطان . أنت معثرة لي ، لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » .

وهنا أضم صوتي الى صوت بولس القائل في رسالته الى العبرانيين : « وسقطوا لا يمكن تجديدهم أيضاً للتوبة ، اذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهّرونه » .

أما قياصرة اليوم فلا يرتضون بما يعطون ، بل هم يعطون أنفسهم من مال المساكين ويأكلون البيضة والتقشيرة ، واخوتك ينامون في العراء على ريق بطونهم .

كانت الضرائب في أيامك محسوسة ملموسة ، أما اليوم فسحر القياصرة عجيب غريب .

اذا شئت ان أزوّدك بكل ما عندنا من أخبار ، فلو بقيت عامين لا أعمل غير كتابة هذه الرسالة فهيهات أن انتهي . وقد حدث عندنا شيء جديد هو المراقبة، فالافواه مكمومة وملجومة وفطانتك كفاية ..

لا أرى في المراقبة شيئاً غريباً ، فقد تعودتها منذ صباي ، وتعلمت كيف انفذ من المضيق ، ثم من يراقبني ويحول بيني وبين مخاطبة سيدي يسوع المسيح ؟ ألا يحق لنا ان نتحدث مع ربنا ؟

تساءلت يا سيد : « من يقول الناس اني انا ؟ » وهذا

دلني على انك تهتم لمـا يقال . أما لو عدت اليوم ورأيت ان « الرعـاة » لم يعد يهمهم حكي الناس لتعجبت وأعطيت جيلنا آية أخرى عن حوت يونان ، لأن جـلودهم صارت أسمك من جلده .

تذكر جيـداً رسائل بولس ، أول صحـافي عالمي في التاريخ القديم ، وعندنا اليوم ما يشبهها ويسمونهـا جرائد ومجلات ، وقـد منحوها لقب السلطة الرابعـة ، ولكن المسيطرين ينتقصون من قدرها ليخففوا من وطأة كلامها عليهم ، ولو فكر هؤلاء لما حاولوا . انهم يجهلون انك انت السيد المسيح ، ابن الله الوحيد ، سألت تلاميذك عما يقوله الناس عنك ، ولكن « حكي » النـاس لا يؤثر إلا بالنـاس ولهم خُلِق ، أما أولئك فلهم النبّوت والمسّاس .

قلت لنـا : « لا تدينوا لئـلا تدانوا » . وهم لا تهمهم الدينونة ، ولو كانت في وادي يوشافاط كما وعدت،ووعدك صادق بلا ريب .

قلت : « اخرجوا العبد البطال الى الظلمة البرانية » ، فيا ترى ماذا اعددت لعبيد غير بطـالين ولكنهم يعملون دائمـاً في السر ، واذا عجزوا عن قطـع الأعنـاق يقطعون الأرزاق ؟..

قلت : « أحبوا اعداءكم ، وأحسنوا الى مبغضيكم » .

وهم يبغضون من أحسن اليهم .

وقلت : « ليس من يقول يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات ، بل من يعمل ارادة ابي الذي في السماوات » ، وها هم قد تركوا الثنتين في هذا الجيل الشرير الفاسق .

حذرتنا من الباب الواسع ، وهم لا يدخلون إلا منه . اما الباب الضيق فقد ضربت عليه العنكبوت بنسجها . وحتى الآن لم يرث الودعاء الأرض ، والحزانى لم يتعزوا . أماملكوت السماوات الذي وعدت به المساكين فعلمه عندك ، يا ساكن الاعالي ، فهل دخل عليك احد منهم ؟

وحذّرت من صنع الصدقة قدام الناس لئلا يضيع الأجر . أما في هذا الزمن فلا توصّ حريصاً ، فما اقلّ من يتصدّق سراً أو علانية .

اعذرني يا سيد على طول لساني ، فهكذا خلقني ابوك السماوي ، وقد خسرت أكثر اصدقائي . اني اعمل مشيئتك لأن خاصتك لا يصلحون ما بأنفسهم من اعوجاج إلا إذا قوّمناهم بسيف النقد .

وإلى اللقاء في ملكوتك . أقبّل جراحك الخمسة ، انا الذي اكلت جسدك المقدس صغيراً ، فلا تأكلني النار .

هكذا كنت ارتّل مع جدي في ختام قداسه ، جعل الله النهاية خيراً .

كُنوز مَرصُودة

كثيرة هي الفرص التي تفلت من أيدينا ولا نكترث لها.

حكي أن زائراً دخل متحفاً رأى فيه بين تماثيل الآلهة تمثال إله وجهه مغطى بالشعر وأجنحته على قدميه ، فسأل: «ما اسم هذا الإله؟» فأجابه النقّاش: «هو الفرصة». فقال : « ولماذا هو مخبيء وجهه » ؟ فأجابه : « لان الناس قلّما يعرفونه حين يجيء اليهم » فقال : « ولم أجنحته على قدميه؟ » فأجابه : « لانه يذهب حالاً ، وان ذهب فلا امل لأحد باللحاق به » .

ويقول مثل لاتيني : « ان الفرصة لها شعر في مقدمة راسها . واما في مؤخرته فهي صلعاء ، فاذا أمسكت بناصيتها قبضت عليها . اما اذا افلتت منك ، فان جوبيتر نفسه لا يقدر ان يقبض عليها ثانية » .

قال شاعر انكليزي : « ان في حياة الناس مداً وجزراً ، فمن استفاد من المد وصل الى الثروة، اما من اهمله فإنه يظل حياته بأسرها في شقاء .

فأول ثروة يجب ان نغتنمها هي الفرصة . وكثيراً ما نتاسف على فواتها لأنها لا تسنح مرتين . فعلينا ألا نحجم ولا نتردد .

ليكن شعارك دائماً: « فلنبدأ بالعمل من هذه الدقيقة »، ومن يباشر حالاً ينجح دائماً .

نحن عرضة للتجربة كل ساعة . فلنثبت في اعمالنا ولا ننتقل من موضوع الى موضوع ، وان فعلنا فاننا لا نظفر بشيء .

قال نابليون : « النصر لمن هو اشد ثباتاً » .

تأمل الشجرة ، فانها تعمل عاماً كاملاً لتعطيك زهرة عطرة جميلة ، او ثمرة شهية .

إعلم ، يا صديقي ، ان الأعصاب التي لا ترتخي ، والعين التي لا تكلّ ،والفكر الذي لا يتشتت هي التي تنجح دائماً.

فاعمل بثبات ، فالثبات هو الذي عمل عجائب الدنيـا السبع . انك ستكون رجـلاً عظيماً إذا ثبتّ ولم تغـير عزمك لأول عقبة تقف في سبيلك .

كان الأقدمون يمثلون الإله هرقـل ملفعاً رأسه بجلد أسد ، ومخالبه مجموعة تحت ذقنه، ليدلوا بذلك على اننا إذا تغلبنا على مصائبنا فان تلك المصائب تصير أعواناً لنا .

أنت ، والحمد لله ، بألف خير ، لا ينقصك إلاّ الرغبة

والارادة القوية . تشبّه بابراهيم لنكولن : ولد في كوخ خشبي ، ولم يُتح له الدخول إلى المدارس ولا الحصول على كتب ، ولا الدرس على معلم ، ولا غير ذلك من الوسائل العادية . تمثله وهو شاب طويل ، نحيف ، غريب الشكل ، يقطع الأشجار ويبني كوخه الخشبي . يتعلم الحساب واللغة على نفسه في المساء ، وعلى نور الموقدة . ثم صار ، بعد ما علم نفسه بالمشقة ، رئيساً للولايات المتحدة ، وأعتق أربعة ملايين نفس من قيد العبودية .

قد تقول لي · « مشاغلي كثيرة » ، وأنا أقول لك : « الوقت كثير إذا أحسنّا التصرف به » . وساخبرك عن بعض أعظم الأعمال التي أُنشئت في أوقات الفراغ .

إن الوقت قليل إذا انفقناه في الثرثرة واللهو ، وقال وقلت . امـا اذا تدبرناه برغبة وارادة ، فانه يزيد كثيراً عن حاجتنا .

كثيراً ما نقول في البيت : « ما بقي الى وقت الأكل إلا خمس أو عشر دقائق ، فلا وقت لعمل شيء الآن » . أما الحقيقة فهي أن اعمالاً كثيرة عظيمة أتمها فتيان فقراء في فضلات زهيدة من الوقت .

ان ملتن ، صاحب « الفردوس المفقود » كان معلماً ومستخدماً في بعض أعمال الحكومة ككاتب سر ، فكان

ينظم أناشيده الخالدة في بضع دقائق يختلسها من خلال أعماله المتراكمة .

وبقي غلادستون طوال حياته يحمل في جيبه كتيبا يطالع فيه كلما سنحت له دقيقة فراغ . إن ساعة تنتزع كل يوم من ساعات اللهو ، وتستعمل في ما يفيد تمكّن كل امرىء ذي مقدرة عقلية أن يتضلّع من علم بتمامه . وساعة واحدة تمكنك من مطالعة عشرين صفحة مطالعة تمعّن وفهم ، وإذا ثبتّ على هذا العمل عاماً تطالع سبعة آلاف صفحة ، أي ثمانية عشر مجلداً كبيراً في السنة . إن هذه الساعة التي تحصل عليها بسهولة فائقة تصيّر من هو غير معروف ، شهيراً ، ومن هو غير نافع ، مفيداً . إن هذه الساعة تحوّل الحياة الفارغة إلى حياة حافلة بالأعمال المفيدة، فنابليون لم يكن يسمح لنفسه بالنوم أكثر من اربع ساعات . وحياة رافائيل القصيرة التي لم تتجاوز السبعة والثلاثين عاماً عبرة لمن يعتذرون عن تضييعهم حياتهم عبثاً ، وحجتهم أنه ليس لديهم وقت .

قال شيشرون : « إن ما يخصصه غيري من الوقت للولائم واللهو اخصصه انا لدرس الفلسفة ».

إن أشدّ ما في اضاعة الوقت من الضرر هو خسارة القوة . فالأعصاب تصدأ بالبطالة . إن للعمل نظاماً ، أما

الكسل فليس له نظام .

قال فرنكلين: «اذا كنت تحب الحياة فلا تُضعِ الوقتَ سدى» ، لأن الوقت هو المادة المصنوعة منها الحياة .

قد تقول ، ياعزيزي، إنه لم يذكرِ الاخلاق في كلامه ! بلى ، إن كل مـا حثثتك على عمله لا يدرك إلا بالاخلاق المتينة، وقلما وجدت رجلاً يمشي على الخطة التي رسمتها لك إلا وهو صاحب اخلاق رفيعة . فالاخلاق قوة ونفوذ ، وهي تقف خلفنا لتحمي ظهرنا في كل معترك .

واخيراً اوصيك بالتدقيق واتقان العمل ، ففيهما تبلغ مـا تصبـو اليـه من شهرة وثروة . فالتدقيـق هو أخو الاستقامة التوأم .

قال امرسون : « إذا كان امرؤ يجيد تاليف كتاب، أو انشاء خطبة ، أو صنـع مصيدة للفـار اجادة يمتاز بها على جاره ، فان الناس يشقون طريقاً نافذاً إلى بيته ، ولو بنى منزله في الغابات » .

فاتقن اذن كل عمـل تقوم به ، ففي هـذا فلاحـك ونجاحك، ولا تُضعِ الدقيقة التي قيل من اجلها : « الوقت من ذهب » . ان كل ما ترويه الاساطير عـن الكنوز المرصودة،ما هو إلا رمزٌ يعرض لنا من فرص لا نغتنمها، فتذهب ولا تعود .

القسم الثالث

آخر حجر

في العجلة السلامة

في حياة كل إنسان دقائق أشبه بما يسمونه المعركة الفاصلة ، فإذا أضعناها فكأننا نضع مصيرنا على كف عفريت ، أو نرهن حياتنا بكاملها لأمل طائش ، ولا نرجو حلول الساعة التي يفك فيها الرهن .

وعندما قال الذين مشوا قبلنا على دروب الحياة : في العجلة الندامة ، كان مركوبهم ، إما أرجلهم ، وإما قوائم حيوان مسخّر لخدمتهم . أما نحن أبناء هذا الجيل ، فمركوبنا نار وحديد وفولاذ ، منها ما يمشي على الأرض ، ومنها ما يدع الطير خلفه ولا يلحقه مهما جدّ وكدّ ، ولذلك قالوا لهم : في التأني السلامة .

ومع ذلك فقد رأينا في الأقدمين من آمن بفوائد العجلة . أما قالت العوام : الضربة لمن سبق ؟ وهذا ما ينطبق اليوم انطباقاً كلياً على عصرنا، عصر السرعة .

ففي ذلك الزمان كان أكبر عيب أن تأكل واقفاً أو ماشياً ، أما اليوم فأصبح كل شيء يُعمل على الماشي.لقد استراحت المقاعد وتعبت الأرجل.

قد تنهار الأعصاب باكراً بسبب هـــذا الكد ، ومع ذلك فهو ضروري للفلاح ، وهل يحقق أملاً من يسترخي في فراشه ولا ينفض عنه لحافه إلا حين يعتدل ميزان الشمس؟ ان من يحور ويدور ، حتى يبدأ عمله، فهيهات أن ينجزه ، فكثيراً ما يدعه ولا يفعل شيئاً ، يؤجل دائماً وينتظر ساعة نشاط رائعة ، وتلك الساعة لا تأتي .

أما روى التاريخ عن امرىء القيس، انه قال ، عندما جاءه خبر قتل أبيه : اليوم خمر وغداً أمر . وماذا فعل الغد لامرىء القيس ، وأي غرض قضاه له ؟ أليس الموت على الطريق وضياع الملك ؟ فلو كان ترك الكأس ونهض ، لما اضطر أن يبكي ، هو وصاحبه ، الذي بكى حين رأى الدرب دونه . ولما قال له هو : لا تبكِ عينك ، اننا نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا.

لقد فاتك القطار يا امرأ القيس ولم تقيّد الأوابد ، وما ظفرت إلا بلقب الملك الضلّيل عن جدارة واستحقاق . إن صديق الكأس لا يفلح .

من تأنّى نال ما تمنّى ، لم تعد عملة رائجة في هذا العصر ، فالناس في حلبـــة السبق دائماً ، لا ينتهون من شوط حتى يبادروا الى آخر بلا تأجيل ولا تردّد . أما قال الشاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن فيه مقـــدماً

فإن فساد الرأي أن تتردّدا

فالتردد هو الذي يخيب أمانينا ويحول دون الفلاح . قال الحجاج في خطبة الولاية : « إني والله ، لا أهمّ إلا أمضيت ، ولا اخلق إلا فرّيت » ، فالتراخي والتردد والتأجيل لا تحقق أملاً ولا تبلغ مرتبة .

أستعرض حيـاتي ، على تفاهتها ، وخلوّها من المغامرات، فلا أجدني ندمت على شيء فعلته ، بل ندمت دائماً على الذي لم أفعـله في حينه ، لأن الفرص إذا ذهبت لا تعود. ومن يضيّـعها أضاع كنزاً لا يقع عليه فيما بعد، ولذلك قالوا : الوقت من ذهب .

قيل لقائد عظيم : القائد الفلاني عظيم مثلك ، فأجابهم : وهنـــاك فرق بيننا ، وهو انني أسبقه أربع ساعات . يعني انه يستيقظ في الساعة الخامسة ويبادر الى عمله ، بينما زميله لا يستيقظ قبل التاسعة . فإذا كنت أيها الأخ الكريم، من أصحاب النهوض في الساعة التاسعة، فعدّلْ منهاجك منذ الغد إذا أردت أن تحقق شيئاً تُذكَـر به .

لا تندمْ على ما فات واستعوضْ عنه بمـا هو آت ، فقد تسترد في عام ما أضعته في أعوام . عُدْ الى ماضيك ، وتذكّـرْ كم فاتتك من مواعيـــد لأنك أضعتَ بضع دقـــائق في الحديث مع واحد لا عمل له إلا الثرثرة والتساؤل عما لا يفيده ، فاضعت أنت ما يفيدك . كن جَسوراً ولا تبالِ بمن يستوقفك إذا كنت على ميعاد .

قال أحد المفكرين : ما من وقت مثل الزمان الحاضر ، فمن لا ينجز ما يفكر بتحقيق عمل حين يعنّ له ، فهيهات أن يحققه فيما بعـــد . فلا تؤجّـل عملاً ، واجعل شعارك : الآن . امح كلمة غداً من سفر حياتك ، فنقـــد غداً باطل لا يتعامل به المفلحون . إن التردّد يمسي مرضاً ، والتأجيل هو أول أعراض هـذا المرض الاجتماعي العضال ، فإذا طلبت من ابنك أن يقوم بعمل وقال لك بعـد ساعة مثلاً ، فقم اليه واقتلعه من

مكانه ثم خذه بساعده ، وهكذا افعلْ به كل مرة إذا أردت أن تحميه من ميكروب هذا المرض القتّـال .

إقرأ على مسامعه نصيحة ولتر سكوت التي أسداهـا الى شاب حصل على مركز جديد وهو يطمح الى التقدم : خذ حذرك من الانقياد الى مـا يحول دون استعمال وقتك كله ، فلا تضيعه بما لا يعنيك ولا يفيـــدك إعمل واجبك أولاً وبسرعة ، ثم خذ حقك من الراحة بعد إتمام العمل .

إن العجلة هي سمة عصرنا. ولكن ليس معنى هذا أن تكون أهوج، فلا تتقن عملك . إن عدم إضاعة الوقت هو العجلة المطلوبة . إن السرعة أمّ الثقة بالنفس ، وهي أنصع برهـان على انتظام أعمالنا ومقدرتنا . ومن لا يذهب الى مركز عمله إلا بعد أن يدور في زوايا بيته دورات عديدة ، ويخرج ثم يدخل الى بيته مرات قبل أن يفارقه بالسلامة ، فهذا لا يعرف العجلة ، ولن يأتي في غده عملاً جليلاً .

فلنتعلم السرعة من الطبيعة ، فكل مـا فيها في حركة دائمة ، تسرع خطاها ولا تقف دقيقة لتستريح لأن راحتها في عملها الدائم .

سُئل أحد مشاهير الرجال : كيف أتممت كل أعمالك في هـذا الوقت القصير ؟ فأجاب : إنني أعمل في الحال ما يجب عليّ أن أعمله ، وأنتظر الحديد لأنجزه حالاً .

فاعمل يا أخي اليوم ما يمكن عمله .

ما مضى فات والمؤمل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها

لا تؤجّل شيئاً لأن الغد ليس ملك يديك. إنك لا تدري ماذا يحدث، فتندم على ما فات ، ولات ساعة مندم .

ابصق على الشيطان واجعل شعارك : في العجلة السلامة . وقدّم الأهمّ على المهمّ . وليكن لكل عمل وقت . وإذا فعلت فأنت مفلح إن شاء الله .

المرض الأكبر

وما أعني إلا الوهم ، فالوهم يورث الهمّ .

والهم يخترمُ الجسيم نحـــافةً　　　وَيشيبُ ناصيةَ الصبيّ ويُهرِم

فالوهم هو الداء المقيم الذي لا يحول ولا يزول. إذا استولى علينا جعلنا نظن الموجود لا وجود له ، ونحسب مـــا لا وجود له حقيقة ملموسة . فنسمع أصواتاً ، ونرى أشباحاً تروعنا فنخافها ، كأنها ذوات كيان. وقد أصاب المتنبي ، حين وصف جباناً ، بقوله : « إذا رأى غير شيء ظنّهُ رجلاً » .

روى العالم غوبلو ان أحدهم قال له انـه اصيب بوهم تكرر مدة من الزمن ، فكان ينظر ، حين يجلس إلى مكتبه ، شخصاً على المقعد يحدق النظر اليه بينا أنه لم يكن على المقعد أحد .

وهذا يذكرني بما قرأت عن باسكال ، زعموا أنه كان يرى هوة فاتحة فمها عن يمينه كلما جلس إلى مكتبه ، فيرتاع . ولـكي يزيل هذا الوهم ، كان يضع كرسياً على فم تلك الهوة ليطمئن قلبه إلى عدم وجود هوة .

ليس المجال هنا مجال تعداد أوهام الناس . فعندنا من أوهامنا ما يغنينا عن تلك . كما اننا لا نقصد الأخبـــار وسرد قصص الوهم ، ولكننا نعني الأوهام المرضية التي تستولي علينا فتجعلنا مصابين بالمرض الذي نختاره وننتقيـه .

رأيت في شبابي راهبة بلدية كانت تتوهم ان في اذنها عصفوراً تزعجها انتفاضاته . وقد قصدت أطباء بيروت في ذلك الزمان ـ منذ نصف قرن ـ وظلت تروح وتجيء والعصفور جاثم لا يطير من ذلك الوكر الدافىء .

وأخيراً تركت أنا جبيل ولم أعد ألتقي تلك الراهبة . وقد سألت عنها فقيل لي انها في مغارة دير قزحيا ، عصفورية لبنان في ذلك الزمان .

أما أوهامي أنا فليست من هذا العيار الثقيل ، ولكنها إن لم تمتني ، فقد أزعجتني ولا تزال . ولا باس علينا إن روينا للقارىء بعضها ، فهذا الموضوع، جميع الناس فيه سواء، فكما لا يخلو رأس من همّ كذلك قلما يخلو من وهم .

كنت منذ نشأتي مشغول البال على صحتي،فخطر لي أن أكون طبيب نفسي ، فاشتريت كتاب طب اطالع فيه .

كنت إذا سمعت بانتشار مرض في البلاد ، اسرع إلى فهرست ذلك الكتاب، واقرأ عن ذلك المرض،وهكذا صرت اختصاصياً اصاب بالمرض الذي اريد ، ساعة اريد .

وذات سنة اقبلت حمّى التيفوئيد على المدرسة التي كنت فيها،وعجز

طب ذلك الزمـــان ـ ١٩٠٣ ـ عن مكافحتها فصرفتنا إدارة المدرسة إلى بيوتنا .

واعتقدت أنا ، او توهمت ، انني احمل ميكروب التيفوئيد معي ، ورحت اقرأ في ذلك الكتاب، المشؤوم عليّ ، فوقعت على عبارة فيه تقول: إن نبض المريض بالتيفوئيد تزدوج ضرباته ، فجسست نبضي ، فإذا به مزدوج . خفت جداً ، ولاحظ والدي قلقي ، فأخبرته ، فقال : هات يدك ، وبعدمـــا جسها قال : من خبرك ان نبضك مزدوج ؟ فأجبته : خبرتني اصبعي .

وبعـد حين استفحل امر الوهم فنمت في فراشي ، وجاء الذي كنا نسميه حكيماً . وبعد اخذ الحرارة ، وجس النبض ، وفحص اللسان وتفتيش جميع زوايا جسدي ، قال : ننتظر يومين ثلاثة لعله خير . ثم مضت ايام وانا على حالي، فضاق صدر والدي فصرخ بي : قم من فراشك. وبعد جهد نهضت ، وما زلت ناهضاً .

ولكنني مـا خلصت من وهم الفتوة حتى وقعت بأوهام الكهولة . قرأت ان العمر واحات . فمن يبلغ واحة الثانية والأربعين ، فلينتظر الثامنة والخمسين، وإذا بلغها فلينتظر الثامنة والستين، وها قد فتها، والله اعلم إلى اين نصل . ولكنني قضيت اهوالاً وسلخت اكثر عمري ، وأنا في غرفة الانتظار ، حتى اصبحت اختصاصياً في انتقاء الأمراض .

كلما احسست بحركة في جسدي انتقيت لها أخطر الأمراض وتوهمت انني مصاب به ، وكنت إذا اصبت برشح أحسب انني معرض لما يليه .

وهكذا انقضت حياة قلقة، ولكني كنت أنسى أوهامي التي أجترها عندما أنصرف إلى عملي وأكب عليه، حتى أنسى كل شيء إلا ما يشغلني به عملي .

وقعدت منذ ربع قرن على سرير العيادة عند الدكتور ا. خ. فعني بي ودقق كثيراً، وأخيراً انتصب أمامي بقامته الفارعة وقال : منذ كم سنة وأنت تشعر بهذا المرض ؟

فأجبته : منذ سنوات .

فقال : لو كنت مريضاً حقاً لكانت تحت عظامك، اتمنى لو تكون لي سلامة جسمك، فدع هذه الأوهام وراجع رواية موليير « المريض غصباً عنه »

واستطرد قائلاً :

أربعة أشياء تجنبها يا مارون : ميزان الحرارة، والقبّان، وأخذ النبض، ووزن الضغط . ان هذه الأربعة تتغير وتتبدل فلا تشغل بالك بها . أنت سليم من كل مرض .

ومنذ أشهر التقيت الطبيب الذي أطلقني حيناً من سجن اوهامي، فضحك وقال لي : كم صار عمرك ؟ فقلت له : في الثالثة والسبعين .

فقال : أصدقت الآن انك بألف خير وعافية .

فقلت له : ليس كل التصديق ...

فقال : هذا لخيرك، لأنك صرت في عمر يستدعي الحذر . الحذر ضروري، ولكن التوهم مرض، وإذا استفحل أصيب صاحبه بالمرض الذي يريد ويصدق نفسه .

هذه قصتي ، ومـــا ازعجتكم بها إلا لاعتقادي انها قـد تكون قصة اكثركم ، وإذا صح ما زعموا من ان الحُـبّ هو اقوى الفيتامينات ، فالوهم هو السم الناقع والمرض الأكبر .

يقول الأطباء : « معنويات المريض تساعد على شفائه » فأي معنويات تكون لصاحب الأوهام ؟ رحم الله ايليا ابو ماضي القائل :

ايها المشتكي وما بك داءٌ كيف تُمسي إذا غدوت عليلا ؟

أحسن الأدوية في هـذه الحالة ، هي ترديد المثـل العامي القائـــل : « وقوع البلا ولا استنظاره » .

فالواهم يدلك عليـــه ، إذا قلت له : كيف حالك اليوم ؟ يظن انك تتقصى أخبار صحته ، أو انك عارف انه مريض ، فيفتح السجل ويقعد يقص عليك ما أحسّ أمس واليوم . وهكذا يظل يجتر اوهامـــه ، ولا يصدق انه معافى ولو حلف له الطبيب .

كثيراً ما اهتم علماء النفس بهذا الموضوع الخطير ، وقالوا أخيراً : إذا نحن فكرنا في السقم والمرض أصبحنا مرضى .

قال ماركوس اوريليوس ، الامبراطور العظيم : ان حياتنا من صنع أفكارنا .

أعرف رجلاً عظيماً مات ُمنذ سنين ، قضى حياته في معالجة أمراض غير موجودة ، ولو كان مريضاً حقاً لما جاز التسعين . ولكثرة أوهامه ، اقتنى معجم لاروس الطبي ، وجعله كتاب مخدّته يطالع فيـه في أوقات فراغه ليلاً ونهاراً .

اما دواء الأوهام فهو تناسيها ، ولا نتناساها إلا بالعمل المستمر ولعل هذا مـا عناه ، وليم جيمس ، بقوله : « ليس في امكاننـا ان نغير شيئاً من احساساتنـا بمحض ارادتنا ، ولكن في استطاعتنا ان نغـير أفعالنا فتتغير احساساتنا » فالطريق إلى السعادة المفقودة هي ان تظهر كما لو كنت سعيداً.

ألا تكفينا أمراضنا حتى نقدم على اختراع أمراض غير موجودة ؟

لا يشفينا من أوهامنـــا إلا الاعتقاد الذي لا يتزعزع بقول القائل : « لا بد ممـــا ليس منه بد » . وإذا لم تعمل بهذه الكلمة ، وقعدت تغذي اوهامك ، فانها تتـكاثر عليك. تنام معك في سريرك، وترافقك في مسيرك ولا تدعك حتى تنهار اعصابك وتمضي لسبيلك بـلا رجعة . فخير لنا ان لا نقطع جسراً قبلما نصل اليه .

شبابك على قدر طاقتك

ان عـدد السنين ، وشيب الشعر ، وسقوطه ، كل هـذا لا يقدّم ولا يؤخر .

هل رأيت ثوراً يدركه الشيب أو الصلع مهما يعش ؟

ليس العبقري للحراثة ، ولا يعيش على عضلات يديه ورجليه ، وإنما يحيا ويظل فتياً بتلافيف دماغـه . فربّ فتى خرف في الثلاثين ، وربّ شيخ ظل فتيّ الفكر في الثمانين والتسعين .

إنا لفي زمن يهزأون فيه بالشيخوخة لأنها شيخوخة . هذا هو اعتداد الكثيرين من الشباب ، ولا عجب ، فالصراع ، كما نلاحظه ، قائم أبداً بين الشيوخ والشباب .

نبدأ في البيت . فالشيخ لا يعجبه شيء من أعمال ذريته . وهـذه غريزة المحافظة على السيادة التي فقدت أو كادت .

يريد الشيخ ان تمشي الأمور على عقله . يكون ابنه في الثلاثـين ومـا فوق ، وإذا أتى مـا لا يقره عليه ، ولم يستطع ان يسيره كما يروم ، هـزّ رأسه وقال : أولاد !

وكذلك أم الأولاد ، فإنها لا عمل لها إلا نقد كل حركة من حركات كنّتها. تفتش دائماً حولها لعل عينها تقع على من تغمزه على تلك العروس وتقول همساً : كنا وكنا ! ..

اما الكنّة فتقول وهي تتنهد : عجوز ! ..

وإذا خرجنا من البيت الأبوي ، عثرنا على انماط لا تحصى في جميع ميادين الحياة . رأينا الجيل النازل لا يعجبه إلا القليل مما يعمله الجيل الطالع ، والجيل الطالع لا يعجبه شيء من أعمال السلف ، يريد ان يقوض اساس ما بناه السابقون، وهذا هو ناموس الحياة الخفي، فالشباب يسعون ليتفوقوا على شيوخهم ، والشيوخ يناضلون عن صرحهم ليظل شامخاً وهم ، لو قدروا ، لردوا الناس إلى عهد المغاور .

كم اضحك عندما اقرأ وداع القرن التاسع عشر في كتاب مجالي الغرر. عدّ كاتب ذاك المقال عجائب ذلك القرن واختراعاته من الداليجانس إلى المنطاد ، فالقطار ، والفونغراف ، وتساءل عما سيحدث ! وما مرّت في سمائنا طائرة فدرين عام ١٩١٢ حتى قلنا ضاحكين من القطار : أمن يمشي على خط لا يحيد عنه كمن يروح ويجيء في الفضاء كما يشاء ؟

شاء احد شعرائنا ان يتخيل ، فقال في نابليون :

قالوا لنابليونَ ذات عشيّةٍ ... إذْ كان يرصدُ في السماءِ الانجما
مِنْ بعدِ فتحِ الأرضِ ماذا تبتغي ... فاجاب أبحث كيف أفتتحُ السما

واليوم ، وقد فتحت السماء ، وطرنا إلى الفضاء الخارجي ، وفكرنا في التسابق إلى استعمار الأجواء واحتلال القمر ، فهل يكون الفضل في

هذا للشباب وحدهم ، أم للشيوخ وحدهم ؟

لا لعمري ! ليس في الميراث الإنساني شيوخ ولا شباب ، بل هم وطاقة وحمية .

فالنبوغ قريحة توجد اولاً ، وعمل يوجد اولاً وآخراً. وما دام الجهاز الدماغي صالحاً للأخذ والاعطاء ، فلا تضير الشيخوخة أحداً ، كما لا تنفع الشبوبية شيئاً ، إذا كانت بلا طاقة .

ان خيط العبقرية يمتد من المهد ولا ينتهي إلا في اللحد ، والأدلة على ذلك كثيرة . فإذا استقرينا التاريخ انبأنا ان الأعمال الجليلة ، في كل ميدان ، كان فرسانها من الشيوخ والشبان .

ليست العبقرية بضاعة ، فنعطى منها نماذج بلا ثمن . ان ثمنها موجع جداً .

العبقرية كالأرض الطيبة التي تخرج نباتها بإذن ربها ثم تعطيك بقدر ما تحرثها وتغذيها . وكنز العبقرية المطمور لا ينبشه إلا العامل المثابر شيخاً كان أو شاباً . فلكي يكون الشبان فاتحين مكتشفين ، فما عليهم إلا ان يجدوا لينبشوا الكنز المدفون بين تلافيف أدمغتهم .

أليس بالكد والتأمل وصلت القردة إلى أن تصوّر وتعرض رسومها مع رسوم نوابغ الفن ؟ فكيف تريد أنت ان تكون شاعراً ، كاتباً ، مكتشفاً عبقرياً ، بلا تأمل ولا تفكير ؟

ان الثرثرة تعوقنا جداً ، وتبدد طاقتنا . فلنتأمل كم جاهدت تلك القردة المسكينة حتى حققت ظن داروين في جنسها . فاجتهد أنت

واعمل مثلها صامتاً .

يقول المثل : لا يخلو رأس من حكمة ، وهذا ما حققته لنا الأيام .

ان الموهبة هي الاساس . اما حجارة البنيان فهي الارادة ، والرغبة ، والطاقة ، وبذل أقصى الجهد . فإذا كنت مزوداً بطاقة ولا تستثمرها فماذا تنتظر ؟

لا يغرنك شبابك إذا كنت شرخاً ، ولا تهولنك شيخوختك إذا كنت هرماً . فالقصة قصة طاقة ، وعلى قدر طاقتك يكون انتاجك .

ألا يذكّر كلامي بقول المتنبي : «على قدر أهل العزم تأتي العزائم» ؟ فالشاعر أو المفكر، أو العبقري يسبق الهامه العلم. ولهذا يكبر المتنبي في عيني كل يوم .

ما عساك تفعل من العظائم إذا كنت تتثاءب ألف مرة قبل ان تنهض من فراشك؟ وإذا كنت هكذا فاعلم انك شيخ محطم ولو كنت ابن عشرين. الفتوة وحدها لا تكفي ، فليست المسالة مسالة سن .

إذا كنت عبقرياً ولا تعمل ، فإنك تظل حيث أنت وقد يسبقك واحد دونك ذكاء ، ولكنه أعظم طاقة وحمية ، ويحب عمله من كل قلبه.

يقولون انه يقتضي لنا سبعون مليون سنة حتى نقطع الفضاء ، ثم تظل تلك الرحلة المليونية بلا نتيجة . أفلا يخطر ببالنا شيخ المعرة الذي قال قبل ألف سنة ونيف :

ولو طارَ جبريلُ بقيةَ عمره
من الدهر ما اسطاعَ الخروجَ من الدهر

المعري شيخ وهن عظمه ورق جلده . والمتنبي أخو خمسين مجتمع أشده ، و كلاهما سبقا العلماء إلى حقائق اقروها اليوم .

أتريد ان أضع لك مخططاً يريك انه ليس للعمر تاثير على أصحاب العقول الكبيرة ؟ ولكني قبل ذلك أحب ان تعرف ما يقوله غلادستون حول هذا الموضوع ، قال : « ان للعمل الذي يمكن استخراجه من الدماغ الانساني حدّاً معيناً ، والرجل الحكيم لا يبذل قواه في عمل لا يطيقه » . فخير ما اتمنى هو إيقاد النار الكامنة في صدور الفتيان، لأن في كل هيكل بشري ناراً خالدة تدفعه إلى عمل نافع ، يبرز فيه على سواه .

يغتر بعضنا بالشهادات والألقاب العلمية ، ويتهافتون على ادراكها بدون علم أو امتحان ، وينامون على الثقة . ولكن باكون قال : « ان الدروس لا تعلم كيفية الاستفادة ، ففي خارج الكتب حكمة تكتسب بالملاحظة . وفائدة الكتب يجب ان تطلب في خارج جلودها » .

والآن فلنقم بما وعدنا ، ولنعد إلى الجدول مبتدئين بالشباب النوابغ .

قال رسكين : « أبدع الآثار الفنية اصطنعت في سن الشباب » . وقال دزرائيلي : « كل شيء عظيم من صنع الشباب . ان القلب هو الذي يتسلط على الشباب ، اما الرجولية فيتسلط عليها الدماغ . فالاسكندر ونابوليون ، كانا شابين حين قبضا على المسكونة » .

ورافائيل وبيرون ، ماتا قبل الاربعين ، وروملوس أسس رومية في العشرين ، وأسامة بن زيد عقد له لواء الفتح وهو يافع . ونيوتن اكتشف بعض أهم اكتشافاته وهو لم يبلغ الخامسة والعشرين ، وكتس

مات في الخامسة والعشرين ، وشلي قضى نحبــه في التاسعة والعشرين ، وأديب اسحق ونجيب الحداد ملتا في هذه السن ، ولوثيروس عدّ مصلحاً في الخامسة والعشرين ، وفيكتور هيغو ألف مأساة وحاز ثلاث جوائز وهو دون العشرين ، وغوت انشأ تمثيليات في الثانية عشرة ، وابن المقفع مات في السادسة والثلاثين وكثيرون من نوابغ العالم ماتوا قبل الأربعين .

وإذا كانت الطاقة تنتج ما انتجت في طور الشباب فماذا يكون منها لو رافقت الشيخوخة ؟ هاك جدول الشيوخ :

غلادستون ، في سن الثمانين ، كانت له عشرة أضعاف القوة والقيمة اللتين يتمتع بهما شاب من طرازه في الخامسة والعشرين ، وهو ميروس الشيخ الأعمى نظم الأوديسة في آخر العمر . ولزوميات المعري بنت شيخوخة مهدمة . وكان ولنكتون وكليمنصو وتشرشل بين السبعين والثمانين حين ربحوا الحرب العظمى . وقصة روبنسون كروزي كتبت في الستين . وافلاطون مات في الحادية والثمانين وهو يكتب . وشوقي ظلت طاقته تعطي حتى الليلة التي مات فيها . وغاليلو ظل في السابعة والسبعين يواصل عمله ويطبق مبادئــه العلمية وهو مكفوف البصر . والشدياق والجاحظ ألفا وكتبا في التسعين، وبرناردشو نيّف على التسعين وظل مرحاً لا تفارقه طاقته

ان الرجال كالخمرة ، فمنها ما يصير خلاً متى عتق ، ومنها ما يصير نبيذاً فاخراً . فــلا تقل إذن : هذا شاب وذاك شيخ ، فما أشبه دماغ الانسان بالبطارية الكهربائية ، فمنها ما يفرغ في الشباب ، ومنها ما يظل

يعطي إلى آخر العمر . فكن إذن شمساً، قوية الطاقة لا قمراً يستمد النور ويستجديه ، ويتضرع إلى الغيوم كيلا تحجب نوره المستعار .

وإذا سألتني كيف أعرف إذا كنت شيّخت ، فإني اجيبك : اسأل قلبك يقل لك . فإذا كنت لا تعتقد انك كبرت ، فانت لا تزال بخير ولو كنت ابن تسعين .

طريق الفلاح

ليس للفـــلاح ، أي النجاح في الحياة ، طرق معبدة ، ولا خطوط حديدية ، ولا اوتسترادات . فعلى كل منا ان يشق هذا الطريق الضيّق بيديه . وما اخال الباب الضيّق الذي عناه يسوع إلا طريق الفلاح الذي كثيراً ما نهتدي اليه ، ولكن بعـــد كد وعناء عظيمين . فمنا من يفلح شاباً ، ومنا من لا ينفتح له باب النجاح إلا مكتهلاً ، ومنا من لا يدرك شيئاً لا شاباً ولا كهلاً .

أصحيح ان الحظ يكمن لنا على جانب الطريق ، فإن التقينا به صفت لنا الحياة وعشنا ببحبوحة ورخاء ، وإلا فإننا نظل نتعثر حتى نصادفه فنسير الهوينا وتفارقنا الحيرة ؟

نرى واحداً ينجح في عمله منذ أول خطوة في هذه الحياة ، ونرى آخر يمشي ويظل حيث هو متنقلاً من عمل إلى عمل حتى لا يدع عملاً إلا جرّبه ، ثم عاد عنه وقعد ينظر اليه ملوماً حسيراً . فما سبب الفرق بين هذا وذاك ؟

إذا قابلنا نحن بـــين الاثنين ، فقد نرى الناجح دون الفاشـل ذكاء واجتهاداً . فما العلة يا ترى ؟

غالبـــاً ما يكون الناجح المفلح من الكادحين في الحياة ، وهؤلاء هم الذين يوجهون أنفسهم ولا يوجههم آباؤهم وأولياؤهم . ولذلك لا يعملون إلا بوحي من رغبتهم ، وهنا سر الفـــلاح . فإذا كنا نحب عملنا شققنا خطة نسير عليها إلى النهاية ، وفزنا بأمانينا وتحققت آمالنا .

انِ لنا منـا وفينا موجهـاً في طريق الفلاح ، فإذا سرنا بهديه عشنا مطمئنين ، وإلا فإننا نظل على هامش الحياة . فما علينا يا ترى ان نعمل ؟

علينا أن نتبع مـا نميل اليه من عمل ، فالعمل الذي نرغب فيـه هو الذي يجب أن نتبعه .

أبوك يريـد أن يراك بين أكابر العلماء ، ولكنك أنت لا تستطيـع ، وأمك تريد أن يكون ابنها سياسياً ، فتفتش لك عن كرسي تجلس عليه لتراك قبالة عينيها وتعتد بك وتعتز ، ولكنك ، أنت لا تصلح ، للرئاسة ولا للسياسة ، لأنك خلقت لتكون رجل أعمال وتاجراً ناجحاً ، فهـــل تضيـع ذاتك بين إرادة أبيك وأمك ؟

لا بد من وجود ميل في قرارة نفسك . وهذا الميل يجب أن تتبـع ، ولو كان عملك ليس من الأعمال الجلى .

أنت هو الذي يشرف عمله . فالناس يعجبهم الاتقان . ولا يمكن أن تخرج شيئاً أنيقاً إذا كنت لا تحب عملك .

لا بد أن تكون فيك قوة ما ، فعليك أن تبحث عنها . ومتى اهتديت

اليها مشيت في طريق الفلاح ، وحق لك أن ترجو خيراً .

إياك أن تقدم على عمل لا ترجو أن تجيده إجادة تامة. فالعمل الناقص لا تقره نواميس الحياة .

قد تقول لي : ومن أين أعرف مقدرتي ؟ وأنا أقول لك : حاول . جرّب . وإذا بدأت فواظب .

لا تتطلب مركزاً لا تقدر على ملئه . وإذا حصلت على مركز فلا تطمح إلى منصب أعلى منه ، بل ارفع شأن مركزك باتقانك العمل فيه .

ان المركز الذي تحصل عليه لا يرفع من شانك ان كنت غير قادر على التصرف فيه وتدبير شؤونه ، بل تزدرى ويُنظر اليك باستهزاء وسخر .

وإذا كنت بلا عمل فاقبل بالعمل الذي تيسر لك . وإذا كان دون مقامك الذي يصوره لك طموحك ، فانت تصل إلى ما تطمح اليه إذا اتقنت عملك هذا ، فيتهافت عليك أصحاب الأعمال .

لا تطلب منك الحياة إلا ما انتدبتك اليه . فلا تغترّ بشهاداتك ووسائلك . فالعمل شيء والحبر على الورق شيء آخر . فرب رجل حامل أسمى الألقاب العلمية لا يستطيع أن يماشي رجل أعمال حصيف ، وان يكن أمياً .

ان طمعنا بجعل أنفسنا غير ما نحن هو الذي أشاع هذه الفوضى في المجتمع .

انظر إلى الناس ، فقلما تجد رجلاً في محله : فهذا جراح في مستشفى كان الأجدر بـه أن يكون جزاراً على ظهر وضم ، وذاك مربٍّ ، لو أنصفته الأيام ، كان يجب أن يكون راعي بقر أو غنم ، وتجد محامياً لم يخلق إلا ليكون مزارعاً ، وفتياناً يبيعون أوراق اليانصيب أو يحملون السلّ للعتالة كان يجب أن يكونوا على مقاعد الجامعات العالية يتلقون العلوم العويصة .

ان رغبتنا في المجد الباطل هي التي جعلتنا نتبادل المراكز . وهي التي جعلتنا نزدري المهن ، ولا نفكر إلا بالسلطة الفارغة ولو على قنّ دجاج .

ان كل عمل هو شريف إذا كان صاحبه من ذوي الضمائر الحيـة .
فاصغ إلى صوت ميلك ، وأجب نداء رغبتك . وإذا أراد أبوك أن ترث مهنته مع عقاراته، وأنت لا تميل إلى ذلك فقل له: فتش عن وارث غيري، وأنا سأفتش عن عمل أحسنه وعقار أستطيـع استثماره .

ليس المال كل شيء . فرب ذي مـال لا تلعنه الناس حتى بالأجرة ! فلتكن غايتك العمل الشريف ، اما المال فلا يبقى .

اهتم قبل كل شيء بأن تكون انساناً، وبعد ذلك اختر من المهن الحرة الشريفة واحدة تحسنها وتبز فيها الآخرين ، وإلا فخذ أي عمل آخر مـع أنانيتك فذاك شرف كبير لك .

وإذا كنت بلا أعوان ولا أنصار ، فالنصيحة التي ازودك بهـا ، إذا كنت مباشراً العمل جديداً ، هي فيما قال رسل ساج :

ان خير طريقة يبدأ بها شاب لا أصدقاء له ولا نفوذ هي :

(١) ان يوجد مركزاً . (٢) ان يحافظ على الصمت. (٣) ان يلاحظ. (٤) ان يكون أميناً . (٥) ان يجعل مستخدمه يعتقد أنه إذا استغنى عنه خسر . (٦) ان يكون مهذباً .

وأخيراً اتخذ مهنة فهي عقار لا يبور . ومهما عملت فكن أعظم من عملك وفي ذلك فلاحك .

إذا كان الحيوان يروز حملته قبل أن يقدم عليها ، فلا يقفز من عبر إلى عبر إلا بعد التحقق من قدرته على ذلك، أفلا يجدر بك أن تكون أنت خيراً منه ؟ !

احذروا الغضب

الغضب هو أحد فرعي غريزة حفظ البقاء في زعم علماء النفس .

فغريزة حفظ البقاء عنـــدهم قسمان : دفاعي وهجومي . فغريزة الخائف دفاعية ، فلا تلمه إذا شمّع الخيط وأنقذ فخّـارته من التحطيم ، كما عبّـر أبو دلامة .

أما القسم الهجومي فهو غريزة الغضب التي تشتعل في النفس وتحرق ما يقف في وجهها ، وأحياناً تحرق نفسها ولا تبالي ، ولا يطفىء نارها إلا منازلة الخصم . انها الغريزة التي لا تقاوم . وقد نفخ الشعراء في نارهـــا فأضرموهـــا ، حتى أن أبا الطيب حرض على الغضب وجعله طويل العمر بقوله :

لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى
حتى يراقَ على جوانبِـهِ الدمُ

وكما ان المتنبي لا يهـادن أبداً ، فهناك شعراء قبله وبعده حثوا على حبّ السلامة والمغفرة .

اما السلف الصالح فقاوم بالمثل جاهليـة الناس ليكسروا من حـدة شرّتهم وستأتيك أخبارهم .

لنبدأ أولاً بما علمته الكتب السموية . فالقرآن الكريم لم يمهل الغضوب حتى يغفر إلا لحظة حيث قال : وإذا ما غضبوا هم يغفرون .

وجاء في الكتاب المقدس : فلا تغرب الشمس على غضبكم . وكما روى متى الانجيـلي ، في خطبة الجبل التي نقلهـا عن لسان معلمه : ان كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجباً الحـكم ... فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك قربانـك ، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك .

وقد ذكر عن لنكولن أنه كثير المسامحة حتى قـال : ليس لنا أن نلوم أحدا على مـا يقوم بـه من عمل ، فنحن جميعاً مسخرون للظروف والأقدار ، تسيرنا البيئة التي نشأنا فيها ، والتعليم الذي تلقيناه ، والعادات والوراثة التي تكيف الناس وتلصق بهم طابعها الخالص إلى الأبد .

يقول لك الطبيب : لا « تنرفز » أي لا تغضب . ومـــع ذلك نرانا نغضب لأدنى سبب . ولعل عذرنا موجود فيما سبق من كلام لنـكولن .

قال لي أحـد أطباء العيون : عش هادئاً خالياً من التفكير إذا شئت المحافظة على ضوء عينيك عش عيشة نبات .

فضحكت وقلت : وما رأيك لو عشت عيشة حيوان !

فاجاب : لا ! ان الحيوان أقل تفكيراً من الإنسان. هو يغضب حين يفترس . وأنت يجب أن لا تغضب أبداً ...

قلت : إذن تريد أن تجعل مني طوباويّاً حيّـاً .

فقال : كن أكثر من قديس ، إذا شئت المحافظة على نعمة النور .

وعملت بمشورتـه أسابيـع ، فبان لي الفرج . وصرت إذا اسـتفزني الغضب ، أتذكر وصية الطبيب . ولكني لم أستطع الحياة بدون فكر .

كنت أغضب إذا غنت الذبانة وحدها ، كما قال عنترة ، وبقيت كذلك حتى قرأت أخيراً كلمة العالم البسيكولوجي فرنسيس جيمس : « ان الله يغفر لنـا ذنوبنا وخطايانا ، ولكن جهازنا العصبي لا يغفرهـا أبداً » فهو يصرعنا فوراً .

نعم ! قد رأيت في حياتي أكثر من واحـد ماتوا فجاة ، لأن غضبهـم حمي جداً ، فانفجر الأظان . ولعل المسيح لم يوص بالمغفرة ومحبة الأعداء والغفران إلا لأمرين : اكتساب مكارم الأخلاق ، والمحافظـة على الحياة . فأمراض القلب وضغط الدم ، والسكّري ، وقرحـة المعـة وغيرهـــا لا يقاومها إلا الهدوء والسكينة والحـــلم . فالغضوب يعاقب نفسه ساعة غضبه .

قال ديل كرنيجي في كتابـــه « دع القلق وابدأ الحياة » : « إذا لم نستطع أن نحب أعداءنا ، فلا أقل من أن نحب أنفسنا » .

أمـا نصح المسيح بنبذ الغضب ، والغفران سبعين مرة سبع مرات أي ٤٩٠ مرة ؟

أما الحمقى من الناس فيعدون الغافر جباناً ، ويا للأسف !

أعرف واحداً كان يقول لزوجته : إذا حميت أنا ابردي أنت ، لأننا

إذا حمينا كلانا وقفت الحية على ذنبها .

وهكذا استطاع صاحبنا أن يغضب وحده ويموت وحده . ويفسح في المجال أمام زوجته لتعرف عريساً جديداً .

ولولا شرور الغضب الكثيرة لما عدوه في النصرانية من الخطايا الرئيسية . ألا تضحك من نفسك حين تغضب لأن أحد الناس مر بك ولم يؤدّ لك التحية كما عوّدك الناس من مراسيم ؟ فلو نطق أهل القبور وسألتهم عن التي أماتتهم لأجابوك : ان الغضب قصف أعمارنا وأودعنا في هذه البيوت الضيقة المحكمة السدّ .

نعم ! نحن معرضون للغضب في كل دقيقة . يغضبنا أكثر ما يحدث في بيوتنا ، وأكثر أعمالنا وفي شوارعنا . نغضب حتى إذا لم تجر الريح كما تشتهي سفننا أو لم تمر بنا بترتيب .

لقد تنافست العرب في الحلم والتغلب على الغضب ، فأصبح الناري الطباع حليماً ، واسع الصدر ، طويل البال ، كما سنسمع من أخبارهم ، واليك ببعضها :

غضب زياد فأمر بضرب عنق رجل . فقال له ذاك الرجل : أيها الأمير ، ان لي بك حرمة . فقال : وما هي ؟ فأجاب الرجل : ان أبي جارك بالبصرة . قال : ومن أبوك ؟ فقال الرجل : اني نسيت الآن اسم نفسي ، فكيف لا أنسى اسم أبي ؟

فبرد غضب زياد ، ورد كمه على فمه وضحك ، وعفا عنه .

قال رجل لرسول الله (صلعم) : أيّ شيء أشدّ ؟ فقال النبي : غضب

الله ، فقال الرجـل : وما يباعدني من غضب الله ؟ فأجابـه الرسول : ان لا تغضب !

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله : لا تعاقب وأنت غضبان. وإذا غضبت على أحد فاحبسه . فإذا سكن غضبك فأخرجـه فعاقبه على قدر ذنبه . ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً .

وقال الصحابي أبو ذر لعبده : لماذا أرسلت الشاة على علف الفرس .

فقال : أردت أن أغيظك وأغضبك .

فقال أبو ذر : لأجمعنّ مع الغيظ أجراً . أنت حر لوجه الله تعالى .

وقال لقمان لابنه: ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند الحرب ، والأخ عند الحاجة .

بهؤلاء فلنقتدِ . ولكن أصحاب الغضب المزمن لا دواء لهم .

الاكواخ منابت العباقرة

عند الألمان مثل يقول : « الفقر هو الحاسة السادسة » . ومعنى هـذا أنه إذا كنا نعتمد على حواسنا الخمس لنعمل في هذه الدنيا ونفلح ، فالفقر يسلحنا بحاسة سادسة . والستة خير من الخمسة . فلا تقل بعد هذا : أنا ابن فقير . ولا تحسد الغارقـين في بحور النعمة ، ولكن قـل سأصير مثلهم . وشمّـر عن زندك ، ولا تقض حياتك قانطاً بائساً .

وبعـد ، فليس المال كل شيء ، ولو خلق الناس مكفيين لما فكروا بعـلم وأدب ، ولظلت الإنسانيـة تفترش الأرض ، ولما رأينا ناطحات السحاب ، ولما سابقنا الطيور تحت قبة السماء .

ان الفقر لا يخلو من النعم . أليس في قريتك جبال ؟

تأمل تجد أن أقوى الأشجار ترتفـــع من بين شقوق الصخور إلى الأعالي . فالأرز الذي يتغنّـى به شعراء العالم ، وتقصده الناس من أقصى أقطار المسكونة هو ابن فقر . لم ينبت في مهاد نعمة التراب والسماد، وان كانت جذوره تمتد إلى القاع .

هو خالد لأنه يصبر على شظف العيش ، فلا يتكل على من يكافح عنه الحشرات الفتاكة .

فاشكر الفقر إذن لأنه يقويك منذ نشأتك ، ويجعلك جباراً عنيداً لأنك تكون ذقت طعم نار الفقر .

والسنديانة لا تحتاج إلى تربة كثيفة أو عناية وسهر كما تحتاج التفاحة وغيرها من بنات البساتين وربيبات الحراث ، فهي بنت الغاب ، وفي الغاب مرابض النمور والأسود .

التفاحة تذكر مع اللذة ، أما السنديانة فمع القوة والصرامة والعناد . وتلك هي الرجولة المخشوشنة مربى الغاب .

التفاحة يسيل لذكرها اللعاب ، أما السنديانة فتتفتح عند ذكرها الاوداج والاعصاب .

التفاحة بنت سنوات ، أما السنديانة فبنت مئات ، لم يغرسها ولم يتعهدها أحد ، وكذلك العباقرة .

وإذا رأيت فقيراً اغتنى وهو يرى الإحسان أطيب شيء ، فلا تقل يا سبحان الله ! كيف كان وكيف صار ، وما أجمله محسناً !

أعلم أنه خريج مدرسة الفقر النابغ . وهو باحسانه إلى البائسين يثأر لنفسه من الفاقة ، وأخذ الثأر لذيذ . أليس كذلك ؟

قال أحد الحكماء : « ليست كل مصيبة لعنة ، فكثيراً ما يكون الفقر في أول العمر خيراً وبركة » . وهذا ما نراه بأعيننا . فالقابضون اليوم على مقاليد التجارة والصناعة هم أبناء فقر ، وذاقوا طعم الحاجة صغاراً .

لا أدري من قال ما معناه : يظهر ان امريكا مديونة للأكواخ ، لأن أشهر أعاظم العالم ، لا في امريكا وحدها ، طلعوا منها .

هل أعدهم لك ؟ لماذا ؟ عدهم أنت .

ما عليك إلا ان تفتح كتبك لتعلم ان اديسون الامريكي هو من أبناء مدرسة البؤس ، وان سبنسر الانكليزي كان غلامـــاً حافي القدمين . ودزرائيلي الذي وصل إلى رئاسة وزارة بريطانيا لم يكن يرفل في صغره بحلل الديباج !

لا يا أخي ! انه كان آخر الفقراء رتبـة ، ولكنه كان ذا عقل ثاقب وارادة فولاذية . وقد عبر عن ذلك بقوله : « ان ما حدث أمس سيحدث اليوم . وأنا قادر على التغلب بالثبات والحمية على أعظم المصاعب » .

ومضى يحـاول ، ولكنـه لم ينجح أولاً ، لأن المجلس كان يستقبله بالصفير والاستهزاء ، حتى قال مرة لأعضاء مجلس العموم : « سيأتي يوم تصغون فيه إلى كلامي » . ثم ظل يعمل حتى جاء اليوم الذي صار فيـه دزرائيلي قطب عصره بلا منازع .

وجاء في كتاب الدكتور سويت ماردن عن لنكولن انه ولد في كوخ خشبي ولم يدخل مدرسة قط. كان وهو شاب يقطع الألواح ليبني له كوخاً خشبياً يأوي اليه ، وهو بدون بـلاط ولا نوافذ . تعلم الحساب على ضوء الموقدة ، وراح يجـد ويكد حتى صار لنكولن الذي لا تزيـده عظمة إذا قلنا : رئيس الولايات المتحدة .

وهناك الرئيس الامريكي الآخر جيمس غازفيلد. كان كناساً وبغالاً.

وأخيراً صار قارع الجرس في الكلية التي تخرج منها . وقل لي بعد هذا : ليس لي وسائل لارتقي واتقدم .

أأذكر لك الجزار ، ومحمد علي ، والمير بشير ، وغيرهم ممن ولوا الأحكام ؟

أم اذكر لك الفارابي الفيلسوف ، والمطران الدبس صاحب تاريخ سوريا الضخم الذى كان طالباً فقيراً شديد الحاجة إلى حذاء ، فاشتراه له رفاقه ، ولم يحل الحسد بينهم وبين تلك المكرمة ؟

والأنبياء ، صلوات الله عليهم ، أليسوا أبناء فقر ؟ أما التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدواً ؟

والسيد المسيح ، أما كان ابن نجار ، وعاش وليس له مكان يسند اليه رأسه ، ثم مات وما على جلده قميص ؟

ومحمد رسول الله، هل كان من تجار قريش؟ أما مات ودرعه مرهونة؟

وأبو بكر ، أما مات ولا ثروة عنده ؟ أما أمر ان ترسل القطيفة التي كان يتخفف بها إلى بيت المال ؟

ثم ما لك ولهؤلاء . جل جولة خفية واسال عن صروح الأعمال في عواصم الشرق ، فيقولون لك هذه لمن وتلك لمن . لست اسمي لك واحداً لأنك تعرف المشهورين منهم ، وستستغرب متى سموا لك جدداً . ليس المهم ان تعرف اسماءهم ولكن المهم ان تعرف انهم كانوا مثلي ومثلك .

ليس في الدنيا فقير يحق له ان يقول : ليس لدي رأس مال فكيف اباشر عملاً وابلغ ما بلغ الناجحون في الحياة .

وكيف يقول ذلك من يحمل رأس ماله في يديه وهو لا يعرف انـــه حامله ؟ اشتر، عفواً ، استعر كتاباً يشرح لك تكوينك العجيب المحصور بيانه بهذا البيت الشعري الصغير :

وتزعـم انـك جرم صغير وفيك التقى العـالم الأكبر

ان الذين يشقون الطريـق إلى العوالم الأخرى ، ويحاولون الوصول إلى جارنا القمر ليزوروه زيارة ودية ، يعجزون عن خلق شيء مثلك ... يخلقون آلات تحتاج إلى وقود ومدبرين ، أما أنت فوقودك منك وفيك وتدبر نفسك بنفسك . ان القيـــود التي تدبرك لتضحكك إذا فهمت حقيقتها .

أتعرف مـا في يديك ورجليك وعينيك وأذنيك ونخاعـك من قوى لا تقدر ؟

اذهب إلى غرفة التشريح ، وإياك ان تقول بعـــد ذلك : ليس لدي رأس مال اباشر به عملاً . ان في كل واحد منا، حتى الذي ليس عنده عشاء ليلة ، جهازاً يمكنه ، إذا كد واجتهد ، من خلق الأقمار والصواريـــخ وقنابل وعجائب لم تظهر بعد .

ولكن إذا كنت رخواً لا يعنيك إلا ان تأكل وتشرب وتنام وغـير ذلك ، فلا تفلح أبداً ، ولو نادوك ألف مرة في اليوم : حيَّ على الفلاح !

والغريب جداً انك تندب قلة حظك ، وتشكو ان لا حظ لك. انك تريد الدجاجة منتوفـة محلوقة مطبوخة مقدمة لك على صينية فضية . ان هذا لا يكون . فإذا أردت ان تأكل طعاماً شهياً لذيذاً ، فلا بد من حرق

اليدين . ثم كيف تشكو غياب الحظ وبعده عنك وهو بين يديك ؟

ان في يديك عشرة حظوظ لا حظاً واحداً ، فأصابعك العشر كل واحدة منها حظ . فاعمل بها واقبر الفقر .

اعتمد على قول الشاعر وامض في طريقك بحزم وصبر ، ولا تلتفت وراءك ، وإذا كنت لا تعد النجاح إلا في كسب المال ، فاعلم انك ستمسي غنياً إذا عملت بحماسة .

بيد ان المال يزول ، وهو لم يوجد إلا لقضاء الحاجة . انـــه واسطة لا غايـــة .

أتظن دول الأرض تبيع نابغة واحداً بملايـــين الدنانير ؟ فاطلب خوالد الأعمال . وإذا هزىء بك غني متخـم فقل له : يا مرحبا بالفقر إذا كان منبتاً للعباقرة .

مصرع العدل والمحبة

في إحدى أمسيات الخريف ، كان شبح يتمايل بين أشجار غابة صنوبر تشرف على البحر . وكان ينظر إلى البحر بقلق واضطراب . وكان على قسمات وجـه ذاك الشبح بقية من جمال كاد يبتلعها الهزال فالوجـه كالزعفران اصفراراً . والجسم رقّ وضمر حتى كاد ان يطير مع النسيم .

كان ذاك الشبح يمشي الهويناء لا ريث ولا عجل ، وحيداً قلقاً كأن وراءه من يطارده . يلقي نظرات تائهة على ما حوله ، ويرهف أذنيه ليسرق السمع ، فلا يقع في أذنيه إلا همهمة نسيم ، وصدى اوراق تتناثر .

كان يرتجف كلما تهاوت ورقة ، ويرتعد فرقاً كلما هبت نسمة قوية .

كان هذا الشاب قلقاً جداً ، يتمشى ويتوجس خيفة ، فكأنه والقدر على موعد .

لا يدري أحد ما يتوقعه هذا الظل البشري من عالم الغيب ، ولا أي سرّ ينتظر ان تتلقاه الأرض من السماء ، فأشبه هـذا المسكين ، في

اضطرابه وهزاله ، ظلاً لشجرة معرّاة من اوراقها ، أو خيالاً هبط من السماوات العلى .

والتفت صوب البحر ، فرفع نظره الحائر على بساط البحر الكرمسوتي ، فرأى خليج جونيه الذي تحته يتراقص تحت عين الشمس ، وهي تهبط رويداً رويداً تاركة في الأفق لهيباً داكناً كانه ابتسامة غضب بدرت منها على ما شاهدته وتشاهده من ظلم بني البشر . وحزنت الآكام والقمم لحزن أمها التي توارت في الحجاب ، فانتزعت من خزانة الليل أحلك ثوب يلائم حزنها وحدادها .

وهب النسيم بليلاً منعشاً ، ثم جفت طراوته وكانه ندم على ما فعل ، فما عتّم ان استحال إلى ريح صرصر تصول وتجول في تلك الغابة، فنثرت أوراقها الواهية فكست الأرض صفرة تنسجم مع وجه الزائر البائس .

وبدا القمر من وراء الجبال التي لا تزال تحمل بقية من عطر فضائل الآباء القديسين ، فابتسم ابتسامة عريضة ، ولكن سرعان ما بادر إلى التلثم بالغيوم. لعله أدرك ، أو ان الشمس نقلت اليه نبأ جديداً عن تجبر الناس واستبدادهم ، وما هم عليه من ظلم وبغض ، ومحبة ذات وحقد ، فغطى وجهه لئلا يراهم .

والطبيعة التي تسمع دبيب المنى هدأت حركتها هنيهة كأنها تصغي إلى صوت الشبح المضطهد المشرّد .

أما الشبح ، فحين أيقن انه بمنأى عن مضطهديه، هام على وجهه باكياً منتحباً ، وان كان لا يرجو من القدر الأعمى فرجاً لكربته ، فهو يعلم

المكتوب له في لوح الازل . انه سيلفظ آخر نفس من أنفاسه قبل انشقاق الفجر . فمشى هائماً يروعه تساقط أوراق الأشجار ، وتقلقه زغردة الرياح، فينتبه إلى ما لا يدرك وكأنه يقول للرياح : رويداً رويداً يا اختي، فسوف لا تهبين إلا على ذئاب في ثياب . زمجري ما استطعت إذا كنت مستعجلة .

وكان الشبح يفتح عينيه السوداوين للريح العاتية دون ان تتأثرا بما يصفع وجهه من غبار ، لأنهما غارتا في محجريهما .

كان ينظر إلى القمر الذي يتخبأ تارة خلف الاغصان ، وطوراً وراء الغمام الظاعن في بيداء السماء ، فينفر من هذه المداعبة ويقبع كالغزال الشارد .

ولما بلغ ساق سنديانة قضت العاصفة على عنفوانها ، قعد عليها يلتمس الراحة .

وأرخى لنفسه عنان التصورات . وراح يراجع تاريخ حياته منذ بلغ التذكر حتى الساعة التي هو فيها .

ندب سوء حظه ومصيره ، وكيف بعد ان كان يتسربل ثياب النعمة السابغة ، ويتقلب على فرش العزة والكرامة ، أضحى طريداً شريداً ليس له مكان يسند اليه رأسه .

حاق به الذل ، وجاءه الهوان فاحتل دياره ، وأصبح له في كل عضو من أعضائه مرتع ومقيل .

فبعد ان كان بين البشر أعز من الحياة وأطيب منها ، أمسى أذل من مومس ، يُطرد عن أبواب القصور التي كان يرتع فيها بالأمس .

كان لا يرضى إلا بفوق الفوق ، وصار يرضى بأقل من القليل ، ولا يدرك شيئاً من القليل التافه .

وبينا هو غافل عن كل شيء ، حتى وجوده ، إذا به يسمع صوتـــاً يناديه ، وقد نزل في مسامعه نزول المطر على زهرة أضناها حر النهار :

ـ حبيبي أين أنت ؟

ـ أنا هنا يا زهرتي الذكية .

ـ حبيبي ، وماذا تفعل وحدك في الغابة ؟ أما خفت من الذئاب !

ـ وكيف أخاف الذئاب وأنا بينهم ؟

ـ وماذا جئت تعمل هنا ؟

ـ اناجي الله لعله يسمع صوتي .

ـ والذئاب قلت لك !

ـ ولأجل الذئاب الداجنة أناجي ربي . ما هربت إلى هنـا إلا لأنهـم سيتغلبون علي . لقد دنت الساعة ومن ينجيني منها ؟

وكان المتكلم فتاة سماوية الجمال ، إلهية الحسن ، كالتي رآها سليمان وهام بها في نشيد انشاده . ولكنها غير ملتحفة بالشمس والقمر والنجوم ، لأنها ليست بطالعة من البحر . هي جبلية مثلنا . خطبها هذا الشبح المسكين قبل أن يصير الشبح الذي سبق وصفه ، وقبل أن يصاب بدائه العضال ، ولكنها لم تتخل عنه لشدة حبهـا له . ولم يبعدها عنه الداء القتال الذي ألمّ به فأحاله عن العهد .

آثرت هذه الفتاة الموت على حياتها بدون حبيبها . وها هي قد دنت

منه ، ورسمت على جبينه قبلة المحبة التي هي أقوى من الموت .

وبعد سكوت لا تصفه الأقـــلام هتفت به : هيا بنا يا حبيبي ، إلى العشّ الذي أحسسنا فيه بالدفء . ألا ترى أنك ترتجف كهذه الاوراق التي تتساقط حولنا وعلينا ؟ قم ولا تيأس . لا تقنط من رحمة الله .

ـ أيّ عشّ بقي لنا يا حبيبي ؟ لقد مزقته الرياح والفراخ مهيضوا الجنـــاح .

ـ قم قلت لك . انتصر على هذه السويداء بالرجاء .

ـ عبث . دعيني أرقد هنا مستريحاً . ما بقي من عمري إلا دقائق معدودة . اتركيني هنا وامضي إلى البيت وحدك .

فانتحبت الحبيبة وكادت تولول لو لم يزجرها بقوله : ابلعي صوتك، وإلا اهتدوا الينا وقتلونا معاً شر قتلة .

وتهاوت عليه وطوقت عنقه ، فصرخ : إياك . ابعدي عني. ألا ترين سائر الاصدقاء والخلان الأوفياء قـــد هجروني ونبذوني ؟ لم يعودوا يكترثون لي . فاتركيني وشاني . دعيني أموت وأنا أنظر إلى هذا الصنم الضخم الذي يلجأون اليه خدعة واحتيالاً ... لا أجدف ولا ألعن، ولكنني أقول : الويل للذين يأكلون اللباب ويلهون المساكين بالقشور .

ـ قم معي ! والله لا أروح ولا أدعك وحدك . الليل كافر يا حبيبي.

ـ ليس أكفر من هؤلاء ...

ولما أعيتها الحيلة ، قعدت حدّ رأسه تداعب شعره الذهبي بأناملها الفضّية .

وبعد سكوت طويل ، زمجرت الرياح ، فارتعدت فرائض الشبح ، وبكل تعب وجهد رفع رأسه والتفت نحو الشجرة التي قبالته . وبعد تأوّه وتنهد قال لصاحبته : انظري إلى هذه الشجرة التي هي أمامنا . ألا ترين أن الرياح لم تبق من أورقهـا سوى خمس ورقات ؟ انظري اليها جيداً . تفرسي بها .

وظلت تظنه يهذي حتى قال : ان ساعتي الأخيرة مرهونة بسقوط هـذه الاوراق الخمس ، ومع سقوط آخر ورقة ألفظ آخر نفس من أنفاسي .

ـ ماذا ؟ أنت تموت ؟ هذا لا يكون ، لا يا حبيبي !

قالت هذا وطوقت عنقه بذراعيها وأردفت قائلة : أنت تموت؟ أنت تفارق الحياة وأنا أبقى ؟

ثم أخذت تهطل الدموع بغزارة . وكانت كلما حدقت نظرها اليه ، أمعنت في الشهيق وارسال الزفرات الحرى .

وعند ذلك هبّت ريح شديدة فذهبت بثلاث ورقات من الورقات الخمس ، فهتف الشبح المسكين : مهلاً أيها القدر لا تنزل غضبك ولا تجرد سيف نقمتك . مهلاً أيها الحاكم الصارم . مهلاً وارحم والدتي التي سيرمي بهـا فعلك في هاوية اليأس فالانتحار . ألا تدري انها ستمسي ثكلى من بعدي . بالله مهـلاً ، لا تقسُ عليَّ . فلست أقوى من تلقّي ضرباتك ، واحتمال تعذيبك .

ولكن لا ، فلتكن مشيئة المبدع . فكل شر يأتي من عنده هو السبيل إلى إيجاد ما هو أحسن .

خذ هذه الروح واذهب بها إلى دنيا أفضل ، وارم هذا الجسم حيث تشاء ، فلا خير فيه ما دامت خاصتي لا تعرف له قيمة .

ظنوه شيئاً كلا شيء .

رحماك اللهم ، ألا ترد عني كأس الموت ؟ ألا ترحم شبابي ؟ ألا ترثي لصباي ؟ حوّل نظرك عني ، إلى غيري ، فأنا وحيد لوالدتي وركنها الوطيد .

اواه ! مــا من فنائي مناص . هـذا مـا حلّ بالغابرين حين زاغوا وفسدوا .

فأجابــه صوت رددت الأودية صداه ، وسمع في أطراف الغابة : لا مناص ! لا مناص !

وتلت الصوت زمجرة ريح شديدة اطاحت بالورقة الرابعة . فصاح الشبح : ها قد سقطت الورقة الرابعة ، ولم تبق إلا واحدة تكاد تسقط . فهيّا أسرعي إلى البيت يا حبيبتي ، ونادي أهلي وأقاربي ليأتوا إلى هـذا المكان . فقد دنت الساعة التي اسلم فيها روحي . لا يجيئون لأنهم يخافون مني . يخافون ان تسري اليهم العدوى . آه يا ربي !

فصاحت الفتاة بملء فيها : أنا لا أبرح هذا المكان ! فإما أن نذهب كلانا إلى البيت أو أبقى بقربك إلى ما شاء الله .

فقال الشبح : لا سبيل إلى البيت . ابقي أنت هنا لأنك لست مثل

أهلي قلبك من تراب . آه ما أنبلك وأشرفك وأطهرك ، وما أشد ظلمهم وبغيهم وخبث نياتهم . ولكن ابتعدي عني قليلاً فاني أخاف ان تحرقك أنفاسي الحرّى .

قال هذا وتمطّى ، وبعد ألف جهد أخذ غصناً يابساً خطّ به على الثرى : ما أثقل الحياة في أرض ماتت فيها الفضائل .

وهبت الريح مرة ثالثة وحملت الورقة الخامسة إلى مكان بعيد . واغبرت السماء . وانتشرت في الأفق غيوم سوداء مكفهرة تنذر بمطر غزير .

وطلع الصباح على جثتين : الشبح وبجانبه حبيبته الفتاة النبيلة ، وفوق رأسه ومن حوله والدته واخوانه : المروءة والدين والمحبة والوفاء والشرف .

فسلام على فقيدين وفيين نبذتهما الدنيا ، ولما فقدتهما ندمت حين لا ينفع الندم .

لقد مثل الشاعر العظيم مصرع العدل والأخوة ،فشبههما بفتى وفتاة، وشبّه الدين والمروءة والمحبة والوفاء والشرف بالورقات الخمس التي ، إذا تعرّت منها شجرة المجتمع البشري ، فقد كل فضيلة وانهارت فيه أركان السعادة البشرية .

ان الضمير ، وهو الحارس الأمين لشجرة الإنسانية، هو الذي يوجهنا في سبيل الحفاظ على الورقات الخمس لئلا تصير شجرتنا حطباً لا ثمر فيها ولا ظل لها .

فعبثاً نطلب أخوة بدون عدل ، ولا عدل بدون محبة .

وإذا قالوا : العدل أساس الملك فنحن نقول : العدل أساس المجتمع لا أساس الملك وحده . فالملك زال ويزول ، أما المجتمع فباق حتى قيام الساعة .

والويل للمجتمع إذا خلا من المحبة. أما غُفِرَت ذنوب مومس المجدل لأنها أحبت كثيراً ؟

من وحي الاعياد

عيدٌ بأية حال عدت يا عيد !

كذلك تساءل الشاعر الجبار منذ الف عام ونيّف . وها نحن نتساءل اليوم ، بل أكثر منّـا كل عام مضى : ترى ما يحمل لنا هذا العام بين ثنايا ثوبه المبطّـن .

الأعياد واحات يستريح فيها الإنسان هنيهة ثم يغذ في سيره إلى حيث لا يدري . ولكن ما لنا وللواحات . فالواحات صارت كلا شيء ، لأننا صرنا نقطـع الأجواء قاعدين . فاستراحت أجسامنا وتعبت عقولنـــا وأفـكارنا .

كنا نصلي هاتفين : المجد لله في العلا ، وعلى الأرض السلام. أما اليوم، والسماء تهددها الجبابرة ، فلنسأل لها السلام بدلاً من الأرض التي اخرجت من أحشائها ما دفع بنيها صعداً .

يقول أبو الطيب في شطر بيته الآخر : بما مضى ام لأمر فيك تجديد.

منذ الفي سنة وأكثر كان لبني اسرائيل عيد يسمونه عيد التجديد ،

وقد قال سليمان : لا جديد تحت الشمس . فماذا تراه كان يقول لو قام اليوم ورأى انسان هذا العصر يحاول فتح السماء بأقماره وصواريخه ؟

وبعد فتح السماء ، يا اخوتي ، ماذا تنتظرون ؟ ألا تكفيكم خيرات الأرض ؟ اتركوا هذه الأسرار مكتومة لتظلوا تقولون : المجد لله في العلاء .

انكم ترعمون ان قنابلكم العتيدة تفني الارض . والأصح كان ان تقولوا « تخربط » المسكونة وما تفني أحداً غيرنا . فالارض تتكون بشكل جديد ليرثها غيرنا ، فلا تتعبوا قلبكم يا مساكين !

تأدبوا يا قضاة الارض . هكذا قال داود . ومع كل هذا انني اتمنى للعلماء ان يعودوا من شطحتهم الجوية غانمين ، فلعلنا نقضي ما بقي من العمر في سياحة ممتعة في كوكب غير هذا الكوكب .

أما الأعياد ، وهي الغنية بالذكريات ، فانها تخمة للسعداء ، وحسرة للأشقياء ، وضربة على البخلاء ...

كنا صغاراً وكانت أعيادنا على قدّنا ، ولما كبرت آمالنا وأمانينا ، فصارت أعيادنا حسرات .

كنا ننتظر العيد في شبابنا ، أما اليوم فصرنا نعد العشرة ونقول : ترى هل نعيش إلى العيد القادم ؟

أما الفقير فعيده مأتم . ومع ذلك يساهم فيه قدر المستطاع .

المعسور والميسور كلاهما يتباريان في حلبة العيد ، وما قتل الناس غير التشبه والمنافسة ، ولولا أنفق الأغنياء كماليات الأعياد على عمل البر

والإحسان لما شعر الفقير ان غنى البخيل جريمة كبرى .

ندعو بعضنا بعضاً إلى ولائم كلها تخمة لنا ، أما الفقير فله الله . ومن يعلم مشيئة علام الغيوب ؟ فما أجمل ان ندعو الفقراء إلى مأدبة من مآدبنا السخية ونوا كلهم على المائدة . ألا نكون ، إذا فعلنا ، قد عملنا بدعة جديدة واسلوباً طريفاً من أساليب الحياة ؟

وإذا كان هذا الاقتراح لا يعجب السراة، فليعدوا في الأعياد مأدبتين: واحدة للعراة الذين ما عليهم من الخام ريحة ، وواحدة للسراة المموّهين بالذهب .

ولكن ممن نطلب ؟ فالكرماء المستورون غير قادرين ، والبخلاء يوم العيد عندهم مناحة .

قلت فيما سبق : العيد ضربة على البخلاء . وقلت اليوم : العيد مناحة صامتة . والسبب هو ان البخيل لا يقوى قلبه على مفارقة رفقاء العمر من ماله ، تلك القروش التي ألقاها في حبس الدم ، فشابت وهرمت في صندوقه .

جميع الناس يفرحون في الاعياد ، وينتظرون مقدمها ، إلا البخيل، فإن دقات قلبه تزداد رويداً رويداً كلما اقتربت ليلة العيد . فهو يتلوع سلفاً لفراق حبيبه القرش الاسود ، ولا كان اليوم الابيض .

انه البخيل يوم العيد حتى بالابتسامة، فلا يفتح شفتيه على مصراعيها. يشق باب فمه نصف شقة ، وينظر إلى المعيّدين وكلهم لا يسوون في نظره قرشاً واحداً يفلت من الحبس .

عرفت عملاقاً من هؤلاء البخلاء ، فترحمت على أبي العتاهية القائل :

انك لو تستنشق الشحيحا   وجدتـه انتن شيء ريحا

كان هذا البخيل المثالي عقيماً ، قلت عقيماً وأنا أعني ما أقول، فجاء لداته يقولون : أنت لا تطمع في عقب ، أليس من الخير ان تعطي قسماً من ثروتك الوافرة إلى ابن اخيك ؟

فاعمى ذلك الحبر الاسود نظره ، ولكنهم لم يتركوه وشانه ، بـل راحوا يداورونه . فراح يعتذر وينشر العلل . وأخيراً اهتدى إلى حلّ من باب : « عين لا تقشع وقلب لا يوجـع » ، فكتب سنداً لأمر ابن اخيه يستحق بعد ثلاثين سنة .

هذه حكاية هذا البخيل العبقري . أمـا أنا فما عرفته إلا على أبواب التسعين ، فزرتـه إذ ذاك ورأيته يهمهم ويدمدم ، فقلت : خير ان شاء الله .

فقال : واين الخير ! كتبت سنداً لابن اخي منذ ثلاثين سنة ، على أمل ان يقبضه بعد موتي ، وها أنا عشت ولا بد من الدفع .

فقلت : اشكر ربك انك عشت . عيد مبارك .

فصرخ : ومن أين تأتي البركة ؟ هل يجيء من الأعياد غير الخسارة ؟ الموت أحب إليّ من الحيـاة بعد فراق الف عسملّية تذهب غـداً من صندوقي ...

فقلت : الخير كثير .

فقال : المال مثل الاولاد ، لا أحد يغني عن أحد .

فتركته حين اجهش بالبكاء ، ومشيت وأنا أقول : لو عرفت ان الرجل عنده ماتم لألف عزيز يفارقونه غداً لما جئت صوبه في هذه الضيقة.

ثم انفجرت ضاحكاً وأنا أخرج من الباب وقلت : هذا لم يحظ بـــه الجاحظ حين سمّى بخلاءه أصحاب الجمع والمنع .

مـــع الشمس

تحية أيتها الطالعـة من وراء جبالنا لتلقي علينا ابتسامتهـا المحيية . ابتسامة الأم لطفلها .

داست أقدام الاجيال رؤوس السنين ، واضمحلت الدهور وسحقت شعوباً لا تحصى ، وأنت لا يزال شبابك يتجدد .

هرمت الآثار وانسحقت تحت حوافر خيل الزمان الجامحة ، وأنت ما لا تزالين ضاحكة مبتسمة . ضاحكة من عظمة الانسان وسرعة فنائه . ضاحكة من كبريائه وعجرفته . هازئةً بعظائمه الزائلة كالظل .

في العصور الغابرة نازعت الخالق الالوهية ، واغتر بجمالك الانسان ، فطاطأ لك الرأس ، وعفر الجبين بالتراب .

حسب في جمالك الباهر قوة الخالق . ظن في ابتسامتك حياة وجود ، ولا بدع ان عبـــدك ، فكثيرون هم اليوم من يعبدون الجمال ويسجدون للابتسامة .

ان رفع الانسان الضعيف الهياكل على الأعمدة القوية ليناجي تحت

سمائها بهاءك الأبدي وجمالك الازلي ، فاليوم يشيدون القصور المزخرفة والبيوت الجامعة لشتات الرونق والبهاء ، ليعبدوا في داخلها جمالاً زائلاً .

هذه البيوت، لو قيست بهيكلك العظيم « قلعة بعلبك » لما كانت دونه قوة بالنظر إلى حالة الانسان . فاليوم يدرك المرء الشباب في سن الصبا ، والشيخوخة في الشباب . وهذا ما يجعل الاثمار غير ناضجة وشهية . هذا ما يفقدها بعض معاني اللذة والجمال .

ينتظر الفقير طلوعك على الوجود ليجد في سبيل اكتساب لقمة يسد بها رمقه .

تصبو اليك الضوضى لتحيا ، لأن انحجاب وجهك عنها يجر عليها الوحشة فتموت .

الجاهل يراك حملاً ثقيلاً على البشرية ، لأنه ينقطع عن اللهو إلى العمل ، عن الملذات إلى الحياة الحقيقية ، إلى الجد والنشاط .

والعاشق يصبو إلى غيابك ليخفي بين احشاء الظلام وحشته وحزنه، والليل اخفى للويل .

أيتها الشمس ! كم شهدت من الحروب الطاحنة ، وكم اصفر وجهك حين وقعت عينك على متاعب البشرية المعذبة !

كم غطيت وجهك بالغيوم كيلا تري ما نراه . وكم كسفت من الأنوار فمثلت بادوارك هذه ما يطرأ على الانسان ، هذا المخلوق القوي كإله ، والضعيف كاللاشيء .

أيتها الشمس ! كم شاهدت من فظائع البشر . فكنت وما زلت

تضحكين لكل شيء وتهزئين بكل شيء : للموت والحيـــاة . للخراب والعمران . للعلم والجهل . فكأنك عالمة سراً لا تفشينه لمخلوق ، عارفـة ان كل شيء صائر إلى الزوال . كأنك شاعرة بضعف الانسان الذي يدّعي الألوهية ولا يخجل . يتدرع بالقوة ولا يستحي .

انك تمثلين في كل يوم أطوار الحياة . فانت في الصباح لطيفـة ، وفي الظهر فتاة قوية ، وفي المساء عجوز هرمة رسمت يد الشيخوخة خطوط اصفرارها على جبينك .

في الظهر تمثلين المرء في أيام عزه وجبروته حين لا تستطيـع ان تتفرس به النواظر ، ولا تمتلىء العين من النظر اليه .

وفي المساء تمثلين دور سقوطه حين ينظر الجميع اليـه بعين المزدري الضاحك من الزوال ، غـــير المفكر بهذا السر العظيم . سر الانقلاب والاضمحلال .

أيتها الشمس ! أنت أصدق مؤرخ لو نطقت . أنت رافقت الانسانية من المهد ، وسترافقينا إلى اللحد . شاهدت مآتمها وأعراسها ، شبابهـــا وشيخوختها .

وفي هـذه البقعة الخضراء نظرت إلى عبّادك الفينيقيين .تجري في عروقهم دماء الحياة ، يرفعون القصور العالية ويذللون البحار . واليوم تشاهدين اطلال مجدهم وبقايا آثارهم .

رأيت الشرق في أعلى سماء التقدم، ونظرت الغرب يحل محله. وسترين غير الاثنين في مقام لا نظنه يصل اليه .

أيتها الشمس ! لماذا لا تحسدك النجوم على مقامك السامي ؟ لماذا لا تحاربك لنرى كيف تتطاحن الكواكب ؟ أم أنت منزهة عن كل خصام وشقاق ؟

خلقت لتمجدي الله دائماً ، ولن تتسلقي جدار حقوقك وواجباتك كما يفعل الانسان الحقير أمام خالقه الجبار ولا يخجل .

كنت شاهداً على طرد آدم من عدن ، على ضلال قايين ، على دماء هابيل ، على الطوفان الذي كان ليغسل الارض من ادران الإثم .

رأيت دخان رومة مرتفعاً إلى الغمام ولم تأسفي ، سمعت ضجة سقوط أسوار اريحا ولم ترتعدي . نظرت ضربات مصر ولم تنتقمي لها من فرعون الظالم ...

والمارتينيك ، وبومباي ، وقرطاجة ، وسان فرنسيسكو ، محقها الدهر وسحقتها الأقدار تحت أقدامك ، فابتلعتها لجة العدم ، وأنت ناظرة اليها بثغرك الذهبي ، ولم تزده رهبة الفناء صفرة .

أيتها الشمس ! رأيت الجبابرة تغتالهم الصعاليك كما شاهدت الفقير يموت على الطريق أمام أبواب القصور .

كل يوم تطلين على الوجود بجمال غير متغير ، فهل لك ان تعلمي المتلونين المتقلبين ان يثبتوا ؟

أنت تشاهدين الآثام كل ساعة ولا تغضبين على أحد ، فهل لك ان تعلمي الجالسين على كرسي موسى سعة الصدر فلا يغضبوا للأمور الطفيفة؟

أنت لا تنتقمين عندما ترين ما تنقبض له اسرتك ، فهـــل تعلمين محبي الانتقام والصبر والاناة ؟

ان حملك خفيف ونيرك طيب . فهل يسمع ما أقوله عنك أصحاب الأحمال الثقيلة التي يسقط تحتها الفقير كما يسقط الكوخ المتداعي تحت أقدام الصاعقة ؟

أنت لا تقاومين الغيوم إذا وقفت بوجهـك ، لأن ذلك من واجبات الريح ، وهي تبددها من أمامك . فهل يتعلم منك البعض فلا يتجاوزون حدودهم ؟

لم نسمع أنك اهتممت بان تمطري عوضاً عن الغيوم ، فهل يفهم ذلك منك أولئك المتداخلون بما لا يعنيهم ؟

أيتها الشمس ! كم اتمنى أن تظهري بغتة في ظلمة الليل لتري فظائـع البشر ومفاسـد المدنيـة . لتعلمي السر الذي ندرك به الشباب في الصبا ، والشيخوخة في الشباب . لتنظري في القصور المقامرين والمقامرات ، وفي الحانات السكيرين والسكيرات .

لقد سقطتِ عن عرش الالوهيـة ولم تغضبي . وبعدما كان يناجيك الانسان كإلاهة عظمى ، أمسى يفكر بالصعود إلى جوارك ، بـل اليك لولا نارك ! ولا أحسب أنك نسيت صلاة الفيلسوف نون الذي كان يقدمها لك في صور منذ خمسة عشر جيلاً ساجداً لك هاتفاً بك : « يا ملك النار ومبدأ العـــالم ، أيتها الشمس المنظمة الازلية لحياة البشر . من عجلتك الذهبية ينزل العمر . وإذا ما هجمت على الليل يهرب عن عرشه . انـ

مرجـــة السماء الواسعة تتهلل بقدومك . وتحت قرصك تنبت الحيـاة وتنمو . يا من قمصانك المرصعة بالنجوم تنير السماء ، أعيريني اذناً صاغية واستجيبي لصلاتي » .

فاجابتني الشمس : من بدء الخلق وأنا اتمم واجباتي ، ولا يعتدى علي ولا اعتدي ، وأولاً وآخراً ، لا حول ولا قوة إلا بالله .

الى اخواني الطلاب

قد تقولون ، أيها الأعزاء : ما بال هـــذا الرجل يركض وراءنا إلى بيوتنا ؟ أمـا شبعنا من نصائحه في الخريف والشتاء والربيـع حتى يلحق بنا في الصيف ؟ أليس الصيف للاستراحة ؟

نعم ، يا عزيزي ، ولكن الصيف للتحصيل أيضاً . انه لتحصيل غير التحصيل المدرسي . التحصيل المدرسي لا بد من تجرعه ، أمـا التحصيل الذي أدعوك اليه فهو مغذٍّ لعقلك ، ومنمٍ لمعارفك ، ومقوٍّ لتفكيرك. انه لذيذ الطعم لا تستطيع الحصول عليه في المدرسة . فالمناهج الموضوعة لك تضيق عليك ، ولا تدع لك وقتاً للمطالعة ، مع ان القراءة النافعة هي الغذاء العقلي والدم الجديد .

أنت تعلم ممـا تقرأ ان الطب الحديث يدخل في عروق الضعفاء دمـاً جديداً . وليتر الدم يسوى ثلاثماية ليرة .

لا تخف فيا أنا جراح وأريد ادخال دم جديد ، فالدم الذي أعنيه هو القراءة ، وساكون معك خفيفاً لطيفاً ، فلا احملك في العطلة التي انتظرتها

ما يثقل عليك . انني أدعوك إلى مجالسة صديقك الكتاب ، وأسألك ألا تجافيـــه وتعرض عنه . فهذا الصديق هو أبقى لك من كل الناس حتى أبيك وأمك .

ان وصيتي لك ليست بدعة جديدة ، فأنت طالب معرفة وعلم، وأول آية أوحى الله بهـــا إلى الانسان هي : « إقرأ باسم ربك ... » فأنا إذن لم اتجاوز معك حدود الله ، فاقرأ باسم الله وتوكل عليه . وكما أوصى القرآن الكريم بالقراءة للاستنارة والهدى والارشاد ، كذلك قال الإنجيل : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » .

فالانسان محتاج إذن إلى خبز آخر هو خبز المعرفة ، وهـــذا الخبز لا تجده إلا في معاجنه الخاصـــة ، أي الكتب . فالدول اليوم تحشد كل قواها لتنور عقول شعوبها ، ولا حيلة إلى ذلك غـــير حمل الرعية على القراءة ، فتوصلوا أخيراً إلى توجيه مكتبات تطوف الأرياف ، وتدعو الناس إلى المطالعة بالمجان .

أعرف أن أول من حض الناس على مؤاخاة الكتب والدفاتر هو ناطق بالضاد مثلك وهو أبو الكتاب العربي . انك تدرس شخصية هذا العبقري وأدبه ، فهو الذي انبرى إلى الدفاع عن الكتاب منذ الف ومئتي سنة. ذاك هو الجاحظ الذي اجتمع في شخصه الضدان : الحلاوة والبشاعة .

رووا عنه أنه كان يستأجر دكاكين الوراقين ليـلاً ليقرأ مـا فيها من كتب . وقالوا أنـــه لم يعثر بورقة إلا لمها وقرأها ولو كانت على مزبلة . لست أظن ان أحـداً وصف الكتاب كما وصفه هو حين قال : « الكتاب

وعاء مُلِىء علماً ، وظَـرف حُشي ظُرفاً ، فهو بستان يُحمل في ردن ، وناطق أخرس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى. ولا أعلم جاراً أبر ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع من الكتاب .

« الكتاب لا يجـادل ، ولا يشاغب ، ولا يماري . وهو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يداجيك ، ولا يداهنك . لك فيـــه نزهة وسلوى وغنى عن مناظرة الناس ومذاكرتهم ، وسماع ألفاظهم الساقطة ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الردية » .

أعرفت إذن إلى مـــاذا أدعوك ، إلى المطالعة صيفاً ، فاجعل لكل شيء وقتاً . ولا تنس الكتاب من وقت يومي . ثم لا تخرم الميعاد .

ان الكتاب ، يا حبيب القلب ، لا يطرح نفسه عليك ، ولكنه دائماً في انتظارك . ينتظر منك غمزة ليجيبك : « عبدك بين يديك » كما كانت تقول المرحومة ستك في حكاية خاتم لبيك .

وبعد ، يا عزيزي، فالكتاب هو الذي صنع العظماء وخلق العبقريين. أليست الدنيا كلها هي كتاب الله الأعظم ؟ وقد قالوا لكل أجل كتاب ، ولكل انسان كتاب يحمله بيمناه حين يقف بين يدي ربه ؟ فتمرن أنت منذ اليوم لتحمله جيـداً ، وتكون من العارفين . فالكتب هي سجلات المعرفـــة الماثلة دائماً بين يديك متى شئت ، أمـا السينما التي لا تخلف مواعيدها ، فهي معرفة أيضاً ، ولكنها معرفة عابرة ، ضائعة بعد حين ، كما قال الشاعر :

كل علمٍ خارج القرطاسِ ضاعْ كل سرٍّ جاوزَ الأثنين شاعْ

والكتاب محك الأذهان والألباب، وعلى ضوء مطالعته تتفتق مواهبك المختبئة وراء ستر كثيف .

لا أظن انك نسيت حديثي آخر مرة ، وفيـــه قلت لك : المدرسة تعلمك القراءة ، والجامعة تدلك على الدروب ، ولكن المدرســـة لا تقرأ عنك . ومتى علمت ان نوابغنا ونوابـغ الدنيا جمعاء لم يتعلموا في مدارس اليوم، ومع ذلك حققوا قول أحد العظماء : «انني أخاف صاحب الكتاب الواحد » . فاقرأ إذن يومياً ، واقرأ بامعان ، لا لتتسلى فقط .

إذا كانت أجسادنا تحتاج إلى بعض حبوب الفيتامين، أفلا نحتاج يومياً إلى القراءة لنداوي ما في عقولنا من فقر دم ؟

وإذا سألتني قانوناً للقراءة ، قلت لك ما قاله برناردشو : « القانون الذهبي في هذه الحال هو أنـه لا قانون هناك » . قس القراءة على الأكل . اما قال أبوك وجدك : « كُلْ ما تشتهي نفسك ؟ » . فكل غذاء لا تشتهيه النفس ، لا يستطيبه الآكل ، ويكون كالدخيل على الجسم . فاقرأ إذن ما تحب . كن واثقاً بنفسك ، واعلم أنك ستكون رجلاً إذا طالعت. ومن يدري انك لا تصير من أصحاب الكتب التي تُقرأ وتنير إذا اجتهدت ؟

يسرني أن اشجعك ، ولهذا أقول لك : أن الكتب العظيمة تطبـع في المدن والعواصم الكبيرة ، ولكنهـــا كتبت وتكتب في القرى ، أو في الأحياء الحقيرة .

إذن فثابر واجتهد لتكون واحداً من هؤلاء الكتاب الأفذاذ ، وهـذا لا يكون إلا إذا قرأت كل يوم بانتظام . فقراءة ساعة كل يوم تمكن كل ذي

مقدرة عقلية عادية من أن يصير متضلعاً من علم ما ، وتمكن من هو غير متعلم أن يصير مثقفاً عارفاً في غضون بضع سنوات .

أنت تلازم المدرسة بضعة عشر سنة ، ولكنك قليلاً ما تقرأ غير الدروس المفروضة عليك ، فليتك تنتزع من الأوقات التي تضيّعها ساعة للقراءة والكتابة .

ان مؤلفة كوخ العم توما ألفت هذه الرواية الشهيرة بما انتزعته من وقت كان يضيع لولا همتها وحزمها . ولونغفلو ترجم جحيم دانتي في الدقائق العشر التي كان ينتظر فيها غليان قهوته كل صباح . والفردوس المفقود لملتون نظم في اختلاس بضع دقائق يومياً .

لا تيأس مهما يكن عقلك سميكاً ، ولا تنس أن شاعر الكنيسة وملفان البيعة افرام السرياني كان قنط من عقله السميك لو لم يسأل تلك المرأة عن خرزة البير التي براها الحبل على طول الأيام .

لا شك في أنك ككل ناشيء ، تطمح إلى أن تكون شيئاً مذكوراً ، وها قد دللتك على طريق العظمة ، فنظّم وقتك واعمل بقول أمك : تحسيك الخلية من أولها [1] .

بحياتك قل لي : مهما تكن مجنوناً وأبله ، هل ترمي بليرة على قارعة الطريق كما ترمي بعض النفايات ؟

الجواب : لا ! فما قولتك إذن بالذي يرمي على طريق الحياة ساعة من زمان كل يوم ؟

(١) مثل لبناني يعني ادخار الشيء من أوله .

اننا نرمي الساعات ولا نبالي .

الآن قد انتهت معركة الامتحانات. فإن كنت لم تفز فالواجب يقضي عليك بالا تضيع فرصتك في صيد الحجلات ، ورمي الشباك للحمامات التي تفرفر حول بيتك وتهاجمك من الشباك . سد النوافذ سداً هرمسياً وضع كل وكدك في منهاجك .

كثيراً ما نسمع في هذه الأيام أخبار انتحارات طلاب وطالبات . ان الانتحار ليس بعذر مقبول . لقد ولدنا للحياة ، فلماذا نستعجل الموت ؟ فدرس متواصل يغنينا عن تمثيل هذه المأساة .

الشهادة كالحرية ، تؤخذ ولا تعطى . فحصلها بدرسك . ومع ذلك فاني أرى كل شهادات الأرض لا تساوي حياة واحد من الناس مهما يكن تافهاً

سالني الكثيرون : من أين لك الوقت لتكتب كل ما تكتب . وهم لو عرفوا اني صرفت حياتي كلها في هذا الميدان ، ولو كنت حرصت ، كما يجب ، على عدم ضياعها لكان لي أضعاف ما لي .

ويسالني غيرهم إذا كان عملي التعليمي يحول دون عملي الأدبي فلهؤلاء أقول : ان رجال الأدب في عصر دانتي كانوا كلهم أما تجاراً ، وأما أطباء، أو قضاة ، أو جنوداً .

وأنا أعرف كثيرين قد انتزعوا شهرتهم من بين اشداق الفاقة . إذن إلى ماذا ندعوك بعد طول هذه السيرة ؟

ندعوك إلى الدرس ، إلى قراءة ساعتين يومياً في فرصة الصيف ،

فتسمن ضلعك وتعود إلى المدرسة قوياً نشيطاً .

كثيراً مـــا يعود الطالب إلى مدرسته في تشرين وقد نسي كل شيء تقريباً ، لأنه طلق كتبه وأشاح عنهـا إلى غيرها ... ان هـــذا الطالب لن ينجح .

وكثيراً ما أعرف من أولياء طلاب يعلمون ابناءهم صيفاً ليقفزوا في صفوفهم .

ان العلم لا يدرك بالقفز والجمز والنط . فالثمرة التي لا تمر في جميـع أطوارها لن تكون شهية لذيذة . فلينضج أبناؤنا على مهل ، فهم ثمـــار الانسانية والطفرة في الحياة محال .

فلنمتّـن حيطان ثقافة أبنائنا ، ولا نشـح باللوم على مدير التربيـــة وأعوانه إذا قصر أبناؤنا . ولنسهر على أولادنا فهم في حاجـة الى ذلك . وإذا سهرنا على تصرفاتهم المسلكية في الفرص المدرسية ـ ومـا أكثرها ـ أمّـنا وقوع الكارثة .

فيا أيها الآباء المحترمون ! فلتكن عيونكم على بنيكم عشرة عشرة ، كما يقولون ، ففي هذه السن يتقرر مصيرهم .

لا أريد بهـذا ان تضايقوهم فيتمنوا زوالـكم ، كما قال معاوية ، بـل خذوهم بالحسنى ولا تجعلوا نصحكم لهم مصارعة لئلا تصرعوا معاً .

وكلمتي الأخيرة اليك ، أيها الأب ، هي أنك إذا رأيت أقـل عداوة بين ابنك والكتاب ، فحاول أن تؤلف بينهما، والا فتداركها بالفراق لئلا تنفق عليه ما لا ينفعه أكثر إذا بذل في غير سبيل تحصيل العلم .

كيف تصبح رجلاً ناجحاً

إذا التقيت برجل مهموم مغموم ، وبدأ يشكو لك نكد دنياه، زاعماً ان أشغاله فوق رأسه ، وليس له وقت يتنفس فيه ، فلا تصدقه ولا ترثِ له ، واعلم انه لا يدبر الأمور ولا يعرف كيف يستفيد من وقته . فالوقت أوسع مما يظن لو أحسن استعماله .

تخبرنا التوراة ان الله خلق الكون في ستة أيام ، وفي اليوم السابع استراح من جميع أعماله ، ورأى كل ما يصنعه حسناً لا يحتاج إلى تنقيح . وفي هذه الحكاية أروع درس للذين من الاشارة يفهمون .

فإذا كان الله ، جلت قدرته ، وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ، قد قسم أعماله على أيام معدودات ، أفلا يجدر بخليفته الذي خلقه بنفخة ان ينسج على منواله ، فينجز ما يهم بخلقه ويظل مستريحاً ؟

لا ينقذنا من همومنـــا ، إذ تتراكم الأشغال علينا ، الا تقسيمها على أيامنا ، فنخص كل يوم بجزء لا نتناول غيره ، فالرجل، مهما يكن ضعيفاً، يستطيع ان يعمل ساعات في اليوم ، وهذه الساعات متى ضمت إلى بعضها

تصبح أشهراً ، وتصير الأشهر سنة ، وإذ ذاك تظهر لنا جلياً فائدة هـذا التقسيم وما أعقبه من راحة .

اما إذا كنا نخلط أعمالنا ، فإننا نعيش في قلق وهم ولا ننجز شيئاً .

ولعـــل السيد المسيح حـين قال : « لا تهتموا بما للغد » يوصينا ان ننصرف بكليتنا إلى عملنا اليومي، ولا نفكر بالغد بل نجعله كأنه لا يعنينا أمره .

لا تقل :ماذا أفعل غداً ، بل قل : ما علي ان اعمل اليوم . فـــإذا خابت أمانيك أمس فلا تبك عليها اليوم وغداً ، فالماضي سجل انطوى ، والغد صفحات مجهولة ، فليس لنا إلا الحاضر ، فلننكب على انجازه ، ولا تنجز الأعمال الا إذا قسمت ، فالثروة لا تدرك الا قرشاً قرشاً ، والقصر لا يبنى إلا حجراً حجراً ومدماكاً مدماكاً ، والذي أبـــدع التجارة بالتقسيط يستحق التعظيم ، والبنوك التي سهلت للناس طرق التوفير لجمع المال قد اغنتهم وعلمتهم جمع الثروات. فهذه كبريات الدول تقسم انشاءاتها على سنوات .

يصعب كثيراً على الانسان ، إذا لم يكن ذا مـــال ، ان يبني داره ويؤثثها بطريف الرياش، ولكن عندما ينفسح له في مجال المشترى بالتقسيط يعيش في بيت جديد ناعم البال ، ويعمل مطمئناً ليهيّـىء مـــا يستحق عليه من أقساط شهرية .

وبسهولة التقسيط نفسها ، نستطيع ان نعمل يومياً بكل راحة إذا قسمنا عملنا على يومنا وتناسينا هموم ماضينا ولم نفكر بالغد .

ان الانصراف إلى الساعة التي نحن فيها يشحذ همتنا ويجعلنا ننصرف إلى العمل الواحد في الساعة الواحدة . فلا يجدر بنا أن نعمل عملين في آن واحد ، واذا حاولنا فلا نقدر على انجاز شيء .

كيف حالك اليوم ؟ هكذا يسال بعضنا بعضاً ، فما سمعت في حياتي من يسال كيف حالك أمس، ولا كيف حالك غداً . وفي الصلاة لا نطلب من الله إلا قوتنا اليومي ، ولا نقول له حين نصبح إلا : اجعل يا رب نهارنا سعيداً .

ترى لماذا نترك الزهيد الذي نحصل عليه، ونعيش في جنات المستحيل المعلقة بحبال الأماني الفارغة ؟

لماذا نترك الحاضر ، وان تافهاً، لنسعى وراء طائر جميل صوّرته لنا أمانينا ؟

ان المسترسل في أمانيه ، المعرض عن واقعه ، لهو أشبه بالمنبت الذي « لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » كما جاء في الحديث الشريف .

فليكن لنا برنامج عمل يومي نسير عليه . كما لا نؤجل عشاء أو غداء ، كذلك يجب ان نتقيد بهذا البرنامج العملي اذا شئنا النجاح .

ان حامل السلم بالعرض لا يمشي مستريحاً ، ولا يفتح الطريق لغيره ليسير الهوينا . ومن يخلط أعماله ببعضها لا ينجز منها شيئاً، ويمضي نهاره دون ان يتم واحداً منها .

كل بدوره أيها السادة . هذه عبارة قرأت حكايتها في كتاب نسيت اسمه ، وهي ان ببغاء كان يرددها ، وهو موضوع في قفص معلق في مدخل

أحد نوادي الصيد ، فإذا أقبل الأعضاء على باب النادي راح الببغاء يردد عبارته المحفوظة : « كل بدوره أيهـــا السادة » . ونحن إذا انصرفنا إلى مشكلاتنا كلاً بدورها استطعنا حلها ، ووجدنا راحة في الترتيب .

ولـكي نقطع الطريق على هموم الغد يجب ان نوزع عملنا على أيامنا . ولـكي تنفذ علينا الا نبقي أمامنا أو في متناولنا إلا مـــا نخصصه لعمل نهارنا ، وبهذا نبعد عنا الهم والخوف من أعمالنا الكثيرة .

خاف أحد تلاميذي من برنامج صف الفلسفة فصار يحوم حول تلك الكتب ولا يجرؤ على مـــد يده إلى أحدها ، وخصوصاً فلسفة التاريـخ الطبيعي . فقلت له ، بعد ما كاد ييأس : باشر ، فقد ذهب الوقت .

فاجابني : أراسي مخزن حتى يسع كل هذه الكراريس ؟

فتركتـه ورحت افتش عن حـل لمعضلته وقد تجسد أمامي مستقبله الضائع إذا ظل في هـــذا الخوف . ومع الصبح غدوت اليه غدوة امرىء القيس ، فوجدتـه لم يشرع بعد في عمله ، ومـا زالت كتبه مرصوفة على المكتب أمامه .

فقلت له : خذ واحداً منها وبادر .

فقال : أي كتاب آخذ ؟

قلت : خذ كتاب التاريـخ الطبيعي ، وابدأ ، فمثلنا يقول : العتبة نصف الدرب .

فاجابني : لو كنت اخترت الهرم الأصغر لكانت نصف مصيبة .

فقلت له : اننا نصيّـر الهرم الأكبر أقل كثيراً من الأهرام الصغيرة .

وتناولت كراساً من تلة تلك المجموعة وقلت : ألا تستطيع حفظ هذه الوريقات بيومين ؟

قال : بلى أقدر .

فقلت : احفظه ، والملتقى بعد غد .

وجئت في الموعد فوجدته قد استظهر الكراس الأول فقلت : خذ الثاني ، والموعد بعد غد .

ونهجت معه هذا النهج شهراً ، فإذا به صار يمشي وحده ، وأخيراً فاز بالشهادة وصار اليوم قاضياً مرموقاً .

فلو لم نفرّق تلك العشرات من الكراريس لما تجرأنا على مهاجمتها ، فكلمة فرّق تسد تستعمل أيضاً في غير السياسة .

ان الذي لا يعرف من أين يهاجم وكيف يصادم لا يربح معركة :

فالساعة الرملية تفرغ ما فيها في أربع وعشرين ساعة ، ولا يعني حبة ان تزاحم اختها في الممر المعمول على القد ، وهي لو فعلت لتعطل السير ، ومثل تلك الساعة يجب ان تكون سيرورة أعمالنا اليومية كما قالت تلك الببغاء : كل بدوره أيها السادة .

هكذا يجب ان نعمل (الآن) ولا نهتم للغد ، فالغد يهتم بشانه .

ولكن الانسان خلق عبداً لأحلامه وأمانيه ، فلا يرضيه ما حوله بل يتطلع دائماً إلى الأفق المجهول. يكون في جنة وحوله ثغور أجمل الأزهار ترنو اليه ، فيعرض عنها ويفتش عن غيرها .

يكون في بحبوحة ، ويخاف ان يفتقد الرغيف ولا يجدها ، والذي

يخاف على تعـذر الحصول على رغيف الغد هو مختصر انسان ... فالانسان يعلم انه ليس عليـه ان يتوانى ، فإضاعة دقيقة هي فقدان الرغيف الذي يحن إلى طلعته . يجب ان نجري مـــع الزمن ، فاليوم الجديد هو حياة جديدة ، ان النوم هو موت موقت وقد يؤدي بنـا إلى موت أبدي إذا لم نستقبل الغد ببشاشة ، ونحييه تحية المحب المشتاق النشيط ، ونبـدأ عملنا بلا مقدمة ولا تمهيد .

ان لذة الحيـــاة هي في العمل المستمر . وترك العمل يولد التفكير بمصاعب الحياة ومصايبها. وهذا التفكير يولد الهم والقلق. فالحياة وجدت لـكي نعيش فيها لا لـكي نفلسفها . ولـكي نبعد الهم يجب ان نخلق لأنفسنا أعمالاً تسد الفراغ . يجب ألا نفكر في غدنا إلا عندما ينتهي نهارنا . وإذ ذاك نضع منهاج الغد ، فبدلاً من ان نجتر همومنا في قيلولتنا فلنستيقظ .

ان كل يوم هو أشبه بالليمونة تقسيماً . وعلى غرارهـا يجب ان نقسم أعمال يومنا . وأخيراً يجب ان لا نرمي الليمونة في صندوق الزبالة إلا بعد ان نياس منها .

يقول المثل : « الأمور تدبر بعضها » فلماذا نستبق الزمان ، لمـــاذا لا نعمل هادئين تاركين حبل الغد على غاربه ؟

ان معلمنا الأكبر هو معنا ، هو قلبنا ، فليكن دليلنا حقاً ، ولنتشبه به في انتظام دقاته الرتيبة . فلولا هذه الرتابة ما استطاع ان يعمل سبعين ثمانين سنة ليلاً نهاراً .

من يستطيع تغيير ناموس الحياة ؟ ألم يقل الحجاج : « لا بد مما ليس منه بد » ؟

ألم يقل الجلاد لسقراط ، حين ناوله كاس السم : « ارض بما ليس منه بد ؟ » .

ان المؤمن لا يخشى شيئاً ، بل يتابع طريقه على بركة الله . يتابعها ولا يخاف شيئاً . فإن كان مسيحياً فعنده : « شعور رؤوسكم محصاة لا تخافوا . فشعرة منها لا تسقط بدون إرادة أبيكم » . وان كان مسلماً فهو متوكل على ربه في كل ثانية يردد : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » . وان كنا نؤمن بالعلم الحديث فنحن باقون ندور مع هذه الأفلاك كيفما دارت ، وأي شيء يهمنا ؟

لقد مضى الزمن الذي كان فيه المرحوم جدي يخبرني عن انتهاء العالم العتيد ، ويختم كلامه بقوله : « تؤلف ولا تؤلفان » ، أي لا تأتي سنة الألفين ميلادية حتى تقوم القيامة .

فأين هو اليوم ليقرأ ما تنشر الصحف والمجلات ، ويعلم اننا ننتظر ان نشيد لنا دكاكين ومحطات بنزين وغيرها في القمر والزهرة والمريخ ؟

فإذا رأيت الرجل مطرقاً ، شارد الفكر ، مهموماً ، فاعلم انه لا يحسن تصريف أعماله ، بل يكردسها فتتراكم ويحمل همها . انه يجعل من تاجيلها خميرة للقلق واضطراب الأعصاب . وهو ، لو أراد ، لاستطاع ان يخلو من الهم ، وعاش مثل صاحبنا الدرويش .

في الحرب العظمى الأولى ، التقيت بدرويش يحمل كشكوله . وكنت

أنا أحمل زادي . فالخبز هز في ذلك الزمان ولو كان خبز شعير .

ترافقنا مسافة غير قصيرة . وأخيراً مر بنا غني يركب عربته، فتقدم منه الدرويش يقوله : « من مال الله ! » .

فوقف الرجل وأمر خادمه أن يعطيه ، فاعطاه بضعة أرغفة ، فأخذ اثنين فقط ورد البقية .

فصاح به الغني : أفي هذه الأيام يرد من خبز القمح ؟

فقال الدرويش : هذا عشائي ، أما فطوري فعلى غيرك ، ان عشت .

فقلت له بعدما مشينا : يا درويش الخير ، ألا تخاف الجوع ؟

فقال : لا والله ! ومن يتوكل عليه يظل مكفياً . لي سبعون عاماً ، وأنا أطوف في أرض الله ولم أحرم القوت . أتكون البهائم خيراً منا ؟

ثم حملق بي وقال : ألا تعرف مـــاذا يقول انجيلك : « تأملوا طيور السماء فانها لا تزرع ولا تحصد ، وأبوكم السماوي يقيتها ؟ » .

نحن لا ندعو إلى عيش الزهد والتقشف والتوكل بدون عمل وسعي ، ولكنا ندعو إلى حياة رتيبة حافلة بخير العمل الذي لا تلذ هـــذه الحياة بدونه . وإذا شئنا ان نخفف همومنا فلنعمل بقول المتنبي :

لا تلقَ دهرَك إلا غيرَ مكترثٍ ما دام يصحب فيه روحك البَدنُ
فما يديم سرورٌ ما سُرِرتَ به ولا يردُّ عليك الفائتَ الحزنُ

فليت الذين يركبون كتفي الدهر ويجعلون كل خطاياهم في رقبتـــه يحسنون استثمار حياتهم ، ويكفون عن سب الدهر المسكين . فلو صارت الأرض كلها أقماراً وصواريخ فانها لن تعثر عليه لتقتص منه ...

التربية الوطنية في لبنان

لا أرى في مدارسنا كتباً وضعت لناشئة لبنانية .

فتشت في الكتب حتى عييت ، فما وجدت واحداً منها يتسم بطابع الدولة كما هي الحال في الدول التي تؤمن بذاتها وبكيانها .

جاء في وصية النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلى معاذ بن جبل وأبي موسى : « بشّرا ولا تعسّرا ، وبشّرا ولا تنفّرا » .

ما رأيت دولة تمثل تمثيلاً أشبه بالملهاة كما هي الحال في لبناننا العزيز . ولسنا نحس الانقلابات والتطورات احساساً يفوق حسن النظارة في المسرح. اننا نفرح بمرسوم ، ونحزن بمرسوم. وهل يفرح حقاً من يُؤمَر بالفرح ؟

ان الحياة المدرسية هي نواة الحياة الاجتماعية الوطنية . فهل من يقول لي ماذا نزرع ـ على مقاعد المدارس الأجنبية ـ في نفوس النشء اللبناني ؟

إذا كان الكاهن رسول ربه ، فالمعلم هو الرسول المبشر بأسمى عقائد

زمانه ووطنه . فهل يشعر من تعلم وتتلمذ في مدارس الأجانب انه ابن هذه الصخور ؟

اسمعوا ، أيها الاخوان ، كما تختلف تربية المصري عن تربية الحجازي والعراقي ، تختلف كذلك التربية اللبنانية عن غيرها ، فلا يكون تحوير المنهاج وفقاً لزراعة الدخان في النبطية ، والقمح والعدس في بعلبك ، والليمون في صيدا وطرابلس ، والموز في انطلياس ، والدراق والخوخ في بسكنتا ، والبطاطا في تنورين والعاقوره ، والتفاح في فاريا وميروبا ، والاجاص والجوز في بشري واهدن .

انني تحدثت عن التربية الوطنية ، والتربية الوطنية تتناول أولاً ما يزرع في النفوس هذا الذي أريد ان أعرفه فقط ، مع اعترافي انكم تستحقون شكر الوطن على ذلك التحوير ، فويل اهون من ويلين .

لا جديد في لبنان إذا كنا نرى في مدارسنا الماروني إلى جانب الدرزي والارثوذكسي مع السني والشيعي ، فالمطران جرمانوس فرحات تتلمذ للشيخ سليمان الحلبي قبل أن أعلنت حقوق الانسان ... وأنا كنت أجلس في عهد التلمذة سنة ١٩٠٥ على بنك واحد فى كنيسة مدرسة الحكمة ، كل يوم ، وحوالي الأمير رفيق ارسلان والسيد محيي الدين ايبش . فالمير والسيد لم يتنصّرا ، ومارون عبود خرج كصاحب مضرية بديع الزمان.

لست عدو الدين ، ولا أطلب تربية بلا دين . فمن الخير تعليمه لئلا يخرج أبناؤنا بلا وطن ولا دين . فالاعتقاد ، كما يقول بلزاك في قصته « خوري القرية » هو الارادة البشرية البالغة أقصى قوتها . ولا ولا ولولاه

لما رددنا : « نصر من الله وفتح قريب ». فالمعتقد المكين سر قوة الشعب، ولا تعدّوني وثنياً ان قلت : ان لبنان أدونيس كان أعز من لبنان هذا . الدين لا يستأصل من الانسان ، كالوكيل الدوري ، كلما عزل فهو وكيل. وقد قال دركايم معلم المعلمين العلمانيين : إذا أفرغنا المبادىء الأدبيـــة من عناصر الدين فاننا نبترها .

مسكين حظ لبنان ، فما فيه حد وسط . فهناك أما لبناني يظن لبنان جزءاً من اوروبا ، وأما لبناني يريد أن يجعله في الدهناء وحضرموت وقد نسي أن العرب أولعو بوطن ثان كلبنان، هو الأندلس ، وان لبنان عربي اللسان ، شرقي الجنان ، طعمت شرقيته بالحضارة الغربية ، فكوتته هذا التكوين الخاص ، فيه العربي والمستعرب ، فما حيلتنا في المولييريين الذين جعلوه طبيباً غصباً عنه .

إذا كان الانسان ابن بيته فلا يكون لبنان إلا كما هو . ان بيته شارع يمتد إلى الجاده العالمية ، يرى كل عابر سبيل ولا عاصم من التأثر .

ان التربية فن الغرض منه الحصول على أكثر مقدار من تكييف الفرد لبيئته ونموه فيها . المسيحي يقول «النؤمن» والمسلم يقول كلمة الشهادتين، والمعلم اللبناني يجب أن يؤمن بلبنان أولاً ليصبح من رسل تربيته .

قال زياد بن أبيه « اني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله » . ولهذا أقول كما قال الحجاج : « يا أهل لبنان ، انني لم أجـد لـكم دواء لدائـكم إلا الجندية » .

فالجندية هي البوتقة التي تصهرنا جميعاً وتطبعنا على غرار واحـد ،

فنحس ان لنا وطناً ، فكل تربية وطنية تظل عقيمة حتى ينام المواطن شهوراً في الثكنة العسكرية يحيّي علمه بالسيف والبندقية: المدارس تخرج مخنثين ، أما الثكنة العسكرية فتطهرهم وتخرجهم رجالاً صالحين لحرب بغير النظارات .

ويح لبنان ، فشعبه بخلاف الشعوب ، وحكومته عكس الحكومات. للشعوب قلب وليس لها أعين تنظر بها ، فهي تحس ولا ترى .

والحكومة بالضد فهي تنظر ولا تشعر . ويا ويل أمة شعبُها ينظر وحكومتها تشعر . ان الهوة بينهما عميقة .

واعجبا ! كيف صارت المدارس التي أوجدها النوابع الثائرون تخلق للأمة عجزاً وقاصرين ، ومشلولين ومسلولين !

عندما كان هدف التربية يصلح لكل زمان ومكان قال أجدادنا : لولا المربي ما عرفت ربي . فالرب كان هدف التربية في زمن الروح ، أما في عصرنا هذا ، عصر المادة ، فهدف الرجل وطنه . والتربية التي تصلح له هي تطعيم وتلقيح . فالميول المكتسبة تطعم وتلقح بالميول الغريزية . فالمربى لا يخلق ميولاً جديدة بل ينمّي الميول الغريزية أو يقاومها . فقصارى المربى ان يروض الشخص فيصلح للجري في الشوط المنتظر . ان الأخلاق الفاضلة تكتسب بممارستها وتعوّدها فتصير خلقاً وسجية .

ولنستتر أخيراً بشيء من علم النفس : ان لمسنا جسدنا يختلف عن لمسنا للأجساد الأخرى .

إذا لمسنا جسدنا أحدث هذا اللمس إحساساً مزدوجاً ، لأن اليد

اللامسة تكون لامسة وملموسة ، أو فاعلة ومنفعلة ، كما يعبّر الاختصاصيون . فالمربي الوطني يكون إحساسه مزدوجاً ان كانت عقيدته صادقة لا زندقة فيها . أما المفلوج فيفقد هذا الإحساس المزدوج، ويخال عضوه المريض ليس أحد أعضائه .

فإذا شئنا أن نربي للوطن رجالاً صالحين فلنقص المفلوجين .

٢٢ كانون الثاني ١٩٤٢

ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

كان في ضيعة من لبنان رجل مستور ، تعشق مسايرة « المشايخ » حتى الوله ، واستطيَبَ مذاكرتهم التي تثير الضحك ، على ما فيها من العبر . فأخذ يتعشّى قبل الغروب ليأتي بيوتهم مَلَسَ الظلام ، ثم لا يعود منها حتى يتدهور الليل .

وكثيراً ما كان المشايخ يزأرونه ولا يحس ، ويقابلونه بفجاجة ولا يشعر . يستحلي حديثهم ، ولو تماجنوا به وتنادروا عليه ، وما كان يهم في حضرتهم إلا بان يقول كلمة جرت العادة في قولها عندنا للشاربين : هنيئاً يا سيدي ، أو هنيئاً لمن شرب ، أو صحة وعافية ، بحسب مراتب الناس .

وأخيراً تعوّد المشايخ رؤية هذا الضيفن، فألفوه ، وتغير نظرهم فيه حتى صار في عين نفسه كأنه واحد منهم . طيّف بالشراب عليهم جملة ، ذات ليلة ، فادى صاحبنا مهمة : هنيئاً يا سيدي ، لكل واحد منهم . ثم جاءت نوبته فشرب وأجال نظره فيهم فإذا هم في شغل عنه ، فرأى أن

يتنحنح ففعل ، ثم أحّ ، ثم سعل .. وما من يلتفت !

فانشق صدره من الغيظ حتى عدا طوره وقال لهم : محسوبكم شرب يا مشايـخ !

فأجابه احضرهم نكته وألذعهم نادرة : « كل عمره يشرب » .

فكركروا جميعاً في الضحك ، ولم يفز صاحبنا منهم بكلمة : «صحة» حتى بعد استجدائها ..

هذا موقفنا من مصر العزيزة ، أيها الأستاذ الصاوي ، فلا تطلب لنا تكريماً منها ، بل ترحم معي ، يرحمك الله ، على زهير بن أبي سلمى .

جاءنا أديبكم « المازني » فتنادى ادباؤنا واحتفوا به ، فكرموه حتى شبع ، ومدحوه حتى استعفى .

وزاركم اديبنا « كرد علي » وقد علمت كيف مرحبوه ، واحتفوا به.

* * *

حسن ان تسمي بيروت أحد شوارعها باسم شوقي ، فاجلال النوابغ اليوم فرض كالصلاة بالأمس . وشوقي استهوته بيروت وسحره لبنان ، كما فتن من قبل شعراء العبرانيين المعروفين بالأنبياء ، وفيهم أكابر وأصاغر كشعرائنا اليوم . ولم يفت المتنبي أن يذكر لبنان فقال .

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهو الشتاء وصيفهن شتاء ؟

وان أقلّ المتنبي في وصف لبنان فلا بدع ، فهو شاعر عشق شماريـخ الآمال لا براعيم الجبال ، وقد كان جرحه طرياً والمسالك شابكة ، وشبح ابن خالويه يتمثل له في كل دوّ . كما أصاب امرأ القيس في رحلته السياسية

فلم يفل الشعر في وصف القسطنطينية ، فانكره بذلك طه حسين ، وركب كتفي التاريخ مستدلاً بفقد هذا الوصف على عدم وجوده ... ونسي انه مقتول أبوه وهو يحاول ملكاً أو يموت ، وأنه غاب وما آب .

ودارت الأيام فعاض التاريخ لبنان بشعر شوقي ، صنو المتنبي ، ومحا نهوض مصر هجو أبي الطيب . فالأمة التي هال شاعر الحكمة الثائرة خضوعها لعبد ، لم يرعها « الأسد » ولا فتّ في عضدها زئيره . فلو نشر للف بيده تلك الصفحات التي سودها بالنيل من الأمة المصرية المجيدة لأجل ذلك المخصي. قاتل الله أسود وأبيض جنيا على مصر ولبنان فحرما هما أناشيد الشاعر الخالدة .

وهل مصر ولبنان إلا شقيقان انامتهما السياسة منذ القدم في مهد واحد ، ودانا بعقيدة واحدة منذ فجر التاريخ ؟

فهذا بحرنا كان مسرحاً للأمتين يربطنا بأواصر مدنية ودينية ، فكم حملت الينا أمواجه « سلة البردي » تنبئنا بقيامة المعبود المشترك « أدونيس » . وهل من رابطة أحلى وأمتن من العيد ؟

أجل هذا « بحرنا » لا بحر الروم والرومان، ولا بحر الاسبان كما أسماه ابيانيز في قصته : « ماري نوستروم » أي « بحرنا » . فنحن أولاً اتخمنا شواطئه وموانئه بضائع ، وملأنا ظهره سفينا ، كما قال ابن عمنا عمرو بن كلثوم ، وحملناه أثقالنا إلى أمم الأرض من متاع ورسالة . فحول حوضنا هذا تجمعت أمم الأض ، وعلى متنه تناطحت ، وسبحان وارث الأرض وما عليها .

وهذا تاريخ ابراهيم باشا ، ألا يذكرنا ــ ان تنفع الذكرى ــ بهوىً جمعنا حول العلم ؟

فالبنادق الابراهيمية لا تزال في بيوتنـــا ، وطربوش محمد علي على رؤوس شيوخنـــا ، وكلمة مصريات على لساننا ، وهي آصرة تربطنا . والشاعـر شوقي مولود ، كما قال عن نفسه ، بباب بيت نصرناه بسيوفنـا وقلوبنا ، وكما دارت الدائرة على أميرنا مات الشاعر كالفراء ...

إذن فليست تسمية أحـــد شوارع بيروت باسم شاعر جيله ــ ولو أغضبنا العقاد ــ بامر عظيم ، فما فينا إلا منا ، وكلنا تربطنا اللغة التي كان لها لبنان كالحجاج لأهل الشام. ومن استحق شكر لبنان في حياته ــ وشكر لبنان للأحياء فلتة ــ ألا نزيده منه في مماته ، ونحن دولة اشتهرت بتكريم الناس مكفنين ، كما كرمت جـبران . ولا أدري أكانت ارغمت المكرزل على ذلك أمس ..

إذن لا يكبر الصاوي مروءة لبنان ، ولا يلم مصر إذا أبطأت عليه ، فلبنان كما قال نابغته جبران ، كل قبيلة فيه أمة، فلسفته شعوذة، وسياسته ثعلبة ، ينصرف عن الدين إلى المذهب ، ولا يرفع صوته إلا وراء النعش .

أجل ان لبنان بلد متصوف يدين بآية : « من سخرك ميلاً امش معه ميلين ، ومن خاصمك لياخذ ثوبك فأعطه رداءك »

ان لبنان ــ رحم الله شاعر بلعنبر ــ لا تغره هـذه الأمجاد الباطلة ، فلا تطلب له ، يا استاذ ، شيئاً منها . ولو لم يكن امرع للزهاد والنساك لما جعله المتصوفون مقر « أقطابهم » يقيمون فيه مع احنوخ وايلياء إلى يوم

يبعثون ... وهذه صوامعه على قلله لسان ناطق .

انيا نشكر للصاوي عاطفته الطيبة ، وان رأيناه اشتط في تذكيره قومه بتكريم من لا يكرم نفسه ولا يحترم نوابغه . فهـــذا جبران أديبنا العالمي ، أمـا انطفأ خبره عندنا ، وذهب ذكره مع الدوي ؟ فلولا كيسه ما عاد إلى بلاده مكرماً لينام في دير مار سركيس ، على كتف نهر قاديشا الذي ترعرع على ضفتيه ، ومزج ترنيمه بخريره ، ونام نومة الأبــــد على هينمة سروه وأرزه وشربينه .

فـلأي ذكراه اجتمعنا بعد يومـه ، وأي أعلومة نصبنا ، وأي شارع اسمينا ، ثم لا نفتأ نردد : « ملء عين الزمن سيفنا والقلم ! » .

وهذا فرح انطون ، ماذا لقي من هذا الوطن ، واخجلة التاريخ من أبي المدرسة الحديثة الحرة ، فمن بشر برنان وتولستوي وروسو ونيتشه وروسكين وغيرهم قبله . ماذا فعلنا له غير الاغارة على آثاره بعد ان اتخذ سويداء قلبه مداداً لتحبيرها ؟

وهـذا المنفلوطي ، رحمه الله رحمة واسعة ، صديق فرح ، قـد قرظ بولس وفرجيني القصة التي ترجمهـا فرح ، بقصيدة ، يوم كان المنفلوطي يقول الشعر ، ثم شن الغارة على بيت صاحبـه ـ وأظن ميتاً ـ فسبا بنته وكساها ثوباً عربياً من طرازه ، فأفسد خطوطها ورسومها ، فصارت لا عربية ولا فرنجية .

وجبران عندنا ، أيها الاستاذ ، كولي الدين عندكم ، كلاهما لم يذكرهما المنهاج . وهـــذا (المفصّـل) الذي وضعته لجنة من اساتيذكم أذكر ولي

الدين؟ مع أن مؤلفيه قدموا بين يدي مفصلهم انهم « لم يقتصروا في الكتاب على ما دل عليه المنهج ، بل لقد زادوا عليه مـا رأوا فيه نفعاً ، وترجموا لرجال رأوا في الترجمة لهم أجزالاً في الفائدة » .

أما من فائدة ترجى من أدب ولي الدين وجبران وفرح ؟

أننا لا نطمع منكم ، يا استاذ ، بأسماء شوارع ونصب تماثيل بـــل : اذكرونا مثل ذكرانا لـكم . . .

لقـد أقر منهاجنـا ولي الدين ، فليتكم تذكرون جبران ايصبح قول الإنجيل : لا يكرم نبي في وطنه . ولكن كيف أتمنى عليكم ذلك وأدباؤكم لم يقولوا كلمة فيه بعد موته ؟

لشد مـا عتبت على خليل مطران يوم قرأت مقـاله : « رواد النهضة الحديثة » في هلال حزيران ! فواعجباً له ! أينسى ولي الدين وجبران وفرح انطون ، ويذكر أسماء لم نسمع بها ؟ فمن الحيف أن ينساهم خليل الذي لا ينسى أحداً ، ويجود على كل مخلوق بثناء ، ولو بشيء كشعر بشار في : « ربابة ربة البيت » . . .

قلت يا شاعر الأقطار الجليل ، ان في من ذكرت « الشموس والأقمار والكواكب الصغيرة الأقدار » أليس هؤلاء شيئاً من هذا ؟ كنت ذكرتهم وبرأت ذمتك ، فمن تراه يذكرهم عندك ؟ أعبد العزيز البشري ، مفخرة العرب ، كما سمعناك تلقبه ليلة شوقي ؟

ما أسخاك يا خليل بالألقاب !

انظر ، فهـذا مفخرة العرب الشيخ عبـد العزيز ينوب عن الرحمن

الرحيم في مفصله ، حين يترجم لرجال النهضة الحديثة ، (فيرحم) منهم من يشاء ، ويحرم من « رحمة الله الواسعة » الخشاب والعطار ، وزيدان مؤرخ التمدن الإسلامي ، وصروف معلم ناموس النشوء ، والبستاني ، واليازجي ، حتى أحمد فارس الشدياق الذي جهزه أمير المؤمنين ودفنه في وطنه .

هذا « المفصل » أمامك يا خليل، عسى أن تكون أنت من المرحومين بعد العمر كله ، فبصّ وقل معي : قاتل الله نعرات الشرق ، فهي كليل ابن الفارض ، وحملها معي دم شهداء الأدب كما حمّل المسيح جيله دم الأنبياء وكان منهم .

ثم ما لي أطلب إلى مصر ولبنان انصاف هؤلاء النوابغ ، فولي الدين يكن بغنى عن « المجمل والمفصل » وفرح يحيا بآثاره الخالدة يوم يؤرخ الأدب تاريخاً نزيهاً لا عوج فيه . لا أنسى فصل العقاد في فرح، فقد انصفه ووفاه حقه . أما جبران صاحب « النبي » و « الأجنحة المتكسرة » فهو خالد بمصطفاه وسلماه ، لا بما خطوا فوق مضجعه : « هنا يرقد نبينا جبران » فالأنبياء قد ختموا .

فما أمر خيبتك يا جبران! لقد طوفت في الآفاق ثم عدت ونمت حيث نام « خليل الكافر » و « يوحنا المجنون » : في الدير . فنم يا صاحب « ابن الانسان » مستريحاً . نم مكفناً بضباب البخور ، وثق أنك لن تعود الينا فنخجل منك لأن امرأة أخرى لن تلدك (النبي ص ١١٩) .

انك نائم في لبناننا لا في « لبنانك » والذين أبغضتهم في حياتك هم ،

وحدهم ، ينتصبون حول تابوتـك في ذلك الكهف ، كل عام ، يتضرعون إلى ابن الانسان ـ بالسريانية ـ صارخين، قائلين ما معناه : ونيّـح عبدك يا ابن الله .. الخ .

أمـا أخوك فرح ويكن ، فما علّمت ، لم ينعما حتى بضريح ، لأنهما عاشا تحت سماء لا تمطر صواعقها إلا نوابغها، اللهم الذين لم يلبسوا أطمارها.

فسلام على نوابغ العرب من زهور لبنان وصخوره ، ورحمات الله ، عدّ الحصى والتراب ، على ولي الدين والأدب !

أسمعت يا شيخ عبد العزيز ؟

لقد صدق أشعيا القائل : خجل لبنان وذوي .

٢٩ / ١١ / ١٩٣٤

الى الراسبين في الامتحان

قال المثل اللبناني : « في تموز تغلي المياه في الكوز » ، فلا بأس علينا إذا قلنا نحن : « في تموز المنحوس تفور الدماء في الرؤوس »، ولكن ليس في كل رأس ، بل في رأس من يرسبون في الامتحانات . فهذا فتى يهـــدد بالانتحار ، وهـذه فتاة تتجرع صبغة اليود ، أو تزدرد كمية من أقراص الكاردينال ، وذاك شاب يتهدد ويتوعد ، ويسن السكين ليقضي بها على من يعتقد أنه سبب له الرسوب وعوّقه من الخوض في معترك الحياة .

ان الشهادة هي عروس أحلام فتياننا. فاعجب لورقة فيها هذا الفتون الذي يدفع إلى الجنون .

ان بعض شبابنا يصح فيهم ما قال نجيب الحداد في المقامرين :

قد اختصروا التجارة من قريب فعدم في الدقيقة أو يسار

فاصحابنا ، بل أحبابنـا التلاميذ مستعجلون جـداً . ولا عجب في ذلك ، فالعصر عصر السرعة ...

انهـم يريدون الشهادة من أقرب الطرق ، وإلا تمثلوا بقول امـرىء

القيس : « نحاول ملكا أو نموت فنعذرا ! » .

لا يا حبيبي ، الروح عزيزة ومن يدريك أو يدرينا أنك لا تكون في المستقبل السيد الذي يرفع رأس وطنه عالياً كأكثر الذين نتحدث عنهم حتى نطحت رؤوسهم السماء وغابت وراء الغيوم ؟ فحتى يهون عليك الأمر ، ولا تستصعب رسوبك ، ادرس سير نوابغ العالم ، فقد تجد بينهم من رسب مثلك وخرج إلى العالم وليس في يده السلاح الماضي الحدين الذي تحلم بـه .

يعجبني في هـذا المقام أن أسرد على مسمعك حكاية أب استعجل الوصول إلى البيت قبل أن يحدق به الظلام . كان في طريقه نهر شتوي طائف . فبدلاً من أن يدور الدورة حتى يصل إلى الجسر ، تمر عن ساقيه وتقودم ، فمضت به الحامولة إلى البحر وترك أماً وطفلاً رضيعاً .

ولما درج الطفل وشب ، سأل أمه في إحدى ليلات كانون التي يحلو فيها السمر عن ابيه الذي لم يعرفه ، فقالت له : قلت لك فيما مضى والدك غائب وسيعود ، أما الآن ، وقد صرت بالغاً رشيداً ، فمن حقك أن تعرف أن أباك مات ، والموتى لا يرجعون .

فوجم الفتى هنيهة ، ولكنه أراد أن يعرف كيف مات أبوه ، فأجابته أمه : كان في المدينة . وعندما رجع كان النهر طائفاً ، والجسر بعيـد ، فخاطر وقطع وكانت النهاية .

فقال الفتى : ولماذا لم يذهب إلى الجسر ؟

فقالت الأم : استعجل ليصل إلى البيت قبل أن يدهمه الليل .

فأجاب الغلام : ولو كان مشى إلى الجسر ، أما كان وصل الآن ؟

فمن هذه الحكاية تعلّم ، أيها الطالب الكئيب . فإذا لم تصل العام ، فانك واصل بعد عام أو عامين ، فلماذا تلوث يدك بدمك ، أو بدم غيرك وتقضي العمر شقياً ؟

ابحث عن سبب علتك وداوها . واقرأ سير الرجال ، تجد بينهم من لم يكونوا أحسن منك حالاً ، فما نالوه من شهرة لم يبلغوه إلا بالكد والجد وسهر الليالي .

قل لي كم ليلة سهرت، وكم سنة انصببت على كتبك كما يكون الانصباب لأرى إذا كنت تبلغ ما تصبو اليه .

ان درس شهر نوار وبضعة عشر يوماً من حزيران لا يجديك . فتحصيل البكالوريا لا بد له من خمس سنوات درس متواصل فكيف تريد أن تحقق ذلك في شهرين ثلاثة ؟

ففي ليالي الكوانين يقرصك البرد فتسترخي تحت اللحاف ، وتلعن أبا الذي دق الجرس ألف مرة ، وفي فصل الربيع تستسلم إلى مباهجه ، وتناجي زهوره التي توحي اليك بألف معنى ... وتظل كذلك حتى تصير على رمية حجر من موعد الامتحان ، فتركض إذ ذاك إلى الكتب الكثيرة المطلوب منك درسها .

قلت درسها ، والدرس لفظة مجازية ماخوذة من درس القمح على البيدر ، وعليك أن تفعل كالفلاح الذي يظل يدرس ويدرس حتى ينال المحصول .

ان المنهاج لا يطالع مطالعة سطحية. ومن يفعل ذلك يبوء بالخذلان. فالمعرفة لا تكتنز ما لم تستحل إلى ذوق كما يستحيل الخبز دماً في أجسامنا .

هذا هو موقفنا من المنهاج أنا وأنت. أنا كأستاذ عليّ أن أكون دليلك كما كان فرجيل دليل دانتي في الجحيم والمطهر والنعيم .

وفي منهاجنا جحيم ونعيم ومطهر ، ولا بد من المرور بها جميعاً ، والأمر لله ، والامتحان مشتقة من المحنة .

احذر أن تقامر في تحضير المنهاج ، فالمقامر خسران أن عاجلاً أو آجلاً .

لا أعني بالمقامرة لعب الورق أو سباق الخيل ، بل أعني أن لا تتكل على اليانصيب ، كأن تدرس هذا الشاعر أو ذاك الكاتب ، راجياً أن ينزله الحظ عليك في قفة ويقول لك: « تفضل يا عزيزي، خذ موضوعك غنيمة باردة » . ان الذين يفعلون هذا ، أساتذة وتلاميذ ، ليس لهم أقل نصيب من الأمانة العلمية والتعليمية

وهناك سبب آخر أدى إلى رسوبك الذي استغربته ، ومن حقك ألا تستغربه . أما تركت المدرسة الفلانية لأنها لم ترفعك إلى صف أعلى وأنت تريد أن ترقى اليه ؟

ان العلم لا يتعرف إلى الاوتوماتيكية ، والطالب كالثمرة ، يجب أن يمر في أطوار شتى ، محتملاً الحر والبرد حتى الثلج لينضج مثلها ويصير ذا نكهة شهية . فإذا كنت ظننت أنك ربحت سنة أو سنتين ، فأنا أقول

.لك أنك لم تفز إلا بخيبة مرة، وكانت المصيبة الثانية شراً من الأولى.

ثم، أما حاولت أن تخدع أساتذتك ومدرستك، بنقل من هنا وهناك؟

أما توسلت إلى مدرستك حتى تجيز لك دخول الامتحان وأنت غير كفوء له ؟

ان أحوالاً شتى كان يجب أن تهديك سواء السبيل ، ولكنك اتكلت على ما لا يجوز الاتكال عليه من وسائل ووسائط لا تذكر هنا ، فلندعها في القلب تجرح ولا تخرج من الفم فتفضح .

ثم أتحسب أن ما يمليه عليك معلمك سلاح تقاتل به معترك المعرفة ؟

لا يا أخي !

ان ما ينقل من هنا وهناك ، وتجمع أطرافه وأذياله ليصير دراسة ليس بذي بال عند الممتحن الحصيف .

وعلم الأصول من نحو وصرف وبلاغة أما أعرضت عنه لأنك رأيت كتاب اليوم يصرحون بأن هذا لا يفيد ، وقد أعرضوا هم عنه فسرت أنت وراءهم ؟

لست أضع كل الأعباء على كتفيك ، ولكن أريدك ان تكون أشد انتباهاً ، فمهما كان أستاذك غير ضليع ، يظل أسمن منك ضلعاً فهو على الأقل يكتب صحيحاً ، وأنت ـ رعاك الله ـ لا تراعي حرمة اللغة ، ظاناً أنك ، إذا استظهرت ما أملي عليك ، ربحت المعركة .

لا يا ابني ، ان من يسير وراء القدماء ولا يفكر لا تظهر شخصيته . والشخصية أعظم جداً من المنهاج المطبق ، أي السير على الطريق المعبدة .

نريد ان تظهر شخصيتك أدبياً في الدراسة الثانوية . أما شخصيتك السياسية والحزبية فهذه موضعها في الدروس الجامعية : الحقوق والطب وغيرهما ، وغيرهما !

اتعترف الآن بانك لم تكن على حق حين كنت تفكر بالاضرابات لأجل قضايا تافهة ، وكل ذلك لكي تتخلص من الدروس ؟

إذا كانت الشؤون الكبرى لا تصح مقاومتها بتعطيل العمل ، فكيف بالشؤون الصغرى ؟

فعند أقل حادث نلجأ إلى الاضراب ، ونطلق الكتاب ، وهذا عمل لا يتفق مع الدروس الثانوية ، والعلم عامة لا يسع معه شيئاً .

ان الشهادات لا تُنال بالاحتجاجات والمؤتمرات ، إنما تنال بالدرس الذي لا ينقطع . فلندع معالجة الشؤون الطارئة لاربابها. أما أنتم الآن فلا شؤون عندكم ولا شجون .

أما المدارس فعليها ان تقف من طلابها موقفاً صارماً. فلا ترقي ولا ترفع لأجل دمعة فرت من عين ، أو كلمة تهديد يرسلها أب جاهل . فالعلم لا يؤخذ غلاباً ولا بالتمني « والخاطرشن » ...

قال ابن سيراخ : من أحب ابنه فليهيىء له القضبان حزماً حزماً .

ونحن نقول : من أحب تلميذه فلا يراعيه . فصديقك من صدَقك من لا صدّقك.

كنت ألجأ مع الطالب دائماً إلى البرهان : يقول لي مثلاً جربني في هذا الصف ، وإذا لم أمشِ ، نزلني في نصف الفصل . فأقول له : النزول

ذل وانكسار ، فأنا أضعك الآن حيث اعتقد انك تستحق ، وإذا رأيتك قادراً أصعدك .

ولكن المحاورة لم تكن تقف عند هذا الحد ، فيقول الطالب: والكتب يا معلمي غالية اسعارها ، فلا بد من شراء كتب جديدة ودفــــع المبلـغ المرقوم .

ولم أضعف تجاه هذا الطالب الداهية فقلت له: لا تكتب اسمك عليها، واحفظها نظيفة لنستعيدها منك ونعطيك غيرها .

ولا يقتنع الطالب ، فيطرح الصوت على أبيه وعمـــه وخاله وأولاد الحلال من أوجه الضيعة والجيرة ، وكلهم يساعدونه حتى نكذب عليه .

أما حق الكذبة فيدفعه هو يوم الامتحان ، وقد قيل : عند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

النمام عدو السلام

من ذاك الذي نراه في النوادي يبحث بعينيه عن رجل يسكن اليه ؟ ينحني على عمرو وينطوي كالخيزران فوق رأس بكـــر ليصب في آذانها ما انتجه من حكايات كاذبة وروايات أحـكم صنعهـا حتى اشبهت الواقع .

حديثه مناجاة ، وكلامه همس قلما يتجاوز تخوم شفتيه . ينفرد بهذا ويختلي بذاك ، ولا يستقر على حال . فيفر من هذه الزاوية إلى تلك كأنـه الزئبق الرجراج .

يرحب به هؤلاء ويحتفي به أولئك ، وكأنهم جميعاً في انتظار مقدمه السعيد .

ومن هو ذاك الجوابة الهداج حول البيوت ؟ فلا يدخـــل من باب حتى يخرج من الآخر ، إذا لم يقع على المرعى المنتظر ؟

يحمل إلى زيـــد أخبار عمرو ، وينقل إلى خالد أنبـاء مصطفى . فونغراف يعي ويفرغ . همه بذر الشقاق بين الأصحاب والأعـــداء ،

وتجارته الأحاديث ، ولكنه يتجر بها تجارة فاجر باع ذمته في سوق الخساسة .

فإذا كنت لم تعرفه فأنا أعرفك به : هذا هو النمام الذي يزرع بذور الفتنة في الأذهان والقلوب ويتعهدها بماء الكذب والنفاق ، فتنبت شوك العداوة والبغضاء .

فالنميمة أشد الآفات فتكاً بالهيئة الاجتماعية . كم قبح القرآن الكريم ذويها ، وكم ضربت بهم أمثال ، وكم قيلت فيها أشعار ، وكم مرة وقف السيد المسيح على روابي أورشليم محذراً قومه من هؤلاء المرائين، وكم كتب القديس بولس الرسالات الضافية الذيول يحذر بها الأخوة شر النميمة ، وقد قيل : « أربعة لا يدخلون الجنة : النمام ، والمستهزىء ، والمرائي ، والكذاب » .

فالنمام ـ قبح الله وجهه ـ هو رسول الشر ، ونذير الخراب، والبوم الناعب في قصور المودة ! فكم فرّق بين أخٍ وأخيه ، وصديق وصديقه ، فكأنه لم يحفظ من الإنجيل غير قوله : « جئت لأفرق الأخ عن أخيه ، والابن عن أبيه ! » .

وللنميمة أضرار جسيمة فهي تثير كوامن القلوب وتوقد نار البغض. وكم من مشكلة كان يهون حلها على أصحاب النيات الحسنة لو لم يقف بوجههم النمام ، وينقل الأخبار المنسوجة على منوال خساسته ، فقويت بذلك شوكة الخصام وصعب كسرها .

قال بعض الحكماء : « احذروا لصوص المودات، وهم السعاة والنامون.

فمن أطاع النمام أضاع الصديق » .

ودفع انسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يحثه فيها على أخذ مال يتيم ، وكان مالاً كثيراً، فكتب ابن عباد على ظهر تلك الرسالة : « النميمة قبيحة وان كانت صحيحة ، والميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعي ـ النمام ـ لعنه الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

قال رسول الله : « لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئاً . فإني أحب ان أخرج اليكم سليم الصدر » .

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه فانكره الأحنف ، فقال له معاوية : « ولكن الذي بلغني ذلك رجل ثقة » .

فاجاب الأحنف : « ان الرجل الثقة لا يبلغ مكروهاً » .

وجاء في سفر الأمثال : « رجل الأكاذيب يطلق الخصومة ، والنمام يفرق الأصدقاء، وكلام النمام مثل لقمة حلوة وهو ينزل إلى مخادع البطن. بعدم الحطب تنطفىء النار ، وحيث لا نمام يهدأ الخصام ويعيش الناس هادئين مطمئنين » .

وقيل أيضاً : من حرم الخير فليصمت ، وان حرمهما ـ أي الخير والصمت ـ فالموت خير له . وقال الله في كتابه العزيز : « لا تطع كل حلاّف مهين ، هماز مشاء بنميم » .

وفي الحديث الشريف : « لا يدخل الجنة نمام . وشراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة » . وقال أيضاً ، صلوات الله عليه : « ملعون ذو الوجهين ، ملعون ذو اللسانين ، ملعون كل نمام ! » .

وما أجمل ما تكني به العامة عن النمام فسموه « زقلق صحون » .

كان الفضل بن سهل يكره النميمة ، وكان إذا أتاه ساع يقول له : « ان صدقتنا أبغضناك ، وان كذبتنا عاقبناك ، وان استقلتنا اقلناك » .

وقال المأمون : « النميمة لا تقرب مودة إلا أفسدتها ، ولا عداوة إلا جددتها ، ولا جماعة إلا بددتها » . وقال صالح بن عبد القدوس :

من يخبرك بشتم عن أخ ... فهو الشاتم لا من شتمك
ذاك شيء لم يواجهك به ... انما اللوم على من أعلمك

وقال الحسن : « ستر ما عاينت أحسن من اشاعة ما ظننت » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : « من سمع بفاحشة فأفشاها فهو كالذي أتاها » .

ولذلك قالوا : النمام هو أحد الشاتمين ، وقد سبك من بلغك السباب » .

وكان لابن الوردي الشاعر غلام رديء المسلك اسمه بهادر فحرره ، ولكنه ندم على ذلك لأنه بتحريره إياه كان كمن أطلق وباء في المجتمع . وفي ذلك قال قصيدة مشهورة هذا مطلعها :

بهادر عبدي لا بهاء ولا در ... فما أنا حر يوم قولي له حر

ومن صفات هذا العبد أنه لم يكن يحمل إلى مولاه إلا أخبار السوء ، ومن طبعه ان لا يهدأ له لسان فهو كما تقول العامة في من كان مثله: «لسانه بسبع شناخيب » وفي وصفه قال هذا الشاعر المنكوب بعد ان عدد شعراً صفات هذا العبد النمام المبشر دائماً بالسوء :

وان قلت ما الأخبار قال : رديئة
سعوا فيك ، أو مات امرؤ ، أو غلا السعر

وان قلت من في الباب قـــال مفولا

على البـــاب عزرائيل وانفصل الأمـر

ومن الأمثال المصنوعة على قالب كليلة ودمنة ، حكي انـــه كان في إحدى الغابات الكثيفـة شجرة ضخمة طال عمرها فنخّـرت السنون في جذعها . وضعت اللبوءة في قرارة جوفها أشبالهـــا ، كما بنى العقاب في شماريخ أغصانها وكره . وبينما كان في وكره يزق أفراخه، إذ بالهر يشرفه بزيارة غير منتظرة افتتحها بالتحية المعتادة : « حياك الله أيها الصديق ». وبعـــد السلام والكلام شرع الهر بالتدليس والتملق ، فتنفش العقاب وأصغى بأبهة ورصانة إلى حديث زائره الكريم . وبعـــد افراغ جراب التحيات والسلامات انتقل الهر إلى الغرض الذي من أجله جاء فقال له : « لي معك حديث تهمك معرفته ، وإذا لم اقـدم حتى الآن على اطلاعك عليه فخوفاً من ان تبوح بالسر » .

وبعدما كبّـر الأمر وجسّـم الخطر أقسم له العقاب بشرفه وبدينه انه لا يفشي، من سره شيئاً . فقال له الهر : « سمعت الأسد يقول لبنت عمـه اللبوة انـــه يترقب فرصة غيابك ليصعد إلى أفراخـك ويأخذهـا زاداً لأشباله » .

فشكره العقاب على نصيحته الغالية ، وودع الهر وانصرف .

وفي طريقه عرج على الأسد ، وقبل أن يدخل عليه صاح به من بعيد: « أمني يا ملك الزمان ، فانا أحمل اليك نبا يهمك » .

وكان له الآمان الذي أراد ، فدخل وهو يقول : « أسعد الله صباحك

يا ابن العم ، ان القرابة هي التي حملتني على أن انقل اليك خبراً يهمك جداً أن تعرفـه ، لتكون على بصـيرة من أمرك . ان العقاب المعشش فوق في أعالي الشجرة يتحين فرصة غيابك لينقض على أشبالك ويطعمها أفراخه».

فتعجب الأسد من هذا النبأ ، وربض لا يفارق العرين ، ومثله فعل العقاب. وظلا على تلك الحال حتى ماتا وأولادهما واستراح الهر منهما جميعاً.

فلو قلدنا النمام زمـام الحكم وقلنا له : « كن عادلاً واحكم على الهر بمـا يستحق من عقوبة فماذا كان يحكم عليه يا ترى ؟

فيا أيها النمام الزنيم ، والمشاء الأثيم ، ألا أشفق على اخوانك !

ألا رحمة بقلوب العباد ، ولا تطلب الحياة بقتلك الناس !

فإذا كان هذا سبيلك لاكتساب عطف الناس فقد ضللت .

كن سليم النية صافي السريرة تجـد ثغر الحياة باسماً لك ، والطمانينة مادة يدها لتصافحك ، والسعادة فاتحة ذراعيها لتضمك إلى صدرها .

ان ثوب الرياء يشف عما تحته ، ومهما انفسح أمامك الأجـل وطال ، فلا بد من الافتضاح . وإذ ذاك تغلق بوجهك الأبواب ، وهذا إذا لم تطرد كالكلاب .

على أبواب المدارس

حكاية مزارع

جاءني رجل حاشيته رقيقة ولكنه مستور الحال . وبعدما ارتمى على المقعد واسترخى قليلاً ، تنهد ونفخ نفخة ارقصت الأوراق على مكتبي ، فقلت له : « خير ان شاء الله ! أية أزمة أنت فيها ؟ لست أرى على وجهك دلائل مرض ، ولم يبلغني أنك أصبت بانف العنزة ولا ذنبها ، فما هذا الضنك البادي على وجهك ؟ » .

فتأوه الرجل وقال : يا ليت ! دواء الانفلونزا هدية المقرف ، ليمونة حامضة وقرص اسبرو ، أمـا علتي أنا فهي في جيبي . صرنا على أبواب المدارس والجيب فاض . أنا خائف أن يبقى الصبي بلا مدرسة .

فقلت : ما أكثر المدارس يا أبا جميل ! فنقّ واختر منها ما يلائم ، على قدّ بساطك مدّ رجليك .

ــ وإذا لم يكن لي بساط بالمرّة فما العمل ؟

فاجبته : أبلغ بك الضيق هذا المقدار ونحن لا نعرف ؟

فقال : لم احتج بعد إلى القوت ، ولكن الأقساط المدرسية وارمـــة والعام ضيّـق. الزيتون ماحل ، والتفاح أرخص من الفجل. مئة صندوق لاتسدد القسط الأول ، وثمن الكتب والقرطاسية ، والدخـــان لا نعرف كيف يكون سعره . كانت الناس تفرّج عن بعضها ، أما اليوم ، ومـــع ان العملة ورق ، فالناس تنكر وجودها وتقبرها تحت تاسع أرض. أكثر الناس يكسرون يدهم ويشحذون عليها. عجزنا وما وصل إلى يدنا قرش. أنا خائف ان يطلع الصبي بلا علم .

ومرت الأيام وعاد الرجـل طلق المحيا ، فقلت في نفسي : أبو جميل قرع باب الفرج وفتح له .

فقال بعدما احتبى : أنت تظن اني وقعت على ابن حـــلال اقرضني القسط . نعم يا سيدي ، قد وجـدنا القسط في صندوق أم الأولاد . باعت فسطانها المخملي وخاتمها الذهبي ، وقالت لي حـين أعطتني المال : مـا نفع شبّ طويل عريض ليس في رأسه علم ؟ الفسطان يعوّض ، أما العلم فهو كالزرع ، إذا لم يغرس في وقته فلا تنتظر منه غلة .

وهنا تأوه أبو جميل وقال : لا تسألني بماذا كافأتها على هذه البشرى .. قمت فوراً إلى ثيابي الجدد وطرتُ بابني إلى المدرسة . وها نحن ننتظره كما ننتظر الحبة التي نبذرها في تشرين ، ولنا كل غلتها في حزيران ، أليس العلم غرساً ؟

* * *

هذه حكاية أكثرنا أيها الطالب العزيز .

لقد دخلت المدرسة بفضل فسطان أمك ، الذي لبسته في ليلة زفافها، وهي تحـــلم بـك . فماذا تفعل أنت حتى تكافئها وتكافيء أباك على تلك الساعات المضنية التي زعزعت أساساته ؟

الأبوان لا يترجيان إلا فـلاح ولدهما . فاعمل لتخرج مفلحـاً . قدّر جهاد والدك وتضحية أمك ، واكسب من العلم كل ما تستطيع .

وكأني بك تسألني : وماذا أعمل حتى أكون شاباً ناجحاً ؟ ان كان عندك شيء غير الوعظ فهاته .

ـ نعم عندي هذا السؤال : هل أنت مقبل بكل رغبة على المدرسة ؟ فإن كنت كذلك فأنت ناجح وغني عن ارشادي .

ان العلم لا يسع معه شيئاً . فالدماغ كالوعاء ، إذا ملأناه فلا نستطيع ان نزيد عليه شيئاً . أما سمعت قول المثل : « بطّيختان لا تحملان بفرد يد » ؟ وكذلك هو الفكر ، فإنه لا يشغل بامرين في وقت واحد .

قال أحد علماء الكنيسة الاتقياء : على من يريد الترهب أن يخلع ثيابه عند بوابة الدير .

أفهمت معنى هذا القول ؟

معناه ان من ينصرف إلى الزهـــد يجب ان يتجـرد من كل ميوله الأخرى . وأنت ان كنت غير زاهد في اللهو والعبث فما لك والمدرسة ! أما إذا دخلتهـا فاقفل الأبواب خلفك جيداً ، واعمل برغبة كلية تدرك غايتك .

ان المعرفة لا تنال باللهو وطقّ الحنك ، فإذا كنت طائشاً كالفراشة

فستخرج من المدرسة محترق الجوانح .

ليس المعلم بوليساً يحمل فرداً على جنبه ليعلم الطالب غصباً عن رقبته. انه كبائع الكعك الذي تراه واقفاً عند بوابة المدرسة ، فهو لا يقاتلك إذا لم تشتر منه بل يحاول أن يغريك ويشهيك ، ولك أن تفعل ما تريده .

المعلم لا يقدر ان يطعّمك كما يطعّم أبوك الأشجار البرية . عندك وسائل كيما تعدّ نفسك للنجاح . منها الارادة فاعتصم بها تنجح .

وإذا أعياك القبض على ما ترغب فحاول ان تتعود .

ان العادة توليك نعماً كثيرة وآثاماً كثيرة. فإذا تعودت القيام بواجباتك صرت رجلاً في الحياة ، وحزت المعرفة التي دفع ثمنها فسطان أمك .

التجىء إلى العادة ، فإنها تمسي غريزة . فمن ألِف القراءة قبل النوم لا يرقد ما لم يقرأ .

أرأيت العادة كيف حولت القراءة بنجاً ؟

فإذا قبضت على كتاب ، فلا تدعه حتى تأتي على آخر صفحة منه .

سألت مرة تلاميذي : من قرأ منكم كتاباً كاملاً في اللغة الفلانية ؟

فاجابوا : لا نحبها ، فلا نفتح الكتاب حتى نطويه .

فقلت لهم: احسبوها شربة زيت خروع،تعوّدوا عليها تستطيبوها.

فتعود بعضهم عليها وطابت نفوسهم بها حتى رغبوا فيها وكتبوا فصولاً لا باس بها .

فإذا أردنا وتعودنا بقي علينا شيء واحد وهو الأهم ، أي الانتباه .

هنا تخطر لي الآية الانجيلية القائلة : إذ لم يبن رب البيت فعبثاً يتعب

البناؤون . وهكذا يمكننا القول : إذا لم ينتبه التلميذ فعبثاً يتعب المعلم .

والانتباه لا بد لنا من التعود عليه والمثل يقول : « كل شيء عـــادة حتى الصلاة والعبادة » .

فإذا مرنت نفسك على الانتباه استفدت كثيراً مهما كان عقلك غليظاً.

العادة هي التي تخفف عنك جميع أثقـال الحياة ، فتتحمل المشقات وترضى بحالتك التي أنت فيها .

العادة هي التي تعلمك الانتباه ، إذا تعودته تأتيه بدون أقل كلفة .

وهنا يجب ان يهب المعلم إلى نجدتـــك . فالانتباه لا يكون إلا حيث تكون اللذة والرغبة ، فعلى الاستاذ ان يجعل دروسه لذيذة بمـا يبثه فيهـا من شخصيته الجذابة . إذا كانت له شخصية .

ومن هنا جاء التصفيق بالأيدي للخطيب الجيد ، وبغيرهـا للمحاضر البائس .

ان قراءة الكتب اللذيذة تسترعي انتباهنا ، وتسوقنا بعصاهـــا إلى حيث تريد ، ولا يمكن إلا ان ننتبه إذا كنا نقرأ كتاباً يستهوينا ويرغبنا.

هذه رؤوس أقلام وفيها بعض الكفاية الآن وسوف لا ننقطع عنك يا أمل الأمّ والأمة .

العائلات المستورة

انها كواكب نيرة تهاوت من علياء سمائها ، وشهب خبت أنوارهـا المتقدة ، ونسور نبل وكرم شلّ الدهر أجنحتها ، فسقطت من اعـالي معاقلهـا الحصينة ، فأبت عليها انفتها ان تزحف مع خشاش الأرض ، فانزوت وفي القلب حسرة ، وفي العين دمعة تفجرها الذكرى . تنظر إلى معاقلها بعين مكسورة ، ثم تحني رأسها لتنسجم مع واقع حالها راضية بما كتب الله لها .

ان العائلات المستورة هي ذلك النسر الذي قلما يدرك النـاس هول فجيعته . فهـم لا يرونه على رفارف الشوارع ، ولا على أبواب المنتديات مادّاً يده ، لأنه لا يحتمل ان يقف سائلاً بعدما كان مسؤولاً ، ويأبى ان تكون يده السفلى بعد مـا كانت العليا ، فهو يصبر ويصبر مردداً قول المثل : « خليها في القلب تجرح ، ولا تخرج من الفم فتفضح ! » .

ان بشاراً الأعمى ، مع جشعه وتكالبه على المال ، آدرك مـا يعانيـه

الكرام من ألم حين تعجز أيديهـــم عن الجود ومؤاساة الناس ، فابرز صورتهم في أجمل اطار حين قال :

ان الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنيــاً وهو مجهودُ
وللبخيــل على أمواله علل زرق العيون ، عليها أوجهٌ سودُ

ومن ينكر ان تلك العائلات المستورة حقاً لم تكن دعامـــة راسخة لبنيان المجتمع ، فترك سقوطها فراغاً عظيماً ؟

فطالمـــا كانت عضداً للفقير ، وساعداً للبائس ، وعكازاً للضعيف المسكين ، فانتشلت بحسناتها تعساء مطروحين في غيابات الجوع والخوف والجهل . ولكن الدهر الذي لا يرحم جار عليها ، فاذاقهـا مرارة الجوع والخوف ، فقبعت في عقر دارها تلتمس قوت من لا يموت .

هوت إلى الحضيض ، وليس لها بسطة كف تستعين بهـــا على قضاء حقوق الحياة ، فصبرت على نوب الزمان بإباء ، ولم يصغر البؤس والحرمان نفوسـاً عاشت كبيرة ، ويابى الشرف وعزة النفس ان تموت صغيرة . لم يطرأ على ذلك العنصر الكريم مـــا أفسده عند فقـد المـال ، فكان كالذهب الخـالص لا ياكل الصدأ عرقـــه المتين مهما تراكمت عليـــه الأقذار والنار .

ففي هاتيك البيوت التي كانت أبوابهـا مشرعة للبائسين ، ومعجنهـا سائباً للعافـين ، أمست النفوس تتهلل إذا شبعت البطون ، وتغتبط إذا فتحت بابها ليكرج منه رغيف يسد رمق معوز .

ان الفقر الحقيقي يتجسم بين تلك الجدران الصامتة حيث لا أيدي تبسط على قارعة الطريق ، وحيث العيون تحجبها براقع الحياء ، وحيث عزة النفس تترفع عن السؤال، فتتمسك بأهداب الصبر على خواء البطون.

ان كماليات هذا العصر وتقاليده تمتص ما بقي في كاسها فتحاول ستر خصاصتها ، ولكن أنّى لهـــا ذلك والفقر فضاح ! فهي كالمحكوم مؤبداً بالأعمال الشاقة فلا براح له .

الناس في حفلاتهم ، يتحلّقون حول الموائد الموشّاة بصحاف ألوان الطعام، ياكلونها بعيونهم وأفواههم ، وآذانهم صماء عن تنهدات العيال المستورة ، ناسين مادبها وكوكتيلها وشايها ، وتبرعاتها ومبادرتها إلى إغاثة الملهوفين والمنكوبين . ففي كل موسم لا يطرق أحد بابها ليؤاسيها أو يسليها أو يتوجع لها .

أيامها أمست مآتم ، ولياليها للنحيب الصامت . تتأسف على الجـــاه العظيم ، وتتلهف على مـــال فرقت شمله يد القدر الغاشم . وكل مصيبة تصغر متى كبرت، إلا مصيبة زوال النعمة ، فإن آلامها وأوجاعها تتجدد كل ساعة . ولكن ذلك البكاء لا يتجاوز صدرها ، فهي ترجع صوتهـــا كالمطوقة التي تبكي الهديل . فأين هم الذين سمتهم العرب جابري عثرات لكرام ليتداركوا هذا البؤس الصامت ؟

فباسم الانسانية نسال ذلك الغني الحديث النعمة أن لا يرفــع رأسه اختيالاً وكبراً ، ويخفف الوطء على أديم الأرض ، ولا يغره حشد المال ورقاً وذهباً في صندوقه الني لا يدخله حتى الهواء القالع ... فما ضر ذاك

الثري الأمثل لو ألغى مادبة أو حفلة كوكتيل من حفلات العام ، ونفّس بها عن هذه العيال المسكينة ، بينا هو يعلق في صدر قاعته : « الخلق كلهم عيال الله » ؟

انتركها في بؤسها كما ترك جزيمة بن بشر اصدقاؤه وجفوه بعدما أنفق عليهم ماله ؟

أبى جزيمة الشهم أن يخرج من بيته فقيراً حتى يقرع الموت بابه وينتزع درة تلك النفس من صدفها . بل فلنكن كعكرمة الفياض الذي حمل إليه تحت جنح الليل الدامس كيساً من الدنانير ولم يشعر بذلك أحداً .

فإلى أمثال هؤلاء نلفت أنظار الحكومة ، فهم أحق بفضلات الميزانية من الأنانيين الذين يتناتشونها ويسلبون براسيم ما يطمعون به منها .

قد تكون في هذه البيوت المسدلة عليها ستور النسيان آنسة ذات جمال وكمال يحول دون تأهّلها قليل من المال يكون جهازاً لها، كما تقضي عادات هذه الأيام ، فلا تبقى حملاً ثقيلاً على عائلتها التي هي أيضاً عيال على القدر الساخر .

وقد يكون بينها فتى متوقد الذهن بخل عليه الدهر الظالم بقليل من المال لتقبله إحدى المدارس العالية في حضنها حيث يتلقى العلوم ويكون في المستقبل من جنود المعرفة التي تحارب الجهل المخيم في آفاق البشرية .

وقد يكون بينها صبية صغار يتضورون جوعاً ، وسيدة انزوت بين جدران بيتها ولم تخرج منه بأثوابها الرثة حياء وخجلاً . وسيد لا يجد

غير المعول ليحصل به ما يقوم بتكاليف عائلته المنكودة .

هذا ما نذكّر بـــه بمناسبة المواسم والأعياد وحلول الشتاء القاسي، وعسى ان تصادف كلمتنا هذه آذاناً تسمع ، وقلوباً ترق، وأيادي تسمح، فالثروة التي لا ينتفع بها الغير أشبه بالطعام الزائـد ، فإنه يبشم ويتخم ، ويضر ولا ينفع .

على بوابة مدرسة

في مثل هذه الأيام تتفتّح جراح المعسرين .

يستعد اللبناني للمدرسة في أوائل تشرين، كما استعد في آب للتموين. فمستقبل أولاده مرتبط بتعليمهم . هكذا يقول ، ثم يروح يرهن ويستدين حتى يكون القسط حاضراً في الحين . أما المؤونة فترجأ إلى الغد . يدبرها الله ... يأخذ من عند هذا البرغل والطحين ، ومن عند ذاك الزيت والرز والحبوب .

يختلق عذراً لهذا وأسباباً لذاك،فلا يخرج من الدكاكين وسلته فاضية.

أما المدرسة ، وخصوصاً إذا كانت أجنبية فغريم يابس ، لا بد من الدفع نقداً في الحال ، فلا سندات غب الطلب ، ولا غب مرور شهر . لا طالب ولا مطلوب . ادفع وادخل ولا هوادة . فالج لا تعالج . تدفع ، تدفع المبلغ المرقوم وأنت واقف على فرد رجل .

كانت الرواتب في الأمس نصف مصيبة ، ولكن الحكومة رحمت المعلم بعد ألف يا وبلاه ، وزادت له عشرة بالمئة ، فزادت المدارس ثلاثين

وأربعين ، والحكومـــة لا تسال ما دام الحال ماشياً . والحال اوحال ، وماشي الحال في وطن الاشعاع .

ترى أما نحن في حاجة إلى وزارة من راديوم حتى لا تنطفي سرج اشعاعنـا ؟

دعاني إلى ما كتبت عن العيال المستورة مشهداً رأيته عرضاً منـــذ اسبوع عند بوابة إحدى المدارس في العاصمة .

رأيت سيدة تغضي حياء ويُغضى من مهابتها . رأيتها تلمـــلم ذيول دمعة وتمشي في سبيلها تهمهم وتدمدم، فقلت : ها قد سقطت على الموضوع فلنتقدم .

وتقدمتُ وتقدمتْ هي . وأخـــيراً وقفت لتمر العاصفة بسلام . ولكني وقفت أنا أيضاً لأقول لها : ما بك يا سيدتي ؟ رأيتك خرجت من ذاك المعهد دامعة .

فتفرست فيّ محاولة ان تعرف إذا كنت من يوثق بـــه ، ثم قالت : « يا ويل من يحط عليه الدهر في هـــذا البلد ، عرضت أساوري على أمين صندوق المدرسة فقال لي : اذهبي إلى سوق سرسق ، وهناك تجـــدين من يشتريها منك ، أما نحن فخدام علم لا صيارفة » .

فقلت : اجعلها رهينة في يديك لبضعة أيام ، ولولا الخوف من ضياع الوقت على أولادي لتصرفت بها، كيفما دارت بها الحال ، ودفعت القسط.

فأجابني : آسف يا سيدتي فـلا تضيّـعي وقتك ووقتي فغيرك ينتظر نوبته .

هذه قصتي الحاضرة ، وهناك غيرها أقاصيص شتى ، منها ان ابني الكبير أرسلناه إلى أوروبا لينهي علومه في إحدى جامعاتها . كنا في بحبوحة يوم راح ، فظل يبرق الينا : أرسلوا دراهم ، وظللنا نرسل حتى نهاية هذا العام الذي وقعت به الكارثة . أفلسنا وصرنا إلى ما صرنا اليه . فالأوقاف التي كنا نتبرع لها ، والجمعيات الخيرية التي كنا نعضدها لم تشأ ان تتذكر ماضينا ، ولا الذين على كراسي الحكم يذكرون لياليها الطافحة شراباً ، وبيتنا الذي جعلناه لهم مرقصاً .

فقلت : أليس في طائفتك أوقاف .

فقالت : بلى ، ولكنهم يزعمون ان الأوقاف للفقراء ونحن لا نزال نحسب من الأغنياء . رحم الله ذلك الزمان الذى كانت فيه مدارسنا ترى أصحاب البيوت الهاوية أحق بالمساعدة ، لأنهم ساعدوا يوم كانوا قادرين .

فقلت : وأين أبو أولادك لا يقوم عنك بهذه المهمة الشاقة ؟

فكزّت على أسنانها وقالت: الله يقصف عمره، هو الذي رمانا وانسل.

فقلت لها : ولماذا لم تتنكري ما دمت لا تطيقين الظهور ؟

فقالت : وكيف أتنكر يا رجل ! أألبس ثياب المهرجين ؟

فقلت : لا ، أنت غير مستورة ، ستر الله عليك وعلينا، بهذه البودرة وأحمر الشفاه والخدود والأظافر ، وأنا ضمين لك ، إذا تخليت عنها ، تنكرت فلا أحد يعرفك . لقد غرقت يا مولاتي بالكماليات فاصبحت محتاجة إلى الضروريات ، لطف الله بك وبأولادك ... أليس لك يد في الدواوين ؟ فقد قرأت أنهم يصرفون للعيال المستورة مبالغ محترمة وأنت

منها ، فأسرعي قبل ان يفوت الأوان .

فتأوهت وقالت : يا حسرتي ولّى الزمان وفاتنا .

فقلت لها : يا ميجنا يا ميجنا يا ميجنا . هذه أحوال الدنيا يا أم فلان . أنت لست من العيال المستورة ، ولو كنت صنت بيتك ولم تجعلي منه مأوى للمستهزئين ، ولم تنفقي ما انفقت على الذين أكلوا الطعم و .. لما سقطت في هذه الهوة ..

لم يعد ينفعك هذا الظهور الذي لا تتنازلين عنه ، فاعملي واقتصدي . الزمي بيتك واعملي منذ الغد ، فليس العمل عاراً ، ولكن العار هو أن تسألي الناس .

وبعد ، فلماذا هـذا الهوس بالمدارس الأجنبية ، ابنك في الصفوف الثانوية ، ولدى الحكومـة مدارس مجانية من هـذا الصنف . ابنك في الصفوف الابتدائية والحكومة أعطت المدارس المجانية ملايين فاستفيدي منها ، ادخري حلاك إلى أزمة أشد . ولكن آفة العيال المستورة انهـا لا تريد ان تنزل عن مستواها مقدار شعره .

ترى المدارس الأجنبية أرفع وأسمى من مدارس بني جنسها ، وتريد ان تخفي جراحها ولا تعالجها ، وهـذا هو عين الخطأ . فامحي من ذهنك صور ارستقراطيتك تفلحي .

انه شبح عظمة الأجنبي الموهومة لا يفارق مخيلتنا . أتقولين لي أي فرق بينك وبـين اولئك الشحاذين الذين يدورون على بيوت الناس وفي

أيديهم « مناشير من البطاركة والمطاردين » يحثون بها الناس على معونتهم واسعافهم ؟

أمـا كان أولى باولئك السادة ان يبذلوا لهم العطاء من مـال الأوقاف التي يتنعمون به ، ولا يكلفوا الناس الإحسان حياء ؟

اذهبي يا أختي واعملي . تسلي بالصنارة ، وبيعي ما تحبكين وتنسجين بواسطة من تستر عليك إذا كنت تستحين. صوني وجهك واعملي تقدري على بنيان بيتك المنهار ، واصبري وانتظري فما بعد الضيق إلا الفرج .

غداً يكبر أولادك ويعملون وتعود الثروة إلى مجاريها .

تشرين الأول

في هـــذا الشهر تعود فراخ الانسانيـة إلى أقفاصها . ففي الاوكار والوكنات المدرسية تربى وتدرب عقبان ونسور فتطير محلقة في أجواء الحياة . أمـا الزرازير والخفافيش ـ ومـا أكثرها في المدارس ـ فتخرج لتسف في السهول ، لا تعلو عن الأرض إلا أذرعاً ، لأنها لم تخلق للقمم .

فمن احشاء تلك الثكنات ، كبيرة وصغيرة، تخرج إلى ميادين الحياة جنود في أيديها عتاد العلم الحديث لتخوض معارك التقدم والرقي وتسير بالبشرية قدماً .

فمن بين جدرانها، وهي ليست مبنيّـة كالحصون متانة ، تكر فرسان المعرفـــة ، وتفر شانّـةً على الجهالة غارات شعواء ، وتنقضّ على الجهـل والخوف بما علمتها المدارس من دروس الشجاعة .

المدرسة هي أم العظماء . تتمخض بهم أجنة ، وتلدهم ولادة ثانية ، ثم تطلقهم في فضاء الكون الواسع ، كما تطلق امات الطيور فراخهـــا حين تستوي أجنحتها وتشتد .

تتكون عقول الناشئة من تربية حقيقية سامية وعلم صحيح ، ومن هذه الخلايا يتكون جسم الامة التي تريد أن تحيا وتساهم في معترك الحياة .

ترسل المدرسة عباقرة بنيها هدامين بنائين . ينصرون الانسانيـــة المتالمة ، ويرشدون المتخبّـطين في ظلمات الشبهات ومجاهل الترّهات . فما أعظم شان المدرسة وأجزل منافعها للبشرية . فلولاهـــا لبقي البشر في ضلالهم يهيمون .

املأوا المدارس تفرغ السجون . كلمة كان لها دوي يوم قيلت . وقد اعارتها الأمم سمعها فسارت إلى الأمام وقلّت فيها الجرائم .

أما الشعوب الثقيلة السمع فظلت تغطّ في سبات الخمول العميق .

واليوم ، وقد ازالت أقلام الكتاب الصماخ من الآذان ، فقد سمع كل شعب ووعى ، وعلم ان بالعلم والمدرسة نجاح كل أمة ، ومن بين جدرانها تظهر أشعة التقدم .

لا نضيع الوقت في تعداد منافع المدرسة ، فهي لحدوثة البشر تحت جناح الليل ، وفي نور النهار ، وكل زمان ومكان ، ولكننا نسأل الناس : هاتوا لنا عظيماً لم تخلقه المدرسة . وهل في الدنيا عظيم بدون عـــلم ؟ الجواب : المدرسة أم العظام والعظائم ، ولهذا انصرفت اليها أفكار كل شعب ، فتهافت أغنياء الشعوب على تشييدها . أما نحن فيا زلنا مقصرين في هذه الحلبة ، وقد سبقتنا الشعوب أشواطاً .

أتتعزى الانسانية عن عذاب أطفالهـــا بالدارات القائمة على الروابي والقصور الشاهقة ؟

ألا تتألم عندما ترى صغارها يتيهون وراء قطعان المعزى وأسراب البقر في الأودية، حفاة عراة يرثي لبؤسهم أشد القلوب تصخراً ؟

وفي المدن ، حيث الشوارع العريضة التي تقوم على جانبيها دور اللهو الشاهقة، نرى بؤس الناشئة، وعلى ظهورها الأحمال الثقيلة، تارة بالسلال وحيناً بالحبال ، ومن لم يستطع منهم حمل السل تنسل يده إلى البيوت والجيوب .

ألا يعلم أصحاب الثروات التي لا تحصى ان غفلة هؤلاء الصبية الصغار ستنقضي ، ويمزق شبابهم الستار الحاجب مستقبلهم فيثورون على عبدة الأموال الذين يقولون : الملك لله ، وليس لمخلوقات الله من مالهم نصيب ؟

في منعطف الطرق وشوارع المدن وأسواقها ، حيث يتسابق الناس كادحين ليستولوا على القرش ، يرى المتأمل أفواجاً من هؤلاء الصغار يجدفون ويلعنون ويأتون كل محرم بلا خجل ، إذ لم يروا يداً تضمهم إلى صدر فيه حنان وانعطاف ، ومدرسة تغذيهم بالتهذيب والعلم الصحيح .

ان هؤلاء الصغار هم مستقبل البلاد ، فإذا شئتم ان يكون لكم مستقبل يرجى فهذبوهم .

أطلقوا ، أيها الأغنياء ، من شرفات قصوركم المعلقة بين السماء والأرض ، وانظروا إلى أبناء اخوانكم هؤلاء الصغار . فإذا شبوا بين براثن الشقاء تعلموا الشراسة والقسوة، وعكروا في المستقبل كاس صفائكم. سيفسدون الهيئة الاجتماعية ويكونون حملاً ثقيلاً على منكب المجتمع إذ يزرعون الفساد فتحصدون أنتم الأكدار ، وما هم زارعوه ولكن جهلهم هو الزارع .

أليس منهم اللص الأثيم وسفاك الدماء الرابض لكم في الطريق ليسلب أموالكم وينازعكم البقاء ؟

فلو فكرتم بهذا قليلاً وتأملتم به ملياً، لو نظرتم إلى هذا الفقير البائس لعفتم بعض الكماليات وتركتم موائد القهار وانفقتم جانباً من أموالكم على المدارس التي تروض الوحش في الانسان فيتسنى لكم العيش في راحة بال ، وبهذا تأمنون اللصوص وتتركون أبوابكم في الليل مفتحة ليدخل منها الهواء الجديد المنعش .

كم صغير تنبعث نار الذكاء من جبينه قد ذهب ضحية الفقر وخسرته الانسانية . كان يرجى أن يكون مخترعاً أو عالماً أو مهذباً أو ... ولكن عجزه عن اقتباس العلم أطفأ تلك الشعلة وأخمد ذلك القبس .

في اميركا لاموا كرنيجي المثري الشهير لأنه أنفق معظم أمواله على بيوت العلم ولم يخص قسماً منه ببيوت ياوي اليها الفقراء ، لأن الكثيرين في البلاد التي نظن حجارتها ذهباً وفضة كانوا يتألمون من الجوع . أما نحن فنلوم أغنياءنا على انفاقهم أموالهم في غير سبيلها ، إذ لم نجد رجلاً وقف أمواله على مدرسة خيرية تقبل في حضنها أبناء البلدة التي أبصر فيها النور .

لم نرَ بيننا من حوّل همّه إلى إنماء المدارس الابتدائية في البلاد ، بل كلهم على وتر واحد يضربون .

أما حان ان ننتبه من سنة الكرى ونهتم بصغارنا اهتمامنا بنفوسنا ؟

المدارس الابتدائية ضرورية في كل بلدة في شرقنا العربي ، وليس ذلك

على الحكومة وحدها ، فنحن أيضاً مسؤولون عن معاونتها . نقول هـذا لأننا نعـلم أن في كل وطن من أوطاننا قرى عديدة محرومة من مدرسة ابتدائية تعلم الصبيان المبادىء الأولية من القراءة والكتابة .

فمتى تستيقظ من هـذا السبات العميق ، من هذا النوم المزعج المملوء أشباحاً مخيفة وأحلاماً رهيبة ، ونهتم بشبيبتنا المقبلة ؟

وإذا لم نجد من يهتم بنا فمن الضروري أن نهتم بنفوسنا ونعد لصبياننا مستقبلاً سعيداً . فالذين لا يحسنون القراءة والكتابة في الأمم الراقية تسعة في المئة ، أما عندنا فبالعكس .

وفي مناسبة افتتاح المدارس فلننظر إلى الذين تضيق المدارس عنهم وليس لهم ماوى أدبي ، هذا إذا كان لهم المأوى الآخر .

فإلى جمعياتنـا الخيرية التي انشئت لاغاثة الفقير نوجه كلمتنا هـذه سائلينها ــ وهي نصيرة البائس ــ ان تهتم للمدارس الابتدائية وتحول اليها همها ، فالفقراء إلى الخبز عندنا قليلون أما فقراء العلم فلا يحصون .

ان مدارسنا أضيق من أن تتسع لناشئتنا ، ووقفة قليلة أمـام تلك البنايات تنبئنا بالحاجة القصوى إلى دور تتسع لابنائنا .

انـكم أغنياء ببيوت اللهو على اختـلاف أنواعها . فهلموا إلى هـذه المكرمة يا من تطمعون بالأجر والصيت الحسن .

الى الشباب المثقف

يظل هـذا الفكر يصحبني ويمسّيني كأنه طيف وحيد ابن الرومي ، لي حيث انصرفت منه رفيق ، عن شمالي وعن يميني ، ومن خلفي وقدامي ، فاين عنه أحيد ؟

ثم غوّرت الفكرة في اللاشعور ، فطفق يشتغل بها عني .

جرى كل هذا في نفسي وأنا غافل عما بي .

وكان ان تقلّت منذ ليال بعد العشاء ، فراودني النعاس عن نفسي ، فاستسلمت للتجربة .

وما عانقت مخدتي ذاك العناق البريء حتى أقبلت بنات فرويد وابن سيرين تخطر في هوادجها وحدائجها !

وإذا بي أرجع شرخاً ، أتخطر في مكتبي كأني غصن بان يداعبــه الهواء ، وقد قلت في نفسي : « ولِمَ كل هـــذا العناء ؟ فكما كنا نعالج في اشتداد أزمـــات التاليف الماضية ، مواضيـع : الحرية ، وحب الوطن ،

والتأني ، والصدق ، فلنكتب اليوم عن امرىء القيس ودارة جلجل .

المواضيع كأزياء الثياب. فما علينا لو درنا حول دارة جلجل جولات، فانكرنا وشككنا ، وسفهنا حامل اواء الشعر في النار ، وتطور الحـــلم وللأحلام تطورات عجيبة، فما راعني إلا امرؤ القيس يسدد نحوي رمحه، فقمت فزعاً .

انها والله أول مرة رأيت فيها رمحاً مسدداً . فتاوتّ له ، فادرك انه ينازل غير بطل ، فوقف عند رأسي هازئاً ، وقال : تكفيني قروحي ، فلا تنكأوها ببحوثكم البغيضة . هـذا ينكر وجودي ، وذاك يفسقني ، وهذاك ينصرني ! أفلا تستطيعون غير هذا العبث ؟

لديكم مئات الدارات ، وعندكم مئات العنيزات ، وعشرات الحمامات . فما لكم تتأثرون عنيزتي ، وتحتلون دارتي ؟

ان دور اصطيافكم وطلولنا سيان . فاسألوا كما سألنا ... وقفت على الطلول مرة فوقف الشعراء وقفتي ، ووقف الشعر .

فقلت في نفسي: قاتل الله الجاهلية ! فالطف تحياتهم السيف والرمح. الفرار الفرار .

فجئت الفرزدق فقال لي : ان نار غالب قد طفئت .

وقابلني الأخطل بعباءته الموصلية البراقة، وابتسامته المكزّة ، وعلق يحلف بالصليب ، ومار سرجس ، انه لا يريد قتالاً .

أما إذا ازعجته فينتحي له من لياليه العوارم أول... فهو يرى الهوامش

التي تعلق على حواشيه أبرد من جلد الحية وأشد صمتاً من السمكة ، فما يراها تعني شيئاً .

وفيما نحن نتجادل، أقبل علينا رجل مربوع غير ممتلىء فقال الأخطل: هوذا الخطفى . قد أجمعنا أمرنا أمس ، وبتنا على أن يتوجه أحدنا اليكم ، فينبئكم أننا جدّ أصحاب في الأبدية، نأكل في قصعة واحدة، فاياكم وإيانا..

أما جرير فقال ، بعد ان احتبى : يا غياث ، منو هـذا الأرضي ، ومـا يبتغي ؟

فخبّره خبري ، فاحرنجم عني بعد إقبال ، ولم يزد على ان قال : اشتهي والله أن أقول « دامغة » ثانية فلا تكن موضوعها . وليتك تكون، فلي فيك مرعى خصيب .

ورأيتني أفر من هؤلاء الشياطين الثلاثة وأهيم على وجهي ، وأرى عمر يقود الأغر ، وحوله صويحباته الثلاث ، والابتسامة ملء فمه ، وقد عرفته من ثنيتيه ، ونظراتهْ المتقدة كالتنور المسجور ، فقلت في نفسي : ساعة رضى ، لعل عمر يرخص لنا بالرعي في حماه .

ففهـم عني بلا كلام ، وحذرني مغبة عملي ، ثم قال : أنتم يعنيكم الاخلاص في الحب . وأنا كان يعنيني من الدنيا اثنان : الجمال والفن . كلاهما متعة عندي ، فاعملوا أنتم ولا تكونوا طفيليين . حسبي تعذيب رواتكم ، فلا تزدني ، عافاك الله .

فقلت في نفسي : إذن علي بالعميان ، فإذا اشتد الخطب أهرب .

فاقبلت على بشار ، فرأيته منبطحاً في دهليزه كأنــــه جاموس ، فما أحس بي حتى استوى قائلاً : ليفهم الناس شعرنا ما استطاعوا ، فويـل جهلهم أخف من ويلات شروحكم السمجة .

وما صدقت انه الجد حتى بلّ يده بقائم سيفه الذي يعاتب به الجبابرة فانصرفت راشداً .

وإذا بحماد عجرد يقهقه وينادينى : أتطلب الخير من عند القرد ؟

فأجابته وأنا لا الوي عليه : قردك يخيف يا حماد .

وسمعت شخيراً ونخيراً يتعالى من ماخور على الطريق ، فرأيت والبة وأبا نواس سكرانين ، فما رجوت عندهما خيراً .

ومرّ بي رجل من أهل السمت قيل لي انه ابن المقفع ، فلم الحق به .

ورحت أنشد الجاحظ في دكاكين الوراقين ، فلقيني أعمى يتعكز على عصاه ، فعرفته ورجوت أن يكون أرحب صدراً من زملائـه ، فأخـذ الشيخ يتلوى كأنه ممغوص . ومما قال : هجرت الناس لاستريح فلم يكفوني شرهم ، هذا يثقل علي في سجني برابطة المودة ، زاعماً انه يعرف فضلي . وذاك يطوفني في الدنيا وأنا رجل ضرير مكسور العصا، ويزيدني نكاية بتقويلي ما لا أقول . ندمت والله، واستغفرت ربي ألف مرة لانني كتبت « عبث الوليد » فما عبثكم أنتم بنـــا يا أولادي ؟ لست والله من عميان الكدية ، أفي كل عصر لي ابن قارح يقرح قلبي و كبدي ؟

فقلت في نفسي : ربما سئم هؤلاء المشاهير دروساً هي حقاً أثقـل من درس البيادر ، فجاء في بالي دعبل الخزاعي ، وإذا به يرتفع لي من بعيد ،

يحمل خشبته التي لم يصلب عليها أحد ، فحمد الله وأثنى عليه ، لأنه استراح بشفاعة آل البيت من منهاج البكالوريا .

ومنيته ، مواعـد كاذبات فما صدق ولا اغتر . وكان وداعنا صرخة داوية ، فاستيقظت على صوت صاعقة انقضت في مكان قريب . فقعدت في فراشي مذعوراً أدلك عينـيّ كالخفاش .

التشبه آفتنا الكبرى

إذا التقيت رجلاً ورأيته مقطب الجبين ملبوكاً مرتبكاً، يضرب التل ولا يصيبه، فاعلم ان يده قد قصرت . وإذا حدثته وراح يشكو لك العسر والضائقة المالية ، فاعلم انه سقط في هوة التشبه فاسرف ولم يقف حتى استحال يسره عسراً .

انه أما مبذر ، وأما له زوجة غير حكيمة . ومتى اجتمع الاثنان في بيت فَرُّ من دربه لئلا يطمرك ردمه ، ولا عاصم لك !

من طبيعة المرأة أن تسأل القادم من أهلها عما صنع الداعون إذا كان آتياً من وليمة ، أو من حفلة كوكتيل ، والغاية من هذا السؤال هي ان تزيد عليهم حين تأتي نوبتها، ولتظهر أنها من سيدات المجتمع الراقيات..

وإذا كانت المرأة مع زوجها والتقى صديقه وزوجته ، فهي تنظر قبل كل شيء إلى ثياب تلك السيدة وحلاها ، وتلسعها عقارب التشبه . لا يعنيها إلا تأمل ذلك الثوب، والسؤال عن ثمن ذراعه، وتكاليف خياطته و ... و ...

أما وجه صديقتها فهو في الدرجة الثانية من الأهمية ، لأنـه لا يمكن الحصول عليه من السوق .

النـاس ، وخصوصاً في الشرق ، مطبوعون على حب الظهور ، ولو كان يقطع الظهور . وأكثرهم يطلبون المعالي من غير أبوابها ، ويظنون كسب المجد ببذل درهم يجمعونه مجبولاً بعرق الجبين ومصبوغاً بدم القلب.

انهم ينفقون ما جمعوا في سبل كانوا في غنى عن سلوكهم، لأنها تؤدي بهم إلى صحراء التعاسة ، بل إلى شيخوخة هم وذل ينضم فيها ضيق الصدر إلى ضيق ذات اليد . والمصيبتان لا تحتملان .

خذها من مجرب ولا تسأل عنها الحكيم: فالشعراء الذين تتهمهم بالكذب صادقون حين ينظمون الحكمة . اما قال أحدهم يصف التشبه :

من تردى بــــرداء	مـــا رآه من ربيه
وابتغى ما قد تعالى	عنـه ممـــا يشتهيـه
سوف يأتيه زمان	يتمنى الموت فيـــه

أجل لقد تفشّت اوبئة التشبه والتبذير في هيئتنا الاجتماعية الحاضرة، اللابسة من المدنية ثوباً مستعاراً ، فصرت ترى أياً كان من الناس سواء في ذلك النائمون على مهاد الثروة وأولئك الذين يصلون الليل بالنهار بغيـــة الحصول على ما يسدون به فراغاً في بطونهم ، تاركين للقدر عائلة يضنيها العوز . يتنافسون في تضحية الدينار على مذابح الكماليات غـــير مبالين بالحاجات الضرورية التي يطالبهم بها البيت والأسرة .

لقد بات التشبه يمتص دماء الثروة ويجعل الجيوب خاوية خاليـــة ،

تشكو مرارة وحشة ذلك الوجه الأصفر الخلاب .

ولو أردنا ان نعدد عيالاً جرّها التشبه إلى الإسراف والتبذير وانفاق المال جزافاً ، لضاق المقام . ولهذا نطوي تلك الصفحة ، لأن كل من يفكر متاملاً بخراب البيوت العريقة وسقوطها عن كراسي النعمة إلى حضيض الذل والفاقة يجد ان السبب الأكبر كان انفاق الأموال بغير حساب ، وهذا هو الداء العضال الذي اصيبت به ناس هذا العصر .

تجد الفتى يجد ليلاً نهاراً ليحصل في شهر بعض المال ، ولا يكاد يقبض المبلغ المرقوم حتى ينفقه في الملاهي والملاعب ، وعلى موائد الحانات، وبين الغواني اللواتي يبعنه الحب بالثمن الموجع ، ويبدين له من ضروب التودد الزائف ما يصدق وان كان لا يجهل سره .

ومع ذلك ينفق كل ما وصلت اليه يده ، غير آسف على تعب قضاه ، وشقاء قاساه ، متشبهاً بصاحب الملايين ، غير ناظر إلى الغد ، ناسياً أن من يكلل شبيبته بالتبذير يتوّج شيخوخته بالأشواك الدامية في الجراح .

فما أشد وطاة التبذير في هذا الزمان ! وما أقوى شوكة التشبه الذي ألقى الكثيرين من شاهق قصور الرخاء إلى مهاوي الويل والبلايا .

ترى الانسان يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ، ويكلفها ما لا تستطيع النهوض بأثقاله ، ليبرز في أبهة صاحب الثروة ، حاسباً ان ذلك المظهر يخفي فقره وعوزه ، لا بل تفاهة عقله ، غير عالم ان الفقر سيظهر مهما حاولنا ان نخفيه . انه كالنار الكامنة في أحشاء الأرض ، فلا بد من ان تثور يوماً وتدك شوامخ الجبال .

فمتى يا ترى يقف الرجل عند حده من هذه العظمة الكاذبة التي تحرم الهناء وتقلق راحة الحياة المطمئنة ؟

متى نترك المساواة في هذا المجال ، واضعين لحياتنا نظاماً نسير عليه، لنأمن سوء العاقبة وشر المصير ؟ ونسلك طرق الحياة على مهل ، غير شاعرين بتعب ينهك الجسم ويضنيه ؟

فما فائدة الرجل من ليلة فخفخة وترف تهرب كالظل ، وينقلب صاحبها في ساعة من نعيم الحياة إلى شقاء قلق وعتب على دهره ، ملوماً حسيراً ، يهمهم ساباً الدهر ، وهو الجاني على نفسه ، لأنه لم يحسن ادارة بيته ولم يعرف كيف يصون ماله وينقذ اسرته من ويل يطحن حبات قلوبهم طحناً .

ومن أراد أن يعرف الغرور الذي وصلنا اليه في هذا العصر ، عليه ان يدخل نادياً عاماً ، فيجد امرأة البقال والفوال تزمل بثوب زوجة صاحب الأموال الطائلة التي لو أكلها ذهباً لكفته مؤونة الحياة . ونظر ابن الحمار والبغال بحلة ذي الثروة الطويلة العريضة . لا نظنه يستطيع بعد هذا ان يمنع دمعته من الفرار ويقول مع الشاعر :

امور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها الحكيم

قضى التشبه على معظم قومنا بالخضوع لشرائعه القاسية ، إذ حسبوا ان في انضمامهم تحت لواء المجد الكاذب كل العظمة .

لم يعلم اولئك المساكين ان الناس يهزأون بهم إذا رأوهم يطلبون العلاء بذراع من الجوخ ، ويردة من الحرير ، ومتر من الكتان !

-فيا أيها الناس ! رفقاً ببيوتكم . فالدمار يتهددكم . وازنوا بين ظاهركم وباطنكم . لا تظهروا بمظاهر الترف والاسراف إذا كنتم لا تستطيعون ان تحملوا على عاتقكم هذا الحمل الثقيل .

وأنت ، يا أخي الذي تضني شبابك الناضر وتدبـــل غصن حياتك الغض في معترك العمل لتحصل في آخر الشهر دينارين أو ثلاثة، ما ضرك لو أبقيت لغدك بعض ما تحصله ؟ فلا تقل ، هداك الله : « لا تهتموا بما للغد ، فالغد يهتم بشأنه » وتنفق مالك في سبل لا يرضى بهـــا الشرف ، وينفر منها الضمير ، بل ادّخر ما تستطيع ولو قليلاً لساعة يكبّـل بها الهرم يديك بقيود الضعف واغلال القصور .

إذا كنت تنفق كل ما تكسبه فثق انـك لا تبلغ ما تتمناه من الثروة ولو ربحت بيومك الألوف المؤلفة .

وأنت ، أيتها السيدة الفقيرة التي يحملها غرورها وطيشها على تحدي النساء الموسرات لتقتدي بحركاتهن وسكناتهن ، غير ناظرة إلى زوجها المسكين وما يعاني من الأتعاب والشقاء في جمع درهم تنفقه على أمور كانت في غنى عنها لولا تشبهها بمن هي أعمق ثروة، وأعظم قدراً وأعرض جاهاً. ما ضرك ، يا سيدتي ، لو كنت زوجة لا تهمها الخزعبلات ، ولا تخدعها السفاسف ، فتدخر اليوم ما يفرج ضيقها في الغد ؟

فلنصغ إلى صوت الواجب، ولنسمع نداء الضمير، ولنكون رجالاً، لا باسرافنا وتبذيرنا ، بـــل في اقتصادنا وادخار القرش الأبيض لليوم الأسود ، كما يقولون . فبهـذا نكفل لنا ولأسرتنا مستقبلاً سعيداً ، ولا

نخشى جيوش الشدائد متى داهمتنا واحتلت ساحتنا . فالدينار لا يجمع بغير الاقتصاد وخلع ثوب التشبه والاسراف . فلنحذر هـــذه الأوهام العصرية التي لا ينال منها الانسان غير الهموم والمهانة، فهي تجر عليه الفقر من حيث لا يدري ولا يظن .

يا سيدي وسيدتي ! يقول المثل : « على قدر بساطك مد رجليك » فما لكما والتطاول إلى ما لا تصل اليه يدكما ؟

لا يغرركما مـــا يقول الناس عن مادبتكما أو حفلتكما . ولا تنتظرا الاعجاب والثناء حين تظهر صورة مائدتكما . فكل هـــذا لا يساوي هم ربع ساعة .

الكرم فتوة ، ولكن ما كلف نفساً فوق طاقتها .

ان الفقر يقف دائمـــاً خلف التبذير ، وهو ينتظر منه ان يفتح له الأبواب ، فلنغلقها جيداً نامن شر هذا الضيف الثقيل .

لا يغرركم قول الشاعر : « وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهـــم » ، فهو لا يعني هذا التشبه الأحمق الذي يقول الكتاب الكريم في أصحابه : « ان المبذرين اخوان الشياطين » . فحكمة الدهور تعلمنا : « على قدر بساطك مـــد رجليك » . وان لم نصغ لهـــا نمنا في العراء ، فراشنا الأرض وغطاؤنا السماء .

هل من يعتبر

احتفل العالم المسيحي بذكرى الراقدين . وكما للمسيحيين يوم ، كذلك للمسلمين يوم يسمونه خميس الأموات . والجميع يزورون المقابر ، يحيون بالأزهار قبور ذويهم ، ويحسنون إلى الفقراء والمعوزين بهذ المناسبة .

وبلا شعور رأيني اتوجه إلى مدينة من مدن الأموات ، فأوحت إليّ سكينتها وهمودها هذه الكلمات فقلت .

هنيئاً لسكان هذه المنازل الهادئة ، وسعداً للنائمين بين جدرانها الضيقة ، فقد أمنوا شرور المجتمع ، وويلات البشرية المعذبة التي تتمخض بالأوجاع لتلد البلايا والمصايب .

أماناً لتلك الأجساد الهامدة ، فقد عرّتها المنية من دقائق الحياة ، فعادت إلى الطينة التي جبلت منها ، مودعة حركة الوجود ، واستراحت من عناء الحياة وضوضى الناس المزعجة ، واستكانت في مضجع الهدوء : في المقبرة ، مدنية السكون والراحة ، حيث تتلاشى مطامع هذا العالم الفاني ، وتسقط أصنام المدنية عن كراسيها .

وقفت هنيهة أتأمل وافتكر .

وقفت لأُناجي عظام من سبقوني .

جئت لأتحدث اليهم بالفكر والقلب وأعيش هنيهة بين قوم تعروا من مطارف المادة ، وتركوا معها أباطيل الدنيا وترهاتها .

ذهبت لاجالس قوماً إذا غبت عنهم لا يغتابونني ، وان غفلت عن الآخرة يذكرونني ، وإذا وثقت بهم فلا يغدرونني .

هناك ، في تلك البيوت الحقيرة ، بدت لعيني عظمة ليس بعدها عظمة . رأيت عظمة الآخرة في جانب الدنيا الزائلة التي تغر كثيرين من البشر فيبطرون ويرفسون .

حسبوا الحياة والسعادة بالخبز والمال، وما دروا ان ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، وان حياة النفوس الكبيرة والهمم العالية ترتكز على صخرة ضخمة لا تنال قنابل العلم منها شيئاً ، وتلك الصخرة هي الضمير .

ان عظمة البشر ، مهما سمت وتعالت ، فعند باب القبر تنتهي، ووراء جدرانه تضمحل وتتلاشى ، ولكن الضمير الحي وحده يثبت في وجه العدوان ثبوت الصخرة أمام العاصفة . وتلك هي الحياة الثانية التي لا يلاشيها موت ولا تسحقها طوارق الحدثان ولا تنسخها أيدي الزمان .

ان حياة الذكر الحسن لهي أطول من حياة المادة وأكبر شأناً منها ، فالتاريخ – وهو الكاتب العدل – يسجل مآثر قوم كانوا باخوانهم بارين ، ويمنحهم الطوبى ، ويحرق لهم بخور الاحترام ويضفر أكاليل الثناء . وطمعاً بهذا الاكرام كان ملوك أرض الفراعنة القدماء يمحون آثار سلفائهم

عن المباني ويجعلون مكانها آثارهم لتنسب اليهم ويغنموا الثناء الطيب الدائم.

وقفت هنيهة في مدينة الأموات، فسمّرتني بمكاني افكاري، فقعدت على حجارة اضرحتهم، وخطرت ببالي عملية حسابية للذين عرفتهم فيمن ماتوا، ثم نهضت انفض ثيابي، ورأيني مدفوعاً إلى قبر عالٍ قام على أعمدة من الرخام، مزين بالأكاليل المزركشة والتماثيل البديعة، فتقدمت ووقفت متأملاً علّي أرى ما يوحي إليّ أسرار عظمة ساكنه، ومآثره التي قلد بها جيد الانسانية، فوقع نظري على بلاطة رخامية أفادتني ان ساكن ذلك الجدث، بل القصر الشاهق، رجل قضى أيامه جامعاً لشتات الدنانير، محملاً اخوانه في البشرية نيره الثقيل. فمن أتعاب أولئك التعساء وعرق جبينهم جمع الثروة التي كانت سبباً لسعادته بضعة أيام وراحة عدة سنين.

عاش في حياته تحت سماء القصور غارقاً بين حشايا الحرير، ورقد رقاداً أبدياً في ضريح أرفع من قبور الفقراء.

وقفت أمام ذلك الضريح العالي أقول في نفسي: ماذا يقصد هذا الغني من هذا الضريح الشاهق؟ أيطمع بذكر خالد ويرغب في الثناء الطويل؟ كل هذا كان قد ناله مضاعفاً لو انفق ما انفقه على هذا القبر في سبيل البر والاحسان. ان هذا الأثر الباطل يزول ولكن آثار الرحمة لا تمحى مهما تعهدتها السماء بأمطارها، ولامستها الريح باصابعها.

فيا أيها الغني صاحب الملايين والأملاك المترامية الأطراف ابن الضريح! نظفه من الأقذار ما شئت.

ويا أيهـــا الناس ضمخوا فقيدكم بالعطر والطيب ، وكفنوه بالحرير والديباج ، واحفظوا جسده بين ألواح البلور ، ولكن هيهات ان تحفظوه من الفساد ، هيهات ! فسيقبض عليه الفناء ويتلاشى ذلك الجسم الناعم ، ويصبح مقبلاً للدود والحشرات ، ولا تبقى غير آثاره التي تستحق التخليد.

ثم حولت نظري إلى جانب ذلك الضريح فرأيت حفرة تبدو عليها المسكنة ، تحرسها قطعة من خشب وقد كتب عليها : « هنا دفن فلان المسكين اللاجيء إلى هذا البلد » فتأثرت وقلت : كيف يقولون لاجيء وكلنا في هذه الدنيا لاجئون ؟

فقير ، نعم ! وقد عرفته من ضريحه :

مساكين أهل (الفقر) حتى قبورهم   عليها تراب الذل دون الخلائق

أهكذا يعيش الفقير ذليل الجانب ويموت محتقراً مهاناً .

ثم أيها الفقير في رمسك فليس عليك بالمسكنة من عار ، واعلم ان العظمة بالبساطة . وكلما ارتقى المرء ، وازداد علماً ، واقترب من الروحيات ، يعود إلى حضن الطبيعة : منبع البساطة والسذاجة .

وهنا اشتد تأثـري ، فاغرورقت عيناي بالدموع . وحولت وجهي إلى ناحية أخرى من الجبانة ، فشاهدت ضريح ولد صغير لم يبلغ الثالثة من سنيه . كان ترابه لا يزال رطباً ، وكانت الأم منحنية عليه ، وقد تصاعدت زفراتها ، وامتد أنينها ، فما رأتني حتى ظنتني شبحاً طالما أرعب الناس في ظلام الليل فلم يأتوا المقابر خوفاً منه . فهدأت روعها وقلت لها : لا تخافي . أنا انسان لا خيال . جئت في هذه الساعة لأؤنس

الأموات في وحشتها . أنت تبكين على ابنــــك وأنا أبــكي على كل هؤلاء الراقدين . بل أبكي على جسدي الذي سيتفرق شمله ، وتتبعثر اعضاؤه ، ويصبح العقد المنظوم منثوراً

فضربت المرأة صدرها وقالت: ولدي ، والوعتاه على ولدي، لم يعرف الخير من الشر . صغيري الملك الطاهر يموت، والعائثون في الارض فساداً يعيشون ؟ ابني يموت ولم يذق من حـلاوة الدنيا ، ويعيش اولئك الذين تمرغوا في حماة الدنايا والرذائـــل ؟ ابني يموت والسفاحون والجزارون يعيشون وينتعمون ؟ أيعيش المرائي والنمام والكذاب والسفاك والسارق ويموت ولدي ؟

فاجبتها : لا تتذمري أيتها المرأة ، وسلمي لاحــكام ربك ، وتعزي على فقد وحيدك ، فهنيئاً له . لقد تخلص من متاعب الارض ومفاسدهـا ومهما قصر عمر الانسان كان سعيداً

وتركتها اريد الخروج لأن وطأة الأحزان كانت قـــد ثقلت عليّ ، فرأيت على طريقي ضريحاً مموهاً بالكلس ، فتركته ولم أعرج عليه بـــل قلت : ما أكثر أمثال هذا الضريح بين البشر .

وكان على جانب القرافة الأيمن ضريح بسيط عرفت انـــه مستودع عظام ذاب صاحبها حباً لأمته فقلت : أهذا جزاء من يخدم القلم في هـذه البلاد ، أيظل يصح بها القول : ما زال فيها الألمعي غريباً ؟

رحمة الله عليك أيتها الأيدي البالية ! فقد كنت تديرين الاقـــلام ، وتحاربين الظلم والاستبداد والفساد . أهكذا يكون جزاؤك ؟

لا فقد بدأت الأمة تشعر بفضل الذين يعلمونها واجباتها وحقوقها. فسوف تكرم رفات ذوي الفضل ويرفع منار العلم والادب.

وفيما أنا أهم بالخروج، رأيت من عن يميني بلاطة رخامية ناصعة البياض لم يمر عليها ازميل نحات، ولم يخط عليها حرف، فسألت الخفير: قبر من هذا؟

فأجاب: يقال انه قبر رجل أوصى ان يظل شاهد قبره غير مكتوب عليه.

فقلت: هذه الصفحة البيضاء هي رمز التاريخ. نجيء الدنيا لنكتب عليها بيدنا أعمالنا. فمن مخبر عني قادة الشعوب المعتدين الجائرين ان هذه البلاطة في انتظارهم، وسيحفر عليها ازميل النحات الأكبر كلمات لا تزول.

وما وضعت رجلي على عتبة الباب حتى عدت وألقيت نظرة على تلك القبور وقد تمثلت لي رهبة الموت وناديتها: يا بيت الانسان الأخير، يا مقر الراحة من أتعاب الحياة، أيتها القبور، يخافك بعض الاغرار ويرتعدون من المرور بقربك في ظلمة الليل، ولو عقلوا لجزعوا من المدن والمراقص، وخافوا من المرور بجانب بعض الأحياء ـ وحوش الانسانية ـ الذين يغيرون على بعضهم بلا حق وينصبون الفخاخ والمكايد.

يا مدينة الأموات! أنت مدرسة المتأمل المفكر. أنت تخبرين المرء عن مصير العظمة الكاذبة واضمحلال المال. عن فناء هذا العالم.

فهنيئاً لمن يراك ويعتبر!

بصراحـــة

ان كلمة بصراحة محط كلام . صرنا نكررها ولا نحس بها .

نفتتح بها كل حديث، ونختتم بها كل محاورة، ونحن على ضهر القضيب وهي في وادي قنوبين .

يقول الواحد منا لجليسه : « اسمح لي أن أقول لك بكل صراحة » .

وإذا قال له : « تفضل ، هات الحديث » راح يخمع في كلامه كالحصان المشكول ، ويغمغ فيا يقول ، ويقول كل شيء ما عدا الصراحة .

جاءني واحد يخلط مكالمته بهذه الكلمة التي تدور على لسان الكثيرين: « موش مظبوط » ؟

يقولها ويحدق اليك منتظراً ان تجيب بنعم وتومىء برأسك كالجرذون.

ثم يتبعها بعبارة ثانية هي بنت عمّها لحاً : « مظبوط وإلا لا ؟ » ثم ينتظر هذا الرجل الصريح ، فإذا أجبت بـلا عبس ، أقبل عليك بوجـه كالقدر ، ولكنه يريد ان يحكي، فيصبر عليك، ويعيد الكرة تلو الكرة ، منتظراً ان تؤمن ، حتى إذا لم تفعل عنـــد كل عبارة ، نكزك بجنبك

وقال : « ما لك لا ترد ؟ احكِ وكن صريحاً مثلي » .

ولما كاد يشقني حديثه البارد وقلت له : تريد الصراحة ؟

فصاح : معلوم !

قلت : إذن ، فاسمع يا جميل : الذين يتكلمون دائماً بصراحة قلما نجدهم . فأين الصراحة حين تجامل من لا تريد ان تراه ، وترحب بالثقلاء، وتمضي في تبجيلهم إلى المدى الأبعد؟ وأية صراحة هي صراحتك حين تجاري في المسايرة من يحدثك ويكذب عليك وتكذب عليه، وتقول في قلبك: «لا بد للرطل من رطل ووقية» حتى ترجح كفتك وتحوز قصب السبق في ميدان الرياء والكذب ؟

رددت يا جميل كلمة الصراحة مئة مرة ، حتى صارت لحمة حديثك وسداه . أتسمح لي ان أقول لك بصراحة ، ان الصراحة مفقودة من بين بني البشر؟ فلو التقيت أحد معارفك وقال لك: « أنا مشتاق اليك جداً » فهل تجيبه بصراحة أنك أنت غير مشتاق ؟ وإذا قال لك آخر أمام الناس : « ما رأيك في فلان » . أفتقول له ما كنت تقوله فيه بخلوتك ؟

وإذا جاءك طالب ، أتعيّن له ميعاداً وفي نيتك الا تخلفه ؟

يقولون ان الساسة غير صريحين ، وأنا أقول ان الصراحة تصرع إذا اصطدمت بالمصلحة . فليت الذين يوسعون حين يفصلون من جلد غيرهم يفعلون ذلك حين يمشي المقص في جلودهم .

سمعت أديباً كبيراً يكذب على المنبر ، مع ان زياد بن ابيه قال في خطبته البتراء : « ان كذبة المنبر بلقاء ! » فقلت له ، حين انتظر تهنئتي

له بخطابه التذكاري : أأنت مؤمن بما قلت ؟

فأجاب : حط بالخرج ، هذا رجل صار في دنيا الحق .

فقلت : أتتحدث عمن صار في دنيا الحق بكلام غير حق ؟

فأجاب : وماذا كنت تفعل لو كنت محلي ؟

فقلت : كنت اعتذرت .

فتنفّش كديك الحبش ، وارتفع عن الأرض شبرين وقال : التهرب جبن

فأجبت بصراحة : عشت يا بطل الكلام الكاذب

حول امتحان البكالوريا

إذا كان الشاعر العربي قال منذ مئات السنين : « وتحت الرغوة اللبن الصريح » ، أفما حان لنا أن ننفخ في الرغوة لنعلم كم عندنا من الحليب في الدلو ؟ فكلمتنا الصريحة نرسلها اليوم حول المنهاج التعليمي باحثين عن الضعف في امتحاناتنا الرسمية . فلو كانت المعاهد تنقي التلاميذ المرشحين للشهادات ، كما كانت تنقي المرحومة ستي قمحها وبرغلها حبة حبة ، لما وصلنا إلى هذه النتيجة الرديئة ، فمن ثلاثة آلاف ممتحن تقريباً لم يسلم الخمس ، فأين العلة يا ترى ؟

ان هذا ناتج عن تهافت أصحاب المدارس على التعبئة والحصول على أكثر عدد ممكن . ومتى كان هذا ، فالطالب يفرض صفه على المدرسة ، ثم يفرض بعدئذ ترشيحه للامتحان ، وهكذا يكون السقوط عظيماً .

يقول المثل : من القداحة شيء ومن الصوانة شيء ، أما إذا كنت تقدح في حجر خفان فانك تعود بلا شك بخفي حنين .

أصحاب المعاهد والتلاميذ تهمهم الشهادة . أما الثقافة الصحيحة فأمرها لله .

التلاميذ لاهون بالألعاب والأحزاب ورحلات شم الهواء . والمدارس يهمها ان تسلم لها كثرة العدد الناتجة من احراز الشهادات .

وإذا ضاقت بها دروب الشهادات الرسمية ، أعطت هي شهاداته من عندها ، وعلى حاملها أن يلجأ إلى زعيمه ليسعى في الدوائر الرسمية إلى معادلتها ، ويكذب على صاحبه ووطنه ، ويدخل في الدواوين وللمصالح انصاف الأميين من حاملي هذه الشهادات .

وإذا عذرنا ، قلنا ان برنامج البكالوريا عندنا مثقل بالمواد ، وعلى المعلم والطالب ان يدرسها في عامين اسماً . أما فعلاً ففي أقل من عام . ففرصة الصيف أربعة أشهر ، وفرصة الشتاء ثلاثة أسابيع ، ومثلها فرصة الربيع . وهناك من الأعياد ما يعطى بالمفرق ، فيعادل أكثر من فرصة فصلية كبيرة .

قد نسينا العطلات التي تفرضها الاضرابات فتضيع وقت التلاميذ وتفقد بها المدرسة مهابتها لأنها تقف مكتوفة اليدين حين تسود الغوغاء .

أجل لقد فقدت أكثر المدارس سلطانها فضاعت البقية الباقية من هيبة المعلم .

المعلم أحد اثنين ، أما ذو عضلات وقوة جسدية يكبل يديه القانون الذي يمنع الضرب ، أو أنه قليل الظل فيضربه التلاميذ ... وتحتاج إذ ذاك المدرسة إلى مدير سرك يحكم بالسوط .

نحن لا نحبذ التربية بالقوة ، ولكن بعد تجارب خمس وخمسين سنة

تبين لنا ان ابن الانسان هو ابن عم الدب كلالة ، لا يعلمه إلا العصا . وقد قرأت في هذا العام ان انكلترا رأت ان المعلمين فقدوا سلطانهم فصارت السلطة للتلميذ حين بطل الضرب .

هذا من حيث التلاميذ . اما المدارس فملقى حبلها على غاربها ، وما من يسأل عنها .

اننا نضع الحق على المنهاج . نعم ، ان على المنهاج حقاً ، ولكن ليس كل الحق ، فقبل ان نطبق المنهاج يجب ان نُهيّىء للتلميذ انضباطاً يؤدي إلى الانتباه .

في أرضنا نضع الحق دائماً على القوانين ونحاول اصلاحها ، وكيف تصطلح القوانين إذا كان القيّمون عليها غير قادرين ؟

أسمعهم يقولون : « ان اللغة العربية صعبة المنال ، فكيف يتعلمها ابناؤنا وهي على ما هي ؟ » .

وإذا حكينا بصراحة قلنا : « علينا ان نعلم المعلمين أولاً كيف يعلموا اللغة وأصولها »

« بادروا إلى حجز محلاتكم » هكذا يقولون في آخر كل اعلان مدرسي . ويكون عندنا مئة مقعد وندعو ألفاً ، ويكون عندنا مكان يضيق عن المئة فنقبل ثلاثمائة .

وإذا فتشنا آخر العام المدرسي عن طالب ذي شخصية فلا نجده ، لأن أساليبنا لا تكتشف الشخصيات . فالطالب بوق ينفخ فيه معلمه ألحاناً ناشزة أكثرها مما وضعه القدماء من الذين عالجوا نقد الأدب .

ان كتبنا المنهجية ليست من معجن مصنفيها ، ولا من خبز فرنهم وتنورهم . وهي تسمم عقلية الطلاب الذين يعتمدون عليها ليواجهوا بها الامتحانات الرسمية .

وهكذا ، فإنك إذا فتشت عن شخصية بين معالجي أبحاث البكالورياء، فانك لا تعثر إلا على اسطوانات ذوات ألحان مكسرة .

أما الموضوعات التي تلقى فهي تكرر كل عام بصورة أخرى. وسبب ذلك تلك الكتب السطحية المنهجية التي يقصد بها التجارة . فلِمَ لا تؤلف الوزارة المسؤولة لجنة تسهر على الكتب المدرسية وتنقيها من الزوان والشيلم ؟ فهذه الكتب الفارغة إلا من الورق وهذا المنهاج المضخم الوارم يجب النظر فيها سريعاً لتصان الثقافة قبل اندثارها الكلي .

فليتنا نعود إلى الشدة في المدارس والقسوة في الامتحانات ، ففيها صيانة كرامة العلم والتعليم .

كان المعلم يضرب بالمخمس ــ أي الكف ــ فصار الطالب يشهر المسدس، وكفى الله المؤمنين القتال .

وأخيراً أقول : ما بقي إلا ان تضع مدارسنا الابتدائية لشهاداتها بزة رسمية ذات شرابة وقبعة ورداء ، فيكتمل النقل بالزعرور ومن يمنعها ؟.

خطرات

لقد أراني ما طرأ على نظري من خلل أشياء لا عهد لي بجهلها، فتحقق لديّ ان الجمال في نفس الناظر لا في نفس المنظور .

ـ ان الاكتشافات الحديثة تغير النظريات المحاطة بهالة تقديس. ورب عظمة متحجرة هي أصدق من ملايين الكتب .

ـ الباحث عن الجمال الفني في مختصر رائعة من روائع الأدباء المشهورين كالباحث عن الجمال الانساني في الهيكل العظمي .

ـ يسعد الانسان بتخيلاته . فلولا خيال المشترعين لم تكن نار يخافها ابن آدم، ولا جنة يحلم ان يسعد بها، فيعمل الخير ويحيد عن الشر كما أوصي.

ـ العلم يقتل التعزية والرجاء ، فحين كان يظن الانسان أن عمر الكون بضعة آلاف من السنين كان أسعد ، ولكنه إذا صدق الرأي العلمي الحديث الذي يجعل عمر الكائنات مئات الملايين من السنين يرى أنه أقل من شعرة من قطر برج ممرد . فأين عظمة الانسان إذن ؟

انها ولا شك في دماغه الذي جعله يخلق كل هذه المزاعم .

ـ الأساطير احلام لذيذة يعيش عليها الانسان وينعم بها وهو يردد مع الشاعر :

متى ان تكن حقاً فتلك هي المنى   وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً

ـ ان محاولة اكتشاف أسرار الفضاء ستزيدنا شقاء وعماوة قلب لأن السماء فاضية .

ـ ترى ماذا يحل بالموسيقى الرخيمة لو زادت قوة سمعنا أضعافاً ؟ قد أوحت إليّ السماعة هذه الفكرة عندما استعنت بها على تقوية سمعي ، فرميتها جانباً وفضلت قلة السمع على كثرته .

ـ لو كنت قسيساً لقلت : « فلنضحك » بدلاً من « فلنصلِّ » . لأن الضحك لا يكون إلا في الفرح والفرج . أما الصلاة فتكون حامية حارة في الأزمات الشداد ، وإذ ذاك تستبعد المرح وقد تعده مفسداً للصلاة ، كما قال الرشيد لمضحكه ابن مريم .

ـ قال لي واحد ، ليتني أعرف لغة أجنبية لأقرأ ما كتبه برغسون عن الضحك .

فاجبته : عندك الجاحظ فاقرأ ما كتبه في مقدمة كتابه البخلاء .

ـ أعجب كيف لم يقل الله في وصاياه العشر : « لا تغضب » بدلاً من « لا تقتل » لأن الغضب أبو الجرائم كبيرة كانت أو صغيرة . فكيفما سرنا في طريق الحياة يقفز الغضب من أمامنا . فقد يغضبنا أحدهم لأنه أخل بمراسم السلام والتحية ، ونحن نريدها طبقاً للهندازة ، أو بناء على

مراسم القديم على قدمه . قـــد هدانا الشاعر القديم طريق الحياة المستقيم حين قـــال :

إذا شئتَ أنْ تحيـــا سليماً من الأذى
وحظـك موفور وعرضـــك صَيِّنُ
لسانُك لا تذكر بـــهِ عَوْرةَ امرىءٍ
فكلك عوراتٌ وللنـــاس ألسن
وعينُـكَ إن أبدَتْ إليكَ مساوئـــاً
فَصُنْـها وقُـلْ يا عينُ للناسِ أعْيُـنُ
وعاشرْ بمعروفٍ وسامـــحْ من اعتدى
وفـارق ولكن بالّتي هـــي أحسنُ

وجـــاء في التوراة : « الغضب قساوة والسخط جراف » . ببطء الغضب تقنع الرئيس ، واللسان اللين يكسر العظم .

ان الله يغفر لنا خطايانا ولكن جهازنا العصبي لا يغفر قط . فاحذر الغضب تتجنب قرحة المعدة والضغط العالي والسكري ومرض القلب .

ـ الحياة بطارية مشحونة يمكنك ان تفرغها في الثلاثـين ، ويمكنك ادخارها إلى المئة ، فكن حذراً واقتصد .

ـ ربما انهم قالوا : « العجـلة من الشيطان » لأن الشيطان من نار في عرفهم ، وهو مغامر جسور دق قرونه بالخالق العظيم . فهل رأيت بليداً متكاسلاً أكل سمكاً طازجاً من البحر ؟ أنه يأكله ميتاً معروضاً على طبق في ساحة السمك .

خطوات

- ٢ -

الابتذال يقتل الكلمة ويقبحها ، فالأجل الأمجد ليس أفخم منها. ومع ذلك سمجت لما دارت على الأقلام ، فأصبح الذوات يفضلون عليها السريّ الأمثل أو الوجيه الهمام .

شبهت الدنيا بقصر سميته قصر المسكونـــة . فالنوابغ والعباقرة يدخلون ويخرجون ثم لا يظفرون بمقابلة الأجل الأمجد . والظافر منهم هو الذي يكتب اسمه في سجل التشريفات ويمضي لسبيله .

لو لم يظهر السيد المسيح لامرأة أولاً ، لمـــا انتشر خبر قيامته بتلك السرعة ، مع انعدام وسائل الاذاعة والنشر .

ليس في الدنيا عصيّ على النقد، شرط أن تحك رأسك لتخرج الشرر ، من أسنان المشط . فإذا كانت أسنان المشط تفعل ذلك ، فكيف بذرات دماغك حين تتفاعل ؟

ليتني أعطى عمراً آخر مع بقاء المخ سالماً . فقد رأيت آخـــر العمر أنضج وأشهى . وليت الانسان يستطيع أن يورث الآخرين علمه ، فيبدأ

العلم من حيث ارتفع .

أشعر نحو الكتب شعوري نحو الكائنات الحية . أتخيل الحبر على الورق كدم فوق الجلد لا تحته . فما أجمل أن تهدي إلى صديقك كتاباً ينوره ، لا زجاجة ويسكي تطيره .

لا أخاف العمى إلا لشيء واحد هو اني أصبح محتاجاً إلى معونة انسان غير الانسان الذي هو في قميصي .

شاهدت أول طائرة في سماء بلادي وتعجبت .

قبل أن يلفظ القرن التاسع عشر أنفاسه سمعت أول اسطوانة تغني ، ثم توالت الاختراعات ولا تزال ، حتى تمنيت لو كان أجل مجيئي نصف قرن على الأقل .

عندما رأيت صورة الأقمار ترسل إلى الفضاء ، تذكرت كيف كنا نطيّر الطيارات والقواعد سطوح بيوتنا . فهل يأتي بعدنا من يشبهنا هذا التشبيه ؟

إذا كانت الأرض لم تشبعنا ، فهيهات أن يشبعنا ذاك الذي سمته التوراة : « توهو بوهو » وجعلت روح الله يرف على وجه المياه ...

مساكن سكان الفضاء ! فاكبر نكبة ستحل بهم هي ساعة نشرفهم بزيارة ومعنا عتادنا الجهنمي .

سيظل الدماغ البشري عظيماً ما دام التفكير لا ينقطع ، وما دام هناك طموح . وكم أضحكنا جنون المتنبي القائل :

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم

وكم أكبرت عبقرية ضرير المعرة حين قرأت وصفه اتساع رقعة الدهر بقوله :

ولو طار جبريلٌ بقية عمره   من الدهر ما اسطاع الخروج من الدهر

فأين جدي الذي كان يقول بكل إيمان : « تؤلّف ولا تؤلّفان » أي في نهاية ألفي سنة تمر على ميلاد ابن البشر تقوم القيامة وتذهب الكائنات إلى حيث ...

فها ان العلم يثبت أن الأرض التي خلقها رب موسى في ستة أيام عمرها ملايين ، وان زعم داروين وكفره في أعين الثائرين عليه أصبحا سكراً وترياقاً :

ومن تأمل في الدنيا ومهجته   اقامه الفكر بين الضعف والتعب

ما أبطأ خطوات التطور ! فكل سنة من أعمارنا تساوي مليون سنة في حساب التطور .

وعلى هذا القياس لا تصل نفوسنا إلى حضرة ربها إلا بعد ملايين السنين . فلينعم الملاحدة بالاً ، لأنهم يتطورون ويصيرون غيرهم قبل الوصول إلى حضرة من على العرش استوى ، وسبحان الذي لا ينسى .

نحو حياة أفضل

عنوان كله طمع ومحبة ذات ، فيا ليت شعر الذين يطلبون حياة أفضل ، فهل هناك حياة أرفه وأفضل من حياة اليوم ؟ وكيف تكون يا ترى ؟

ما نسينا بعد ركوب الخيل ، بل الحمير ، يوم كنا نقضي يوماً لنقطع مسافه نتجاوزها اليوم بساعة زمان قاعدين . لا راكبين .

مـــا نسينا عهد المرسال الذي كان يقضي يومين حتى يأتينا بخبر من المدينة ، ولم ننس قول طرفة : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » .

لا أتحدث عن الغيبيات ، لأنه لم يثبت لديّ بعد غير ما أدركه بحواسي الخمس ، وان تكن العين والأذن تخدعان أيضاً .

كنت أؤمن أن الجمال في ذات الناظر ، فإذا بي ، عندما طرأ خلل على إحدى عيني ، أري جمالات لم أكن أراهـــا . فالحياة الفضلى هي إذن في أنفسنا ، وكما نفكر نكون ، فعبثاً نطلب حياة أفضل في خارج أنفسنا . فالحياة المرضي عنها نحن نخلقها بأنفسنا لأنفسنا ، وقـد وصلنا إلى القمة

وما زلنا نطلب افقاً أعلى وأبعد .

قد رأيت ، بعد إمعان الروية ، أن من يطلب حياة أفضل فليفتش عنها في ذاته . « ان الملكوت فيكم » هكذا قال المعلم ، وهو يقول الحق .

وقال حكيم : « كما تفكر تكون » .

الطموح ضروري لرقي الانسانية ، ولكن السعادة في الحياة لا تأتي في الغلو والايغال .

أجل ، إن الحياة تدفعنا إلى الأمام دفعاً ، ولكن هذا الدفع لا يؤمن لنا الغبطة المنشودة ، فشاعرنا الأكبر قال :

إذا غامرتَ في شرفٍ مروم   فلا تقنعْ بما دون النجومِ

وها قد كدنا ندرك النجوم ، وتحققت لنا حياة أفضل ، وما زلنا نطلب الحياة الفضلى ، فمن وُهب المعرفة يطلب أن يوهب أيضاً المال . ومن أعطي الحكمة يتمنى لو كان جباراً عنيداً ، وسلطاناً مولى على رقاب العباد .

قال فورد عن الأحد ، يوم الراحة الأسبوعي : « اننا نحتاج إلى بعض الوقت نرتاح فيه عقب قضاء يوم بلا عمل » .

اقرأ كتاب سلامه موسى : « حياتنا بعد الخمسين » ، لتعلم رأي فورد جبار عالم الصناعة. فهو ينقل لنا عنه أنه قال في الثمانين من عمره : « سوف يكون العالم أفضل مما هو الآن للناس ، وهو الآن خير مما كان حين كنت صبياً ، وسيطرد في الارتقاء والتحسن ، ولكن على الناس أن يتعلموا من اختباراتهم ، وأن يعيشوا للمستقبل وليس للماضي » .

ونحن نقول ليست الحياة الفضلى في مال نمرغ أنفسنا في أوحـــال مـانحيه ، ولا في ثروة نبيع لأجل كسبها ضمائرنا وعزة نفوسنا في المزاد العلني . فإذا كنا نريد حياة أفضل ، فلا نتسابق على الفتات المتساقط عن موائد الجبابرة .

ان الحياة تكون أفضل إذا بعدت عن الكذب والدجل ، وعن الذل المخزي . وأرى أن الحياة الفضلى ، كما هي في نظر جبابرة الأرض ، هي سبب كل الويلات وشقاء الإنسانية .

فأية سعادة لمن يطير ويقطع المسافات بمثل لمح البصر ، إذا كانت نفسه تتسرب مع خشاش الأرض ؟

ان النفوس لا تسعد إلا بالمال الحلال . ولا يكون المال حلالاً ولالاً إلا إذا عدنا إلى الشعار الإنساني القديم : « بعرق جبينك تأكل خبزك » .

ان عرق الجبين هو ملح الحياة . ومن يأكل طعامه بلا ملح ؟

وقبل وبعد ، فالحياة الخالية من الجهد والنشاط لهي أغنية على وتيرة واحدة . ومن ذا الذي ترون له مثل هـــذه الأغنية ؟ فالحياة لا تحلو ولا تطيب إلا إذا تنوعت .

وانني لا أتصور حياتي السعيدة في الفردوس حيث النعيم المقيم الا وأخشى الضجر .

ان من يطلب عالماً لا شرّ فيه ، كمن يطلب لحماً بلا عظم .

وكل باحة نلتمسها نجد متاعبها منها وفيها .

صور ومشاهد

ما أكثر مشاهد الحياة ، وما أسرع مرورها !

انها تمر كالبرق الخاطف الأبصار ، وما على الناظر إلا التقاط ما تمثله سينما الحياة ناطقة وصامتة .

وهل نحن غير ممثلين يخرج كل منا دوره كوميديا أو تراجيديا ؟

الزواج مشكلة هذا العصر . كان شاعرنا يقول فيما مضى :

وماذا تبتغي الشعراء مني   وقد جاوزت حد الأربعين

أما ذكور هذا الزمان ـ وقد أمسى الزواج عندهم قضاء واجب ، كما يقولون ـ فليس يتذكره أحدهم إلا حين يذوي شبابه ، أو يذهب ساقه وساقه ، كما تقول العوام .

يستفيق الرجل في عصر الحياة ، يستيقظ من غفوته حين يقصر عن الكر والفر ، فيفتش على ضوء شيبته عن أنثى يحجر عليها في بيته يوم يصبح في حاجة إلى ممرضة لا إلى زوجة .

انها إحدى آنات المدنية التي تدعونا إلى معالجتها واجباتنا الاجتماعية.

فالبستاني لا ينفك عن الطواف بين أشجاره المثمرة ، تارة يلجأ إلى المنفخ ليكافح الجراثيم العائثة بالجذوع والأغصان والأوراق ، وطوراً يجيء بالمضخة للرش لتسلم من الكوارث شجراته الحبيبة .

أما نحن فقلما نبالي بجنيناتنا البشرية التي تتطلب منا جهوداً جلّى ، واهتماماً منقطع النظير .

إن تهرّب الشبان من أعباء المسؤولية البيتية هو الذي أكثر عدد العوانس في هذا الزمان .

ولكن على من الحق ؟ ومن هو المخطيء ؟ الفتاة أم الفتى ؟

سوف أعرض الآن إحدى صفحتي هذه القضية الخطيرة ، واني لأرجو من القراء أن ينهجوا نهج حكام هذا العصر ، أيّ ألا يصدروا حكمهم الآن بل يؤجل ذلك إلى ما بعد الاطلاع على الصفحة الثانية ، عملاً بنصيحه أحد القضاة القدامى الذي قال : « إذا جاءك شاكٍ وقد قُلعت عينه فلا تحكم له ، لئلا يأتيك خصمه وقد قلعت عيناه » .

اجتمعت بشاب فات الأربعين، وهو يزعم أنه قارب الثلاثين، فقلت له : أراك كبرت يا جميل عن الصبا ، وقطعت تلك الناحية ، أما وقعت بعد على بنت الحلال تقاسمك السراء والضراء ؟

فتأفف صاحبنا ونفخ نفخة تذري بيدر دير ، ثم صفع صلعته صفعة رنت لها القاعة التي كنا فيها . وأطرق يفكر ، ورحت أنا أتأمل أصابعه المنطبعة على بطيخته ، وانتظر كلامه .

وأخيراً هوّنها الله وانفكت عقدة لسانه وقال : وكيف أتزوج

يا شيخ ، ولم أجد بعد فتاة واحدة ملأت عيني وقلبي ؟

فقلت : عجيب ! هل انقطع نسل حواء ؟

فقال : نعم . اسمع حتى اخبرك . فاسما رشيقة القوام كأن الشاعر يعنيها بقوله :

إذا قامت لحاجتها تثنّت كأن عظامها من خيزران

بهية الطلعة ، فتاة متنورة ، بنت مثقفة ، ذوق سليم ، ذكاء حاد ، تكفيها الاشارة لتفهم . ولكنها ، واأسفاه ، شرسة ، سريعة الانفعال ، مستبدة برأيها ، تريد أن تكون الكلمة الأخيرة لها ، فكيف تصفو أيامي بقربها ؟

وهند بنت بيت ، جمال ساحر ، ودوطة ضخمة ، معها الكثير من الدنانير الرنانة لا المخشخشة ، ولكنها متكبرة ، شامخة بأنفها ، تعد نفسها فوق البشر ، لا تلتفت إلى من هم دونها إلا لتزدريهم . لا يعجبها أحد في الدنيا . فهل يطيب عيشي إذا اقترنت بها واتخذتها شريكة لحياتي ؟

وسلمى أسيرة الموضه ، تقضي أغلب ساعاتها منكبة على البيانو ، تحب اللهو ، ولا تُرى إلا متنقلة من سينما إلى مسرح ، ومن صالة إلى قاعة . لا تهتم إلا بما تهتز له أوتار قلبها . حمّلت والدها حملاً ثقيلاً من الدين، فهل يرجى ان تكون ربة بيت في المستقبل ؟ وهل تحسن تربية الأولاد على الاقتصاد ما زالت هذه ميولها ؟

وجوزفين جامعة لشتات المحاسن ، إلا أنها تقامر كوالدتها، وتشرب

أيضاً.. وإحدى هاتين الآفتين تهدم أكبر بيت، فكيف بهما إذا اجتمعتا ؟ ألا تحول بيتي منتدى وقهوة إذا ابتليت بها ؟

عفواً ، نسيت أن أخبرك انها لا تدع السيكارة حتى تمسك نربيج الأركيلة. لا تحدثك إلا عن الماتينيه والسواريه، وعن حفلات الكوكتيل بعبارات هي كوكتيل حقاً . وبالفاظ كأنها مسبحة الدرويش .

ــ طيب . إياك أن تنسى شيئاً . هات كل ما عندك .

فتنهد وقال : ونبيهة تعيش مع أهلها بكل رعونة وخشونة . ترفس أخاها ، وتقاتل أمها ، وتلعن أباها إن أغاظها ، وتظل معبسة بوجه أهلها ، في حين انها تبتسم لعابري الطريق ، وتذوب رقة ولطافة لدى مقابلتها زوارها . قل بحياة ربك ، أفلا تعاملني كاهلها متى صارت زوجتي ؟

قلت : ربما . وماذا بعد ؟

قال وأنيسة كسلانة . تطيل السهر ولا تستيقظ إلا عند الظهر ، فتقضي ما بقي من النهار على غسل وجهها والتضمخ بالطيوب ، وضفر شعرها ، وتزجيج حاجبيها ، وهي لا تقبل نصيحة أمها وتعد كل عمل عاراً . تتاوه ان لمست الحرير ، فكان جسمها من النعنع ، فما عساها تفيد البيت يا ترى ؟ ألا تدك أساساته ؟

وكريمة ، لما زرناها قعدنا على مقعد حريري، ولكنه متواضع فتنكر في ثوب من الغبار، فكدنا لا نعرف لونه. وقد رأيت أثاث بيتها مبعثراً، وثيابها غير نظيفة. لحظت انها لا تهتم بشيء إلا بمطالعة الروايات السخيفة،

ولا تتحدث إلا عن أبطال الشاشات البيضاء ، فكيف يكون حالي إذا صارت حليلتي ؟

وأليس لسانها أطول من حبل الجمّال . ثرثارة، تثلم أعراض رفيقاتها ونظيراتها ، مدعية ، تجهل القراءة والكتابة . وتوهمك أنها فيلسوفة عصرها ... أنها جميلة جداً، وهل يكفي جمال وجه يخلو صاحبه من جمال العقل والأدب ؟

وسعدى وقحة متفرنجة ، حديثها مخلوطة ، كلمة عربية ، وكلمة أعجمية وهي نصف أمية . أقول نصف أمية حتى لا أقول نصف متعلمة ، لأنها لا تستحق هذا اللقب . ومتى حمي التنور لا تنطق إلا باللعنات ! وهل أقبح من أنثى تسب الدين ؟ صدقني إذا قلت لك اني سمعتها بأذني . رأيتها مراراً تضرب خادمتها كما تضرب الحيوان ، وتقذفها بلعنات لا ينطق بها أولاد الشوارع .

وليلى مترجلة لا ينقصها إلا زوج شوارب. تتجول وحدها في الأزقة. تنفق كل ما يصل إلى يدها على توابل الحسن ومقبلاته ، كأنها تجهل :

ان المليحة من كانت محاسنها ... من صنعة الله لا من صنعة البشر

وجميلة لا تعلم شيئاً من أمور تدبير البيت . تستعين بجاراتها على رتق ثوبها، ومن كانت لا تحسن تدبير نفسها فكيف يمكنها ان تدبر البيت بحكمة ونشاط ؟ فأمي صارت على حافة قبرها ، واختاي واحدة تزوجت والثانية ماتت .

فقلت له : يبقى وجودك ، ونفرح منك . وأخيراً .

فقال : أخيراً . ولكن واحدة اسمها سليمة ، أعجبتني جداً .

فقلت بصوت منخفض : الحمد لله .

وأتم هو كلامه : فهي سليمة الطوية صافية النية . ترف على وجهها روح الطهارة وتصبغ حمرة الحياء وجنتيها ، وهي تحترم البشر . معلمة ، مهذبة ، مقتصدة ، تكره الاغتياب والنميمة . لا تبالي بالأزياء ، لا تميل إلى الملاعب والملاهي ، ماهرة في أكثر الأشغال اليدوية ، بنت أوادم تقوم بواجبات البيت حق القيام ، طبخ ونفخ وهلم جرا

فقاطعته وصحت صيحة فرح وقلت له : ساعة مباركة ، خذها .

فقال : وكيف آخذها ، وهي ما معها شي ، وأنا طفران ؟

فقلت له : زاد واحد يكفي اثنين .

فقال : يا ليت . ولكن من أين ؟

فقلت : إذن ، أنت تطلب العصفور وخيطه ؟

قال : نعم .

قلت : ان شاء الله تعيش ... حتى يطلع الحشيش ..

علمتني الحيـــاة

وكان الأصح أن يقال : ما هو أبلغ درس علّـمتنيه الحياة .

ان دروس الحياة في أمثالها . فالأمثال هي المواد الكلّـية من كتاب قانون الحياة . وقد قالت : إذا لم تعلّـم ابنك فالدهر يعلّـمه .

لم أكن من المؤمنين بالكلمة المأثورة : « اتّـق شر من أحسنت اليه » ، ولكن ما صادفته عملياً في حياتي أثبت لي صدق هذا القول . فالذي تحسن اليه ، كثيراً ما يتمنى زوالك لئلا تؤذيه رؤيتك حين يتذكر مالك عليه من دين ، وان كنت أنت قد شطبت الحساب على الفور . ولذلك لم أعد استغرب الجحود ، ولم أعد انتظر شكراً من أحد .

أما قول الحطيئة :

من يصنعِ الخيرَ لا يعدمْ جوازيَهَ
لا يذهبُ العرفُ بين اللهِ والناسِ

فالذي يريد تأجيل ديونه إلى يوم الله فله شأنه . أما الناس فلا ننتظر منهم عرفان جميل . فهم إذا شبعوا بطروا، وإذا قدروا رفسوا وعضّوا.

في المثل : « كل ما تزرعه تقلعه إلا ابن آدم فانك تزرعه ليقلعك » ، فخير لك أن لا تزرع ولا تنصب هـذا الحيـوان الأسود الرأس المستوي القامـــة .

علمتني الحياة أن المال لا رائحة له . ولكنهم نسوا رائحة البخيل التي دونها نتانة القبور . أوليس البخيل قبراً جوّالاً يملأ محيطه قذارة ونتناً ؟

كنت أهزأ بالشيخوخة، حتى إذا ما بلغت القمة الأولى من قمم العمر، وقفت متحيراً في الطريق المؤدي إلى القمم الأخرى .

يقولون ان المعاشرة تؤثر ، ولكن الحيـاة علّمتني أن الطبع غلب التطبـع .

ومكلف الانسان ضد طباعه   متطلب في المـــاء جذوة نار

كانت حياتي كفاحاً مستمراً ، ولا تزال جهاداً مرّاً . ومن هــــذا تعلمت ألا أيأس ولا أقنط ، فكاني دائماً انتظر شيئاً فاشمّر للحاق به . ولعل هذا هو الذي جعل طريقي لا نهاية لها . لم أكن من تلامـذة الحياة النجباء ، فسقطت في الامتحان . وها أنا أجرر أذيال خيبتي في البشر .

أنا أعوّل كثيراً على المأثور من الكلام القديم شعراً ونثراً . فالشعر العربي مستودع الفكر الانساني. والأمثال العامة هي زبدة فلسفة البشر. ولا عيب فيها إلا أنها تجمع المحاسن والأضداد .

علمتني الحيـاة أن تقديسنا للقديم يبقينا حيث نحن ، ولذلك أراني أهش وأبش للجديد حيث أجده .

وبعد التفكير العميق وجدت أن الكذب هو سدى مـــا ننسجه من أحاديث ولحمته ، من أهلاً وسهلاً ومرحبا ، إلى شرفتمونا بزيارتـــكم ، اعيدوها . فكلمة مشتاقون تخرج كل ثانية من فم كمغارة افقا ، وحديث المجاملة يتدفق كالشلال في كانون .

وقبل وبعد فأنا لم أتعلم شيئاً من مدرسة الحياة في هذا الدور ، فعسى أن أكون تلميذاً نجيباً في الدهر العتيد .

الشجر تتهم البشر

ما أثقلك يا ظلام ، وما أقساك يا ليل ، فقد زدت الغابة وحشةً ، وأخفيت تحت جناحيك وحوشها المفترسة ، وناديت الضواري : خلا لك الجو ...

الغابة في الليل كالمدينة في النهار . في الاثنين ذئاب تُخشى أنيابها وبراثنها ، ولكن لكواسر المدينة أنياباً من حديد وأظافر من نار ، وهي أجرأ وأفتك وأحد ناباً من وحوش الغابة .

دخلت الغابة تحت لواء الظلام فهمس الضمير في أذني : « امش في النور ما دام لك النور » .

نعم سمعت صوتك أيها الضمير ، ولكن أتجهل أن من أحشاء الغيوم السوداء تنبثق الكهرباء الساطعة ؟

ما هذا الصراخ والعويل ؟ ما هذا البكاء الجارح ؟ أرى أشباح الموت تلوح في الفضاء ، وزفرات المنيّة قد ملأت الغابة .

ليست الأشجار بشر ليزاحم بعضُها بعضاً وتقتل وتتبادل الغارات.

إذن فما الذي أقلق خاطر الليل ، وأزعج بال الهدوء والسكينة ؟

لا بـــد من ان تكون لابن الانسان يدٌ في هذه الضوضاء وفضلٌ على نشأتها . فلنتقدم وننظر . أما قال الشاعر في ذلك الزمان :

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالذئبِ إذْ عوى
وصوّتَ انسانٌ فكدتُ أطير ؟

وكان الخوف ينمو كلما اخترقت قلب الغابة ، فتثقل عليّ وطأة الرعب ، والصوت يزداد قوة ويحمله الهواء على منكبيه طائراً بـــه في أقطار الغابة الموحشة .

ذُعرت الضواري وتركتِ الطيورُ وكُناتها ، وفر الذئب هارباً خوفاً من ريحة الأنس . اما أنا فتقدمت مستقبلاً ما يكون بصدري ، فقد علّمتني الحوادث ألا أدير ظهري لطاعن فأمكنه من مقاتلي .

وكان الصوت ينبعث من كهف ضفرتْ له يد الطبيعة اكليلاً من العلّيق والعوسج . واهتديت إلى بابه فدخلته قائلاً : ان التاريخ يعيد نفسه ، وهذا نظير جريح اريحا ، فما ضرني لو كنت ذلك السامري؟ وما وقعت عيني على ذلك المتوجع حتى سمعته ينادي : « ويلهم قتلوني » .

تفرست بالصارخ ، فإذا هو فتاة غضّة الشباب، جميلة، غطّى شعرها الأسود الطويل وجهها البديع الناصع البياض . ناديتها فأعرضت عني مغطية وجهها بيديها الناعمتين ، وصاحت : « إلى هذه البرية لا تزالون تقتفون أثري ؟ دعوني أعيش في هذه الغابة كالنساك، فقد سئمت أعمالكم يا بني البشر . لقـــد جرتم عليّ ، وسحقتم قلبي ، وحطمتم مجدي !

اضطهدتموني واحتملت كل ما لحق بي من ظلمكم ، أيها القساة ، فدعوني الآن استريح في هـــذه البرية بنفس راضية ، إلى ان يقضي الله أمراً كان مفعولاً . ثم أعولت فملأ صراخها الفضاء ، فتفطر قلبي لوعة عليها .

وسالتها : من أنت أيتها الفتاة ؟ وأية جنـاية ارتكبت فابعدت إلى هذه الغابة حيث لا يؤنسك غير نعيق البوم والغراب ، وفحيح الأفاعي وخوار الضباع ؟ أأنت تموتين وتودّعين الوجود ؟ ومن يرضى عن موت غادة مثلك ؟ فقومي تنقلي بين الأزاهر ، فانك لا تزالين زهرة ناضرة لم تنفتح العين على أجمل منها ، وحدثيني عما نزل بـــك من مصائب الدهر فلعل لدائك عندي دواء .

فاجابت : قضي الأمر ولم يعد لي من الحياة نصيب ، فأنصاري قد ماتوا، وأنّـي توجهت لا أرى إلا وجوهاً كالحة،وجباهاً مقطبة، وحناجر مفتحة كالقبور ، وسم الأفاعي تحت الشفاه . ينظرون إليّ نظرة القضاة إلى لص مجرم ، ولا يريدون غير رجمي ، ولهذا تركت معترك المدن حيث تتطاحن البشر ، وجئت إلى هـــذه الغابة أنشد السلامة والاطمئنان . هجرت الهيئة الاجتماعية وطويت عنها كشحاً .

فقلت لها : ضاق صدري ، ولم يبقَ في قوس الصبر منزع . فهل أنت ساردة لي تاريخ حياتك ؟ يظهر انك غريبة الأطوار وأسرارك عميقة !

فاجابت بطرف مكسور : أنا هي العذراء التي افتخر بهـا الانسان القديم ، وتغزل بهـــا كبار النفوس ، وتعشقها الفلاسفة والمطلمون على أسرار البشرية . أنا هي المحور الذي تدور عليه رحى الحياة ، والشمس

التي تلقي أنوارها على المجتمع الانساني فتنعش ما ذبل من رياضه ، وتبدد ظلمات لياليـه الحالكة . أنا هي الروح لجسم المدنية الحاضرة ، ومـا نفع الجسم إذا فارقته الروح ؟

أنا هي نعيم هـــذه الحياة . فمن لجا إليّ أمن الويل والنوازل ، ومن أعرض عني عاش معذبــاً في جهنم الضمير ، فالويل للذين جاروا عليّ وتركوني ، فعاقبة حياتهم وخيمة ، وأيامهم سوداء مظلمة. أنا هي عروس الشعراء ، بل عروس كل ذي نفس تشعر ، فكم من رجل أراد الصعود إلى سماء المجد ، ولكن كرهه لي أدّى إلى هبوطه من أعلى إلى أسفل . وكم من فتى أحبّ أن يسودَ بدوني فلم يوفّـق .

فصحت بها : يا اختاه ! دعي قول أنا وأنا . فما قلته تغني عنه كلمة ، فقوليها بالله عليك .

فنظرت إليّ شزراً وقالت : أنا هي « الأمانـة » والويـل للبشر إذا فقدوني . فالقائد ان لم يكن حائزاً على جانب عظيم من الأمانـة يخون دولته ويقوّض دعائم مجدها . والخادم إذا لم يكن صادقاً مخلصاً ، يدسّ لسيده السمّ فيميته شر ميتة . والصديق إذا لم يكن أميناً ، كان ويلاً يوقع من اصطفاه في شراك البلايا . والتاجر إذا لم يكن صادقاً أميناً يبيع ذمته وينهب أموال البشر ولا يبالي إلا بجمع الثروة ، سواء أعن طريق الشهامة جاءت أو عن طريق اللؤم والدناءة . وقصارى الكلام أن كل ذي شأن في الهيئة الاجتماعية إذا لم يكن صادقاً فهو مكروه وممقوت من البشر .

فأجبتها : خففي عنك ، ولينعم بالك ، فإن أنصارك كثيرون .

كثيرون هم الأمناء الصادقون والذين يرون الخيانة جبناً وعاراً . فعندنا التاجر والخادم والمخدوم والصديق يحمون ذمارك ويفدونك بدمائهم ، فقد ورثوا هذه الخلة الكريمة عن أجدادهم الذين اشتهروا بها ورفعوا لواءها .

أما هي فأجابتني : لقد عم الطمع والرياء ، وأصيبت الناس بداء حب الثراء ، وانتشرت المداجاة حتى سموها سياسة عصرية، وهذا الذي رغّب إليّ الاعتزال .

فقلت : وكيف تعتزلين هنا ، فالأشجار وحدها تقضي عليك ؟

فحدقت إليّ شجرة كهلة وقالت : فتح عينك ، نحن شجر لا بشر . انظر ترَ أننا لا نقتتل على شيء ، كل واحدة منا تقف حيث هي فلا نتنازع لا على الماء ولا على الهواء ، ولا على النور . إن صفوفنا لا تتحرك ولا تعلن حرباً ، فهذه الغابة تعيش أشجارها بسلام ، تتعانق أغصانها ولا منافسة بينها على شيء ، فعند السماء والأرض خيرٌ كثير . إصغ ، إصغ ، مالك مبهوتاً !

ـ كلي أذان ، يا سيدتي ، فقولي ما عندك .

فقالت الشجرة : هل سمعت صوتاً غير حفيف الأوراق؟ اعلم وخبّر جماعتك الناس أن شريعتنا شريعة السلام والاطمئنان . وإذا كان عندنا جور وبغي ، فهو يأتينا من القرى والمدن . إن الذنب هو ذنب الدم . أما الماء الذي يجري في عروقنا فلا يحملنا على الجريمة . إن ذوي الدم وذواته هم الذين يزعجون الغابة . وإذا قلتم ذامين قادحين : « شريعة الغاب » ،

فالذنب ذنبكم أنتم وذنب الحيوانات ، وكانكم أدركتم ذلك فقلتم عن أنفسكم : « فلان دمه حار ، وفلان دمه بارد، وفلان دموي ، أي سفاح ».

قال أحد مجانينكم : « من خلق علق » ، وكلمته هذه تصدق فينا لأننا لا نسعى ، نعطي ولا نأخذ ، ويُغار علينا ولا نغير على أحد. تأتوننا بفؤوسكم ومناجلكم ، فنقابل شركم بالخير ، ونعطيكم كل ما نملك حتى أنفسنا .

جُبلتم على الشر والأذى ، ولذلك تقولون : « الدم لا يصير ماء » . لا أقول لك اخرج من غابتنا ، لأننا خلقنا لا نرد أحداً . أما أنتم فقد يقتل بعضكم بعضاً من أجل عود من عيداننا .

أما هذه الفتاة ، فقد جاءت إلى حمانا ، ونحن نضمها إلى صدورنا ، وإذا اعتدى عليها أحد فلا يكون إلا من ذوي الدم . فاذهب من حيث جئت ، ودع عندنا هذه اللاجئة وشانها . لقد جاءت الينا ، ونحن لها .

قصة السعادة

بين ثنايا جلباب الدهور وغضون جبين الأزل فتشت عنها فلم أجدها . وبتلسكوب هـــذا الزمان حدقت إلى خيالها الضئيل فرأيته يتوارى ويضمحل وراء ضباب المدنية .

في صحارى الآمال، وعلى شواطىء بحار المطامع، بحثت عنها فوجدت الرياح ذرتها رملاً في الأحداق فعميت عنها العيون وابتلعتها اللجج، فكان الغائص عليها من المغرقين .

قالوا أنها بذور إلهية نثرتها يد الخفاء على وجه الكرة الأرضية قبل ظهور الحيـاة ، فبحثت جيولوجياً فلم أجدها بين بقايا انسان الكهوف ومدى الصوان وفؤوسه .

لقد التقط عقبان الأبد ونسور الأزل بذور الآلهة وطارت محلقة في الأفق المجهول . سمعت حفيف أجنحتها ولم أرها . مـــا رأيت إلا شبح العدم جاثماً على جبهة الوعر يرقب ساعـــة يبحث فيها عن عرشه المفقود ويعصب رأسه بثلجه .

أنه ليوم رهيب يوم ظفر العدم ، إذ تصبح أشباح النوابغ رمماً بالية ، يضحك منها الفناء ويهزأ بها اللاشيء . يوم يقبض العدم على قضيب ملكه «ويؤدب المتشردين». وهنا هو لقب نوابغ الأرض في مملكة العدم.

تصفحت الأسفار وقرأت سطورها وما بين السطور فلم أجد إلا شكوكاً مدلهمة تزداد على البحث ظلاماً . استعرضت جنود العلماء والفلاسفة وفي أيديهم سيوف البراهين وقنابلها . فرأيت تلك منثلمة وهذه محشوة رماداً . رأيتهم نياماً في ظلال الشكوك ، والتهكم يقهقه فوق رؤوسهم صائحاً بهم : ناموا واستريحوا يا نوابغ الأرض فقد ضللتم الناس وضللتم .

مع عمالقة التاريخ وجبابرة الانسانية سرت برعدة . خلتهم راكضين وراء السعادة ، فأسرعت معهم ، فاختفوا عن نظري في صحراء التيه فدخلت أرض الفراعنة وحدي .

رأيت جلال ملوكها أبناء الشمس . تصفحت أسفارهم في هياكلهم ، ومع موسى الذي تدرب على حكمتها أمعنت النظر فيها . رأيت عصي الكهان تنساب حيّات تحت أقدام الفراعنة فاتبعتها إلى هيكل ايزيريس. رأيت هناك الإله الثور وعلى ظهره النسر فقلت : هذا هو السعادة . صعق الكهان لأن الثور قد مات واضطرب الوادي حزناً على الإله ، فقلت : لا سعادة هنا .

طفت حول الاهرام واستنطقت أبا الهول فأجابتني مومياء من قبور الفراعنة : فتش عن السعادة في غير هذه الأرض ، فقد حنطنا أجسادنا

لتراها صور أرواحنا أن وجدها أحد بعدنا .

سرت على طريق الهند فرأيت رفيقي في هيكل الآلهة ـ موسى ـ يلتفت يميناً وشمالاً ، وإذ لم يرَ أحداً قتل المصري وطمره في الرمل ، فسألته عن ضالتي فهز كتفيه مشيراً إلى المصري المقتول .

طويت الصحراء فشاهدت فيها آثار الأنهار فايقنت ان المدنية رحالة يجوب الأقطار وله في كل منطقة طلول وآثار . ولما وصلت ضفاف الكنج حملت تياراته أثقالاً من الآمال وجبالاً من التسآل .

تحت أقدام برهما ، ثالوث الهنود ، وبين غطرسة كهانه لم أجد أثراً للسعادة . وفي مطاوي « الفيدا » لم أعثر إلا على بعض متحجرات صقلوها ونادوا على الدر والألماس .

اضطرب البراهمة لأن إلهاً جديداً ولد من خاصرة أمه . يمد يده ليقوض أركان فلسفتهم ويمزق أسفارهم فاسرعت الخطى اليه . اركبني بوذا في مركبته « الإلهية » فجرت بنا تطوي سهول الخيال وتعبر أودية الاشباح فسرنا نفتش عن السعادة في جيوب الغيوم ، فكنا كالقابض على الماء . تركته متربعاً في ظل شجرته الأزلية يستمد الروح العلوية لتبدد انقباض نفسه ، فازداد بركانها ثوراناً لان السعادة طائر لا يستكن في ظل شجرة يستظل بها البشر .

رأيت كنفوشيوس يعلم في الصين ، وسمعت تلاميذه يطلبون منه ما اطلب ، وهو يعللهم بطبخة الحصى ، فناموا ولم ينضج الطعام .

عدت إلى أثينا فرأيت في رواق هيكل الحكمة فيلسوفها الخارج على

المألوف ، المتمرد على التقاليد ، نائماً في برميله ، فسألته عن السعادة فدفع إليّ مصباحه وقال لي فتش عنها ، فقد فتشت قبلك فلم أجد « الرجل » السعيد .

صعدت إلى قمم الارينت فلم أرَ الطهارة والسعادة كما قال شعراء اليونان ، فانحدرت إلى الشاطىء وأبحرت إلى بيبلس مدينة الثالوث الاقدس الفينيقي ، لابحث في كتب سنكنتين وطاليس ، فرأيت الشعب يبكي الإله المقتول الذي افترسه الدب في الغينة، فغادرت شعباً يفترس إلهه دب ، اتعثر بأذيال الخيبة ميمماً أرض اسرائيل .

قلت في نفسي : مالي افتش عن السعادة ولا أرى إلا بشرية متألمة ، ولا اسمع غير النحيب والعويل .

في سفح الطور اعييت فجلست أفكر في تعاسة الباحثين ، ضاحكاً من المتفلسفين ، باكياً على المتمنطقين ، فرأيت موسى اتقد غضباً ورمى لوحي الشريعة فكسرهما في أسفل الجبل . فقلت له : ما بالك يا جبار الأنبياء ، يا قاتل المصري ، يا شاق البحر الأحمر ، يا فالق الصخرة بعصاه .. امثلك يغضب ؟ فاجابني : من سعى وراء اسعاد البشر ذابت نفسه وأكلته الكآبة .

نمت تحت أقدام الجبل نوم فتية الكهف ، واستيقظت عندما سمعت راحيل تبكي على بنيها ، فجلت باقدام اليأس في خيام الأنبياء ، وأكواخ شعراء اسرائيل ، ورأيت الشاعر أيوب مفترشاً الرماد يدعو على نهاره وليله واللعنة ملء فمه . رأيت شاول صريعاً على جبل الجلبوع ومجن

الجبابرة معفراً بالتراب. رأيت داود يئن على عرشه موقعاً بكاءه على العود والقيثارة . رأيت سليمان طائفاً في الهيكل ، تائهاً في الشوارع ، متغزلاً بنشيده وقد صادفه حارس المدينة . رأيت حول سريره ستين جباراً وكل منهم سيفه على فخذه لاهوال الليل ، فقلت : هذا أسعد البشر ، فاصغيت اليه فسمعته مردداً : كل شيء باطل .

سمعت اشعيا ابن اموص صارخاً في مدينة ذلك الزمان : رؤساؤك عصاة وشركاء للسراق . رأيت ارميا باكياً في صهيون . ومر أمامي موكب من الشعراء الأنبياء الصغار وكلهم غائصون في بحور الأحلام ينتظرون فرعاً جديداً من جزع يسى فانتظرت ذلك الآتي.. عله يرشدني إلى ما افتش عنه .

جاء فرأيته في بستان الزيتون رافعاً يديه إلى السماء صارخاً : يا ابتاه اجز عني هذه الكاس .. وسمعته يبكت تلاميذه قائلاً لهم : ألا تسهرون معي ساعة واحدة ؟ فقلت مالي وللسؤال فقد جئته يوم بؤسه . فبارحت اورشليم تاركاً خلفي ضوضاء الكتبة وجلبة الفريسيين ، نافضاً ما علق بأذيالي من غبار تلك الدهور . يممت جزيرة العرب لأسال عباد اللات والعزى عن السعادة فشهدت مقتل كليب ويوم اوارة وسوم عكاز . وسمعت وقع أقدام نبي عربي فأسرعت الخطى إلى المدينة فصادفته هارباً يتسلق الصخور ويتسرب في المغاور والكهوف فلم استحسن السؤال ...

فعدت والياس ملء صدري من رحلة استغرقت سنين ، فالتقيت في ضواحي دمشق شيخاً جليلاً ألبسته الأيام جبة لحمتها العصور وسداهـــا

الدهور . رأيت بقربه مركبة نارية دونها اتقاناً طائرات هذا الزمان .
فصحت به : تسمّ يا شيخ . فأدرك انني استهنته ، فجرد سيفاً ، لا أدري من أين جاء بـــه ولا أين كان يخفيه ، فاتقد شعلة نارية، فتذكرت صورة في إحدى الكنائس وقلت في نفسي : هذا ايليا لم تخمد نار حدته الاجيال. وماذا يصنع هزيل الاسفار أمام من يستنزل من السماء النار، ويقتل ثلاثمئة وخمسين من الكهان ؟ فسألتـه الصفح عن غلاظتي ، فابتسم ابتسامـــة روعتني ـ وكم من ابتسامة ترتعد لها الفرائص ـ وبعد حديث طويـــل أطلعته على خفايا نفسي وأخبرته انني طفت في الارض مفتشاً عن السعادة.

فقال لي : انك تفتش ، يا ابن اليوم ، عما يفتش عنه شيخ الأجيال . فإن شئت ازاحة اللثام عن وجه الحقيقة فاصعد إلى الاعالي وقابـل رب الارباب . إنما كن جسوراً فهنالك من يقفل الباب بوجهك .

فتنهدت قائلاً : قبل الدخول عقبات يا شيخ . يا أيها النبي الحي المخلد على رغـم الموت ، مهد لي الطريق حتى اتعلق بأذيال الباب ، لأسمعك صراخاً تردد صداه الارض .

فاركبني مركبته النارية التي اقلته مرة إلى السماء .. فاخترقت الاعالي فافزعت ضوضاؤهـا سكان المريـخ ، وأطل علينا من سكان الكواكب أشكال وألوان .

وقفت المركبة على باب السموات فرأيته مفتوحاً ، ولا حاجب هناك ولا بواب ، يلجه جميـع أبناء البشر ولا يسال أحد هناك إلا عن حسناته . فسمعت صوتاً يناديني : من أين القادم ؟

حدقت النظر إلى المكان الخارج منه الصوت ولما لم أرَ أحداً قلت بعد هنيهة : من الأرض .

فاجابني : ولماذا جئت إلى هنا ؟

فقلت : افتش عن السعادة .

فقال : ألم تجدها ؟

فقلت : كلا .

فاجابني : ولن تجدهــا ، فمطامع المادة لا تحـد . ان السعادة روح وهيهات ان تستولي الهيولى على الأرواح . لقد أقلقتم مسامعي يا أبنـاء التراب فكدت أصير مثلكم لا سعادة لي فارجع من حيث أتيت ، واسال سفرائي في أرضكم عنها .

فاجبت : لقد طفت في مشارق الارض ومغاربهـا ، رأيت الرسل والأنبياء والفلاسفة فلم أجد أحداً منهم سعيداً . أما سفراؤك فما رأيتهم ولا أعرف قصورهم .

فقـال : نحن الارواح لا نستسفر غير الارواح ، فسفيري هو مـا تسمونه « الوجدان والضمير » في لغتكم ..

وابتسم البرق وقهقه الرعـد فاضطربت . وبعد هنيهة وجدتني في برية مقفرة عاينت على صخورها آثار دم هابيل .. فاستيقظت من حلمي الرهيب على قرع ناقوس الواجب ..

تأملت في ما رأيت وأخذت أندب حظ انسانية تحمل على رأسها دم أبنائها الذين ضحتهم المطامع على مذابح آلهة كذبة . آلهة السعادة والأمل .

قلت في نفسي : ما تفاحة حواء وحكايتها إلا رمز السعادة المفقودة. ان ترنيمة « ملتون » الخالدة هي رمز السعادة وهيهات ان يلتقي « الفردوس الضائع ». ان ذلك الطائر الجميل الذي صورته قرائح الشعراء قد أفلت من قفصه وهيهات ان يعود ..

فيا أيتها السعادة .

أنت سر من الاسرار ، عظمته في اختفائه وان أدركه البشر يئسوا وملوا الوجود ، وما أشقى حياة يملها الناس .

أنت خيال النفس المستقرة في الجسد كالخيال في المرآة . تدركه العين ولا تقبض عليه اليد . وما الفلاسفة غير أطفال يحاولون القبض على خيالاتهم في المرايا .

السعادة تحقيق الامل، والامل ابن الطمع،والطمع بحر أزلي لا ينضب ولا يتبخر .

السعادة شبع النفوس الجائعة والنفوس لا تشبع . تجري المادة وراء السعادة ، وراء ذلك الخيال ، فلا تجده إلا بموت الآمال . ولا تموت الآمال إلا بالموت . وهل من سعادة في ظلال الموت ؟

العين والسعادة فرسا رهان . من رأى تمنى . ومن تمنى قد ينال ، ومن نال ما ينال تمنى ما لا ينال . فلا سعادة لذي عينين .

وبعد تفكر قليل نهضت إلى عملي ولم أعد اسمع إلا عويل المادة بين مخالب العدم ، فما أمرّ اليقظة وأقسى جبار الأبدية والأزل .

الى المرأة

يا سيدتي ،

لا تصدقيني ان قلت لك: أمسيت لا يعنيني أمر المرأة . لا يا سيدتي، فانت دائماً في البال ، ولا تبرحين من دنيـــا الخاطر ، ولو صار الجسم حطبـاً .. فانت الأم ومن ينسى أمـه ! وأنت الأخت ومن ينسى حنان أخته ومحبتها ! وأنت رفيقة الحياة ، ومن ينسى رفقة عمر أتت ثمارهـا وأكلها ذرية صالحة يتألف من خيوطها العلم الذي هو عنوان الوطن .

وقبل وبعد ، فانت ، منذ تكوّن العـــالم ، بحسب رواية من شئنا ـ من موسى حتى داروين ـ كنت تسيرين إلى جانب الرجل ، يدك في يده . في الكهف كنت إلى جانبه تحتملين مثله شظف العيش وتجرين في مضمار الحياة ، محاولة بلوغ الغاية، وفي القصور اتكأت على الخز والديباج، وجعلت بيتك جنة ذات حور وولدان ، فلولاك أيتها الأم ، والأخت ، والزوج ، والبنت ، كان الوجود عبئاً ثقيلاً، وكانت الارض جهنم حمراء .

تقول التوراة : ان يهوه رأى الوجود ناقصاً حين خلق آدم ، فخلق

المرأة ، فسد وجودهـــا ذلك الفراغ الذي أحسّ بـــه المبدع الأسمى والناقد الأول .

وهكذا تكون المرأة ذلك الوتر الذي تمّت بـه آلة التكوين الشجيّـة الألحان ، ولولا هذا الوتر الطريف لظلت شوهاء جوفاء ، لا ترسل النغم الرخيم الذي يشرّد الأحزان ويبدد ظلمات الأشجان ، وما أكثرهـــا في دنيانا .

فإذا صحت الرواية ، وما في رواية الكتب المقدسة شك ، كنت ضلعاً من أضلاع الرجل ، وهكذا يكون الله ، تعالى وجلت قدرته ، قد خصك منذ البدء بهذا الخلق ، ولله في خلقه شؤون ، وشتان مـــا بـين التراب واللحم ، وإذا كان هذا الأخير منه قبل ان ينفح فيه روح الله .
وإذا كنت لم تخلقي على تلك الصورة فيكون القالبان قـد صبّـا في وقت معاً ، ولا مجال إذن لهذا التفريق بين المخلوقين ، الرجـل والمرأة . ان حكاية الفردوس الأرضي تؤكد لنا المساواة بين الرجل والأنثى ، فلو اعتبرها المشترع أقل عقلاً من أخيها الرجل لما عوقبت مثله. فنهضة المرأة للمطالبة بحقوقها ليست بدعة جديدة ، وهذا الانتقاص لم يوجد إلا يوم استبد الرجل بالأمر ووضع هو الشرائع والقوانين .

كان الرجل والمرأة قبل ذلك متساويين ، ولم تحبس في قفصها الذهبي إلا عندما مدت المدنية براثنها إلى أقفال البيوت ، فهب الرجل يصون كنزه الثمين من أيدي العابثين ، ومن لا يفكر بأثمن ما عنده حين ينتشر الذعر ويضطرب حبـل الأمن ؟ فالأسوار التي رفعت حولك لم تكن إلا

لصيانتك أيتها الدرة الثمينة ، فارحمي صدراً بها ، ولا تحاولي أن تدكيها كلها وتجعليها قاعاً صفصفاً .

يظن الناس ان المدنية والرقي قاما على أكتاف الرجل ، أما الواقع فيرينا ان المرأة ساهمت في بنائها ، فإذا عدنا إلى فجر التاريخ، رأينا المرأة والرجل آدم وحواء ، راحيل ورفقا ، ويعقوب واسحق يضربان في مجاهل الأرض عرضاً وطولاً . وكم رأينا الرجل عاجزاً في بعض الميادين فتنبري المرأة للجهاد وتحفظ الأمة والوطن .

ولكن الرجال قالوا : الرجل أفضل من المرأة . أما التاريخ فينتصب على قدميه ليقول : لا . فهذه التوراة تنبئنا ان امرأة اسمها دبورة كانت قاضية وفيها يقول سفر القضاة : (ف ٤ ص ٥) .

كانت دبورة تجلس تحت نخلة بين الرامة وبيت إيل في جبل افرائيم، وكان الرجال يصعدون اليها لتقضي لهم . وهي التي دفعت باراق لقتال سيسرا فظفر به .

بدأت بالأمر دبورة القاضية وأتمته ياعيل امرأة حابر العيني ، فقتلت سيسرا ، حين دخل خيمتها فاراً ، وأذلت الكنعانيين أمام شعبها .

ويروي الكتاب أخباراً كثيرة عن نساء أخريات ساهمن في شؤون جلّى فكانت لهن جولات مشهورة في جميع الميادين الاجتماعية .

وإذا تقدمنا في التاريخ إلى فجر المسيحية سمعنا القديس بولس ، في إحدى رسائله ، يوصي الرجال بالنساء خيراً فيقول لهم : ولا تكونوا قساة عليهن . ثم نتقدم قليلاً فنسمع الحديث الشريف : رفقاً بالقوارير .

لقد سمّاك قارورة فــلا تحاولي أن تجعلي نفسك باطية [1] شغل اللاذقية ... أي لا تطلبي الأشغال الشاقة فهي لا تخلق لك ولم تخلقي لها ، فأنت في نظري قارورة من بلور فلا تتمني ان تكوني اجّانة من فولاذ ، فخير الأمور ما كان بين بين . لا تتهمي قومك بهضم حقوقك . فهــذه قوانين نابليون ، الصادرة عن أمة سبقت جميع شعوب الأرض الحديثة إلى الحرية لم تكن أرأف بالمرأة من الشريعـة السمحاء التي (فرضت) لك ورفعت عنك كل حيف وجور . ترى (قوانين نابليون) انه لا يسوغ ان يتولى الوصـاية والعضوية في المجالس العائلية : القصّر والمحجور عليهن والنساء وكل من اشتهر بسوء السيرة . وتقول ايضاً : لا تستطيع المرأة الحضور في المرافعات أمام هيأة القضاة بلا تفويض من زوجها .

وفي المادة ٢١٧ تقول : لا تستطيـع المرأة ان تهب ولا تبيع ، ولا ان تقتني من غير إذن زوجها ومشاركته . بينما نرى في التوراة ان إحـدى النساء بعد ان رفض زوجها ان يرسل زاداً إلى داود ، عندما كان فاراً من وجه شاول ، جاءت اليه تحمل الزاد والخمر .

وفي المادة ٢٢٢ يقول : إذا كان الزوج محجوراً عليه ، أو غائباً فإن في استطاعة القاضي ان يفوّض المرأة في المثول امام القضاء .

ويقول في المادة ٢٢٤: إذا كان الزوج قاصراً فلا بد للمرأة من الحصول على تفويض من القاضي للحضور امام هيأة القضاة لابرام عقد .

(١) وعاء من الفخار على شكل الخابية ولكنه أكبر منها .

وهذا ما حمل رنان الفيلسوف الفرنسي على الإعجاب بالشرائع القديمة ففضلها على شرائع أمته إذ قال : ان هذه الشريعة أكثر انسانية وعدالة من كل ما كتب في ذلك العهد .

ولشعراء العهد العتيق أقوال طيبة في المرأة المنشودة ، قالوا :

من يجد المرأة الفاضلة ؟ ان قيمتها أثمن من اللآلي .

تبسط كفيها إلى البائس ، وتمد يديها إلى المسكين .

لا تخشى على بيتها من الثلج ، لأن أهل بيتها جميعاً لابسون الحلل .

تلقي يديها على المكب ، وأناملها تمسك المغزل .

تفتح فاها بالحكمة ، وفي لسانها سنة الرأفة .

رجلها معروف في الأبواب حيث يجلس بين شيوخ الأرض .

تلاحظ طرق بيتها ، ولا تاكل خبز الكسل .

المرأة الحكيمة تبني بيتها ، انها اكليل لزوجها .

لطف المرأة ينعّم رجلها وادبها يسمّن عظامه .

الشمس تشرق من على الرب ، وجمال المرأة في عالم بيتها .

سيداتي :

لقد اطريتكن نعتاً فلا يغرنكنّ ثنائي. اطلبن ما شئتن فهذه مطالب يحققها الزمن ، فبريطانيا المعروفة بالمحافظة على التقاليد ، جارت روح العصر وأعطت النساء مـا أعطت من حقوق . فكان منهن المحافظات ورئيسات مجالس مقاطعات ، وقـد عينت أخيراً سيدة في مجلس الملك الاستشاري الخاص . وقد دل الاحصاء ، كما قرأت منذ أيام ، على ان عدد

الموظفات اللواتي يشغلن مناصب رئيسية قد بلغ ٣٥٠٠ سيدة .

ان كل مـــا تطلبن جائز إلا طلب بعضكن ان تخاطبن بالواو والميم كالرجال بدلاً من التاء والنون . ان هذا شطط . انه لطمع تاباه موسيقى لغتنا . فنعومة التاء ورخامة النون البق بكن من خشونة الميم ، وضخامة الواو . لهذا خص سلفاؤنا الأذكياء جمعكن المؤنث بالتاء والنون لملائمتهما انوثتكنّ . ولم يقصر اللغويون العرب عن النحاة في الذوق الفني فقالوا : صفقت الرجال وصفّحت النساء .

ارأيتن الفرق بين صفق وصفح ، فلا تطلبن الزيادة لئـــلا تقعن في النقصان . قد يكون لي معكن غير هذا الحديث من وراء حجاب المذياع ، وما اكثفه . ولكن لا باس . فكأن من أبدعه خاف ان يسحركن جمالي الرهيب ، وللمخترعين في خلقهم شؤون . وأنا في كل حال لا أخاف منكن ما خافه الأخطل حين قال :

وإذا دعونك عمهن فانه   لقب يزيدك عندهن خبالا

فالشيب ما هو عيب والسلام .

حفلة ناشفة

٦٧ مرة توالى عليّ يوم ٩ شباط ، وبينا كنت قاعداً أستريح ذهب بي الفكـــر إلى الماضي البعيد ، وإذا بالسبعة والستين مارون الذين طواهم الدهر يبرزون لي مهنئين بعيد مولدي ، مترجّين لي العمر الطويل ... وبعد مجاملات المعايدة ابتدرني أحدهم بقوله : أي مارون منا أحب اليك؟

فقلت : يا بارك الله ! من أين جئتم ؟ فيكم البركة ! كلـكم أنا. تفضلوا تفضلوا اقعدوا . وهفا قلبي لمارون الصبي فقلت له : اتذكر القتلات التي كان يطعمك إياها جدّك ؟ فقهقه قهقهة ولد ورش .

وبعد هنيهة أدخل مارون شاب يده في عبّـه ، فعرفت انـه أعـــد قصيدة تهنئة ، من تلك البلادات المدرسية التي كنا نهيّئها لأعياد معلمينا ، فقطعت عليه الطريق بقولي: الضغط عال يا أخا الشباب، لا تزده ارتفاعاً.

فامتثل وأمسك ، ولكن خبيثاً من السبعة والستين قـال بابتسام : المشايخ تحب التحدّث عن الماضي ، هات خبرنا عما مر عليك من أخطار نجوت منها .

فقلت له : أقال لك أحد إني كبرت حتى جئت تمتحنني ، أم أردت ان تعرف كم مرة أفلتّ من يد عزرائيل ؟

فحنى رأسه كالمستحي، ومط بغنج كلمة لا. ثم قال: ولكن الاحباب يتذاكرون ، ونحن من تعرف .

فقلت له : كانك راض عن أخاديد وجهـــي ، وحواجبي المنتفشة كريش القنفذ ، وتحب ان تعرف أين صار دماغي ، فإذا كان الأمر هكذا فخذ : سقطت مرة عن رأس الدرج متدحرجاً يوم كنت ابن أربع خمس سنوات ، وانكسر عظم جبهتي ، ولكني نجوت ، وكتبت تلك الوقعة على جبهتي كلمة « لا » بالمقلوب » إلى ان أخفتها يد الاربعين وأخوانها . ثم سقطت ثانية عن رأس سطح بيت مع حجر كبير ولكنه لم يمسني . ومرة ثالثـــة تدهورت أنا والمحدلة عن سطح « مدرسة النصر » ولكني سلمت أيضا .

وكنت سائراً مرة بالليل فضللت الطريق قبالة قرطبا وصرت على قاب قدمين من الهاوية ، ولكن الله ستر وإلا كانت تحت عظامي .

والتفت اليهم فرأيت « الموارنة » الصغار يضحكون . فقلت : ما بالكم ! فهتفوا بمرح الصبيان : كمّل .

فقلت : ودنوت مرة من حائـــط لأقضي حاجتي على طريقة بني اسرائيل .. فإذا بالحيط أفعى راصدة ولو لم أنتبه لها لاصطدمت بالثعبان وقضي الأمر ..

وسهرت مرة في قهوة رأس العين ببعلبك، وفي عودتي إلى «الاوتيل»

أطلقوا عليّ الرصاص وهم يحسبوني غيري، ولكن العمر كان لا يزال طويلاً.

ومرة كمن لي أحدهم في الطريق ليلاً فتبادل التحيّات الرصاصية مع غيري وفزت أنا لأني لم أشهد المعركة ..

ومرة أطلقت الرصاص من مسدسي في حفلة مرفعية ، وأعدته إلى زناري فانطلقت الرصاصة الباقيـــة في شروالي .. ولكنها زلقت على المرحوم كرشي ، فما اصيب أحد من السكان ..

وهنا قاطعني أحد السبعة والستين وقال : أكل حياتك أخطار ؟ حدّثنا عن أيام ملذاتك .

فأجبته : صدقني ياعزيزي ، إذا قلت لك ، انه قلما كان لي يوم فراغ التذّ فيه . كل لذّات حياتي كانت « على الماشي » كما يقولون . الحياة ركض وراء الرغيف ، والرغيف دولاب كما تعلم ، والدولاب أسرع من الرجلين. حياتي كلها عمل متواصل . حركة بـــلا بركة . وإذا متّ لا يجدون في جيبي حق الكفن ، أتصدقني ؟ والله ما زلت كما تركتموني .

فقال شاب منهم : طيب خبرنا عن العظائم التي أحدثت بعدنا .

فقلت لهذا الوقح الساخر : بلا أكل حلاوة .. جئت تهني أم جئت تتهكم؟ تظن أنك تحدّث الاسكندر ذا القرنين أو نابليون. ليس في حياتي قمم تحتاج إلى مصعد كمصعد الأرز ، ولا هوى تحتاج إلى حبال . النضال مستمر بيني وبين الحبر والورق ، وأظنك ما نسيت مثل الحبر والورق. كلا الأخوين ..

نسيت يا ربي ، ان أخبركم حادثة مهمة . عندما كنت صحفياً عـــام

١٩٠٧ ـ ١٩١٤ حاولوا أن يستريحوا مني ، ولكني سلمت وبقيت حتى اليوم لأثرثر معكم في هذه الساعة .

فانتصب واحد منهم ، فأمرته بالانطواء فتكوم وهو يقول : حياة اليوم أفضل من حياة الأمس ؟

فقلت : حياة اليوم فيها راحة ولكن حياة الأمس كانت ألذ ، ومتى كثرت الراحة قلت اللذة . فقال غيره : أنت رجل عركتك الدنيا ، فما أمرّ خيبة عانيتها ؟

فأجبته : كأنك تخاطب ابن تسعين . تقول الدنيا عركتني ، فلو كانت عركتني لكانت فزرتني ، أما أكبر الآلام فهي خيبة الأمل . وضياع الفضل .

فصاحوا جميعاً : أتندم على الإحسان ؟

فقلت : كأنكم تحدّثون روكفلر وفورد . لا لم أندم ، وساظل أتبرع « بالملايين » حتى تاتي الراحة الكبرى ..

فقال خبيث منهم : أما وقد تحدثت عن الراحة الأبدية ، فما رأيك في الموت ؟

فقلت : الله يبعده . يظهر أنك قليل الذوق .

وحاول ان يتكلم فقلت : بس . بس . قصّر حديثك . إن ذكر الموت أمام من كان في عمري مؤلم كنكران الجميل .

فقال واحد منهم ، ما زلت أتذكر وجهه جيداً : حدثنا عن أشد ما يؤلمك . فقلت : ضياع الفضل والتعب .

وقال ثان : وأشدّ ما يضحكك ؟ قلت : مارون عبود الباقي .

وقال آخر: وأشدّ ما يحزنك؟ قلت: ذكرى مارون عبود الذي راح.

فقالوا جميعاً بصوت واحد: إذن أنت تتمنى طول العمر؟ فصرخت بهم : هذا سؤال يا حمير ؟

فضجّوا قائلين : قم رح معنا ، ولماذا ترجو الحياة ؟

قلت : لماذا أرجو الحياة ؟ أتمناها لنحيا معاً يا أذكياء .

وما انتهيت حتى رأيت السبعة والستين مارون يخرجون مصطفين كأنهم تلاميذ مدرسة .

فكان مشهدهم مثيراً للضحك ، وخصوصاً عندما أخذوا يصيحون واحداً واحداً : باي باي . باي باي .

فصرخت بهم : تخيّبوا . الله لا يردكم . نسيتم لغتكم !

فرددوها بصوت واحد نكاية بي ، وهكذا قطعوا علي حلم يقظتي .

لوحة الجميل الخالدة

عندما كنت أروح وأجيء ـ وما زلت أفعل ذلك عند الاضطرار ـ أذكر انني لم أكن اقصر عن قبول دعوة إلى سهرة أو حفلة أدبية أو فنية. خصصت الأدب والفن لأنني لست ممن يدعون إلى حفـــلة انتخاب ملكة جمال ، مثلاً ، وان كنت لا أقبل إلا بالانتخاب .

وفي عام ١٩٤٠ دعيت إلى معرض اصدقاء الفن، وكان مكانه في السماء الثالثة من ندوة النواب، هناك عرضت على ذوي الأبصار والبصائر روائع الذين يجعلون الآلهة تصاوير وتماثيل . رقيت اليها على درج مزين بسوخ نخل مغروسة بالاصص ، كالعقول الكبيرة في الأقاليم الضيقة .

ذكرتني بذلك صورة نشرتها الصحف فرأيت فيها الرئيس الأول يعلق على صدر الفنان اللبناني وساماً يعلن تقدير لبنان للعبقرية والنبوغ الفنيين ، ولهذا عنّ لي ان أعود إلى ذلك الماضي وانشر ما كتبت مرة من تعليقات على هامش ذلك المعرض الناجح .

دخلت ذلك الهيكل العابس فرأيتني فيـــه لدى كتـاب ومنشئين

يدرسون آثار زملائهم يستنطقون تلك الروائع فتجيبهم بقدر مـــا في نفوسهم هم من وعي والهام ، وفي بلادنا السعيدة لا يقرأ الشاعر غــير الشاعر ، ولا الكاتب إلا الكاتب ، فكأن الفنانـين عندنا لا يصورون إلا لنا ، ونحن لا نكتب إلا لهم . ما رأيت إلا بصراً حائراً يرتع في جمـــال صامت ، فيستيقظ الهوى المكتوم ويبوح بسره للقلم .

استقبلتني شخوص الفنان الشهير الاستاذ يوسف الحويك فملت اليها فإذا برب تلك الأسرة المباركة في نقاش حامي الوطيس مع سيدة كأنه يلقي عليها دروساً في الفن ولكنها تلميذة رصينة تأخـــذ وتعطي – في الموضوع فقط – ولا تقبل نفسها إلا ما يقطع عقلها . استنظرني المثّال فلم استطع لأنني كنت على منهج. وطفت في ذلك الفردوس وكان فرجيلي الجميّـل . وقع نظري على سيدة منبطحة – ظن خيراً فهي تصميم – انها مبدأ أوّلي لفكرة لم ينضجها الحويـك بعد ، وآثار الفنان كعملية الخلق في سفر التكوين ، تكون أولاً (توهو بوهو) وروح الفنان ترفّ عليها . وأطل على موكب مليحات الجميّـل ، من وثنيّـات وجذعات وقارحات ، عذارى دوار ولكن بلا ملاء مذيّـل، طالعات من بحيرة دارة جلجل لكل امرىء قيس .. هـذه بالورب وتلك بالعَـرض ، أوضاع شتى إلى مثلهـا يرنو الحليم صبابة . جمال مثير لم اغلغل النظر فيه لأنـه جاء بعد تخمة ، وما شكرت لئلا ازاد ..

ثم غرّبت في تلك القاعة فإذا بالمسيح مستريح على الأرض بعد موعظة الصليب الشاقة . زوى الجميّـل عنه غانياته الخالعات أكثر من العذار ...

فهو في واد وهنّ في واد، مع انه القائل: الاصحاء لا يحتاجون إلى طبيب.

طول لوحـــة مسيح الجميّل ٣٢٠ سنتمتراً ، وعرضها ٩٥ ، ويحقّ اسمّيها لوحة لأنها لوح حقاً ، بل هي لوح وصايا جديدة لفن جديـــد . أبدعها قيصر لتنام سيدة في الجوزة ببيت شباب . أبدعها بناءً على طلب المهاجرين،ولولا سخاؤهم لم تكن هذه الطرفة الفنية الخالدة، وكم للمهاجرين عندنا من يد يعجز الفنان : فن القلم وفن الريشة عن تصويرهـــا . وعلى ذكر سيدة الجوزة أقول : ان صديقي قيصر ضرب الحجـــر في الجوزة فاكل وأطعم الفن .

لست أقول لك ان الجميّل حاذق متقدم في فنه، متمكن من صناعته، فإذا عرفته ادركت مثلي انه فنان شكلاً ولحماً ودماً ، وإذا حدثته نَمَّ لك عن طبيعته الفنية مـــا يرويه من روائع الأدبين : الفصيح والعامي . فصاحبنا فنان في حركاته وابتساماته ورمزه وغمزاته .

كثيراً ما افتش عن الفكرة في فن اليوم، وقلما اجدها، فأكثر المحدثين قد اهملوها كأنما الشعر والتصوير كخيل الطراد ، السابق منهـا الجواد . اما الجميّـل فهو من المخضرمـين ، له جديد المحدثين وبديع القدماء ، فهو يدرس موضوعه درساً نفسياً ، ويحلله تحليلاً فنياً قبل ان يهبه الحيـاة ، ولذلك نرى في مسيحه بطلاً بين براثن الموت ، ثائراً متمرداً وراءه الآباد والازال ، لم يأخذ الموت منه ما وهبته له الحياة . ففي موته بلاغة ناصعة الوانها لا يدرك تاويلها إلا الراسخون في العلم ...

اشهد انني اعرف مسيح الجميّـل أين رأيته، ولا عجب فالفنان الأصيل

ابو روائعه ، وهل تختفي ملامح الآباء في الأبناء .
كان كلمة (حمل الله) بطلت من قاموس الجميّل ، فمسيحه بطل مغلوب على أمره ، ويا ويـــل الدنيا من الخالدين المغلوبين ، فغلبتهـــم انتصار وانكسارهم ظفر .

ان الوهاد الأزلية التي خلقها الجميّل في جسم مسيحه المسجّى تطل علينا منها آلاف المواعظ ، وفي رؤيتها غناء عن سماع تلك . السيد غلب وذاق حتى الموت موت الصليب ، ولكن صرامة شفتيه تعبر لنا حلمـــه بالغلبة والانتصار ، ولكنه في كل حال حلم مفرط في الآلام تحاول الأمومة المفجوعة بالشباب تفسيره فتحار فيه . تنحني العذراء مريم أم يسوع فوقه مفتشة بألف عين عن الحياة الضائعة فلا تجدها، وتحاول ان تبثها فيه من عينيها فلا تفلح ، كأني بها لم تصدق انه مات ...

ـ صبراً يا سيدتنا ، ان حبة الحنطة ان لم تمت لا تعش هكـــذا قال ابنك ، وستأتيك الجدلية بالخير بعد غد .

ليس للمقاييس قيمة في نظر الجميّل فهو يرسم كأنه يخربش، ويصور كأنه يدهن ، ريشته مكنسة ، وهندازه ذوقه ، وبركاره عيناه ، ومن بين منفرجها تخرج الخطوط متناسقة متوازية ، ونكتة فنه انـــه من ذوي الوزارتين ، يتذوق الأدب إلى حد بعيد ، ويكتب كأديب مثقف ، ولا غرو فالأدب والتصوير أخوان . بل هما كتاب الجمال والحق في مجلدين .

ولنعد أيضاً إلى يسوع واحة الفن الخالدة . مات السيد فكان وليمة أزلية أين منها الأرغفة السبعة ... صار جسده مأكلاً حقاً ، ودمه مشرباً

حقاً ... اما الفن وهو من أبناء المعاني ، فكان قنوعاً فجعل مادبته ذكرى حياته ، وخصوصاً ماساة موته حديث الانسانية الخالد . ولقيصر الجميل، خصوصاً ، مرعى خصيب في حقل يسوع ، فصديقنا رضع حب المخلص مع حليب أمه. فتلك الأم التقية الصالحة تحوط ابنها باسم الصليب المقدس كل ليلة ، ولا يهنأ لها نوم ان لم تفعل ، فقد تخشى على وحيدها من التوابع والزوابع وهي لا تدرى ان قيصرها زوبعة . اما جدوده الجميليّون فلم تشب دمهم المسيحي شائبة ، وهذا ما ورثه عنهم فتاهم فهو لا يتخيل ابن الله إلا كما رسموه له ، أو كما رآه فيهم فيجيء مسيحه لبنانيـــاً يجمع إلى السذاجة تلك القوة الصارمة التي تخلق منه رجلاً غير عبراني ، عضلات مفتولة تدل على انه نبت عند مغارة افقا أو نبع قاديشا ...

افتش عن العظمة في يسوع فلا أجدها في الإله بل في الإنسان منه ، والفن تمجيد للانسان ، وكي نمجد الله يمثله لنا الفن بصورة الانسان ، ثم يخلع عليه ما يخلع من خير سيماء النـاس ، ويستنبط من يستنبط من المثل العليا ، والفنان بل كل ذي رسالة خالد ومخلد بما يعبر عنه .

دع الابداع الوسط الذي يمـــلأ الأسواق ، فالخلق في الفن خير من الواقع ، فليكن وكدنا الخلق البديع . ان فن التصوير عندنا رسماً كان أو نحتاً ، سار في طريق الجديد ، وقد يكون أفلح أكثر من الأدب لندرة الفنانين وكثرة المتادبــين ، وبلية الأدباء هؤلاء الذين لا يعدون العشرة فيلقون جيفهم على قارعة الطريق .

قلت ان الفن التصوير قد شمر وعدا وان استراح فتحت عين الشمس.

من كان قبل اليوم ينفق الوقت والمال ليصور رجـــلاً أو مشهداً عاديين لا معنى لهما في نظر الارستقراطيين ؟ فالأدب الشعبي استيقظ ثم مـات مع الجاحظ ، إلى ان بعث منذ أعوام ، والتصوير خرج عندنا منذ سنين من عتمة الكنائس والقصور إلى الأكواخ والغابات والجداول يحمد الله على الحرية والنور .

ان الفكرة التي يهملها اليوم الفن الحديث تحل المحل الأولْ في مسيح الجميّـل الميت ، وكذلك في صوره (مسيحه) الشاب ، فهــو ليس ممن يحولون لك خدهم الأيسر إذا ضربتهم على الأيمن... والدرس النفسي الذي يتجلى لنا في مسيح الجميّـل الشاب فما فارقـه قط وهو ممدد على الأرض في سفح جبـل صهيون ، وستزعم زعمي إذا قدر لك ورأيت هـذه الصورة الطريفة التي هي بدعة جديدة في الفن ، في الاسلوب والتلوين ، ألوانـ- خلقها المؤلف من المعادن فلاءم الكساء ذلك الهيكل الخالد ، ألوان تبصّ .

قال الجميل مؤلفها انها من (اللاك) فهمهمت كمن فهم ولم استقص . وما كانت الألوان قط حقيقة لا غبار عليها ، بل هي كلمات الفن للتعبير عما في نفوس أصحابه ، هي جمال الذكورة والأنوثة ، وخلق فتنة واغراء غايتها بقاء النوع الذي نعبر عنه في لغة الأرواح بالخلود .

انظر إلى القمم التي تحرس الإله الراقـــد ، ترَ الجميّـل انصف شاعر الجليل الأبدي فخلد إلى جانبه محيطاً عز عليه الانفصال عنه ، مع انـــه عائد إلى أبيه السماوي ، فصرخ إذ تذكره : يا ابتاه نجني من هذه الساعة . ثم لا تنس تلك القمة الخالدة التي خلقهـا الفنان من كتف ستنا مريم

فكانت متممة لهذه الصورة بل لهذا (الكلّ) الني ينطق بالسنة عديـدة كالتلاميذ في العليّـة. وانظر إلى الصخر المشقّق فقد يكون رسمه الجميّـل تتميماً للكتاب ... فما أجمل المصطاف والمتربع في أقاليم حياة يسوع .

قد ينكر أصحاب المقاييس كتف مريم الضخمة ، ولكن الكتف التي حملت (حامل خطايا العالم)... لا تتجاوز المقدار مهما غـــالا المصور ، فالذهن يكذب فيها العين فتبطل المقاييس وتتعطل المصطلحات ... وإذا رأيت ذراع يسوع ضخمة ، فـلا تنس انها ذراع الرب ... ناهيك ان مقاييس الجميل هي مـا اقتضاه التوازن ، والجمال اتزان وملائمة . وإذا اغرتك كما اغرتني هذه اللوحة وتبحرت في معانيها فلا تسال عن النبات القائم حول الشهيد فالكتاب قد تم في نيسان ...

وبعد فلا تتعجب ان رأيتني بين نقدة التصاوير فقبلي قد تنبأ شاول، فإن اعجبتك نبوّتي فاثن عليّ بما أنا أهله ، وإلا فباستطاعتك ان تقول لي ما قال ذاك المصور للاسكاف : احصر كلامك في الحذاء . أمـا أنا فاقول لك كلّ الدروب تؤدي إلى الطاحون ، ونحن نقوّم الفن بمـــا يلهمنا إياه الذوق ، وان قال قبلنا تولستوي : ليس الفن متاعاً أو لذة أو ألهيَـة ، بل الفن عضو حياتي في الانسانية ينقل إلى حقل العاطفة ادركات العقل .

ويتوقع الفيلسوف الأكبر ان يخلق الفن بين الناس الوحدة العامـة الشاملة ويمحو الجاهلية والعسف والاكراه .

حاشية ــ ان جولتي في منطقة (اصدقاء الفن) كانت على قدر وقتي في تلك الساعة من عام ألف وتسعماية وأربعين ، فلم اتجاوز ، غرباً ، مسيح

الجميّل ، ولم اتعدّ ، شرقاً ، تصميم الحويك ، فللفنانين الآخرين ثنائي العاطر ، فبينهم من عرفت فضله واقدر نبوغة كالأستاذ مصطفى فروخ – ولكن ما نفع الثناء والاطراء ، اهكذا تستثار همم أصدقاء الفن ؟!

ان ما نكتب من تقريظ ونقد هو نقد غـــير رائج في السوق ، ولا يصلح رأس مال للتبضّع : لشراء القماش والدهان وجميع حوائج النحت والتصوير ، ولكن هناك نقداً آخر مكتوب عليه (تدفع لحاملها شكاً على باريس ، أو لندن) . امـا أوراق (عفاريم ، برافو كويّس كثـير) فلا تمكن صديقنا الفنان من عشا ليلة .

اللهم ، لطفاً باقرب عبيدك اليك . يمثلونك لعابد المال فترتاح نفسه المتبرمة ، وينفتح صدره وتنبلج أسرّته المعبسة كوجه صندوقه ، ولكن يده تظل كالدبوس ، وشعاره لا يزال إياه : صوب الكيس لا تقرب .

هذا ظن يشبه اليقين ، ولعلي اسمع ان فلاناً الفلاني دفع كذا وكذا تعويضاً مما انفقه أصدقاء الفن في سبيل عرض روائعهم التي حسنت ظن الناس بنـــا .

فهل من يكذبني .

فهرست القسم الأول

سبل ومناهـــج

الموضوع	صفحة
هـــذا مذهبي	٩
التكوين الوطـــني	١٣
اعيادكم بغضتهـــا نفسي	١٨
اذنان ولسان واحـــد	٢٣
الابتسامة رأس مـــال	٢٩
الفقر ســـلم المجد	٣٤
الدين ايمـــان وعمل	٣٩
اتكل على نفسك	٤٤
كمال العـــلم بالحلم	٤٩
سير العظام تخلق العظائم	٥٥
نحو عـــالم أفضل	٥٩
الحـــظ أعمى	٧٠
العـــام الجديد	٧٥

الموضوع	صفحة
عداوة المهنـــة	٨٠
بـــين الأذن والفم	٨٥
مشاهـــدات	٩٠
نمـــاذج شتى	٩٤
أكلة لحوم البشر	٩٩
الصبر مفتاح الفرج	١٠٤
مختصر مفيـــد	١٠٩
المطالعة غـــذاء الموهبة	١١٥
حارب على جبهة واحدة	١١٧
إلى كل امـــرأة	١٢٢
طيش الأمهـــات	١٢٧
اشبعوه على الأقـــل	١٣١
مأوى عجـــزة	١٣٥
محل الامتحانات الرسمية	١٣٩
بواريـــد فاضية	١٤٦
المستقبل لا يرتجـــل	١٥٠
الدواء في الثكنة	١٥٧
كنيسة العـــلم والثقافة	١٦٢
فتش عن ذاتـــك	١٦٧
الأدب الحـــق	١٧٢
التدقيـــق	١٧٧
الأخلاق ضمان جماعي	١٨٢
الرجل ابن البيت والبيئة	١٨٦

الموضوع	صفحة
بــلا عنوان	١٩١
البكالوريا بين المعلم والطالب	١٩٥
متى تستوي الطبخة	٢٠٠
إذا هبت رياحك فاغتنمها	٢٠٥
موسم الرحمـة	٢٠٩
كن لطيفـاً	٢١٠
أتكون آلة تـدار	٢١٨
ان الجـد متبدر	٢٢٢
شعرة من شواربك	٢٢٧
أزمـة التربية والتعليم	٢٣٠
وجوه بـلا ماوية	٢٣٤
ما أحلى أيام المدرسة	٢٤٠
عمودا البيت	٢٤٥
الشباب التائـه	٢٥٠
العفو حبيب الله	٢٦٠
كتم السر فـلاح	٢٦٥
إلى جنـدي	٢٧٠
الميـلاد	٢٧٥
إلى رجـل الغد	٢٨٠
أفقره عقـله	٢٨٧
ضلال الآباء والأبنـاء	٢٩١
هـذا أوان الشد	٢٩٥

فهرست القسم الثاني

حبر على ورق

الموضوع	صفحة
حبر على ورق	٣١٣
صندويش	٣١٧
الاونسكو وانتاجنا الأدبي	٣٢١
بقرة وعنزة	٣٢٤
شبابنا الحائر	٣٣١
شهوة الحكم	٣٤٣
الدنيا واسطة	٣٥٢
لا يحولون ولا يزولون	٣٦٠
سوس وقراد	٣٦٦
اقطاعية برلمانية	٣٧٠
كاميس في البيداء	٣٧٦
حساب الحمص	٣٨١
على هامش جلسة الثقة	٣٨٥
من أين لك هذا	٣٩٥
دجاجة الاستقلال	٣٩٨
بق البحصة يا شماس	٤٠١
أصيل لحود	٤٠٦
فوضى الفياشين	٤١١
الجنود سياج الدولة	٤٢٤

الموضوع	صفحة

سيكي الكلب البوليسي	٤٣٤
ديك يصلي ليلة عيد الميلاد	٤٤٤
صاحبنا الصيف	٤٥٠
ارفس الحواجز وامرق	٤٥٩
كوافيرنا	٤٦٦
عثمان ومعاوية وأبو ذر	٤٧٧
اوانسنا وعوانسنا	٤٨١
بمناسبة العام الجديد	٤٩٢
موسم المقامرة	٥٠٠
رسالة إلى السماء	٥٠٤
كنوز مرصودة	٥١٤

فهرست القسم الثالث

آخر حجر

في العجلة السلامة	٥٢٩
المرض الأكبر	٥٣٤
شبابك على قدر طاقتك	٥٤٠
طريق الفلاح	٥٤٧
احذروا الغضب	٥٥٢

الموضوع	صفحة
الأكواخ منابت العباقرة	٥٥٧
مصرع العدل والمحبة	٥٦٣
من وحي الأعيـــاد	٥٧٢
مـــع الشمس	٥٧٧
إلى اخواني الطـــلاب	٥٨٣
كيف تصبح رجـــلا ناجحاً	٥٩٠
التربية الوطنية في لبنان	٥٩٨
ومن لا يكرم نفسه لا يكرم	٦٠٣
إلى الراسبين في الامتحان	٦١١
النام عـــدو السلام	٦١٨
على أبواب المدارس — حكاية مزارع —	٦٢٤
العائـــلات المستورة	٦٢٩
على بوابـــة مدرسة	٦٣٤
تشرين الأول	٦٣٩
إلى الشباب المثقف	٦٤٤
التشبه آفتنا الكبرى	٦٤٩
هـــل من يعتبر	٦٥٥
بصراحـــة	٦٦١
حول امتحان البكالوريا	٦٦٤
خطـــرات	٦٦٨
خطرات — ٢ —	٦٧١
نحو حيـــاة أفضل	٦٧٤
صور ومشاهـــد	٦٧٧

الموضوع	صفحة
علمتني الحيـــاة	٦٨٣
الشجر تتهم البشر	٦٨٦
قصة السعادة	٦٩٢
إلى المـــرأة	٧٠٠
حفـــلة ناشفة	٧٠٦
لوحـــة الجيل الخالدة	٧١١